رسائل طيف الخيال في الجد والهزل

للشريف المرتضى علي بن الحسين بن موسى العلوي
المتوفى ٤٣٦ هـ

والأديب بهاء الدين عيسى بن عبد الله المنشئ
المتوفى ٦٨٣ هـ

والأديب شمس الدين أبي عبد الله محمد بن دانيال
المتوفى ٧١٠ هـ

تحقيق
سيد كسروي حسن

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

رسائل
طيف الخيال في الجد والهزل

للشريف المرتضى علي بن الحسين بن موسى العلوي

المتوفى ٤٣٦هـ

والأديب بهاء الدين عيسى بن عبد الله المنشئ

المتوفى ٦٨٣هـ

والأديب شمس الدين أبي عبد الله محمد بن دانيال

المتوفى ٧١٠هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title: **RASĀʾIL ṬAYF AL-ḪAYĀL**
(Three books in apparition)

Classification : *Literature*
Author : AL-ŠARĪF AL-MURTAḌĀ
and: BAHĀʾUDDĪN AL-MUNŠIʾ
and MUḤAMMAD IBN DĀNYĀL
Editor : Sayyid Kisrawi Ḥasan
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 392
Year : 2009
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب: رسائل طيف الخيال
في الجد والهزل
التصنيف : أدب
المؤلف : الشريف المرتضى
وبهاء الدين المنشىء
ومحمد بن دانيال
المحقق : سيد كسروي حسن
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 392
سنة الطباعة: 2009
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة :الأولى

ISBN 978-2-7451-5609-9
ISBN 2-7451-5609-8
9 782745 156099 90000

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الطبعة الأولى
٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى: كل من سئم من الرتابة في الحياة.

إلى: كل من أصابه الملل من القراءة الجادة.

إلى: كل من أراد فسحة خارج منطقة الجد برهة.

إلى: كل من أراد أن يمزح ويمرح بغير ملام.

إلى: كل من أراد أن يعرف قيمة ما هو فيه
من نعمة الهدى والصلاح.

أقدم هذا الكتاب

سيد كسروى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمـــد لله... ثم الحمـــد لله... ثم الحمد لله خلق الإنسان وفضله بالعقل على سائر الكائنات فسخرها له منذ وطئه الأرض إلى الممات، وجبله على قدرة التخيل والتفكر في ســـائر المخلـــوقات بـــل وإلى ما وراء الموجودات، ومنحه طاقة غريبة على استحضار المرادات، وكأنها ماثلة أمامه كالمشاهدات المحسوسات.

وأشهد أن لا إله إلا الله عوض عن المفقودات بالأماني والتخيلات، فكان ذلك منه جبراً للمعاشات واستدراكاً للماضيات.

وأشـــهد أن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ أخبرنا بالغيبيات فكانت أمامه أصدق وأيقن من المـــشاهدات الملموســـات، ووصف لنا نعيم الجنات وحببها إلينا، وعرفنا بما فيها من المبهـــرات والمسرات بما شرح الصدور وكأننا نعيش فيها حيات الساكنين لها والمتبوئين منها الروضات.

ووصـــف لـــنا الـــنار وخوفنا منها خوف من عاينها ودخلها وأحس لسعها وألمها وغصص مشروبها ونكارة مطعومها وأزعجه قبيح منظرها فأشعرنا وكأننا نسمع من أهلها الصرخات والتأوهات فَسَلِّم اللهم منها ومن كل المنغصات والمهلكات.

أما بعد:

فإن حديثنا اليوم عن الخيال وطيفه وما كُتب عنه وما تخيله أهل الأدب والشعر، والبلاغة، والفصاحة، والشيوخ الأتقياء، والسفهاء الهازلين، والخلعاء الماجنين، وأهل اللغة وقد كان لأهل اللغة في الطيف أقوال فمنهم من قال: أن الطيف هو الخيال نفسه، ومنهم مـــن جعل الطيف غير الخيال، ومنهم من جعل طيف الخيال هو ما ألم بالنوم، ومنهم من جعلـــه الجنون أو المس، وعلى سبيل المثال أذكر بعضاً مما جاء في لسان العرب في هذا الخـــصوص ففي مادة طيف يقول: طيف الخيال مجيئة في النوم، وطاف الخيال يطيف طيفا ومطافاً: ألمَّ في النوم.

والطَيف والطَّيفُ: الخيال نفسه، والطَّيفُ: المس من الشيطان، وهما بمعنى.

ويقال: طاف يطيف ويطوف طيفاً وطَّوفاً فهو طائف ثم سُمِّيَ بالمصدر، ومنه طيف الخيالى الذي يراه النائم.

ويقـــول صاحب اللسان أيضاً في مادة خيل: تَخَيَّلَ الشئ له: تشبه به، وتخيل له أنه

كـــذا أي تـــشبه وتخايل، يقال: تخيلته فتخايل لي، كما تقول: تصورته فتصور، وتبينته فتبين، وتحققته فتحقق.

والخيالُ والخُيَالَة: ما تشبه لك في اليقظة، والحُلُم من صُورة، قال الشاعر:

فلـــــست بـــــنازلٍ إلا ألمـــــت برحلـــي أو خيالـــتها الكـــذوب

وقيل: إنما أنث على إرادة المرأة.

والخيال والخيالة: الشخص، والطيف.

ورأيـــت خياله أو خيالته: أي شخصه وطلعته من ذلك. وفي التهذيب: الخيال لكل شـــئ تراه كالظل، وكذلك خيال الإنسان في المرآة، وخياله في المنام صورة تمثاله، وربما مربك الشئ شبيه الظل فهو خيال. يقال: تخيل لي خياله.

هذا بعضاً مما قالوه في الطيف والخيال، ثم أنا أضع بين يديك الآن رسائل تتناول هذا الموضوع من الناحية الإبداعية إحداها: لرجل عابد زاهد رمز من رموز الشيعة المرموقين الذين انبثقت عنهم الصوفية الشائعة، ومعروف مدى تعلق هؤلاء الشيعة بآل البيت ومدى قدرتهم على الحب والعشق، ووصفهم له في أشعارهم ونثرهم ورجزهم وسجعهم، وهو الشريف المرتضى علي بن الحسين بن موسى القرشي، العلوي، الموسوي.

والثانية: لرجل عرف بالأدب والشعر والنثر والإنشاء وهو بهاء الدين عيسى بن عبد الله المنشئ، الإربلي، الأديب.

والثالـــثة: لـــرجل عرف بالأدب كذلك والشعر والنثر، والطب وهو: شمس الدين محمد بن دانيال أبو عبد الله، الكحال، الموصلي.

وإذا تحدثـــنا عن هذه الكتب الثلاثة أو الرسائل الثلاثة فإنها إجمالاً تدور حول هذا الموضوع وأما تفصيلاً فكتاب طيف الخيال للشريف المرتضى تناول الموضوع من جانب واحـــد على الخط العام أو الرئيسي فقد اتخذ الخط الغالب على هذا الموضوع وهو خط الحب والعشق والوله وتناول الموضوع بهذه الطريقة من تخيل محبوبه سواء كان رجلاً أو امـــرأة وأخذ يطريه ويثني عليه ويستجلب خياله ويناقشه ويسامره ويعتب عليه ويلومه، ويضاحكه، ويباكيه، ويرثيه، وهكذا إلى أن فرغ من الكتاب وأخذ من شعر أخيه ونسب ذلـــك لأخيه وأجاد في أشعار وكان دون المستوى في أخرى وهزل في بعضها وجد في البعض الآخر وهكذا.

أما المنشئ: فقد جاءت رسالته بين المرتضى وابن دانيال حيث جمع فيها بين الشعر والنثر وقد وازن بينهما وساق رسالته.

وأمـــا ابن دانيال: فقد جاءت رسالته عبارة عن مسرحية شعرية فكاهية مقسمة إلى ثلاثـــة فـــصول لعب فيها الدور الأساسي الدواب أو الحيوانات بأنواعها، واشتقت أسماء شخصياتها البشرية من صفاتها الحيوانية هذا في الفصل الأول.

أما الثاني: فتناول فيه أحوال الغرباء المحتالين وبنى ساسان والأدباء القوّالين.

وأمـــا الثالث: فجعله في العشق والعشاق والمحبين والغزل وسحر البيان، وطرق من الملاعـــب والمجون وهو دائر بين يتيم وصائغ عاشق متيم به، وأبطال القصة أو المسرحية الخيالية كلهم حيوانات وطيور أيضاً كما هو الحال في الفصل الأول.

وبعـــد هذا القول الموجز عن طيف الخيال ورسائله هذه يعن للقارئ سؤال هام ألا وهـــو: مـــا هو الغرض من تحقيق هذه الكتب الثلاث؟ والإجابة عن هذا السؤال هي: الترويح عن النفس فإن نفس الإنسان وخصوصاً الإنسان المثقف تحتاج من حين إلى آخر إلى نـــوع من الفسحة والشرود والخروج عن عالم الجديات إلى شئ من السلوى والمرح والهزل البريء الذي لا إتهام فيه ولا حدّ ولا تعزير، وإنما هو بجرد خيال في خيال، فلاغيبة فـــيه لأحد، ولا انتهاك لحرمة من حرمات الله مادية ولا معنوية فقد حفظ الكتاب حاسة السمع عن سماع الخنا، وحفظ العين عن مشاهدة المحرمات، وحفظ البدن عن الحدود، فلا عقوبة بدنية ولا معنوية على القارئ أو المتناول هذه الأمور.

ولا شطط ولا شطح كما شرد وشطح وقال: على من فعل العادة السرية بأنه يجلد ظله، فهذا شرود وتشدد وشطح وخبل حقيقي وضياع لمقصد الشارع من الشرع.

وكـــذا عـــندما قامت الدنيا ولم تقعد أيام فتنة خلق القرآن حيث انتهت على أرجح الأقوال عندما دخل على الواثق رجل وعزاه في وفاة القرآن وعندها أدرك خطأ قوله بذلك دحض هذه الفتنة وتركها.

فالإسلام يدعونا دائماً إلى استعمال العقل والفكر، ويدفعنا إلى التأمل والتدبر والنظر في الكونيات من حولنا حتى نصل إلى مراد ربنا من خلقنا.

ولاينافي هذا الكتاب الأثر القائل: بأن يكون صمتي فكراً ونظري عبراً ونطقي ذكراً فهذه دعوة إلى المثالية التي يرجو أن يكون عليها المؤمن، ولكن من هذا الملاك الذي لن تشرد نفسه فتكون كل حياته جادة، وهو يتمشى كذلك مع الأثر القائل: ساعة وساعة.

وليس معنى كلامي هذا أن يكون هذا الفكر هو المظلل على حياتك الشاغل لفكرك، ولكـــن هـــذا كتاب بين بلايين الكتب التي تتناول الحياة الجادة الهادفة، والحياة الجنسية للإنـــسان جزء لا يتجزء من حياته ولكن ليس هو المسيطر عليه سيطرة شاملة -وإن كان

من أهم مكوناته وأسباب وجوده في هذا الكون-وإلا لفسدت بأكملها وما عَمُرَ الكون وصارت فيه المصانع والمزارع والمراكب والمتاجر وكل ما هو نافع للبشر الذين هم نتاج هذه العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة من الطريق المشروع المحبوب المقبول.

وعادة المثقف أنه عندما تشرد نفسه فإنها تشرد من كتاب إلى كتاب ومن فكرة إلى فكرة، فأحببت أن يجد في هذا الكتاب شيئاً من السلوى والمرح بعيداً عن هزل الهازلين أو تطاول المتطاولين أو أذى المؤذين وأن يعرف كيف يفكرون وفيما هم لاهون فمعظم ما يجده هنا مسطور هو في حياتهم مفعول ومهما تقزز من هذه الصور فإن مثلها موجود في حياة الناس الهازلين الماجنين بل وأشد منها بكثير، فيعرف واقع هؤلاء الناس دون أن يقترف أو ينحرف.

فاللــــهم وفقنا إلى الهدى والصلاح وجنبنا الضلال والطلاح إنك على ما تشاء قدير واختم لنا بخير ختام يا رب الأنام.

والآن أشــــرع في سرد تراجم أصحاب الرسائل الثلاث على حسب وفياتهم فالأقدم وفاة ثم الأحدث فالأحدث والله الموفق للصواب.

ترجمة الشريف المرتضى

اسمه: علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[1].

كنيته: أبو طالب، وأبو القاسم.

نسبه: القرشي، الموسوي، العلوي، البغدادي، الشيعي، النقيب.

الشهرة: المرتضى، ذو المجدين.

ميلاده: ولد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

وفاته: توفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة، يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول، ودفن في داره عشية ذلك اليوم.

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء:

هو جامع كتاب " نهج البلاغة " المنسوبة ألفاظه إلى علي بن أبي طالب ﷺ، ولا أسانيد لذلك وبعضها باطل، وفيه حق، ولكن فيه موضوعات حاشا الإمام من النطق بها، ولكن أين المنصف؟

وقيل: بل جمع أخيه الرضي.

وديوان المرتضى الكبير، وتواليفه كثيرة، وكان صاحب فنون. وكان من الأذكياء الأولياء المتبحرين في الكلام والاعتزال، والأدب والشعر، لكنه إمامي جلد، نسأل الله العفو.

---

(١) انظر ترجمته في:

ديوان الإسلام (ت: ١٨٧٠)، سير أعلام النبلاء(١٧/ ٥٨٨)، تاريخ بغداد(١١/ ٤٠٢)، جمهرة أنساب العرب(٦٣)، دمية القصر(١/٢٩٩)، المنتظم(٨/١٢٠)، معجم الأدباء(١٣/١٥٧)، إنباه الرواة(٢/٢٤٩)، الكامل في التاريخ(٩/٥٢٦)، تتمة اليتيمة(١/٥٣)، وفيات الأعيان(٣/٣١٣)، الذريعة(٢/٤٠١)، المختصر في أخبار البشر(٢/١٦٧)، تاريخ الإسلام وفيات سنة (٤٣٦هـ)، العبر(٣/١٨٦)، ميزان الاعتدال(٣/١٢٤)، دول الإسلام(١/٢٥٨)، تلخيص ابن مكتوم(١٣٤)، تتمة المختصر(١/٥٢٧)، عيون التواريخ(١٢/٢٠٤)، الوافي بالوفيات(خ١٢/٤٠)، مرآة الجنان (٣/٥٥)، البداية والنهاية(١٢/٥٣)، لسان الميزان(٤/٢٢٣)، النجوم الزاهرة(٥/٣٩)، بغية الوعاة(٢/١٦٢)، منهج المقال(٢٣١)، منتهى المقال(٢١٤)، تنقيح المقال(٢٨٤)، نزهة الجليس (٢/٣٧٣)، فهرست الطوسي(٩٧)، كشف الظنون(٧٤٨)، شذرات الذهب(٣/٢٥٦)، روضات الجنات(٣٨٣)، كتاب الرجال(١٩٢)، إيضاح المكنون(١/٥،١٣٦)، هدية العارفين(١/٦٨٨)، تذكرة المتبحرين(٤٨٦)، الدرجات الرفيعة(٤٥٨)، أعيان الشيعة(٣١/١٨٨).

قال ابن حزم: الإمامية كلهم على أن القرآن مُبَدَّل وفيه زيادة ونقص سوى المرتضى، فإنه كَفَّرَ من قال ذلك، وكذلك صاحباه أبو يعلى الطوسي، وأبو القاسم الرازي.

قلت: وفي تواليفه سب لأصحاب رسول الله ﷺ ، فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

وقال ابن العماد في شذرات الذهب في وفيات سنة ست وثلاثين وأربعمائة: وفيها الشريف المرتضى نقيب الطالبين وشيخ الشيعة ورئيسهم بالعراق.

وكان إماماً في التشيع والكلام والشعر والبلاغة كثير التصانيف متبحراً في فنون العلم أخذ عن الشيخ المفيد.

وروى الحديث عن سهل الديباجي الكذاب. وولي النقابة بعده ابن أخيه عدنان بن الشريف الرضي.

قال ابن خلكان: كان إماماً في علم الكلام والشعر والأدب وله تصانيف على مذهب الشيعة ومقالة في أصول الدين، وله ديوان شعر إذا وصف الطيف أجاد فيه، وقد استعمله في كثير من المواضع، وقد اختلف الناس في كتاب « نهج البلاغة » المجموع من كلام علي ﷺ هل هو جمعه أو جمع أخيه الرضي، وقد قيل: إنه ليس من كلام علي ﷺ ، وإنما الذي جمعه نسبه إليه هو الذي وضعه والله أعلم، وله الكتاب الذي سماه الدرر والغُرر وهو في مجالس أملاها تشتمل على فنون في معاني الأدب تكلم فيها على النحو واللغة وغير ذلك، وهو كتاب ممتع. يدل على فضل كثير وتوسع في الاطلاع على العلوم.

وقال ابن بسام في آخر كتاب الذخيرة: كان الشريف إمام أئمة العراق على الاختلاف والايفاق، إليه فزع علماؤها وعنه أخذ عظماؤها، صاحب مدارسها وحمى سالكها وآنسها، ممن سارت أخباره وعرفت به أشعاره، وحمدت في ذات الله مآثره وآثاره إلى تواليفه في الدين، وتصانيفه في أحكام المسلمين مما يشهد له أنه فرع تلك الأصول ومن ذلك البيت الجليل.

وكانت ولايته في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

قلت: وقد جمعت ما وقفت عليه من أسماء كتبه في هامش ديوان الإسلام فكانت على النحو التالي:

١-البرق(ديوان البرق).
٢-الشيب والشباب(الشهاب).
٣-إيقاظ البشر في القضاء والقدر.
٤-تفسير سورة الفاتحة.
٥-الآيات الباهرة في العترة الطاهرة.
٦-تفسير سورة البقرة.

٧-تتبع أبيات المعاني التي تكلم عنها ابن حبان.

٨-غرر الفرائد ودرر القلائد (في المحاضرات).

٩-النقض على ابن جني في الحكاية والمحكى.

١٠-تقريب الأصول بالمعرفة.

١١-ديوان شعره (يقال في عشرين ألف بيت).

١٢-التنزيه(في عصمة الأنبياء).

١٣-طيف الخيال(وهو كتابنا هذا).

١٤-جمل العلم والعمل. ١٥-الذخيرة(في الأصول).

١٦-دليل الموحدين. ١٧-الذريعة(في أصول الفقه).

١٨-الرد على يحيى بن عدي ١٩-الشافي (في الإمامية).

٢٠-الرموق في أوصاف البرق.

٢١-طبيعة المسلمين. ٢٢-الانتصار(في الفقه).

٢٣-الطرفة(في اعجاز القرآن).

٢٤-المسائل الناصرية(في الفقه).

٢٥-الفقه الملكي.

٢٦-كتاب الأحراز والرقي.

٢٧-تفسير قصيدة المذهب(في شرح قصيدة للسيد الحميري).

٢٨-كتاب المصباح(في فقه الشيعة).

٢٩-الرسائل.

٣٠-كتاب الوعيد.

٣١-مقدمة في أصول الاعتقاد(ورقتان).

* * *

اسمه: عيسى بن عبد الله[1].

نسبه: المنشئ، الإربلي، الشاعر.

لقبه: بهاء الدين.

الشهرة: بهاء الدين المنشئ.

وفاته: توفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

وقد ترجم له ابن العماد في شذرات الذهب في وفيات سنة ثلاث وثمانين وستمائة ترجمة موجزة قال فيها: وفيها: الصدر الكبير المنشئ بهاء الدين بن الفخر عيسى الإربلي له الفضيلة التامة، والنظم الرائق، والنثر الفائق، صنف مقامات حسنة، ورسالة الطيف، ومن شعره:

أي عذر وقد تبدى العذار ... أن ثناني تجلد واصطبار

فأقلا إن شئتما أو فزيدا ... ليس لي عن هوى الملاح قرار

هل مجير من الغرام وهيهات ... أسير الغرام ليس يجار

يا بديع الجمال قد كثرت فيك ... اللواحي وقلت الأنصار

وله:

ما العيش إلا خمسة لا سادس ... لهم وإن قصرت بها الأعمار

زمن الربيع وشرخ أيام الصبا ... والكاس والمعشوق والدينار

وله فيه:

إنما العيش خمسة فاغتنمها ... واستمعها بصحة من صدوق

من سلاف وعسجد وشباب ... وزمان الربيع والمعشوق

وترجم له الأستاذ عمر كحالة في معجم المؤلفين فقال: أديب، ناثر، ناظم، من

---

(١) من مصادر ترجمته:

معجم المؤلفين(٨/٢٨)، إيضاح المكنون(١/٨٠)، شذرات الذهب(٥/٣٨٣).

آثاره:

-أسماء اللآلي(في الأدب). -وله شعر.

قلـــت: ورسالة الطيف التي بين أيدينا الآن وقد أشار إليها ابن العماد فيما سبق من ترجمته.

* * *

ترجمة ابن دانيال

اسمه: محمد كنيته دانيال بن يوسف(١).

كنيته: أبو عبد الله.

نسبته: الخزاعي، الموصلي، الكحال، الحكيم، المصري، الأديب، الشاعر.

لقبه: شمس الدين.

شهرته: ابن دانيال الكحال.

ولد سنة: (٦٤٧ هـ) وقيل: (٦٤٦هـ).

توفي سنة: (٧١٠هـ) في (١٢) جمادى الأخرة، وقيل: في ربيع الأول.

ترجم له ابن العماد في شذرات الذهب ترجمة موجزة في وفيات سنة عشر وسبعمائة فقال: وفيها الأديب، الخليع، الحكيم، شمس الدين محمد ابن دانيال مؤلف كتاب طيف الخيال، كانت له نكت غريبة وطباع عجيبة.

وصحبه ولد القسيس الملكي، وكان جميل الصورة فخاف والده عليه منه فكتب إليه ابن دانيال :

قلت للقسيس يوما	والورى تفهم قصدي
ما الذي أنكرت من نجلك	إذ أخلصت ودي
خفت أن يسلم عندي	هو ما يسلم عندي

ومن شعره:

ما عاينت عيناي في عطلتي	أشيم من حظي ومن بختي
وقد بعت عبدي وحماري وقد	أصبحت لا فوقي ولا تحتي

وقال الأستاذ عمر كحالة في معجم المؤلفين: حكيم، كحال، أديب، شاعر. ولد بالموصل، وأقام بالقاهرة، وتوفي بها في(١٢) جمادى الأخرة، ومن آثاره:

-أرجوزة عقود النظام فيمن ولي مصر من الحكام.

-ديوان شعر.

---

(١) ومن مصادر ترجمته: ديوان الإسلام(٩٥٢)، معجم المؤلفين(٩/٢٩٥)، الأعلام(٦/١٢٠)، هدية العارفين(٢/١٤١)، كشف الظنون(٨١٣ وغير ذلك)، شذرات الذهب(٦/٢٧)، البدر الطالع(٢/ ١٧١) الدرر الكامنة(٣/٤٣٤)، النجوم الزاهرة(٩/٢١٥)، الوافي بالوفيات(٣/٥١).

-طيف الخيال. (وهو كتابنا هذا)

قلت: وقد زدت على ذلك في هامش ديوان الإسلام: -كتاب المقصود(في التصرف).

وزاد ابن حجر في رفع الإصر عن قضاة مصر: كتاب«منظومة ابن دانيال».

وبعد ترجمتي هؤلاء الأعلام ومن هم في هذه المكانة العالية من العلم والسلطة يحضرني الآن قول الفخر الرازي عند احتضاره قوله:

نهاية إقدام العقول عِقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أنّا جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم من رجال قد رأينا ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا

وكم كم جبال قد علت شرفاتها ... رجال فماتوا والجبال جبال

فالله أسأل أن يختم لي ولزوجتي وسائر المسلمين بخير ختام بالموت على دين الإسلام إنه ولي ذلك والقادر عليه بكرمه وجوده آمين.

محققه: أبو إسلام

سيد كسروي حسن

القاهرة في يوم الجمعة:

١٧ من ذي القعدة ١٤٢٧هـ

الموافق ٨/١٢/٢٠٠٦م

منهج التحقيق

-نسخت المخطوطات الثلاثة.

-قومت ما بها من أخطاء لغوية أو إملائية.

-أضفت ما سقط من ألفاظ أو حروف أو عبارات وبينت ذلك في حينه.

-أضفت بعض العناوين وكان ذلك قليل جداً، وجعلت تلك الإضافات بين معقوفين، وأشرت إلى أن ذلك من عملي بالهامش.

-شرحت بعض الكلمات التي وردت ببعض الأبيات أو ثنايا الكتب وذلك من خلال لسان العرب.

-اكتفيت بشرح المرتضى للأبيات التي ذكرها حيث رأيت أنه من أقدر الناس على شرحها حيث أنه مؤلف معظمها وإن كان قد اختصر في الشرح.

-علقت في المخطوطتين الأخريين تعليقاً خفيفاً على بعض الأبيات.

-ترجمت للشعراء والأعلام الوارد ذكرهم بالمخطوطات الثلاثة إلا القليل النادر.

-عرفت بالبلدان الوارد ذكرها بالمخطوطات وإن كانت قليلة وذلك من خلال كتاب معجم البلدان.

-عرفت بالمخطوطات الثلاثة ووصفتها وحددت أماكن تواجدها وعدد أوراقها وما إلى ذلك من بيانات هامة.

قدمت للمخطوطات الثلاثة بمقدمة واحدة هي هذه المقدمة.

-أرفقت صور أول وآخر كل مخطوطة عقب المقدمة.

-ترجمت للشيوخ المؤلفين الثلاثة.

والله الموفق والهادي للصواب

وصف مخطوط بهاء الدين المنشئ

اسم المخطوط: رسالة الطيف.

اسم المؤلف: بهاء الدين المنشئ.

رقم المخطوط: ٢٣٩٣ ف:٦٣٧ س ١٦٢

اسم المكتبة الموجود بها المخطوط: أحمد الثالث.

اسم المكتبة الموجود بها صورة المخطوط: معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

رقم المخطوط بمعهد المخطوطات بالقاهرة: ٣٩٤.

نوع الفن: أدب

عدد الأوراق: ٥٠ ورقة.

عدد الأسطر في كل صفحة: ١١ سطر.

مقاس الصفحة: ١٣X١٨ سم.

عدد الكلمات في كل سطر: ٦:١٠ كلمة.

تاريخ النسخ: ٦٧٤هـ.

نوع الخط: نسخ جميل.

اسم الناسخ: ياقوت بن عبد الله المستعصمي.

مكان النسخ: بغداد

ملاحظات أخرى:

-بصدر صفحة الغلاف ختم تملك مكتبة أحمد الثالث باسطنبول: كبير ومستدير ونصه: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ثم توقيع السلطان داخل الختم.

-خاتم آخر مستطيل صغير بداخله بالحروف اللاتينية ثم رقم(١١١)، ورقم(٢٧٩٩).

-عنوان الرسالة ونصه: رسالة الطيف لبهاء الدين المنشئ.

-توقيع كبير بالتوقيع السلطاني أو مكتبة السلطان.

-ثم بذيل صفحة الغلاف من أسفل إلى اليسار ختم المكتبة أو السلطان وهو بيضاوي الشكل.

* * *

وصف مخطوط ابن دانيال

اسم المخطوط: طيف الخيال.

اسم المؤلف: ابن دانيال.

رقم المخطوط بمعهد المخطوطات: ٦٤٨ ف ٨٩٣ س ٩٨٧/٧٨٨.

نوع الفن: أدب

نوع الخط: نسخ نفيس.

عدد الأسطر في كل صفحة: ١٠ عشرة أسطر.

عدد الأوراق: ١٨٢ ورقة.

مقاس الصفحة: ١٣,٥ X ١٨ سم.

اسم المكتبة الموجود بها المخطوط: معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

تاريخ النسخ: ٨٢٨ هـ.

اسم الناسخ: محمد بن الخيام(الخياط) (الخباب) الصالحي، المولوي، السيفي، طشبغا، التمرباي، الملكي، الأشرفي.

الآمر بالنسخ: برسم الخزانة الكرامية الصالحية المولوية الأميرية.

ملاحظات أخرى: نسخة تامة = الكبيرية الناصرية العالية المولوية الأميرية.

وصف مخطوط الشريف المرتضى

اسم المخطوط: طيف الخيال.

اسم المؤلف: الشريف الرضي.

صواب اسم المؤلف: الشريف المرتضى.

رقم المخطوط: (١٠٣١٣ز).

مكان وجود المخطوط: الأسكوريال.

مكان وجود مصورة المخطوط: دار الكتب المصرية بالقاهرة.

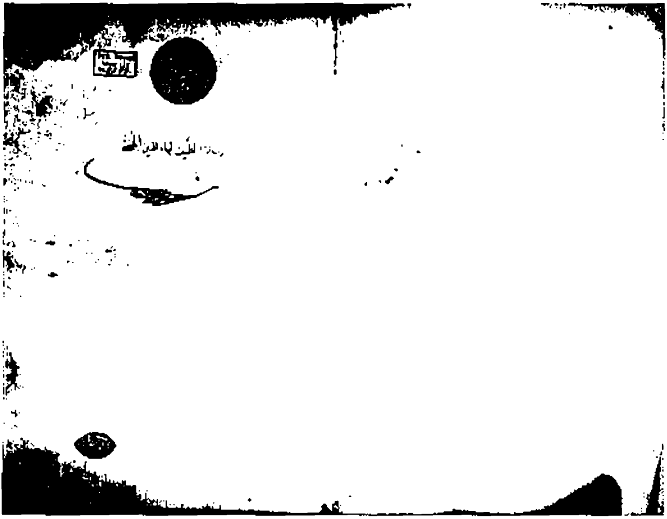
عدد الصفحات: ٢٠٨ صفحة.

نوع الخط: نسخ جيد.

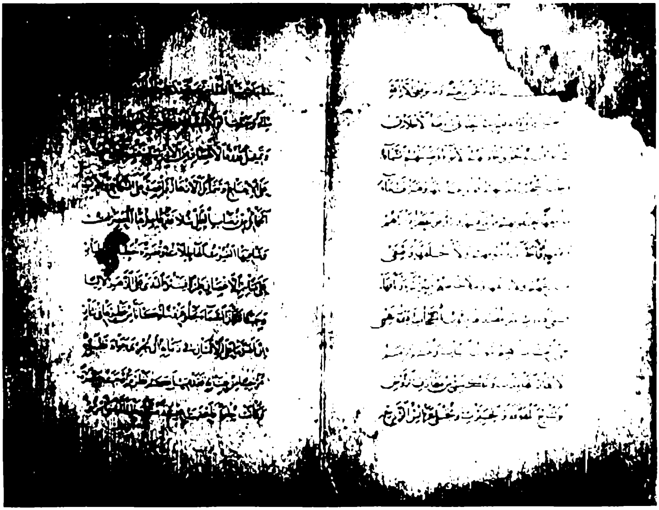
تاريخ النسخ: ٥٩١هـ.

نوع الفن: أدب.

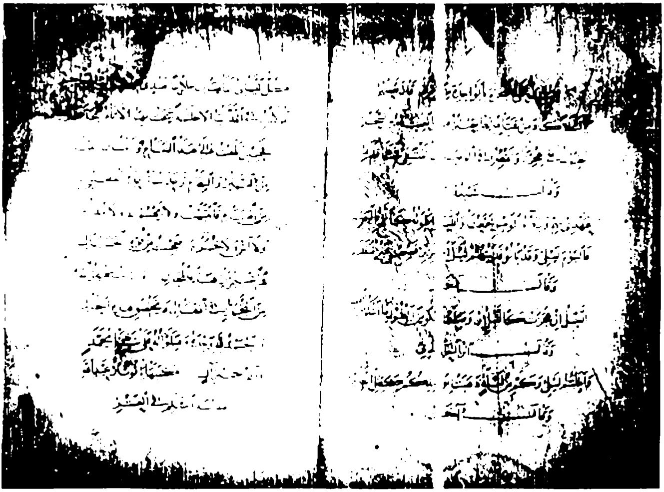
صور المخطوطات



صورة عنوان النسخة (أ) من مخطوطة المنشئ



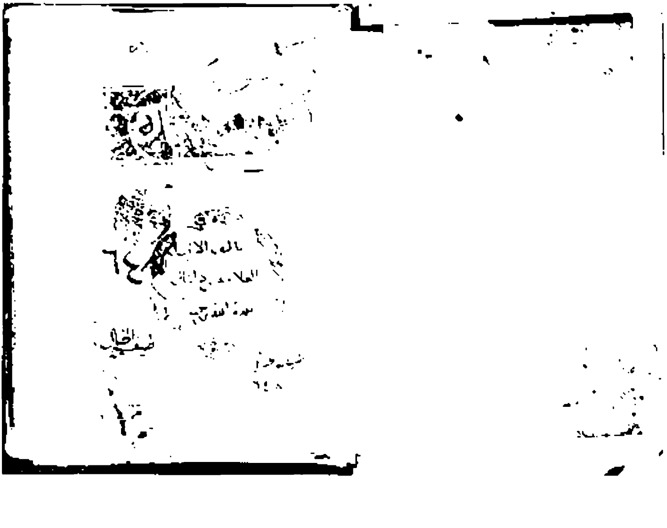
صورة بداية النسخة (أ) من مخطوطة المنشى



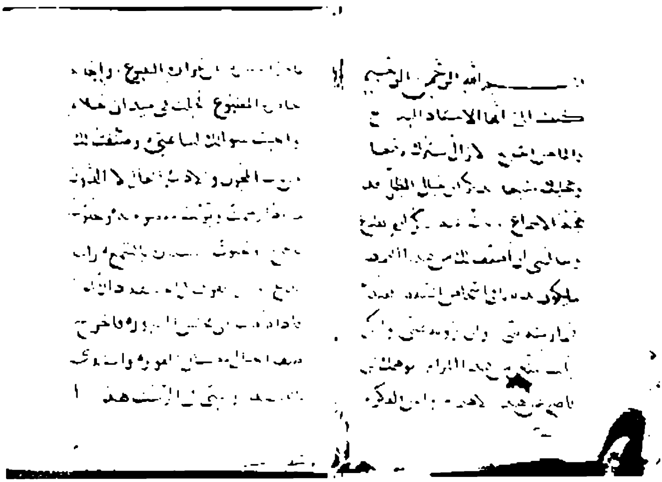
صورة الورقة قبل الأخيرة من النسخة (أ) من مخطوطة المنشئ



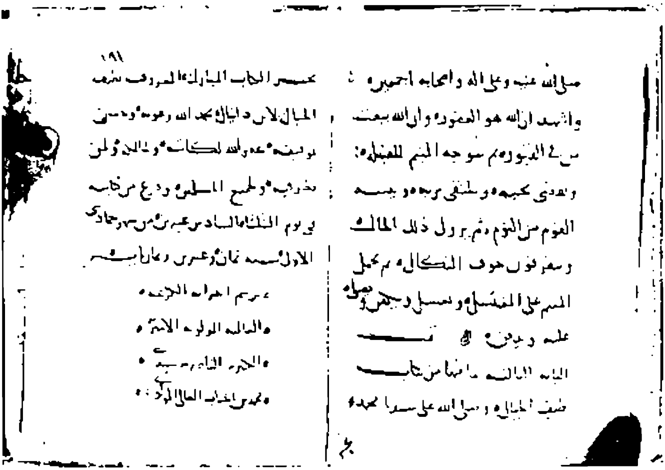
صورة آخر النسخة (أ) من مخطوطة المنشئ



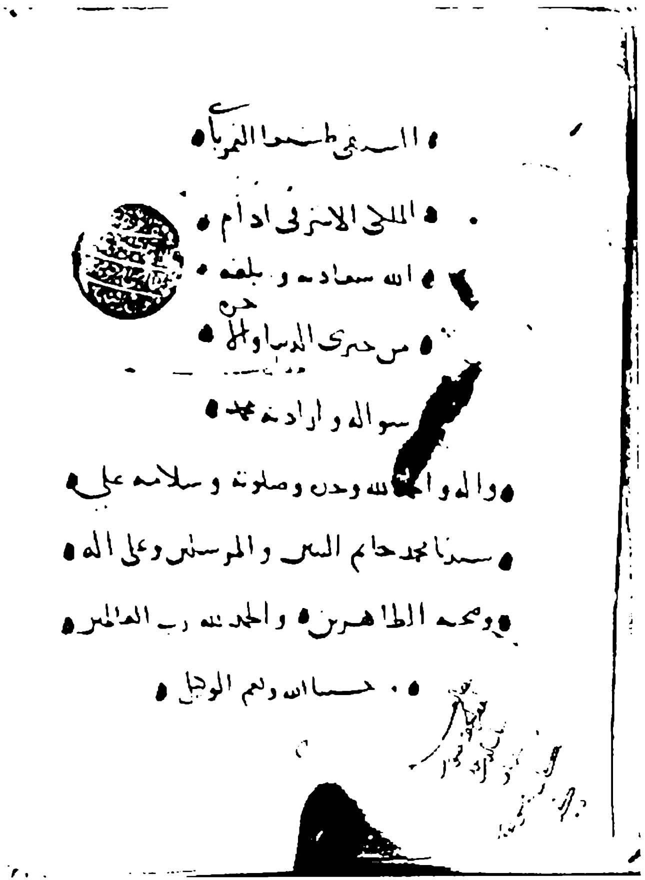
صورة غلاف النسخة (أ) من مخطوطة ابن دانيال



صورة بداية النسخة (أ) من مخطوطة ابن دانيال



صورة الورقة قبل الأخيرة من النسخة (أ) من مخطوطة ابن دانيال



السيفي طشتمر [illegible]

الملكي الأشرفي أدام

الله سعادته وبلغه

من خيري الدنيا والآخرة

سؤاله وإرادته بمحمد

وآله والحمد لله وحده وصلواته وسلامه على

سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله

وصحبه الطاهرين والحمد لله رب العالمين

حسبنا الله ونعم الوكيل

صورة آخر النسخة (أ) من مخطوطة ابن دانيال

الكتاب الأول

طيف الخيال

تأليف

الشريف المرتضى

أبي القاسم علي بن الحسين بن موسى

المتوفى ٤٣٦ هـ

تحقيق

حسن كسروي حسن

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله على ما أعطى من فهم، وآتى من علم، وصفّى من بصيرة، وعفّى من جريرة، ويسر من طلب، وسنّى من أدب، وصلى الله على سيد المرسلين نبيه محمد وآله الطاهرين، صلاة تكون لحقوقهم كفؤا ووفاء.

ومن بعد، فإنني وقفت على ما ذكرته، أمدك الله بتوفيقه وتسديده، من شغفك بما اطلعت عليه من كتابي في «الشيب»[1] وإعجابه لك، وإطرابه إياك. وأنك استغزرت فائدته، واستغربت طريقته، ودعاك ما وقفت عليه منه، إلى التماس كتاب في أوصاف «طيف الخيال». نسلك فيه هذا المنهج، ونخرجه هذا المخرج، فإنه أيضا باب قائم بنفسه، قد أطال الشعراء فيه وأقصروا، وأصابوا وأخطأوا، وتصرفوا وتفننوا. وقد رأيت الإجابة إلى سؤالك، على ضيق زماني وقلبي، وكلال فكر، وكثرة هموم صدري، وأن أعتمد على إخراج ما في ديواني الطائيين، ثم ما في ديواني شعري وشعر أخي، نضر الله وجهه، وأحسن منقلبه، فأنقله على جهته، من غير إخلال بشيء منه، وأتكلم على معانيه ومقاصده، منظّرًا بين نظائره، كاشفًا عن دفائنه وسرائره، حسبما فعلته في كتاب «الشيب». ولأبي تمام في هذا المعنى التافه اليسير، فإنه ما عني به، ولا رزق منه. أما البحتري فإنه كان مغرما متيما بالقول في الطيف، فأكثر فيه وأغزر، مع تجويد وإحسان وافتنان، وتصرف فيه تصرف المالكين، وتمكن من تمكن القادرين. وسأنبه على مواقع إحسانه، ومواضع إغرابه، بإذن الله.

ومما يفيد تقديمه أن «الطيف»[2] قد يوصف بالمدح تارة، وبالذم أخرى. ولمدحه

---

(١) هو كتاب «الشيب والشباب» للمؤلف -رحمه الله تعالى- وقيل اسمه: الشهاب في الشيب والشباب وقد طبع في الأستانة سنة (١٣٠٢هـ).

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب في مادة طيف: طيف الخيال. مجيئه في النوم قال أمية بن أبي عائذ:

أَلا يا لقومي لطيفِ الخيالِ ... أَرِقَ من نازحٍ ذي دلالِ

وطاف الخيال يطيف ومطافًا: ألم في النوم، قال كعب بن زهير:

أنّى ألمّ بكَ الخيالُ يطيفُ ... ومطافه لك ذكرَى وشعوف

وطاف لغة:

والطَّيف والطَّيف: الخيال نفسه (الأخيرة عن كراع).

وجوه متشعبة.

فمما يمدح به:

أنـــه يملـــل المـــشتاق المغرم، ويمسك رمق المعنىٌ المسقم، ويكون الاستمتاع به والانتفاع به، وهو زُور وباطل، كالانتفاع لو كان حقا يقينا. وهل فرق بين لذة الخيال في حـــال تمثلها وتخيلها، وبين لذة اللقاء الصحيح، والوصال الصريح. وبعد زوال الأمرين، ومفارقة الحالين، ما أجدهما في فقد متعته، وزوال منقمته، إلا كصاحبه.

ومما يمدح به:

أنه زيارة من غير وعد يخشى مطله، ويخاف ليّه وفوته. واللذة التي لم تحتسب ولم تـــرتقب، يتـــضاعف بها الالتذاذ والاستمتاع، وأنه وصل من قاطع، وزيارة من هاجر، وعطاء من مانع، وبذل من ضنين، وجود من بخيل، وزيارة من هاجر، وعطاء من مانع، وبـــذل مـــن ضنين، وجود من بخيل. وللشيء بعد ضده من النفوس موقع معروف غير مجهول.

ومن مليح مدحه وغريبه:

أنـــه لقـــاء واجتماع لا يشعر الرقباء بهما، ولا يخشى منهما، ولا اطلاع عليهما. والتهمة بهما زائلة، والريبة عنهما عادلة.(١)

=

والطيف المس من الشيطان، وقرئ قوله تعالى ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ و﴿طَيْفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ وهما بمعنى. وقد أطاف وتطيف.

وقولهم: طيف من الشيطان كقولهم: لمم من الشيطان، وأنشد بيت أبي العيال الهذلي:

فإذا بها وأبيك طيف جنون

وفي حديث المبعث: فقال بعض القوم: قد أصاب هذا الغلام لمم أو طيف من الجن، أي عرض له عارض منهم. وأصل الطيف الجنون، ثم استعمل في الغضب، ومس الشيطان.

ويقال: طاف يطيف ويطوف طيفًا وطوفًا فهو طائف. ثم سمي بالمصدر ومنه: طيف الخيال الذي يراه النائم. وفي الحديث: «فطاف بي رجل وأنا نائم».

والطياف: سواد الليل، وأنشد الليث:

عقبان دَجْنٍ بادرت طيافًا

(١) لقد أجاد في وصفه أيما إجادة واختصر أيما اختصار، وأفاد بماهيته أيما أفاد وذكر محاسنه وفضائله فأوجـــز وأفـــاض وذكر ما يريد أن يعرف عنه من الفضائل بغير أطناب وأراح القلب والعين من

=

وأنه تمتع وتلذذ لا يتعلق بهما تحريم، ولا يدنو إليهما تأثيم، ولا عيب فيهما ولا عار، وقد قاما مقاما فيه ذلك أجمع. وهذا المعنى الأخير مما عندي أني سابق إليه، ومبتدئ به؛ لأنني ما رأيته إلى الآن لأحد في نظم ولا نثر، وقد تعجب الشعراء كثيرًا من زيارة الطيف على بعد الدار، وشحط المزار، ووعرة الطرق، واشتباه السبل، واهتدائه إلى المضاجع من غير هاد يرشده، وعاضد يعضده؛ وكيف قطع بعيد المسافة بلا حافر ولا خف، في أقرب مسدة، وأسرع زمان؟! لأن الشعراء فرضت أن زيارة الطيف حقيقة، وأنها في النوم كاليقظة، فلابد مع ذلك من العجب مما تعجبوا منه، من طي البعيد بغير ركاب، وجوب البلاد بلا صحاب.(١)

ومن المعاني المقصودة في الطيف، أن يلم بذكر ماهيته وسببه، والمقتضى لتخيله وتصوره، كما قال أبو تمام(٢):

التفكير والنظر في الأوراق بهذه الكلمات القلائل المفيدة في فضائله والقائلين بحسنه.

(١) نعم لقد أجاد في هذا القول أيضًا، حيث إن العاشق المسلم الذي يخاف ربه ويحترم نفسه، ويخاف على معشوقه من فضوح الدنيا ونار الآخرة يرجو طيف الخيال حتى يغنيه عن هذه الأمور العضال فهو بين نارين: الحب، وخوف الفضوح فماذا يريحه سوى هذا الطيف الذي لا يلام عليه عامة الناس، ولا يحاسبه الله تعالى عليه، وهو يقضي له بعض وطره من محبوبه من مسامرة وحديث بلا رقيب أو عزول أو واش.

(٢) أبو تمام هو: حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس أبو تمام، الطائي الشاعر، الحوراني. ذكرته مصادر كثيرة منها طبقات الشعراء (٢٨٣) تاريخ الطبري (٩/ ١٢٤)، الأغاني (١٦/ ٢٨٣) الفهرست (١٩٠) تاريخ بغداد (٨/ ٢٤٨) وفيات الأعيان (٢/ ١١) العبر (١/ ٤١١) البداية والنهاية (١٠/ ٢٩٩) النجوم الزاهرة (٢/ ٢٦١) شذرات الذهب (٢/ ٧٢)، خزانة الأدب (١/ ١٧٢)، تهذيب ابن عساكر (٤/ ١٨)، معاهد التنصيص (١/ ١٤). كتاب أخبار أبي تمام للصولي، والموازنة بين الطائيين، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٦٣) ومما قال في ترجمته:

شاعر العصر.. من حوران، من قرية جاسم أسلم وكان نصرانيًا، مدح الخلفاء والكبراء، وشعره في الذروة، وكان أسمر طوالاً، فصيحًا عذب العبارة مع تمتمة قليلة.

ولد في أيام الرشيد وكان أولاً حدثا يسقي الماء بمصر، ثم جالس الأدباء أو أخذ عنهم، وكان يتوقد ذكاء، وسحت قريحته بالنظم البديع فسمع به المعتصم، فطلبه وقدمه على الشعراء، وله فيه قصائد، وكان يوصف بطيب الأخلاق والظرف والسماحة.

وقيل: قدم في زي الأعراب، فجلس إلى حلقة من الشعراء، وطلب منهم أن يسمعوا من نظمه فشاع وذاع وخضعوا له، وصار من أمره ما صار... وقد كان البحتري يرفع من شأن أبي تمام، ويقدمه على نفسه، ويقول: ما أكلت الخبز إلا به، وإني تابع له.

نم فمـــا زاركَ الخـــيالُ ولكـــنكَ بالفكـــرِ زرتَ طيفَ الخيالِ

وكما قلت:

وعهـــدي بـــتمويه عـــين المحـــبُ تَـــنمُّ علـــى قَلْـــبه الطائـــر
فَلمـــا التَقَيْـــنا بـــرغم الـــرقَا دمـــوُهَ قَلْـــبي علـــى ناظـــري

وهـــذا المعنى أيضًا، مما ابتدعته واخترعته في وصف الطيف؛ لأنني ما علمت سابقًا إليه، وعاثرًا به.

فأما ذم الطيف:

فإنـــه قد يذم بأنه باطل وغرور، ومحال وزور، ولا انتفاع بما لا أصل له، وإنما هو كالـــسراب اللامع، وكل تخيل فاسد. وربما ذم بأنه سريع الزوال، وشيك الانتقال، وبأنه يهـــيج الـــشوق الـــساكن، ويضرم الوجد الخامد، ويذكر بغرام كان صاحبه عنه لاهيا وساهيًا. (١)

وهذه المعاني في المدح والذم قد تتشعب وتتركب وتمتزج، فيتولد بينها من المعاني ما لا ينحصر ولا ينضبط، بحسب قوة طباع الشاعر وصحة قريحته وغريزته. وستشرف مما أذكـــره، وأوقـــظ على معانيه، وأخرج مكامنه، على جميع ما تحتاج إليه في هذا الباب،

وديوان أبي تمام كبير سائر، ولما مات رثاه محمد بن عبد الملك الوزير فقال:

نـــبأ ألم فقَلْقَـــلُ الأحـــشاء لمـــا أتـــى مـــن أعظـــم الأنـــباء
قالـــوا: حبـــيب قـــد ثـــوى فأجبتهم ناشـــدتكم لا تجعلـــوه الطائـــي

وكـــان ابـــن وهـــب قد اعتنى بأبي تمام، وولاه بريد الموصل، فأقام فيها أكثر من سنة. ومات في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين وقال مخلد الموصلي: مات في المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. وأما نفطويه، وغيره فأرخوا موته بسامراء في سنة ثمان وعشرين ومائتين.

ويقـــال: عـــاش نيفا وأربعين سنة، عفا الله عنه ورحمه، قال الصولي: كان واحد عصره في ديباجة لفظـــه، وفصاحة شعره، وحـــسن أسلوبه، ألف الحماسة فدلت على غزارة معرفته بحسن اختياره، ولـــه كتاب: فحول الشعراء، وقيل: كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب، وقيل: أجازه أبو دلف بخمسين ألف درهم. واعتذر.

(١) أما ذم الطيف فخفيف لا ضرر فيه ولا قوة مع ذمه ولا حجة قاطعة بل هو تخوف، وسبب ذلك أن ذام الطـــيف غالبًا لم يكابد الحب لهذا لا يعرف قدر الطيف بالنسبة للمحب فهو يتكلم بما لم يجرب ولم يحس.

بمشيئة الله تعالى. ومن الله استمد المعونة والتوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل.

قال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، من جملة قصيدة:

زار الخَيالُ لها، لا بل أزاركَهُ فكْرٌ إذا نامَ فِكْرُ الخلق لَمْ يَنَم
ظَبْيٌ تَقَنَّصتُه لما نَصَبْتُ لَهُ من آخر الليل أشراكًا مِنَ الحُلُم
ثم اعتَدَى وَبنا مِنْ ذِكْرِها سَقَمٌ باق وَإن كانَ مَعْسُولاً مِنَ السَّقَم

ووجدت أبا القاسم الحسن بن بشر الأمدي[1] يتكلم على هذه الأبيات بما أنا أذكره،

(١) في الموسوعة الذهبية (١/ ٩): هو: أبو القاسم: الحسن بن بشر الأمدي الأصل البصري المنشأ مولده ووفاته بالبصرة، إمام في الأدب، وله شعر حسن واتساع تام في علم الشعر ومعانيه رواية ودراية وحفظًا، وصنف كتبًا فيه حسانًا. وكان في البصرة كاتبًا للقضاة من بني عبد الواحد الهاشمي قضاة البصرة، وصحب المشايخ والجلّة مثل أبي إسحاق الزجاج وطبقته.
وكان الآمدي يكتب خطًا حسنًا من خطوط الأوائل المعتبرين المجودين، وهو أقرب خط إلى الصحة وكتب الكثير (أنباه الرواة ١/ ٢٨٥، وجمهرة الخطاطين البغداديين ١/ ٧٠).
.. قال القفطي: وصنف كتبًا حسانًا منها: كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري، وهو كتاب كبير حسن في وقته. وكتاب «المختلف والمؤتلف» في أسماء الشعراء وهو كتاب جليل. وكتاب الرد على قدامة في نقد الشعر، وهو كتاب جليل طريف. وكتاب «الحروف» في اللغة.
ورأيت في بعض المجامع ما صورته: «الحسن بن بشر بن يحيى أبو القاسم الأمدي الكاتب النحوي من أهل البصرة، وهو صاحب كتاب الموازنة بين الطائيين»، أبي تمام والبحتري، كان حسن الفهم، جيد الدراية والرواية، سريع الإدراك، وصنف كتبًا كثيرة منها كتاب: «المؤتلف والمختلف» في أسماء الشعراء.
... وكان مولده بالبصرة وقدم بغداد، وأخذ عن الحسن بن علي بن سليمان الأخفش، وأبي إسحاق الزجاج، وأبي بكر بن ذرة، وأبي بكر ابن السراج اللغة والأخبار.
واتسع في الأداب، وبرز فيها وانتهت رواية الشعر القديم والأخبار في آخر عمره بالبصرة إليه. وكان يكتب بمدينة السلام لأبي جعفر بن هارون بن محمد الضبي خليفة أحمد بن هلال صاحب عُمان بحضرة المقتدر بالله. وكان معاصرًا لابن مقلة الوزير. وكانت وفاته سنة سبعين وثلاثمائة في خلافة الطائع. وكان يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب وشعره كثير مدون.
ومن مصادر ترجمته: أنباه الرواة (١/ ٢٨٥)، وجمهرة الخطاطين البغداديين (١/ ٧٠)، بجلة البصائر (١/ ٤٠) والأعلام (٢/ ١٨٥)، هدية العارفين (١/ ٢٧١)، فهرست ابن النديم (٢٢١)، تاريخ الإسلام والبلغة (٥٥)، معجم المؤلفين (٢/ ٢١٩)، طبقات ابن شهبة (١/ ٢٩٨)، كشف الظنون (٤٦٢)، معجم الأدباء (٨/ ٧٥)، معجم البلدان (١/ ٦٢)، معجم المطبوعات العربية (٩).

ومبين ما فيه. قال: إن قوله: «زار الخيال لها، لا بل أزاركه» ليس بالجيد، لأنه إذا أزاره الفكر فقد زار. فما وجه الاستدراك؟ فكأنه أراد أن الخيال لم يعتمد الزيارة، وإنما الفكر. ومثله قام زيد، لا بل أقمته. وكأن قائل هذا يريد ما اعتمد زيد القيام، بل أقمته أنا.

وأقول: إن الآمدي عاب هذا البيت ثم اعتذر لقائله بما هو العذر الصحيح الذي يخرجه من أن يكون معيبا. فأي معنى لقوله إنه ليس بالجيد؟ وقد فطن من غرضه لما فيه العذر، وزوال العيب والقدح. فكأنه جمع بين الشيء وضده. وإنما يعيب بما ذكره من لم يفطُن لما فَطِن له. وقوله «زار الخيال» إضافة الزيارة إلى الخيال. والظاهر من قول القائل «قام زيد» إضافة القيام إليه على سبيل الاختيار. فيجوز أن يستدرك قائل هذا القول على نفسه، فيقول عقيب قوله «زار الخيال»، بل أزاركه كذا وكذا. وعقيب قوله «قام زيد»، بل أقامه فلان، لأن استدراك صحيح، واقع في موقعه. وليس لأحد أن يخالف في هذه الجملة، ويدعي أن قول القائل «قام زيد» إنما يفيد حصوله على هذه الصفة، ولا يفيد أنه باختياره وإيثاره، دون حمل حامل، وبعث باعث؛ لأن هذا إذا سلم على ما فيه، كان الاستدراك في موضعه أيضًا؛ لأنه إذا قال «زار الخيال» واحتمل هذا القول زيارة الاختيار، من غير بعث باعث، واحتمل وقوع الزيارة عن حمل حامل، وفود قائد، جاز أن يزيل هذا القائل الاحتمال والإبهام. فيقول: «لا بل أزاركه كذا وكذا»، وهذا ما لا شبهة فيه. ثم قال الآمدي: «ويروى: إذا نام فكر الحلو لم ينم» ثم قال: (لم يرد حقيقة النوم، وإنما أراد لم يفتر ولم يسكن، كما يقال فلان لا ينام عن هذا الأمر، أي لا يفتُر عنه ولا يقصِّر). ويقول إن الرواية التي ذكرها في إبدال لفظة الخلق بالحلو لا بأس بها، وإن كان لفظ الخلق أعم وأوكد في المعنى المقصود، فإن الحلو، يدخل في جملة الخلق، ولا يدخل الخلق في معنى لفظ الحلو. والذي فسره في نفي النوم، أنه إنما أراد الفتور والسكون، ظاهر، لا يشكل مثله فيفسر. ثم قال: (وقوله «من آخر الليل» ولم يقل «ومن أول الليل»: يريد أنه لا ينام وأنه يسهره. وإنما يهوم[1] وفي آخر تهويما، فيطرقه الخيال في ذلك

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب في مادة «هوم، الهَوْمُ، والتَّهوُّمُ، والتَّهْوِيمُ: النوم الخفيف قال الفرزدق يصف صائدًا:

عاري الأشاجع مشفوه أخو قنص ... ما تطعم العيني نومًا غير تهويم

وهو الرجل إذا هز رأسه من النعاس. وهوَّم القوم وتهوموا كذلك، وقد هوَّمنا. وقال أبو عبيدة: إذا كان النوم قليلاً فهو التهويم. وفي حديث رقيقه: فبينا أنا نائمة أو مهومة.

الـــوقت) ثم قال: (قوله «وإن كان معسولاً من السقم»: أي وإن كان حلوا من الأسقام: أي ممـــزوجًا بالعسل، وبرواية قوم: «وإن كان مغسولا من السقم»، وليس بشيء). قال الآمـــدي: «وهـــذه الأبـــيات حِسان، وغرض صحيح مستقيم». ونقول: إن الذي قاله الآمـــدي في معنى تخصيصه آخر الليل دون باقية، جائز، ممكن أن يكون مقصودا. وفيه وجه آخر، وهو أن الخيال لا يطرق في العادة إلا مع وفور النوم وغزارته والاستثقال فيه. وهذا إنما يكون في أواخر الليل، ومع استمرار النوم وطول زمانه، فلهذا خَصَّ آخر الليل. رفـــسر قوله «كان معسولاً من السقم»، مع أنه واضح لا يشكل وترك تفسير المشكل، وهـــو أن يقـــال: كيف استحلى هذا السقم والتذه، حتى جعله معسولا، وكأنه ممزوج بالعسل، والسقم لا يستحلى. والوجه في ذلك أن السبب في ذكره للخيال، وشوقه إليه، وأســـفه على فراقه، الذي جعله سقما من حيث كان مؤلمًا، لما كان هو طروق الخيال، وتمـــثله لـــه وتخيله. وكان ذلك التخيل والتصور ملذا ممتعا، مستحلى مستعذبًا، جعل المسبب عنه من التألم بقوته بمنزلته. فقد يوصف المسبب بأوصاف السبب، للعلاقة التي بينهما، والاتصال الذي يجمعهما.

وما رأيناه أثنى على البيت الثاني من هذه القطعة، ولا مدحه بما يستحقه من المدح، فإنه في غاية الحلاوة والطلاوة، وسلامة الألفاظ، وعذوبة النسج. وقَدَح في البيت الأول بما ليس يقدح على اعترافه، فليته جمع بين القدْح للمقدوح، والمدح للممدوح. فإن قال: قـــد مـــدحت جملـــة الأبيات، وقلت إنها حسان، وأغراضها مستقيمة. قلت: هذا مدح تكلفـــته، ومـــا نراك إذا أعجبك وأطربك معنى للبحتري[1]، تقتصر على هذا القدر من

=

النهويم: أول النوم، وهو دون النوم الشديد.

(١) البحتـــري هـــو: الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد، أبو عبادة الطائي، المنجي، الشاعر البحتري، جـــاءت تـــرجمته في عدة مصادر منها: الأغاني (٢١/ ٣٩)، الفهرست المقالة الرابعة الفن الثاني، تـــاريخ بغداد (١٣/ ٤٧٦)، المنتظم (٦/ ١١)، معجم الأدباء (٩/ ٢٤٨)، معجم البلدان (منبج) وفـــيات الأعـــيان (٦/ ٢١)، العبر (٢/ ٧٣)، البداية والنهاية (١١/ ٧٦)، النجوم الزاهرة (٣/ ٩٩)، شـــذرات الـــذهب (٢/ ١٨٦)، كتاب أخبار البحتري للصولي، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٨٦) وممـــا قـــال في تـــرجمته: شاعر الوقت، وصاحب الديوان المشهور، أبو عبادة، الوليد بن عبيد... البحتري، الطائي المنبجي.

مـــدح الخلفـــاء والوزراء، وصاحب مصر خُمارويه حكى عنه: القاضي المحاملي، والصُّولي، وأبو الميمون راشد، وعبد الله بن جعفر بن دُرُستويه النحوي.

=

المدح. وقد كان ينبغي أن تخص البيت الثاني بزيادة الإطراء والمدح، وتوقظ على جودة طرحه وسبكه، فإنه لا يجري مجرى ما تقدم عليه ولا تأخر عنه، وما فعلت ذلك.

وقال أبو تمام أيضا من قصيدة:

عادك الزور ليلة الرمل مـــن رملة بين الحمى وبيـــن المطالي
نَمْ فما زارك الخيالُ ولٰكنَّكَ بالفكــــر زُرْتَ طَيْفَ الخيال

قال الآمديّ: (قد أكثر أصحاب أبي تمام الفخر بهذا البيت، والتنويه بذكره، وأفرطوا في استحســانه: وقالوا كشف عن العلة في طروق الخيال، وبين عن المعنى). قال: والبيت حسن، وإنما أخذ معناه من قول جران العَوْد:[1]

=

وعـــاش نحـــوًا وســـبعين سنة، ونظمه في أعلى الذورة وقد اجتمع بأبي تمام الطائي، وأراه شعره فأعجـــب بـــه، وقـــال: أنت أمير الشعر بعدي، قال: فـــررت بقوله. وقال المبرد: أنشدنا شاعر دهره، ونسيج وحده أبو عُبَادة البحتري.

وقيل: كان في صباه يمدح أصحاب البصل والبقل وقيل: أنشد أبا تمام قصيدة له، فقال: نعيت إلي نفســـي. وقـــيل: سُئل أبو العلاء المعري: من أشعر الثلاثة: أبو تمام، والبحتري، والمتنبي، قال: حكيمان، والشاعر البحتري.

وللبحتري «حماسة» «كحماسة» أبي تمام، وكتاب معاني الشعر.

مات بمنبج، وقيل: بحلب سنة ثلاث، أو أربع وثمانين ومائتي.

ولـــه أمـــلاك، بمنبج، وحفيدان هما: أبو عبادة، وعبيد الله، ابنا يحيى بن البحتري اللذان مدحهما المتـــنبي، وكانا رئيسين في زمانهما. قلت: ومَنْبِج: بفتح الميم، وسكون النون، وكسر الباء مدينة شمال حلب، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ (معجم البلدان).

(١) جران العود هو: العبدي، وسمي بذلك لقوله:

خَـــذا حـــذرًا يـــا جـــارتيّ فـــإنني رأيـــت جـــران العـــود قـــد كاد يصلح

فخـــوفهما بـــسير قُدَّ من صدر جمل مسن. وكان جران العود، والرحال خديني فتزوج كل واحد منهما امرأتين فلقيا منهما مكروهًا فقال جران العود:

ألاَ لا تعـــــرف امـــــرأة نوفلـــــية على الـــرأس بعـــدي أو ترائب وضح
ولا فـــاحم يـــسقي الـــدهان كأنـــه أســـاود يـــزهاها لعيـــنك أبطـــح
وإذا نـــاب خلـــيل علقـــت في عقيصة تـــرى قـــرطها مـــن تحـــتها يـــتطوح

وفيها يقول:

جـــرت يـــوم جئـــنا بالـــركاب نزقها عقـــاب وشـــحاج مـــن الطـــير متـــيح

=

فأمـا العقـاب فهـي منـا عقـوبة ... وأمـا الغـراب فالغـريب المطـوح
هـي الغـول والسـعلاة حلقي منهما ... مكـدح مـا بـين التراقـي مجـرج
خـذا نـصف مـالي واتركا لي نصفه ... وبيـنا بـذم فالتغـرب أروح

وقال الرحال:

فـلا بـارك الـرحمن في عـود أهلها ... عـشية زفـوها ولا فـيك مـن بكـرِ
ولا الزعفـران حـين مـسحتها بـه ... ولا الحلـي مـنها حـين نيط إلى النحرِ
في البـيت أنَّ الـذئب خلـل درعها ... وكـان ذا نـاب حديـد وذا ظهـرِ
وجـاءوا بهـا قـبل المحـاق بلـيلة ... وكـان محاقًـا كلـه آخـر الـشهرِ
لقـد أصـبح الـرحال عـنهن صادقًا ... الى يـوم يلقـي الله في آخـر العمـرِ

وجران العود أحمد من وصف القواد في شعر فقال:

يـبلغهن الحـاج كـل مكاتـب ... طـويل العـصا ومقعـده يتـرجف
ومكمـونة رمـداء لا يحـذرنها ... مكاتـبة ترمـي الكـلاب وتحـذف
رأت ورقًـا بياضًـا فـشدت حزيمها ... لهـا فهـي أمـضى من سُليك وألطف
وأصـبح في حـيث التقيـنا عـشية ... سـوار وخلخـال ومـرط ومطـرف
ومنـشرات مـن عقـود تـركنها ... كجمـر الغـضا في بعـض ما يتخطرف

ويستملح قوله:

بـأن الأنـيس فمـا للقلـب معقول ... ولا علـى الجـيرة الغـادين تعـويل
يـوم ارتحلـت برحلـي قبل برذعتي ... والقلـب مـستوهل بالـبين مـشغول
ثم اغتـرزت علـى نقـضي لأرفعـه ... أثـر الحمـول الغـوادي وهـو معقول

ويتمثل من شعره بقوله:

ولا تأمـنوا مكـر النـساء وأمسكوا ... عـرى المـال مـن أبـنائهن الأصاغر
فإنـك لم يـنذرك أمـرًا تخافـه ... إذا كـنت مـنه خائفًـا مـثل خابـر

(الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٦٩: ١٧).

وقـال ابن منظور في لسان العرب مادة «جرن» الجرَان: باطن العنق، وقيل: مقدم العنق من مذبح البعير إلى المنحر، فإذا أبرك البعير وملأ عنقه على الأرض قيل: ألقى جرانه بالأرض. وفي حديث عائـشة رضـي الله عنها: حتى ضرب الحق بجرانه، أرادت أن الحق استقام وقر في قراره، كما أن البعير إذا برك واستراح مد جرانه على الأرض أي عنقه.

أهـــلاً بطـــيفكِ من زَوْرِك أتاكَ بهِ حـــديثُ نَفْـــسِكَ عَنْهُ وَهُوَ مَشْغُولُ

فقوله «وهو مشغول»: أي أنه لم يزرك على الحقيقة، فبنى أبو تمام من هذا قوله «ما زارك الخيال»، وبنى من قوله «أتاك به حديث نفسك» قوله «ولكنك بالفكر زرت طيف الخيال»: فالمعنى كله لِجران العودة، وإنما غير أبو تمام اللفظ.

ومـــا كان عندي أن مثله يذهب عليه ما قصده أبو تمام مع وضوحه. ومعنى «وهو مشغول»: أي مشغول عنك، لا تخطر بباله، ولا يحدث نفسه بك. كما تحدث نفسك به، ويخطر ببالك ولا يفارق ذكرك. وأراد أن يقال: قوله: حديث نفسك عنه الذي جعله سببًا للطيف وتخيله، فقابل بقوله «وهو مشغول»: أي لا يحدث نفسه بك، كما تحدث نفسك به.

فأمـــا طعن الأمديّ على الأبيات الميمية التي لأبي تمام، ودعواه أنه لا حلاوة لها ولا طلاوة، فمن قبح العصبية، لأن قوله:

اللـــيالي أحفَـــى بَقَلْـــبي إذَا مـــا جَـــرَحَتْهُ الـــنَّوىَ مِـــنَ الأَيَّـــامِ

صحيح الوضع، مليح المعنى؛ لأنه إذا كان لا تلاقيَ بينه وبين محبوبه نهارا، ولا وصل ولا قرب، وأن ذلك كله يكون ليلاً؛ فالليل أنفع له من النهار وأمتع. وأي شيء يراد من أبي تمـــام أن ينتهي إليه في هذا البيت أكثر من هذا؟ وأما البيت الثاني فجيد المعنى، مليح اللفـــظ. ومـــن عذب اللفظ وغريبه قوله «سِرٌ منِ الأجسام»؛ لأنه لاحظٌ للأجسام في الانـــتفاع بطـــيف الخـــيال، وجعل ذلك التمثيل والتخيل إنما هو للأرواح، متفردة عن الأجسام، على مذهب من يرى من الفلاسفة أن السبب في رؤيا المنام، اطلاع النفس من عالمهـــا علـــى ما يكون في الأمور، ويجعلون للنفس ثيابا وقِوامًا من غير توسط الجسد. وهـــذا إن كان مذهبا باطلا، فقد دلت الأدلة الصحيحة على فساده، فيجوز أن يستعيره الشاعر في بعض كلامه تعريبًا وتقريبًا.

قال -أدام الله علوه- ولي على هذا البيت في وصف الخيال:

تلاقيـــــــنا بـــــــأرواحٍ وفارقـــــــنَا بأجـــــــسادِ

وقال -أدام الله علوه- وستجيء هذه الأبيات فيما أخرجه من ديوان شعري بمشيئة الله.

فأما البيت الثالث الذي أوله «مجلسٌ لم يكن له فيه عيبٌ» فهو قريب، وليس يهجِّنه إلا لفظـــة الدعوة، فإنها كلمة عامية، قلما يستعملها الفصحاء الشعراء. فالطعن على هذه

الأبيات على ما بيناه عصبية ظاهرة ولي في تحقيق السبب في طيف الخيال، ونفى أن تكون زيارته حقيقية، ما هو أجود من قول أبي تمام:

زَارَ الخَيالُ لها، لا بَلْ أَزَارَكَهُ

ومن قوله:

نَم: فما زارَكَ الخَيالُ ولكنَّكَ بالْفِكْرِ زُرْتَ طَيْفَ الخيالِ

وهو قولي:

زارَ ومـــا زارَ سِـــوَى ذِكْـــرِهِ وبَيْنَـــنا داوِيُـــةٌ سمْلَـــقُ(١)

---

(١) الداوية: هي الصحراء البعيدة المترامية الأطراف الواسعة الشاسعة. والسملق: هي الجرداء القحلاء التي لا نبت فيها ولا شجر.

ويقـــول ابن منظور في لسان العرب في مادة «دول» الدَّوُّ: القلادة الواسعة، وقيل: الدَّوُّ: المستوية من الأرض، والدَّوِّيَّة: المنسوبة إلى الدّو، وقال ذو الرُّمَّة:

ودوٌّ ككـــفِّ المـــشتري غـــير أنـــه بِســـاطُ الأخمـــاسِ المراســـيلِ واســـعُ

اي هـــي مستوية ككف الذي يصافق عند صفقة البيع. وقيل: دويّة وداويّة إذا كانت بعيدة الأطراف مستوية واسعة، قال العجاج:

دويـــــــة لهـــــــولها دوي للـــــريح في أقارهـــــا هُـــــوِيُّ

وقـــال ابن سيده: الدَّوُّ، والدَّوِيَّةُ والدَّاوية: المفازة الألف فيها منقلبة عن الواو الساكنة... وقال في قولهم: دَوِّيَّة قال: إنما سميت دَوِّيَّة لدوي الصوت الذي يسمع فيها. وقيل: سميت دوية لأنها تدوي بمـــن صار فيها أي تذهب بهم. ويقال: قد دوَّى في الأرض، وهو ذهابه... ودوى بها: أي مَرَّ بها، يعني العير وأُتُنَهُ.

وقـــيل: الدَّوُّ: أرض مسيرة أربع ليالٍ شبه ترس خاوية يسار فيها بالنجوم، ويخاف فيها الضلال، وهـــي على طريق البصرة متياسرة إذا صعدت إلى مكة شرفها الله تعالى.وقال ابن منظور أيضًا في اللســـان في مادة «سملق»: لا نبات فيه، قال عمارة:

يرمي بهن سلق عن سلمق

وذكره الجوهري في سلق. والسملق: القاع المستوي الأملس الأجرد لا شجر فيه، وهو القَرِق قال جميل:

ألم تـــسل الـــربع القـــديم فيـــنطق وهـــل تخـــبرنك الـــيوم بـــبداء سملـــق

... وفي حديث علي ﷺ: ويصير معهدها قاعًا سملقًا، وهي الأرض المستوية الجرداء التي لا شجر فيها... وامرأة سملق: لا تلد شبهت بالأرض التي لا تنبت قال:

مقرقمين وعجوزاً سملقا

والـــسملقة: الـــرديئة في البضع، والسملقة: التي لا أسكتين لها. وكذب سملق: خالص بحت. قال =

وقولي أيضًا:

حـتى التَقَيْـنَا عَلَى رَغْمِ الرُقادِ ومَا ذاكَ اللقَـاء سِـوَى وسْواسِ ذِكْرَاكِ

أمـا سـلب الطـيف العلـم بما وقع الانتفاع به منه، وأنه لا يدري ولا يشعر به، فالبحتـري يعيده ويبديه. ويأتي في شعري منه الكثير بصور مختلفة، وصيغ غير مشتبهة. ومع الاشتراك في المعاني، إنما يقع الإحسان في حسن النسج، وسلامة السبك، وأن تكون العبارة عن ذلك المعنى ناصعة، وفي القلوب متقلبة.

وقال البحتري أيضًا:

إنْ رَيَّـا لم تَـشْتَقِ رِيًّا مِنَ الْوَصْلِ ولم تَـدْرِ مـا هَـوَى الْعُـشَاق
بَعَـثَتْ طَـيفهَا إلَـيَّ ودُونِـي وَخْـدُ شَهرَيْنِ للمهَارِيِ[1] العتاق[2]
زارَ وَهْـنًا مـن الـشامِ فحَـيًّا مُـستهامًا صَـبا بـأرْضِ العِـرَاقِ
فَقَـضَى مـا قَـضى وعـادَ إليها والدُجَـى في بُـرُودةِ الأخـلاقِ
قـد أخـذْنا مـن التَّلاَقـي بحظٍّ والتَّلاَقـي في الـنَّوْمِ عِـدْلُ التَّلاقِي

- يعـني بقوله: «عِدْل التلاقي»: في الحقيقة، أي في اليقظة، وهذه الأبيات لا شبهة على متعصب، فضلا عن منصف، في حسنها ونصوعها.

وقال أيضًا:

وزائِـر زارَ مـن أعِفَّـتهِ يَمِـيلُ بأُنْـسِهِ ذُعُـرَهْ
كأنَّـهُ جـاء مُنْجِـزًا عِـدةً وَبِـتُّ في الـرُّاقبِينَ أنْتَظِـرُهْ
لم أنْـسَهُ مُوشـكًا عَلَـى رَجُـلٍ مُـدَامِجًا للحَـدِيثِ يَخْتَـصِرُهْ
كأنَّمَـا الكاشِـحونَ قَـدْ خَرَصُوا مكانَـهُ أوْ أتَـاهُمُ خَبَـرُهْ

ومـن العجـب أن الآمدي ذكر أن هذه الأبيات أحسن وأحلى من التي هي قبلها.

=

رؤبة:

يقتضبون الكذب السملقا

أبو عمرو: يقال للعجوز سملق وسملق وشملق وشملق وعجوز سملق: سيئة الخلق.

(١) المهاري: جمع مهرية، وهي الإبل المنسوبة لمهرة بن حيدان، وهم حي عظيم.

(٢) والعتاق: الكريمات الأصول.

والأمر بخلاف ما ظنه؛ لأن أبيات «القافيَّة» أطبع وأنصع، وأبعد من الكُلْفة، والصنعة فيها أخفى، وكلامها أحلى، وهذه الأبيات الرائية معانيها أجود من ألفاظها، وتظهر فيها بعض كُلفة الصنعة، وهي مع ذلك في غاية الحسن، إلا أن تفضيلها على الأولى غير صحيح. وأما قوله «يميل وزنا بأنسه ذُعْره» فإنما يريد به أن ذعره أرجح وأزيد من أنسه. فأما قوله «قد خَرَصوا مكانه» فإنما يريد أنهم قد حَزَرُوا مكانه، وسبق ظنهم إليه، من الخَرْص، الذي هو حَزْر ثمرة النخل، لا أنه من الخَرص الذي هو الكذب.

وهذه الأبيات ليست خالصة لوصف الطيف، بل يجوز أن يكون المراد بها زائرا زار في اليقظة. فالكلام متحمل في الطيف وغيره.

وقال البحتري أيضا من قصيدة:

إنَّ العَميدَ صَبابَة مَنْ لاَ يَني ... يدعو صَبابَتَهُ الخَيَالُ إذا سَرَى
تدرين كم مِنْ زَوْرَةٍ مَشكورة ... من زَائرٍ وَهَبَ الخَطِيرَ وما دَرَى
غاب الوشاة فبات يَسْهُلُ مَطلَبٌ ... لو يَشْهَدُون طَريقَهُ لتَوَعَّرَا
كان الكرى حَظَّ العُيونِ وَلم أَخَلْ ... إنَّ القلوبَ لَهُنَّ حَظٌ في الكرَى
دَمْعٌ تَعَلَّقَ بالشُّؤُونِ فلم يَزَلْ ... بَرْحُ الغرامِ يسوقُه حتى جَرَىَ
قامَتْ تُمَنِّيني الوِصالَ لتَبْتَلي ... وجَدَ لِي وحاجَةُ أَكْمَهٍ أنْ يُبْصِرَا
تالله لم أَرَ مُذْ رأيتُ كلَيْلَتي ... في الْعَلْثِ إلاَّ لَيْلَتي في عُكْبَرًا
أَهْوَى الظلامَ وأن أُمَلاَّه وقد ... حَذَرَ الصباحُ نقابَهُ. أَوْ أَسْفَرا

قال الآمدي: «وهذا لعمرك القول الذي لو ورده الظمآن لروي، لكثرة مائة». وأقول: إنه قد تقدم فيما أوردناه للبحتري من هذا الباب، ما هو من هذه الأبيات أنصع وأطبع، وأحلى وأعلى، وأعبق بالقلوب، وأعلق بالنفوس. فأما قوله:

كانَ الكَرى حظَّ العيون ولَمْ أَخَلْ ... أَنَّ القلوبَ لَهُنَّ حَظٌّ في الكري

فلقائل أن يقول: أي حظٍ للقلوب في الكرى ولم يَخَلْه ثم وجده؟ وأي حظ معهود للعيون من الكرى؟ فإن هذا ليس يبين في كلامه والجواب: أن العيون من حيث تودعت وسكنت عن موالاة النظر والتحديق للتعين لها: كان لها بذلك حظٌ من الكرى دون القلوب. فإن خواطر القلوب وأفعالها تكون في النوم واليقظة. وما تراد له العيون لا يكون في اليقظة دون النوم. ولما كان الخيال في النوم يتمثل للقلب ويُتَخيل، فيسر القلب بذلك

التخيل، ويعتقده حقيقة، ويلتذ به عاجلا، وينتفع به، كان للقلوب حظ في الكرى لم يكن في حسابه. وهذا تدقيق منه.

وأما قوله:

مَنَّيْتِنَا عَلاً وما أنْهَلْتِنَا ... وَالوَقْتُ لَيْسَ يُحِيلَ حَتَّى يُشْهِرَا

فالعقل هو الشرب الثاني، والنهل هو الشرب الأول، يعجب من أنها تمنيه الشرب الثاني، ولم يكن منها شرب أول، ومن لم ينهل لم يُعَل، كما أن الزمان لا يحيل، بأن يصير حولا حتى يُشْتهر، بمعنى أنه يكون شهرًا، فإن الشهر قبل الحول. كما أن النَّهْل قبل العلّ.

فأما قوله: «أهوى الظلام وأن أملاه»: فما زالت الشعراء تتمنى الليل والنوم فيه لطروق الطيف... واعتادني ليلاً، فجعلوه مختصا بالاعتياد والطروق ليلا. ولم يستعمل الشعراء ذلك في قديم ولا حديث، إلا فيما ذكرناه. قال امرؤ القيس: [1]

---

(١) هو: امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي، وهو من أهل نجد من الطبقة الأولى، وهذه الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد.

قال لبيد بن ربيعة: أشعر الناس ذو القروح -يعني امرأ القيس-، وملك حجر على بني أسد فكان يأخذ منهم شيئًا معلومًا فامتنعوا منه، فسار إليهم فأخذ سرواتهم فقتلهم بالعصي فسموا عبيد العصي، وأسر منهم طائفة فيهم عبيد بن الأبرص، فقام بين يدي الملك فقال:

يا عين ما فابكي بني ... أسدهم أهل الندامة
أهل القباب الحمر والنعم ... المؤبل والمدامة
مهلاً أبيت اللعن مهلاً ... إن فيما قلت آمنة
في كل واد بين يثرب ... والقصور إلى اليمامة
تطريب عان أو صياح محرق ... وزرقاء هامة
أنت المليك عليهم ... وهم العبيد إلى القيامة

فرحمهم الملك وعفا عنهم، وردهم إلى بلادهم حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم عوف بن ربيعة الأسدي فقال: يا عبادي فالوا: لبيك ربنا، فقال: من الملك الأصهب الغلاب غير المغلب، في الإبل كأنها الربرب لا يلعق رأسه الصخب، هذا دمه يتشعب، وهو غدًا أول من يسلب، قالوا: هو ربنا، قال: لولا أن تجيش نفسي جاشية أبنائكم أنه حجر ضاحية. فركبت بنو أسد كل صعب وذلول فما أرق لهم الضحى حتى انتهوا إلى حجر فوجدوه نائمًا، فذبحوه وشدوا على هجائنه فاستاقوها.

وكان امرؤ القيس طرده أبوه لما صنع في الشعر بفاطمة ما صنع، وكان لها عاشقًا، فطلبها زمانًا فلم يصل إليها، وكان يطلب غرة حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان فقال:

«قفا نبك من ذكري حبيب ومنـــزل»

فلمــا بلــغ ذلك حجرًا أباه دعا مولى له يقال له: ربيعة فقال له: اقتل القيس وأتني بعينيه، فذبح جـــؤزرًا (ولد البقر الوحشية) فأتاه بعينيه، فندم حجر على ذلك، فقال: أبيت اللعن أني لم أقتله، قال: فأتني به، فانطلق فإذا هو، قد قال شعرًا ماذا أجبل وهو قوله:

فـــلا تتـــركني يـــا ربـــيع لهـــذه وكـــنت أراني قـــبلها بـــك واثقـــا

فرده إلى أبيه فنهاه عن الشر، ثم إنه قال:

«ألا عم صاحبًا أيها الطلل البالي»

فبلغ ذلك أباه فطرده فبلغه مقتل أبيه بدمون، فقال:

تطـــاول اللـــيل علـيـــنا دمـــون دمـــون إنـــنا مـــشعر يمانـــون

وإنـــــنا لأهلـــــنا محـــــبون

ثم قال: ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيرًا لا صحو اليوم وسكر غدا اليوم خمر، وغدا أمر، ثم قال:

خليلـــي مـــا في اليوم مصحي لشارب ولا لي غـــد إذ كـــان مـــا كان مشرب

ثم آلى ألا يأكل لحمًا، ولا يشرب خمرًا حتى يثأر بأبيه، فلما كان الليل لاح له برق فقال:

أرقـــتُ لـــبرقٍ بلـــيلٍ أهـــلْ يـــضيءُ ســـناهُ بأعلـــى الجـــبلْ

بقـــتل بـــني أســـد ربهـــم ألا كـــل شـــيء ســـواه جلـــلْ

ثم استجاش بكر بني وائل فسار إليهم، وقد لجوا إلى كنانة فأوقع بهم ونجت بنو كاهل من بني أسد فقال:

يـــا لهـــف نفـــسي إذا حظـــين كاهلا القـــاتلين الملـــك الحلاحـــلا

تـــالله لا يـــذهبن شـــيخي بـــاطلاً

وقد ذكر امرؤ القيس في شعره أنه ظفر بهم فتأبى عليه ذلك الشعراء، فقال عبيد:

يـــا ذا المخوفـــنا بقـــتل أبـــيه إذلالاً وحيـــنا

أزعمـــت أنـــك قـــد قـــتلت ســـراتنا كـــذبًا وميـــنًا

ولم يـــزل يسير في العرب يطلب النصر حتى خرج إلى قيصر فدخل معه الحمام، فإذا قيصر أقلف فقال:

إني حلفـــت.. يميـــنًا غـــير كاذبـــة بأنـــك أقلـــف إلا مـــا جـــنى القمـــر

إذا طعـــنت بـــه مالـــت عمامـــته كمـــا يجمـــع تحـــت الفلكـــة الوبـــر

ونظـــرت إليه ابنة قيصر فعشقته، فكان يأتيها وتأتيه، وفطن الطماح بن قيس الأسدي لهما. وكان حجـــر قـــتل أباه فوشى به إلى الملك، فخرج امرؤ القيس متسرعًا، فبعث قيصر في طلبه رسولاً، فأدركـــه دون أنقرة بيوم، فتناثر لحمه وتفطر جسده، وكان يحمله جابر بن حنين الثعلبي... وقال

*تأوبني دائي القديم فغلسا

والشواهد على هذا أكثر من أن تحصى، والبيت الخامس عليه رونق الإحسان، والصنعة فيه كأنها مفقودة؛ للطبع المتدفق، والماء المترقرق.

حين حضرته الوفاة:

رب خطبة مجبرة، وطعنة مسحنفرة، وجفنة متعنجرة تبقى غدً بأُنقرة، قال الكلبي: هذا آخر شيء تكلم به ثم مات.

[قلت: محبرة: أي مهذبة. ومسحنفرة: أي نافذة. ومتعنجرة: اي يسيل ودكها]

قال أبو عبد الله الجمحي: كان امرؤ القيس ممن يتعهر في شعره، وذلك قوله:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

وقال:

سموت إليها بعدما نام أهلها

وقد سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب، واتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه في الديار، ورقة النسيب وقرب المأخذ، ويستجاد من تشبيه قوله:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العناب والحشف البالي

... وقد أجاد في صفة الفرس:

مكر مفر مقبل مدبر معًا كجلمود صخر حطه السيل من علِ

... ومما يعاب عليه من شعره قوله:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقالوا: الثريا لا تعرض، وإنما أراد الجوزاء فذكر الثريا على الغلط، كما قال الآخر: «كأحمر عاد».

وإنما هو: «كأحمر ثمود». وهو عاقر الناقة.

... وأقبل قوم من اليمن يريدون النبي ﷺ، فضلوا الطريق ومكثوا ثلاثًا لا يقدرون على الماء إذا أقبل راكب على بعير، وأنشد بعض القوم:

لما رأت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائضها دامي

تيممت العين التي عند خارج يفيء عليها الظل وعرمضها طمي

(قلت: العرمض الطحلب يكون على وجه الماء).

فقال الراكب من يقول هذا؟ قالوا: امرؤ القيس، فقال. والله ما كذب، هذا خارج عندكم وأشار إليه فمشوا على الركب فإذا ماء غدق، وإذا عليه العرمض والظل يفيء عليه فشربوا وحملوا، ولولا ذلك لهلكوا.

وقال البحتري أيضًا من قصيدة:

أَمَــا رَاعَــكَ الحَيُّ الحِلالُ بِهَجْرِهِمْ ... وَهُــمْ لَــكَ غَــدْوًا بالتَّفَرُّقِ أروعُ
بلَــى، وخَــيالُ مَــن أُثَــيْلَةَ كلّما ... تأوَّهْــتُ مِــنْ وَجْــدٍ تَعَرَّضَ يَطْمَعُ
إذَا زَوْرَةٌ مِــنْهُمْ تَقَضَّتْ مع الكَرَى ... تَنَــبَّهْتُ مِــنْ وَجْــدٍ لَــهُ أَتَفَــزَّعُ
تَــرَى مُقْلَتِــي ما لا تَرَى في لِقَائِهِ ... وتَــسْمَعُ أُذْنِــي رَجْعَ ما لَيْسَ تَسْمَعُ
ويكفِــيكَ مِــنْ حَــقٍّ تَخَيُّلُ باطِلٍ ... تُــرَدُّ بِــهِ نَفْــسُ اللَّهِــيفِ فيَرجِعُ

قــال الآمدي: (ولست أقول في هذا إلا ما كان البحتري يقوله) وحدثنا به أبو علي محمد بن العلاء السجستاني أنه كان إذا شرب وسكر، أنشده مثل هذا وأشباهه من شعره، وقال: «ألا تسمعون؟ ألا تعجبون؟».

ويقول: إن الأبيات ناصعة الجمال، بعيدة المنال. وفي البيت الأخير الذي أوله:

وَيَكْفِيكَ مِنْ حَقٍّ تَخَيُّلُ باطِلٍ

معــنى جليل القدر، ثقيل الوزن، له غور عميق، وأس وثيق. وإنما أراد البحتري: أن الــذي يراد من الحق من بلّ الغُلّة، وإمساك الرمَق، وتمتع النفس، هو في هذا الباطل: فقد تساويا في الغرض المقصود، الحق فيه مقام الباطل.

وقال البحتري أيضًا:

أَخَــيالَ عَلْــوَةَ كيف زُرْتَ وَعِنْدَنَا ... أَرَقٌ يُــشَرِّدُ بالخَــيالِ الزائــرِ
طَــيفٌ أَلَــمَّ بِــنا ونحــنُ بِمَهْمَهٍ ... قَفْــرٍ يَــشُقُّ عَلَــى المُلِــمِّ الخاطِرِ
أَفْــضى إلى شُــعْثٍ تُطِيُــرُ كَرَاهُمُ ... رَوْحَــاتُ قُــودٍ كالقِــسِيِّ ضوامِرِ
حتى إذا نَزَعُوا الدُّجَى وتَســرْبَــلُوا ... مِــنْ نُــورِ هَلْهَلَــةِ الــصَّبَاحِ النائِرِ
وَرَمَــوا إلى شُــعْثِ الرِّجَالِ بِأَعْيُنٍ ... يَكْــسِرْنَ مَــنْ نَظَــرِ النعَاسِ الفاتِرِ
أَهْــوَى فَأَسْــعَفَ بالتَّحِــيَّةِ خِلْسَةً ... والــشمس تَلْمَــعُ في جَــنَاحِ الطَّائِرِ
سِــرْنَا وأَنْــتِ مُقِــيمَةٌ ولَــرُبَّمَا ... كَــانَ المقِــيمُ عَلاقَــةً لِلْــسَّائِرِ

قال الآمدي:

«وهذا والله الكلام العربي، والمذهب الذي بُعد على غيره أن يأتي بمثله». ونقول: إن الوصــف يقــصر عن بلاغة هذه الأبيات، وبراعتها وسلامتها، وإنما يعجب من طروق

الخيال مع الأرق الذي يشرد الخيال، فلا يكون معه في موضع العجب. ولا بد من أن يكون قد أغفى بعض الإغفاء مع طول الأرق، ومعالجة السهر، فطرقه طيف الخيال في ذلك التهويم الخفيف الضعيف: فأما قوله «يشق على الملم الخاطر». فلم يرد خاطر القلب؛ لأن ذلك لا معنى له في هذا الموضع، وإنما أراد الماشي؛ لأنهم يقولون خَطَر البعير يخطِر خَطَرا: إذا مشى فضرب بذنبه يمينا وشمالا والقوّد الطوال. ووصف الإبل بأنها مع الطول كالقسي من النحول والضمر. فأما قوله «هلهلة الصباح»، فالعرب تقول ثوب مهلهَل وهَلهال وهِلهال وهَلْهلة، وهو الرقيق النسج. ومنه قيل لنسج العنكبوت الهلهل. وإنما وصف البحتريّ أوائل ضوء الصباح النائر، فإنما أراد المنيرة، وفي ذلك لغتان نار وأنار. قال الفراء[1]: أنا الطريق ونار وذكر مثل ذلك

---

(١) الفراء المراد هنا هو: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور، الأسدي مولاهم الكوفي النحوي، صاحب الكسائي، ومصادر ترجمته كثيرة منها مراتب النحويين (٨٦)، طبقات الزبيدي (١٤٣)، أخبار النحويين البصريين (٥١)، الفهرست (٧٣)، تاريخ بغداد (١٤/ ١٤٦)، الأنساب (٩/ ٢٤٧) نزهة الألباء (٩٨)، معجم الأدباء (٢٠/ ٩)، أنباه الرواة (٤/ ٨)، وفيات الأعيان (٦/ ١٧٦)، المختصر (٢/ ٣٠)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٧٢)، تهذيب التهذيب (٤/ ١٥٣).
العبر (١/ ٣٥٤) مرآة الجنان (٢/ ٣٨)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٦١)، تهذيب التهذيب (١١/ ٢١٢)، روضات الجنات (٤/ ٢٣٥) بغية الوعاة (٢/ ٣٣٣)، خلاصة تذهيب الكمال (٤٢٣)، مفتاح السعادة (١/ ١٧٨) وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١١٨) ومما ترجم له به: كان ثقة. وَرَدَ عن ثعلب أنه قال: لولا الفراء لما كانت عربية ولسقطت لأنه خلّصها، ولأنها كانت تُتنازع، ويدعيها كل أحد.
نقل أبو بُديل الوضاعي أن المأمون أمر الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو، وأفرده في حجرة، وقرر له خدمًا وجواري، ووراقين، فكان يُملي في ذلك سنين قال: ولما أملى كتاب: «معاني القرآن» اجتمع له الخلق فكان من جملتهم ثمانون قاضيًا، وأصل «الحمد» في مائة ورقة وقال ابن الأنباري: لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من النحاة إلا الكسائي والفراء لكفى. وقال بعضهم: الفراء أمير المؤمنين في النحو.
... وعن ثمامة بن أشرس: رأيت الفراء فناقشته عن اللغة، فوجدته بحرًا، وعن النحو فشاهدته نسيجًا وحده، وعن الفقه فوجدته عارفًا باختلاف القوم، وبالطب خبيرًا، وأيام العرب والشعر والنجوم فأعلمت به أمير المؤمنين فطلبه.
وللفراء كتاب: «البهي» في حجم «الفصيح» لثعلب وفيه أكثر ما في الفصيح، غير أن ثعلبًا رتبه على صورة أخرى. ومقدار تواليف الفراء ثلاثة آلاف ورقة. وقال سلمة: أملّ الفراء كتبه كلها حفظًا. وقيل عرف بالفراء؛ لأنه كان يفري الكلام. وقال سلمة: إني لأعجب من الفراء كيف يعظم الكسائي وهو أعلم بالنحو منه. مات الفراء بطريق الحج سنة سبع ومائتين وله ثلاث
=

يعقوب [١].

وقال قطرُب: [٢] نارت النار وأنارت، ونار البرق وأنار، فأما العلاقة بفتح العين فهي

=

وستون سنة، رحمه الله.

(١) هو: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت، البغدادي، النحوي، المؤدب شيخ العربية وصاحب كتاب: «إصلاح المنطق» ومن مصادر ترجمته الكثيرة:
طبقات النحويين واللغويين (٢٠٢، ٢٠٤)، الفهرست (٧٩)، تاريخ بغداد (١٤/ ٢٧٣)، نزهة الألبان (١٢٢)، معجم الأدباء (٢٠/ ٥٠)، وفيات الأعيان (٦/ ٣٩٥)، العبر (١/ ٤٤٣)، البداية والنهاية (١/ ٣٤٦)، النجوم الزاهرة (٢/ ٣١٧)، بغية الوعاة (٢/ ٣٤٩)، شذرات الذهب (٢/ ١٠٦)، نزهة الألبان (١٧٨)، إيضاح المكنون (١/ ٩٤)، الكامل في التاريخ (٥/ ٣٠)، تاريخ أبي الفداء (٢/ ٤٠)، مراتب النحويين (٩٥)، المزهر (٢/ ٤١٢)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ١٦).
ومما قال في ترجمته: «دَيِّنٌ خَيِّرٌ»، حجة في العربية... له من التصانيف نحو من عشرين كتابًا.
قال ثعلب:لم يكن له نفاذٌ في النحو، وكان يتشيع. فقد سأله المازني عن وزن «نكتَل» فقال: «نَفعَل» فرده، فقال: «نَفتَعِل» فقال: أتكون أربعة أحرف وزنها خمسة أحرف؟ فوقف يعقوب، فَبَيَّنَ المازني أن وزنه: «نَفتَل».
فقال الوزير ابنُ الزيات: تأخذ كل شهر ألفين ولا تدري ما وزن «نكتل»؟ فلما خرج قال ابن السكيت للمازني: هل تدري ما صنعت بي؟ فاعتذر.
ولابن السكيت شعر جيد، ويروى أن المتوكل نظر إلى ابنيه المعتز والمؤيد، فقال لابن السكيت: من أحب إليك: هما أم الحسن والحسين، فقال: بل قَنْبَرٌ (وهو خادم علي ﷺ) فأمر الأتراك، فداسوا بطنه، فمات... بعد يوم، وقيل: حُمل ميتًا في بساط. وكان في المتوكل نصب نسأل الله العفو.
مات ابن السكيت أربع وأربعين ومائتين.

(٢) قُطرُب هو: أبو علي محمد بن المستنير النحوي المشهور بقُطرُب، وقد جاءت ترجمته في عدة مصادر منها:
ديوان الإسلام (١٦٧٠)، هدية العارفين (٢/ ٩) الإعلام (٧/ ٩٥)، معجم المؤلفين (١٢/ ١٥)، معجم الأدباء (١٩/ ٥٢)، كشف الظنون (١١٥ وغير ذلك)، إيضاح المكنون (١/ ١٠٠ وغير ذلك)، شذرات الذهب (٢/ ١٥)، تاريخ بغداد (٣/ ٢٩٨)، مفتاح السعادة (١/ ١٣٣)، روضات الجنات (١٥٦)، الكامل في التاريخ (٦/ ١٢٩)، بغية الوعاة (٤٤٤)، وفيات الأعيان (١/ ٦٢٥)، لسان الميزان (٥، ٣٧٨)، نزهة الألبان (١١٩) مرآة الجنان (٢/ ٣١).
قال البغدادي في تاريخ بغداد: أحد العلماء بالنحو واللغة أخذ عن سيبويه وعن جماعة من علماء البصريين ويقال: إن سيبويه لقبه قطربًا لمباكرته إياه في الأسحار، قال له يومًا: ما أنت إلا قطرب ليل. والقطرب: دويبة تدب ولا تفتر.
نزل قطرب بغداد وسمع منه بها أشياء من تصانيفه وروى عنه: محمد بن الجهم السمري، وكان موثقًا فيما يحكيه. وبلغني أنه مات في سنة ست ومائتين.

-

علاقة الخَب. وبكسر العين هي: علاقة السوط وغيره.

قال البحتري أيضًا:

إذا مـا الكَـرَى أهْـدَى إليَّ خيالَهُ سَـقَى قُـرْبُهُ التَّبْـرِيحَ أَوْ نَقَعَ الصَّدَا

إذا انْتَـزَعَتْهُ مِـنْ يَـدَيَّ انْتِـبَاهَةٌ عَـدَدْتُ حَبِيـبًا راحَ مِنِّـيَ أوغَـدا

ولم أرَ مِثْلَيْـنَا ولا مِـثْلَ شَـأْنِنا نُعَـذَّبُ أيقاظًـا ونَـنْعَمُ هُجَّـدَا

أما الصَّدى ههنا: فهو الطيش؛ ومعنى نَقع الصدى: أي رواه. والبيت الثالث في هذه الأبيات في غاية الحسن والقوة والسلامة.

وقال البحتري أيضًا:

أقامَـتْ علـى الهِجرانِ ما إن تجوزه وخالَفَهـاَ بالوصـلِ طيفٌ لها يَسْري

وقـال السيوطي في بغية الوعاة: أخذ عن عيسى بن عمر، وكان يرى رأي المعتزلة النظامية، فأخذ عن النظام مذهبه، واتصل بأبي دلف العجلي، وأدب ولده، ولم يكن ثقة.

وقال ابن السكيت: كتبت عن قطرب قمطرًا، ثم تبينت انه يكذب في اللغة فلم أذكر عنه شيئًا وله مـن التصانيف: «المثلث» و «النوادر»، «الأصوات»، «العلل في النحو»، «الأضداد»، «والهمزة» «خلـق الإنسان»، «خلق الفرس»، «إعراب القرآن» المصنف الغريب في اللغة مجاز القرآن وغير ذلك، مات سنة ست ومائتين.

قال محققه: وقد جمعت مصنفاته بهامش ديوان الإسلام فبلغت اثنين وعشرين مصنفا هي:

١- الأصوات.

٢- المثلث (المثلثات في اللغة).

٣- النوادر.

٤- الرد على الملحدين في متشابه القرآن.

٥- الصفات.

٦- العلل في النحو.

٧- الأضداد.

٨- الهمز.

٩- خلق القرآن

١٠- خلق الفرس.

١١- إعراب القرآن.

١٢- المصنف الغريب في اللغة (الاشتقاق).

١٣- مجاز القرآن.

١٤- غريب الآثار.

١٥- غريب الحديث.

١٦- كتاب الأزمنة.

١٧- كتاب الفرق.

١٨- فعل وأفعل.

١٩- كتاب القوافي

٢٠- كتاب معاني القرآن.

٢١- كتاب الاشتقاق [وله كتاب قائم بذاته أو هو ما سبق تحت رقم (١٢)].

فكـــمْ في الدُّجَـــى مِنْ فَرْحةٍ بلقائِها ... وكـــم تُـــرْحَةٍ بالبَيْن منها لِذي الفجر
إذا الـلـيـلِ أعطانـــا من الوصْلِ بُلْغَةً ... تَنَاشَـنِي سَـيَر الـصباح إلى الهجـــر
ولم أَنْــيَ إســعافَ الكــرَى بِدُنُوِّها ... وَزَوْرَتِهـــا بَعْلَــم الهُــدُوِّ ومـــا تَدْري

ويـتمنى تطاول الليل وتماديه، ليتطاول ويتمادى زمان المتْعة بالطيف واللذة، بتخيله وتمثله. وهذا باب واسع وطريق مهيَع.

ومن رقيق ما قيل فيه قول ابن المعتز:

أيـــا بـــديعاً بـــلا شَـــبيه ... ويـــا حقَـــيقًا بِكُـــلِّ تـــيه
وَمَـــنْ جفانِـــي فـــلا أراهُ ... هَـــبْ لي رقـــادًا أراكَ فـــيه

وهذا نظير قول الشاعر:

يـــا نازِحًـــا نَـــزَحَتْ عَـــيْني قَطيعَتُهُ ... هَـــبْ لي مِنَ الدَّمْع ما أبكي عَلَيْكَ به

فـإن قـيل إنما استوهب ابن المعتز من الرقاد ما هو في يد محبوبه؛ لأنه يملك هجره وبعاده فيسهر، ولـيس يملـك المحبوب مادةَ الدمع فيُسْأل فيها والجواب عن ذلك: أن الأمرين واحد؛ لأن المعـشوق يقـدر على كل ما يبكي به عاشقه، ويذري دموعه، ويجلب ماءها ويستنفده، ويقـدر على الكف من ذلك، فيبقى دموعه بكمالها، ولا يُصْفِر ما فيه منها. فما سأل الشاعران إلا ما هو ممكن غير مُعْوِز.

وقال البحتري:

بـتُّ أبْـدِي وَجْـدًا وأكْتُمُ وَجْدَا ... لخـيَالٍ قَـدْ بَـات لِي مِنْك يُهْدَي
أقْـسَمَ الظَّنُّ فيهِ أنّي تَخَطيُّ الرَّمْلَ ... مـــن عـــالجٍ وأنّـــى تَهَـــدَّا
خطَّـــأ مـــا أزارنـــاهُ طُـــرُوقًا ... أم تَوَخـــيَّه للـــزيَّارَة عَمْـــدًا
جـــاء يـــسري فأشرقَتْ أرضُ نجد ... أسُـــرَاهُ وواصـــلَ الغـــيثُ نَجْـــدَا
لا يخـيب الـبلادُ تَخطِـرُ فـيها ... رُسُـل الـشوق من خَيالات سُعْدَى
وعَدتْـنا فمـــا وَفَـــتْ بِوِصَـــالٍ ... وَوَفَـــتْ حِـــينَ أوْعَـــدَتْ أنْ تَصُدَّا
قَـــرَّبَ الطـــيفُ مُنتهاها فأصبَحَتْ ... حديـــثا يـــناقض العَهْـــدِ عَهْـــدَا

وقال أيضًا:

مِـنْكِ طَـيْفٌ آلَـمَّ والأُفْـقُ مَلاَ ... نُ مِـنَ الْفَجْـرِ واعتـراضِ عَمـودِه

زائرٌ، أشرقَتْ لرؤيَتِه أغوارُ أرضِ العِراقِ بَعْدَ نجودِه
أرَبُ النفسِ كُلُّهُ ومتاعُ العَيْنِ في خَدِّه وفي تَورِيدِه
مُعطِيًا مِنْ وصالِهِ في كَرى النَّوْ مِ الذي كان لمانعًا في صُدُودِه
يَقَظَاتُ المُحِبِّ ساعات بُوسا هُ ونعماءُ عَيْشِهِ في هُجُودِه

مع وصف خيال المحبوب بأنه يبذل في النوم ما كان يضن به في اليقظة، ويصل في هذه الحال بعد صدوده في غيرها، وأن النعيم والمنفعة في الهجود مع طيف الخيال، كما أن الشقاء والمضرة في اليقظة مع هجران الحبيب وصدوده، فهو جادة مسلوكة، وجهة مأنوسة للشعراء، وسيجيء في شعري من ذلك ما سيوقف عليه بمشيئة الله. والحكم في تجويد وتقصير وإحسان وإساءة إلى من عرف ثم أنصف.

وقال البحتري أيضًا:

ومـا انفكَّ دَاعي البَيْنَ حَتَّى تزايَلَتْ قِبابٌ بِناها حاضِرٌ وخِيام
عشيةَ مـا بي عن شَبيبَ تَرَحُّلٌ فأمضي ولالي في شَبيبَ مُقامُ
فما نَلْتقي إلاَّ عَلَى حُلْمِ هاجِدٍ يُحِلُّ لنا جدْواكِ وهْوَ حرام

قال الآمدي: «وهذا قول ليس بينه وبين القلب حجاب»، وقد صدق في مقالته، وأنصف في شهادته. ومعنى قوله: «يحل لنا جدواك وهو حرام»: إنا نظفر في الحلم بما كنا نرد عنه في اليقظة، وننال ما كنا نُذاد عنه. فعبر عن البذل بالتحليل، وعن المنع بالتحريم، وهذا مليح، ومن بارع البلاغة والفصاحة؛ لأن الحظر والتحريم منع من الشيء وإن فُعِل. والتحليل بذل له وإن هُجر قال- أدام الله علوه- والذي أرويه: «يحل لنا جدواك وهي حرام»، لأن الجدوى مؤنثة. وقد رواه الآمدي على التذكير، وقد يجوز ذلك على المعنى؛ لأن معنى الجدْوى هو العطاء والفضل والإحسان.

وقال البحتري:

أرَجِّمُ في لَيْلي الظنونَ وارتَجي أواخِرَ حُبٍّ أخْلَفَتْني أوائِلُه
ولَيلةَ هوَّمنا على العِيسِ أرْسَلَتْ بِطَيفِ خيالٍ يُشبِه الحقَّ باطِلُهْ
فلولا بَياضُ الصُّبحِ كانَ تَشَبُّثي بَعطفَيْ غزالٍ بِتُّ وَهْنًا أُغازِلُه
وكم من يَدٍ لليلِ عندي حميدةٌ وللصبحِ من خَطْبٍ تُذَمُّ غوائِلُه

قوله «يشبه الحق باطله» من مليح الكلام ومقبوله. وقال الآمدي عقيب هذه

الأبيات: وهذا كله إنما حسن، وقبلته النفوس؛ لأنه اعتمد أن يخبر بالأمر على ما هو به، من غير زيادة ولا نقصان. فلا فصاحة لكلامه، ولا بلاغة ولا براعة. وكم من مخبر عن الشيء على خلاف ما هو به، لكلامه القبول، وإلى القلوب الوصول. وهذا يدل على أن حظ الألفاظ في الكلام الفصيح منظوما ومنثورا أقوى من حظ المعاني. وقد نبهت على ذلك في مواضع من كلامي، من أراد الاستقصاء وقف عليها.

وقال البحتري أيضًا:

ما نقضي لبانه عند لبنى … والمعنَّى بالغانيات معنى

هجرتنا يقظى وكادت على مذ … هبها في الصدود تهجر وسنى

بعد لأي وقد تعرض منها … طائف عرجت على الركب وهنا

ورأيت أبا القاسم الآمدي- مع حسن رأيه في البحتري، وميله إليه- يزعم أنه أخطأ في قوله:

هجرتنا يقظى وكادت على مذ … هبها في الصدود تهجر وسنى

قال: لأن خيالها يتمثل له في كل أحوالها، يقظى كانت أو وسنى. قال: لكن الجيد في هذا المعنى قوله:

أَرَدُّ دونَكِ يقظانًا ويأذن لي … عَلَيْكِ سُكْرُ الكَرى إنْ جِئْتُ وَسنَانا

قال: والذي أوقع البحتري في هذا الغلط، قول قيس بن الخطيم: [1]

(١) هو: قيس بن الخطيم بن عدي بن عمرو بن سواد بن ظفر، أبو زيد الأوس الشاعر، ذكره ابن حبيب في كنى الشعراء بتحقيقي، وهو ملحق بكتاب أسماء المغتالين برقم (١٠٣)، ومما علقت عليه به فيه أن قلت: ذكره ابن حزم في الجمهرة (٣٤٢) في ذكره لبني كعب (ظفر) بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة فقال منهم: قيس بن الخطيم... الشاعر، وأخته ليلى بنت الخطيم، قتل يوم الجسر، وله ابن آخر اسمه ثابت بن قيس له حمية.
وذكره ابن حبيب أيضًا في المحبر (ص ٢٣٣): في المتعممين بمكة لجمالهم مخافة النساء على أنفسهم، وذكر زوجته: حواء بنت يزيد بن السكتة بن كريز بن زعوراء في السنوة المبايعات رسول الله ﷺ من ابن عبد الأشعل، فقال: وحوراء بنت يزيد... وهي زوجة قيس بن الخطيم التي أوصاه بها النبي، وذكر أخته ليلى بنت الخطيم في المبايعات أيضًا في ظفر (ص ٤١٣) فقال: ليلى بنت الخطيم أخت قيس بن الخطيم من بني عدي عمرو كانت عند مسعود بن أوسي، وأخته لبنى بنت الخطيم أيضًا، وقال: كانت عند قيس بن زيد بن عامر وذكر أخته ريطة فيهم غير أنه تشكك فيها.

مــا تَمنَعِــي يَقْظَــى فَقَــدْ تُؤْتِينُه في الــنوم غــيرَ مُــصَرَدٌ محــسوبِ

قال: وكان الأجود أن يقول ما تمنعني في اليقظة فقد تؤتينه في النوم، أي ما تمنعينه في يقظــتي فقد تؤتينه في حال نومي، حتى تكون اليقظة والنوم منسوبين إليه. ثم قال: إلا أنه يتــسع من التأويل في هذا لقيس، ما لا يتسع للبحتري؛ لأن قيسا قال فقد تؤتينه نائمة. وقد يجوز أن يحمل على أنه أراد ما تمنعيني يقظى وأنا يقظان، فقد تؤتينه في النوم، أي في نومي ولا يسوغ مثل هذا في بيت البحتري، لأنه قال وسنىً ولم يقل في الوسن.

ونقــول إنه قد يمكن التأويل للبحتري في بيته، ما لم يمكن مثله لقيس؛ لأن البحتري لمــا قال وسنى، أتى بلفظة تدل على حال الوسن. والحال المعهود للوسن حال يشترك الناس فيها في النوم بالمعاد، كما أن الحال المعهودة لليقظة حال مشتركة في العادة، فقوله وسنى تنبئ عن كونه هو أيضًا نائما، وإنما أراد المقابلة بين يقظى ووسنى. وقول البحتري يقظــي: الأولى أن يحمــل على أن المراد به أنها هجرت في أحوال اليقظة. ومعنى يقظة يتعدى إليه. ألا ترى أن الآمدي حمل قول قيس «يقظى» على معنى وأنا يقظان وإن تبين الوجه فيه؟ فكيف لم يفطن لمثل ذلك في قول البحتري؟ وقوله «وسنى ويقظى» مثل قول قيس «يقظى». ولو مكن قيسا وزن الشعر من أن يقول «وسنى» في مقابلة «يقظى»، لعله ما عدل عنه إلى أن يقول في النوم؛ لأنه لم يكن عليه في وسنى إلا ما عليه في يقظى، وما يتأول له في أحد الأمرين يتأول بمثله في الآخر.

فأمــا أبيات قيس هذه في الطيف، فقد سبق فيها إلى كل معنى غريب عجيب، وهو قدوة في هذا المعنى لكل من تبعه تبع أثره، والأبيات:

أنّــى سَــرَيْتِ وكــنتِ غيرِ سَروبِ وَتُقَــرُّب الأحــلامِ غَيْــرُ قَــرِيبِ

مــا تَمنَعِــي يَقْظَــى فقــد تُؤْتِينَهُ في الــنوم غــيرَ مــصَرَّدٍ محــسوبِ

كــان المــنى بلقائهــا، فلقيــتها فلهــوتُ مــن لَهْــوِ امْرِئٍ مكذوبِ

أما قوله: «وكنت غير سروب» ولم يقل: وكنت غير ساربة؛ فله معنى عجيب؛ لأن الــسارب هو السائر نهارًا، كما أن الساري هو السائر ليلاً. ومن لم يسر نهارًا مع وضوح المسالك، والاهتداء إلى المقاصد، والأنس بضياء النهار، كيف يسري في الظلام وهو على الضد من هذه المعاني؟ فالعجب منه واقع في موقعه. وقوله «وتقرب الأحلام غير قريب» من مليح الإشارة إلى غرور الطيف، وكذب تخيله. فأما المصرَّد: فهو القليل. والتَّصْريد: التقلــيل. وتحتمل لفظة محسوب شيئين: أحدهما القليل أيضًا؛ لأن الشيء القليل يوصف

بأنــه محسوب وهذا التأويل أحد الوجوه في قوله تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فكــأن الشاعر أكد قوله: «غير مصَرَّد» بأنه أيضًا غير محسوب؛ كل ذلك لنفي التقليل. والوجه الآخر أن يكون معنى محسوب: أي متوقع منتظر، كما يقال: لم يكن كذا وكذا في حــسابي: أي مــا توقعته ولا انتظرته. فكأنه قال: تؤتينه في النوم غير مقلَّل، ولا متوقَّع منتظر؛ لأن زيارة الطيف في النوم ليست مما ينتظر ويتوقع. وقوله فلقيتها: معناه: فلقيت خــيالها؛ لأنــه لو كان لقيها لما كان مكذوبا. وقوله: «ظهرت لهو امرئ مكذوب» من فصيح العبارة، وأحسنها معنى.

وقال البحتري أيضًا:

أمَــا مُعين عَلَى الشَّوْقِ الذي غَرَبَتْ ... بــه الجــوانح والبَــيْن الــذي أفَدَا(١)
كــيف اللقاء وقد أضْحَتْ مُخَيِّمةً ... بالــشام لا كَثَــبًا مــنها ولا صَدَدًا(٢)
تهَاجُــرٌ أمَــمٌ ولا وصــل يَخلِطُهُ ... إلا تــزَاوُرُ طيْفَيــنا إذَا هَجَــدَا
وقــد يُزيــرُ الكرَىَ من لا زيارته ... قَــصْدٌ ويُدْنِــي الهوى مِنْ بُعْدِ مَنْ بعدا
بِتْــنا عَلَــى رِقْبَةِ الْواشِينَ مُكْتَفيَ ... صَــبابَةً نَتعاطَــى الــبَثَّ والكَــدَا
أمــا سَــألتَ بشَخصَيْنا هناك فقد ... غَابَــا، وأمَّــا خــيالانا فَقَــدْ شَــهِدا
ولم يَعُــدْ، لهــا طَــيفٌ فَيَفْجَوُنِي ... إلا علــى أبْــرَحِ الــوَجْدِ الذي عَهِدَا

قــال الآمدي: «لو كان قال: إلا تزاور طيفينا إذا هجدنا، كان عندي أجود، فكان المعــنى: إني إذا هجــدت رأيــتها في النوم. فكأنَّ نفسي ونفسها اجتمعتا، وكذلك إذا هجــدت هي ترى مثل ما رأيت، ويكون «طيفينا» محمولا على معنى نفسينا؛ لأن النفس هي التي ترى ما ترى في النوم، وهي التي تتمثل أيضا ما تتمثله في اليقظة. وقد يسوغ مع هــذا أيضًا قوله: «إذا هجدوا»: يريد النفسين، لأن نفس الإنسان هي التي تنام، كما قال الله تعــالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾. ونقول إنه لا شبهة في أنه لو قال البحتري: «إلا تزاور طيفينا إذا هجد» لكان صحيحًا مستقيمًا؛ لكن وزن الشعر لم يمكنه من ذلك، فعــدل إلى لفظ آخر، وما أراد إلا هذا المعنى بعينه؛ لأن الطيفين اللذين هما ما يتمثل في

---

(١) أفدَا: أي الهجر والفراق والغربة التي أصابت الفؤاد في حميمه فحطمته تحطيمًا.

(٢) صَــدَدا: يــريد لا قريب ولا ناحيته، والصدد ناحية الشيء، فقد فقَدَ سبل الوصول أو الاستدلال على محبوبه.

النوم ويتخيل، لا يوصفان بالهجود. وإنما عبر بالطيف عن صاحب الطيف؛ وعمن يتمثل له أو منه الطيف، وما ذلك ببعيد من الاستعارة في منثور الكلام، فضلا عن منظومة الذي يضيق عن الأغراض، ويحتمل فيه ما لا يحتمل في غيره. فأما قول الآمدي: إن النفوس هي التي تجتمع وتلتقي، ويتمثل لها ما تتمثله في يقظة أو نوم، وأن نفس الإنسان هي التي تنام، واستشهاده بالآية، فما كان ينبغي له أن يخوض فيه، ويدخل نفسه في مثله، فإنه ليس من عمله؛ ولا مما له به علم ومعرفة. وترك الإنسان الدخول فيما لا يعرفه أستر عليه. والنفس عبارة عن اللغة العربية عن أشياء كثيرة، منها الدم؛ ولذلك قالوا: «ما لا نفس له سائلة، فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه»، وسميت النفساء بهذا الاسم، لأجل الدم. ويعبر بالنفس عن الذات، يقال فعلت ذلك بنفسي، وجاء زيد نفسه، ونفسي تتوق إلى كذا وكذا: أي أنا تائق إليه.(١)

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب في مادة «نفس»: النَّفسُ: الروح. وقال ابن سيدة: وبينهما فرق ليس من غرض هذا الكتاب. وقال أبو إسحاق: النفس في كلام العرب يجري على ضربين إحداهما: قولك خرجت نفس فلان أي روحه، وفي نفس فلان أن يفعل كذا وكذا أي في روعه. والضرب الآخر معنى النفس فيه معنى جملة الشيء وحقيقته تقول: قتل فلان نفسه، وأهلك نفسه، أي أوقع الإهلاك بذاته كلها، وحقيقته.

والجمع من كل ذلك أنفس، ونفوس...

قال ابن خالويه: النفس: الروح، والنفس: ما يكون به التمييز، والنفس: الدم والنفس: الأخ، والنفس بمعنى عنده والنفس: قدر دبغة.

وقال ابن بَرّيّ: أمَّا النفس الروح. والنفس ما يكون به التمييز فشاهدهما قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فالنفس الأولى هي التي تزول بزوال الحياة.

والنفس الثانية: التي تزول بزوال العقل، وأما النفس الدم: فشاهده قول السموأل:

تسيل على حدّ الظُّبات نفوسنا   وليست على غير الظُّبات تسيل

وإنما سمي الدم نفسًا لأن النفس تخرج بخروجه. وأما النفس بمعنى الأخ: فشاهده قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾. وأما النفس بمعنى عند: فشاهده قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك.

والأجود في ذلك قول ابن الأنباري: إن النفس هنا الغيب، أي تعلم غيبي لأن النفس لما كانت غائبة أوقعت على الغيب ويشهد بصحة قوله في آخر الآية قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ كأنه قال: تعلم غيبي يا علام الغيوب.

... وروي عن ابن عباس أنه قال لكل إنسان نفسان: إحداهما النفس العقل الذي يكون به =

والذي تهذي به الفلاسفة من أن النفس جوهر بسيط، وينسبون الأفعال إليها، مما لا محصول له، وقد بينا فساده في مواضع كثيرة من كتبنا، ودللنا على أن الفاعل المميز الحي الناطق، هو الإنسان الذي هو هذا الشخص المشاهد، دون جزء فيه أو جوهر بسيط يتعلق به، وليس هذا موضع بيان ذلك والكلام فيه. فقول الآمدي: إن النفس هي التي ترى في اليقظة والنوم، وهي التي تنام في الحقيقة، خطأ منه فاحش؛ لأنه قد أضاف أفعال الحي الذي هو الإنسان المشاهد إلى غيره. والذي ينام على الحقيقة ويستيقظ، هو الحي الذي هو الإنسان المشاهد. فأما قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾، فمعناه الصحيح: أن الله تعالى هو الذي يقبض ويجمع حركات الأحياء، ويصرفهم في وقت موتهم، وعبر بالنفوس عن ذوات الأحياء؛ لأن تصرف الحي مع النوم وحركته تنقبض وتقل، كما تنقبض حركته مع الموت.. وإن كان النائم حيا، والميت فاقدا لحياته. ثم قال تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾، أي يستمر منعها عن جميع التصرف والأفعال، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى: أي يعيد النائم في أحوال اليقظة إلى ما كان عليه من التصرف.

وقال البحتري أيضًا:

طَيفٌ تأوَّبَ مِنْ سُعْدَى فحيَّاني ... أهْواءُ وَهْوَ بُعَيْدَ النَّوْمِ يَهْوَاني
فيالها زَوْرَةٌ يَشْفَى الغليلُ بها ... لو أنها جَلَبَتْ يَقْظَى لِيَقْظَانِ
مَهْزوزَةٌ إنْ مَشَتْ لم تُلفَ هِزَّتُها ... في الخيزُرَانِ ولم توجَدْ مع البان

=

التمييز، والأخرى نفس الروح التي بها الحياة.

وقال ابن الأنباري: من اللغويين من سوى بين النفس والروح، وقال: هما شيء واحد إلا أن النفس مؤنثة والروح مذكر. قال وقال غيره: الروح هو الذي به الحياة، والنفس هي التي بها العقل.

... وقال الزجاج: لكل إنسان نفسان: إحداهما: نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل بها، ويتوفاها الله كما قال تعالى. والأخرى: نفس الحياة، وإذا زالت زال معها التنفس، والنائم يَتَنَفَّس. وقال وهذا الفرق بين تَوَفِّي نفس النائم في النوم، وتوفي نفس الحي. قال: ونفس الدم، وفي الحديث: ما ليس له نفس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه.

قال محققه: وأنا أرى أن النفس هي التي يكون بها حركة البدن من نمو وحركة، والروح هي ما يعقل بها ويميز وبها يثاب ويعاقب، وهي التي لا تموت؛ لأنها من أمر ربي والنفس تموت وموتها فساد للبدن، وتفصيل ذلك في غير هذا الموضع.

يُدْنِــي الكرى شَخصَهَا مِنِّي وَيُبعِدُنِي ... هَجْــرٌ فَيُــبعُدُ مِنِّي شَخُصهَا الدَّانِي

أما قوله: «أهواه وهو بعيد النوم يهواني» فإنما يريد أنني أهواه على الحقيقة، وهو بعيد النوم يتخيل لي شخصه وطيفه وزيارته لي، فكأنه يهواني. والبيت الثالث في غاية الملاحة والرشاقة. وفي البيت الرابع رواية تخالف ما حكيناه، وهي:

يُدْنِــي الكرى شَخصَهَا مِنِّي وَيُبعِدُنِي ... هَجْــرٌ فَيُــبعُدُ مِنِّي شَخُصهَا الدَّانِي

ومعنى الرواية الأولى أن هجرها لي مبعد في الحقيقة عن لقائها، ونأى بشخصها عني، وإن خَيَّل الكرى لي الدنوّ إليها.

والــرواية الثانية معناها: أنني أتخيل في النوم دنوّ شخصها مني، فإذا انتبهت بالوجد، وجدت شخصها بعيدا، فكأن الاستيقاظ هو الذي أبعد شخصها، كما أن الكرى أدناه، وجَوَّدَ العتابيّ في قوله:

ولمــا اسْــتَقَرَّ الــنومُ في جَفْنِ عَيْنِهِ ... وماَتَــتْ لَــه أوصــالُه والمفاصِــلُ

رَمَــت غمراتُ الموتِ رَمْيًا بِنَفْسِها ... وللــيلِ سْــترٌ حــولها مــتهَادِلُ

فَأَهْــدى إليــنا الليلُ شَخْصًا تناسَبَتْ ... إلى الحُــسن مــنه صــورةٌ وسمائِــلُ

فــباتَتْ غمامــاتُ النعــيم تَجودُنا ... لهــا دَيــمٌ حــتى الــصباحِ ووابِــلُ

وأحسن كل الإحسان مسلمُ بن الوليد[^1] في قوله:

[^1]: (١) مــسلم بن الوليد هو: صريع الغواني المشهور، الأنصاري مولاهم، البغدادي، وقيل بل كوفي نزل بغداد، ومن مصادر ترجمته:
التاريخ لابن معين (٣٦٧)، طبقات خليفة (٢٧٦)، التاريخ الكبير (٦/٢٥)، التاريخ الصغير (٢/ ٢٣٦)، الــشعر والشعراء (٥٢٨)، الضعفاء للعقيلي (٢٤٥)، الجرح والتعديل (٥/٣٩٥)، تاريخ بعــداد (١٣/ ٩٦)، ســير أعــلام النبلاء (٨/ ٣٦٥) ومما قال في ترجمته: كان شاعرًا، مداحًا، مُحْسنًا، مُفَوَّهًا، وهو القائل في جعفر البرمكي:
كأنــه قمــر أو ضــيغمٌ هَــصِرٌ ... أو حــيةٌ ذكــرٌ أو عــارضٌ هَطِــلُ
لا يــضحك الدهــر إلا حــين تسأله ... ولا يعَــبِّسُ إلا حــين لا يُــسئَلُ
مــات في أواخــر دولــة الرشيد وديوانه مشهور وفي مصارع العشاق (١/ ٣٧) عن المبرد: أن مسلم بن الوليد الأنصاري لما وصل الرشيد في أول يوم لقيه أنشده قصيدته التي يصف فيها الخمر وأولها:
اديــرا علــيّ الكــأس لا تشربا قبلي ... ولا تطلــبا مــني عــند قــاتلتي ذَحلي
(الــذحل أي الــثأر). فاستحسن ما حكاه من وصف الشراب واللهو والغزل وسماه يومئذ صريع

ولــــيلةَ بــــاتَ اللهــــوُ إلا بقــــيةٌ تــــداركها طــــيفٌ أَلَــــمَّ مُــــسَلِّما
جمعــــنا معاذيــــرَ العــــتابِ بــــرقدَةٍ مَــــشتْ بَيْنَنا تَطْوِي الحديثَ المُكتَّما

وأحسن النمر بن تُوْلَب[1] في قوله:

=

الغواني بآخر بيت منها وهو:

هــل العــيش إلا أن تــروحَ مع الصِّبا وتغــدُو صــريعَ الكــأسِ والأعينِ النُّجلِ

(النجل: الواسعة الحسنة الجميلة).

وممــا قــال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد في ترجمته: مولى أسعد بن زرارة الخزرجي. شاعر يعــرف بــصريع الغواني. وهو كوفي في نزل بغداد، وكان مداحًا مجيدًا مفوهًا. بليغًا، مدح هارون الرشيد، والبرامكة، والرشيد سماه: صريع الغواني (ثم أورد القصة التي سبق ذكرها) ثم ذكر بإسناده إلى أبــو الحسن بن البراء عن شيخ له قال: قال مسلم بن الوليد ثلاثة أبيات تناهى فيها وزاد على كل الشعراء أمدح بيت، وأرثي بيت، وأهجى بيت.

فأما المديح فقوله:

تجــود بالــنفس إذا ضــن البخيل بها والجــود بالــنفس أقــصى غايــة الجود

وأما الهجاء فقوله:

قــبحت مناظــره فحــين خــبرته حــسنت مناظــره لقــبح المخــبر

وذكــر بإســناده إلى يحــيى بــن معاذ لما ظهر الشيب بالمأمون كان يتمثل بهذا البيت من شعر مسلم بن الوليد:

أكــره شــيبي، وأخــشى أن يــزايلني أعجــب بــشيء علــى البغضاء مودود

قال أبو الحسن بن حدان: فحدثت به أبا تمام، فقال: أتعرف بقية الشعر؟ قلت: لا، فأنشدني:

نــام العــوازل واســتكفين لائمــتي وقــد كفــاهن نهــض البيض في السود
أمــا الــشباب فمفقــود لــه خلــف والــشيب يــذهب مفقــودًا بمفقــود

وقال أبو الحسن بن حدان: سمعت أبا تمام الطائي يقول بخراسان: أشعر الناس وأسهبهم كلامًا بعد الطبقة الأولى بشار، والسيد الحميري، وأبو نواس، ومسلم بن الوليد بعدهم.

(١) ذكــره ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص ٦٢) فقال: هو من عكل، وكان شاعرًا جوادًا، ويسمى الكيس لحسن شعره، وهو جاهلي أدرك الإسلام وهو القائل لرسول الله ﷺ:

أتــا أتيــناك وقــد طــال الــسفر نقــود خــيلاً ضمــرًا فــيها عــسر
نطعمهــا الــشحم إذا قــل الــشجر والخــيل في إطعامهــا اللحــم ضــرر

(عــسر: يريد فيها شراسة وصعوبة وقوة وقسوة). يعني اللبن، وعاش إلى أن خرف واهتز، وألقى على لسانه أصبحوا الراكب (أي أسقوه الصبوح).

=

تَــأَوَّبَ صُــحْبَتِي وَهُــمُ هُجــودٌ خَــيالٌ طَــارِقٌ مِــن أُمِّ حِــصْنِ
أَلَمْ تَــرها إلَــيكَ الــيومَ جــاءَتْ بمــلْءِ العَــيْنِ مِــن كَــرَمٍ وحُسْنِ

والناس يستحسنون قديمًا لمالك ابن أسماء،[1] وقد رويت لغيره، قوله:

=

ذكر الأجمعي عن حماد أنه قال: أظرف الناس: النمر بن ربيعة بن النمر وهو القائل:

أهــيم بدعــد مــا حيــيت فإن مت أوكــل بدعــد مــن يهــيم بهــا بعدي

ومما يتمثل به من شعره قوله:

ومــتى تــصبك خصاصة فَارْجُو الغنى وإلى الــذي يهــب الــرغائب فارغــب

وقوله:

فــإن ابــن أخــت القوم مصغى إناؤه إذا لم يــزاحم خالــه بــأبي جلــد

(١) هو: مالك ابن أسماء بن خارجة الفزاري جاءت ترجمته في عدة مصادر منها:
أشعر والشعراء (٦٦٦)، الأغاني (١٦/ ٤١)، معجم المرزباني (٢٦٦)، سمط اللآلي (١٥)، تاريخ الإســلام (٤/ ١٨٨)، لــسان الميزان (٥/ ٢)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٥٧) وقال: من فحول الــشعراء، لــه وفادة على عبد الملك بن مروان، وكان عاملاً على الحيرة للحجاج، وكان جميلاً وسيمًا ومن شعره:

ربمــا قــد لقــيت أمــس كئيــبًا أقطــع اللــيل عَبْــرةً ونحيــبا
أيهــا المــشفق المُلــح حِــذارًا إن للمــوت طالــبًا ورقيــبا

وذكره ابن حبيب في كتابه كنى الشعراء، ومن غلبت كنيته على اسمه بتحقيقي ملحق بكتاب أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام. برقم (١٦٩) وعلقت عليه بقولي:
هو: مالك ابن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر أبو الحسن الفزاري الشاعر الغطفاني، قــال ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص ١٨٢): كان آباؤه سادة عطفان، وكان مالك شاعرًا غزلاً ظريفًا وهو القائل:

وحــديث ألــذه وهــو ممــا يــشتهي الــسامعون يــوزن وزنــا
مــنطق عاقــل ويلحــن أحــيانًا وأحلــى الحــديث مــا كــان لحــنا

الأبيات..

وكان أخوه عيينة هوي جارية لأخته هند بنت أسماء، فاستعان بأخيه مالك فقال مالك:

أعــيين هــلا إذ كلفــت بهــا كــنت اســتعنت بفــارغ العقــل
ألتــيت تــرجو الغــيث مــن قبلــي والمــستغاث إلــيه في شــغل

عَـنَّتْ لِعَـيْنِيَّ ليلَـى عِنْدَ مَسْرَاها فَـبِتُّ أَرشُـفُ يُمْـنَاها ويُـسْرَاها
وَقُلْـتُ أهلاً وَسَهْلاً إذ هُدِيتَ لنا إن كـنتَ تمـثالَها أو كـنْتَ إيَّاها

ومما استحسن لدِعبل بن عليّ الخزاعي،(١) واستُلْطِف معناه، قوله:

(١) وهـو دعـبل بن علي بن رزين بن عثمان بن عبد الله بن بديل بن ورقاء أبو علي، ومن مصادر ترجمته:
طـبقات الشعراء (٢٦٤)، الشعر والشعراء (٥٣٩)، الأغاني (٩٨/ ٢٩)، الموشح (٢٩٩)، تاريخ بغداد (٨/ ٣٨٢)، الفهرست (٢٢٩)، معاهد التنصيص (١/ ٢٠٢)، معجم الأدباء (١١/ ٩٩)، ميـزان الاعـتدال (٢/ ٢٧)، العبر (١/ ٤٤٧) وفيات الأعيان (٢/ ٦٦)، البداية والنهاية (١٠/ ٣٤٨)، لـسان الميزان (٢/ ٤٣٠)، النجوم الزاهرة (٢/ ٣٢٢)، تهذيب ابن عساكر (٥/ ٢٢٧)، سير أعلام النبلاء (١١/ ٥١٩) ومما قال مؤلفه في ترجمته:
أبـو علـي الخزاعـي شاعر زمانه، له ديوان مشهور، وكتاب طبقات الشعراء، وكان من غلاة الشيعة، وله هجو مُقْذِع. رأى الإمام مالك.
يروي عنه: محمد بن موسى البربري وغيره. بلغت جوائز عبد الله بن طاهر له ثلاثمائة ألف درهم.
وقـيل: كـان أحدب، اصم. وقيل: هجا المأمون والكبار، وكان خبيث اللسـان والنفس حتى أنه هجا قبيلة خزاعة. ويقال: هجا مالك بن طوق فدس عليه من طعنه في قدمه بحربة مسمومة فمات مـن الغـد سـنة ست وأربعين ومائتين يقال: لامه صاحب له في هجاء الخلفاء فقال: دعني من فضولك، أنا والله أستصلب مذ سبعين سنة ما وجدت من يجود بخشبة.
قـال الخطيب في تاريخ بغداد: أصله من الكوفة، ويقال من قرقيسياء، وكان يتنقل في البلاد، وأقام ببغداد مدة، ثم خرج منها هاربًا من المعتصم لما هجاه، وعاد إليها بعد ذلك، وكان خبيث اللسان قبـيح الهجـاء. وقد روى عنه أحاديث مسندة عن مالك بن أنس وغيره، وكلها باطلة نراها من وضع ابن أخيه إسماعيل بن علي الدعبلي، فإنها لا تعرف إلاّ من جهته، وزعم أحمد بن القاسم: أن دعـبلاً لقب واسمه الحسن، وقال ابن أخيه: اسمه عبد الرحمن، وقال غيرهما: اسمه محمد، وكنيته أبو جعفر، فالله أعلم.
... ثم ذكر بإسناده إلى محمد بن يزيد النحوي قال: حدثني من سمع دعبلاً يقول: انشدت أبا نواس شعري:

أيـن الـشباب وأيـة سـلكا لا أيـن يطلـب ضـل، بـل هلكـا
لا تعجـبي يـا سـلم مـن رجـل ضـحك المـشيب برأسـه فبكـى

فقـال: احسنت ملء فيك واسماعنا، قال: وكان والله فصيحًا.... قال أبو القاسم إسماعيل بن علي الخزاعي:
ولـد دعـبل سـنة ثمان وأربعين ومائة، ومات سنة ست وأربعين ومائتين بالطيب، فعاش سبعًا وتـسعين سنة وشهورًا.. ويكنى أبا علي واسمه عبد الرحمن بن علي وإنما لقبته دايته لدعابة كانت
=

سـرَي طيفُ سُعْدَى حِينَ حانَ هُبوبُ وَقَـضَّيْتُ شَـوقِي حِـيَن كَادَ يَثُوب
ولم أرَ مَطْـرُوقًا يَحُـلُّ بِطَـارِقٍ ولا طارِقًـا يَقْـرِي المُنَـى وَيُثِـيب

وقال البحتري أيضًا:

أمَّـا الخَـيالُ فإنَّـهُ لم يِطْـرُقِ الاْ بِعَقِـبِ تَـشَوُّفٍ وَتَـشَوُّقِ

قَـدْ زَارَ مِـنْ بُعْدٍ فَنَهْنَه مِنْ جَوًى ضَـرِمٍ وَسَـكَّنَ مِـن فُـؤادٍ مُقْلَقِ
ولَـرُبَّما كَـانَ الكَـرىَ سَـببًا لنا بَعْـدَ الفِـراقِ إلى اللِّقَـاءِ فَنَلْتَقِـي

أما البيت الثالث، فله ما شاء من قبول، وحلاوة وطلاوة.

وقال البحتري أيضًا:

مِـثالُكِ مِـن طيفِ الخيالِ المعاوِدِ أَلَمْ بِـنَا مِـنْ أُفْقِـه المتـباعِدِ
يُحيِّـي هُجُودًا مُتَنَشِّينَ مِنَ الكَرَى ومـا نَفْـعُ إهْـداءِ الـسلامِ لهاجِدِ
فـإذا هـي مالَتْ لِلعْنَاقِ تَعطَّفَتْ تَعَطُّـفَ أُمْلُـودِ مِـنَ الْـبانِ مَائِدِ
إذا وصَـلَتْنا لم تَـصِلْ عَـنْ تَعمُّدٍ وإن هجـرَتْ أَبْـدَتْ لَنا هَجْرَ عامِدِ

وقال أيضًا:

خَطَـرَتْ فِي الـنَّوْمِ مِـنها خَطْرَةٌ خَطْـرَةَ البَـرْقِ بَـدَا ثُمَّ اضْـمَحَلْ
أيُّ زَوْرٍ لَـكَ لَـوْ قَـصْدًا سَرَى وَمُلِـمٍ بِـكَ لَـو حَقًّـا فعَـلْ
يَتَـرَاءَى والكَـرَى في مقْلَـتي فـإذَا فارقَهـا الـنَّوْمُ بَطَـلْ
قمـر أَتبعْـتُهُ مِـنْ كَلَـفٍ نَظَـرَ الـصَّبُ بِـهِ حَتَّـى أَفَـلْ

ولهـذه الأبيات الملاحة كلها، والحلاوة جميعها، للبيتين الأولين منها الفضل الظاهر علـيها، وما رأينا الآمدي طرب لما أوردها، وما شرع في شيء من مدحها، وقد يفعل ذلك فيما هو دونها أو مثلها، وهي جديرة بالطرب، حقيقة بالعجب.

وقال أيضًا:

طَـرَقَتْنا في الخَـيالاتِ نُعْـمُ أمُّ بَكْـرٍ فأسْـعَفَتْ أمُّ بَكْـرِ

=

فيه فأرادت ذعبلا فقلبت الذال دالا.

فِي بُــدُوٍّ مِـــنَ الـــشَّبابِ علـــيها ورَقٌ مـــن جديـــده المـــسبَكَرِّ[1]
كَمُلَـــتْ أَرْبَـــعٌ لَهـــا بَعْـــدَ عَشْرٍ وَمَـــدَى الـــبَدْرِ أَرْبَـــعُ بعْـــدَ عشر
خلَّفَـــتْ دَارَهـــا بَجِـــزْوَى فباتَتْ بَيْنَ سَحْرَيْ شَرْوَى الضَّجيجِ ونحري
لـــو دَرَتْ مـــا أنـــتْ لمَنَّتْ بنجح لم يُكَـــدَّرْ ونائـــلٍ غَيْـــرَ نـــزر

ومعنى البيت الأول، أنها طرقتنا في غير الخيال وفي الخيال، ولولا ذلك لم يكن للواو العاطفة معنى، والمسبَكِر: التام الكامل.

وقال أيضًا:

قُـــلْ للخـــيالِ إذا أَرَدْتَ فعـــاوِدِ تُـــدْني المـــسافَةَ مِـــن هوًى مُتباعِدِ
فلأَنْـــتَ في نَفْـــسِي وَإِنْ عَنَّيْـــتَني وبَعَـــثْتَ لِي الأشـــجانَ أحْلَـــى وَافِدِ
باتَـــتْ بِـــأحلامِ النِّـــيامِ تَعُزُّنـــي رُوْدُ التَّـــثَنّي كالقَـــضِيبِ المائـــد
ضَـــاهتْ بحُلـــتها تَلَهُّـــبَ خدِّها حـــتى غَـــدَتْ في أَرْجُـــوَانٍ جامِـــدِ

أحـــدهما: أنه استعار للتثني وصف صاحبه للمقاربة. والآخر: أن سرعة الشباب لا تكـــون إلا مـــع الـــنعمة والرطوبة، فحمل على المعنى، وأراد أنها ناعمة التثني، أو رطبة التعطف.

وقال أيضًا:

بعيْـــنِكِ إعْوَالِـــي وطُـــولُ شَـــيهقي وَإِخفَـــاقُ عَـــيْني مِنْ كَرًى وَخفُوُقِي
علـــى أنْ تَهْـــوِيمًا إذا عـــارَضَ اطَّبي سُـــرَى طائِـــفٍ في غير وقتِ طُروق
ســـرى جائبا للخرق بخَشْي ولم يكن مَلَـــمًّا بإسْـــرَاء وجَـــوْبِ خُـــرُوقِ
فَـــبَاتَ يُعاطِـــيني عَلَـــى رِقْـــبَةِ العِدَا وَيَمْـــزُجُ رِيقًـــا مِـــنْ جَـــناهُ بريقي
وبِـــتُّ أَهـــابُ المِـــسْكَ مِنْهُ وَأتَّقي رِدَاعَ[2] عَـــبيرٍ صـــائِكٍ[3] وَخَلُـــوقِ

---

(١) يريد نضرة الشباب ورونقه وتمامه وحسنه واعتداله وقوته وبهاؤه. والمراد أن أم بكر بخلت عليه بمـــا يـــريد مـــن القرب أو الوصل، فأعطاه طيف الخيال منها كل ما يريد ويتمنى ويرجو بسرعة وبدون طلب أو مطل أو الحاح أو ترجٍ أو احراج بل وأعطاه منها فوق ما كان يأمل في الواقع

(٢) رَدَاع: أي اثر الطيب بالجسم.

(٣) صائك: أي التصاق الطيب بالجسم.

أرَى كذبَ الأحلامِ صِدقًا وكم صغت إلى خبر أُذنايَ غير صَدُوقِ
وما كانَ مِن حَقّ وبَطلٍ فقد شَفَى حرارةَ متبولٍ وخَبلَ مَشُوقِ

وقال أيضًا:

أَحْبِبْ إليّ بِطَيفِ سُعْدَى الآتي وطُرُوقه في أعجَبِ الأوقاتِ
أنّى اهتدَيْتِ لَمحرمِينَ تصَوَّبُوا لِسفُوحِ مَكْةَ مِنْ رُبَا عَرَفاتَ
ذكَّرتِنا عَهْدَ الشَامِ وعَيْشَنا بَيْنَ القِبابِ البيضِ والهضبات
إذْ أَنْتِ شكلُ مُخالِفٍ وُمُوَافِقٍ والدَّهْرُ فيك ممانِعٌ ومُؤَاتِي
لولا مكاثَرةُ الخطوبِ وَنحتُها من جانبيَّ لكُنْتِ من حاجاتي

وقال أيضًا:

إذا نسيتُ هوَى لِيْلَى أشادَ بِهِ طيفٌ سَرَى في سَوَادِ اللَّيْلِ إذْ جَنَحَا
دَنَا إليَّ عَلَى بُعْدٍ فأرَّقَني حتَّى تَسبَلَّج ضَوْءُ الصُّبْحِ فاتَّضَحا
عَجِبْتُ مِنهُ تَخَطِّي القاعَ مِنْ إضَمٍ وجاوزَ الرَّمْلَ مِنْ خَبْتٍ وما بَرِحا

قال الأمدي: كيف يقول تخطِّي القاع، وجاوز الرمل، ثم يقول وما برحا، ثم يقول: كأنه أراد ما برح على الحقيقة، ثم سأل نفسه، فقال: فإن قيل هي التي لم تبرح على الحقيقة، وأما خيالها إذا طرق وهي بعيدة، فقد برح. وأجاب بأن خيالها إنما هو صورتها التي تتصور في النفس، والصورة أيضًا غير بارحة على الحقيقة. فقولهم طرق الخيال، وزار الخيال: مجاز.

ويجوز أن يكون قوله وما برحا: أي ما برحت هي، وجعل خيالها بدلا منها، ووضعه في موضعها؛ لأنه هي. ألا ترى إلى قول جرير: [(١)]

---

(١) هو: جرير بن عطية بن حذيفة (الخطفي). أبو حرزة. ومن مصادر ترجمته: طبقات ابن سلام (١/ ٣٧٤)، الشعر والشعراء (٣٧٤)، الأغاني (٧/ ٣٨)، سمط اللآلئ (٢٩٢)، شرح المقامات الحريرية (٢/ ٣٤٩)، وفيات الأعيان (١/ ٣٢١) تاريخ الإسلام (٤/ ٩٥) مرآة الجنان (١/ ٢٣٥)، البداية والنهارية (٩/ ٢٦٠)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٦٩)، شرح شواهد المغنى (١/ ٤٥)، شذرات الذهب (١/ ١٤٠)، خزانة الأدب (١/ ٣٦)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٠) كنى الشعراء (ت ١١٨) وهو ملحق بكتاب أسماء المغتالين وكلاهما من تحقيقي، الجمهرة (ص ٢٢٥).

طَرَقَتْكَ صائِدَةُ القلوبِ وليْسَ ذَا ... وَقْتُ الزِّيارَةِ فارجِعي بسلامِ

قال الآمدي: وقيل إنه أراد خيالها فوضع ذلك في موضعه؛ لأن خيالها ليس هو شيئا غير صورتها. قال: وقد استجفى الناس قوله: «فارجعي بسلام»، وإنما قال هذا؛ لأنه عاتب عليها، ألا ترى إلى قوله بعد هذا:

لو كانَ عهدُكِ كالذي عاهَدْتِنا ... لوَصَلْتِ ذاكَ فكانَ غَيْرَ رِمامِ

قال: وطرفة أول من طرقه، فقال:

فقل لِخَيالِ الحَنْظَلِيَّةِ يَنْقَلِبْ ... إليها فإني واصِلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلْ

قال: وهذا أعذر من جرير؛ لأنه قال: فإني واصل حَبْلَ مَنْ وَصَلْ. فدلّ على أن الحنظلية هجرته وواصلته غيرها، فطرد خيالها. ونقول إن لبيت البحتري معنى ما وقع

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: شاعر زمانه، أبو حَزْرَة جرير بن عطية بن الخطفي التميمي، البصري.

مديح يزيد بن معاوية، وخلفاء بني أمية وشعره مدون عن عثمان التيمي قال: رأيت جريرًا وما تُضَمُّ شفتاه من التسبيح، قلت: هذا حالك وتقذف المحصنات؟ فقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وعدٌ من الله حق.

وعن بشار الأعمى قال: أهل الشام أجمعوا على جرير، والفرزدق، والأخطل النصراني.

قلت: فَضَّل جريرا على الفرزدق جماعة. وروى يونس بن حبيب أن الفرزدق قال لامرأته نوار: أنا أشعر أم ابن المراغة؟ قالت: علا عليك على حُلْوِه، وشركك في مُرِّه.

وقال مروان بن أبي حفصة:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما ... حُلْوُ القريض ومره لجرير

وقيل: كان جرير عفيفًا منيبًا توفي سنة عشر بعد الفرزدق بشهر. وذكره ابن قتيبة في الشعر والشعراء، وذكر أن جده حذيفة لقبه الخطفي بقوله:

وعنقا بعد الرسيم خيطفا

ثم ترجم له فقال: وهو من بني كليب بن يربوع، وكان له أخوان: عمرو، وأبو الورد.

وولد جرير لسبعة أشهر، وعاش سبعًا وثمانين سنة، ويكنى أبا حرزة، وكان له عشرة من الولد ثمانية ذكور منهم بلال بن جرير، وكان أفضلهم وأشعرهم...

وكان جرير في فحول الشعراء الإسلام وكان يشبه من شعراء الجاهلية بالأعشى. وقال أبو عمرو بن العلاء: كانا بازيين يصيدان ما بين العندليب إلى الكركي، وكان من أحسن الناس تشبيبًا.

حدثني سهل بن محمد عن الأصمعي قال سمعت الحي يتحدثون عن جرير أنه قال: لولا ما شغلني من هذه الكلاب لشببت تشبيبًا تحن منه العجوز إلى شبابها حنين الناقة إلى سقبها.

للآمـــدي، وهـــو أشبه بالصواب مما ذكره، وهو أنه لما قال: عجبت منه تخطّي القاع، وجاوز الرمل، وذلك كله لم يكن، وإنما تشبه له وتخيل إليه ما لا حقيقة له، أراد أن تبين هذه الإضافة غير حقيقية، فكان له أن يقول: وما تخطّى، ولا جاوز الرمل، كما قال في موضـــع آخر: «أنّي اهتديت وما اهتديت»، فعدل إلى أن قال: «وما برحا»؛ لأن من لم يبرح مكانه ما تخطى ولا جاوز، فكأنه استعار الطيف الذي ما تخطّى الوصف له بأنه ما بـــرح، وإن كان لا يليق به من كل الوجود؛ لأن الذي لم يبرح ما فارق مكانه، ولا زال مـــن موضـــعه. وهـــذا وصف لا يليق بالطيف، لكن ما لم يبرح ما تخطّى. والطيف ما تخطـــى، فكأنه ما برح فأما قوله: إن الصورة أيضا غير بارحة فكلام غير صحيح؛ لأن الطيف الذي يتصوَّر ويتمثل، ليس بشيء يشار إليه، فتثبت له البراح، أو تنفي عنه وقوله: يجوز أن يريد بقوله ما برحا: أي ما برحت هي، ووضع خيالها في موضعها قريب.

فأما بيت جرير الذي أنشده فالأولى في معناه: أن يريد أنها طرقته بنفسها زائرة على الحقيقة لا طيفها. فقال لها عتبا عليها، أو خوفا من وضع الزيارة في غير موضعها: ارجعي بـــسلام؛ لأنه قد قال في البيت: وليس ذا حين الزيارة. ومن خاف الرقباء، ولم يأمن على محـــبوبه من الأقوال الخارجة، والتهم الفادحة، استعفى مما يطرق ذلك ويثمره. وليس في لفظ البيت ما يدل على اختصاص بالخيال؛ لأن الطروق الذي هو الزيارة ليلاً، يكون لغير الخيال، كما يوصف به الخيال، وهو في غير الخيال حقيقة، وفي الخيال مجاز. وحمل الكلام -إذا أمكن- على الحقيقة أولى.

وأي معنى لقوله: «وليس ذا حين الزيارة» إن كان عنى الطيف؟ وله كل معنى إذا أراد به الزيارة الحقيقية. الذي قاله الآمدي قد قاله قوم، وغيره أصوب منه وأقرب. فأما بيت طرفة؛ فهو صريح في طرد الخيال.(١)

---

(١) هـــو: طرفة بن العبد بن سفيان أبو إسحاق. ذكره ابن حبيب في كنى الشعراء (ت: ٧٥) بتحقيق وهو ملحق بكتاب أسماء المغتالين من الأشراف. وتـــرجم لـــه ابـــن قتيـــبة في الشعر والشعراء (ص ٢٦). فمما قال في ترجمته: هو: أجودهم طويلة وهو القائل:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

ولـــه بعدها شعر حسن، وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلاّ القليل، وكان حسب من قومه جـــريئا علـــى هجائهم وهجاء غيرهم، وكانت أخته عند عبد عمرو بن بشر بن مرثد، وكان عبد عمرو سيد أهل زمانه، فشكت أخت طرفة شيئًا من أمر زوجها إليه، فقال:

ولا عـــيب فـــيه غـــير أن لـــه غـــنى   وإن لـــه كـــشحًا إذا قـــام أهـــضمًا

وقد بين عن العلة في طرده له، وليس كبيت جرير الذي هو بغير الخيال أشبه، وفيه أوقع. وقال البحتري أيضًا:

أمِنكِ تأوُّب الطيفِ الطروبِ ... حبيبٌ جاءَ يَهْدي مِنْ حَبيبِ
تَخَطَّى رِقْبَةَ الواشِينَ وَهْنًا ... وبُعْدَ مسافةِ الحَزْنِ المَجُوبِ
يُكاذِبُني وأُصْدُقُهُ وِدَادًا ... ومِنْ كلَفٍ مُصادَقَةُ الكَذُوبِ

وقال أيضًا:

عَجَبًا لهجرِكِ قبلَ تَشتيتِ النَّوَى ... منًّا وَوَصْلُكِ في التَّنائي أَعْجَبُ
أنَّى اهتديتِ وما اهتديتِ لمُغْمَدٍ ... في لَيْلِ عانَةَ والثُّرَيَّا تَجْنُبُ
أتُركِتِهِ بالخيلِ ثم طلبتِه ... بخليجِ عانَةَ حينَ عَزَّ المطلَبُ

وقال أيضا:

إذا قلتُ قَضَّيْتُ الصَّبابَةَ رَدَّها ... خيالٌ مُلِمٌّ مِنْ حَبيبٍ بجانبِ

=

وأن نساء الحيّ يعطفن حوله ... يلقين عسيبًا من سرارة ملهمًا

فبلغ عمرو بن هند الشعر، فخرج يتصيد ومعه عبد عمرو فأصاب حمارًا فعقره، وقال لعبد عمرو أنزل إليه فأعياه فضحك عمرو بن هند وقال: لقد أبصرك طرفة حين قال:

ولا عيب فيه غير أن له غنى ... وإن له كشحًا إذا قام أهضما

وكان عمرو بن هند شريرًا، وكان طرفة قال له قبل ذلك:

فليت لنا مكان الملك عمرو ... رغوثًا حول قبتنا تخور

فقال عبد عمرو: أبيت اللعن الذي قال فيك أشد مما قال فيّ، قال: وقد بلغ مني أمره هذا؟ قال: نعم، فأرسل إليه وكتب إلى عامله على البحرين، فقتله. ويقال إن الذي قتله: المعلى بن حسن العبدي. والذي تولى قتله بيده معاوية بن مرة الأيقلي وحيّ من طسم، وجديس، ومن جيد شعره قوله:

أرى قبر نحام بخيل بماله ... كقبر غوي في البطالة مفسد
أن الموت يعتام الكريم ويصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى الدهر كنزًا ناقصًا كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت إن أخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه في اليد

يَجُـــوُد وقد ضَنَّ الأُلَى شَغَفِي بِهِمْ ويدنــو وقــد شَــطَّتْ ديارُ الحبائبِ
تُــرِينكِ أَحــلامُ النــيَّامِ وَبينَــنَا مَفَــاوِزُ يَــستفرِغنَ جُهْــدَ الرَّكائبِ

وقال أيضًا:

ســرَى الطيفُ مِنْ ظَمياءَ وَهْنًا فَمرحَبًا وأهلاً بِمَسْرَى طيفِ ظمياءَ مِنْ مَسْرَى
ألمَّ بِـــــــــــسَفْرٍ لاغبِـــــــــــينَ ذَرَعْــن بهــم من أذرِعاتٍ إلى بُصْرَى

وقال أيضًا

قــد كــانَ طــيفُك مرَّةً يُغرَي بي يُعــتادُ رِكْبَــي طارِقًــا وركابِــي
فــالآنَ مــا يــزدادُ غــيرَ مُغَــبَّةٍ ومــنَ الــصدودِ زيــارَةُ الإغــباب

قــوله «ومــن الصدود زيارة الإغباب»: من ألطف الكلام، وأشده وصولا إلى كل قلب:

أَلَمَّــتْ وهــل إلمامُهــا لكَ نافعٌ وزارَتْ خَــيالاً والعُــيونُ هواجُــعُ
بِنفْــسِيَ مَــنْ تَنأى وَيَدْنُو ادِّكارُها ويَــبْذُلُ عــنها طَــيفُها وتُمانِــعُ

وقال أيضًا:

طَــوِّلْ هــذا اللــيلَ أنْ لا كَــرَى يُــرِيكَ مَــنْ تَهْــوَى وأنْ لا هُجوعُ
يَمْــضِي هــزيعٌ لم يَطُــفْ طائِفٌ مِــنْ عِــنْدِ أسمــاء ويــأتي هَــزيعُ

وقال أيضًا:

يَهْــدِي الخَــيالُ لنا ذِكْرَى إذا طافا وافَــى يُخادعُــنا والــصُّبْحُ قد وَافَى
تَــصْدُقُ المنَع سَلْمَى حِينَ نسألُها نَــيْلاً وتَكْذِبُــنا وصْــلا وإسْــعافا

وقال أيضًا:

وزورُ خَــيالٍ بَعْــدَ وَهْــنٍ أَلَمَّ بي وأحــشاؤُهُ مــنْ فَــرْط خِيفَتِه تهفُوُ

إن قيل كيف يليق هذا الوصف بالخيال، قلنا: المعنى أن أحشاء صاحب هذا الطيف، لو زارني هذه الزيارة وتهفو من الخيفة، فأجرى على الطيف ما هو لصاحب الطيف، وهذا توسع يحتمل للشعراء، ويحسن منهم.

وقال أيضًا:

قمــرٌ في دُجُــنَّةِ اللــيلِ يُوفِــي أَمْ خَــيالٌ مِــنْ عــندِ سُعْدَى بوالي

مُسْتعِفٌ بالذي مَتى سُئِلَتْهُ … عَدِمَتْ حَظَّها مِنَ الإسْعافِ

وقال أيضًا:

مَرْحَبًا بالخَيالِ مِنْكِ المُطِيفِ … في شُموسٍ لم تُتَّصِلْ بكُسوفِ
كيفَ زُرْتُمْ ودونَكُمْ رَمْلُ يَبْري … نَ فَقَلْجٌ والحَيُّ غَيْرُ خَلُوفِ
ورداءِ الظلماءِ في صِبْغِه الأسودِ … والصُّبْحُ مِن وراءِ سُجوفِ
زَوْرَةٌ سَكَّنَتْ غَليلاً وقد ها … جَتْ غَليلاً مِن هائمٍ مَشْغُوفِ

وقال أيضًا:

خيالُ ماوِيَّةَ المطيفُ … أَرَّقَ عيْنًا لها وكِيفُ
أكثَرَ لومي عَلَى هواها … ركْبٌ على دِمْنَةٍ وقوفُ

وقال أيضًا:

وطيفٌ سرَى حتى تناوَلَ فِتْيَةً … سَرَوْا يَحْمِلُونَ الليلَ حتَّى تمَزَّقا

وقال أيضًا:

تَسْتَهِش[1] النَّفسُ إلى زَوْرَ الكَرَى … ومتاعُ النَّفْسِ في زَوْرَ الأَرَقْ

وقال أيضًا:

أهلاً بذلِكُم الخيالِ المقبلِ … فعلَ الذي نَهْواهُ أم لمْ يَفْعَلِ

وقال أيضا:

فلا عهدَ إلاَّ أن يعاوِدَ ذكرُها … ولا وصلَ الا أن يَزُورَ خيالُها
وقد كنت أرجو وصلَها بعد هجرِها … فقد بانَ منِّي هجرُها ووصالُها

وقال أيضًا:

إذا أرسلَتْ طيفًا يُذَكِّرُني الجَوَى … رَدَدْتُ إليْها بالنجاحِ رَسولَها

وقال أيضًا:

أَجِدُّك أنْ لمَّاتِ الخَيالِ … لُمذَكِّرتي بأيَّامِ الوِصالِ

(١) يريد أن النفس ترتاح وتنظر زورة طيف الخيال لها حاملاً معه صورة المحبوب وصوته وحركاته مسليًّا للنفس عن بعده وهجره وغيابه مما يخفف عن النفس آلام البعاد والهجر، ويقلل الضنى، وإن كان يهيج الشوق إليه إلاّ أن الإنسان يستيقظ من ذلك وهو سعيد نشوان فرحان.

تُــــؤَرِّقُني إذا الـــرُّقَباء نامُـــوا ... أَنَـــاةُ الخَطْـــوِ فاتِـــنَةُ الـــدَّلالِ

وقال أيضًا:

هـــــذا الحبـــــيبُ فمـــــرْحَبًا ... أَنَّـــي اهْـــتَدَى والليـــلُ في سِـــرْباله

بـــل كـــيفَ زَارَ ودُونَـــهُ مجهـــولَةٌ ... مِـــنْ سَبْـــسَبٍ قَفْـــرٍ تُمـــورُ بآلـــهِ

ســـارٍ تجـــاوَزَ مِـــنْ شقائقِ عَالِجٍ ... بُعْـــدَ المَـــدَى مِـــنْ سَـــهْله وَجباله

حَتَّـــى تَقَنَّـــصَهُ الكَـــرَى لِمُتَّـــيَّمٍ ... لـــوْلاَ الكَـــرَى لـــشَفاهُ مِـــنْ بَلْباله

يـــريد: لولا أن زيارته في الكرى، وهي تخييل وتمثيل، لشفته هذه الزيارة من بلباله؛ لأنها إذا لم تكن في الكرى كانت حقيقة، فانتفع بها، ووقعت في موقعها.

وقال أيضًا:

زائـــرٌ في المـــنَامِ يَهْجُـــرُ يقظـــا ... نَ ويدنـــو مـــع المـــنام وصـــالُهْ

طـــارقٌ أرهـــقَ الـــزيارَةَ والصب ... حُ مُطِـــلٌ أو قـــددنا إطلالـــه

وقال أيضًا:

وخـــيال ألمَّ مـــنها عَلَـــى ســـا ... عـــةِ هجـــرٍ فقلـــتُ أهـــلاً وسهلا

وقال أيضًا:

يُهَـــيِّجُ لي طـــيفُ الخـــيالِ صَبابَةً ... فللـــه مـــا طـــيفُ الخـــيالِ المهَيِّجُ

وقال أيضًا:

أعـــادَ شكْوَى مِن الطَّيفَ الذي اعْتادَا ... رُشْـــدًا تَوَخَّـــيْتَ أَمْ غَـــيًّا وإفْـــسادًا

ألَمَّ بي وبـــياضُ الـــصُّبْحِ مُنْتَظَـــرٌ ... قـــد رَقَّ عَـــنْهُ ســـوادُ الليلِ أوْ كادا

وقال أيضًا:

خَطِـــيَّةُ لَـــيْلَةٍ تمْـــضِي وَلَمَّـــا ... يؤرِّقْنِـــي خـــيالٌ مِـــنْ سُـــعَادِ

وَهَجْـــرُ القُـــرْبِ منها كان أشْهَى ... إلى المـــشْتَاقِ مِـــنْ وَصْـــلِ الـــبِعَادِ

وقال أيضًا:

يَبِـــيتُ خـــيالُها مـــنها بَـــديلاً ... وَيَقْـــرُبُ ذِكْـــرُها عِـــندَ الْـــبِعَادِ[1]

(١) هـــذا البيت هو بيت القصيد، حيث تدور كل الأبيات حوله، فالمراد هو أن المحب يبيت مع خيال محبوبه بدلاً منه عندما يكون بعيدًا عنه فيشعر وكأنَّ معه جليسًا ومؤنسًا وسامرًا وواصلاً ما يهوى المحب من المحبوب.

وقال أيضًا:

بَعُـدَتْ دَارُهـا فمـا مِـنْ تلاقٍ غـيرُ طـيفٍ يـزورُني في الهجُـودِ
أتـراها دامَـتْ عَلَى العَهْدِ أمْ مِنْ عـادَةِ الغانِـياتِ نَقْـضُ العُهـودِ

وقال أيضًا:

عجـبًا لطـيفِ خـيالِكِ المتعاهِدِ ولوصِـلِك المـتقارب المتـباعِدِ
يدنـو إذا بَعُـد المَـزارُ وَيَنْـثَني في القـربِ لـيس أخو الهوَى بمُعانِدِ
مـاذا أراد ملـم طيفكِ في الكرى مـن واغِـلٍ بـين الحـوادث شارِدِ
مُتَخَيَّـرٍ يَغْـدُق بعـزمٍ قـائمٍ في كـلِّ نائـبَةٍ وجَـد قاعِـدِ

وهذه الأبيات حسنة، ما يشينها إلاَّ عجز البيت الثاني، في قوله:

في القربِ ليس أخو الهوَى بمُعانِدِ

طرح هذا البيت، من أوله إلى هذا الموضع من آخره، طرح صحيح مليح، فليته ختمه بمثل ما بدأ به، وللناظم سكرات وغَمَرات يدخل عليه فيهن من الشبه ما لا يكاد ينحصر وينضبط.

وقال أيضًا:

فـإنْ بَخِلْـتِ فـلا وَصْـلٌ ولا عِدَةٌ غـيرُ اهـتداءِ خـيالٍ مـنك زَوَّارِ
لا شـكلَ للقمـر الـسَّارى عليَّ فما بَيَّـنْتُ طلْعَـتَهُ مِـنْ طيفكِ السَّاري
إذْ ضـارعُ الشمسِ في حُسْنٍ وفي مِقَةٍ وَطَالَـع الـبدَر في وَقْـتٍ وَمقـدارِ
لـيلٌ تَقَـضَّي ومـا أدْرَكْـتُ مأْرَبتي مـن اللِّقـاءِ ومـا قَضَّيْتُ أوْطارِي

وقال أيضًا:

تَقَـضَّى الـصِّبا إلا خـيالاً يعودُني بـه ذُو دَلالٍ أحـورُ الطـرفِ فاتـرُهْ
يَجوبُ سوادَ الليلِ من عندِ مُرْهَفٍ ضـعيفِ قَـوامِ الخـصرِ سـود غدائرُهْ
فَيُذكِـرُني العهـدَ القـديَم وَلـيلةً لـدى سَـمُراتِ الجِـزْعِ إذ نامَ سامِرُهْ

وقال أيضًا:

مـــن أجـــلِ طيفك عادَ مُظْلِم ليله ... أهْـــوَى إلـــيه مِـــنْ مُـــضيءِ نهـــارِهِ

وقال أيضًا:

سَـــرَى من خَيَالِ المالِكيَّةِ مَا سَرَى ... فَتـــيَّمَ ذا القَلْـــبَ المُعنَّـــى وَأسْـــهَرا

دُنُـــوًّا بـــأحلامِ الكَـــرى مِنْ بَعيدَةٍ ... تُـــسيء بـــنَا فِعـــلاً وتُحْسِنُ مَنظَرا

ومَـــا قَـــرُبتْ بالطـــيفِ إلاّ لِتَنْتوِي ... ومَـــا وَصَـــلَتْ في الـــنَّوْمِ إلاّ لِتَهْجُرا

تَطـــيبُ بمـــسراها البلادُ إذا سَرَتْ ... فَيَـــنْعَم رَيَّاهاوَيَـــصفو نَـــسِيمُها

وقال أيضًا:

إذا زَرودُ دَنَـــتْ مِـــنَّا صـــرائمُها ... فـــلا محالـــةَ مِـــنْ زَوْرٍ يوافيـــنا

بِتْـــنا جُنوحًا عَلَى كُثْبِ اللِّوَى وَأبَى ... طَـــيفٌ لِظَمْـــيَاء إلاّ أنْ يُحيِيـــنا

ومِمـــا يدخل في هذا الباب بعض الدخول، أن البحتري شبه بزائر زاره بالخيال سَرَى وبه خيفة أن لا يكون لزيارته حقيقة، فقال:

وزَورٍ أتـــاني طارقًـــا فَحـــسِبتُهُ ... خـــيالاً أتَـــى مِـــن آخر الليلِ يَطْرُقُ

أقَـــسِّمُ فـــيه الظَّـــنَّ طورًا مُكَذِّبًا ... بـــه أنَّـــهُ حَـــقٌّ، وَطَـــوْرًا اصَـــدِّقُ

أخـــافُ وأرجُو بُطْلَ ظَنِّي وصِدْقَهُ ... فللـــه شـــكِّي حِـــينَ أرْجُـــو وَأفْرَقُ

وقال في هذا المعنى:

حَبـــيبٌ سَرى في خُفْيَةٍ وَعَلَى ذُعْرِ ... يَجـــوبُ الدُّجى حتى التَقَيْنَا عَلَى قَدْرِ

تَـــشَكَّكْتُ فيه من سُرُوري وخِلْتُه ... خَـــيالاً أتى في النَّوْم مِن طَيْفِه يَسْرِي

انقضى ما للبحتري.

وهـــذا ابتداء ما أخرجته من شعر أخي[١] ﷺ، ونَضَّر وجهه (ما أخرجه المؤلف من شعر أخيه الشريف الرضي في طيف الخيال).[٢]

---

(١) أخوه هو الشريف الرضي، وستأتي ترجمته بعد في التعليق القادم إن شاء الله تعالى.

(٢) مـــا بـــين المعقـــوفين زيادة تصنيفية، والشريف الرضي هو: أبو الحسن محمد بن الطاهر أبي أحمد الحـــسيني بـــن موســـى بـــن محمد بن موسى إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحـــسين بـــن علـــي بن أبي طالب الموسوي، الحسيني، البغدادي، الشاعر، ومن مصادر ترجمته الكـــثيرة: يتيمة الدهر (٣/ ١٣١)، تاريخ بغداد، (٢/ ٢٤٦)، المنتظم (٧/ ٢٧٩)، المحمدون من الـــشعراء (٤٨٩)، الكامل في التاريخ (٩/ ٢٦١)، وفيات الأعيان (٤/ ٤١٤) الذريعة (٧/ ١٦)،
=

المختصر (٢/ ١٥٢)، العبر (٣/ ٩٥)، تتمية المختصر (١/ ٤٩٤)، الوافي بالوفيات (٢/ ٤٧٤)، مرآة الجنان (٣/ ١٨)، البداية والنهاية (١٢/ ٣، ٤)، نزهة الجليس (١/ ٣٥٩) شذارت (٣/ ١٨٢)، روضات الجنات (٥٧٣)، كتاب الرجال (٢٨٣)، إيضاح المكنون (١/ ٤٣٠)، هدية العارفين (٢/ ٦٠)، أعيان الشيعة (٤٤، ١٧٣)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٢٨٩) الأعلام (٦/ ٩٩)، معجم المؤلفين (٩/ ٢٦١)،ديوان الإسلام (٩٨٦)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٨٥) وقال في ترجمته: صاحب الديوان، له نظم في الذروة حتى قيل: هو أشعر الطالبيين. ولي النقابة بعد أبيه، وديوانه يكون أربع مجلدات، وله كتاب «معاني القرآن» ممتع يدل على سعة علمه مات في المحرم، وقيل: صفر سنة ست وأربعمائة وله سبع وأربعون سنة، وكان شيعيًّا، وقال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد:

نقيب الطالبين ببغداد، كان يلقب بالرضي ذا الحسبين. وهو أخو ابو القاسم المعروف بالمرتضى. وكان من أهل الفضل والأدب والعلم. ذكر لي أحمد بن عمر بن روح عنه أنه تلقن القرآن بعد أن دخل في السن. فجمع حفظه في مدة يسيرة، قال: وصنف كتابًا في معاني القرآن، يتعذر وجود مثله، وكان شاعرًا محسنًا، وسمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله الكاتب بحضرة أبي الحسين بن محفوظ، وكان أحد الرؤساء يقول: سمعت جماعة من أهل العلم بالأدب يقولون: الرضي أشعر قريش، فقال: ابن محفوظ: هذا صحيح وقد كان في قريش من يجيد القول إلا أن شعره قليل، فأما مجيد مكثر فليس إلا الرضي أنشدني القاضي أبو العلاء محمد بن علي قال: أنشدنا الشريف أبو الحسن الرضي لنفسه:

اشتر العز بما شئت ... فما العزُّ بغالي
بقصار الصفر إن شئت ... أو السُّمر الطوال
ليس بالمغبون عقلاً ... من شرى عزًّا بمال
إنما يدخر المال ... لأثمان المعالي

قال لي علي بن أبي علي: ولد الرضي ببغداد في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وكانت وفاته يوم الأحد السادس من المحرم سنة ست وأربعمائة، ودفن في داره بمسجد الأنباريين.

وقال محققه: وقد جمعت كتبه بهامش ديوان الإسلام فكانت على النحو التالي:

١- ديوان شعر كبير في أربعة مجلدات.
٢- خصائص الأئمة.
٣- الآثار النبوية.
٤- تخليص البيان في مجاز القرآن.
٥- أخبار القضاة ببغداد.
٦- الزيادات في شعر أبي إسحاق الصابئي، وشعر أبي تمام.

قال رضي الله عنه، وهي قطعة مفردة:

إنَّ طـــيفَ الخَـــيالِ زار طُـــروقا والمطايـــا بـــين القَـــنان وشَـــغْبِ[1]

=

٧- حقائق التنزيل في تفسير القرآن.

٨- كتاب الحسن من شعر الحسيني (انتخبه من شعر ابن الحجاج).

٩- كتاب المتشابه في القرآن.

١٠- مجازات الآثار النبوية.

١١- نهج البلاغة من كلام علي بن أبي طالب.

١٢- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٣/ ٣٥٢): شَغْب: بفتح أوله وسكون ثانية وآخره باء موحدة هو تهييج الشر، وهي ضيعة خلف وادي القرى كانت للزهري وبها قبره،...

وأنشد ابن الأعرابي:

وقلن لا منزل إلا شَغْب

وقال كثير:

لتـــبكِ البواكـــي المبكـــيات أبا وهبْ علـــى كـــل حال من رخاء ومن كرْبَ

أخـــا الـــسلم لا يعـــيا إذا هي أقبلت علـــيه ولا يجـــوى معانقـــة الحـــرْبَ

فـــإن تـــك قـــد ودعـــنا بعـــد خُلّةٍ فـــنعم الفـــتى في الحيَّ كنت وفي الركْبَ

ســـقى الله وجهًـــا غـــادر القوم رَمْسَةُ مقـــيمًا ومـــرّوا غـــافلين علـــى شَغْبَ

وقال ياقوت أيضًا في المصدر السابق (٤/ ٤٠١): القَنَانُ: بالفتح وآخره نون، علم مرتجل.

قـــال أبو عبد الله السكوني: إذا خرجت من حبشي جبل يمنةَ عن سميراء سرت عقبة ثم وقعت في القَنَان: وهو جبل فيه ماء يدعى العسيلة وهو لبن أسد ولذلك قيل:

ضـــمن القَـــنَان لَفَقْـــعسٍ ســـوآتها إن القـــنان لفقْـــعسٍ لمُعَمّـــرُ

مُعَمَّرٌ: أي ملجأ.

وقال الأزهري: قَنَان: جبل بأعلى نجد. وقال زهير:

جعلـــن القَـــنان عـــن يمـــيني وحَزْنَهُ وكـــم بالقَـــنانِ مـــن مُحِـــلّ ومُحْـــرم

وبئر قَنَان: موضع ينسب إلى القناني أستاذ الفراء. وقال أبو إبراهيم الفارابي مصنف ديوان الأدب: أتـــاني القـــوم بـــزرافتهم -أي بجماعتهم- بتشديد الفاء قال: هذا قول القَنَاني أستاذ الفراء وهو منسوب إلى بئر قَنَان لا إلى الجبل الذي في قوله:

ومَرَّ على القَنَان من نَفَيانه

فوقَ أكوارهنَّ انضاء شوْقٍ ... طَرقوا بالغرامِ دونَ الرَّكْبِ

كلّما أنْتِ المطيُّ مِن الإعْياء أنّوا منَ الجوَى وَالْكرْبِ

زَارَني واصلاً عَلَى غَيْرِ وَعْدِ ... وانثَنى هاجرًا علَى غيْرِ ذَنْبِ

كانَ قَلْبي إليه رائدَ عَيْني ... فعلَى العَيْنِ مِنّةٌ لِلْقَلْبِ

بتُّ وَجْدي ومَن رأى اليومَ قَبْلي ... ناقعًا للغليلِ من غيرِ شُرْبِ

سامِحًا لي عَلَى البعادِ بنَيْلٍ ... كان يَلْويه في زَمانِ القُرْب

كان عنديَ أن الغُرورَ لطَرْفي ... فإذَا ذلك الغرورُ لِقَلْبي

والفنان وشغب: موضعان معروفان، ومعنى كان قلبي إليه رائد يعني أن التخيل والتصور إنما هو للقلب، فكأن القلب خَيَّل للعين أنها ترى حبيبها، فالمنة له عليها.

والبيت الأخير: معناه أني كنت أضيف الغرور إلى طَرفي، وفي النوم صار الغرور لقلبي؛ لأنه خَيَّل لي ما لا حقيقة له. ولهذا المعنى نبأ لا بد من أن أذكره، وهو أنني لما كنت قلت في جملة قصيدة:

وعهدي بتمويه عينِ المحبِّ ... تنمُّ عَلَى قلبِه الطّائرِ

فلما التقينا برغمِ الرُّقا ... دمَوَّهَ قلبي عَلَى ناظري

وذلك على ما أظن في سنة نيف وثمانين وثلاث مئة، تداول أهل الأدب إنشاد هذه الأبيات، واستغربوا هذا المعنى، وشهدوا بأنه مستجدٌّ، غير مسبوق إليه، ولا متعرَّض له.

وسمع أخي، ﷺ، هذه الأبيات؛ لأنه قلَّما كان يخرج لي شيء من الشعر، إلاّ ويسمعه وينشده، ولا يخرج له -رحمه الله- طولَ حياته إلاّ ما ينشدنيه، فشهد لهذا المعنى بأنه مبتكَر مختَرع، وأنه مستحسن مستعذَب. ولم أسمع له -رحمه الله- طول حياته في هذا المعنى شيئا. ولما تصفحت شعره ﷺ لإخراج ما يتعلق بالطيف في هذا الوقت، وهو سنة نيف وعشرين وأربع مائة، وجدت هذه الأبيات البائية ملحقة بخطه -رحمه الله- في الجزء الثاني من شعره، في حاشية، فنقلتها عنه كما وجب؛ لأنها بخطِّه الذي لا أشك فيه.

ولست أعلم كيف جرت الحال في هذا المعنى، وهل قصد، رحمه الله، إلى نظمه على علم، حتى لا يخلو من شعره هذا المعنى المستغرب المستعذب، أو أنسَى -رحمه الله- سماعه له، وقذف به خاطره، وجرى على هاجسه، فأثبته تقديرا على أنه مبدع له، لا متبع فيه. فكثيرا ما يلحق الشعراء ذلك، فيواردون في بعض المعاني المسبوق إليها، وقد كانوا

سمعوها فأُنسوها فالخواطر مشتركة، والمعاني معرَّضة لكل خاطر، جازية على كل هاجس.

وكـــيف جرى الأمر، وعلى أي القسمين كان، فإن العنصر واحد، والمعدن واحد، وأينا سبق إلى معنى، فالآخر بالنَّجْر والسِّنْخ إليه سابق، وبه عالق.

وفي البيت الذي أوله:

كان قلبي إليه رائد يعني

إلمام بهذا المعنى، لأنه أضاف الخيال إلى القلب، لأنه فيه يتخيل، وله يتمثل، والبيت الأخير الذي أوله:

كان عندي أن الغرور لطرفي

هو الذي استوفى فيه المعنى الذي في شعري، لأنه أضاف الغرور في النوم إلى القلب، بعـــد أن كان مضافا إلى العين. ومع هذا التشاكل والتجانس، لما نظمته أنا مزية ظاهرة، لأنني قلت: إن من العادة أن تَغُرَّ عين المحب قلبه. وفي الخيال غَرَّ قلبُه عينه. وهذا التفصيل لا يوجد إلا في أبياتي.

وله من أثناء قصيدة:

طـــرقَ الخيالُ بِبَطْنِ وَجْرَةَ[1] بَعْدَ ما ... زَعَـــمَ العـــواذِلُ أنَّـــهُ لا يَطْـــرُقُ

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٥/ ٣٦٢):

وَجْـــرَة: بالفتح ثم السكون، وهو واحد الذي قبله أو تأنيثه- والذي قبله: وَجْرة وقال الأصمعي: وجرة بين مكة والبصرة، بينها وبين مكة نحو أربعين ميلاً ليس فيها منزل فهي مرب للوحش.

وقـــيل: حـــرَّة ليلى، ووجرة والسُّيُّ: مواضع قرب ذات عرق ببلاد سليم. قاله السكري في قول جرير:

حـيـيت لـــست غـــدًا لهـــن بصاحب ... بجزيـــز وجـــرة إذا يخـــدن عجـــالا

وقال بعض العشاق:

أرواح نعمـــان هـــلاّ نـسـمة ســـحرًا ... ومـــاء وجـــرة هـــلاّ نهلـــة بفمـــي

وقال: وجرة دون مكة بثلاث ليال. وقـــال محمد بن موسى: وجرة على جادة البصرة إلى مكة يحـــرم أكثر الحاج وهي سرة نجد ستون ميلاً لا تخلو من شجر ومرعى ومياه والوحش فيها كثير.

وقـــال أبو عبيد الله السكوني: ووجرة منزل لأهل البصرة إلى مكة بينه وبين مكة مرحلتان، ومنه إلى بستان ابن عامر ثم إلى مكة وهو من تهامة؛ قال أعرابي:

وفي الحـــيرة الغـــادينَ منْ بطنِ وجرة ... غـــزالٌ أحـــمُّ المقلـــتينِ ربـــيبُ

أَتَحَتُّنا بعد الرُّقاد وَقَسْوةً ... أيامَ أصيفك الودادَ وأُمْذَقُ

أنّى اهتَدَيْت وما اهتديتِ وبَيْنَنا ... سُورٌ عَلَيَّ من الظلامِ خَنْدَقُ

هذه أبيات ناصعة رائقة، عليها مَسْحة من أعرابية، وعَبْقة من بدوية ومعنى زَعْم العواذل أنه لا يُطرِق: أنهم ظنوا ذلك واعتقدوه.

وله ابتداء قصيدة:

أراقِبُ من طيفِ الخيالِ وصالاً ... ويأبَى خيالٌ أنْ يَزُورَ خَيالاَ

وهل أبقتِ الأشجانُ إلاّ مُمثلاً ... تُعَاوِدُه أيدي الضنَى وَمِثالاَ

ألمّ بنا والليل قد شابَ رأسُه ... وقد مَيَّلَ الغَرْبُ النُّجُومَ وَمالاَ

وأنّى اهتَدَى في مُدْلِهِمٍّ ظلامِه ... يخَوضُ بحارًا أو يَجُوبُ رِمالا

تَأوَّب من نحو الأحبَّة طارِدًا ... رُقادي وما أسْدَى إليّ نَوالا

أوائلَ مَسَّ الغُمضُ اجفانَ مقلَتي ... كما قاربَ القومُ العطاشُ صِلالاَ

الصِّلال: جمع صَلّة، وهي أرض مُطِرت بين أرضين لم تُمطرا:

وما كان إلا عارضًا من طماعةٍ ... أزالَ الكَرَى عن مقلتيَّ وزالاَ

فلا تحسبي أن الغريبَ الذي نأى ... ولكنْ من تنأين عنهُ غريبُ

وقال بعض الأعراب:

أتبكي على نجد وريّا ولن تَرَى ... بعينك ريّا ما حييتَ ولا نجدَا

ولا مشرفًا ما عشتَ أبقار وجرة ... ولا واطئًا من تُربهن ثرى جعدَا

ولا واجدًا ريح الخزامى تسوقها ... رياح الصبا تعلو دكادك أو وَهْدَا

تبدلت من ريّا وجارات بيتها ... قرى نبطيات تُسمّني مُرْدَا

ألاَ أيها البرق الذي بات يرتقي ... ويجلو دُجى الظلماء ذكرتني نجدًا

وهيجتني من أذرعات وما أرى ... بنجد على ذي حاجة طربًا بُعْدَا

ألم تر أن الليل يقصر طوله ... بنجد وتزداد الرياح به بَرْدَا

وأما في قوله في القصيدة في البيت الثاني: (أُمْذَقُ) يريد أنه يعطيها الود وترده له بالقطع والهجر وعدم الإخلاص والوفاء، وهو عتب منه شديد لها.

أما قوله رحمه الله:

* ويأبى خيالٌ أن يزور خيالا *

فإنما أراد أن الخيال الذي يطرق في النوم، ويتمثل للراقد، يأبى أن يزور النحيل المدنَف، الذي قد صار خيالا، من النحافة والنحول. وإنما سُمِّي الناحل الذي قد ذاب جسمه، وذهب لحمه، وغاضت نضارته، وذهبت غَضاضته، خيالا، تشبيها بالخيال الذي يتمثل للنائم، وهو مما لا حقيقة له ولا وجدان، فأُجري من زاد نحولُه، فصار عند الرُّؤْية غير متحقق لا متيقن، مُجري الخيال في النوم، الذي لا يتحقق، وإنما يُتخيل، ما زالت الشعراء تصف الناحل بأنه خيال، لا يُحَسُّ ولاُ يدرك ولا يُعلم.

ولعمرو بن قميئة،[1] ويقال إنه أول من نطق بوصف الطيف:

(١) هو: عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، الضائع، الشاعر القيسي، الوائلي. ذكره ابن حبيب في كنى الشعراء بتحقيقي ملحق بـ «أسماء المغتالين من الأشراف» (ت: ٣٣٦) وعلقت عليه فيه بقولي:
ذكره ابن حزم في الجمهرة (ص: ٣٢٠)، في ذكره لبني قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل فقال: والشاعر عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك، وهو أيضًا ابن أخي المرقشي الأكبر، وابن عمه نَحْا عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة.
وقال ابن قتيبة في «الشعر والشعراء»: عمرو بن قميئة هو من قيس بن ثعلبة بن مالك رهط طرفة بن العبد، وهو قديم جاهلي كان مع حجر أبي امرئ القيس في قوله:

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونَهُ وأيقنَ أنّا لاحقان بقيصرا

ومن جيد شعره قوله:

أرى جارتي خفت وخف نصيحُها وحبٌّ بها لولا الهوى وطموحها
فإن تشغبي فالشغب مني سجية إذا همني لم يؤت منها سجيجها
أقارض أقوامًا فأوفي بقرضهم وعف إذا أودى النفوس شجيجها

وفيها يقول:

فما أتلفت أيديهم من نفوسنا وإن كرمت فإننا لا ننوحها
فأبوا وأبنا كلنا بمضيضة مهملسة أجراحنا وجروحها

وهو القائل:

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يُرمى وليس برام
=

نأتْــــكَ أُمَامَـــــةُ إلاَّ سُـــــؤالاَ وَإلاَّ خَـــــيالاً يُوافِـــــي خَـــــيَالا
تُوافِــــي مَـــــعَ اللَّـــــيلِ مُـــــسْتَوطِنًا وَتَأْبَـــــى مـــــعَ الـــــصُّبْحِ إلاَّ زِيَـــــالا
خَــــيالٌ يُخَـــــيِّلُ لي نَــــيْلَها ولـــــوْ قَـــــدَرَتْ لمْ يُخَـــــيِّلْ نَـــــوالا

فانظر إلى هذا الطبع المتدفق، والنسج المطرد المنسق، من أعرابي قحٍّ، قيل إنه مفتتح لوصـــف الطـــيف. وكأنه لانطباع سبكه، وجودة وضعه، قد قال في هذا المعنى الكثير، ونظم منه الغزير، وقلب ظاهره وباطنه، وباشر أوله وآخره، وكأنه قد سمع فيه من أقوال المحـــسنين، وإجـــادة المجيدين، ما سلك منهجه، وأخرج كلامه مُخرجه. ولكن الله تعالى أودع هـــؤلاء القوم من أسرار الفصاحة، وهداهم من مسالك البلاغة، إلى ما هو ظاهر باهر؛ ولهذا كان القرآن معجزًا، وعَلَما على النبوَّة، لأنه أعجز قوما هذه صفاتهم ونعوتهم.

ونظير قول ابن قميئة قول المجنون: (١)

وأهلكـــني تأمـــيل مـــا لست مدركًا وتأمـــيل عـــام بعـــد ذاك وعـــام
إذا مـــا رآني الـــناس قالـــوا: ألم تكنْ جلـــيدًا حـــديثَ الـــسنِّ غـــير كهام؟!
فـــأفنى ومـــا أفـــنى مـــن الدهـــر ليلة فلـــم يغـــن مـــا أفنـــيت ســـلك نظام
فلـــو أنـــني أُرمـــى بنـــبل رأيـــتها ولكـــنني أُرمـــى بغـــير ســـهام
علـــى الـــراحتين مـــرة وعلـــى العصا أنـــواء ثلاثًـــا بعـــدهن قيامـــي
وكـــأني وقـــد جـــاوزت تسعين حجة خلعـــت بهـــا عـــني عـــذار لجامـــي

وفي عبد بني القيس: عمرو بن قميئة الصغير.

(١) المجـــنون هـــو: قيس بن الملوّح مجنون ليلى بنت مهدي العامريان، وقد كتبت في سيرتهما الكتب الكبيرة، وترجمت لهما مصادر عديدة أذكر منها:
الـــشعر والـــشعراء (٤٦٧)، الأغاني (٢/ ١)، المؤتلف والمختلف (١٨٨)، نشوار المحاضرة (٥/ ١٠٢)، سمط اللآلئ (٣٥٠)، تاريخ الإسلام (٣/ ٦٤)، فوات الوفيات (٢/ ١٣٦)، سرح العيون (١٩٥) شـــرح الشواهد (٢٣٨)، النجوم الزاهرة (١/ ١٧٠) تزيين الأسواق (١/ ٦٧)، شذرات الذهب (١/ ٢٧٧)، خزانة الأدب (٢/ ١٧٠) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥) وقال في ترجمته له:
قـــيس بـــن الملوح وقيل: قيس بن معاذ، وقيل اسمه: بختري بن الجعد، وقيل غير ذلك، من بني عامـــر بن صعصعة، وقيل: من بني كعب بن سعد، الذي قتله الحب في ليلى بنت مهدي العامرية سمعنا أخباره تأليف ابن المرزبان.
وقد أنكر بعضهم ليلى والمجنون، وهذا وقع بالصدر فما من لم يعلم حُجَّة على من عنده علم، ولا

وإنِّــي لأَستَغْـشِي زمــاني نَعْسةً لعــلَّ خَــيالاً مــنكِ يَلقَــى خياليا

وإنمــا أراد: لعــل خيالك الذي هو طيف يلقاني، ووصف نفسه بأنه خيال لنحوله،

=

المثـبت كالنافي، لكن إذا كان المثبت لشيء شبه خرافة والنافي لشيء غرضه دفع الحق فهنا النافي مقدم على المثبت، وهنا تقع المكابرة وتكسب العبرة عَلق ليلى علاقة فقيل: إن المجنون علق ليلى علاقة الصبا وكانا يرعيان البَهْم (الغنم وما شابهها)، ألا تسمع قوله وما أفحل شعره:

تعلقــت ليلــى وهـــي ذات ذؤابــة ولم يَــبْدُ للأتــراب مــن ثديها حَجْمُ

صــغيرين نرعــى الـبُهْمَ يا ليت أننا إلى الــيوم لم نكــبر ولم تكــبر الـبُهْمُ

وعلقته هي أيضًا، ووقع بقلبها وهو القائل:

اظــنُّ هـــواها تاركـــي بِمَـــضَلّةٍ مـــن الأرض لا مـــال لـــديَّ ولا أهلُ

ولا احـــد أقـــضي إلـــيه وصـــيتي ولا وارثٌ إلا المطـــيةُ والـــرحلُ

محاجُهـا حُـبُّ الأولَـى كـن قبلها وحلــتْ مكانًــا لم يكــن حلّ من قبلُ

فاشتد شغفه بها حتى وسوس وتخيل في عقله فقال:

إني لأجلــس في الــنادي أحــدثهمْ فاســتفيق وقــد غالــتني الغــولُ

يُهْــوي بقلــبي حديثُ النفس نحوكم حــتى يقــول جلــيس أنــت مخــبولُ

قال أبو عبيدة: تزايد به الأمر حتى فقد عقله فكان لا يؤويه رحل ولا يعلوه ثوب إلا مزقة.

ويقــال: إن قوم ليلى شكوا المجنون إلى السلطان، فأهدر دمه، وترحل قومها بها فجاء وبقي يتمرغ في المحلة ويقول:

أيــا حــرجات الحــي حيث تحملوا بــذي ســليم لا جــاد كــن ربــيعُ

وخــيماتك اللاتــك بمنعــرج اللُّوى بلــين بلــى لم تَــبْلَهُنّ رُبُــوْعُ

وقيل: إن قومه حجُّوا به ليزور النبي ﷺ ويدعو حتى إذا كان بمنى سمع نداء. يا ليلى، فغشي عليه، وبكى أبوه فأفاق يقول:

وداع دعــا إذ نحــن بالخيف من منى فهــيج أطــراف الفــؤاد ولمْ يــدرِ

دعــا باســم ليلــى غيرهــا فكأنمــا أطــار بليلــى طائــرًا كــان في صدرِي

وجــزعت هــي لفــراقه وضنيت، وقيل: إن أباه قيده، فبقي يأكل لحم ذراعيه، ويضرب بنفسه فأطلقــه، فهام في الفلاة فوجد ميتًا فاحتملوه إلى الحيّ وغسلوه ودفنوه وكثر بكاء النساء والشباب عليه. وقيل: كان يأكل من بقول الأرض، وألفته الوحوش، وكان بنجد فساح حتى حدود الشام. وشعره كثير من أرق شيء وأعذبه، وكان في دولة يزيد، وابن الزبير.

وخفاء شخصه، لا وجه لقول المجنون إلا ذلك.

ومن مليح ما قيل في ذلك قول الشاعر:

وثــبت حــتى صِرْتُ لو زُجَّ بي ... في مُقلِــة الوَسْــنان لم يَنْتَــبِهْ

فأمـــا قـــوله رحمه الله: «وأنّى اهتدى في مدلهمّ ظلامه» إلى تمام البيت، فما زالت الـــشعراء في الـــشعر القديم والحديث، تتعجب من اهتداء الطيف إلى المضَاجع، وخفيّ المواضع، مع الظلام المضلل للسُّراة، والبعد القاطع للبُغاة، وهذه جادة مسلوكة، وطريق مَهْيَع، ما ورد في ذلك أكثر من أن يُحصَى.

ومن قديم الشعر في ذلك قول الشاعر:

فقلــتُ لهــا أنَّــى اهــتديتِ لفتْيةٍ ... أناخــوا بجَعْجــاعٍ قلائــصَ سُهَّما

فقالَــتْ كذاكَ العاشِقون ومَنْ يَخَفْ ... عــيونَ الأعــادِي يجعلِ اللّيلَ سُلّما

وقال النَّظار الفَقْعسيّ،[(١)] وأحسنَ كل الإحسان:

أنَّــى اهــتدتْ لمناخِــنا جُمْـــلُ ... ومِـــنَ الكَـــرى لُعيونِـــنَا كُحْـــلُ

طـــرَقَتْ أخـــا سَـــفر وناجِــيَةٌ ... خَـــرْقاءَ يَغْـــرَقُ بَيْـــنَها الـــرَّحْلُ

في مَهْمَــةٍ هَجَــعَ الدَّلِـــيلُ بِـــه ... وتعلَّلَـــــتْ بِـــــصَرِيفها البُـــزْلُ

---

(١) هو محمد بن عبد الملك الأسدي الفقعسي النظار، الشاعر، أبو سعيد، الأديب من مصادر ترجمته. معجـــم المـــولفين (١٠/ ٢٥٥)، الفهرست (١/ ٤٩، ١٦٣)، إيضاح المكنون (٢/ ١٨)، هدية العـــارفين (٢/ ٩)، الأعلام وقال الأستاذ كحالة في معجم المؤلفين: كان حيًّا سنة (١٥٨)، وقال الزركلـــي توفي نحو سنة (٢١٠هـــ)، وترجم له الأستاذ كحالة في معجم المؤلفين فقال: محمد بن عـــبد الملـــك، الأســـدي، الفقعسي، البغدادي، أبو سعيد. أديب، شاعر، راوية، أخباري. أدرك المنصور ومن بعده.

وعنه أخذ العلماء مآثر بني أسد وأشعارها له من الكتب المصنفة:

مآثر بني سعد وأشعارها- وشعر بمائة ورقة.

وقال البغدادي في هدية العارفين (٢/ ٩): أدرك المنصور ومن بعده، ومدح الوزير فضل بن الربيع ومات في حدود سنة (٢٠٠هـــ)، له مآثر بني أسد في مائة ورقة.

وقـــال في المـــصدر السابق (ص ٧٨): توفي سنة (٥٠١هـــ) إحدى وخمسمائة... ثم قال: رأيت الفقعسي في الفهرست لابن أبي إسحاق النديم قد يكون وفاته قريبًا من سنة (٢٠٠هـــ) مائتين.

قـــال محققه: والقول بوفاته سنة (٥٠١هـــ) لا يصح لاستشهاد المؤلف بشعره والمؤلف توفي سنة ٤٣٦هـــ.

وكأنّ أخْدَتْ مَنْ أَلَمَّ بِهِ دَرَجَتْ عَلَى آثارِهِ النَّمْلُ

وقال عبيد بن الأبرص (١):

---

(١) ذكره ابن حبيب في كنى الشعراء (ت ٧٧) وهو ملحق بكتاب أسماء المغتالين وكلاهما بتحقيقي وعلقت عليه بالهامش بقولي: هو عبيد بن الأبرص بن جشم بن عامر بن هرّ بن مالك بن الحارث بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد... ويقال عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم... أبو زياد الأسدي.

ذكره ابن حزم في «جمهرة أنساب العرب» (ص ١٩٢) في ذكره لبني ثعلبة بن داودان بن أسد فقال: ومنهم الشاعر عبيد بن الأبرص فذكر نسبة على النسق الأول.

وذكره البلاذري في «أنساب الأشراف» (١/ ٨٤)، في ذكره لخبر عبد المطلب فقال:

وسمعت من يحدث عن مصعب بن عبد الله: أن عبيد بن الأبرص كان رأى عبد المطلب، وبلغ عبيد بن الأبرص مائة وعشرين سنة، وبقي عبد المطلب بعده عشرين سنة أو أكثر.

وذكره ابن حبيب أيضًا في «المحبر» في باب من حرم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام (ص ٢٣٨) فقال:... وعبيد بن الأبرص الأسدي.

وقال ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» (ص ٤٧) بعد أذكر نسبه على النسق الثاني: وكان جاهليًا قديمًا من المعمرين وشهد مقتل حجر أبي امرئ القيس وهو القائل في ذلك:

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه إذلالاً وحينا

أزعمت أنك قد قتلتَ سراتنا كذبًا ومينا

هلا على حجر ابن أم قطامِ تبكي لا علينا

إنا إذا عض الثقاف برأسِ صعدتِنا لوينا

نحمي حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بينا

هلاَّ سألتَ جموعَ كندَةَ يومَ ولُّوا أينَ أينا

أيامَ نضربُ هامَهُمْ ببواترٍ حتَّى انحنينا

النعمان قال: هلاّ كان هذا لغيرك يا عبيد أنشدني فربما أعجبني شعرك، قال: حال الجريض دون القريض، قال: فأنشدني: أقفر من أهله ملحوب

فأنشده:

أقفر من أهله عبيدُ فاليوم لا يبدي ولا يعيدُ

فسأل: أي قتلة تختار؟ قال: اسقني الخمر حتى إذا ثملت فافصدني الأكحل، ففعل ذلك به، ولطخ بدمه الغريين، وكان بناهما على نديمين له هما: خالد بن نُعلبة الفقعسي، وعمرو بن مسعود.

وهذه القصيدة أجود شعره وهي إحدى السبع وفيها يقول:

وكلّ ذي نعمة مخلوسها وكلّ ذي أمل مكذوبُه

=

طـافَ الخـيالُ علينـا ليلةَ الوادي   مـنْ أمّ عمـرٍو ولم يُلْمِـمْ بمـيعادِ
أنّـى اهتديتِ لركبٍ طالَ حَبْسُهُم   في سَبْسـبٍ بـين دَكْـدَاكٍ وأعقادِ

وأخـبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرُزباني، قال: أخبرني محمد بن يحيى، قال: أخـبرنا محمد بن زكريا الغلابي، قال: قرأت على العباسة بنت السيد بن محمد الحميري، لأبيها:(١)

=

وكـل ذي إبـل مـوروثها   وكـلّ ذي سـلب مسلوبُ
وكـل ذي غيـبة لـه إيـاب   وغائـب المـوت لا يـؤوبُ
أفلـح بمـا شـئت فقـد يـدركُ   بالـضعف وقـد يخـدع الأريـبُ
مـن يـسأل الـناسَ يحـرموه   وسـائل الله لا يخـيبُ
والله لـيس لـه شـريك   عـلأم مـا اخـتفت القلـوبُ
لا يعـظ الـناس مـن لا يعـظ   الدهـر ولا يـنفع التلبـيبُ
والمـرء مـا عـاش في تكـذيب   طـول الحـياة لـه تعـذيبُ
سـاعف بـأرض إذ كـنت   ولا تقـل إنـني غـريبُ
قـد يوصـل الـنازح النائـي وقـد   يقطـع ذو الهمّـة القـريبُ
أعافـر مـثل ذات ولـد   أم غـانم مـثل مـن يخـيبُ

ومما يتمثل به من شعره قوله:

لا أعـرفنّك بعـد المـوت تـندبني   وفي حـياتي مـا زوّدتـني زادي

وهـذا عـن ترجمته، أما عن البيت الأخير المذكور له فيما أورده له المؤلف يريد أن طيف الخيال عـندما زاره وهو في هذه الحالة التي يصنف بأنه كأنه كان في ركب قد حبس في فقر بعيد بأرض غليظة ذات الرمل المتجعد الكثيب.

وقـد ذكـر ابن منظور في لسان العرب في مادة: سبسب: السباسب والسبسب: شجر يتخذ منه السهام... والسبسب: المفازة وفي قسٌ. فبينا أن أجول سبسبها، السبسب: القفر والمفازة.

وقال ابن الأثير: .... السبسب: الأرض المستوية البعيدة.

وقال ابن شميل: السبسـب: الأرض القفر البعيدة مستوية وغليظة وغير مستوية وغليظة وغير غليظة، لا ماء بها ولا أنيس.

(١) هـو: أبو هاشم إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة، السيد الحميري، الشاعر، جاءت ترجمته في مصادر عديدة منها:

أنساب الأشراف (٤/ ٧٨)، طبقات ابن المعتز، (٣٢)، الأغاني (٧/ ٢٢٩)، الذريعة (١/ ٣٣٣)، =

لِعَلْوَةَ زارَ الزائِرُ المتأوِّبُ ... ومن دونِ مَسْراها الصُّفاحُ فكبْكَبُ
فَسدَّتْ إلينا بعد هَذْوٍ ودونَها ... طَويلُ الذُّرى مِن بَطْنِ نَخْلَةَ أَغْلَبُ
فقلتُ لها أنَّى اهتديتِ ودونَنا ... قِفارٌ تَرامى بالركائبِ سَبْسَب
مَخُوفُ الرَّدى قَفْرٌ كأنَّ مُعلَمَهُ ... عَذارَى عليهنَّ المُلا المُجوَّبُ

وبهذا الإسناد، قال: قرأت عليها لأبيها:

طافَ الخَيالُ علينا مِنْكِ هَنَادَا ... وَهْناً فأوْرَثَنا هَمًّا وتَسْهادَا
أنَّى اهْتَدَيْتِ لِرَكْبٍ بينَ أوْدِيَةٍ ... لم تَسْتَدِلِّي ولم تَسْتَحْقِبِي زَادَا
يا أحسنَ الناسِ مِنْ قَرْنٍ إلى قَدَمٍ ... هامَ الفؤادُ بكُمْ بل طارَ أوْ كادا
ما هَبَّتِ الرِّيحُ لي مِنْ نَحْوِ أرْضِكُمُ ... إلاَّ تَحيَّرَ ماءُ العَيْنِ أوْ جَادا

ابن الوردي (١/ ٢٥٠)، وفيات الأعيان (٦/ ٣٤٣)، الوافي بالوفيات (ت ٣ ٠ ٠ ٥) فوات الوفيات (١/ ٨٨)، روضات الجنات (١/ ٢٨)، البداية والنهاية (١/ ١٧٣)، لسان الميزان (١/ ٤٣٦)، منهج المقال (٦٠)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤) وقال في ترجمته:
السيد الحميري من فحول الشعراء، لكنه رافضي جلد، واسمه أبو هاشم إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة الحميري. له مدائح بديعة في أهل البيت، كان يكون بالبصرة، ثم ببغداد.
قال الصولي: الصحيح أن جده ليس بيزيد بن مُفَرغ الشاعر، وقيل: كان طوالاً شديد الأدمة.
قيل: إن بشارًا قال له: لولا أن الله شغلك بمدح أهل البيت. لافتقرنا.
وقيل: كان أبواه ناجبيَّين، ولذلك يقول:

لعنَ الله والديَّ جميعًا ... ثم أصلاهما عذاب الجحيم
حكمًا عدّوه كما صليا الفجر ... بِلَعْنِ الوصي بابَ العلوم
لعنا خير من مشى فوق ظهر ... الأرض او طاف مُحْرِمًا بالحطيم

وكان يرى رأي الكيسانية في رجعة ابن الحنفية إلى الدنيا وهو القائل:

بان الشباب ورق عظمي وانحنى ... صدر الفتاة وشاب مني المفرق
يا شعب رضوني ما لمن بك لا يرى ... وبنا إليه من الصبابة أولق
حتى متى؟ إلى متى وكم المدى ... يا ابن الوصي وأنت حيّ ترزق

وقيل: إنه اجتمع بجعفر الصادق فبين له ضلالته، فتاب: وقال ابن جرير في الملل والنحل: إن السيد كان يقول بتناسخ الأرواح. وقيل توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة. وقيل سنة ثمان وسبعين ومائة، ونظمه في الذروة، ولذلك حفظ ديوانه أبو الحسن الدارقطني.

معـــنى قوله تحيَّر: أنه وقف في العين، وهي مُطْفَحَة به لا يجزي. ونظير ذلك قول البحتري:

دَمْـــعٌ تحيَّـــر في الجُفـــونِ فلَم يزَلْ ... بَـــرْحُ الغـــرامِ يَـــسُوقُه حتَّى جَرَى

وبالإسناد المتقدم قال: قرأت عليها لأبيها:

طـــافَ مِـــنْ هِـــنْدٍ خـــيالٌ فَذَعَرْ ... وَرَمَـــى عَـــيْني بدمـــعٍ وَمَهَـــرْ

قُلْـــتُ لمـــا انْ دَنـــا منِّـــي لـــهُ ... مَـــرْحَبًا ألْفًـــا بِـــسَمْعِي وَالْبَـــصَرْ

هـــنْدُ مِـــنْ أيـــنَ تخطَّـــيْتِ إلى ... رَكْـــبِ اطْـــلاحٍ مَطِـــيًا قَدْ حَسَرْ[1]

تحْـــتَ لَـــيلٍ ســـاقطٍ أكـــنافُهُ ... رُخْـــلُ صَـــرْعَى مِـــنْ كَلالٍ وَسَهرْ

ســـاَدَتِ القَلْـــبَ ولم تَعْمِـــدْ لـــه ... بِـــشَتِيتِ النَّـــبْتِ عـــذبٍ ذي أشُـــرْ

وهـــذا الـــرجل، أعـــني السَّيِّدَ الحميريَّ، قويّ الطبع، جزْل اللفظ، سليم التصرف والتقلب.

وقال البحتري:

أنَّـــي اهْتَدَيْتِ وما اهْتَدَيْتِ لِمُغْمَدٍ ... في لـــيل عانَـــة والثُّـــرَيَّا تَجْـــنُبُ

ما أملح ما قيل في هذا المعنى! لأنه أثبت الاهتداء، وما اهتديت: تنبيها على أن ذلك التخـــيل باطل، والتصور محال. فزاد على من تعجبه من الاهتداء بقوله: «وما اهتديت». وهذا المعنى يجيء في الشعر كثيرا، وفي شعري خاصة.

ولي:

وَكَـــيفَ اهْـــتَدَى وَالْقَاعُ بَيْنى وَبَيْنَهُ ... وَلَمَّاعَـــةُ الْقَطْـــرَيْنِ مَـــنَّاعَةُ القَطْـــرِ

ولي أيضًا:

أنَّـــى اهْـــتَدَيْتِ وكيفَ زُرْتِ وبَيْنَنا ... دُونَ الـــــزِّيارَةِ مَـــــرْبَخٌ وزَرُودُ؟!

وإنمـــا تعجب الشعراء من اهتداء الطيف، وتخلصه إلى المضايق، وخفيّ المسالك، لأنهـــم فرضـــوا زيارته زيارة حقيقية، وطروقا صحيحا، فتعجبوا مما يتعجب من مثله في ذلك، من طي البعد في أقصر زمان. ومن الاهتداء بغير هاد ولا مرشد، مع تراكم الظُّلَم، وتـــشابه الطرق، وفقد الظهر. ومن فرض شيئا أجرى أوصافه له على ما فرضه، دون ما

---

(١) قد فسر أنه تعب وأعيى من طول السفر وبعد الديار وطلب المزار.

هو عليه في نفسه وأما قوله، رحمه الله:

وما كانَ إلاّ عارَضًا مِنْ طَماعَةٍ أزَالَ الكَرَى عَنْ مُقْلَتَي وَزَالا

فما زالت الشعراء في القديم والحديث تصف الطيف بأنه طَمَع كاذب، وظنٌّ باطل، وظل زائل، ويتصرفون في ذلك أحسن تصرف، ويتقلبون أملح تقلب، قال الفرزدق: [١]

(١) الفرزدق هو: همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، أبو فراس، الدارمي، المجاشعي الشاعر المشهور بالفرزدق. ولد سنة (٣٨)، وتوفي سنة: (١١٠) وقيل: (١١١) وقيل: (١١٢) وقيل: (١١٤) هـ جاءت ترجمته في العديد من المصادر وألفت في سيرته الكتب ومن مصادر ترجمته أذكر: طبقات ابن سلام (١/ ٢٩٩)، الشعر والشعراء (٣٨١) الأغاني (٨/ ١٨٦)، معجم المرزباني (٤٦٥)، المبهج (٥٠)، سمط اللآلئ (٤٤)، تهذيب الأسماء، واللغات (ق١ ج٢/ ٢٨٠)، وفيات الأعيان (٦/ ٨٦)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٧٨)، مرآة الجنان (١/ ٢٣٨)، سرح العيون (٣٨٩)، البداية والنهاية (٩/ ٢٦٥)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٨)، شذرات الذهب (١/ ١٤١)، خزانة الأدب (١/ ٢١٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٠)، ديوان الإسلام (١٦٠١)، معجم الأدباء (١٩/ ٢٩٧) معجم الشعراء (١٦٦)، الأعلام (٨/ ٩٣) هدية العارفين (٢/ ٥١٠)، معجم المؤلفين (١٣/ ١٥٢)، كشف الظنون (٨٠٥) البداية والنهاية (٩/ ٢٦٥)، كنى الشعراء (ت: ١١٧، ٢٤٣) وهو ملحق بكتاب أسماء المغتالين وبتحقيقي وعلقت عليه في (ت ١١٧) بقولي: ذكره ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص ٢٣)، في بني مجاشع بن دارم وقال: منهم... الفرزدق بن غالب... وبنوه من النوار: لبطة وسبطة، وخبطة، ومن غيرها: زمعة، ولا عقيب للفرزدق.... وامرأته النوار بنت أعين بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد، وكان أبوها ممن أعان على عثمان ﷺ فقتله بنو سعد.

وقال ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص ١١١): كان جده صعصعة عظيم القدر في الجاهلية، وكان اشترى خمسين موؤودة إلى أن جاء الله عز وجل بالإسلام منهن أم العيس بن عاصم المنقري ثم أتى النبي ﷺ ، وأم صعصعة: فقيرة بنت مسكين الدارمي، وكانت أمها أمة وهبها كسرى لزرارة فوهبها هند بنت يثربي، فوثب أخو زوجها -وهو مسكين بن حارثة بن زيد بن عبد الله بن دارهم- على الأمة فأحبلها، فولدت له فقيرة، وكان جرير يعير الفرزدق بها.

وكان لصعصعة قيون (أي حدادون) منهم جبير. ووقبان، وديسم، فلذلك جعل جرير مجاشعًا قيونًا. وكان جرير ينسب غالب بن صعصعة إلى جبير فقال:

وجدنا جبير أبا غالب بعيدَ القرابة من معبدِ

يعني معبد بن زرارة، وكان يعيبهم بالخزيرة، وذلك أن ركبًا من مجاشع مروا بشهاب التغلبي فسألهم: أين ينزلون؟ فحمل إليهم خزيرة (دقيق مطبوخ باللبن، وهو كالحريرة أو ما يسمى بالمهلبية في مصر في هذه الأيام) فجعلوا يأكلون وهي تسيل على لحاهم وهم على رواحلهم.

وأما غالب أبو الفرزدق فكان يكنى أبا الأخطل واستجير بقبره بكاظمة فاحتملها عنه. وكان له =

لَعَمْري لَقَد نُبِّهتِ يا هِنْدُ مَيِّتًا ... قَتِيلَ كَرى من حيثُ أمْسَيتَ نائيا
فطافَتْ بأطلاحٍ وطلْحَى كأنّما ... سُقُوا بحِمامِ الموْتِ للموْتِ ساقيا
فباتَتْ بنا ضَيْفًا دَخيلاً وَلاَ أرَى ... سِوَى حُلُمٍ جَاءَتْ به الرِّيحُ ساريا
وكُنتُ إذا ما الرِّيح جاءت بِنَشرِها ... إلَيَّ سَقَتْني ثُمّ عادَتْ بِدَائيا

ولقيس أيضًا:

إنّ التي طَرَقَتْكَ بَينَ رِكائبٍ ... تَمْشِي بِمِزْهَرِها وَأنْتَ حَرَامُ
باتَتْ تُعلّلُنا وتَحْسِبُ أنّنا ... في ذَاكَ أيْقاظٌ ونحْنُ نِيامُ
حتى إذا نَصَدَعَ الصَّبّاحُ لناظِرٍ ... فإذَا وَذلِكَ بيْننا أحلامُ

نظير قوله:

إذا ما تبادَلْنا النفائِسَ خِلتُنا ... مِنَ الجِدِّ أيْقاظًا ونحْنُ نِيامُ

وقال بعض بني عقيل:

أما مِنْ ليالي الدَّهْرِ إلاَّ يُلِمّ بي ... خيَالُكَ إلاّ لَيْلَةَ لا أنامُها

والأقرع بن معاذ:

لقَدْ طَرَقَتنا أُمُّ عُثمانَ بَعْدَ مَا ... هَوَى النَّجمُ وَالسَّارِي إليَّ حَبيبُ
فحَيّضتْ فَحيَّاهَا فَهَبَّ فَخلقتْ ... مَعَ النَّجْمِ، رُؤْيَا في المَنَامِ كَذُوبُ

وللحمدوي وهو كثير من مثله، وروى أنه لعبد الصمد بن المعذل:

لَمْ أنَلْهُ فَنِلْتُهُ بالأَمَاني ... في مَنَامِي سِرًّا مِنَ الهِجْرَانِ
وَاصَلَ الحُلْمِ بَيْنَنَا بَعْدَ هَجْرٍ ... فاجْتَمَعْنَا وَنَحْنُ مُفْتَرِقَانِ
غَيْرَ أَنَّ الأرْوَاحَ خَافَتْ رَقِيبًا ... فطَوَتْ سِرَّها عَنِ الأبْدَانِ

إخوة منهم: همبم بن غالب، وبه سمي الفرزدق، والأخطل وكان أسن منه، وابنه محمد بن الأخطل، كان توجه مع الفرزدق إلى الشام فمات بها، وأخت يقال لها: جعثن كانت امرأة صدق. ونزل الفرزدق في بني منقر، والحي خلوف، فجاءت أفعى وقد خلت مع جارية فارشها، فصاحت، فاحتال الفرزدق فيها حتى انسابت، ثم ضم الجارية إليه فزبرته ونحته فقال:

وأهون عيب المنقرية أنها ... شديدٌ ببطنِ الحنظلي لصوقُهَا

مَنْظَرٌ كانَ لَذّةَ القَلْبِ إلاّ ... أَنّهُ مَنْظَرٌ بَغْيرِ عِيَانِ

وأحسن ذو الرمة(١) في قوله:

---

(١) ذو الرمة هو: غيلان بن عقبة بن بُهيس (بهيش، نهس) أبو الحارث الضمري، الشاعر المشهور بـ: ذي الرمة. ولد سنة (٧٧) وتوفي سنة (١١٧) مصادر ترجمته كثيرة أذكر منها:
سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٧)، ديوان الإسلام (ت ٩٦٧)، معجم المؤلفين (٨/ ٤٤)، الشعر والشعراء (ص ١٢٦)، الأعلام (٥/ ١٢٤)، فحول الشعراء (١٢١)، الأغاني (١٦/ ١٠٦)، وفيات الأعيان (٤/ ٢٤٧)، البداية والنهاية (٩/ ٣١٩)، خزانة الأدب (١/ ٥٠)، الفهرست (١/ ١١٧)، كنى الشعراء الملحق بـ: أسماء المغتالين (ت ١٥٠، ٢٢٦) بتحقيقي وعلقت عليه فيه بقولي:
قال ابن الغزي في ديوان الإسلام (ت ٩٦٧): ذو الرمة غيلان، أحد العشاق المشهورين من العرب مات سنة (١١٧هـ).
وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: الرُّمَّة: هي الحبل.
شبب بمية بنت مقاتل المنقرية بالخرقاء، وله مدائح في الأمير بلال بن أبي بردة. قال أبو عمرو بن العلاء: إن الفرزدق، وقف عليه وهوي ينشد فأعجبه شعره.
وقال محمد رضا كحالة في معظم المؤلفين (٨/ ٤٤): شاعر كان شديد القصر دميمًا يضرب لونه إلى السواد، عشق مية المنقرية واشتهر بها، وكان مقيمًا بالبادية. قال ابن قتيبة في «الشعر والشعراء»:
من بني صعب بن مالك بن عدي بن عبد مناف ويكنى أبا الحارث. ووقف في الإبل ينشد شعره الذي يذكر فيه صيدح، فوقف عليه الفرزدق، فقال: كيف ترى ما تسمع يا أبا فراس؟ قال: ما أحسن ما تقول، قال: فمالي لا أُذكر مع الفحول؟ قال: قصر بك عن غايتهم بكاؤك في الدمن، ووصفك الأبعار والعطن، ثم أنشأ يقول:

ودوبة لو ذو الرميم يرومها ... بصيدح أودي ذو الرميم وصيدح
قطعت إلى معروفها منكراتها ... وقد خب آل الأمعز المتوضح

قال عيسى بن عمر: قدمت من سفر فأتى ذو الرمة فعرضت له بشيء أعطيه. فقال: أنا وأنت واحد نأخذ ولا نعطي، ومات بالبادية ولما حضرته الوفاة قال: أنا ابن نصف الهرم، أي ابن الأربعين، وسمي ذو الرمة بقوله:

لم يبق منها أبد الأبيد ... غير ثلاث ما ثلاث سود
وغير موضوح القفا موتود ... فيه بقايا رمة التقليد

وكان ذو الرمة أحد العشاق العرب المشهورين بذلك وصاحبته: مية بنت فلان بن طلبة بن قيس بن عاصم. ومكثت زمانًا لا تراه وتسمع شعره، فجعلت لله عليها إن انحر بدنه إن رأته، فلما نظرت إليه رأت رجلاً أسودَ دميمًا، فقالت. واسوأتاه، كأنها لم ترضه، فقال:

=

إذَا نحْــــنُ عَرَّسْــنَا بأَرْضٍ سَرَى لَنَا هَــوًى لَبَّــسَتْهُ بالقُلُــوبِ اللَّــوَابِسُ
نَــأَتْ دَارُ مَــيٍّ أَنْ تُـــزَارَ وَزَوْرُهَا إذَا مَــا دَجَـــا الإِظْلاَمُ شتَّا وَسَاوِسُ

وَلي في وصف الخيال بأنه باطل، ومحال زائل:

زِيـــارَةُ الطَّــيْفِ ضَرْبٌ مِنْ قَطِيعَتِه وَوَصْـــلُ مِـــنْ لا تَراهُ الْعَيْنُ هِجْرَانُ

وسيجيء هذا البيت فما أورده من شعري، إن شاء الله تعالى.

ولي أيضًا في هذا المعنى:

أَفَقْـــتُ فَلَم يَحْصُلْ عَلَيَّ مِنَ الَّذي خُـــدِعْتُ بِـــهِ إلاَّ ظُـــنُونٌ أجِـــيلُهَا

ولي في الطيف أيضًا:

إِنَّمـــــا الطَّــــيْفُ كلَفْــــظٍ فـــــارِغٍ مـــــا فــــيهِ مَعْنًـــــى

ولي في الطيف أيضًا:

فَمـــا نحْــنُ إلاَّ في إسَـــارِ عَدَامَةٍ وَعِـــنْدَ كَـــرَانَا أَنْ ذَاكَ وُجُـــودُ

المعنى كثير. وسيجيء في مواضعه بعون الله تعالى. وإنما أشرنا ها هنا إلى القليل منه.

وله من أثناء قصيدة:

أَلَـــمَّ خَـــيَالُ الْعامِـــرِيَّةِ بَعْـــدَمَا تَبَطَّنَـــنَا جَفْـــنٌ مِـــنَ اللَّـــيْلِ أَوْطَفُ
يُحَيِّـــي طِلاَحًـــا حِينَ هَمُّوا بِوَقْعَةٍ تَهَـــاوَوْا عَلَـــى الأَذْقَانِ مِمَّا تَعَسَّفُوا
وَقِـــيذِينَ قَـــدء مَالَ النُّعَاسُ بِهَامِهِمْ كمـــا أَرعَشَتْ أَيْدِي المُعَاطِينَ قَرْقَفُ

والأوطــف: المسترخي. وإنما يعني شيوع الليل وشموله. والطلاح: المُعْيون الكالُون من شدة السفر.

وله وهو ابتداء قصيدة:

مَـــا عِـــنْدَ عَيْــنِكَ في الخَيَالِ الزَّائِرِ أَطُـــرُوقُ زَوْرٍ أَمْ طماعَـــةُ خاطِـــرِ
بَـــاتَ الْكَـــرَى عِـــنْد يُزَوِّرُ زَوْرَةً مِـــن قاطِـــعٍ نَائـــي الـــدِّيَارِ مُهاجِرِ

-

علـى وجـــه مـــيّ مسحة من ملاحة وتحـــتَ الثـــياب الـشين لو كان باديًا
ألم تــــر أن المـــاء يخـــبث طعمــــه وإن كـــان لـــون المـــاء أبـيض صافيًا

وكان يشبب بخرقاء وهي من بني البكاء بن عامر.

وله من قصيدة:

أمِـنْكِ الخيالُ الطّارِقِي بَعْدَ هَجْعَةٍ ... يُعاطِـي جـوَى الظمآنِ مُبْتَسِمًا بَرْدَا

دنـا مِـنْ أعالِي الرُّقْمَتَيْنِ وَما دَنَا ... وَصَـدَّ وَقَـدْ وَلّى الظّلامُ وَمَا صَدَّا

وَمِـنْ عَجَبٍ رِيِّي وما نَقَعَ الصَّدَى ... وَعَـدِّي لَـهُ مَـنَّا عَلَـيَّ ما اعْتَدَّا

أسـاءَ لَيَالِـي القُرْبِ نَأْيًا وَهِجْرَةً ... وَأَسْدَى عَلَى بُعْدٍ مِنَ الدَّارِ مَا أَسْدَى

وله من قصيدة:

ما لذا الزَّوْرِ مَا يُغِبُّ مِنَ الرَّمْلِ طُرُوقًا في مَضجَعٍ قَدْ أَقَضَّا

هَـدِيًا لِـي مِـن طِيبِ أَرْوَاحِ نَجْدٍ ... مَـا يُـدَاوِي نُكْـسَ الْعَلِيلِ الْمُنضى

لَـم يكُـنْ غَيْرَ خَطْرَةِ الْبَرْقِ، ما زو ... دَ عَـيْنَ الْمَـشُوقِ إلاّ وَمَـضًا

قـادَهُ الغُمْـضُ مِـنْ زَرُودَ فَلَمّـا ... زَارَ أَبَـى عَـنْ مُقْلَتَـيَّ الْغُمْـضَا

يريد أنه لما تصرم وتقضى، لم أنم شوقا إليه، وتلهفا عليه، فالغمض جالب له، وهو مشرد لما جلبه وأحضره.

وله من قصيدة:

وَزَائِـرٍ زَارَ عَلَـى نأْيِـهِ ... بَعْـدَ الأَسَـى عـادَ بَعِـيدَ الْغَـرامْ

أَمَنْـزِلٌ عِـندَ عَقِـيقِ الحِمَـى ... وَمَـضْجَعٌ عِـنْدِي بِأَعْلَـى الـشامْ

زِيَـارَةٌ زَوَّرهـا خاطِـرِي ... مـا أَقْـنَعَ الـنَّفْسَ بِـزُوْرِ الْمَـنامْ!

خَدَائِـعٌ أُغْـضِي عَلَـى عِلْمِهَـا ... لَعَلّهَـا تَـنْقَعُ هـذَا الأُوَامْ

وله من جملة قصيدة:

يَـا حَـبَّذَا مِـنْكِ خَـيَالٌ سَرَى ... فَدَلّـهُ الـشّوْقُ عَلَـى مَـضْجَعِي

بَـاتَ يُعَاطِـينِي جَنَـى ظَلْمِـهِ ... وَبِـتُّ ظَمْـآنَ وَلَمْ أَنْقَـعِ

مَعانِقًـا كـانَ عِناقِـي لَـهُ ... وَرَاءَ أَحْـشَائِيَ وَالأَضْـلُعِ

عاقَـرَنِي يَـشْرَبُ مِـنْ مُهْجَـتِي ... رِيًّـا وَيَـسْقِينِيَ مِـنْ أَدْمُعِـي

معـنى قوله رحمه الله: «فدله الشوق على مضجعي» يريد شوقي إليه، لا شوقه إليّ؛ لأن المحـب الكلـف بمحبوبه، لفرط وجده وكلفه، يتخيل له في المنام محبوبه، ويتمثل له حـضوره، فلهذا أضاف اهتداءه لمضجعه إلى شوقه. ومعنى قوله رحمه الله: «معانقًا كان

عناقي له»: يريد: أنني تخيلت بقلبي وجرى على اعتقادي وأنا نائم، أنني معانق له، فكان عناقي له من حيث تخيله بقلبي، كأنه في أحشائي، ووراء أضلعي. والعناق المعتاد الحقيقي إنما هو بظاهر الأحشاء والأضلع.

انقضى ما لأخي ﷺ..

* * *

(ما أخرجه المؤلف من شعره وهو في طيف الخيال)[1]

وهذا ما أخرجته من ديوان شعري لي من أول قصيدة أولها:

لو لم تعاجله النوى لتحيَّرا

أَهْــلاً بطــيفِ خــيالٍ مانِعَــةٍ لنا ... يَقْظَــي وَمُفَــضِلَةٍ علَيْــنا في الكَــرَى

مــا كــانَ أَنعمَــنَا بهــا مِنْ زَوْرَةٍ ... لَــوْ باعَــدَتْ وَقْتَ الْوُرُودِ الْمصْدَرَا

أردت في الكـــرى مني لا غير، لأخرج من ضيق العذر الذي اتفق للبحتري في قوله: «تهجر وَسْنَى». وليكن عذر قيس بن الخطيم في قوله: «تؤتينه في النوم» هو عذر لقولي: «مفضلة علينا في الكرى». وقد تقدم كلامي في ذلك.

ولي من قصيدة أولها:

حُيِّيتَ يا رَبْعَ اللِّوَى[2] من مَرْبَع

(١) زيادة تصنيفية من عمل المحقق غفر الله له.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان (٥/ ٢٣):

اللِّـــوَى: بالكـــسر وفتح الواو، والقصر، وهو في الأصل منقطع الرملة يقال: قد ألويتم فأنزلوا إذا بلغـــوا منقطع الرمل. وهو أيضًا موضع بعينه قد أكثر الشعراء منه ذكره وخَلَطَتْ بين ذلك اللوي والرمل فعز الفصل بينهما: وهو واد من أودية بني سليم.

ويوم اللوى: وقعة كانت فيه لبني ثعلبة على بن يربوع. ومما يدل على أنه واد قول بعض العرب:

لقـــد هـــاج لي شـــوقًا بكـــاءُ حمامةٍ ... بـــبطن اللِّـــوَى ورقـــاء تـــصدعُ بالفجرِ

هـــتوف تبكـــي ســـاق مُرَّهْ ولا ترى ... لهـــا عَبْـــرةً يـــومًا علـــى خدّها تجري

تغـــنت بـــصوت فاســـتجابَ لصوتها ... نـــوائحُ بالأصـــنافِ مـــن فَـــننِ السدر

وأســـعدنها بالـــنوح حـــتى كأنمـــا ... شـــربن ســـلافًا مـــن معـــتقة الخمـــرِ

دعـــتهن مطـــراب العـــشيان والضحى ... بـــصوت يهـــيج المـــستهام على الذكرِ

يجـــاوبن لحـــنًا في الغـــصون كأنهـــا ... نـــوحُ مـــيت يلـــتد مـــضن علـــى قبر

أَحْبِبْ إليَّ وَقَد تَغَشَّى ناظِري ... وَسَنُ الكَرَى بالطَّيْفِ يَطْرُقُ مَضْجَعِي
ولقَدْ عَجِبْتُ عَلَى المسافَةِ بَيْنَنا ... كيفَ اهْتَدَى مِنْ غَيْرِ هَادٍ مَوْضِعِي
أَفْضَى إلى شُعْثٍ لقُوا هاماتِهِمْ ... لما سُقُوا خَمْرَ الكَرَى بالأَذْرُعِ[(١)]
هَجَعُوا قليلاً ثم زَعْزَعَ نَوْمَهُمْ ... غِبَّ السُّرَى داعي الصَّباحِ المُسْمِعِ

إنما أُضيفت خديعة الطيف إلى الكرَى؛ لأنه لولا النوم وأسبابه ما تخيل الطيف ولا تمثّل. وإنما قلت داعي الصباح المسمع؛ لأنه ليس لك داع مسْمِعًا ولا مجابا. ولما كان الناس يستيقظون ويُنْشَرُون عند الصبح، جعلنا داعية مُسْمِعًا:

ألا حبذا زمن الحاجر[(٢)]

وَزَرٍ تخطى جَنوبَ المَلاَ ... فنَادَيْتُ أَهْلاً بِذَا الزَّائِرِ
أَتَانِي هُدُوًّا وَعَيْنُ الرَّقِيـ ... ـبِ مطْروفَةٌ بالكَرَى الغامِرِ
فأَعْجِبْ بِهِ يُسْعِفُ الهاجِعِينَ ... وتُحْرَمُهُ مُقْلَةُ السَّاهِرِ
وعَهْدِي بِتَمْوِيهِ عَيْنِ المُحِبِّ ... تَنِمُّ عَلَى قَلْبِهِ الطَّائِرِ
فلَمَّا التَقَيْنَا بِرَغْمِ الرُّقَا ... دِ مَوَّهَ قَلْبِي عَلَى نَاظِرِي

المَلا: الأرض الواسعة. ولما كانت طَرْفة العين تحجُز عن إبصارها، وكان الكرى أيضا كذلك، جعلت عين الرقيب من حيث منعها النوم عن الرؤية، كأنها به مطروفة.

=

فقلت: لقد هيجن صبًّا مُتيمًا ... حزينًا وما منهن واحدة تدري
وقال نُصَيْبٌ:
وقد كانت الأيام إذ نحن باللوى ... تحسن لي لو دام ذاك التحسنْ
ولكن دهرًا بعد دهر تغلبت ... بنا من نواحيه ظهور وأبطُنُ

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (١/ ١٣١): أذرُع: غير مضاف: موضع نجديٌ في قوله:
وأوقدت نارًا للرعاء بأُذرع، وقال أيضًا: أذرُعُ أكبادِ: بضم الراء كأنه جمع ذراع: موضع في قول تميم بن أبي مقبل:
أمست بأَذْرُعِ أكباد، فحمّ لها ... ركبٌ بلينة، أو ركبٌ بساريَنا

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان (٢/ ٢٠٤): الحاجر: بالجيم والراء، في لغة العرب ما يمسك الماء من شفة الوادي. وكذلك الحجور، وهو فاعول. وهو موضع قبل معدن النقرة، وقال: دون فيد حاجر.

والعادة أن عين المحبِّ تُمَوِّه على قلبه، حتى يستحسن ما ليس بحسن، أو ما لم يبلغ الغاية التي تخيَّلها أو اعتقدها.

وفي النوم انقلبت هذه العادة، وصار القلب يُخَيِّل أن العين ترى ما ليس تراه على الحقيقة.

فإن قيل: التخيل والاعتقاد إنما هو بالقلب، في نوم أو يقظة، ولا حظَّ للعين فيه في الحالين. فالجواب أن الأمر على ذلك، لكن العين في اليقظة تكون سببا لتخيل القلب فرط حسن بعض الأشخاص، وإن لم يكن كذلك، فأضيف التمويه إليها؛ لأنها كالسبب فيه. وفي النوم يعتقد النائم بقلبه، ويتخيل أنه يرى بعينه ما ليس يراه على الحقيقة، فصار القلب سببا لتخيل شيء يضاف إلى العين، من رؤية ما ليس يراه، فكأن التمويه ها هنا من القلب على العين، وليس يحتمل الشعر هذه المحاسبة والمناقشة، والإشارة فيه تكفي. وقد قصصنا خبر هذه الأبيات فيما أخرجناه لأخي رحمه الله.

ولي أيضًا:

أَمِنْكِ سَرَى طيفٌ وقد كادَ لا يَسْرِي ... ونحْنُ جَميعًا هاجِعُونَ عَلَى الْغَمْرِ[1]

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٤/ ٢١١): الغَمْرُ: بفتح أوله، وسكون الثانية، هو الماء الكثير المغرق، وثوب غَمْرٌ إذا كان واسعًا. والغَمْرُ: بئر قديمة بمكة. قال أبو عبيدة: حفرت بنو سهم الغَمْرَ فقال بعضهم:

نحن حفرنا الغَمْرَ للحجيج ... تثج ماءً أيما ثجيج

وغمْرُ أراكه: موضع آخر. وغمر بني جذيمة بالشام، قال عدي بن الرقاع:

لمن المنازل أقفرت بغِباء؟ ... لو شئت هيجت الغداة بكائي

فالغمر غمر بني جذيمة قد ترى ... مأهولة فخلتْ من الأحياءِ

لولا التجلد والتعزي إنه ... لا قوم إلاَّ عَفْرهم لفناءِ

ناديت أصحابي الذين توجهوا ... ودعوت أخرس ما يجيب دعائي

وغمر طيء، قال الكلبي: سمي بطيء رجل من العرب الأولى. وغمر ذي كندة: موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين. قال عمر بن أبي ربيعة:

إذا سلكت غمر ذي كندة ... مع الصبح قصدًا لها الفرقدُ

هنالك إما تُعَزِّي الفؤاد ... وإما على إثرهم تَكْمَدُ

... وقال أبو عبيد السكوني: الغمر بحذاء توز شرقيه جبل يقال له: الغمر، وتوز من منازل طريق مكة من البصرة معدودة في أعمال اليمامة.

تَعَجَّبْتُ مِنْهُ كَيفَ أَمَّ رِكابَنا وَأَرْحُلَنا بَيْنَ الرِّحَالِ وَمَا يَدْرِي
وكَيفَ اهْتَدَى بَيْني وَبَيْنَهُ وَلَمَّاعَةُ القُطْرَيْنِ مَنَّاعَةُ القَطْرِ
وَأَفْضَى إلى شُعْثِ الحَقَائبِ عَرَّسُوا عَلَى مَنْزِلٍ وَعْرٍ وَدَاوِيَّةٍ قَفْرِ
وَقَوْمٍ لَقُوا أَعضَادَ كُلِّ طَلِيحَةٍ بِهَامٍ مَلاَهُنَّ النُّعَاسُ مِنَ السُّكْرِ
سَرَوْا وَسَماكُ الرُّمْحِ فَوْقَ رُؤوسِهِمْ فَمَا هَوَّمُوا إلاَّ عَلَى وَقْعَةِ النَّسْرِ
وَبَاتَ ضَجِيعًا لِي وَنحنُ مِنَ الكَرَى كَأَنَّا تُسَرِّوِّينَا العَتِيقُ مِنَ الخَمْرِ
أَضُمُّ عَلَيْهِ سَاعِدَيَّ مِنَ الحَشَا وَأَفْرِشُهُ مَا بَيْنَ سَحْرِي إلَى نَحْرِي
تَمَنَّيْتُهُ وَاللَّيْلُ سَارٍ بِشَخْصِهِ إلى مَضْجَعِي حَتَّى التَقَيْنَا عَلَى قَدْرِ

معنى «وقد كاد لا يسري»: أنني ما كنت طامعا فيه، ولا راجيًا له، ولا محدِّثا نفسي به. وإنما قلت مناعة القطر، وهي على الحقيقة ممنوعة لا مناعة، لأقابل بين لمُاعة ومنّاعة. والمعنى مع ذلك صحيح؛ لأنها تمنع القطر السائر فيها، وتعدمه منها. فجاز أن يقال مناعة، وإن كانت هي أيضا ممنوعة ومعنى البيت الذي أوله:

وقوم لَقُوا اعضاد كل طليحة

أنهم توسدوا أذرع المطي كَلالا واستعجالا، وتصعلُكا وتخشنا، وإنما قلت سِماك المح، ولم أقل السماك الرامح، لضيق الشعر، وما عدلنا مع ذلك إلا إلى لفظ، مقبول غير مستثقل، وبين كون السماك الرامح مُسامتا لقمة الرأس، وبين وقعة النسر، وهي تدليه للغروب، زمان طويل مديد.

ومعنى البيت الأخير أنني تمنيته، وكانت رؤيتي لطيفة عقيب ذلك، فكأن الليل كان ساريا به في وقت المُنى للقارئ، حتى كأن اللقاء عقيب المنى.

ولي أيضا:

أَلاَ يا بْنَةَ الحَيَّيْن ما لِي وَمَالكِ وماذا الَّذِي يَنتابني من خيالكِ
هجرْتِ وَأنتِ الهمُّ إذْ نحنُ جِيرَةٌ وَزُرْتِ وَشَحْطٌ دَارُنا مِنْ دِيارِكِ
فمَا نَلْتَقِي إلاَّ عَلَى نَشْوَةِ الكَرَى بِكُلِّ خُدارِيٍّ مِنَ اللّيل حالكِ
يُفَرِّقُ فِيما بَيْنَنا وَضَحُ الضُّحَى وَتَجْمَعُنا زُهْرُ النُّجُومِ الشَّوَابكِ
وما كَانَ هَذَا البَذْلُ منكِ سَجِيَّةً ولا الوَصْلُ يَوْمًا خُلَّةً مِنْ خِلالكِ

فكَيفَ الْتَقَيْنَا وَالمَسَافَةُ بَيْنَنا ... وكيفَ خَطَرنا مِنْ بَعيدٍ بِبَالِكِ
وقد كُنتِ لَمَّا أَوْسَعُونا وِشَايَةً ... بِنَا وَبِكُمْ آيَسْتِنَا مِنْ وِصَالِكِ
فلَمْ يَسْبِقَ في أَيمانِنَا بَعْدَ مَا وَهَتْ ... عقُودُ التَّصابِي رُمَّةٌ مِنْ حِبَالِكِ
ولَيْلَةَ يَتَنَادُونَ رَمْلَةَ مُرْبِخٍ ... خَطَوْتِ إِلَيْنَا عانِكًا بَعْدَ عانِكِ[1]
وما كانَ مَنْ يَسْتَوْطِنُ الرَّمْلَ طامِعًا ... وأَنْتِ عَلَى وَادِي مِنًى مِنْ مَزارِكِ[2]

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٥/ ٩٧):

مُرْبِخ: بضم أوله، وسكون ثانيه، وكسر الباء الموحدة، وخاء معجمة، قال أبو منصور: مُرْبِخ رمل بالبادية بعينة. وقال أبو الهيثم: سمي جبل مُرْبِخ مُرْبِخًا لأنه يربخ الماشي فيه من التعب والمشقة، أي يذهب عقله كالمرأة الربوخ التي يغشى عليها من شدة الشهوة.

وقال الليث: ربخت الإبل في المربخ: أي فترت في ذلك الرمل من الكلال، وأنشد بعضهم:

أمن جبال مربخ تمطين ... لا بد منه فانحدرن وارقين

أو يقضي الله رمايات الدين

وقال نصر: مربخ رمل مستطيل بين مكة والبصرة. ومربخ أيضًا جبل آخر عند ثور مما يلي القبلة وقال العمراني: مَرْبَخ: بفتح الميم، والباء: رمل من رمال زرود. وعن جار الله بضم الميم وكسر الباء. قلت: وقوله: عانك بعد عانك: يريد مشقة شديدة بعدها أشد منها. وقال ابن منظور في لسان العرب في مادة «عنك».

عنك الرمل يعينك عنوكًا ونعتك: تقعد وارتفع، فلم يكن فيه طريق، ورملة عانك: فيها تفقد لا يقدر البعير على المشي فيها إلاّ أن يحبو، يقال: قد أعنك البعير، ومنه قول رؤبة:

أوديت إن لم تجب حبو المعتنك.

يقول: هلكت إن لم تحمل حمالتي بجهد. واعتنك البعير واستعنك حبا في العانك فلم يقدر على السير. وأعنك الرجل: وقع في العكة واحدها عنك وهو الرمل الكثير. وفي حديث أم سلمة: ما كان لك أن تُعنّيكها. التعنيك: المشقة والضيق والمنع، من اعتنك البعير إذا ارتطم في الرمل لا يقدر على الخلاص منه أو من عنك الباب واعتكه إذا أغلقه.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان (٥/ ١٩٨):

مِنًى: بالكسر، والتنوين في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار من الحرم، سمي بذلك لما يُمنى به من الدماء أي يراق.... وقيل: منى من مهبط العقبة إلى مُحَسِّر، وموقف المزدلفة من مُحَسِّر إلى أنصاب الحرم وموقف عرفة في الحل لا في الحرم.

وقال ابن شميل: سمي منى لأن الكبش مُنِيَ به أي ذبح. وقال ابن عيينة: أخذ من المنايا وهي بليدة على فرسخ من مكة، طولها ميلان.

ولمـــا امتَطَـــيْتِ اللَّيْلَ كُنْتِ حَقِيقَةً بَغَيْـــرِ الْهُـــدَى لَـــوْلاَ ضِيَاءُ جَمالِكِ

الخُدَارِيِ: المظلم وسحابٌ خُدَارِيٌ وعُقاب خُدَارِيَّة: في لونها سواد.[١]

وهذه أبيات غريبة الطرح، وبدوية النسج كما تراه.

ولي من قصيدة أولها:

إن العقيق[٢] يزيدني خبَلاَ

يـــا طَـــيفُ زُرْنـــا إنْ نَشِطْتَ لنا فالـــرَّكْبُ بالأَبْـــوَاءِ[٣] قَـــدْ نَـــزَلا

عُـــدَّ الـــنَّهارَ مَطِـــيَّةً لَغِـــبَتْ وَخُـــذِ الظَّـــلاَمَ عَلَـــى السُّرَى جَمَلاَ

وَدَعِ الـــتطلُّب فالحَبِـــيبُ إذا مَـــلَّ الْوِصَـــالَ تَطَلَّـــبَ الْعِلَـــلاَ

عَجِّـــلْ سُـــرَاكَ إلى مَـــضاجعنا وإذا حَـــضَرْتَ فـــلا تعِـــب عَجِلاَ

مِـــنْ أَيْـــنَ تَعْلَـــمُ مَـــنْ نُحَـــاذِرُهُ قَطَـــعَ الخَـــيالُ الحَـــبْلَ أمْ وَصَـــلاَ

اللغوب: هو الكلالُ والتعبُ. وأردت أن زيارة النهار كالمطية اللاغبة، التي لا يمكن السير عليها، فيجب العدول عنها إلى سُرَى الليل الذي يستر ولا يظهر. والبيت الرابع مليح المعنى. ومن جيد ما مدحت به زيارة الطيف، أنها غير معلومة لمتتبع، ولا محسوبة لمترصد.

ولي أيضًا:

يـــا طَـــيفُ ألا زُرْتَـــنا بِـــسوَادِ لَمَّـــا تَـــضَرَّعْنا حَـــيالَ الـــوَادي

---

(١) يبدو أن البيت الذي تكلم فيه عن السحاب الخدري قد سقط من المخطوط والله أعلم.

(٢) العقـــيق: وادٍ بالحجاز كأنه عُقَّ أي شق غلبت الصفة عليه غلبة الاسم ولزمته الألف واللام؛ لأنه جعـــل الـــشيء بعيـــنه علـــى ما ذهب إليه الخليل في الأسماء الأعلام التي أصلها الصفة كالحارث والعباس. (قاله ابن منظور في لسان العرب مادة «عقق»).

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان (١/ ٧٩): الأَبْوَاء: بالفتح، ثم سكون الواو، وألف ممدودة... سميت بالأبواء لتبوء السيول بها.

وسئل كثير الشاعر: لما سميت الأبواء أبواء؟ فقال: لأنهم تبوؤوا بها منزلاً.

والأبـــواء قرية من أعمال فُرع من المدينة بينها وبين الجُحفَة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً وقيل: الأبواء: جبل على يمين آرة، ويمين الطريق للمُصعد إلى مكة من المدينة.

... وقال السكري: الأبواء جبل شامخ مرتفع ليس عليه شيء من النبات غير الخَزَم والبشار، وهو لخزاعة وضمرة.... وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ.

مَا كَانَ ضَرَّكَ والوشاةُ بمعْزِلٍ عَنَّا جَميعًا لَوْ طَرَقْتَ وِسَادي
والرِيُّ فيكَ وَقَدْ صَدَدْتَ فقُلْ لنا منَّا عَليلُك كيفَ يَنْقَعُ
ومِنَ أَجْلِ أَنَّكِ تُسْعِفِينَ عَلَى الْكَرَى أَهْوَى الرُقَادَ وَلاَتَ حِينَ رُقَادِ[1]
يا زَوْرَةً مِنْ باخِلٍ برقادِهِ عَجِلَتْ عَطِيَّتُهُ عَنِ المِيعَادِ
تَرَكَ البَيَاضَ لأمِنٍ وَأَتَى بِهِ فَرَقَ الوشَايَةِ في ثيابِ حِدَادِ

أردت بقولي: «والوشاة بمعزل عنا»: أي أنهم لا يشعرون لنا بخبر، ولا يقفون منا على أثر. وقولي: «عجلت عطيته عن الميعاد» أي أنها سبقت الميعاد، وفجأت بغير وعد. وأردت بالبياض: النهار، فإن زيارة النهار لا تكون إلا مع الأمن والانبساط. وأردت بالحداد: سواد الليل؛ لأن الخائف يستتر بظلمة الليل، ويستجنّ بسواده.

ولي أيضا من قصيدة أولها:

أَمِنْكِ الشَوقُ أرَّقَني فهاجَا

وطَيفَكِ كَيْفَ زَارَ بِذَاتِ عِرْقٍ[2] مَضَاجِعَ فِتْيَةٍ وَلَجُوا الْفِجَاجَا
فطَرَّقَنا ونَحْنُ نحَالُ أَلاَّ يَعُوجَ بِنَا مِنَ الْبَلْوَى فجَاجَا
فأَوْهمَنَا اللِّقَاءَ ولا لِقَاءَ وناجَى لَوْ بِصِدْقٍ مِنْهُ ناجى
أَلَمْ بِنَا وَمَا رَكِبَ المَطَايَا ولا أَسْرَى ولا أَدْلَجَ ادِّلاَجَا

ولي من قصيدة أولها:

يا صَاحِ لَيْسَ لِسِرٍ مِنْكَ كِتْمانُ

---

(١) كثير من العشاق ذم نوم العاشق واعتبره من الجفاء إلاّ أنه هنا استحب النوم لزوره طيف العاشق له في النوم فاستحب النوم على السهر والضنى.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان (٤/ ١٠٧) في مادة «عرق»:... ذات عرق: مُهَل أهل العراق وهو حدّ بين نجد وتهامة.... وقال ابن عينية: إني سألت أهل ذات عرق أمُتهمون انتم ام منجدون؟ فقال: ما نحن متهمين، ولا منجدين.

وقال ابن شبيب: ذات عرق من الغور، والغور من ذات عرق إلى أوطاس، وأوطاس على نفس الطريق، ونجد من أوطاس إلى القريتين وقال قوم: أول تهامة من قِبل نجد مدارج ذات عرق. وقال بعض أهل ذات عرق:

ونحن بسهب مشرف غير منجد ولا متهم فالعين بالدمع تذرف

مَـاذَا عَلَـى زَائِرِي لَيْلا عَلَى سِنةٍ لَـوْ زَارَ صُـبْحًا وطَرْفُ الْعَيْنِ يَقْظانُ
زِيَـارَةُ الطَّـيْفِ ضَرْبٌ مِنْ قَطِيعَتِهِ وَوَصْـلُ مَـنْ لاَ تَرَاهُ الْعَيْنُ هِجْرَانُ
وَلَـيْسَ يَـنْفَعُني وَالْـبُعْدُ أَعْلَمُـه قُـرْبٌ أَتَـانِي بِـهِ ظَـنٌّ وَحِسْبَانُ

هـذا من هجو الطيف الغريب الواقع؛ لأن الزيارة إذا كانت باطلة لا أصل لها فهي علـى الحقـيقة قطـيعة. وواصـل من لا تراه العين هجران بغير شبهة؛ لأن هذا البيت كالغـريب، فـإنني لم أجد له على هذا الترتيب نظيرًا. وأردت أن الظن والحسبان اللذين خيَّلا في النوم القرب لا ينفعان مع البعد المتحقِّق المتيقِّن.

ولي من قصيدة أولها:

أمالَكَ مِنْ غَرَامٍ ما أمالاَ

هَجَـرْتِ ونحْـنُ أَيْقَـاظٌ بِـوَجْ وَزُرْتِ ونحـنُ كاظمـة خَـيالا
ولَـيْسَ الهجـرُ عـن سَبَبٍ وَلَكِنْ خَلَـوْتِ ومـا خلَـوْنا مِـنْك بالا
وطَـيفٌ مـنكُم بجسنوبِ نَجْدٍ[1] أرانـي مِـنْ زيـارَتِكُمْ مِـثالا
أقَـامَ عَلَـى مَـضاجِعَنا هُـدُوًّا فلمَّـا زَالَ عَـنَّا الـنَّوْمُ زَالاَ
لَهَـوْتُ بِـبَاطِلِ الأَحْـلاَمِ حَتَّـى وَدِدْتُ لَهُـنَّ أَنَّ اللَّـيْلَ طـالا

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٥/ ٢٦١): نَجْد: بفتح أوله، وسكون ثانيه.
قال النضر: النجد قفافُ الأرض وصلابها وما غلظ منها وأشرف، والجماعة النجاد، ولا يكون إلاَّ قفًـا أو صـلابة من الأرض في ارتفاع من الجبل معترضًا بين يديك يردّ طرفك عما وراءه، يقال: اعلُ اعلُ هاتيك النجاد، وقال: ليس بالشديد الارتفاع.
وقـال الأصمعي: هي نجود عدّة منها: نجد برق، وادي باليمامة، ونجد خَال، ونجد عُفر، ونجد كـبكب، ونجـد مريع، ويقال: فلان من أهل نجد. قال: وكل ما ارتفع عن تهامة فهو نجد، فهي ترعـي بـنجد وتشرب بتهامة.... وقيل: نجد هو اسم للأرض العريضة التي أعلاها تهامة اليمن وأسـفلها العراق والشام، قال السكري: حد نجد ذات عرق من ناحية الحجاز كما تدور الجبال معهـا إلى جـبال المدينة، وما وراء ذات عرق من الجبال إلى تهامة فهو حجاز كله فإذا انقطعت الجـبال من نحو تهامة فما وراءها إلى البحر فهو الغور، والغور وتهامة واحد. ويقال: أن نجدًا كلها من عمل اليمامة.
وقـال عمـارة بن عقيل: ما سأل من ذات عرق مقبلاً فهو نجد إلى أن يقطعه العراق، وحد نجد أسـافل الحجـاز وهـودج وغيره. وما سأل من ذات عرق. لويًا إلى المغرب فهو الحجاز إلى أن يقطعه تهمة وحجاز يحجز أي يقطع بين تهامة وبين نجد.

أَلَيْلَتَـــنا بكاظمـــة[1] أَظِلُّـــي بِيَاضَـــكِ أنْ يُلِـــمَّ بِـــنَا ضَـــلالا

---

(١) قال ياقوت في المعجم (٤/ ٤٣١):

كَاظِمَــة: الظـاء معجمة الكظم: إمساك الفم. والكاظم: المطرق لا يُجِرّ من الإبل... وقد أكثر الشعراء من ذكرها، فمنه:

يــا حـبذا الـبرق من أكناف كاظمة يـسعى علـى قـصرات المرخ والعُشرُ

لله در بـيـوت كـــان بعـــشقُها قلـبي وبالفُهـا إنْ طيـبتْ بـصري

فقـلتها فقـد ظمـآن إداوتـه والقـيظ يحـذف وجـه الأرض بالشرر

أمنـية الـنفس أن تـزداد ثانـية وحالـنا والأمـاني حلـوة الثمـر

قال ياقوت في معجم البلدان (٣/ ١٥٥):

الزَّوْرَاءُ: تأنيث الأزور، وهو مائل، والأزوار عن الشيء: العدول عنه والانحراف منه سميت القوس الزوراء لميلها، وبه سميت دجلة بغداد الزوراء.

والزوراء: أرض كانت لاحيحة من الحلاج، وفيها يقول:

....

أني أقـيم علـى الـزوراء أعمـرها إنّ الحبـيب إلى الإخـوان ذو المـال

....

سمـيت بـئر كـانت فـيه

والـزوراء: البئـر البعـيدة القعر، وأرض زوراء: بعيدة. والزوراء أيضًا دار عثمان بن عفان ﷺ بالمدينة. والزوراء: أرض بذي خيم في قول تميم بن مقبل:

مـن أهـل قـرن فما أفضل العشاء له حـتى تـنور بالـزوراء مـن خـيم

قـال الأزهري: ومدينة الزوراء ببغدادفي الجانب الشرقي، سميت الزوراء لا زوراء في قبلتها. وقال غـيره: الـزوراء مديـنة أبي جعفـر المنصور، وهي في الجانب الغربي، وهو أصح مما ذهب إليه الأزهـري بإجمـاع أهل السِّير، قالوا: إنما سميت الزوراء لأنه لما عمرها جعل الأبواب الداخلية مزورة عن الأبواب الخارجة أي ليست على ستها.... والـزوراء: دار بـناها النعمان بن المنذر بالحيرة.... والزوراء: موضع عند سوق المدينة قرب المسجد.

قـال الـداودي: هـو مـرتفع كالمنارة. وقيل: بل الزوراء سوق المدينة نفسه ومنه حديث ابن عباس ﷺ: أنه سمع صياح أهل الزوراء، وإياه عنى الفرزدق:

تحـن بـزوراء المديـنة نـاقتي حـنين عجـول تـركب الـبَوُ رائـم

ويـا لـيت زوزراء المديـنة أصبحت بـزوراء فَلْجـا وبـسيف الكـواظم

... والزوراء: ماء لبني أسد.

فَلَـيْسَ الـصُّبْحُ مِنْ أربى وَحَسْبي ظِـلالُ اللـيلِ أسـكُنُهُ ظِـلالا

أوقـع مـا وصفت به زيارة الطيف: أنها مثال الزيارة الحقيقية، كما أن الطيف مثال لصاحبه ولا حقيقة له.

ولي من قصيدة أولها:

أَمِنْ أَجْلِ مَنْ سارَتْ بِهِنَّ الأباعِرُ

وَيعِبُنِـي والـنَّاعِجَاتُ مُـشِيحَةٌ خَـيالٌ مِـنَ الـزَّوْرَاءِ في اللَّيْلِ زَائر

يَـزُورُ وَأعْـنَاقُ الْمطِـيِّ خَوَاضعٌ كَـلالاً وَأحـشَاء الْمطِـيِّ ضَوَامِر

ولي من قصيدة أولها:

ألاَ أيهَـا الحَـادِي قِـفِ الْعِـيسَ عَلـى الـوَادِي

وَأيْـنَ الطَـيْفُ مِـنْ ظمـيا ءَ أمْـسَى وَهْـوَ مُغْـتادِي

جفَـا صُـبْحًا ووافانِـي صَـرِيعًا بَـيْنَ رُقـادِ

وَأعْـنَاق المَطَايَـا مِـنْ كَـلالٍ بَـيْنَ أعْـضادِ

تَلاَقَيْـنَا بِـأرْوَاحٍ وَفَارَقْـنا بِأجْـسَادِ

الأرواح لا يصح عليها في الحقيقة التلاقي والتزاور، ولكن الشعراء لما رأوا أن الأجساد في طيف الخيال لم تتلاق، ولا تدانت، نسبوا التلاقي إلى الأرواح، تعويلا على قول من جعل النفس لها قيام بنفسها، وأنها غير الجسد، وأن التصرف لها، فجرينا على هذه الطريقة، وإن كان ذلك باطلا في التحقيق.

ولي من قصيدة:

يومَ الحِمَى ما أَنْت مِنْ هَمِّي

لَـوْ كـانَ لِلْوَاشِـيَن مَقْـدِرَةٌ مـا سَـوَّغُوك زِيـارَةَ الْحلُـمِ

وقـال الأصمعي: الزوراء هي رصافة هشام وكانت للنعمان وفيها كان يكون واليها كانت تنتهي غـنائمه، وكان عليها صليب لأنه كان نصرانيًا، وكان يسكنها بنو حنيفة، وكانت أدنى بلاد الشام إلى الشيح والقيصوم.

وزوراء فلـج، وفلـج: ما بين الرُّحَيْل إلى المحازة، وهي أول الدهناء بر وزرقة وزوراء: ماءان لبني أسد.

زُرْتِ الأُلَى باتُوا بكاظِمةٍ مُتَلَثِّمِينَ جَوًى عَلَى الرُّضَمِ[١]
طَرَحُوا الخُدُودَ عَلَى سوَاعِدِهِم وَاللَّيلُ في أثْوَابِهِ السُّحُمِ
ولقد طَرَقْتِ وما طروقُكِ في عِلْمٍ لقائِفِهِمْ ولا رَجْمِ

إنما أردتُ تفخيم شأن هذه الزيارة، وحلاوة طعمها؛ لأن اللذات الواردة من غير احتساب ولا انتظار، أنفع وأوقع.

ولي من قصيدة أولها:

تلكَ الدِّيارُ بِرامَتَيْنِ[٢] هَمُودُ

ولقد طَرقْت وَما طَرَقْتِ صَبَابَةً بمِنى وَنحْنُ إلى الرِّحَالِ هُجُودُ
في ظِلِّ خُوصٍ كالقِسِيِّ طلائحٍ أخَذَتْ عوَارِيَهُنَّ منها البِيدُ
أنَّى اهْتَدَيْتِ وكيْفَ زُرْتِ وَبَيْنَنا دُونَ الزِّيَارَةِ مُرْبِخٌ[٣] وَزَرُودُ[٤]
ومفَاوِزٌ مِنْ دُونِهِنَّ مفاوِزٌ وتِهَائِمٌ[٥] مِنْ فَوْقِهِنَّ نُجُودُ[٦]

معنى «عواريهن منها البيد»: أن هذه المطايا رعت منابت الأرض وشجرها فأسنها، ولما أجهدها السير، وخدَّدَ لحومها وأهزلها، صار ما كان أسنمها أهزلها، فكأنه مستردٌّ لعاريته. هذا معنى مطروق معروف في الشعر القديم والحديث. ومُرْبِخ وزرود: رملان في

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب في مادة «رخم» أي البطيء، ويريد في البيت هنا أن طيف الخيال زاره في داره على بطء وتثاقل وتأخر شديد بعد أن انتظره كثيرًا، وقطع الأمل في زيارته فهذه الزيارة التي لم تكن مرتقبة جددت في نفسه الأمل، وأيقظت الهمة بعد الفتور، وأنعشت النفس بعد الخمول وأبردت ما في القلب من الجوى والحزن فالتأم الجرح.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان (٣/ ١٦):
رَامَتَيْن: هو تثنية رامة يثنى كما قيل عمايتين وهو واحد، وهو رامة بعينه. وقد ذكرناه بعد. قال جرير:

يجعلن مدفع عاقلين أيامنا وجعلن أمعز رامتين شمالا

وعاقلين أيضًا: أراد به عاقلاً، وفي هذا الموضوع جاء: تسألني برامتين سَلْجَمَا.

(٣) سبق التعريف به.

(٤) سبق التعريف به.

(٥) جمع تهامة وسبق التعريف به.

(٦) جمع نجد وسبق التعريف به.

طريق مكة، معروفان شاقان.

ولي من قصيدة أولها:

أشاعِرَةٌ بِمَا يَلْقَى ظَلُومُ

وَلَيْلَةَ زَارَنَا مِنكُمْ خَيَالٌ وَوَجْهُ اللَّيْلِ مِنْ وَضَحٍ بَهِيمُ
أَلَمَّ بِبَاطِلٍ وَيَوَدُّ قَلْبِي وِدَادًا أَنَّهُ أَبَدًا مُقِيمُ
وَأَحْسَبُهُ الضَّجِيعُ عَلَى وِسَادِي وما رَامَ اللِّقَاءَ وَلا يَرُومُ
وكَيفَ يَزُورَ مِنْ بَلَدٍ بَعِيدٍ ولا عَنَقٌ هُنَاكَ وَلاَ رَسِيمُ

إنما قلت: ما رام اللقاء ولام يروم، فنفيت الماضي والمستقبل؛ لأن الطيف إنما هو تخيل لا حقيقة له. فليس هو مما يجوز أن يروم، لا ماضيا ولا مستقبلا.

ولي من قصيدة أولها:

أَعَلَى الْعَهْدِ مَنْزِلٌ بِالْجَنَابِ(١)

---

(١) ذكر ياقوت في معجم البلدان جناب في (٢/ ١٦٤)، الرقمتين في (٣/ ٥٨) وقال في جِنَاب في الموضع الأول: الجناب: موضع بعراض خيبر وسَلاح، ووادي القرى.
وقيل: هو منازل بني مازن. وقال نصر: الجناب ثم ديار بني فزارة بين المدينة وفَيد، وقال ابن هَرمَة:

فاضت على أثرهم عيناك دمعها كما ينابيع يجري اللؤلؤ النسقُ
فاستبق عينك لا يردي البكاء منها وأكفف بوادي دمع منك تستبقُ
لبس الشؤون وإن جادت بباقية ولا الجفون على هذا ولا الحدقُ
بانوا بأدماني من وحش الجناب لها أجوي أخينس في أرطاته خرقُ

وقال ابن حبيب في فسره: الجناب: من بلاد فزارة، والخضارم من ناحية اليمامة، وجناب الحنظل: موضع باليمن. وقال في الرقمين في الموضع الثاني:
الرقمتان: تثنية الرقمة، وهو مجتمع الماء في الوادي وقال الفراء: يقال عليك بالرقمة ودع الضفة. ورقمة الوادي: حبث الماء، وضفتاه: ناحيتان.
وفي كتاب الصحاح: الرقمة جانب الوادي وقيل الروضة قال السكوني: الرقمتان قريتان بين البصرة، والنباج بعد ماوية تلقاه البصرة، وبعد حفر أبي موسى تلقاء النباج، وهما على شفير الوادي، وهما منزل مالك بن الريب المازني، وفيها يقول:

فلله دُري يوم اترك طائعًا بُنَيَّ بأعلى الرقمتين وماليا

=

حَــــيٌ بِالــــرُّقْمَتَيْنِ زَوْرًا تَـــوَخَّا كَدُجًّـــى بَعْـــدَ هَـــدْأَةِ الأَصْـــحَابِ
زَارَنِـــي وَالـــرُّقَادُ مِنِّـــي وَمِـــنْهُمْ داخِـــلٌ في العُـــيُونِ مِـــنْ كُـــلِّ بَابِ
زَوْرَةٌ زُوِّرَتْ عَلَـــيَّ وَلَـــوْ كَـــا نَـــتْ يَقِيـــنًا لَمَـــا شَفَتْ بَعْضَ مَا بِي

قـــولي: «داخـــل في العيون من كل باب»: كناية عجيبة عن تمكن النوم من القوم، واستقراره في عيونهم، وتحكمه فيهم، وإنما أردت الاستغراق التام في النوم.

ولي من قصيدة أولها:

أَدِرْ أَيُّهَا السَّاقِي الكؤوسَ عَلَى صَحْبِي

فَيَاطَـــيفَها أَلاَّ طَـــرَقْتَ رِحالَـــنا ونحْنُ عَلَى الأَذْقَانِ في جَانِبِ الشُّغْبِ[1]
نَـــشَاوَى كَأَنَّـــا ســـاوَرَتْنا زُجَاجَـــةٌ مُـــضَرَّجَةُ الـــنَّاجُودِ دَامِـــيَةُ الـــسَّكْبِ
بِـــنَا مِـــنْ هَـــوَى لُقْيَاكَ كَرْبٌ نُحِبُّه فلـــوْ زُرْتَـــنا نَفَّـــسْتَ مِنْ ذَلِكَ الْكَرْبِ
ومَـــا ضَـــرَّ مَـــنْ يَأْبَى زِيارَةُ مُقْلَتِي مُجاهَـــرَةً لـــوْ زَارَ مُـــسْتَخْفِيًا قَلْـــبِي
ومَـــنْ ضَنَّ في لُقْيَايَ بِالصِّدْقِ مُسْرِفًا عَلَـــى مُـــرْتَجِيه كَـــيْفَ يَبْخَلُ بِالكِذْبِ

معنى البيت الرابع: قد تقدم شرحه عند بيان معنى قولي: لأن زيارة المهاجر هي التي تـــرى العين فيها الشخص على الحقيقة، وزيارة القلب: التي تتمثل فيها للقلب من زيارة الطيف ما لا حقيقة له.

ولي من قصيدة أولها:

لَـــيْتَ أنـــا لمـــا فَقَـــدْنا الهُجُوعا

وقـــال أبـــو منصور:... الرقمتان روضتان بناحية الصَّمان.... وقال العمراني: الرقمتان روضتان إحـــدهما قريبة من البصرة، والأخرى بنجد.... وقال الكلابي: الرقمتان بين جُرْثم ومطلع الشمس بـــأرض بني أسد، وقال: والرقمتان أيضًا بشط فلج من أرضي بني حنظلة، والرقمتان قريتان على شفير وادي فلج بين البصرة ومكة.

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٣/ ٣٥٢):
شَـــغْب: هـــي ضيعة خلف وادي القرى كانت للزهري وبها قبره، ينسب إليها. زكريا بن عيسى الشغبي مولى الزهري، روى نسخة عن الزهري عن نافع. وقال كثير:
ســـقى الله وجهـــا غـــادر القوم رمسه مقـــيمًا ومـــرّوا غـــافلين علـــى شـــغب

قُـلْ لِطَـيْفِ الخَـيالِ لَيْلة هَوَّمْنا ... بِـنجْدٍ أَلاَّ طَـرقْتَ هَـزِيعا
والمطَايـا مِـنَ الكَلالِ عَلَى رَمْلِ ... زَرُودٍ قَـدِ افترَشْـنَ الـضُّلُوعا
مـا عَلَـى مَنْ يَحِلُّ بِالْغَورِ(١) لَوْ بَا ... تَ لَـنَا طَـيفُهُ بِـنَجْدٍ ضَـجِيعَا
خَادعُـونا بالـزَّوْرِ منكم عن الحقِّ ... فمـا زَالَ ذُو الهـوَى مُخْـدُوعا
وَكِلُـونا إلى النُّـزُوعِ عـنِ الْحُبِّ ... وهَـيْهَاتَ أَنْ يُـرِيدَ النُّـزُوعا
وَاطْلُـبُوا إنْ وَجَـدْتُمُ كاتِمًا لِلسِّرِّ ... فِـيكُمْ فقـد وَجَـدْنا المُـذِيعا

ولي من قصيدة أولها:

يا حَادِيَ الْعِيسِ عَرِّجْ بِي عَلَى الدِّمَنِ

وَقَـدْ جَفـاني حَتَّـى إنْ طَارِقَـهُ ... فِي ظُلْمَـةِ اللَّيْـلِ عَهْدًا لَيْسَ يَطْرُقُنِي
وَمَـنْ يَـضِنُّ بِزَوْرٍ مِنْهُ كيفَ يَدِي ... والـثِّقْلُ لِلحَـقِّ يَـوْمًا فِيهِ يَنْقُصُنِّي

ومن ضمنَّ بالباطل مع سهواته وخفته، كيف لا يضن بالحق مع ثقله وكلفته.

ولي أيضا، وهي ابتداء قصيدة:

زَارَكَ زُوَّارُ الحُلُـمْ ... مُسْلِمًا بِـذِي سَـلَمْ(٢)

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٤/ ٢١٦):

الغَوْر: بالفتح ثم سكون، وآخره راء: المنخفض من الأرض. وقال الزجاج: الغور أصله ما تداخل وما هبط فمن ذلك غور تهامة، وغور كل شيء قعره، وكل ما وضعنا به تهامة فهو صفة الغور؛ لأنهما أسمان لمسمى واحد. قال أعرابي:

أراني سـاكنًا مـن بعـد نجـد ... بـلاد الغـور والـبلد الـتهاما
فـربما مـشيت بحـر نجـد ... وربمـا ضـربت بـه الخـياما
وربمـا رأيـت بحـر نجـد ... علـى الـلأواء أخلاقـا كـراما
ألـبس الـيوم آخـر عهـد نجـد؟ ... بلـى فاقـروا علـى نجـد إسـلاما

قـال الأزهـري: الغـور تهامة ما يلي اليمن. وقال الأصمعي: ما بين ذات عرق إلى البحر غور تهامة... وقال الباهلي: كل ما انحدر سيله مغربًا عن تهامة فهو غور.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان (٣/ ٢٤٠):

سَلَم: بالتحريك، ووادي سلم: بالحجاز عن أبي موسى قال الشاعر:

في لـــــيْلة ظلماؤُهــــا حالكَـــةٌ مـــنَ الظُّلَـــمْ
كأنّهـــا إثمِـــدَةٌ أوْ فَحْمَـــةٌ مـــنَ الفَحَـــمْ
جَـساءَ وسَـادِي عالـدًا فلـمْ أبِـنْ مـنَ الـسُّقَمْ
والـركْبُ في ظِـلّ نَقـي لـوْ زَعْـزَعُوهُ لانْهَـدَمْ
كأنّـما مَـرُّ الـصَّبا رَقْـشٌ فـيه بـالقَلَمْ

ولي من قصيدة أولها:

لعينيكِ منها يَومَ زالت حُمُولُها

وَلَـيلَة بِتْـنا بـالأبيرق[1] جَاءَني عَلَـى نَـشْوَةِ الأَحْلاَمِ وَهْنًا رَسُولُها
خَـيَالٌ يُـرِيني أنَّهَا فَوْقَ مضْجَعِي وَقَـدْ شَـطَّ عَنِّـي بِالغُوَيْرِ[2] مقيلُها
فـيَا لَـيْلَةً مـا كـانَ أنْعَـمَ بِتْها تَـبارَحَ غاويهـا وغـابَ عـذُولُها

=

وهــل تعـودُ لـيالي بـذي سـلم كمـا عهـدت وأيامـي بهـا الأول
أيـام ليلـى كعـاب غـير عانـسة وأنـت أمـرد معـروفًا لـك الغـزل

وذو سَــلَم: واد ينحدر على الذنائب والذنائب: في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة. وسلم الرَّيان: باليمامة قريب من الهجرة. والسَّلَم في الأصل: شجر ورقة القرظ الذي يُدبغ به، وبه سمي هذا الموضع، وقد أكثر الشعراء من ذكره قال السرخسي الموسوي:

اقـول والـشوق قـد عادت بموائده لذكـر عهـد هـوى ولّـى ولم يـدُم
يـا ظبـية الأنـس هـل إنس ألذّ به مـن الغـداة فأُشـفى من جوى الألم؟
وهـل أراك علـى وادي الأراك وهل يعـود تـسليمنا يـومًا بـذي سـلم

والنقي الواد وفي الشعر قال فيه ابن منظور في لسان العرب:
النقـي من الرمل القطعة تنقاد محدودبة، حكى يعقوب في نقيان ونقوان والجمع نقيان وأنقاء وهذه نقاة من الرمل: للكثيب المجتمع الأبيض الذي لا ينبت شيئًا.

(١) لم أقف عليه في معجم البلدان.

(٢) قـال ياقـوت في معجـم البلدان(٤/ ٢٢٠): القُوَيْرُ: هو ماء لكلب بأرض السماوة بين العراق والـشام. وقـال السكوني: الغرير ماء بين العقبة والقاع في طريق مكة فيه بركة وقباب لأم جعفر تعرف بالزبيدية. والغوير: موضع على الفرات فيه قالت الزباء:

عسى الغوير أبؤسًا

وَمـا ضَـرني منها وقد بِتُّ راضيًا ... بِـباطِلِها أنْ بـانَ صُـبحًا بُطـولُها
فلمـا تَجلى الليلُ بالصُّبحِ وَامَّحَتْ ... دياجـرُ مُـرخاةٌ عَليـنا سُـدولُها
أفَقْـتُ فلم يَحصُلْ عَلَيَّ مِنَ الذي ... خـدِعْتُ بـه إلاَّ ظـنُوُنٌ أجيـلُها

وهذه الأبيات، ما نراه ولا نقدر على جحده، من الفصاحة والطُّلاوة، والبدويَّة التي يوجد طعمها في فصيح كلام القوم، وإنما أردت الطيف رسولها؛ لأنه مذكِّر بها، ومشوِّق إليها؛ ولأنه مثال لها ومترجم، فجرى مجرى الرسول.

وأمـا البـيت الرابع: فمعناه أنه لا يَثْلم متعتي بالطيف ليلا، ولا ينقص لدي به بيان بطلانـه في الصبح؛ لأن الحالتين متغايرتان. وقد قال الناس في الطيف إنه ممتع نافع، وإن كـان زُورا وبـاطلا، لكنهم ما بلغوا هذا التحقيق، ولا كشفوا عن العلة هذا انكشف. فالزيادة فيه على ما تقدمه غير مجهولة. ومعنى قولي: «فلم يحصل عليَّ إلا ظنون أجيلها».

إن الطـيف إذا كان ما بيناه، إنما هو تخييل وتمثيل، واعتقادات وظنون باطلة، فمع اليقظة لا يحصل في اليد شيء منه، إلا ذلك الظن الباطل، والتخيل الفاسد. وكان عندي أنني سابق إلى وصف الطيف بأنه رسول، ومتفرد بهذا المعنى؛ لأنني ما كنت وقفت فيما تصفحته ورويته على نظير له، إلى أن رأيت وأنا أملي هذا الكتاب، لأشجع السُّلَميِّ، فيما رواه أبو عبيد الله المرزُباني[1] عن شيوخه قوله:

---

(١) أشـجع السلمي ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد، وأبو عبيد الله المرزباني ترجم له الخطيب أيضًا في تـاريخ بغداد. أما السلمي فقال عنه الخطيب في تاريخ بغداد (٧/ ٤٥): أشجع بن عمرو أبو الولـيد، وقيل: أبو عمرو، السـلمي الشاعر. من أهل الرقة، وقدم البصرة فتأدب بها، ثم ورد بغداد فنزلهـا، واتـصل بالبرامكة وغلب من بينهم على جعفر بن يحيى، فحباه واصطفاه وآثاره وأدناه. وكـان أشـجع حلوًا ظريفًا، سائر الشعر، وله كلام جزل، ومدح رصين، فمدح جعفر بقصائد كثيرة، ووصله بهارون الرشيد فمدحه وهو بالرقة بقصيدة تمكنت بها حاله عند الرشيد وأولها:

قـصر علـيه تحـية وسـلام ... نـشرت علـيه جمالهـا الأيـام

يقـال إنه لما أنشده هذه القصيدة أعطاه هارون مائة ألف درهم. وأما المرزباني أبو عبيد الله فهو محمـد بن عمران بن موسى بن عبيد، الكاتب المعروف بالمرزباني، وقد جاءت ترجمته في العديد من التراجم منها: الفهرسـت (١٩٠)، تاريخ بغداد (٣/ ١٣٥)، المنظم (٧/ ١٧٧)، معجم الأدباء (١٨/ ٢٦٨)، أنـباه الرواة (٣/ ١٨٠)، اللباب (١٣، ١٦٥)، وفيات الأعيان (٤/ ٣٥٤) العبر (٣/ ٢٧)، ميـزان الاعتدال (٦٧٢)، الوافي بالوفيات (٤/ ٢٣٥)، البداية والنهاية (١١/ ٣١٤)، لـسان الميـزان (٥/ ٣٢٦)، الـنجوم الزاهرة (٤/ ١٦٨)، شذرات الذهب (٣/ ١١١)، هدية

=

=

العــارفين (٢/ ٥٤)، سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٤٧)، الأعلام (٦/ ٣١٩)، معجم المؤلفين (١/ ٩٧)، كــشف الظنون (١١٠٦، ١١٧٩)، إيضاح المكنون (٢/ ٨٠)، ميزان الاعتدال (٦٧٢)، ديــوان الإســلام (١٩٦٥)، ومما قال الخطيب البغدادي في ترجمته في تاريخ بغداد: كان صاحب أخــبار وروايــة للآداب، وصنف كتبًا كثيرة في أخبار الشعراء المتقدمين والمحدثين على طبقاتهم، وكتــبًا في الغــزل والنوادر وغير ذلك. وكان حسن الترتيب لما يجعله غيره أن أكثر كتبه لم تكن سماعًــا لــه، وكان يرويها إجازة ويقول في الإجازة: أخبرنا ولا يبينها. قال لي علي بن أبي أيوب القمي: يقال إن أبا عبيد الله أحسن تصنيفًا من الجاحظ.

وحدثني ابن أيوب قال: دخلت يومًا على أبي علي الفارسي النحوي، فقال: من أين أقبلت؟ قلت: من عند أبي عبيد الله المرزبان، فقال: أبو عبيد الله من محاسن الدنيا.

قال لي علي بن أيوب: وكان عضد الدولة يجتاز على بابه فيقف ببابه حتى يخرج إليه أبو عبيد الله فيــسلم عليه ويسأله عن حاله. وقال ابن أيوب: وسمعت أبا عبيد الله يقول: سودت عشرة آلاف ورقة، فصح لي منها مبيضًا لي ثلاثة آلاف ورقة.

حــدثني القاضــي أبو عبد الله الحسيني بن علي الصيمري قال سمعت أبا عبيد الله المرزباني يقول: كان في داري خمسون ما بين لحاف ودُوَّاج معدة لأهل العلم الذين يبيتون عندي. قال الصيمري: وأكثر أهل الأدب الذين روى عنهم سمع منهم في داره.

... قــال الأزهري: كان أبو عبيد الله معتزليًا، وصنف كتابًا جمع فيه أخبار المعتزلة، ولم أسمع منه شــيئًا لكــن أخــذت لي إجازتــه بجميع حديثه، وكان ثقة.... أخبرنا أحمد بن محمد العتيقي، وهــلال بن المحسن قالا: سنة أربع وثمانين وثلاثمائة فيها توفي أبو عبيد الله المرزباني. قال هلال: لــيلة الجمعــة، وقــال العتيقي يوم الجمعة من شوال. قال هلال: وكان مولده سنة ست وتسعين ومائتين. وقال العتيقي: وكان مذهبه التشيع والاعتزال، وكان ثقة في الحديث.

حــدثني التنوخــي قال: مات المرزباني في الجمعة لليلتين خلتا منوال سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وصلى عليه، ودفن في داره بشارع – عمرو الرومي في الجانب الشرقي.

قــال محققــه: وقد جمعت أسماء كتبه بهامش كتاب ديوان الإسلام فبلغت ثمانيةً وأربعين كتابًا وأنا أذكرها لك على الترتيب الهجائي:

١- أخبار الشعراء المشهورين والمكثرين من المحدثين وأنسابهم وأزمانهم.

٢- الأوائل في أخبار الفرس القدماء وأهل العدل والتوحيد وشيء من مجالسهم.

٣- الشباب والشيب.

٤- الزهد وأخبار الزهاد.

٥- المديح في الولائم والدعوات والشراب.

٦- أخبار أبي تمام.

٧- أخبار أبي حنيفة النعمان.

٨- أخبار أبي عبد الله محمد بن حازم العلوي.

٩- أخبار أبي مسلم الخراساني.
١٠- أخبار الأنوار والثمار.
١١- أخبار البرامكة.
١٢- أخبار شعيب بن الحجاج.
١٣- أخبار عبد الصمد المعدل (لعله ابن العذل).
١٤- أخبار ملوك كندة.
١٥- أخبار الجن المتمثلين فيه.
١٦- أشعار الخلفاء.
١٧- أشعار النساء.
١٨- كتاب التسليم والزيادة.
١٩- كتاب تلقيح العقول.
٢٠- كتاب التهاني.
٢١- كتاب الدعاء.
٢٢- كتاب ذم الحجاب.
٢٣- كتاب ذم الدنيا.
٢٤- كتاب الرياض.
٢٥- كتاب الزهر.
٢٦- كتاب الشعر (له).
٢٧- كتاب شعر حاتم الطائي.
٢٨- كتاب العبادة.
٢٩- كتاب الفرج.
٣٠- كتاب المتوج في العدل وحسن السيرة.
٣١- كتاب المحتضرين.
٣٢- كتاب المراثي.
٣٣- كتاب المرشد في أخبار المتكلمين.
٣٤- كتاب المزخرف في الإخوان والأصحاب.
٣٥- كتاب المستطرف في الحمقى والنوادر.
٣٦- كتاب المشرف في حكم النبي ﷺ.
٣٧- كتاب المعجم في أسماء الشعراء على حروف المعجم.
٣٨- كتاب المغازي.
٣٩- كتاب المفصل في البيان والفصاحة.
٤٠- كتاب المفيد.

حَـيٌّ طَيْفًا أتاكَ بَعْدَ المنامِ ... فتخطّى إليكَ هَوْلَ الظّلامِ
شَحَطَ الحَيُّ من سُعَادَ وَمِنَّا ... رُسُلٌ بيننا من الأحْلامِ
بَخِلَتْ بالسَّلامِ يَقْظَى وَجَادَتْ ... بِهَواها ونَفْسِهَا في المَنَامِ

ووجدت أيضًا، فيما استأنفت تصفُّحه وتأمُّله للبحتري:

إذا أرْسَلَتْ طَيفًا يُذَكِّرُني الجوَى ... رَدَدْتُ إليها بالنَّجَاحِ رَسُولَها

ومما يمكن أن يكون نظيرًا لذلك قول البحتري:

وَلَيْلَةَ هَوَّمْنا عَلَى العِيسِ أرْسَلَتْ ... بطَيفِ خَيالٍ يُشْبِهُ الحَقَّ باطِلُه

وهذا على ما نراه نظير لقولي: «جاءني رسولُها وما شعرته به».

وكما قلت في كثير من كتبي وآمالي: إنه لا ينبغي لمنصف أن يقول هذا البيت مسروق المعنى من فلان؛ لأنه قاطع على ما لا يأمن هذا أن يكون كذبا، فربما توارد فيه من غير قصد. والأولى أن يقال: هذا نظيره وشبيهه. وهكذا يجب أيضا ألا يطلق أحد في معنى من المعاني، أنه متفرد به، وسابق إليه، وإن كان لم يُسمع له نظير، ولا عثر له على شبه، لأنه لا يأمن أن يكون فيما لم يبلغه، ولا اتصل به، قد ورد ذلك المعنى، فإن الخواطر لا تضبط ولا تحصر. ومن ذا الذي يحيط علمًا بكل ما قيل وسطر وذكر؟ والإنصاف أن يقال في مثل هذا المعنى: ينفرد به فلان على ما بلغني، واتصل وانتهى إليه تصفحي وتأملي(١).

=

٤١ - كتاب المقتبس في أخبار النحويين البصريين.
٤٢ - كتاب النير في التوبة والعمل الصالح.
٤٣ - كتاب الموشح في ما أنكره العلماء على بعض الشعراء.
٤٤ - كتاب المونق في أخبار الشعراء المشهورين.
٤٥ - كتاب نسخ العهور إلى القضاة.
٤٦ - كتاب الواثق.
٤٧ - كتاب الهدايا.
٤٨ - كتاب الهدايا نسخة أخرى.

(١) هذا أسلوب تربوي راقٍ في نقل المعلومات وتلقيها من سامعها فعلى المعلم أن يكون مؤدبًا مهذبًا مع من سبقوه وحسن العرض لما يقدمه لتلاميذه، وعلى التلاميذ أن يفهموا من أستاذهم هذا الأدب ويعملوا به فتستقيم الحياة وتصلح المسيرة التعليمية.

ومن نظم معنى نَتَجَهَ خاطره، وسمح له به هاجسه، لم يكن يحتذي فيه مثال غيره، فهو في الحقيقة كالسابق إليه وإن كان قد وُجِد له نظير ما عرفه ولا بلغه، يسلب الفضيلة من اعتمد على معنى سبق إليه غيره، فنظمه وأدخله في كلامه؛ لأنه لم يحظ بفضيلة السبق التي يقتضيها نتيجة الفكر، وثمرة الخاطر. ومن أخرج إليه خاطره بعض المعاني من غير أن يكون سمعه ولا قرأه ولا احتذاه، فله فضل الاستخراج والاستنباط الدالين على قوة الطبع، وصحة الفكر، وما عليه بعد ذلك أن يكون قد تقدمه متقدم فيه، فوقع التوارد فيه من غير عمد، وما عليه بعد ذلك أن يكون قد تقدمه متقدم فيه، فوقع التوارد فيه من غير عمد، فإن تجويز لا يسلُب مدحا، ولا ينقص فضلا.

ولي أيضا وهو ابتداء قصيدة:

عَجِبْنَا مِنْ خَيالِكِ كيف زَارَا ... عَلَى عَجَلٍ وما أَمِنَ الحِذَارَا

أَتَى والشَّوْقُ جَاذِبُهُ إِلَيْنَا ... ومَنْ تَبِعَ الهَوَى رَكِبَ الخِطارا

تَلاَقٍ ضَاعَ ما أَغْنَى فَتِيلاً ... سِوَى أَنْ هَاجَ لِلْقَلْبِ ادِّكَارا

ولي من قطعة مفردة:

وزَائِرٍ زَارَني وَهْنَاه يُغالِطُني ... وَلَوْ لَبِسْتُ بَياضَ الصُّبح لمْ يَزُرِ

تمَّتْ لَهُ وسُتُورُ اللَّيْلِ مُسْبَلةٌ ... بَيْني وَبَيْنَ يَقِيني وَالْكَرَى سُكُوي

وَلَوْ أرادَ خِداعِي غيْرَ ذِي وسَنٍ ... لكَانَ مِنْ نَيْلِ ما يَبغي عَلَى غَرَرِ

البيت الثاني: عجيب المعنى؛ لأنَّ تخيل الطيف إنما يتم بالنوم، حَجَزَ بين اليقين وبين النائم، فاعتقد ما لا حقيقة له.

ولي أيضًا من قطعة:

أَتُرَى عنْ حُسْنِ رَأْ ... يٍ زارَنا طَيفُكِ وَهْنا

لَمْ يُفِدْنا وطَرِيفٍ خَا ... دِعٌ يُوجِبُ مَنّا

إنَّما الطَّيفُ كلفْظٍ ... فَارِغٍ ما فيهِ معْنًى

كَمْ رَأَيْنَا باطِلاً نفْسَ ... كَرَبًا مِنْ مُغَنَّى

ما وجدتُ إلى الآن تشبيه الطيف الذي لا مفتش له ولا حصول، باللفظ الخالي من معنى، العاطل من غرض، وإن كان قد قيل قديما وحديثا: إن الطيف باطل وزور ومُحال، ولا عائدة له، فما شبهوه هكذا باللفظ الفارغ، فهذا التشبيه هو الغريب.

ولي وهو ابتداء قصيدة:

مــا زُرْتَ إلاَّ خِداعًا أيُّها السَّاري ... ثُــمَّ انقَــضَيْتَ ومــا قَضَّيْتُ أوْطاري
أنَّــى يَزُورُ عَلَى الظَّلْمَاءِ منْ شَحَطٍ ... مَــنْ كــانَ صُــبْحًا وقُــربًا غَيْرَ زَوَّارِ
لا مُــتْعَةٌ لي بِمَــنْ نَادَمْتُ صُورَتَهُ ... لمُــا أتَــتْني بهــا في اللَّــيْلِ أفْكــارِي
وَلَــوْ أرَدْتَ بيَ الإسْعافَ زُرْتَ وما ... دَرِي الدُّجَــى لِلْكَرَىَ ما بَيْنَ أشْفارِي[1]
ولَــيْس يَــنْفَعُ مُنْ يُضْحِي بِمُجْدِبَةٍ ... أنْ بَــاتَ مَــا بَــيْنَ جَــنَّاتٍ وأنْهَــارِ

هذا من الابتداءات المشار إليها فصاحة وبلاغة. وقولي: ما زرت إلا خداعًا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المعنى ما زرت حقيقة، لكنك خادعت خداعا.

ويحتمل أيضا أن أريد: ما زرت إلا للخداع، كما تقول ما قصدتك إلا إكراما لك، أي للإكرام. وكيف لا يعجب من تارك الزيارة في الصبح مع قرب، إذا زار في الظلماء من بعد. ولهذا الكلام ماله في الاطراد والاستقامة، وحسن المقابلة. وإضافة الطيف إلى الفكر. قد تقدم الكلام على نظيرها مستوفى.

وإذا كــان مــن يُضحي بالأرض المجدبة المقفرة، لا ينفعه أن كان بائتًا بين الرياض الناضــرة، والجنان الزاهرة، فأولى أن لا ينفع من خُيِّل له الطيف الانتفاع والاستمتاع، ثم أصبح عاريا من ذلك كله، فارغا من جميعه.

ولي من قصيدة أولها:

ألاَ لَيْتَ عَيْشًا ماضِيًا عنكِ بالحِمَى ... وإنْ لَــمْ يَعُــدْ مــاضٍ عَلَيْكِ يَعُودُ
ويــا زَوْرَنــا لمُــا سَمَحْتَ بزَوْرَةٍ ... سَــمَحْت بهــا وَهْــنًا ونحْنُ هُجُودُ
عَلَــى غَفْلَــةٍ جَاءَ الكَرَى باعِثًا لَنَا ... بِــلا مَــوْعِدٍ وَالزَّائِــرُونَ هُمُــودُ
فَــيَا مَــرْحَبًا بالطَّارِقي بَعْدَ هَجْعَةٍ ... تُقَــرِّبُ بِــهِ الأحْــلاَمُ وَهْــوَ بَعِــيدُ
وَعلَّمَــني كَــيْفَ المُحَــالُ لِقَاؤُهُ ... وأني الــتقاة وَالْلقَــاء كَــنُودُ
ومــا نحْــنُ إلاَّ في إســارِ عَدَامَةٍ ... وعِــندَ كَــرَانَا أنَّ ذَاكَ وُجُــودُ

قــولي: تقربه الأحلام وهو بعيد: له شهادة من نفسه على فضله، غير مردودة ولا مجحــودة. وإنمــا أضفت إلى الكرى أن العدم الذي نحن فيه وجود؛ لأنه السبب في هذا

---

(١) المراد بالأشفار هنا هي الجفون وهو شفر جفن العين الذي عليه منبت الرمش.

الاعتقاد الفاسد، والظن الباطل.

ولي وهي قطعة مفردة:

أَلَمَّتْ بنا بعدَ الهدُوءِ وَرُبَّما ... ألمْ بِنا مَنْ لبْسَ نَرْجُو لمامَهْ

فَيا لَكَ مِن يومٍ شَحَطْتُ بَياضَهُ ... فلمْ يَغْدُنِي حتَّى رَضِيتُ ظلاَمَه

ومِنْ مُغْرَمٍ يقلِي لذيذَ انْتِباهِهِ ... وَيَهْوَى لما جَرَّ المنامُ مَنامَهْ

وَمِنْ مُسْعِفٍ جُنْحا بِطيبِ عناقِهِ ... وكَمْ حَرَمَ الْعُشَّاقَ صُبْحًا كلامَه

فإنْ لَمْ يَكُنْ حَقًّا فَقَدْ باتَ مُغْرَمٌ ... يُداوِي بتلكَ الباطِلاَتِ سَقامَهْ

فُحبٌّ بِهِ مِنْ باذِلٍ لي حلالَهُ ... وَفَادِ بذَاكَ الْبذْلِ مِنِّى حَرَامَه

ومِنْ مُلْتَقى عَذْبِ الْمَذاقِ وَتَحِيَّهُ ... فَلَمْ يَرْضَ لِي حَتَّى رَبِحتُ أثامَه

ولا عَيْبَ فيهِ غيرَ قُرْبِ زَوَالِه ... عَلَى أَنْ مُشْتاقًا أراد دَوَامَه

هذه الأبيات فوق ما شاء المقترح المُشِطُّ من حسن تصرف، وتقلب في أوصاف الطيف، وخروج من معنى إلى غيره، بكلام جزل سهل.

وقد تضمن البيت الذي أوله:

فُحَبٌّ به من باذلٍ لي حلالَهُ

والبيت الذي يليه، معنى في الطيف غريبا، ما ظفرت بنظير له إلى الآن في الشعر المدوّن؛ لأن بلوغ الغاية في المتعة بطيف الخيال، لا يكون إلا مباحًا، لا إثم فيه ولا عار، وقد يكون حراما وإثما وعارًا، ولو كان في اليقظة، وعلى الحقيقة. وقد تكرر هذا المعنى في شعري:

فمَا نَلْتَقي إلاَّ عَلَى حُلْمِ هاجِدٍ ... يُحِلُّ لَنا جَدْوَاك وَهي حَرَامُ

فالجواب: أن البحتري إنما عَنى أن النوم يبذل لنا جدواك، بعد أن كانت ممنوعة، فعبر عن البذل بالتحليل، وعن المنع بالتحريم، وذلك مليح منه، ولم يرد التحليل والتحريم الحقيقيين، وإنما أراد أنا لا نلتقي إلا في النوم الذي بل من الالتقاء ما كان ممنوعًا، فكأنه أحل حراما. فإن قيل يجوز أن يكون عني ما ذكرته، وعَني أيضا أن التمتع في النوم يكون حلالا، وإن كان في اليقظة حراما؛ قلنا: الجدوى هي العطية، والعطاء لا يحرم على الحقيقة في اليقظة ويحل في النوم، والمتعة بالطيف هي التي لها هذه الصفة. فإذا قيل ألا أراد بالجدوى ضروب التمتع والتلذذ؟ قلنا هذا عدول عن ظاهر الكلام بغير ضرورة، ولو أن

مقسما أقسم على أن البحتري ما خطر بباله ما صرحنا نحن به في الأبيات الميمية، وإنما عنى ما حكيناه، لكان صادقًا.

فأما قول الفرزدق:

إذَا مـا نَأَتْ عني حَبِيتُ وَإِنْ دَنَتْ فأَبْعَـدُ مِـنْ بَيْضِ الأَنُوقِ[1] كلامُها

وتمْـتَعُ عينـي وَهيَ يقْظَىَ حلالَها ويُـبْذَلُ لِـي عـند المـنامِ حَرامُهَا

فليس له بالمعنى الذي اختصصت به شَبَه، وإن كان قد أتى بلفظ التحريم والتحليل، وليس المعول على الألفاظ، وإنما المعول على المعاني.

وإنما أراد الفرزدق أنها تمنع عينه وهي يقظى، ما هو حرام من التمتع التام بها، وهذا

---

(١) قـال الدميري في حياة الحيوان في حرف الألف في الأنوق: على فعول: الرخمة، أو طائر أسود له شـيء كالعرف أو أصلع الرأس أصفر المنقار. قيل: إن في أخلاقها أربع خصال: تحضن بيضها، وتحمـي فـرخها، وتألـف ولدها، ولا تمكن من نفسها غير زوجها. وفي المثل: أعز من بيض الأنـوق، وأبعـد مـن بيض الأنوق. فلا يكاد يظفر به؛ لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة، وهي تحمق مع ذلك قال الشاعر:

وذات اسمـين والألـوان شـتى وتحمـق وهـي كيـسة الحـويل

وقال غيره:

وكـنت إذا استودعت سـرًا كتمته كبـيض أنـوق لا يـنال لهـا وكـر

وقال في حرف الراء في الرَخَمَة.

الرُخَمَة: طائر أبقع يشبه النسر في الخلقة وكنيتها أم جعران، وأم رسالة، وأم عجيبة وأم قيس، وأم كبير، ويقال لها: الأنوق.

... وذكـر عـند الشعبي الروافض فقال: لو كانوا من الدواب لكانوا حُمرًا، ولو كانوا من الطير لكانوا رخمًا.

ومـن طبع هذه الطائر: أنه لا يرضى من الجبال إلاّ بالموحش منها، ولا من الأماكن إلاّ بأسحقها وأبعدها عن أماكن أعدائه، ولا من الهضاب إلا بصخورها، ولذلك تضرب العرب المثل بالامتناع بيـضة، فيقولون: أعز من بيض الأنوق. والأنثى منه لا تمكن من نفسها غير ذكرها. وتبيض بيضة واحدة، وربما أتأمت. وهي من لئام الطير وهي ثلاثة: البوم، والغراب، والرخمة. (وحكمها): تحرم الأكل. وقال الزمخشري أنها تقول في صياحها: سبحان ربي الأعلى. (الأمـثال): قالوا: أحمق مـن رخمـة، وأمـوق. وإنما خصت بذلك من بين الطير؛ لأنها أم الطير واظهرها حمقًا وموقًا، وأقـذرها طعمًـا، لأنهـا تأكل القذرة وقالوا: انطقي يا رخمة فإنك من طير الله، أصله أن الطير صـاحت فـصاحت الرخمة، فقيل لها يهزأ بها: إنك من طير الله فانطقي. يضرب به المثل للرجل الذي لا يلتفت إليه ولا يسمع منه.

ضــد ما قصدته أنا من المعنى؛ لأن الفرزدق قرن التحليل باليقظة، والتحريم بالمنام، وأنا جعلت التحليل في النوم، والتحريم في اليقظة.

وكل منا قصد مقصدًا صحيحًا؛ لأني أردت أن التمتع الذي نلته في النوم حلالا، لو كـان في الـيقظة لكان حرامًا. والفرزدق أراد بها أنها تمنع في اليقظة من كلام وما أشبهه حـلالا، وتبذل له عند المنام ما هو حرام. وإنما يريد أنه حرام لو كان في اليقظة، فإن ما يكـون في الـنوم لا يكـون حراما. فإن بهذا الشرح خلاف المعنى الذي قصدته لمعنى الفرزدق.

ولي من قصيدة أولها:

مَرتْ بنَا بُمصَلَّى الخَيْفِ سَائحة[1]

كَـمْ مَـرَّةٍ زُرْتِنَا وَهنًا عَلَى عَجَلٍ سَـرَيْتِ فِـيهَا ومـا أَسْرَتْ مطاياك

حَتَّـى التَقَيْـنَا عَلَى رَغْمِ الرُّقَادِ وَمَا ذَاكَ الْلقـاء سِـوَى وَسْوَاسِ ذِكْرَاك

ولي من قصيدة أولها:

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٢/ ٤٢١): خَيف: بفتح أوله وسكون ثانيه وآخر فاء.

والخـيف: ما انحدر من غليظ الجبل، وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف من مِنى.

وقـال ابن جني: أصل الخيف الاختلاف، وذلك أنه ما انحدر من الجبل فليس شرفًا ولا حضيضًا فهو مخالف لهما، ومنه: الناس أخياف، أي مختلفون، وقال:

الـناس أخـياف وشـتى في الـشيم وكلـهم يجمعهـم بـيت الأدم

وقال القاضي عياض: خيف بني كناية هو المحصب، كذا فُسر في حديث عبد الرزاق، وهو بطحاء مكـة. وقـيل: مبتدأ الأبطح، وهو الحقيقة فيه لأن أصله ما انحدر من الجبل وارتفع عن المسيل. وقال الزهري: الخيف الوادي. وقال الحازمي: خيف بني كنانة بمنى نزله رسول الله ﷺ. والخيف: مـا كـان مجنـبًا عن طريق الماء يمينًا وشمالاً متسعًا. وخيف سلام بلد بقرب عُسفان على طريق المديـنة فـيه منبر وناس كثير من خزاعة، وما هما فتي، وباديتها قليلة من جشم وخزاعة. وخيف الحميراء: في أرض الحجاز...

وخـيف ذي القبر: أسفل من خيف سلام، وليس به منبر، وبه نخل كثير وموز، ورمان، وسكانه بنو مسروح، وسعد كنانة، وتجار الفاق، وماؤه من الفتي، وعيون تخرج من ضني الوادي.

وقـال أحمد بن أرضي سمي خيف ذي القبر وهو مشهور به، وسلاّم هذا كان من أغنياء هذا البلد من الأنصار، بتشديد اللام، قاله أبو الأشعث الكندي.

وقـال: أسـفل منه خيف النعم به منبر وأهله عامرة، وخزاعة ونجار بعد ذلك وناس، وبه نخل ومزارع، وهو إلى عُسفان، ومياهه خرّارة كثيرة.

هيَ الدَّارُ مَوْقُوفٌ عليْكَ هَوَاها

زَارَتْ وِسادِيَ في الظَّلامِ خَرِيدَةٌ أَرَاهـا الكَـرَى عَيْنِـي وَلَسْتُ أَرَاها

تمانـعُ صُـبْحًا أَنْ أَرَاهـا بناظِرِي وتَبْذُلُ جُنْحًا أَنْ أُقَبِّلَ فَاهـا

ولمّـا سَرَتْ لمْ تَخْشَ وَهْنًا ضَلالَةً ولا عَـرَفَ الْعُـذَّالُ كَـيْفَ سُرَاها

فَمـنْ ذَا الذِي مِنْ غَيْرِ وعْدٍ أتى بِهَا وَمَـنْ ذَا عَلَـى شَرْبِ المزَارِ هَداها

وقالُـوا عـساها بَعْدَ زَوْرَةِ بَاطِلٍ تَـزُورُ بـلا رَيْـبٍ فَقُلْـتُ عَساها

معنى البيت الأول: أن الكرى خَيَّل لي أن أراها بعيني، وإن كنت لا أراها على الحقيقة.

ولي من قصيدة أولها:

لا طَـرَقَ الطَّـيْفُ الَّذِي كانَ مِنْ أكبَـرِ هَمِّـيَ أنَّـهُ يَطْـرُقُ

خَـدَّثَ قَلْـبي وَهْـوَ طوْعُ الهوَى مُحَـدِّثٌ في الـنَّوْمِ لا يَـصْدُقُ

وكَـيفَ لَـولاَ أنَّـه باطِـلٌ يَـسْرِي ومـا سـارَتِ الأنْـيُقُ

زَارَ وَمـا زَارَ سِـوَى ذِكْـرِهِ وَبَيْنَـنا دَاوِيَّـةٌ سَـمْلَقُ

إنما قلت: لا طرق الطيف، لأنني بنيت هذه القصيدة على ذم اتباع الهوى؛ والانخراط في سلكه. ومن عَزَفَ عن الهوى والانخراط في سلكه، لا فائدة له في طروق الطيف. وإنما جعلتُ هذا المحدِّث لا يصدق في النوم خاصة؛ لأن النوم هو السبب في كذب الظنون النائم، وفساد أحاديثه لنفسه واعتقاداته.

وقد تقدم أن قولي «زار وما زار سوى ذكره»: أجود، وأشد تحقيقا من كل نظير له في هذا المعنى.

ولي في هذا المعنى من قصيدة أولها:

لِمَنْ ضَرَمٌ عَلَى اليَفَاعِ تعَلَّقا[1]

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٥/ ٤٣٩):

اليَفَاعُ: من قُرى ذمار باليمن ينسب إليها الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي، وهو شيخ العمراني صاحب كتاب البيان. وكان قدم مكة فحضر مجلس أبي نصر البندنيجي، وكانت عليه أطمار رثة فأقامه رجل من المجلس احتقارًا له، فقال: لا تقمني فإني أحفظ مائة ألف مسألة بعللها.

وَقَـدْ زَارَنِـي بَعْـدَ الهُـدُوِّ خَيَالُهُ فَجَـدَّدَ مِـن شَوْقِي وما كانَ أَخْلَقا!
فللـهِ مَـرْدُودٌ إليَّ طُـروقُهُ وما كُـنْتُ أَرْجُو مِنْهُ باللَّيْلِ مَطْرَقَا

ولي من قصيدة أولها:

قَدْ كَانَ عِنْدَكُنَّ السُّولُ

وَطَـرَقْنَنِي وَهْـنًا بِأَجْـوَازِ الـرُّبَا وَطُـرُوقُهُنَّ عَلَـى الـنَّوَى تَخْيِـيلُ
يَـا لَـيْتَ زَائِـرَنَا بِفَاحِمَةِ الدُّجَى لَمْ يَـأْتِ إلاَّ وَالـصَّبَاحُ رَسُـولُ
فَقَلِـيلُهُ وَضَـحَ الـضُّحَى مُسْتَكْثَرٌ وكَـثِيرُهُ غَـبَشَ الظَّـلامِ قَلِـيلُ
مَـا عابَـهُ، وَبِـهِ السُّرُورُ، زَوَالُهُ فَجَمِـيعُ مَـا سَـرَّ القلـوبَ يَزُولُ

هذه الأبيات لا فقر بها إلى تفسير وتنبيه، كما لا حاجة بها إلى مدح واطراء.

ولي من قصيدة أولها:

ما قَرَّبُوا إلاَّ لِبَيْنٍ نُوقَا

طَـرَقَ الخَيالُ ولم يكُنْ قَبْلَ النَّوَى هَـذا الخَـيَالُ لَـنا هُـنَاكَ طَـرُوقا
لَمْ أَدْرِ مَـا هُـوَ غَيْـرَ أَنَّ طُرُوقَهُ أَغـرَى بِـشَائِقَةِ القُلُـوبِ مَـشُوقا

ولي من قصيدة أولها:

وَزَوْرٍ زَارَنَـا واللَّـيْلُ دَاجٍ وَقَـدْ مَـلأَ الْكَـرَى مِـنَّا الْعُـيُونَا
يُـرِينِي أَنَّـهُ ثَـانٍ وِسَـادِي مُـضَاجَعَةً وَزُورٌ مَـا يُـرِينا
نَعِمْـتُ بِـبَاطِلٍ وَيَـوَدُّ قَلْـبي وَدَادًا لَـوْ يكُـونُ لَـنا يَقِيـنا

ولي من قصيدة أولها:

إِنَّ عَلَى رَمْلِ الْعَقِيقِ[1] خِيَمَا

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٤/ ١٣٨):
العَقِيْقُ: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وقافين بينهما ياء مثناة من تحت.
قـال أبو منصور: والعرب تقول لكل مسيل ماء شقه السيل في الأرض فأنهره ووسعه عقيق، وفي بلاد العرب: أربعة أعقه وهي أودية عادية شقتها السيول.
وقال الأصمعي: الأعقة الأودية فمنها: عقيق عارض اليمامة: وهو واد واسع مما يلي العَرَمة يتدفق فيه شعاب العارض وفيه عيون عذبة الماء.
=

نَـــبَا فَمــــا نَأمـــلُ في لِقائِـــنَا / ذَاتَ الثَّــــنايا الغُـــرِّ إلاَّ الحُلُمـــا
أهْـــوَى وَإنْ كــــانَ لَـــنا تَعِلّـــةً / طَـــيفًا يُوَافِـــي مِـــنْكُمُ مُـــسَلِّمَا
يَــبْذُلُ لِـــي مِـــن بَعْدِ ما ضَنَّ بِهِ / وَشَـــافِعِي الـــنَّوْمُ: العِـــذَارَ وَالفَمـــا
وجـــادَ حِـــلاً وَالدُّجَـــى شِـــعَارُنا / بِـــنَائِلٍ لَـــوْ كَـــانَ صُـــبْحًا حَـــرُمَا
حُـــبٌّ بِهــــا إلمامَـــةً مَأمـــونَةٌ / وَزَوْرَةٌ يُـــــزِيحُ فِـــــيها الـــتُّهمَا
وَجَـــدْتُ فِـــيها كـــلُّ مـــا أَحَبَبْتُهُ / لَكِـــنْ وِجْـــدَانًا يُـــضاهِي العَـــدَمَا
مـــا عَلِمَـــتْ نَفْـــسِي بِماذَا حُبِيَتْ / ولا الـــذِي جـــادَ عَلَـــيْهاَ عَلِمـــا

معنى البيت الأول: أن التباعد بيننا قويت أسبابه، وارتجت أبوابه إما لبعد المسافات، أو قـــوة الوشـــايات، حـــتى ما نطمع في تلاقٍ إلا في النوم، وهذه غاية اليأس من اللقاء والاجتماع.

ولقـــولي: «وشافعي النوم» من البلاغة، ما لا أخشى جحده ورده، ولما كان الشافع يقـــرِّب بعيد الحاجة، ويُظفِر بنجاحها، وكان النوم كذلك في طيف الخيال، ولا سبب له سواه، سمي النوم شافعًا في الزيارة وبلوغ المراد منها.

وقولي «وجاد حلا والدجى شعارنا»: نظير قولي:

فَحُـــبٌّ بِـــه مَـــن باذل لي حَلالَه / وفــادِ بِـــذاك الـــبذلِ مـــنه حرامَهُ

- قـــال السكوني: عقيق اليمامة لبني عقيل فيه قرى ونخل كثير، ويقال له عقيق تمرة، وهو عن يمين الفُـــرُط مـــنقطع عارض اليمامة في رمل الجزء، وهو منبر من منابر اليمامة عن يمين من يخرج من اليمامة يريد اليمن عليه أمير... ومنها عقيق بناحية المدينة وفيه عيون ونخل.
قال غيره: هما عقيقان: الأكبر: وهو مما يلي الحَرة ما بين أرض عروة بن الزبير إلى قصر المراجل، ومما يلي الحمى ما بين قصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن عثمان إلى قصر الـــمراجل، ثم اذهب بالعقيق صُعُدًا إلى منتهى البقيع. والعقيق الأصغر: ما سفل عن قصر المراجل إلى منتهى العَرْصة...
وقـــال القاضي عياض: العقيق واد عليه أموال أهل المدينة، وهو على ثلاثة أميال أو ميلين، وقيل: ســـتة، وقيل: سبعة، وهي أعقة: أحدها: عقيق المدينة عق عن رومة، والعقيق الأكبر بعد هذا وفيه بئر عروة، وعقيق آخر أكبر من هذين العقيقين وفيه بئر على مقربة منه، وهو من بلاد مزينة، وهو الـــذي أقطعـــه رســـول الله ﷺ بلالاً بن الحارث المزني، ثم أقطعه عمر الناس. ثم ذكر أعقه كثيرة راجعها في المعجم.

وقد تقدم بيانه، وأنه غريب لا أعرف سابقا إليه. ومعنى قولي:

حبٌ بها إلمامةً مأمونةً

يحتمل أن الإثم والعار فيها مأمونان، ويحتمل أنها غير متهمة ولا مستراب بها. وأكدت ذلك بقولي:

وزَوْرةٍ يُزيح فيها التُّهَما

ومعنى البيت الأخير: أن العلم مفقود في طيف الخيال، ممن طرقه الخيال، ومن ذلك الخيال مثال له، ومتصور به.

ولي وهو ابتداء قصيدة:

بَلَغْنَا لَيْلَةَ الشُّغْبِ[1] عِجَالاً مُنْيَةَ الْقَلْبِ
تَلاَقَيْنَا كَمَا شِينَا بِلاَ عِلْمٍ مِنَ الرَّكْبِ
وَطَيْفٍ طَافَ مِنْ ظَمْيَاءَ وَالإِصْبَاحُ فِي الْحُجْبِ
جَفَتْ عَيْنِي وَجَاءَتْ فِي دُجَى اللَّيْلِ إِلى قَلْبِي
وَزَالَتْ غِبَّ مَا زَارَتْ وَمَا قُلْتُ لَهَا حَسْبِي
وَوَلَّتْ لَمْ تُنِلْ شَيْئًا مِنَ الغُنْمِ سِوَى جُنْبِي

نظيرُ قولي: «جفت عيني... البيت»: قولي: «موه قلبي على ناظري».

وقولي:

وَمَا ضَرَّ مَنْ يَأْبَى زِيَارَةَ مُقْلَتِي مُجَاهَرَةً لَوْ زَارَ مُسْتَخفِيًا قَلْبِي

وقد تقدم ذلك.

ولي وهي قطعة مفردة:

وَزَوْرٍ زَارَنِي وَاللَّيْلُ دَاجٍ فَعَلَّلَنِي بِبَاطِلِهِ وَوَلَّى
سَقَانِي رِيقَهُ مَنْ كُنْتُ دَهْرِي مَذُودًا عَنْ مَرَاشِفِهِ مُحَلاَّ
وَأَوْلَى فَوْقَ مَا أَهْوَاهُ مِنْهُ وَمَا يَدْرِي بِمَا أَعْطَى وَأَوْلَى
وَأَرْخَصَ قُرْبَهُ بِالْمَيْلِ مَنْ لَوْ سَأَلْنَا قُرْبَهُ فِي الصُّبْحِ أَغْلَى

(١) الشُّغْب: سبق تعريفه وهو موضع بالبادية بين المدينة والشام.

نعمْنَا بالحبيب دُجًى فلَمَّا ... تَوَلَّى وَاضْمَحَلَّ لَنا اضْمَحَلاَّ
فإنْ يَكُ بَاطِلاً فَقَسِيم حُبٍّ ... أفَاقَ بِهِ قَلِيلاً أوْ أبَلاَّ
تَلاقٍ لا يخَافُ وَلا نُبالي ... بمَا أوْحَى بِهِ وَعَلَيْهِ دَلاَّ
وَلَوْ أنَّ الصَّبَاح يُطِيعُ أمْرِي ... لَمَا كَشَفَ الظَّلاَمَ ولا تجَلَّى

إنما قلت إنه تلاق لا يخاف لمن دل عليه ووشى به؛ لأنه لا قدرة لأحد.... (١)

[ولي من أبيات... (٢)] نأينا فمن دون اللقاء تنائفُ

حَلَّتْ بِنا واللَّيْلُ مُرْخٍ سُدُولَهُ ... فَألاَ وَضَوْءُ الصُّبْحِ في العَيْنِ مُشْرِقُ
ودذت مطالاً عَنْ لِقَاء مُصَحَّحٍ ... واوْسَعَنا مِنْكِ اللِّقَاء المُلَزَّقُ
فأَحْبِبْ بِهِ مِنْ طَارِقٍ بَعْدَ هَدْأَة ... عَلَى نَشْوَةِ الأحْلاَمِ لوْ كانَ يَصْدُق
ولمَّا تَفَرَّقْنَا ولمْ يَكُ بَيْنَنا ... هُنَالِكَ لَوْلاَ النَّوْمُ إلاَّ التَّفَرُّقُ
تَطَايَرَ وَصْلٌ غَرَّنا فكأنَّهُ ... رِدَاء سَحِيقٌ أوْ مُلاَءٌ مُشَبْرَقُ(٣)

إنْ حكم حاكم: ما في وصف من أوصاف الطيف يفضل ويقدم؟

فما يتعدى هذه الأبيات، والتي تقدمتها بلا فضل. ومعنى «لو كان يصدق»:

التمني لصدقه، والتلهُّف عليه؛ وليس بشرط، لأنني أحبه على كل حال، صَدَق أو كَذَب، وإنما تمنَّيت صدقه، وجرى مجرى قول البحتري:

فتبسَّمتْ عن واضحا ... تٍ لو لُثِمْنَ عِذابِ

---

(١) موضع النقط عبارة ساقطة.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق على ما هي عادة المؤلف منذ بداية الكتاب.

(٣) قال ابن منظور في لسان العرب مادة «شبرق»: ثوب مُشَبْرَقٌ، وشَبْرَقٌ، وشِبْراقٌ، وشُبَاقة وشَبَاقٍ، وشَبارِيقُ: مقطع، ممزق. وقد شَبْرَقَهُ شَبْرَقَةً وشِبْرَاقًا، وشَبْرِيقَةً شَرْبَقَةً: مزقه. قال امرؤ القيس:

فأدركته يأخذ بالساق والنسا ... كما شبرق الولدان ثوب المُقْدِسِي

والمُقَدِّس الراهب ينزل من صومعته إلى بيت المقدس فيمزق الصبيان ثيابه تبركًا به.

وقال الليث: ثوب مشبرق: أفسد نسجًا، وشحافة، وصار الثوب شبارق: أي قطعًا.

... والمشبرق من الثياب: الرقيق الرديء النسيج... وشبرقت اللحم وشبرقته: أي قطعته. وشبرق البازي اللحم: نهسه.

ومـــا شرط، بل تمنى وتلهف. وقد شرحت هذا المنهج في بعض كلامي، وأوضحته واستوفيته، ورددت على من اشتبه عليه.

وقولي:

... ولم يـــــك بينـــــــنا هـــنالك لـــولا الـــنوم إلا التفـــرقُ

معناه: ما كنا على الحقيقة إلا مفترقين غير مجتمعين. وإنما خُيِّل النوم الاجتماع غُرورًا زورًا، فما حصلنا بعده إلا على ما كنا في الحقيقة عليه. وهذا لطيف مليح.

ولي وهي قطعة مفردة:

فَدَيْـــتُهُ مِـــنْ زَائـــرٍ زَارَنِـــي وَاللَّـــيْلُ مُـــسْوَدُّ الجَلاَبِـــيبِ
زَارَ وَفـــيهِ كُـــلُّ مَـــا نَبْتَغِـــي في الـــنَّاسِ مِـــنْ حُـــسْنٍ وَمِنْ طِيبِ
ولَمْ يَـــــضرْها أَنَّهـــــا زَوْرَةٌ لِعَـــــازِبِ الآرَاءِ مَكْـــــذُوبِ
باطِلَـــــةٌ رَوَّتْ لَـــــنا غُلَّـــــةً والحَـــقُّ لَـــمْ يَـــأْتِ بِمطْلُـــوبِ
لَـــوْلاَ الْكَـــرَى مَا جَادَ لِي بالمُنَى مُعَـــشَّقٌ يَعْـــشَقُ تَعْـــذِيبِي
وكَـــيْفَ لاَ أَهْـــوَى لَذِيـــذَ الكَرَى مُحَبَّـــبًا جَـــاءَ بِمَحْـــبُوبِ

ولي وهي قطعة مفردة:

فَلَـــوْ شِـــئْتِ لَمَّا أَزْمَعَ الحَيُّ رَوْحَةً أَشَـــرْتِ إِلَيْـــنَا بالبَـــنانِ المقمـــعِ
فمـــا بـــانَ مَاضٍ بانَ وَهْوَ مُوَدَّعٌ وَقَـــدْ بَـــانَ كُـــلُّ البَـــيْنِ غَيْرَ مُوَدَّعِ
وَصَـــدُّكِ قَـــوْمٌ عَـــنْ زِيارَةِ مُقْلَتِي فلَـــمْ لَمْ تَزُورِي الْقَلْبَ سَاعةَ مَضْجَعِي
وَحَاذَرْتِ وَصْلاً يَعرِفُ النَّاسُ حَالَهُ فَمَـــا ضَـــرَّ مِنْ وَصْلٍ ولا أَحَدٌ مَعِي

قد تقدم نظائر قولي:

وَصدُّكِ قوم عن زيارة مَضْجَعِي

مـــن شـــعري، فـــإنني كررته، وقد بينت سبقي إليه، والوصل الذي يعرفه الناس، ويشعرون به إن كان محذورا، فوصل الطيف غير محذور. ومعنى «ولا أحد معي»: أي لا يشعر بي، ولا يعرف حالي.

ولي وهي قطعة مفردة:

مَـــنْ زَائـــرٌ مَـــا أَجْتَبِـــيهِ! بِـــسِنَةٍ مَـــــــا زَارَ إلاَّ في سِـــــــنَهْ

عَمنْ لَنا في غَلَسٍ ... فَلاَ عَدِمْنا عَنَنَهْ

ذُو دَدَنٍ وَإِنَّما ... نَعْشَقُ مِنْهُ دَدَنَهْ

يَهْجُرِني مُجَاوِرًا ... يُسْمِعُ قَوْلِي أُذُنَهْ

حتَّى إِذَا حَلَّ النَّوى ... حَدَا إِلَيَّ ظُعُنَهْ

لَمْ يَأتِ إِلاَّ في دُجَى ... وصُبْحَه مَا أَمِنَهْ

وَزَارَني في وَطَني ... فُخَلِّيًا لِي وَطَنَهْ

ثمّ أطَابَ وسِني ... لمَّا أطَارَ وَسَنَهْ

أَخْدَلَني هِجْرَانَهُ ... بِزَوْرَةٍ مُؤْتَمَنَهْ

باطِلَةٍ لكِنَّها ... مِنَ المسيء حَسَنَه

مَا أَحْسَنَ النَّصْرَ عَلَى ... مُقَاطِعٍ مَا اخْمَتَهْ

فَلَيْتَها زِيَارَةٌ ... تَكُونُ مِنْهُ دَيْدَنَهْ

مَا بَعَثَ الواشِي إِلَى ... مَنْ نَحْنُ فيهِ ظِنَنَهْ

ولا رَمَى ذُو فَطِنٍ ... إِلَيْهِ يَوْمًا فِطَنَهْ

فَبِتُّ لَيْلِي كُلَّهُ ... أَضُمُّ مِنْهُ غُصُنَه

وأَلْثِمُ الصُّدْغَ الَّذِي ... عَقْرَبُهُ وَزَرْفَنَهْ(١)

لَولاَ الدُّجَى يَشْفَعُ لِي ... لمَا لَقِيتُ مِنَنَهْ

جَادَ بِهِ مُسْتَرْخِصًا ... ومَا نَقَدْتُ ثَمَنَهْ

في سَاعَةٍ كأنَّها ... لَذَاذَةً أَلْفُ سَنَهْ

وَاصَلَ فِيها سَكَنٌ ... بَعْدَ فِراقٍ سَكَنَهْ

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب في مادة: زَرْفَنَ الزُّفين: جماعة من الناس، والزُّرفين والزَّرْفِين: حلقة الباب لغتان.

قال أبو منصور: والصواب: زِرفِينٌ بالكسر، على بناء فِعْلِيلٍ وليس في كلامهم: فُعْليلٌ.

وقال الجوهري: الزُّرْفِينُ والزِّرفين: فارسي معرب. وقد زَرْفَنَ صُدْغَيْه: كلمة مولدة، وفي الحديث: كانت درع رسول الله ﷺ ذات زرافين إذا عُلقت بزارفينها سترت، وإذا أرسلت مست الأرض.

السِّنَة: ابتداء النوم. ويحتمل قولي: «ما زار إلا في سِنَه» وجهين: أحدهما: أنه ما زار لجبنه وشدة خوفه، إلا زيارة هي تخييل، وغير تحقيق. والوجه الآخر: أنه يريد أنه ما زار إلا في الليل بما لا يكون في الأغلب إلا فيه، والليل يستتر بظلمته الجبان الخائف. فأما الدَّدَن: فهو اللعب، والمحبوب يُهْوَى جِدُّه ولعبه وجميع أحواله.

والبيت الذي أوله: «لم يأت إلا في دجى»: نظير البيت الأول، ومفسر له.

وقولي: «بزورة مؤتمنه»: قد مضى تفسير نظيره. والديدن: العادة.

وقد تقدمت نظائر قولي: «ما بعث الواشي»، والبيت الذي يليه. ومن عبَّر عن معنى متداول، بأحسن عبارة وأبلغها، فكأنه مبتديه ومنشيه، وما يضره أن سبق إليه، إذا كان منفردًا بإحسان العبارة عنه. فحظ العبارة في الشعر، أقوى من حظ المعنى.

ولي وهي قطعة مفردة:

إنْ كانَ طَيفُكِ زارَنا ... فَقَدْ تجنّبْنا طَوِيلاَ

عللْتُمُ بِطُرُوقِكُمْ ... وَمَحالِكُمْ قَلْبًا عَلِيلاَ

ما كانَ يَرْضَى بالكَثِيـ ... ـرِ وَبَعْدَكم رَضِيَ القَلِيلاَ

فهُوَ الغَدَاةَ كَفاقِدِ الـ ... أحْبابَهُ نَدَبَ الطُّلُولاَ

أوْجَدْتُمُوهُ إلَى الأمَا ... نِي في لِقائِكُمُ السَّبِيلاَ

معنى «رضي القليل»: أنه قنع بالطيف الذي لا حقيقة له، وتشبيه الطيف بطلول الديار، ورسوم الأحباب، في غاية الحسن والإضافة قد يحتمل البيت الأخير وجهين. أحدهما: أن زيارة الطيف إنما هي أماني وأحاديث النفس، فأوجدتموه سبيلا إلى هذه الأماني. والوجه الآخر: أنكم أوجدتموه بالطيف، السبيل إلى تمني لقائكم الحقيقي، وأذكرتموه ذلك، وشوقتموه إليه. ومن مليح ما نظم في قناعة المحب بالطيف، على قلته ونزارته، قول الحسين بن الضحاك الخليع[1]:

---

(١) هو: الحسين بن الضحاك بن ياسر، أبو علي، البصري، الشاعر، المعروف بالخليع الباهلي مولاهم. ومن مصادر ترجمته: طبقات الشعراء لابن المعتز (٢٦٨)، الأغاني (٧/ ١٤٦)، تاريخ بغداد (٨/ ٥٤)، معجم الأدباء (١٠/ ٥)، وفيات الأعيان (٢/ ١٦٢)، النجوم الزاهرة (٢/ ٢٣٣)، شذرات الذهب (٢/ ١٢٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ١٩١).

قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: مولى باهلة، خراساني الأصل، أقام ببغداد ينادم الخلفاء دهرًا طويلاً، وله مع أبي نواس أخبار معروفة. حدثني علي بن أبي علي عن أبي عبيد الله المرزباني

ومـــا في تعـــرُّض طَـــيفِ الخـــيا ... لِ وَالْهجْـــرُ حَظُّـــكَ مِمـــنْ تُحِبُ؟
غَـــنَاءٌ قَلِـــيلٌ وَلكِـــنَّني ... تَمَنَّيْـــتُهُ بِقُـــبُوعِ الُمحِـــبْ

ولي أيضا وهي قطعة مفردة:

أَلَـــمَّ خَـــيَالٌ مِـــنْ أُمَـــيْمَةَ طَـــارِقٌ ... ومِـــنْ دُونِ مسراهُ اللِّوَى وَالأبارِقُ(١)
أَلَـــمَّ بِـــنا لمْ نَـــدْرِ كَـــيْفَ لَمِامَـــهُ ... وقـــد طَـــالَ مَـــا عاقَتْهُ عَنَّا الْعَوَائِقُ
فلِلَّـــهِ مَـــا أَوْلَـــى الكَـــرَى في دُجُنَّةٍ ... جَفَـــتْها الـــدَّرَارِي طُلَّعًـــا والبَوَارِقُ
نَعِمْـــنا بِـــهِ حَتَّـــى كَـــأَنَّ لِقَاءَنَـــا ... ومـــا هُـــوَ إلاَّ غَايَـــةُ الـــزُّورِ صَادِقُ
فَـــيا زائِـــري في اللَّـــيْلِ أَلاَّ وصُبْحُنا ... تُـــسَلُّ عَلَيْـــنا مِـــنْهُ بِـــيَضٌ دَوَالِـــقُ
وكَـــيفَ ارْتَضَيْتَ اللَّيْلَ واللَّيْلُ مُلْبِسٌ ... تَـــضِلُّ بِـــهِ عَـــنَّا وعَـــنْكَ الحَقائِقُ
يُخَـــيِّلُ لي قُـــرْبًا وأَنْـــتَ بِـــنَجْوَةٍ ... وَتُـــوُهِمُني وَصْـــلاً وأَنْـــتَ مفارِقُ

فضل هذه الأبيات واستواء نسجها، مما يشهد بها الصاحب، والعدوّ الماقت.

=

قـــال: أبو علي الحسين بن الضحاك بن ياسر الخليع الباهلي البصري مولى لولد سليمان بن ربيعة الباهلي، وهو شاعر ماجن مطبوع حسن الافتنان في ضروب الشعر وأنواعه وبلغ سنًا عاليةً يقال: إنه ولد في سنة اثنين وستين ومائة، ومات في سنة خمسين ومائتين. واتصل له في مجالسه الخلفاء ما لم يتـــصل لأحـــد إلا لإسحاق بن إبراهيم الموصلي فإنه قاربه في ذلك أو ساواه كصحب الحسين الأمين في سنة (١٨٨) ولم يزل مع الخلفاء بعده إلى أيام المستعين.

(١) ذكـــر ياقـــوت اللـــوي والأبـــارق في معجـــم الـــبلدان في الـــلام، والألـــف فقال في اللِّوَى (٥/ ٢٣): اللِّوَى: بالكسر، وفتح الواو، والقصر، وهو في الأصل منقطع الرملة، يقال: قد ألويتم فانـــزلوا إذا بلغوا منقطع الرمل. وهو أيضًا موضع بعينه قد أكثرت الشعراء من ذكره وخلطت بين ذلك اللوى والرمل فعَزّ الفصل بينهما: وهو واد من أودية بني سليم.
ويوم اللّوى: وقعة كانت فيه لبني ثعلبة على بني يربوع. ومما يدل على أنه واد قول بعض العرب:

لقـــد هـــاج لي شـــوقًا بكـــاء حمامة ... بـــبطن اللـــوى ورقـــاء تـــصدع بالفجر

... وقال نصيب:

وقـــد كانـــت الأيـــام إذ نحن باللِّوى ... تحـــسن لي لـــسودام ذاك التحـــسن

وقال في الأبارق (١/ ٥٩):
الأَبَـــارِقُ: جمع أَبْرَق، والأبرق والبرقاء والبُرقة يتقارب معناها، وهي حجارة ورمل مختلطة وقيل: كل شيئين من لونين خُلطا فقد بَرقا.

ومعنى البيت الرابع، أن التخيل قوي واشتد، حتى لم يك بينه وبين الحق الصحيح فرق، فلذلك تضاعفت المتعة، وتكاثفت النعمة واللذة.

ولي أيضا في ذم الطيف:

... ...[1]

وقد قال الكميت:[2]

فلمّا انتَبَهْتُ وَجَدْتُ الخَيا ... لَ أمانيُّ نَفْسِي وأفكارَها

قال الآمدي: أي وجدت الخيال أنا الجالب له بأماني نفسي. وهذا ذلك المعنى بعينه.

قال: وقد أورد أبو تمام على حدود ما قاله جران العود[3] سواء، فقال:

---

(١) موضع النقط سقط سهوًا من المخطوط حيث قال ذلك ولم تذكر الأبيات المشار إليها.

(٢) الكميت هو: ابن زيد أبو المستهل الأسدي، الكوفي الشاعر.

ومن مصادر ترجمته: الشعر والشعراء (٣٦٨)، الأغاني (١٧/ ١)، الموشح (١٩١)، جمهرة أنساب العرب (١٧٨)، سمط اللآلئ (١١)، تاريخ الإسلام (٥/ ١٢٥)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٨٨) وقال: مقدم شعراء وقته. قيل: بلغ شعره خمسة آلاف بيت.

روي عن الفرزدق، وأبي جعفر الباقي وعن والبة بن الحباب. وأبان بن تغلب، وحفص القارئ وفد على يزيد بن عبد الملك، وعلى أخيه هشام قال أبو عبيدة: لو لم يكن لبني أسد منقبة غير الكميت لكفاهم حُبُّهم إلى الناس، وأبقى لهم ذكرًا وقال أبو عكرمة الضبي: لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان.

وقيل: كان عم الكميت رئيس أسد، وكان الكميت شيعيًا مدح علي بن الحسين، فأعطاه من عنده، ومن بني هاشم أربعمائة ألف، وقال: خذ هذه يا أبا المستهل، فقال: لو وصلتني بدانق لكان شرفًا، ولكن أحسن إلي بثوب يلي جسدك أتبرك به، فنزع ثيابه كلها، فدفعها إليه، ودعا له، فكان الكميت يقول: ما زلت أعرف بركة دعائه.

قال المبّرد: وقف الكميت وهو صبي على الفرزدق وهو ينشد، فقال: يا غلام: أيسرك أني أبوك؟ قال: أما أبي فلا أبغي به بديلاً، ولكن يسرني أن تكون أمي، فحصر الفرزدق، وقال: ما مَرَّ بي مثلها. قال ابن عساكر: ولد سنة ستين ومات سنة ست وعشرين ومائة، وهو القائل:

والحبُّ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ ... سائلْ بذلك من تطعم أو يذق

ما ذاق بؤس معيشة ونعيمها ... فيما مضى أحدٌ إذا لم يعشق

(٣) جران العود قيل: اسمع المستورد وهو من نمير. وقيل: بل هذا خطأ وإنما هو: عامر بن الحارث ابن كُلْفَة، أي بالضم، وقيل: بالفتح. والقول الأول ذكره ابن منظور في لسان العرب والقول الثاني جاء بهامش لسان العرب من قول الصاغاني.

وقال ابن حبيب في كنى الشعراء (ت ٣٠٦) الملحق بكتاب أسماء المغتالين بتحقيقي: في ذكره =

اســــتزَارَتْهُ فِكْــــرَتي في المَــــنامِ ... فأتانِــــي في خُفْــــيَةٍ وَاكْتِــــتامِ

فذكر أن فكرته أتته بالطيف زائرا، كما قال جران العود: «أتاك به حديث نفسك».

=

لبني نمير بن عامر: ومنهم: جران العود: غلب لقبه على اسمه: لقوله:

عمــدت لعــود فالتحــيت جــرانه ... وللكــيس أمــضى في الأمــور وانجــح

خــذا حــذرًا يــا أحــبتي فــإنني ... رأيــت جــران العــود قــد كاد يصلح

وقــال ابن منظور في اللسان: أراد بجران العود: سوطًا قدّه من جران عود نحره، وهو أصلب ما يكون.

قال الأزهري: ورأيت العرب تسوي سياطها من جران الجمال البزل لصلابتها، وإنما حذر امرأتيه ســوطه لنشوزهما عليه، وكان قد اتخذ من جلد البعير سوطًا ليضرب به نساءه (والجران: صفحة العتق). وعلقت على ترجمته في كنى الشعراء بالهامش بقولي:

قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص ٦٩): جران العود العبدي سمي بذلك لقوله:

خُــذَا حــذرًا يــا جــارتيَّ فــإنني ... رأيــت جــران العــود قــد كان يصلح

فخــوفهما، بأن سوطه قد من صدر جمل مسن. وكان جران العود، والرجال خدنين، فتزوج كل واحد منهما بامرأتين فلقيا منهما مكروهًا فقال جران العود:

ألا لا تغــــرن امـــــرأ نوفلـــــية ... علــى الــرأس بعــدي أو ترائب وضح

ولا فــاحم يــسقي الــدهان كأنــه ... أســاور يــزهاها لعيــنك ابطــح

وإذا نــاب خــيل علقــت في عقيصه ... تــرى قــرطها مــن تحــتها يــتطوح

وفيها يقول:

جــرت يــوم جئــنا بالــركاب نزفها ... عقــاب وشــحاج مــن الطــير متــيح

فأمــا العقــاب فهــي مــنا عقــوبة ... وأمــا الغــراب فالغــريب المطــوح

هــو الغــول والــسعلاة حلقي منهما ... مكــدح مــا بــين التراقــي مجــرح

خــذا نــصف مــالي واتركا لي نصفه ... وبيــنا بــذم فالتعــزب أروح

ويتمثل من شعره بقوله:

ولا تأمــنوا مكــر النــساء وامسكوا ... عــري المــال عــن أبــنائهن الأصاغر

فإنــك لم يــنذرك أمــرا تخافــه ... إذا كــنت مــنه خائفــا مــثل خابــر

قال: ووصل أبو تمام بيته بأن قال:

اللَّيَالِي أحفَى بِقَلْبي إذَا مَا ... جَرَحَتْهُ النَّوَى مِنَ الأيَّام
يا لَهَا من لَذةٍ تَنَزهَتِ الأرْ ... واحُ فِيها سرًّا مِنَ الأجسام
مجلِسٌ لم يكُنْ لَنا فيهِ عَيْبٌ ... غيرَ أنَّا في دَعْوَةِ الأحْلاَمِ

ثم قال الآمدي: وليس لهذه الأبيات حلاوة، ولا عليها طلاوة.

قال سيدنا أدام الله علوّه: وأقول: إن لبيتيّ أبي تمام إحسانا لا يجحد، وفضلا لا ينكر، ومن مدحها فلم يضع المدح إلا في موضعه.

وقول الآمدي: إنه أخذ معناه من قول جران العود... ...[1]

الجساد والجسد: الزعفران. والثوب المجسد: المصبوغ بالزعفران والبيت الثالث لطيف المعنى؛ لأن العجب كله في اهتداء زائر ليلا وهو لا يهتدي نهارا. والبيت الرابع فيه ما تراه من رشاقة وملاحة.

ومعنى البيت الخامس: أن العدم الذي كان في يدي قبل النوم: هو الذي معي بعده، فلا يدلك على وأنا كما كنت.

والبيت الأخير قد تقدمت له نظائر في شعري، وزيارة القلب: هي التخييل والتمثيل، وزيارة العين: هي الحقيقة الصادقة.

ولي من قطعة مفردة:

أَيا زَائِرًا بِاللَّيْلِ مِن غَيْرِ أنْ يَسْرِي ... وهَلْ زَائر باللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ ان يَسْرِي؟!
ويَا مشْبِهاً بالفخرِ ضَوء جَبِينِه ... أبِنْ لي قليلاً كيف رُوِّعْتَ بالْفَخرِ
تجُودُ علينَا والمعَاذِيرُ جَمَّةٌ ... وتَبْخَلُ بالجَدوَى وأنت بائن عُذْرِ
ولَمَّا تَعَاتَبْنا عَلَى الهَجْرِ صُغْتَ لِي ... دُنُوَّكَ مِنْ بُعْدٍ وَوَصْلَك مِنْ هَجْر
وأولَيت بِرًّا لمْ يمكن عند واصل ... إلَيهِ وَإنْ أغَنى نَصِيبٌ مَنَ الشكر

البيت الثاني: كأنه غريب المعنى.

ومعنى البيت الثالث: إنك تجود ليلا، والمعاذير في الليل واسعة، لمشقة الزيارة فيه، وتبخل نهارًا، والعذر مرتفع.

---

(١) سقط من المخطوط ما أراد المؤلف ذكره في هذا الموضع من الناسخ سهوًا، وهي قصيدة في أكثر من خمسة أبيات أو ستة حسب ما يذكره في شرحه التالي لهذا القول.

ومعنى البيت الرابع: إنني عاتبتك على الهجر، فأوهمني وصلا وقربا لا أصل لهما.

ومن مليح العبارة: [ولما تعاتبنا على الهجر[1]]

صُغتَ لي دُنُوَّك مِنْ بُعْدٍ ووصلَكَ مِنْ هَجْرِ

ولي أيضا:

ضَنَّ عَنِّي بالنَّزْرِ إذْ أنا يَقْظَا نُ وأعطَى كثيرَهُ في مَنامِي
زَوْرَةٌ عاجلَتْ وما هِيَ إلاّ الزُّ ورُ سقْمًا مُبَرِّحًا مِنْ سَقامِي
والتقَيْنا كما اشتهيْنا ولا عَيْ بَ سِوَى أنَّ ذَاكَ فِي الأحْلامِ
وإذا كانَتِ المُلاقَاةُ لَيْلاً فاللَّيالِي خَيْرٌ مِنَ الأيَّامِ
وَبَلَغتُ المَرَامَ آيَسَ مَا كُنْتُ عَلَى النَّأيِ مِنْ بُلُوغِ المَرَام

ولي من قطعة مفردة:

وشَدَّنِي كفُّهُ وَعَانَقَنِي ونحْنُ في سَكْرَةٍ مِنَ الوَسَنِ
وَبَاتَ عِنْدي إلى الصَّباحِ وما شاعَ التقاء لنا ولم يَبِنِ
خادَعَنِي ثم عَدَّ خُدْعَتَهُ لِمُقْلَتِي مِنَّةً مِنَ المِنَنِ
فَلَيْتَ ذَاكَ اللِّقاءَ مَا زَالَ أوْ لَيْتَ خَيالاً في النَّوْمِ لَمْ يَكُنْ
فإنْ تكُنْ زَوْرَةٌ مُمَوَّهَةٌ فقَدْ أمِنَّا فيها مِنَ الظِّنَنِ
وَزارَني زَوْرَةً بِلا عِدَةٍ وما أتَى وقْتُها ولمْ يحِنِ
وإنْ تَكُنْ باطِلاً فكَمْ باطِلٍ عَاشَ بِهِ مَيِّتٌ مِنَ الحَزَنِ

ولي أيضا وهي قطعة مفردة:

بأبِي زَائِرًا أتانِيَ جُنْحًا لا وِدادًا مِنْهُ فَعَنَّى وَمَنَّى
زَارَني ضِنَّةً بِمَوْضِعِهِ المَا لِكُ قَلْبِي بُخْلاً عَلَيَّ وَضَنَّا
لمْ يُسِلْنِيَ شَيْئًا وعِنْدَ رُقَادِي أنَّهُ جَاءَنِي فأغْنَى وَأقْنَى
صَدَّ صُبْحًا والعَيْنُ منِّيَ يَقْظَى وسَرَى واصِلاً وعَيْنِي وَسْنَى

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من القصيدة المشار إليها ذكر البيت محذوفا أوله اختصارًا فأتممته بين المعقوفين.

وجَفَـا بالـنَّهارِ مِنْ بَعْدِ أَنْ خَيَّـ ـلَ لِـي أَنَّــهُ أَتَانِــيَ وَهْــنَا
زَوْرَةٌ مـا أتـى بهـا ذَلِـكَ الزَّا ئِـرُ رَبْعِـي فكـيفَ يُـوجِبُ مَنَّا!
هُـوَ لاَهٍ عـنها ومـا بِـتُّ فِـيه لَـيْسَ عِلمًـا، ولمْ يكـنْ لِيَ ظَـنَّا
فَهْـيَ تَعْلِـيلَةٌ لِـصَبٍّ عَلِـيلٍ أوْ خِـداعٌ يُهْـدَى لِقَلْـبٍ مُعَنَّـى
وهْـيَ مِـثْلُ السَّرَابِ أوْ مِثْلُ لَفْظٍ فَـارِغٍ مَالَـهُ ولا فـيهِ مَعْنـى

معنى «وعند رقادي أنه جاءني فأغنى»: لأن الرقاد هو السبب في تخيل ذلك وتمثله، وإلا فهو مما لا أصل له، وأقنى: من القنية. ومعنى «هو لاه عنها»: أن هذا الطيف مثاله لا يدري بما نحن فيه، فلا مِنَّة له. وأنا أيضا غير عالم بذلك، ولا ظان له، لأن الظن إنما يكون مع قوة الأمارات للعاقل، وليس في النوم إلا الاعتقادات الباطلة المبتداة[1].

والبيت الرابع: قد جمع بين تشبيه الطيف بالسَّراب، وهو واقع على ما تقدم، وبين تشبيهه باللفظ الذي لا معنى له، وهو أيضا واقع، وقد تقدم نظائره.

ولي وهي قطعة مفردة:

ولَـيلَة زُرْتَـنا واللَّـيْلُ دَاجٍ عَلَـى عَجَـلٍ ونحـنُ عَلَـى البِرَاقِ
وَجُـدْتِ لَـنا بِتَقْبِـيلِ الثَّـنايَا عَلَـى رَغْـمِ الوُشَـاةِ وبالعِـناقِ
وتَلاَقَيْـنا بِـأَرْواحٍ ظِمَـاءٍ عَـشِيَّةَ مـا لأجْـسَادٍ تَـلاَقِ
ولمَّـا أنْ تَفَـرَّقْنَا رَجَعْـنا إلى مـا نحـنُ فـيهِ مِـنَ الفِـرَاقِ
فَـإنْ يَـكُ بَـاطِلاً لاَ حَـقَّ فيهِ فكَـمْ مِـنْ بَاطِـلٍ حُلْـوِ المَـذاقِ

ولي من قطعة مفردة:

يـا مَـنْ جَفَـانيَ في الـضُّحَى وأَزَارَني وَهْـنًا خَـيالَهْ
وَرَضِـيتُ مِـنْهُ بِـأَنْ تَـرَى عَيْـنَايَ في سِـنةٍ مِـثالَهْ
وَحُـرِمْتُ مِـنْهُ صَـحِيحَهُ فَهَـوِيتُ مُـضْطَرًّا مُحَالَـهُ

---

(١) يريد أن يقول: على العاقل أن يزن قوله قبل النطق به وأن يتدبر ما يريد أن يخرجه قبل إخراجه حتى لا يوقعه في مرادي الهلاك أو الاضطرار إلى الاعتذار، وقد كان في حِلٍّ وغنية عن ذلك قبل إخراجه لو تعقله قبل النطق به وعدم اندفاع لسانه متقدمًا على عقله بل عليه أن يُعمل عقله قبل لسانه. وهذه هي الفطنة والذكاء.

هَــلْ ضَــامِنٌ مِــنْكُمْ لَــنا ... ضَــمِنَ الجمِــيلَ، فَمــا بَــدَا لَــهْ

ولي من قطعة مفردة:

تَــزُورِينَنا وَهْنًا وَلَوْ زُرْتِ في الضحَى ... لأَطْلَقْــتِ مِــنْ ضِــيقِ الْوِثاقِ أسِيرَا

وَمــا كــانَ مــا أشْــعَرْتِنِيه زِيَارَةً ... وَلكــنُها كَانَــتْ لِقَلْبِــيَ زُورَا

وَجَــاءتْ إلى لَيْلِــي الطَّوِيلِ فَخَيَّلَتْ ... غِــنيٌ أوْ قَلْبِــي فَعَــادَ قَــصِيرَا

لِقَــاء شَــفَى بَعْضَ الْغَلِيلِ وَلَمْ أكنْ ... علَــيْهِ وَإنْ كُــنْتُ الْقَدِيَــر قَدِيــرَا

ومَــا كــانَ إلا فِكْــرةً لُمفكِّــرٍ ... وذِكْــرًا حَــبَا مِــنْهُا لظَّــلاَمُ ذَكُورا

ولمَّــا انقَــضَى مَا صِرْتُ إلاَّ كأنَّني ... مَحَــوتُ بِــضَوْءِ الصُّبْحِ مِنْهُ سُتُورَا

للبيت الثالث ما تمناه المتمنِّي من ملاحة وسَباطة.

ومعنى:

.... وَلَمْ أَكـــــــــــنْ ... علَــيْهِ وَإنْ كُــنْتُ الْقَدِيَــر قَدِيــرَا

إنني لا أقدر على إحضار الطيف متى شئت، فقدرتي وإن كانت واسعة، تضيق عنه.

والبيت الأخير: في غاية التحكم في القلوب؛ لأن انقضاء الطيف بغير أثر ولا بقية، وإضافة المحو إلى ضوء الصبح: في موقعة وموضعه.

ولي من قصيدة أولها:

ما صيد قلبك [يوما] (١) يا بَنَة الكلل

وَزَارَني طَــيْفُها وهْــنًا فــأَوْهَمَني ... زِيَــارَةً كُــنْتُ أَرْجُــوها فَلَــمْ أَنَلِ

هِــيَ الــزِّيَارَةُ مَعْــسُولا تَطَعُّمُهــا ... وَلَــيْسَ فِــيها لَــنا شَيْءٌ مِنَ الْعَسَلِ

لَــو كــانَ طَــيْفُكِ أَوْلاَنــا زِيارَتَــهُ ... عَلَــى الحَقِــيقَةِ مَــا وَلَّى عَلَى عَجَلِ

عَطِــيَّةُ الــنَّوْمِ مَــنْعٌ لاَ انْــتِفَاعَ بِهَــا ... لِلعَاشِــقِينَ وَجُــودُ الطَّــيْفِ كالْبَخَلِ

فَكَــيْفَ جِــئْتِ إلَيْــنا غَــيرَ سَائِرَةٍ ... عَلَــى جَــوَادٍ ولا حِــدْجٍ عَلَى جَمَلِ

فكَــيْفَ لَمْ تُوقِظِي صَحْبي وقَدْ هَجَعُوا ... بِــرَنَّةِ الْحَلْــيِ أَوْ مِــنْ نَغْمَةِ الْحُلَلِ

نظير البيت الذي أوله «عطية النوم منع» من شعري:

---

(١) زيادة يتطلبها السياق أحسب أنها سقطت من الناسخ سهوًا.

زِيـــارَةُ الطَّـيفِ ضَـرْبٌ مِنْ قَطيعَتِهِ ... وَوَصْـلُ مَـنْ لاَ تَرَاهُ الْعَيْنُ هِجْرَانُ

وفَغمـة الطيب: تَضَوُّع رائحته. وأردت فغمة طيب الحلل، فإن الحلل في نفوسها لا فغمة لها. ولي من جملة قصيدة، وهي من قولي المتقدم:

طَــيفُكَ مَـا أَبْـصَرَهُ ... يَقْطَـعُ ذَاتَ الأَبْـرَقِ
خَـيَّلَ أَنَّـا نَلْتَقـي ... زُوراً وَلَـيْسَ نَلْتَقـي
وَافَـى إِلَيْـنا في الْكَـرَى ... يُثْنَـى إِلَـيْهِ عُنُقـي
وَأَنْجُـمُ اللَّـيْلِ لَهَـا ... شَعْـشَعَةٌ في المَـشْرِقِ
كأَنَّهـا سَـاهِرَةٌ ... حائِـرَةٌ لَـمْ تَطْـرُقِ
عَـيْنُ رَقِـيبٍ مُـشْفِقٍ ... مُـوَكَّلٍ بالحَـدَقِ
أَعْجِـبْ بِهـا زِيَـارَةً ... لِعانِـقٍ لَـمْ يَـرْفُقِ
بَاطِلَـةً كأَنَّهـا ... هُـنَاكَ مِـنْ مُحَقَّـقِ
كَـأَنَّ شَـوْقًا قَادَهـا ... وَهْـيَ كمَـنْ لَـمْ يُشَقِ
بِـتُّ بِهَـا أُغْلُـوطَةً ... أُمْـسِكُ مِـنْهَا رَمَقِـي
وَمُخْفِـقٍ كأَنَّـهُ ... مِـنْ طَمَـعٍ لَـمْ يُخْفِـقِ
لَمَّـا دَنَـا الـصُّبْحُ الى ... وِسَـادِهِ كالْـيَقَقِ(١)
أَضْـحَى يَعَـضُّ كَفَّـهُ ... عَلَـى الدُّجَـى مِـنْ حَـنَقِ

---

(١) قـال ابـن منظور في لسان العرب في مادة «يقق»: يقَق: أبيض يَقَقٌ وَيقِقٌ بكسر القاف الأولى: شـديد البـياض ناصـعة، قال أبو عمرو: يقال لجمارة النخلة يَقَقَةٌ وشحمَةٌ، والجمع: يَقَقٌ، وفي حديث ولاة الحسن بن علي رضي الله عنهما: ولغة في بيضاء كأنها اليَقَقْ. واليقق: المتناهي في البياض. قلت: وأي شيء أبيض من الصبح؟!

[خاتمة] (١)

قال سيدنا أدام الله عُلُوَّه: قد انتهينا إلى حيث يجب قطع الكتاب عليه. وقد أخرجت من ديوان شعري في وصف الطيف ثلاث مائة وخمسة وعشرين بيتًا، وهذا أكثر عددًا مما أخــرجناه للبحتري، على شغفه بوصف الطيف، ولهجه به، فإن الذي أخرجناه له مئتان ونيف وعشرون بيتًا، بل هذا المبلغ، الذي اختصصنا به، يزيد عددًا على كل ما سُطِّر في هذا المعنى لِمُكْثِرٍ من الشعراء.

فأمـــا الــتجويد فالتقدير يخرجه، والفطنة مع الإنصاف الحكم فيه؛ ولعله إن اتفق منا فيما يمـــده الله تعـــالى من مهلة، ويطيله من مدة، نظم شيء في هذا المعنى، ضمناه إلى هذا الكتاب، وأضفناه إليه. والله تعالى ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

والحمد لله وحده، وصلاته على سيدنا محمد وآله الطاهرين وسلامة.

فُــرغ من نسخه شهر ربيع الآخر، سنة إحدى وتسعين وخمس مائة، بمدينة حلب، حرسها الله تعالى، وخلد ملك مالكها. (٢)

انتهى الكتاب..

* * *

(١) زيادة تصنيفية من عمل المحقق غفر الله تعالى له آمين.

(٢) قـــال محققـــه أبـــو إسلام سيد بن كسروي بن حسن: وقع الفراغ من تحقيقه بحمد الله فجر يوم الجمعـــة (١٩) مـــن شهر جماد آخر سنة (١٤٢٧هـــ) الموافق (١٤/ ٧/ ٢٠٠٦م)، والحمد لله تعـــالى على التمام، وأسأله سبحانه وتعالى حسن الختام والموت على دين الإسلام، وأصلي وأسلم على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الكتاب الثاني

رسالة لطيفة

تأليف

بهاء الدين عيسى بن عبد الله الأربلي
المعروف بالمنشئ
المتوفى ٦٨٣ هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

[١/أ]/ بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله

يا خليلي من ذؤابة قيس في التصابي، رياضة الأخلاق مما أعرف به إخواني جادتهم الأنواء، وصابتهم السماء، وحلب السحب بأنديتهم أفواه عزاليها، وهرافت ماء مدامعها بعقوتهم من مآقيها، وروض القطر دارهم ونعمها، وأجَدّ آي رسومهم ولا أخلفها، وأصفى مشارعهم ولا رنَّقهَا ولأحياضهم، وبنمير الماء وأتاقها فسقى ديارك غير مفسدها صوب السحاب، وديمة تهمي حتى تبعث بمنازهم أموات النبات، وتنشر رمم الأزهار الهامدات، وتكتسي من مطارف السروض الوشائع المفوَّقة والحبرات، وتجلي عرائس الربيع/[١/ب] في ملابسها الفاخرة، وتحدق عيون النرجس الناظرة إلى وجنات الورد الناضرة فيبسم ثغر الأقاح[1]، وتميل قدور الأغصان من الارتياح فتصفق الأنهر على الإيقاع، وتتمايل الأزهار راقصة على السماع، وتشرب الخمائل من رضاب الطلّ سلافة عاصرها المعصرات وساقيها الغيوث الهاطلات، وتغرد خطباء الأطيار على منابر الأغصان طرباً؛ فينثر الندى على الزهر لألياً وحبًّا، فكأن السماء تجلو عروساً وكأنَّا من قطرها في نثار، وإن أضرُّ ما

---

(١) قال ابن النفيس في كتاب الموجز في الطب (ص ٨٢):

الأقْحُوان: حار يابس في الثانية، مقطِّع مُلَطِّف، مُفَتِّح، يَدرُّ العرق والطمث شرباً واحتمالاً، ويحل الدم الجامد في المعدة، والمثانة، وشَمُّهُ ينوِّم، وطبيخه إذا جلس فيه لين صلابة الأرحام، وينفع الربو والسوداء، ويضر فم المعدة، ودهنه يفتح أفواه البواسير، وينفع أوجاع الأذن، واحتمال دهنه يحل صلابة الرحم، ويدر بقوة وينفع اليرقان، والاستسقاء.

علـى الإنـسان في زمانـه أن يجـري جـواد نظـره مـرخيا من عنانه فقد قيل: كم نظرة أوجبت حسرة، وكانت حلوة فـعقبت عيشة مرة.

وطالمـا أرخَـى امـرؤ/[٤/أ] يا قلب عاشقه
وسـهم جفـونِه مـن لزم المقتول حب القاتل
ومـن العجائـب أن عـضوًا واحـدًا
هـو مـنك سـهم ومـني مقـتل [(١)]

فلله در هذا الشاعر إذ عرف الأمر فشرحه، وكان مبهما فعرفه، ومشكلا فأوضحه، بـل كان صعبا فذلَّلَهُ وحزنا فعبده ومقفلا ففتحه، ومن العجب أن أهل هذا الشأن فعلوا غرراً، ونكبوا من الهوى خطراً، ورضوا بأن تذهب دماؤهم هدرًا، وألا جناية على المحبوب ولو محبه بالقواقر حتى قال قائلهم:

إن أحداق الظباء لا تـأخذ بالجـرائر

/[٤/ب]كيف تعرضت وأنت حازم يوم النقا لأعين الجاذر أما علمت أن أحداً في الظباء الغيد لا يؤخذ بالجرائر.

فهل هذا إلا قول من صلت على نفسه حكم الحب ورضي بما لا حظ فيه لذي لب. ما أنصفته يكون من أعدائها في زعمها وتكون من أحبابه.

ومـوجب هذه المقدمة أني خرجت في بعض أيامي متفرجاً، وعلى الرياض الأنيقة معـرجاً نشر زنده وخزامه وابتهج ببابه وعداده، وأطرب لدرهمه وديناره، وأستنشئ ريّاه ويشوقني محياه ويروقني منظره ومخبره، ويرق لي أصيله وشجره ما تفتقت أكمامه إلاّ تحرك وجد القلب وغرامه، ولا فتح نواره إلاّ وأضرم في الحشا ناره.

أتـاك الـربيع الطلق يختال ضاحكاً مـن الحـسن حـتى كـاد أن يتكلما

---

(١) تعجـب الـشاعر تعجـباً هـو فـيه محق إذ كيف يكون السلاح القاتل هو المقتول، وصدق مـن قـال مـثل قـول هـذا الشاعر إذ قال: لا يفل الحديد إلاّ الحديد، والقائل والشر إن تلقه بالـشر ينحـسم. فـنعم عـيني تَقْـتُل، وعـينٌ تُقْتَلْ، فالأداة واحدة، ولكن تَقَبُل هذه العين لنظـرة تلـك العـين مـاذا تفعـل بها؟ ترديها وتفعل بها الأفاعيل التي تراها بالعشاق وصرعى الهوى.

وقـد نبه النيروز(١) في غسق الدّجى أوائـل وردٍ كـن بـالأمس نُـوَّمَا
ومـن شـجر رد الربيع لباسه عليه كمـا نـشرت وشـياً منمـنما
أحـلّ فأبـدى للعـيون بـشاشة وكـان قـذىً للعـين إذ كـان محرما

ولم يكـن عندي إذ ذاك باعث غرام وليس لي هم في غلامةٍ أو غلام ولا سبيل عَلَيَّ لسلطان البطالة:

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب مادة: «نرز»:

النيروز، والنوروز: أصله بالفارسية رثيع رُوز، وتفسيره: جديد يوم. وقال ابن الأعرابي: نرز موضع، قال: وأما النريزي الحاسب، فلا أدري إلى أي شيء نسب.

يقول الأستاذ محققه بالهامش ما نصه: قوله: أصله بالفارسية... إلخ، كذا بالأصل، وقد عرضناه على متقن من علماء اللغة الفارسية، فلم يعرفه.

وعبارة القاموس: والنيروز أول يوم في السنة معرب نوروز.

قلت: وهو عيد من أعياد قدماء المصريين كانوا يحتفلون به وهو احتفالهم اليوم بما يسمى بعيد شم النسيم في مصر أو احتفال عيد الربيع أو عيد الزهور ويكون عادة في النصف الثاني من الشهر الرابع الميلادي يوم الإثنين، وهذا شرط فيه وفيه يلونون البيض بألوان مختلفة، ويعلقون البصل على أبواب المنازل، ويخرجون إلى الحدائق والمتنزهات بجماعات كبيرة وكثيراً ما يغرق في هذا اليوم أناس في مصر، ويأكلون الفسيخ، والملانة، وكثيراً ما ينتج عن أكل الفسيخ في هذا اليوم حالات تسمم كثيرة مما يضطر القائمين على أمر المستشفيات بإعلان حالات الطوارئ في هذا اليوم استعداداً لتلقي حالات التسمم والغرق، وتتأهب فرق الإنقاذ البحري كذلك لمحاولة إنقاذ من يشرف على الغرق إلاّ أنهم عادة ما يصلون إلاّ بعد حدوث ذلك. والمقيمون في مصر يعرفون ذلك اليوم جيداً ويعدون له الإعدادات الهامة والسنامة. وهو يوم ليس قاصراً على ديانة معينة بل يخرج فيه كافة السكان من مسلمين ونصارى، ويهود وبهائية وشيعة وسنة وكل صاحب عقيدة تعبدية أو رأي سياسي. فالكل يحتفل بهذا اليوم أيما احتفال حتى في الريف.

والعجيب أن المسلمين يظنونه يوماً من أيام النصارى، والنصارى يظنونه يوماً من أيام المسلمين فهؤلاء محرجون من وأولئك، والعكس تماماً على الرغم من أن وسائل الإعلام تعرف بأنه ليس يوماً من أعياد هؤلاء ولا هؤلاء، وإنما هو عادة فرعونية قديمة تسمى يوم وفاء النيل، وأن الغرض منها هو استقبال أشهر الربيع بالبهجة إلاّ أن الناس تصر على ما رسخ في أذهانها عنه.

تمتعتما يا ناظريّ بنظرة /[٥/أ] فأوردتما قلبي أمرّ الموارد
أعينيّ كُفّا عن فؤادي فإنه من البغي سعي اثنين في قتل واحد

فبدا لي بينهن فتاة كأنها مهاة، تسفر عن وجه بديع الجمال، وتنثني فتخجل الأغصان في الميل والاعتدال بعيدة مهوى القرط حوراء المدامع، شهية ما فوق اللثاث مضيئة ما تحت البراقع، ترنو بلحاظ ريم، وتبسم عن دُرّ نظيم(١).

(١) قطعة بديعة العصف جميل البيان بهية الثياب تدخل على النفس بهجة وتريح الفؤاد من كلل الحياة والرتابة.

فالمهاة معروفة من فضائل الغزال، جميلة الجسم، كحيلة العين بديعة الجمال بين أقرانها من الغزلان طويلة القرون في شمم وجمال ونضارة تأخذ باللب من أول نظرة إليها من بين بني جنسها.

ثم أبلغ وأبدع في وصف مشيتها فجعل الأغصان تتضاءل أمام تلك المشية وتعتبر نفسها صلبة جافة ثقيلة الحركة في حين جعل مشيتها، رشيقة بديعة خاطفة للفؤاد من تثنيها وكأنها ترقص أو تتبختر.

ثم وصف عنقها بالطول مع الاعتدال الباعث على إظهار الجمال اللافت للأنظار فأشار إلى ذكر القرط دون لفت النظر إليه، حيث إن القرط يتزين به بيد أنها تزين القرط لو لبسته فكيف يذكره ليسقط من جمال تلك اللوحة حتى ولو كانت تضعه في ذلك الموضع وهو يرى أن عدم وجوده أجود ليتمتع بجمال صفحة عنقها البراق خاليًا من الشواغل والموانع والعوائق ليراه صافيًا نقيًّا.

ثم يصف عيونها بالحور، وهو شدة السواد في شدة البياض وهو حال عيون المهاة في الجمال والاتساع، ولا أدري لماذا اختار للعيون في هذا الموضع النسب إلى الدموع في حين هو يريد انشراح الصدر والنفس؟!

ثم تناول شفتيها باللذة بالاشتهاء وأضاف إليها الثنايا بالكناية فكأنه يقول لك انظر إلى تلك الشفاة فأيها أبهى وأجمل وأكمل أهما في لونهما وحجمهما وتناسقهما أم تلك التي تخفينه من ذلك الدر النظيم الذي تحتهما، فلا يعقل أن تنطبقا هاتان الزهرتان إلاّ عن ثغر يحوي أريج العطر ونظم اللؤلؤ.

ثم ذكر جمال وجهها الذي جعله مسلمًا به من خلال تلك العيون الفتاكة فعلم أن تحت ذلك البرقع إنما يربض مجمع الجمال ومستودع الحسن والكمال من خدود وشفاه وشفر

نظـــرت فأقصدت الفؤاد بسهمها ثم انثـــنت عـــنه فكـــاد يهـــيم
ويـــلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وقـــع الســـهام ونـــزعهن ألـــيم

كأن محياها بدر داجية، أو شمس سماء مضحية- ولا يقال: ضاحية – قد جار فيه ماء الجمال وضرجته/[٣/ب] حركات الدلال(١).

قال عمر بن أبي ربيعة:

أبـــرزوها مـــثل المهـــاة تهـــادي بـــين خمـــس كـــواعب أتـــرابِ
وهـــي مكـــنونة تحـــير مـــنها في أديم الخـــدين مـــاء شـــبابِ
ثم قالـــوا تحـــبها؟ قالـــت: بهـــرًا عـــدد الـــرمل والحـــصا والتـــرابِ

يحيرك ما عليه من النضارة والصقال ويفتنك شراق بياضه على سواد ذلك الخال(٢).

وعطـــر ودر تظـــيم كمـــا قلـــت وقـــال. فـــسبحان واهـــب الحسن والجمال، وعلى الموهب الشكر على تلك الفضائل والخلال.

(١) ثم يكمـــل في الوصف بعد القطعة السابقة والشعر وكأنه يرى أنه لم يفيها حقها في الوصف، ولم يقـــدرها قـــدرها فـــإذا به يعود فيقول كان محياها إنما هو بدر في ليلة صيف صافية نسيمها عليل وليلها جميل. ويرى أن القمر مع جماله قد لا يكفيه في وصفها دون الشمس فأراد أن يجمع لها بين القمرين فاختار لها أبهى حالات الشمس وأجملها ألينها فاختار وقت الضحى المبتدئ، حيث تلين وتجمل الشمس وتبهى ولا تملها العين ولا تؤذى بها. ويذكر نضارة ماء الشباب في وجهها فيقول إنـــه قـــد سقى ذلك الوجه بماء ليس كماء باقي البشر بل هو ماء الجمال أو أصل الجمال فكيف يكـــون صاحبه إذا ودع في وجهه خلاصة الجمال، وعرف صاحب ذلك الوجه قدر نفسه فأدى حـــق ذلك الجمال فتحرك في دلال ومشى مشية الغزلان وتثنى تثني الأغصان حتى أهاج في نفس الناظـــر الألحان، فليس هو من أهل الجمال البلهاء الذين لا يعرفون لجمالهم قدرًا، بل هو من أهل الجمال والفطنة، والبهاء والذكاء، فاستحق أن يصفه بقول عمر بن أبي ربيعة القادم بحق، وحُقَّ له أن يهيم فيها وفي حبها.

(٢) هـــو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ويكنى أبا الخطاب، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة عـــم أبيه، وأم عمر بن الخطاب حنتمة بنت هشام بن المغيرة بنت عم أبيه. وإخوته عبد الرحمن، وعبد الله، والحارث بنو عبد الله. وكان عبد الرحمن قد تزوج بأم كلثوم بنت أبي بكر الصديق بعد طلحة وولدت له، وأعقب الحارث، ولا عقب لعمر.

وكانت أمه نصرانية وهي أم إخوته، وكان عمر فاسقًا يتعرض للنساء الحواج ويتشبب بهن، فسيره عمـــر بن عبد العزيز إلى الدهلك، ثم غزا في البحر، فاحترقت السفينة التي كان فيها، فاحترق هو

=

يَــا سَــالِبًا قَمَــرَ السـَّمَاءِ جَمَالَهُ ... أَلْبَــسْتَنِي فِي الحُــزْنِ ثَــوْبَ سَمَائِهِ

أَشْــغَلْتَ قَلْبِــي فَارْتَمَــى بِشَرَارَةٍ ... عَلُقَــتْ بِخَــدِّكَ فَانْطَفَتْ مِنْ مَائِهِ

وللـشعراء في وصف الخال[١] معان أنيقة ومقاصد رشيقة سلكوا منها واضح الجدد والطريقة، وأتوا بالسحر الحلال على الحقيقة: قال ابن الساعاتي[٢]:

=

ومن كان معه وكان يشبب بسكينة.. وحج عبد الملك بن مروان فلقيه عمر، فقال له عبد الملك يا فاسق، فقال له: بئست التحية من ابن العم على طول الشحط، قال: يا فاسق أما إن قريشًا تعلم انك أطولها صبوة وأبطؤها توبة، ألست القائل:

ولـــولا أن تعـــنفني قـــريش ... مقـــال الناصـــح الأدنى الـــشفيق

لقلـــت إذا التقيـــنا قبلـــيني ... ولـــو كـــنا علـــى ظهـــر الطـــريق

وكـان أخـوه الحـارث عفيفًا، فعاتبه يومًا، قال عمر: وكنت على ميعاد من الثريا، فرحت إلى المـسجد مـع المغرب، وجاءت الثريا للميعاد، فوجدت الحارث مستلقيًا على الفراش، فألقت نفـسها عليه، وهي لا تشك في أنه أنا، فوثب وقال: من هذه، فقبل له الثريا، فقال: ما أرى عمر ينتفع بعظتنا.

فلما جئت للميعاد قال: ويحك قد كدنا نفتن بعدك، لا والله إن شعرت إلاّ والثريا صاحبتك واقعة عَلَيّ.

قلت: لا تمسك النار بعدها أبدًا، فقال: عليك لعنة الله وعليها.

فلما تزوج سهيل بن عبد الرحمن بن عوف بالثريا قال عمر:

أيهـــا المـــنكح الثـــريا ســـهيلاً ... عمـــرك الله كـــيف يجـــتمعان

هـــي شـــامية إذا مـــا اســـتقلت ... وســـهيل إذا اســـتقل يمـــاني

مختصر ترجمته من كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص ١٣٢).

(١) الخـال هـو الشامة تكون في الجسد ومنها ما يكون في الوجه فيزيده بهاءً خصوصًا في وجه المرأة ويقول ابن منظور في لسان العرب في مادة «شأم»: الشَّأْمَة: الخال في الجسد معروفة.

قلـت: وفي أيامـنا هـذه من يضعون تلك الشامة مصنوعة أو مرسومة على وجوههن للحسن خـصوصًا الهـنديات، والممثلات ليظهرن بهاءً زائدًا في الصورة وهن يتفنن في وصفها وحجمها وعـادة مـا تكون أكبر من حبة العدس السوداء قليلاً فمنهن من تضعها بين حاجبها لأعلى قليلاً وهـن الهـنديات ومـنهن من تضعها على الخد، ومنهن من تضعها فوق الشفة العليا ومنهن من تـضعها إلى جوار الأنف قرب الشفة العليا، ومنهن من تضعها تحت الشفة السفلى، ولونها دائمًا أسـود أو بني محروق ليناسب لون البشرة والتي بها خال في وجهها خلقة يقولون عنه حسنة وهي كلمة مأخوذة من الحُسن لا من أعمال الخير كما يظن البعض أو كما كنا نظن ونحن صغار.

(٢) هو: أبو الحسن علي بن محمد بن رستم بهاء الدين، الخراساني، الدمشقي المشهور بابن الساعاتي.

=

ذو جـــنة مـــا لاح مائـــل خالهـــا   بل لاحَ أسودُ مقلتي في مائها/[٦/أ]

وقال:

مـــا الخـــالُ نقطـــةُ نـــونِ صدغكِ   إنمـــا قلـــبي بِحَبّـــتِهِ حَـــبَاكَ تَلَهُّفَـــا

وقال الحاجرى الأربلي(١):

لـــك خـــال مـــن فـــوقِ عـــرشٍ   عقـــيقُ قـــدْ اســـتوى

بعـــث الـــصُّدغ مرســـلاً   يأمـــرُ الـــناسَ بالهـــوى

=

راجع ترجمته في:

سير أعلام النبلاء (٢١/٤٧١). تكملة المنذري (١٠٣٣)، وفيات الأعيان (٣/٣٩٥)، تاريخ الإسلام (١٨/١/١٧١)، العبر (٥/١١)، الوافي بالوفيات (٨/١٥٨- ١٥٦مخطوط)، تاريخ ابن الفرات مخطوط (٩/٢٩)، عيون الأنباء. (٢/١٨٤)، شذرات الذهب (٥/١٣)، رمضان الجنات (٨٩)، وقال الذهبي في سيره:

عين الشعراء أبو الحسن...كان أبوه يعمل الساعات فتجند بهاء الدين، ومدح الملوك وسكن مصر وقال النظم الفائق. وهو أخو الطبيب الأوحد فخر الدين رضوان بن الساعاتي.

بلغ ديوان البهاء مجلدين، وانتخب منه ديوانًا صغيرًا، وهو القائل:

والطل في سلك الغضون كلـــؤلؤ   رطب يصافحـــه النسيم فيسقط

والطير تقرأ والغديـــر صحيـــفة   والـــريـــح تكتب والغمام ينقط

توفي في رمضان سنة أربع وستمائة وله نيف وخمسون سنة.

أما أخوه فتقدم في الطب إلى أن وزر للملك المعظم وكان ينادمه بلعب العود.

(١) هـــو: حـــسام الـــدين عيـــسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل الإربلي، الشاعر، الملقب بالحاجري لإكثاره من ذكر لحاجر في شعره وديوانه مشهور.

راجع ترجمته في:

سير أعلام النبلاء (٢٢/٣٤٣)، عقود الجمات مخطوط (٥/٢٤٠)، وفيات الأعيان (٣/٥٠١)، تاريخ الإسلام مخطوط (١٢٧/١٢/٣٠١)، النجوم الزاهرة (٦/٢٩٠)، شذرات الذهب (٥/١٥٦).

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته:

كان من أولاد الجند، ونظمه فائق، أخذ عنه ابن خلّكان كثيرًا وهو القائل:

اي طـــــرف أحـــــيور   للغـــــزال الأُســـــيمر

أَيّهَـــــذَا الأرَنبيلـــــى   هـــــام فـــــيك الحُويجـــــري

وثـــب عليه شخص بدَّدَ مصارينه في شوال سنة اثنين وثلاثين وستمائة بإربل وله نحو من خمسين سنة.

وقال:

عجبت لخالٍ يعبد النار دائمًا بخدك يحرق بها وهو كافرٌ
واعجب منه أن صُدغك مرسلٌ يصدق في آياته وهو ساحرٌ

فثنيت في أثرهن جوادي، وإنما تبعت فؤادي، وقد شغلني الحب عن التقية وقادني لوجد قود الطية /[٦/ب] وأصبحت بعد ذلك الشماس وملت عن التوحش إلى الإيناس وهونت ما كنت أستصعبه من لوم الناس، وجريت في طلق الصِّبي طلق الصَّبا، وذهبت في نيل البغية مَذْهَبًا مُذْهبًا(١) وأنشدت عاذلي وقد هاجت بلابلي:

لا ليقل من شاءَ ما شاءَ إنَّمَا يلامُ الفتى فيمَا استطاعَ منَ الأمرِ
قضى اللهُ حبَّ المالكيةِ فاصطبرْ عليه فقدْ تجرى الأمورُ على قدرِ

فدنوت من ذلك السرب وأنا ذاهل اللب مُعَنَّى بشواغل الحب، وقلت وقد عقل الهوى لساني، وقيد الغرام جناني: حَيًّا الله هذه الوجوه النواضر والمحاسن التي هي شَرَكُ النفوس وقيد النواظر، أما ترثون لقتيل/[٥/أ] غرام، وأسير هيام، وحليف سقام، وصاحب دموع سجام ومعنى قد عدم الجَلَدَ وقارن الكمد، وملكت العيون فؤاده، ونفت عن جفنه رقادة ترك الوقار وكان من أهله، وسلب القرار لذهاب عقله، يسامر النجوم، ويساور الهموم، ويعاني حرق العليل، ويعرض نفسه للهم العريض الطويل(٢).

---

(١) وكذا قالوا في الحب أو العشق: «ليس من المعقول أن تحب وتظل عاقلاً، فالحب يحول الإنسان من امرء متزن إلى شبه فاقد للوعي هائم الفكر شارد الذهن غائب عن الإدراك غير شاعر بالمحسوس ينظر ولا يرى يصغى ولا يسمع يقظان وهو شارد، نائم وهو يقظان حالم وهو مفتوح العينين، كلامه رقيق وصوته خفيض ونبضه ضعيف وقلبه حنون وجفنه مسبول وحركته في خمول يسمع ولا يقول، فهو دائمًا في ذهول وباله مشغول وقلبه مبتول يتمنى من المحبوب نظرة ويرجو أن يسمع منه همسة، وغايته فيه لمسة، يظن أن الكل يراه وأنه في غاية الكتاب وأمره ظاهر للعيان، ولكنه يصر على التخفي وإبداء التجفي، وكله وضوح وأمره مفضوح لا يحتاج إلى فصوح فهذا بعضًا من حالهم وإلى الله درهم ومآلهم والله يجمع شملهم ويريح بالهم ليهدأ حال ويؤول إلى الصواب مآلهم.

(٢) هكذا هم العشاق لا يبالون ما قال القائلون في حقهم من مدح وذم ولوم وتجنٍ فهم ماضون فيما هم فيه عازمون على بلوغ مأربهم من محبوبهم مضحين بكل غال ونفيس وعظيم وعزيز غير مشغولين بالشواغل المعطلة أو الأقوال المثبطة وإن كانت هذه الأصوات نائحة أو حانية أو خائفة عليهم فهم قد باعوا النفوس فما بال ما دونها، فهم يرون أن ما هم فيه أمر خارج عن إرادتهم فلا يرون وجهًا للوم لائم؛ لأنه إنما يلام من بيده الأمر وهم في نظرهم قد فقدوا القدرة على السيطرة على أنفسهم إنما هم يدفعون إلى ذلك دفعًا لا يستطيعون رده، ويرون أن ما هم فيه من حب إنما

يبيت كمابات السليم مُسَهَّدًا … وفي قلبه نار يشب لها وَقْدُ
وقد هجر الخِلاّن من غير ما قِلًى … وأفرده الهم المُبَرِّحُ والوجدُ[1]

فانبرت من بينهن تلك الظبية الأدماء، والغادة الحوراء، واسطة العقد وفريدته ودمية القصر/[٥/ب] وخريدته، وقالت: وأنت حَيَّا الله دارك، ولا أبعد مزراك، وأكرم إيرادك وإصدارك، ورفع قدرك وأعلى منارك، ما الذي جَشَّمَكَ هذا الخطأ؟ وعلام وقفت موقفًا كنت تعد الوقوف فيه من الخطأ، ومثلك لا يغدر إذا أتى غلطًا أو رام شططًا، وكيف غررت بنفس كنت تصونها وأهنتها، وعهدي بك لا تهينها، وعلام أرخيت رسنها حتى جرت في ميدانها وأعطيتها في طلق الخلاعة فاضل عنانها؛ كيف أنسيت الحِكَمَ التي كنت

=

هو نوع من أنواع القدر الذي لا يدفعه دافع حتى يقضي الله منه ما يريد دون تدخل العبيد.

(١) الأرق من أخطر الأمراض أذله أشد التأثير على سائر أعضاء الجسم، والمريض يسهر إلاّ أن سهره يكون مؤقتًا أو مرتبطًا بمرضه إذا زال المرض زال السهر، إلاّ أن السليم الجسم إذ ابتُلي بالأرق كان دائر عضال قلّ أن ينجع معه علاج سوى العلاج الذي هو داء السبب لهذا الأرق وأخطر هذه الأسباب هو العشق فالعشق لا علاج له سوى الاجتماع بالمعشوق والوصول إلى المعشوق من الأمور الصعبة جدًّا إلاّ أن يكون المعشوق زوج المرء فعندها ينجلي أكبر الغمة فلا يحول بينه وبينها سوى السفر أو البعاد لسبب من الأسباب الخارجة عن إرادة أحدهما مما يجعله مبتلى بهذا الأرق أو القلق؛ ومن هنا شبه الشاعر ليل هذا العاشق في حين فراق معشوقة بأنه يبيت ساهرًا وكأن في صدره نار توقد لشدة الشوق فلا يطفئ هذا النار شيء سوى قرب المعشوق من عاشقه مهما سُلّيَ ومهما شُغل عنه فهو لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار وينعم له فراش ما دام هذا المحبوب بعيد المنال لسبب خارج عن يده، خصوصًا إذا كان هذا الجهد ليس هجرًا مقصودًا من المعشوق وإنما هو أمر فرض عليه كسفر أو مرض أو حبس فإنه ليس في ذلك منه دخل وهو لم يتسبب في ذلك الهجر فهو أيضًا يصطلي بنار ذلك الفراق وهو تواق إلى العودة واللقاء فلا هذا يذوق النوم، ولا ذاك يغمض له جفن أو ينعم بفراش أرق قلق ناظر إلى نجوم السماء كأنه يحصيها فلا هو على الإحصاء قادر وعلى على إهمال النظر إليها صابر.

فليل العاشق طويل ونومه قليل وجسمه نحيل ونظره قليل وفكره شارد وبدنه بارد وليله نهار ونهارُه طال، فلا هو ينوم هانئ ولا لعمل مجيد ولا لإجابة سائل مصيب بل كل حاله في اضطراب وليس كل هذا إلا لفراقه الأحباب فإذا حضروا زال كل هذا الحال وتبدل إلى أحسن حال من أول لحظة في الوصال، ومن رأى حال العشاق في غيبة معشوقهم وفي حال حضورهم رأى العجب العجاب من سرعة تبدل الأحوال في أسرع من طرفة العين حتى أنك ترى العليل سليما والباكي ضاحكًا والذابل نضرًا والكليل نشطا فحالهم عند فراقهم بالضد منها عند اجتماعهم فاللهم اجمع شمل كل متحابين وأجمع كل شتيتين.

تـــوردها؟ وهل صَدَّقت بعوادي الهوى التي كنت تستبعدها؟ أين مواعظك في كف النظر وزواجرك في غض البصر فسقت إلى نفسك تعبًا وحملتها/[٩/أ] بالنظر إلينا على زعمك نصبًا، أما علمت أن دم قتيل الهوى مباح، وأنه لا حرج على قاتله ولا جناح؟ وأن ثأره لا يطلب وهامته لا تضرب؟ ألم يقل الشاعر:

يـــا مُغْمِـــدًا في القَلْبِ سَيْفَ لَحْظِهِ ... أَلِلَّـــهِ مِـــنْ دَمٍ بِغَيْـــرِ ثَائِـــرِ

وَمِـــنْ غَـــرَامٍ مَالَـــهُ مِنْ أَوَّلٍ فِيْكَ ... وَلَـــيْلٍ مَالَـــهُ مِـــنْ آخِـــرِ(١)

وقال آخر، وتروى للشافعي رضي الله عنه:

خُـــذُوا بِدَمِـــي ذَاكَ الغَـــزَالَ فَإِنَّـــهُ ... رَمَانِـــي بِسَهْمَيْ مُقْلَتَيْهِ عَلَى عَمْدِ

ولا تقـــتلُوه إنـــني أنــــا عـــبدُهُ ... وفي مـــذهبي لا يـــؤخذُ الحـــرُّ بالعـــبدِ

هَـــلْ اجْـــدَى ذَلِـــكَ الْحَـــذَرُ ... حِـــينَ أوقعـــكَ القَـــدَرِ(٢)

فقالت: اللهم غفرًا، ألست الذي سارت في الآفاق أخباره؟ وظهرت على صفحات الأيـــام آثاره؟ وتَنَقَّلت تنقل الشمس رسائله وأشعاره؟ ألست ذا البيان الذي ينفث سحره في العقد؟ وصاحب اللآلئ المنظومة والدرر البَدَد؟

ألست الأشعار الناصعة والخطب الرائعة والنوادر الشائعة/[١٠/أ]، والمعاني التي كل الأسماع إليها مصيخة ولها سامعة؟ والرسائل التي هي لرسائل الأوائل فارعة؟

---

(١) هـــذا شـــاعر سائلاً مستنكر على أن يلام معشوق في إرهاق عاشقه، ويلقي باللوم على العاشق ويقول إنه ليس سببًا في ذلك الداء الذي ألم بالعاشق؛ لأنه معلوم لدى أهل الهوى أن صريع العشق لـــيس له دية على المعشوق وإن كان المعشوق هو السبب الحقيقي المباشر في هلاكه وترديه بغمد لحظـــة في شغاف قلبه وهجره حتى أرداه ذلك وأسلمه إلى الهزال ثم الموت فهذا قاتل لا قود عليه ولا ديـــة قبله ولا لوم. فليس للمعشوق يد في إرداء هذا أو إهلاكه إنما هو أمر خارج عن إرادته البتة فقد عشقه العاشق عن غير اتفاق معه وإخلاف للوعد له وفي هذا إنصاف.

(٢) وهـــذا عكـــس الأول فهو يلوم على قاتله لكن كسابقه في إبرائه من الدية والقود، حيث يقر بأنه كـــان ســـببًا عامدًا في قتله، غير انه يقر بأنه عبد له، ولا يجوز قتل السيد بالعبد، فالعاشق يدافع ويدفع بدمه عن معشوقه ويفتديه بروحه ولا يرغب في أن يشاك معشوقه بشوكة.

كمـــا أنه يدافع عنه دفاعًا مشفوعًا بما يقنع به الخصم بأن ذلك خارج عن إرادته وإرادة المعشوق، حيث يعلق ما جرى له بأنه قدر محتوم وأن الحذر لا يمنع من القدر الذي هو ماضٍ في العباد وبغير إرادتهـــم نافذ قهرًا عنهم فلا سلطان لهم عليه، إذن فلماذا يعاتب المعشوق بما ليس هو فيه إلا أداة لذلك القدر الذي يسوقنا إلى حتفنا؟!

كم جريت في ميدان الأدب طلق العنان؟ وعَبَّرتَ بمحاسنك في وجوه فضلاء الزمان؟ وأتــيت بالأوابــد الفرائد والغُرر والقلائد، والملح الشوارد والمقطعات والقصائد، طالما قلت فَفَحُرَتْ الأسماع على النواظر، وكم كتبت فما نَوَّارُ الخَمَائِل النواجر[1].

كتبت فلولا أن هذا محلل وذاك حرام ... فَــشَتُّ خَطَّــكَ بالـــسُّحْرُ

فــوالله مـــا أدرى أزهـــرُ خمــيلةٍ ... بِطِرْسِــكَ[2] أَمْ دُرٌّ يلــوح على بَحْرِ

---

(١) لمـــا أن بدأ بينهم الحديث سردت له عن بعض ملائمها له بأنه قَبْلُ عَيَّر العشاق بالشوق فها هو قد وقع فيه ومن عَيَّر بشيء أخيه يوشك يقع فيه، فها أنت قد وقعت فيما به قد لُمْتَ.
فلمـــا أن بادرته بذلك علم أنها لأخباره متابعه ولأموره عارفة. ولأسراره كاشفة، فتجاهل كلامها وكأنـــه غير موجه إليه بل هو إلى غيره يراد وأنه ليس به المقصود ليتجالد أمامها ولا يظهر الخوار ويبدى من نفسه الضعف والعوار.
فبادرته بذكائها المطبوع في استهجان واستغفار مما جعل عقله كأنه من رأسه قد طار من شدة الاستغراب والاستنكار من هذه القدرة على المعرفة بالأسرار ودقة الأخبار، حيث قالت اللهم غفراً، ألست الذي سارت في الأفاق أخباره؟ وتبعتها بالأسئلة التي لا جواب لها إلا بالإقرار والتي لا يجدي معها الهروب ولا الإنكار، غير أنها كانت في كل ما تقول صادقة مهذبة بديعة أريبة أديبة كادت تفوق على محدثها ببديع عبارتها وجزالة حديثها وحسن منطقها وبلاغة حجتها فقد أسكته الجواب فحار في الرد فضلاً عن النطق بالإسهاب، فمن هذه التي أمامه وقد غابت عنه طيلة أيامه وشبابه كيف بها تسرد عليه حاله وتحضر بين يديه حقيقته وخياله، وتشعره بأنه في الحياة ذاهل عن مثلها وغافل وقد أخذته صغائر المشاغل عن عزائم الكرائم وعن الدرر النظائم والتحف النفائس فكم أثنت عليه ورفعته إلاّ أنها في الحقيقة وضعته بمعرفتها بحاله وجهله بحالها، وانشغاله عن أمثالها.
فـــيالها من حورية بديعة دهرية فلا هي لبنات جنسها تنسب، ولا لأهل الهوى تطلب بل هي درة مكـــنونة وجوهـــرة مصونة في علب الزمان مدفونة بادية للفطنات خافية عن الجهلان، لقد ساقها القـــدر إليه و أوقفها بين يديه فعليه أن يحسن اقتناص الصيد الذي حطّ عليه وسَلَّم قياده إليه فإما أن يطـــير فـــلا يعود، وإما أن يحسن وثاقه بالقود غير أنه طائر متمرد لا تصلح معه قيود الحبال والشباك فياس الحبال يمكن أن يصيده وأيها يصلح لقيده، فما أراه سوى قيد القلوب والنواظر التي توقـــع كل صائل وشاطر فليسرع بطرحه عليه ويرسل شعاع عينه إليها، فإن أصاب فقد أفلح ثم لننتظر لننظر كيف يفعل؟

(٢) الطرس: هو الصحيفة. قال ابن منظور في لسان العرب في مادة طرس: الطِّرْسُ: الصحيفة. ويقال: هي التي محيت ثم كتبت، وكذلك الطِّلْسُ.
وقال ابن سيدة: الطرس: هو الكتاب الذي محي ثم كتب، والجمع أطراس وطروس، والصاد لغة.
وقـــال اللـــيث: الطـــرس الكتاب الذي الممحو الذي يستطاع أن تُعاد عليه الكتابة، وفعلك به التطريس. وطَرَّسَهُ: أفسده.. ويقال: طرّست الصحيفة إذا انعمت محوها، وطَرّسَ الكتاب: سوَّدَه.

/[٨/أ]نسقوا لنا نسق الحساب مقدمًا وأتـــى فـــذلكَ إذا أتـــيتَ مُؤَخَّـــر

فدهـــشت من فصاحة مقالها وسحرتني بألفاظها وجمالها وحرت فما أحرت جوابًا، وقـــيدني العـــي فما أفتتحُ خطابًا وقلت: كفاك الله عين الكمال، من أين لربات الحجال شقاشق فحول الرجال، وأنَّي لهذه المضية حدّة هذه الفطنة والألمعية؟ وهل في قدرة هذه الغـــادة الظريفة الأتيان بهذه الألفاظ البليغة الشريفة؟ وخاطبتها ولُبي ذاهل ووجدي مقيم وجـــرى راحـــل، وعندي من حبها شغل شاغل، فقلت: يا أخت الغزالة والغزال وثالثة الـــشمس والهـــلال، أفحمتِ لساني عن المقال وقطعت/[٨/ب] فيِّ الجدال من الذي ينتصب لمعارضة هذه الألفاظ؟ وبما أتقى سهام هذه اللحاظ؟ وكيف لقلبي يدٌ بسحرين؟ ومن أين ليس قوة بذين؟

وَلَمَّـــا التَقَيْـــنَا وَالـــتقَا مَـــوْعِدٌ لَـــنَا تَعَجَّـــبَ رَائِـــي الـــدُّرُ مِـــنَّا وَلاقطُهْ
فَمِـــنْ لُؤْلُـــؤٍ تَجْلُـــوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا وَمِـــنْ لُؤْلُـــؤٍ عنْدَ الحَدِيْثِ تُسَاقِطُهْ(١)

[وصف الحديث] (٢)

وهم في وصف الحديث فنون ومعانٍ كلها عيون قال ابن الرومي:

حديـــثُهَا الـــسِّحرُ الحـــلالُ لـــو انَّـــهُ لم يجـــنِ قـــتلَ المـــسلم المـــتحذّر
وإن طـــال لم يُمْلَـــل وإن هي أوجزت وَدَّ المحـــــدث أنَّهـــــا لمْ توجـــــز
شـــرك العقـــول ونـــزهة مـــا مـــثلها للمطمـــئن وعقلُـــه المـــستوفز

وقال ابن حَمْدِيس الصقلي:

(١) ســـواءً الكـــلام على الشعر الوارد أو الكلام على رد المؤلف على طيف الخيال فهو يذكر أنه تائه حائـــر بين رائي الدر ولاقطه سواءً في بهائها ومنظرها وقدها وجمالها وحلو لفظها فقد جمعت بين بديع الصورة وبديع اللفظ وهذا قلَّ أن يوجد، وإن وجد فيندر بشدة بين النساء إذ إن بديع البيان يحـــتاج إلى فطاحل الأدباء وفحول الشعراء ومتمرس اللغة وعمداء الأدب وبلغاء النحو والصرف أمـــا أن يكـــون في امرأة جميلة فهذا من نوادر ما يجود به الزمان ثم كونه يقع بين يدي فحل من فحول هذا الفن فهذا ما أدهش رائي الدر قبل لاقطه.

فقـــد أدى بـــيانها وحسن لسانها وشجا لفظها إلى ذهول عقله، واضطراب قلبه، وشغفه بها وتوقه إلـــيها وهي بين يديه، وكأنه لن يراها مرة أخرى إذا انصرفت من أمامه أبد الدهر فصار في حيرة شـــديدة أيصدقها في الـــسماح لها بالانصراف أم ينصرف معها أو يصرفها إليه وهذه أمور كلها لا سلطان له عليها فيها فعليه أن يسلم لما تقوده إليه الإقرار.

(٢) زيادة من عمل المحقق غفر الله له.

/[٩/أ]ذات لفظ تجني لسمعك منه زهرًا في الرياض نداه طَلُّ
لا يمل الحديث منها معادًا كانتشاق الهواء ليس يمل[1]

وأنشدني السيد محيي الدين محمد بن الطوزي الجعفري لنفسه:

ومنطقٍ كرُضَابِ النحلِ مَازجَهُ مروق شابه بالمسك عاصِرهُ
جرى على السمع مثل الطيف خالسني وقامُ مستصحبًا للقلبِ زائِرهُ

وهكذا أشير إلى ما يعرض من المعاني أدنى إشارة، واقتصر على أخصر عبارة، فإن الإكثار داعية الملال والأنفس بالطبع لا تحب الثقل في الأحوال ولو أردت مقالاً لوجدت سبيلاً إلى المقال.

فقالت وقد حفزها وارِد الخجل، ووردَ منها مواقع القبل: أمثلي يقعقع له/[٩/ب] بالشنان أم تظن عقلي من عقول النسوان ما قدر كلامي ولو كان دُرًّا، ومبلغ بياني واستحال سحرًا عند من تُذعِنُ له جهابذة النقد ويسلم إليه أهل الحلّ والعقد، ويقر له حتى الحسود، ويعترف بفضله السيد والمسود[2].

وأرى الناس مجمعين على فضلكِ ما بين سيد ومسود
عرف العالمون فضلك بالعلم وقال الجهّال بالتقليد

---

(١) ما أجمل وأروع هذا البيت في التشبيه بغض النظر عن كون البيت في الغزل أو غيره فقد أجاد التشبيه فيما يعاد فلا يمل وهو تشبيه بليغ موفق صادف في نفسي وقعًا جميلاً لأنني كثيرًا ما أمل تكرار الحديث من أناس كثيرين أعهدهم وإذا رأيتهم علمت مقدمًا ماذا سيقولون وأكرر دائمًا لأصحابي ولمعارفي أن أضيق ما يضايقني التكرار أو الثرثرة فيما لا يفيد وكان أبي رحمه الله تعالى كثير التكرار، فأنا أقول لمن يعيد الحديث رحم الله أبي فإنه لم يمت فيفهم أنه كرر على سمعي هذا الخبر أو هذا الحديث كثيرًا، وإذا أعادت لي الحاجة (الزوجة) الحديث قلت لها: رحم الله والدي فتضحك كثيرًا، وتقول أنا أذكرك كي تترحم عليه، فقد وفق الشاعر هنا في الحديث الطيب الذي يتمنى المرء ألا ينقطع فأجاد في الوصف فإن من مَلّ التنفس مات كمدًا.

(٢) لما أن رأت منه ما رأت وعلمت منه ما علمت ومن خفقان قلبه ما جهلت انثنت تهدئ من روعه وتخفف من خوفه وتقوى من عزيمته، وتشد من أزره بتذكير ما لفضله بين الأقران وفوزه على أهل الزمان وإسلام نظراته له الزمام والسير وراءه وجعله لهذا الفن الإمام.
فذهبت تحقر من شأنها أمام علمه وعقلها أمام عقله ومكانتها بين أهل هذه الصناعة وتجعل الإقرار منها بإسلام الأئمة إليه الزمام بمثابة طوق تنطوق به له بالفضل وتعترف له بالتقدم والسبق، وأن ما قالت ما هو بالنسبة له إلا سطر في كتاب فلا يحق لها التعالي عليه بل إسلام القيادة إليه.

فقلت: أقسم(١) بقدّك الأهيف النضير، ووجهك البهي المنير، وطرفك الفاتن الفاتر، ولحظــك السّاجي الساحر، وقوامك الذّابل الناضر، وورد خدك الجني، ودرّ ثغرك النقي، وخمر ريقك الشهي، ونرجس لحظك البابلي، وليل شعرك الدُّجوجي، على صبح جبينك المضي/[١٠/أ] ودرر ثغرك التي هي بماء الحياة مطلولة، إنك أملح من شمس، وأفصح من قس، وأنور من بدر، وأغزر من بحر، وأضوأ من نهار، وأجرى ألفاظًا من صَيِّبٍ مدرارٍ، قد أبنت في هذا المقال عن حقيقة السحر الحلال، ونطقت بما يحير أرباب العلوم، ويُعجز فرسان المنثور والمنظوم، وجريت على الجُدُدِ، واستوليت على الأمد، وأفحمت فصحاء الــرجال، ولديك يُلْقِي البلغاء تخاريف العصي والحبال، فأنت أنت في الجمال والكمال، وعذوبة الألفاظ وحلاوة الدلال(٢).

---

(١) معلــوم هنا أن هذا القسم ليس قسمًا حقيقيًّا، ولكن من قبيل المبالغة وليس فيه عزم على رغم من تــرادف ما بعده عليه وكثرة ما عدد بما أقسم معه به على التدليل والتأكيد على ما يرد القسم عليه لأنــه معلوم أن القسم لا يكون بغير الله تعالى للخبر الآخر«لا تحلفوا بآبائكم» و«من كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله»، اللهم أنه ليس بتلك الأخبار جاهل ولا هو عنها ذاهل بل هو يتكلم من قبيل الفصاحة والبلاغة والغزل والتراقص بالعبارات والألفاظ فليس هذا منه بمثابة القسم.
وربما قال متقول بأنه إنما أراد القسم الحقيقي لما شاع عنه من ادعاء النبوة فأقول إن صاحب هذا القــول لــيس بمنصف إذ أنه في هذا المقام هازل وليس بجاد فربما عظم ربه عن مقام الهزل بهذه الألفاظ.

(٢) قــد بالغ في وصفها في الذكاء والفصاحة أيما مبالغة وإن كان هذا من حقها وكذا بالغ في الوصف نثــرًا وشــعرا وكذلك حسب ما يصف أرى أنه من حقها ومعلوم أنها صفات مجازية ومعلوم أن أعذب الشعر أكذبه وإذ ذلك كذلك فلا لوم عليه ولا مبالغة تذم عليه، وإن كنت أقول إن أعذب الــشعر أصــدقه غير أن واقع الشعراء يقوي قولهم، ولكن الشعراء المسلمين تجنبوا المبالغات في أشــعارهم قــدر الطاقة حتى لا يدخلوا في زمرة الشعراء المذمومين وركزوا على الحقائق والصدق وشــادوا بــه ومدحوه وجملوه تجميلاً رائعًا وهو هنا يمدح معشوقته نثرًا بعبارات جميلة وصفات بديعــة وخلال حسنة وشمائل نبيلة أطربتها أيما طرب وبلغت بها أعلى الرتب، ثم عرج إلى الشعر فــوفاها حقهــا ومستحقها بل وبوأها مبوأً حسنًا وأجلسها مجالس الأمراء في هذا الشأن وأعطاها مركــز السلطان، إذ جعل المطايا تناخ عندها والفصحاء والبلغاء يسكتون بين يديها فهذه منازل ورتب عالية قد جعلها لها بأحقية وليست له منها هدية.
ويــذهب في وصف جمالها في شعره بأن يخطئ نفسه إذ وصفها بالبدر حيث يرى أنها أبهى كثيرًا من البدر بل يجب أن يوصف البدر بها إن رقي إلى ذلك المقام ويصفها بأنها أنور من الشمس غير أن للــشمس عيوباً في وجهة نظره وهذه العيوب ليست في معشوقته فجعل الشمس لكي تقترب
=

هويـــتها كالـــبدرِ في حـــسنِها أخطــأتْ بــل أبهــى مــن الــبدر
كأنهـــا الـــشمسُ ولكـــنها تـــبدو علـــى غـــصن نقًـــا نـــضرِ
/[١٠/ب]فاقتن على كل ملاحِ الورى وفـــاقَ في أوصـــافِها الـــشعري
في ثغـــرها دَرٌّ، وفي لفظهـــا دُرٌّ وفي نظمـــــي وفي نثـــــري

فقالت: دع وصفي بما لا يصدقه وهمي وحدسي، ولا يثبت علمه في خيالي وحس، فأنــا أعــرف الناس بنفسي، وهم لنعبدها جذعة ونقل في السبب الذي لأجله لزمنا هذه الــبقعة فمعي من أترابي وصويحبات شبابي من هن في غرارة التصابي وكلهن ينتظر إيابي، وقد أضَرَّبهن لبثي، وطال عليهن مكثي، وهذا النهار والشمس جنحت إلى الأصيل ولم يبق

=

مــن جمالها فلا بدلها أن تسلب منها صفات الحرارة والإشعاع فجعلها تتوارى خلف عيدان النقا، ويقول ابن منظور عن النقا في لسان العرب قال ثعلب: النقاوى ضرب من النبت وجمعه نقاوات، والواحدة نقاوة، ونقاوى، والنقاوى: نبت بعينه له زهر أحمر.

وقــال أبو حنيفة: النقاوى تخرج عيدانًا سلبة ليس لها ورق، وإذا يبست ابيضت، والناس يغسلون بها الثياب فتتركها بيضاء بياضًا شديدًا، واحدتها نقاوة.

ثم لم يكــتف بأن جعلها تفوق بنات جنسها حسنًا وفوقها على أظهر كوكبين نراهما فإذ به يذهب إلى أنهــا أنور من سائر الكواكب بما فيها كوكب الشعرى لما له بين الكواكب من المنزلة الرفيعة التي جعلت بعض الناس يعبدونه.

وقد قال ابن منظور عن الشعرى في لسان العرب: الشعرى: كوكب نَيِّرٌ يقال له: المِرْزَم يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر، تقول العرب: إذا طلعت الشِّعْرَى جعل صاحب النخل يرى. وهما الــشعريان: العــبور التي في الجوزاء. والغميصاء التي في الذّراع. وتزعم العرب أنهما أختا سهيل. وطلوع الشمس على أثر طلوع الهقعة. وعَبَدَ الشعرى العبور طائفة من العرب في الجاهلية.

ويقــال: إنهــا عــبرت الــسماء عرضًا ولم يعرها عرضًا غيرها، فأنزل الله تعالى: (وأنه هو رب الشِّعْرَى) أي رب الشعرى التي تعبدونها.

وسميت الأخرى بالغميصاء لأن العرب قالت في أحاديثها: أنها بكت على أثر العبور حتى غَمِصَتْ ثم راح ينتــر الدر حولها من كل مكان، فقال: أن الدر يتحدر من بين ثناياها ومن فمها ومن بين شــفتيها وحــتى ملأ ما حولها حتى أنه أصابه منها ما جعل شعره ونثره درًا فقد أفاضت عليه بهذا الحــسن والــبهاء والجلال والجمال حتى لكأن الدنيا كلها تتلألأ بين يديه ويديها وتزهو وتزدهر وتلــبس أحــسن ثيابها، وكأنه معها في عرس بهي وجو هادئ صفي ونسيم ربيع ندى دب في كل كيانه وأناض على الكون من حوله حتى لكأنه يعيش حلما جميلا، وعلى الحقيقة فإن كل ما يقوله ما هو إلا حلم يقظة وطيف خيال.

سوى الرحيل قد ذهب غير القليل، فأبِنَ عَمَّا في الضمير، وسَل عن الفتيل والنقير[١].

فشكوت إليها غلبة الهوى/[١١/أ] وموجبات الجوى والخوف من عادية النوى.

فانـــصاعت متبسمة وعادت متكلمة وقالت: يا فديتك أترفع ذيلك قبل المخاض، وتدعـــي الـــسغب قبل الأنقاض، كيف تشكو الغرام و أوصابه وتستمقر ذعافهُ وَصَابَه، وتعـــدد الـــوجد والقلق، وتصف السهر والأرق؟ وتدعي مسامرة النجم ومساورة الهم ومكابدة الغليل والسهر سحابة الليل الطويل حتى وصلت السهاد، وهجرت النوم، وإنما كانت هذه المعرفة اليوم؟!

أشـــوقًا ولم تمـــضِ غـــير لـــيلة فكـــيف إذا راح المطـــيّ بنا عشر

وكـــيف تقـــدمت هذه الأسباب على مسببها وهو محال؟! أم كيف أردت خداعي وطالمـــا خـــدع النساء/[١١/ب] الرجال قدرتك على هذا الشأن ومعرفتك بعلم البيان أجرت على لسانك الخَلُوب ما ليس له صورة في القلوب؟ فقلت قادرًا وتلهو سادرًا[٢]؟ لا

(١) لقـــد كـــان في ردها عليه بعد هذا الإطراء منه لها ما كان أفحم له مما كان قبله إذا قالت له: دع وصـــفي بما لا يصدقه وهمي وحدْسي ولا يثبت علمه في خيال:... إلخ وكأنها تقول له دعك من المجـــاملات الـــزائدة وخذ في الجد ودع الهزل وخذ في الفعل، ماذا تريد مني فقد أطلت في إيقافي أمامك ومعي من ينتظرني لأذهب إلى أمري وشاني وأصِل أهلي وخلاني، ودعك من التصابي الذي هـــو لـــيس من صفاتك ولا صفاتي وسل عن ما تريد معرفته من حالي وأحوالي وأنا على استعداد لأن أجيـــبك عـــن كل سؤال دق أو عظم صغر أو كبر جاز أو مُنع فلك الحق في السؤال عن كل شيء فقد أبحت لك السؤال وألزمت نفسي بالجواب مهما كانت الموانع أو الأسباب.

(٢) لقـــد كـــشفت لـــه وبالحجة القوية عن وهي ما يقول، وكذب ما يدعي إذ كيف يسبق السبب المسبب، ثم هي تتعجب منه بأن يحاول أن يحل محلها بمعنى كيف يخدع الرجل المرأة والمرأة إنما هذا هو سلاحها، وكأنه تقول له بالمثل الشعبي المصري: «هتبيع المية في حارة السقايين» والمثل الشعبي القائل: «علمناهم الشحاتة سبقونا على الأبواب» فإن مثل هذا القول لا ينطلي على مثلي مهما أوتيت من فصاحة وبلاغة وسحر بيان فإن هذا إنما هو من شأن النسوان فهن اللواتي مهرن فيه واشتهرن به فكيف يحق لك أن تخوض هذا المخاض أو تنزل إلى هذا البحر المتلاطم الأمواج بغير ما أداة لخوضه بل وإمام أساطين ملاحية ومن سبر عبابه وتربي في لجاجه وبين أمواجه، عليك أن تبحث عن غيرها فلربما تفلح فيها وقد دللت له على عدم نجاحه في دعواه بأدلة كثيرة برهنت بها على أنها لم ينطلِ عليها ذلك.

ثم انـــبرت عند قسمها بعدم تصديقه بان تصفه بأبهى وصف وأحلى رسم وذلك ردًا منها على ما قدم هو في وصفها وحسن ثنائه عليها فكيف لا ترد هذا الجميل الفعل النبيل بخير منه إن لم يكن مـــثله فراحت تقول له ما أذهل عقله على الرغم من بيانه وكشفها له عن أنها علمت أن ذلك منه مبالغة، وأنه ليس بحاله مما جعله في حيرة أشد من حيرته الأولى وذهل كان أن يجهر على ما بقي

=

ومن زين صُبْحَ الجبين بليل الشَّعر، وغرس في عذب الرضاب صغار الدرر، وخلق أقمارًا أرضـــية أبهـــى من الشمس، وأحسن من القمر، وجَمَّل العيون بالكَحْل، ونصب الخدود أغراضًـــا لمواقع القُبَل، وأجرى فيها ماء الحياء فأنبتت ورد الخجل وأبدع في الجمع بين يواقـــيت الـــشفاة ونرجس المُقَل، واطلع في أغصان القدود رمان النهود، وأرسل وارد الـــشعور إلى الأرداف والخـــصور، وجعل الأُسُود الغُلْبَ فرائس/[١٢/أ] نحور الحور[١].

لست ممن يغتر بالأقوال المزخرفة، ولا ينخدع بالأسجاع المصففة، حتى استعلم أخبارك وافـــتض آثارك، وأسبر أحوالك، وأعلم ما عليك ممالك وأرود مرادك، فأتحقق مرادك، وأسأل عما عندك فؤادك، فإذا استحكم بك الهيام، وتمكن من قلبك الغرام وأخبرت بما تعاني، وعرفت بالتجربة هذه المعاني، ونطق لسانك بما في قلبك، وظهرت شواهد الصدق على حبك، وشكوت مرارة الفراق، وذقت بعده حلاوة التلاق، وجربت ما قيل في سَهَرِ الليل وطوله وثبات نجومه، وبطء قفوله، فهنالك إلى الاختيار/[١٢/ب] واشف قلبًا قد أَضَرَّ به الوجيب وجفنًا أقرحه البكاء والنحيب.

مَـــنْ زَارَنِـــي قَـــبَلْتُ عَيْنَ رَسُولِي ظَـــنَّ أَنَّ الرَّسُـــول جَـــاءَ بِـــسُولِي
إِنَّمـــا حِـــيْنَ قَالَ أَبْصَرْتُ مَأْمُولَكَ قَـــبَّلْتُ مَـــنْ رَأَى مَأْمُولِـــي
إِنْ عَيْـــنًا تَأَمَّلَـــتْ ذَاكَ الـــوَجْهُ أَحَـــقّ العُـــيُون بِالتَّقْبِـــيْلِ[٢]

=

معه من التماثل والمثول أمامها قبل السقوط بين يديها والذبول أمام عينيها.

(١) أصـــابت هـــي في اختيار القسم وأضافت إلى الله إذ قالت: لا ومن زين صبح الجبين بليل الشعر، وغـــرس... الخ فبرهنت له بذلك أنه صاحبت الحق في هذا المجال وكيف يمكنها أن تكون جاهزة لاستخدام في كل وقت وعلى أي حال وبأسرع من أنبل الرجال وأذكى من هو أسرع في الجواب من الإتيان بالصواب، ووضعه في موضعه بالنصاب دون أخلال أو طناب وبلا خوف أو اضطراب لتخلع به من الرجال لبَّ الألباب وفي سهولة وبرضا وبلا اغتصاب.

(٢) ليس هذا بالغريب من قول الشاعر: فقد سبقه من قال:

أمـــر علـــى الـــديار ديـــار ليلـــى أقـــبل ذا الجـــدار وذا الجـــدار
فمـــا حـــبّ الجـــدار شـــغفن قلـــبي ولكـــن حـــب مـــن ســـكن الجـــدار

وهـــذه عادة وصفة واضحة متكررة في العشاق إذ يحبون أن يروا من رأى أحبابهم ويسمعوا حديثه، ويـــستعيدوا مـــنه الخبر والحديث ولا يملون من تكراره وقد يَمَلُّ هو من تكرار الرد أو القول لكنهم يـــستزيدونه ويحثونه على الكلام حثًا ليستمتعوا بخبر أحبائهم وكأنهم يرونهم ويسمعونهم وهم بذلك يطمئنون على أخبارهم ويخففون من حدة نار الشوق والضنا وبعد المنال فلا أقل من السؤال.

قل ولا تكتم فتيلاً ولا تفترْ وأعد حديثهم وردد تكريرًا:

أَعِــــدْ ذِكْــــرَ نَعْمَــــانٍ أَعِــــدْ ... إِنَّ ذِكْــــرَهُ مَــــا كَــــرَّرْتَهُ يَتَــــضَوَّعُ

فــإن قــرَّ قلــبي فاتهمــه وقلْ لهُ ... بمــن أنــت بعــد العامــرية مولعُ

ولــو أن هــذا الدمع يجري صبابةً ... علــى غــير ليلي قلت دمع مضيعُ

لقــيت أمــورًا فــيك لم ألقَ مثلها ... وأعظــمُ مــنها مــنك مَــا أتوقعُ

فقــال: إذا تبعتهن وهن يتمايلن هيفًا ولينًا ويتلفتن شمالاً ويمينًا فتظنهن أغصانًا لِدَانًا نُقِّــل أثمارًا سافرةً وظباءً عِينًا/[١٣/أ] سترن المحاسن إلاّ العيونا كما يشهد المعرك الدار عيونا.

ســـــللنَ سُـــــيوفًا ولا قينـــــنا ... فـــلا تـــسألِ الـــيومَ مـــاذا لَقِيـــنَا

يمـــشين على تؤدة وسكون، وقد حبسن الأبصار وتمنطقن بالعيون[1]، وقد أجاد أبو الطيب حيث قال:

وَخَــــصْرٌ تَثْــــبُتُ الأَبْــــصَارُ فِــــيْهِ ... كَــــأَنَّ عَلَــــيْهِ مِــــنْ حِــــدَقٍ نِطَاقَا

وقال القاضي الأَرَّجَانِي:

جَــــاءَتْ بِقَــــدٍ كَالْقَــــضِيْبِ غَــــدَا ... بِلَــــوَا حِــــظِ العُــــشَّاقِ مُنْــــتَطِقَا

وَبَــــدَتْ وَقَــــدْ أَبْــــدَتْ مَحَاسِــــنَهَا ... خَمْــــسًا تُبِــــيْنُ عُــــذْرَ مَنْ عَشِقَا

لَــــيْلاً عَلَــــى صُــــبْحٍ عَلَــــى قَمَــــرٍ ... فِــــي غُــــصْنِ بَــــانٍ فِي قَضِيبِ نَقَا

وَنَوَاظِــــرًا مَخْلَــــوْقَةً فِتَــــنًا ... قطَعَــــتْ عَلَــــى أَبْصَارِنَا الطُّرُقَا[2]

---

(١) هــذا واصــف جــيد يصف له كيف لقي؟ وكيف رأى؟ وكيف أقمن؟ وكيف انصرفن؟ وكيف تحركن؟ وحكى مشيتهن كيف كانت؟ ولحظهن كيف فتن؟ وسترهن المحاسن بالنقاب وكأنه يقيمه مكانــه فلكأنه حضر المشهد لم يخبر به فقد نقل له صورة حية متحركة أمامه وكأنه قد صاحب الــركب وسمــع الــصوت وأحسّ بالحركة وطرق القلب وهفهفة الثياب ودبيب الأرجل وتمايل الأجــسام وإشاحات الأيادي فماذا هو طالب أكثر من هذا لقد حل خياله محل ناظره وسمعه محل خاطــره قلــبه مصافحًا محل يده مودعًا، ودموعه تنساب لتسير فيها مراكب الشوق بهم إلى محل ديارهم في أمان.

(٢) أتكلم عن الشعر ثم أترجم الشاعر. أما الشعر فقد جاء رائعًا فائقًا في الحسن وغاية في جمال التشبيه والكــناية فقد وصف شعرها بسواد الليل وجبينها بإشراقة الضحى واستدارة وجهها وجماله ببهاء القمر وقدّها وهيافها بالبان والنقا، ووصف العيون بالحور الدلال والقتال والفتن والسهام والصرع والتردي فمن كل ما يتسلح به قطاع الطرق فلك أن تصف به لحظ نواظرها حتى أنها لتجردك من =

=

كـــل مالـــك وما تملك وتصير وكأنك ليس لكل سلطان حتى على نفسك وروحك وسكناتك وحركاتك فقد سلبتك من كل شيء، فأي شيء أبلغ من هذا في وصفه؟
أما عن الشاعر فقد جاءت ترجمته في مصادر عديدة أذكر لك منها:
ســـير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢١٠)، الأنـساب (١/ ١٧٤) المنتظم (١٠/ ١٣٩)، معجم البلدان (١/ ١٤٤)، الكامــــل في التاريخ (١١/ ١٤٧)، وفيات الأعيان (١/ ١٥١)، المختصر (٢/ ٤٩)، الوافي (٧/ ٣٧٣)، تذكـــرة الحفاظ (٤/ ١٣٠٦)، دول الإسلام (٢/ ٦٠)، العبر (٤/ ١٢١)، مرآة الجنان (٣/ ٢٨١)، معاهـــد التنـــصيص (٣/ ٤١)، شذرات الذهب (٤/ ١٣٧) وقال فيها في سنة أربع وأربعين وخمسمائة:
وفـــيها تـــوفي القاضي ناصح الدين أبو بكر الأرجاني أحمد بن محمد بن الحسين قاضي تستر، وحامل لـــواء الـــشعر بالشرق، وله ديوان مشهور. وروى عن ابن ماجه والأبهري، وتوفي في ربيع الأول وقد شاخ.
وأرجّـــان مـــشددًا بلد صغير من عمل الأهواز، وقال ابن خلكان: منبت شجرته أرجان وموطن أســـرته تستر وعـــسكر مكرم من فوزستان، وهو وإن كان في العجم مولده فمن العرب محتده سلفه القـــديم مـــن الأنصار لم تسمح بنظيره سالف الأعصار أوسي الأس خزرجية قسي النطق إيادية، فـــارس القلم، وفارس ميدانه، وسلمان برهانه، من أبناء فارس الذين نالوا العلم المتعلق بالثريا جمع بين العذوبة والطيب في الري والريا. انتهى كلام العماد.
وقال ابن خلكان أيضًا: وكان فقيها شاعرًا وفي ذلك يقول:

أنـــا أشـــعر الفقهـــاء غـــير مدافـــع ... في العـــصر أو أنـــا أفقـــه الـــشعراء
شـــعري إذا مـــا قلـــت دَوَّنَـــه الـــورى ... بالطـــبع لا يـــتكلف إلا لقـــاءِ
كالـــصوت في ظـــل الجـــبال إذا عـــلا ... للـــسمع هـــاج تجـــاوب الأصـــداء

ومن شعره أيضًا:

شـــاور ســـواك إذا نابـــتك نائـــبة ... يـــومًا وإن كـــنت مـــن أهل المشورات
فـــالعين تنظـــر مـــنها مـــا نـــأى ودنا ... ولا تـــرى نفـــسها إلاّ بمـــرآة

ومن شعره وهو معنى غريب:

رشـــا لي وقـــد ســـاورته في نحـــو لـــه ... خـــيالي لمـــا لم يكـــن لي راحـــم
فـــدلس بي حـــتى طـــرقت مكانـــه ... وأوهمـــت إلفـــي أنـــه بي حـــالم
وبتـــنا ولم يـــشعر بـــنا الـــناس لـــيلة ... أنـــا ســـاهر في جفـــنه وهـــو نـــائم

وله أيضًا:

لـــو كـــنت أجهـــل مـــا علمت لسرني ... جهلـــي كمـــا قـــد ســـاءني مـــا أعلم
كالـــصقر يـــرتع في الـــرياض وإنمـــا ... حـــبس الهـــزار لأنـــه يتـــرنم

ولـــه ديـــوان شعر فيه كل معنى لطيف، ومولده سنة ستين وأربعمائة، وتوفي بمدينة تستر، وقيل: بعسكر مكر رحمه الله.

وبينهن سيدة قلبك، وخازنة حبك، وسالبة لُبك/[١٣/ب] وصاحبة هواك المخامر وجالبة همك المسامر، وهي تفوقهن جمالاً وتعلوهن كمالاً تفتن دلالاً، وتسبي العقول ميلاً واعتدالاً.

وقال البحتري(١):

(١) هو شاعر وقته وقد صنفت في سيرته المصنفات وألفت في دواوينه الكتب وله تراجم عديدة أذكر منها لك هنا على سبيل الاختصار:

الأغاني (٢١/ ٣٩)، تاريخ ابن عساكر (١٧/٤٢٦) المنتظم (٦/١١)، العبر (٢/٧٣)، البداية والنهاية (١١/٧٦)، سير أعلام النبلاء (١٣/٤٨٦)، معجم الأدباء (٩/٢٤٨)، معجم البلدان (منبج) وفيات الأعيان (٦/ ٢١)، شذرات الذهب (٢/ ١٨٦)، تاريخ بغداد (١٣/ ٤٧٦) وقال فيه: الوليد بن عبيد أبو عبادة الطائي البحتري من أهل منبج بها ولد ونشا وتأدب وخرج منها إلى العراق فمدح جعفرًا المتوكل على الله وخلقًا من الأكابر والرؤساء وأقام ببغداد دهرًا طويلاً، ثم عاد إلى بلده فمات به وقد روى عنه أشياء من شعره محمد بن يزيد المبرد، ومحمد بن خلف بن المرزبان، والقاضي أبو عبد الله المحاملي ومحمد بن أحمد الحكيمي، ومحمد بن يحيى الصولي، وعبد الله بن جعفر النحوي وغيرهم.

... أخبرني محمد بن يحيى قال أملى عليَّ أبو الغوث يحيى بن البحتري نسب أبيه بالرقة سنة إحدى وتسعين ومائتين فقال:

هو: الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شملان بن جابر بن سلمة بن الحارث بن خثيم بن أبي حارثة بن جدي بن تدول بن بحتر بن عتود ابن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن جهلمة – وهو طيء- بن أدد بن زيد ابن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

وقال المرزباني وجدت بخط أبي الحسن أحمد بن يحيى المنجم قال حدثني أبو الغوث، قال: ولد أبي سنة مائتين. قال المرزباني: وقال أبو عثمان الناجم: ولد البحتري سنة ست ومائتين....

وقال كان أبي يكنى أبا الحسن، وأبا عبادة، فأشير عليه في أيام المتوكل أن يقتصر على أبي عبادة فإنه أشهر... وهو تسامر من أهل منبج من أعمال جند قنسرين وبها مولده، منشأه، ووفاته.

... حدثني صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي قال: رأيت البحتري ها هنا عندما قبل أن يخرج إلى العراق يجتاز بنا في الجامع من هذا الباب إلى هذا الباب- وأومأ إلى جنب المسجد يمدح أصحاب البصل، والباذنجان، وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه، ثم كان منه ما كان.

... أخبرنا الصولي قال سمعت أبا محمد بن عبد الله بن الحسين ابن سعد القطر بلي يقول للبحتري وقد اجتمعا في دار عبد الله بن المعتز بالخلد، وعنده أبو العباس محمد بن يزيد المبرد وذلك في سنة ست وسبعين ومائتين، وقد أنشد البحتري شعرًا في معنى قد قال في مثله أبو تمام، فقال له: أنت أشعر في هذا من أبي تمام، فقال: كلا والله، ذاك الرئيس الأستاذ، والله ما أكلت الخبز إلاّ به. فقال له المبرد: يا الحسن تأبى إلاّ شرفًا من جميع جوانبك.

=

أُعْطِيَتْ بَسْطَةً عَلَى النَّاسِ حَتَّى هِيَ صِنْفٌ والحُسْنُ فِي النَّاسِ صِنْفُ
نَعْمَةُ الغُصْنِ تَوَدّ عَطْفَ مِنْهُ عَنْ زَهْرَةٍ تُماسِكُ عَطْفُ

فلم أزل أقص آثارهن، وأجلو أخبارهن حتى وصلن دجلة، وقد طما عبابها، وزخر وهما ماؤها، وهَما وطغا مدها، وقهر ونهى السيل فيها وأمر فكأن الموج هضاب أو إبل صعاب أو قطع سحاب أو ليل ضد واجتناب، والسنن كأنها عقارب أذنابها شائلة، وهي على مثل الصرح المذاب جائلة/[١٤/أ] كما قال السري الرفاء الموصلي(١):

...وقال محمد بن يحيى حدثني أبو الغوث، وقال: قال ابي: انشدت أبا تمام شعرًا لي في بعض بني حميد، وصلت به إلى مال له خطر، فقال لي: أحسنت، أنت أمير الشعر بعدي، فكان قوله هذا أحب إليّ من جميع ما حويته.

... قال روي عن أبي الغوث: أن أباه مات سنة ثلاث وثمانين ومائتين.

وأخبرني التنوخي أخبرنا المرزباني أن محمد بن يحيى أخبري قال مات البحتري بمنبج - وقيل: بحلب - في أول سنة خمس وثمانين ومائتين، وقيل: في آخر سنة أربع وثمانين ومائتين. ومولده سنة ست ومائتين.

(١) هو: أبو الحسن السري بن أحمد الكندي الرفاء الموصلي الشاعر المحسن المجيد البغدادي من صاحب الدواوين المشهورة ومصادر ترجمته كثيرة أذكر منها في هذا المقام:

يتيمة الدهر (١٧٧/٢)، تاريخ بغداد (١٩٤/٩)، الأنساب (١٤١/٦)، المنتظم (٦٢/٧)، معجم الأدباء (١٨٢/١١)، وفيات الأعيان (٣٥٩/٢)، سير أعلام النبلاء (٢١٨/١٦) العبر (٣٥٧/٢)، عيون التواريخ (١٩٤/١١ مخطوط) البداية والنهاية (٢٧٠/١١) النجوم الزاهرة (٦٧/٤)، هدية العارفين (٣٨٣/١)، شذرات الذهب (٧٣/٣) وقال فيه:

الرفاء الشاعر أبو الحسن السري بن أحمد الكندي الموصلي صاحب الديوان المشهور.

مدح سيف الدولة والوزير المهلبي، والأكابر، قال ابن خلكان: كان في صباه يرفو، ويطرز في دكان بالموصل، وهو مع ذلك يتولع بالأدب وينظم الشعر، ولم يزل حتى جاد شعره ومهر فيه، وقصد سيف الدولة ابن حمدان بحلب وأقام عنده مدة، ثم انتقل بعد وفاته إلى بغداد، ومدح الوزير المهلبي وجماعة من رؤسائها، ونفق شعره وراج وكان بينه وبين أبي بكر محمد، وأبي عثمان سعيد بن هشام الخالديين الموصليين الشاعرين المشهورين معاداة فادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره.

وكان السري مغريًا بنسخ ديوان كشاجم الشاعر المشهور، وهو إذ ذاك ريحان الأدب بتلك البلاد، والسري في طريقه يذهب، فكان يدس فيما يكتب من شعره أحسن شعر الخالديين ليزيد في حجم ما ينسخه وينفق سوقه، ويعلي شعره بذلك عليهما ويغض منهما، فمن هذه الجهة وقفت في بعض النسخ من ديوان كشجام على زيادات ليست في الأصول المشهورة.

ولا وصـــــل إلاّ أن أروح ملجمًـــــا على أدهـــمَ من فوقِ أخضرَ مزبدِ
شـــوائب أذنـــاب تخـــال أنهـــا عقـــاربُ دبـــت فوق صرحٍ ممردِ
وقال البحتري:

وكـــان شاعرًا مطبوعًا عذب الألفاظ مليح المأخذ كثير الافتنان في الأوصاف، ولم يكن له رواء، ولا منظر، ولا يحسن من العلوم غير قول الشعر ومن شعر السري المذكور:

وكانـــت الإبـــرة فـــيما مـــضى صـــائنة وجهـــي وأشـــعاري
فاصـــبح الـــرزق بهـــا ضـــيقا كأنـــه مـــن ثقـــبها جـــار

...ومن عزر شعره في التشبيب:

بنفـــسي مـــن أجـــود لـــه بنفـــسي ويـــبخل بالتحـــية والـــسلام
وحتفـــي كَـــامِنٌ في مقـــالتي كمـــون المـــوت في حـــد الحـــسام

وله كتاب المحبة والمحبوب والمشموم والمشروب وكانت وفاته سنة نيف وستين وثلاثمائة انتهى ما أورده ابن خلكان ملخصًا.

وقال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد:

كـــان بينه وبين أبي بكر وأبي عثمان محمد وسعيد بن هشام الخالديين حالة غير جميلة ولبعضهم في بعـــض أهاجي كثيرة، فآذاه الخالديان أذىً شديدًا وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره، فانحدر إلى بغـــداد ومـــدح بها الوزير أبا محمد المهلبي فانحدر الخالديان، وراءه، ودخلا إلى المهلبي وثلبا ثريا عنده فلم يحظ منه بطائل وحصلا في جملة المهلبي ينادمانه، وجعلا هجيراهما ثلب سرى والوقيعة فـــيه، ودخـــلا إلى الرؤســـاء، وإلى الكبار ببغداد، ففعلا به مثل ذلك عندهما، وأقام ببغداد يتظلم منهما، ويهجوهما.

ويقـــال: إنـــه عُدم القوت فضلاً عن غيره، ودفع إلى الوراقة فجلس يورق شعره ويبيعه، ثم نسخ لغـــيره بالأجـــر، وركـــبه الدَّين، ومات ببغداد على تلك الحال بعد سنة ستين وثلاثمائة. وكان الحـــسين بـــن محمد بن جعفر الخالع يزعم أنه سمع منه ديوان شعره، وقد روي عنه: أحمد بن علي المعروف بالهايم، وغيره.

أخـــبرنا علي بن أبي علي قال أنشدنا أحمد بن علي المعروف بالهائم قال أنشدنا السري بن أحمد الرفاء لنفسه وكتب به إلى صديق له كان أهدى إليه قدحًا حسنًا فسقط من يده فانكسر:

يـــا مـــن لديـــه العفـــاف والـــورع ومـــيمتاه العـــلاء والـــرفع
كاســـك قـــد فـــرقت مفاصـــله بـــين الندامـــى فلـــيس يجـــتمع
كأنمـــا الـــشمس بيـــنهما ســـقطت فجـــسمها في أكفهـــم قطـــع
لـــو لم أكـــن واثقًـــا بمـــشبهه مـــنك لكـــاد الفـــؤاد ينـــصدع
فجـــد بـــه بدعـــة فعـــندي مـــن جـــودك أشـــياء كلـــها بـــدع

ورمت بنا سَمْتَ العراق أيانق سُحم الخدود لغامهن الطحلب

من كل طائرة بخمس خوافق دعج كما ذعر الظليم المهذب

قلت: ويلكَ خلِّ علم البيان وعرفني حقيقة الشأن.

قال: فجلسن على شاطئ دجلة متأسفات على الجسور، مخوفات من العبور، حذرات من ركوب السفن في هذا التيار، مشفقات من خوض ذلك الغمار، دهشات من اقتراب ذلك البحر الزخار، وأنا بحيث أراهم/[١٤/ب] وأسمع نجواهم، قال علي بن يزيد الرقاع العاملي:

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جاء ذِرجَا سِم

وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سِنَةٌ وليس بنائم

فقالت إحداهن: لو علمنا أنّا ندفع إلى هذا الخطر، وتقدم على هذا الغرر، لما تحلحلت من هذا المكان ولسلمت أمرنا الليلة إلى فلان- تعنيك بالاسم واللقب، وتأتي من شكرك بالعجب- فهو يحب الضيف المفاجئ في الليل الراجي، ويميل إلى الطارق في الجنح الغاسق، يهش مبتسمًا وينشد مترنمًا — قال حاتم:

أوقدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قُرّ والريح يا واقد ريح صِرّ

عسى يرى نارَكَ من يمرّ إن جلبتْ ضيفًا فأنت حُرّ(١)

(١) هذا الشعر شعر حاتم الطائي وهو عنوان الكرم وإليه المنتهى فيه في الجاهلية وهو معروف مشهور، وهو جاهلي لا إسلامي وقد ترجم له الدينوري في الشعر والشعراء (ص ٣٩) فمما قال في ترجمته: هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج وأمه: عتبة بنت عفيف من طيء.

وكان جوادًا وشاعرًا، وكان حيثما نزل عرف منزله وكان ظفرًا إذا قاتل غلب، وإذا غنم نهب، وإذا سُئل وهب، وإذا ضرب بالقدح سبق، وإذا أسر أطلق.

ومَرّ في سفر له على عنزة وفيهم أسير فاستغاث به، ولم يحضر فكاكه فساوم به العنزيين، واشتراه، وأقام مكانه في القيد حتى أدى فداءه وقسم ماله بضع عشرة مرة.

قال أبو عبيد: أجود العرب ثلاثة: كعب بن مامة وحاتم طيء، وكلاهما ضرب به المثل، وهرم بن سنان صاحب زهير.

وكانت لحاتم قدور عظام بفنائه عل الأثافي لا تنزل عنها، فإذا أهلّ رجب نحر كل يوم وأطعم، وكان أبوه جعله في إبل له وهو غلام فمر به عبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي حزام والنابغة الزبياني يريدون النعمان فنحر لكل رجل منهم بعيراً، وهو لا يعرفهم، ثم سألهم عن أسمائهم، فتسموا له، نفرق فيهم الإبل، وجاء إلى أبيه وقال: يا أبتِ طوقتك بمجد الدهر، طوق الحمامة، وحدثه بما صنع، فقال أبوه: إذًا لا أساكنك، قال: إذًا لا أبالي، فاعتزله.

وكانت أمه عتبة لا تليف شيئًا سخاءً وجودًا، وكان إخوتها يمنعونها من ذلك، وتأبى عليهم، =

وكانت موسرة، فحبسوها في بيتها سنة يرزقونها فيه شيئًا معلومًا لعلها تكف عما هي عليه إذا ذاقت طعم البؤس وعرفت فضل الغنى، ثم أخرجوها، ودفعوا إليها صرمة من مالها، فأتتها امرأة من هوازن فسألتها، فقالت لها: دونك الصرمة فقد والله مسنا من الجوع ما آليت معه أن لا أمنع سائلاً شيئًا، فقالت:

لعمري لقد عضني الجوع عضة فآليت أن لا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائم الآن اعفني فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا
فهل ما ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركي يا ابن أمي الطبائعا

قال عدي بن حاتم: كان حاتم رجلاً طويل الصمت وكان يقول: إذا كان يكفيك تركه فاتركه.

وقالت امرأته النوار: أصابتني سنة اقشعرت لها الأرض، واغبرت الآفاق، فضنت المراضيع عن أولادها فما تبض بقطرة، وراحت الإبل حدبًا حدابيس، وحلقت السنة المال، وأيقنا أنه الهلاك، فوالله إني لفي صبر الليلة شديدة البرودة بعيدة ما بين الطرفين إذ تضاغي أصبيتنا من الجوع: عبد الله، وعدي وسفانة، فقام حاتم إلى الصبيين وقمت إلى الصبية، فوالله ما سكتوا إلاّ بعد هداة من الليل، وأقبل يعللني بالحديث فعلمت الذي يريد فتناومت، فلما تجورت النجوم إذ شيء قد رفع كسر البيت، فقال: من هذا؟ فذهب، ثم عاد فقال: من هذا؟ فذهب، ثم عاد في آخر الليل، فقال: من هذا؟ فقال: جارتك فلانة أتتك من عند أصبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع فما أجد معولا إلا عليك أبا عدي، فقال: أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم، فأقامت المرأة تحمل اثنين ويمشي جنباتها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها، فقام إلى فرسه فوجأ لبته بمدية، ثم كشط، ودفع المدية إلى المرأة وقال شأنك الآن، فاجتمعوا على اللحم فقال: سوءة أتأكلون دون الصريم، ثم أقبل يأتيهم بيتًا بيتًا ويقول: هبوا أيها القوم عليكم بالنار فاجتمعوا، والتفع ناحية بثوبه ينظر إلينا، ولا والله، ما ذاق منه مضغة، وإنه لأحوج إليه منا، فأصبحنا وما على الأرض إلاّ عظم وحافر، فعذلته على ذلك، فقال:

مهلاً نوار أقلي اللوم والعزال ولا تقولي لشيء فات ما فعلا

وأن حاتمًا أتى ماوية بنت عفزر يخطبها، فوجد عندها النابغة الذبياني، ورجلا من النبيت يخطبانها، فقالت: انقلبوا إلى رحالكم وليقل كل واحد منكما شعرًا يذكر فيه فعله ومنصبه فإني متزوجة أكرمكما وأشعركما، فانطلقوا ونحر كل واحد منهما جزورًا، ولبست ماوية ثياب أمة لها، وأتبعتهم، فأتت النبيتي، فاستطعمته، فأطعمها ذنب جزور، فأخذتها. وأتت النابغة فأطعمها مثل ذلك، وأتت حاتم فأطعمها عظمًا من العجز، وقطعة من السنام وقطعة من الحارك، فانصرفت وأهدى لها كل رجل منهما باقي جزوره، وأهدى لها حاتم مثل ما أهدى لها واحد من جاراته، وصبحها النوم، فأنشدها النابغة:

هلا سألت هداك الله ما حسبي إذ الدخان تغشى الأشمط البرما
إني أتمم أيساري وأمنحهم مثنى الإيادي وأكسو الجفنة الأدما

وأنشدها البنيتي:

هلا سألت هداك الله ما حسبي … عند الشدائد ما هبت الريح
إذا اللقاح غدت ملقى أصرتها … ولا كريم من الولدان مصبوح

وأنشدها حاتم:

أماوي إن المال غاد ورائح … ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوي إني لا أقول لسائل … إذا جاء يوم حلّ في مالنا نذر
أماوي أما مانع فتبين … وإما عطاء لا ينهنهه الزجر
اماوي إن يصبح صداي بقفرة … من الأرض لا ماء لدي ولا خمر
ترى ما أنفقت لم يك ضرني … وإن يدي مما بخلت به صفر
وقد علم الأقوام لو أن حاتمًا … أراد ثراء المال كان له وفر

فلما فرغوا من أنشادهم دعت بالمائدة وقدمت إلى كل رجل ما كان أطعمها، فنكس البنيتي، والنابغة رؤوسهما، فلما رأى حاتم ذلك رمى بالذي قدم لهما وأطعمهما مما قدم إليه فتسللا لواذا فتزوجت حاتم وفيها يقول:

وإني لمنحاز المطيّ على الوجى … وما أنا من خلانك ابنه عفزرا
فلا تسأليني واسألي أي فارس … إذا الخيل جالت في قنا قد تكسرا
وإني لو هاب قطوعي وناقتي … إذا ما انتسبت والكميت المصدرا
وإني كاشلاء اللجام ولن ترى … أخا الحرب إلا ساهم الوجه أغبرا
أخو الحرب أن عضت به الحرب عضها … وإن شمرت يوما به الحرب شمرا

وكانت من بنات ملوك اليمن. ويقال: إن عديًا بن حاتم منها، ويقال: من النوار، وعقب حاتم من ولده عبد الله، وليس له عقب من الذكور غيره.

ومما سبق إليه فأخذ منه قوله:

إذا كان بعض المال ربًا لأهله … فمالي بحمد الله رب معبد

أخذه حطايط بن يعفر فقال:

ذريني أكن للمال ربًا ولا يكن … لي المال ربًا تحمدي غبه غدًا
أريني جوادًا مات هزلاً لعلني … أرى ما ترين أو بخيلاً مخلدا

ويستحسن قوله:

ألا أبلغا رهم بن عمرو رسالة … فإنك أنت المرء بالخير أجدر
رأيتك أدنى من إناس قرابة … وغيرك منهم كنت أحبو وانصر
إذا ما أتى يوم يفرق بيننا … بموت فكن أنت الذي يتأخر

وقوله:

هذان أخلاق أجرى من الزُّلال، وأرق من نسيم الشمال، وأشعار/[١٥/أ] كالسحر الحلال، وأخبار أطيب من ذكر ليالي الوصال. قال البحتري:

مـــن معـــانٍ لـــو فـــصلتها القوافي هجـــنت شـــعر جـــرول ولبـــيد
حـــزُني مـــستعمل الكـــلام اختيارًا وتجـــنبن ظلمـــة التعقـــيد
وركـــبن اللفـــظ القـــريب فأدركن بـــه غايـــة المـــرام الـــبعدي

فقالـــت: مـــنهن دواء دائك ومهدبة شفائك، والله لو بتنا الليلة عنده لأحييناها سمرًا وجـــدالاً ولأحييـــناه أنسًا ووصالاً، ونعمنا به وأنعمناه بالاً، ولقطعناها ليلة من أندر أيام الـــشباب، وأحلى من رُضَابِ الأحباب، وفزنا بمفاكهته/[١٥/ب] وجرينا معه في فنونٍ وعيونٍ، وجمعنا بين ليلي والمجنون.

فقالـــت أخـــرى: إن كان عزمكم صادقًا، فلن تجدوا إلاّ موافقًا، وأنا رسولكم إليه والقادمـــة بأخـــباركم علـــيه، فما أربحها من تجارة وأحلاها عنده بشارة، فأفوز بوده والصواب، وأحصل أجر الشهداء في الجمع بين الأحباب.

إن مـــن بـــشر المحـــب بوصـــل وســـعى في اجـــتماعه بالحبـــيب
لجديـــرٌ بكـــلّ حمـــدٍ وشـــكرٍ وثـــواب مـــن المجـــازي المثيب[١]

فقالت أخرى: بل المصلحة أن نغشاه من غير ميعاد، ونقصده وما أخذ في استعداد، فيتـــضح لـــنا حاله عند مشاهدته، نقرأ ما في ضميره من أسِرَّته/[١٦/أ] ويكون محبوبة البشير، ويطلع على ليل الهم قمر البُدور المنير أما سمعتن ما قال يصف هذه الحال:

فإنـــك إن أعطـــيت بطـــنك ســـوله فـــرجك نـــالا منتهـــى الـــذم اجمعـــا

(١) نعم من حق المبشر أن يكرم وأن يهدى وأن يثاب حيث يأتي بالسرور والفرج والبشرى بانفراج الكـــرب وذهاب الهم والغم وإقبال الفرح والسرور وحدوث المرجو والمأمول، فهو دائمًا بذلك يقـــدم فكـــيف لا يحق له أن يناله من هذا الفرج والسرور؟ وهو مفتاح ذلك الحبور، وانبساطه الوجـــوه، وانـــشراح الصدور وآخر الكدور وأول النشور، نعم إن للمُبَشِّر مكانة عند المُبَشَّر بها يـــسمو ويعلو له بها في نفسه مكانه، ويظل بعدها كلما رآه قال: هذا وجهه يأتي بالخير فهو الذي بـــشرني بكـــذا وكـــذا وهو أيضًا من حظ المُبَشِّر أن يساق الخير على يديه إلى المهمومين المغمومين فيخرجوا من تلك الحال إلى أسعد حال وما كان عندهم بمثابة الحلم والخيال فهو يقول لهم ابشروا فقد صار الحلم الذي تريدون حقيقة لا خيالاً فبشرى لكم منذ اليوم وعلى الدوام.

أفـــدي حبيــبًا مــثل بــدر الدجى مــن فـــوف لـــدن القـــد مَـــيَّادِ
صـــدوده يُذكـــي غلـــيل الجـــوى والوصـــل يـــروي غُلَّـــةَ الصَّادِي
رأى جـــــنوني وغرامــــي بـــه فـــزارني مـــن غـــير مـــيعادِ(١)

فقالـــت مصباح النواظر، وراحة الأرواح والخواطر، وصقل الأفهام، ونهاية الأقدام، ودُرّة الغـــواص، وظبية القناص، وفتنة العام والخاص: أعلمنه أنه لا نجاة له من الغرام ولا شفاء من السقام وقد أسرته تلك الإشارات، وقادته إلى الهوى آياته البينات/[١٦/ب]كم ادعـــى لحمائه يوم الحب دفعًا وجرته تلك المقامات مسلوب الفؤاد، وحملته العين على تقحـــم الخطر، وساقه إلى الصبابة الجمال المعتبر، وملكته العيون، وسلبته السكون، وأنتم إخـــوان الصفا، وذوات الوفا والظفر، فمثله غنيمة باردة، ونعمة زائدة، وإهمال أمره دليل علـــى فساد الرأي وأفنه، والاهتمام بما يحفظ وُدَّهُ صواب تفهم المصالح من ضمنه وأنا أرى أنّا متى زرناه استحكم وجده وكمده، وغلب صبره وجلده، والمصلحة أن تُنفِذَ إليه من يُعَرّفه مواقع هذه المنّة، ويتبعه على قطف ثمار الجنة(٢).

---

(١) حُـــقَّ له أن يشكر محبوبه إذ وصله بَعْدَ بُعْدٍ فانظر كيف يكون الحال عند التلاقي بين العشاق بعد طـــول فراق وشوق أضنى من طول الإباق فهو يقول أنه يفديه بروحه شكرًا له على هذه الزيارة وهـــذا الوصـــال على الرغم من ألم وطول قسوة الصدود، هذا الصدود الذي أشعل في نفســه نار الـــشوق وأضناها من طول السهر ومرارة البُعد وخوف عدم الصدور بعد هذا الصدود، فقد جاء هـــذا الوصل ليروي غليله ويطفئ ظمأه ويريح فؤاده ويطمئن باله ويهدئ حاله، ويعيد إليه اتزانه، وهـــو يـــشكره إذ علم أنه علم بحاله فرق له لمّا رأى ما نزل به من جنون الغرام وعذاب الوجد والهـــيام فزاره دون أن يخبره بموعد الزيارة حتى لا يضيف إلى شوقه شوق الانتظار ولهفة الترقب للوصول.

(٢) هكذا قرروا أن يعلموه بالزيارة، ولا يدخلوا فجأة كالغارة، حتى يعد للأمر عدته وينشئ له أهبته، ومـــا يلـــيق بهذا اللقاء المحبوب، والرجاء المطلوب والأمل المنشود فيستعد بآلات الطرب والعود ومعهـــا ما يليق من أسباب السعود مما يبهج الأنظار ويعطر المكان ويذهـب عن الكاسل الوسنان ويـــوقظ الهم ويعلي في النفس العزّم ويقوى على الانتباه ويشرح الصدور الكوادر والنفوس الملال ويحـــضر الـــدلال ويذهب الكلال، وكل ما هو مباح وحلال ويدعو إلى دوام الحب ويحض على الوصال ويمنع أسباب الهجر والفصال.
وكذا من المطعوم ما يفتح الشهية ويسعد النفس التقية ويشجع على الزيادة منه بلا خوف أو روية مـــن مشروب ومطعوم ومما يسهل تناوله ويتيسر هضمه ولا يملأ المعدة قليله ولا يشبع كثيره فهو مطلوب مرغوب غير مشبوع منه ولا يمل تناوله.

والتفـــتت/[١٧/أ]كالظبي إذا رنا، والغصن إذا انثنى فرأتني مستترًا وأنا أرعد حذرًا، فقالت: هَلُمَّ يا غلام، واقرأ أستاذك السلام، وقل: قد أظفرك حكم القدر المتاح، ونحن ضـــيوفك إلى الصباح، فهيئ جميع الأسباب وانتظرنا عند الباب، وأخلِ الدار من الأغيار، واشكر معاونة الأقدار، وأنشده عني وصرح ولا تُكني:

جَـــادَ بِمَـــا تَطْلُـــبُهُ الدَّهْـــرُ وَزَارَ ... فِـــي جُـــنْحِ الدُّجَـــى الْـــبَدْرُ
أَحْـــوَى رَشِـــيْقُ القَـــدِّ قَاتِـــنَهُ ... يَخْجَـــلُ مِـــنْهُ الغُـــصْنُ النَّـــضْرُ
فِي لَفْظِـــهِ خَمْرٌ وَفِي رِيْقِـــهِ خمْـــرٌ ... وَفِـــي وَجْنَتَيْـــهِ خَمْـــــرُ(١)

=

وكـــذا من المسليات المنبهات الداعيات إلى جذب أطراف الحديث الشاغلات عن أدراك الوقت للمعـــشوق فالمسليات تلهي المعشوق عن إدراك الوقت الذي قطعه أما العاشق فإنه يشعر بسرعة ســـريان الوقت والمعشوق يستكثر قليل الوقت ويستطيل مدته مهما صغرت فالمسليات ملهيات للمعـــشوق مفيدات للعاشق حتى لا يهدده المعشوق من حين لآخر بأنه يريد الانصراف لتباطئه على أهله وذويه حتى لا يشك أحد فيه لطول الغياب وتباطؤ الإياب.

فإعلامـــه بالزيارة يجعله يستغل كل لحظة ويستثمرها استثمارًا عاطفيًا تامًا لا يضيع منها ثانية في عـــبث أو إعداد بل يكون كل شيء قد أعدّ له وجهزه فلا يقتل فيه الوقت هباءً فتعم البهجة على العاشـــق والمعـــشوق إذ لا وقت إلا للثناء والمدح وبث ما في النفوس من الحب والشجو وحلو الكلام، وتمنى الوصل، والتحذير من البعد والفصل، مما يؤكد لكلا الطرفين ما عند صاحبه له من المنزلـــة والمكانـــة والدرجـــة العالية من المحبة والمودة، فتدوم وتطول ويرجى لها الازدهار ودوام القبول وتبعد عن الذبول والكهول وتظل نضرة طرية بهذه اللقاءات الشهية الطيبة الصفية النقية إلى أن يتم المراد ويحصل الوصال الذي هو غاية المراد والمآل.

(١) وجب عليك أن تشكر الأقدار إذ جادت عليك بما ضنت به عليك الليالي والأيام من وصل حبيب الفـــؤاد فطال السهاد وبعد المعاد،وكادت تيأس النفس من الرقاد، فها قد جاد عليك وأقدم إليك مـــن ينير عليك ليلك ويقرب عليك ساعاته ويقصر عليك طوله ويطوي عنك بعده ويقرب إليك طـــرفه من طرفه بدر تهلل وقمر تجلى ونسيم أقبل وسرور أنعش قد جاءك يتهادى على غير ميعاد ولا تحقـــق حـــصول إلا في طيف الخيال فها قد قدم عليك ومثل بين يديك وألقى سلامه عليك وبـــسط وجهه إليك وأرخى جفونه حياءً منك ومدّ يده مصافحًا لك فهل بعد هذا مطلب وفوق هـــذا غايـــة فقـــد بلغ بك من الوداد النهاية. فأجلسه بين يديك وتأمله بقلبك وعينيك وتحسسه بـــيديك فلـــيس خـــيالاً زائراً ولا طيفاً عابراً بل هو حقيقة حقه لا مرية فيها ولا جدال ولا قول يحتاج إلى استدلال.

فاســـتمع إلى حديـــثه وعذوبته وجرس صوته وصلصل نغمته ليس وهما ولا تهيؤا بل بحس أذنك تـــسمع ومقلة عينك تنظر ومن عطره أنفك تشم أريج المحبة والبهاء من نسيم نفسه الفوّاح العذب

=

فقلـــت: جعلـــت فداك ومن أستاذي الذي أبلغه معنى هذا الكلام؟ ومن أنا من هذا الأنام؟ ومن الذي/[١٧/ب] أبشره؟ وما البشارة؟ وإلى من وقعت هذه الإشارة؟

فقالـــت: ويلك، عُدْ عن الإطالة، فما أنفذت إلاّ لهذه الحالة، فقد جاءكم ما لم يكن في الحساب، ولعن الله رزقًا لا يدق الباب، وقد كنتم تقنعون من العين بالأثر، ومن العيان بالخبر، فدع موارد النزاع والصداع، فقد كشفنا عن القناع وسارعنا إلى اللقاء مع قرب العهد بالوداع وأنشده:

كُنْتَ تَرْضَى بِالطَّيْفِ إِنْ عَاوَدَ النَّوْم ... جُفُــونًا كَمَــا زَعَمْـتَ فَـصَارَ
فَجَرَتْ بِالَّذِي تُرِيــدُ المَقَادِيـــر ... وَوَافَـــاكَ مَنْ تُحِـــبُ وَزَارَ(١)

الـــصراح فـــتجد قلبك لحديثه يرتاح ويصير في حالة من الذهول مع الانشراح لا يكاد يصدق أن حلمـــه صار حقيقة وأمله صار منالاً وغايته صارت قريبة ومناه قد بلغ منتهاه فهيا أحسن وفادته وأدم معزته وأدخل عليه من السرور بعض ما ادخل عليك وعوضه شيئًا ما بذله في الوصول إليك أليس هو الذي بدأ، فما وجب عليك حقه فأره قدره عندك ومنزلته لديك بما هو محسوس ليعرف بـــه ما ليس بملموس الذي لا تعرفه إلاّ النفوس فبالظاهر يعرف كثيراً مما في الباطن ومن النظرات تقـــرأ الأسرار، وتظهر كثير من الأخبار فتدلل له بالظواهر عما تخفيه له البواطن والإشارات تصل إليه سريعًا فيشكرها بإشارات اللواحظ، وربما بألفاظ صراح وقول بواح لاغموض فيه ولا تلميح. فاسعد باللقاء وأسعد المعشوق واهنأ بليلك واشكر ربك حتى لا يكون ذلك اللقاء إنذاراً.

(١) ثم نـــصحته بأن يعد لذلك اللقاء عدته ونبهته إلى تجنب ما يفسد مودته والتي أهمها تخلية المكان مـــن الـــرقباء والحساد ومن يفسد هذا المعاد ويذهب صفو القُعاد، كما حذرته من إضاعة الوقت فـــيما لا فائدة فيه وما يجلب الصداع من كثرة الكلام في غير داع ونبهته على أن لا يضيع الوقت فيما لا يغذي شجرة المحبة ويقوي أواصر الألفة ويدعم عروق المودة فإن الوقت التي ستقضيه معه معدود محدود فلا داعي لما لا يفيد.

وعرفته من قبيل التذكير ببعض آداب اللقاء حتى لا يغفل عن بعضها من شدة ذهوله باللقاء فنبهته لينتبه لا لتعلمه ولا لتعرفه ولكن لتذكره حتى لا يغفل فيؤثر ذلك على نفسها عند لقائه فمن ذلك أنهـــا أمـــرته بالانتظار عند الباب والالتزام بأدب الترحاب من القيام على القدمين وتلقي الحبيب باللـــسان واليدين والعينين، والسعي إليه بالقدمين، وتقديم كلمات الثناء والإطراء مما له في نفس الـــضيف من الاطمئنان لحسن اللقاء حتى لا يجلس وهو خذلان أو لا يدري أمر حب به صاحب الدار أم مَلاّن، فبهذه الحال يقر لنا القرار ويهنأ لنا الجلوس ونحس بحسن الاستقبال وإياك والجدال فهو مهلك للوقت موغر للنفس مهيج للطباع البغيضة مخفي لحسن الخصال مظهر لسيئ الأحوال، فاغتـــنم الوقت في دعم الوصال وتحسين الحال ليكرر اللقاء إذا حسن البدء في الوصال. ثم تذكره شـــعرًا بأنه كان يتمنى أن تزوره طيفا في المنام وحبذا لو تكرر هذا الطيف لكان من أسعد الناس

فلم أملك إعادة جواب ولا إطالة خطاب، وقد سابقت إليك هوج الرياح، وأتيتك في الليل بشمس الصباح/[١٨/أ] فقم على قدميك وتلق بالترحاب من قدم إليك، فهذا لم يكن ببالك ولا تصوراً في خيالك، وأنشد أبياتك الأمثال في وصفك هذه الحال:

أهــلاً وســهلاً بــكَ مــنْ مــؤنسٍ ... ينظــرُ عــن طَــرَفِ الطــلا النَّافِرِ
أهــلاً وســهلاً بــك مــن زائــرِ ... يُخجــلُ نــورَ القمــرِ الزاهِــرِ
أهــلاً وســهلاً بــك يــا نــزهة ... وراحــة للقلــبِ وللناظِــرِ
رددت بالقــرب زمــان الــصبي ... وطــيب عــيش الــسالف الغابــر
وعيــشة ولــت علــى حاجــرٍ ... جــاد الحَـيَا السكب ربُا حاجِرِ(١)

فكـدت أطير فرحًا بخبره السار، وقمت مرحًا إلى باب الدار، وقلت: رحْ إلى تلقي الضيف الكريم، وعُد أمامه على خط مستقيم، واختصر الطريق واحذر/[١٨/ب]التعويق فقلبي إلى قدومه مائل، ودمع الفرح على خدي سائل فمرٌ يعدو ووقفت أشدو:

إنْ تَــمَّ مَــا جَــاءَ رَسُــولِي بــهِ ... غَفَــرْتُ مَــا أَسْــلَفَهُ الدَّهْــرُ
وَإنْ وَفَــي الحِــبُ بِمِــيْعَادِهِ ... وَبَــاتَ عِــنْدِي وَلِــي الأَمْــرُ

=

حالاً، وأنه كان يكتفي بهذا الوصال في طيف الخيال في أقل أوقات النوم الذي قد حرمه من طول السهاد وبعد الحبيب.

فها قد جادت عليك الأقدار بما تتمنى وتختار بأوقات قصار قد والفتك فيها بالحبيب فكن له محبياً ولا تفسد الوقت واغتنمه فيما يطفئ شوقك ويسعد حالك في الحقيقة قبل أن ينصرم منك الوقت وتعود بك الأقدار على ما كان عليه الحال من الهجر والبعاد وطول الغياب، وعناء الليالي والأيام وعودة السهاد وانتظار طيف الخيال الذي ربما مَنٌ عليك فجاء وربما عاملك هو الآخر بالعناد.

(١) هـذا شـعر لا يحتـاج إلى شرح ولا إلى توضيح فهو غاية في المباشرة والتصريح مفهم بالحب والترحاب وشـغف بلقاء الأحباب معبر عما بالقلب من المودة وسعادته بالخبر السار والحبيب الزائـر المفضال الذي حل عليه بالدار وصار منه الوصال بعد هجر طال، هذه الزيارة التي ردت إليه الأيام الخوالي وأعادته إلى أيام الصبا والحبور والسعادة والطهور، زيارة تقر لها العين ويهنأ بها القلـب ويرتاح لها الفؤاد، هذه المفاجأة التي لا يكاد يصدقها مع تحقيقه تحققها بعد أن ظن ألا يعقـل أن تعـود هذه الأيام ولا تلك الأحوال من القرب والوصال فانعم بهذه الحال واشكر ربك على كل مآل.

سَـــمَحْتُ بِالــــنَّفْسِ جَـــزَاءً لَـــهُ　　　إِذْ لاَ يُــــؤدِي حَقَّـــهُ الـــشُّكْرُ(١)

وأنا في أثناء ذلك على مثل حَرِّ النار من طول الترقب والانتظار، استنشق رِيًا الوصل مـــن جهته، وأتطلع إلى قدومه وأوبته، فإذا به قد عاد تاعسًا جَدُّهُ، خائبًا قَصْدُه، مفلولاً جَـــدُّهُ، كابـــيًا زِنْدُهُ، باديًا وجومه زائدة همومه متجهمة أسرَّته، نائية مسرته، قد عبس وجهه، وأنجه عبوسه/[١٩/أ]وشمسه غائبة وغابت شموسه وخَبَتْ نار نشاطه وانقبض بعد انبساطه:

وَدَمْعَـــةٌ تَجْـــرِى عَلَى صَحْنِ خَدِّهِ　　　وَنَـــار الأَسَـــى تُذَكّي بِأَضْلُعِهِ جَمْرًا
وَقَـــدْ صَـــعَّدَتْ أَنْفَاسُـــهُ عَبْـــرَاتِهُ　　　فمقلـــته عَبْـــرَى ومهجـــته حَرّى

قلت: إيه ما الخبر؟ وأين النجوم والقمر؟ وما فعلت الشموس المشرقة الأنوار؟ ومتى يحـــصل اللقـــاء ويدنو المزار؟ وما هذا الوجوم الذي اعتراك والهم الذي أراك به على ما

---

(١) مـــا أن وصـــل الخبر إليه حتى كاد يطير فرحًا ولم يتمالك طربًا فأعاد رسوله إليه وأوصاه بحسن الإحـــسان إليه والتقدم بين يديه واختصار الطريق عليه وحذره من التأني أو التأخير لأن صبره لا يطيق التأجيل فهذا خبر لا يحتمل التمهيل وأمر يقتض التعجيل فهو غاية المأمول والمراد أن يزوره في بيـــته خـــير من زار وأحب من أحب به تنير الحياة وتستقيم الأمور وتعتدل الأحوال وينصلح الحـــال ويهـــدأ البال، وذهب ينشد الشعر لي عفوه عما سلف من قـــوة الأيام وما لاقاه منها من شـــدة وألم علـــى بعد الحبيب، فقد جادت عليه بعد ذلك بما يجعله ينسى لها ما أسلفت من تلك القـــسوة هـــذا له من ناحية الأيام والدهر أما من ناحية الحبيب المقاطع الجاني الهاجر الذي بادر بالوصال والعودة بعد الغياب والقرب بعد البعاد، والإقبال بعد الصدود والأعراض فإنه إن وَفَّى له بهـــذا وبات عنده الليلة فلا يجد ما يكافئه به أقل من بذل روحه إليه فإن أي شكر دون ذلك يراه أنه لا يوفيه ولا يكافئه فقد مَنَّ عليه بما لم يكن يظنه يعود، ولا إليه كان يتطلع، فهو لهذا يرى أن أقـــل حقـــوقه إنما هو بذل روحه له فمهما طلب فطلبه مجاب فلمن يستجيب إن لم يجب أحب الأحباب.

ومعلـــوم أن مـــن زاره حـــبه نكون حاله غير كل حال فأنت تراه قائمًا قاعدًا واقفًا ماشيًا ساكتًا مـــتكلمًا، فهـــو يتصرف بغير ما دراية أو غير ما إرادة، إذ هو حريص كل الحرص على إرضائه، خائـــف كل الخوف من جفائه جاهدًا في إصغائه متأملاً لحركاته وسكناته قاصدًا إليه بقلبه وقالبه بفكرة وناظره وسمعه وجسمه متمنيًا إشارة منه إليه ليجعلها فور نطقه بها أو إشارته بين يديه مهما كلفـــه ذلك من الجهد أو العناء أو مغاضبة الآخرين المهم أن يرضى المحبوب ويوفى له بالمطلوب، فـــإن قدر على قضاء مراده كان ساعيًا جديا فيما لم يطلب ليدخل السرور عليه، وتراه ماثلاً بين يديـــه ألين من الحرير وأطوع من الخادم الذليل فهو يجد في هذا التعب راحة وفي تلك المشقة لذة لا تعد لها لذة.

أراك؟

فقـــال: خـــرجت من عندك جازمًا بالتوفيق متحققًا أني أرهن في الطريق، فوصلت المكـــان فـــلا خـــبر ولا عـــيان، فنشدتهن والباغي يُحبُّ الوجدان، فلم أطلع لهن على حقـــيقة[1]/[١٩/ب]أمر، ولا خبرت عنهن بحُلْوٍ ولا مُرّ، فوقفت وقوف الشحيح أضاع خاتمه، وألفيت محلهم قفرًا فكنت حَاتِمهُ، فبينا أنا مفكر في الأمر الفادح، والخطب الذي هـــو لنار الأسى قادح، إذْ اجتاز عَلَيَّ صبيٌّ حين بقل عذاره وكاد يصوح وَرْدُهُ وجلناره، فقال: ما لي أراك بادي الأسف، مشفيًا على التلف؟ فقلت:

إني أضللت هنا شيئًا وجئت أنشده   وتركت معهودًا فحال عما كنت أعهده.

فتبـــسم الغـــلام تبسم ذي عجب، وقال: قد عرفت الحال فدع الطلب، فأنا جهينة الخـــبر[2] ولن يخبرك عمن غاب إلاَّ من حضر فحين سمعت قوله لزمته/[٢٠/أ] ملازمة

(١) يـــا لها من موجعة وفجيعة إذ أقبل إليه رسوله كاسف بال حزين الفؤاد بادي الحداد ظاهر الذبول يجر أذيال الخسران وحيدًا فريدًا لا أنيس معه ولا رفيق ولا صاحب ولا عشيق فلما رآه عرف أن زمانـــه مـــا صفى وحبيبه ما وفا، فأصابته غصة جعلته في حالة من الذهول كيف صار ما صار؟ ولمـــاذا وعـــد حبيبه بذلك الميعاد وعاد إلى العناد؟ هل وصله منه ريب؟ أو ظهر له منه عيب؟ أم وشـــى بـــه واش؟ أم تخطفته الأوحاش؟ وأين صار بعد مفارقة رسوله وإرساله إليه؟ أم هل أبطأ الرجعة إليه؟ فصار يضرب أخماسًا في أسداس ويقرع اليد بالرأس والرجل في المداس، يا له من أمر غـــريب وخـــبر عجيب لماذا عاد رسوله كاسف البال دموعه هطالة على خده مدراره، وقد كان منـــصرفًا من عنده سعيدًا شجيًا طربًا هنيًا أملاً في جلب أغلى بضاعة وأكرم ضيف وأعز حبيب، وأبهـــى وجـــه، وأحلى سمير، وآنس جليس وأطرب محدث، وأوفى رفيق. فما له باكٍ ونار الأسى تحرقه وتشتعل في أضلاعه فيحيلها جمرًا يكويه ويلهبه ويؤذيه؟

ومـــا لبكائه نحيب وصوته عال غريب، صدره طالع نازل وأنفاسه متلاحقة وعبراته غزيرة ساخنة متصلة السيلان بادية للعيان؟ وما لعينيه حمراوان وكأنهما عينا جان من شدة الأحزان؟

مـــاذا دهاه، وما أصابه بعد مفارقته أو بلاه؟ أفقد شيئًا عزيزًا؟ أم اعتدى عليه معتد؟ أم صال عليه صـــائل؟ أم اغتصب ماله مغتصب أم ظلمه سلطان؟ كل هذا دار في ذهنه في لحظة واحدة لما رأى ما رأى من حال رسول قادم بغيرهم وهذه حاله. فما كان منه إلاَّ أن قال في نفسه ليس في وسعي إلاَّ أن انتظر حتى يقدم عليَّ ويصل إليَّ حتى استطلع منه الخبر وأعرف السبب الذي غير حاله.

(٢) يـــشير إلى المثل العربي القديم المشهور: «عند جهينة الخبر اليقين». وهذا المثل من الأمثال العربية المشهورة المدونة في كتب الأمثال والتي منها:

الأمـــثال النـــبوية (٥٣٦/١)، تمـــثال الأمثال (٤٧٤/٢)، جمهرة الأمثال (٤٤/٢)، جمهرة اللغة (٨٩٠)، الفاخـــر (١٢٦)، فـــصل المقال (٢٩٥)، كتاب الأمثال (٢٠١)، كتاب الأمثال لمجهول

الغريم، وقلت: اهدني، هديت إلى الصراط المستقيم.

فقال: إني حين رأيت تلك الشموس المضيئة والأقمار الأرضية تبعتهن متفرجًا على جمالهن الباهر، وحسنهن الزاهي الزاهر، فلما جلسن في هذا الموضع، وقفت بمرأى منهن ومسمع، فتفاوضن فيما أرسلنك فيه، وأطمعنك في الأمر الذي تبتغيه، فدعونك فسمعت، وحدثنك فرجعت، فقلت: من هذا السعيد الذي يقصدنه وطوبى لمريض يعدنه، فلما غبت قمن مسرعات إلى العبور، وقلت لا بأس بالسفن مع تعذر الجسور، ودعون ملاحًا فركبن معه لجة الغمار وأقدمن بعد/[٢٠/ب] تأخرهن على تقحم الأخطار وقلن: يا فتى إذا عاد إلى هنا شخص من صفته كيت وكيت فأنشده عنا هذين البيتين برب البيت:

أَيُّها القَانِصُ مَا أَحْسَنْتَ صَيْدَ الظَّبْيَاتِ فَإِنَّكَ السِّرْبُ وَمَا زُوِّدْتَ غير الحَسَرَات

وقل له: أردتم أن تعرفونا وتوهمتم أن تخدعونا فكايلناكم صاعًا بصاع وجزيناكم عن خداع بخداع والبادي أظلم، كما يقال؛ وإن كنا نساءً فما يجب أن يقهرنا الرجال، ومثلنا لا يسمح كذا عاجلاً بالوصال[1]:

=

(٧٤) واللسان (٩١/١٣) (مادة جفن)، (١٠١/١٣ مادة جهن) والمستقصى (١٦٩/٢)، ومجمع الأمثال (٣٩٩/١)، (٣/٢) الوسيط في الأمثال (١٢٠)، موسوعة أمثال العرب (٤/ ٣٩٠) وللمثل عدة ألفاظ هي: عند جُفَيْنَةَ (أو عند جُهَيْنَةَ، أو حُفينة) الخبر اليقين.

وجفينة أو جُهَينة هذا هو رجل خمّار اجتمع عنده رجلان فسكرا، ثم تواثبا، فقام رجل يصلح بينهما فقتله أحدهما، فأخذ أهل القتيل الرجلين، وذهبا بهما إلى الحاكم فادّعى كلٌ منهما أنه لم يقتل الرجل، فقال الحاكم هذا المثل. والمعنى: أن عليكم بجهينة أو جفينة أو حفينة فإن عنده الخبر مَن القاتل.

وقيل: أصله أن حصيل أو حُصين بن عمرو ابن معاوية الكلابي خرج ومعه رجل من جهينة يدعى الأخنس، فقتل الجهني الكلابي وكانت أخته أو امرأته تبكيه في المواسم فقال الأخنس (من الوافر):

تُسَائِل عن حُصَيْنٍ كل راكب وعند جهينة الخبر اليقين

وهو مثل يضرب لمن يطلع على حقائق الأمور أو إليه مآل الأمر أو من هو قائم على حقيقة الشيء الذي يختلف فيه أناس إذ أنّ كثيراً من الأمور يشوبها الغموض عن كثير من الناس وهي واضحة جلية لو أن أحدهم كلف نفسه سؤال أهلها دون غيرهم، فبهذا تكشف الغمة وتتجلى الأمور وتظهر الحقائق وتقل الشائعات ويبرأ المتهم ويعطى كل ذي حق حقه وتهدأ الأمور ويذهب الاضطراب.

(١) لقد انصرفن وتركن خلفهن رسالة ألهبن بها مشاعر العاشق وشوقنه إليهن أكثر من شوقه الأول ولقنه درسًا في الحب والعشق شديدًا وقويًا متينًا ياله من درس لا ينساه وبلغ منهن إلى منتهاه،

=

لاَ بُـدَّ قَـبْلَ الوَصْـلِ مِـنْ جَفْوَةٍ ... تُذْكِـي غَلِـيلَ الـشَّوْقِ وَالـوَجْدِ
لَـمْ يَـذُقْ طَعْـمَ الجَفَـا لَمْ يَكَدْ ... يُفَـرِّقُ بَـيْنَ الوَصْـلِ وَالـصَّدِّ
وَلَـيْسَ يَـدْرِي لَـذَّةَ القُـرْبِ مَنْ ... لَـمْ يَـشْكُ يَـوْمًا أَلَـمَ الْـبُعْدِ

ومـيعادنا ميعادنا، وعلى الله اعتمادنا، ثم أمرن الملاح بالجدف، وصرن في الجانب الشرقي، أسرع من رجع الطرف، وقد عرفتك أنك مخدوع والأمر إليك في الرجوع. فلما وقفـت على الجملة والتفصيل، وتحققت أنها سوفت بالأباطيل عدت إليك بقلب كئيب وصبر سليب.

فحـين فهمت مقاله عدمت الجلد والاصطبار، واستنجدت الدموع الغزار، وعدت قلقًا إلى الدار، وطال عَلَيَّ الليل فهو سنة، وما ألم بعين نوم ولا سِنَة[1]:

=
فكذا يكون كيد النساء بالرجال بُعد وبُعد وبُعد ثم وصال، ثم هجر وهجر وهجر ثم قرب ودلال، فقـد أشعلن في نفسه الشوق للقاء، وحرمنه منه حتى يسعى جاهدًا وراء تلك الغاية وهذه الأمنية، ويعـرف بعد الوصول كيف كان الجهد المبذول فيحافظ على المحصول ولا يبيع سريعًا ولا يترك سفهًا.

لقـد لمنه على الترك عند إمكان الاقتناص وعزرنه بهذا الانتظار وذلك القرار ليعرف كيف يتعامل مـع بـنات الهوى وربات العشق والدلال ثم تركن له رسالة شعرية يُبَيِّنَّ له فيا أن هذه من أصول صنعة الدلال.

(١) في الـشعر الذي تركنهن والقول الذي سرده جمال وعزاء ونصح ووفاء وأمل ورجاء فقد قلت له أن من دواعي دوام الحب واستمراره وطول عمره أن يتخلله الجفا أو البعد أو شيء من الصد وكل هذا ليس حقيقة، ولكنه مصنوع من صانع ماهر والآخر مخدوع ظانًّا أنه حقيقة فيخاف من الفراق والـوماق ويخـشى عدم التلاق والآخر يعلم أنه يلهب مشاعره ليقوى حبه ويصهر شوقه ويعرفه قـيمة ما يسعى إليه بالجهد في الحصول عليه حتى إذا علم أن صاحبه قد صار على ما يرام وصله بحـساب وقدر وكان منه عل حذر حتى لا يكنشف السر ولا يهمه الكر، فأجدني في تصحه بما تـركن له من شعر وقد أجاد رسوله في سرد القصة ووصف حاله وحالهن وعودته إليه بهذه الصفة فقـد أملـه بما أملن فقال له أنهن صادقات العهد فميعادهن ميعاد لن يخلف وسوف يفين به ولن يخلـف على الرغم من خلفهن لوعده الأول فقد بررن سبب هذا الخلف، حيث إنه لصالح الحب والعـشق وأنـه مـن أصول الحب ودواعيه وأنه صفة بها يتصف المعشوق ليقوى الشوق، كيف والمعـشوق من النساء اللواتي هن أصل لهذا الداء الذي إن لم يفعلنه فقدن قدرًا كبيرًا من حقتهن وجمـالهن، فالخفـة والجمال في الدلال، وأصل الدلال والخداع والخيال والرواغ والمنع والامتناع الذي كلما كثر زاد الحب وعلا التمني ولحت الرغبة والتهبت المشاعر وتداعت الخواطر وسرحت النواظـر وتاهت الأفكار وحار في الأمر الشطار، مع ملاحظة أنه منهن بقدر يعرفنه فلا يزدن عنه
=

وطـالَ عَلَـيَّ اللـيلِ حتّـى كأنَّهُ   من الطولِ موصولٌ به الدهرُ/[٢١/أ]

وشـرعت في مسامرة القمر، وقلت هل من عون على السهر، وأنشدت عند تراكم الهموم والفكر:

أيهـا الـنائمونَ حـولي أعيـنوني   علـى اللـيلِ حِـسبةً وانتجـارًا
حدثـوني عـن الـنهار حديـثًا   وصِـفُوه فقـدْ نـسيتُ الـنهارَا

وخاطبت الليل الطويل وقد لازمت العويل:

يـا لـيل طـل أو لا تطـل   لا بُـدَّ لي أن أسـهرك
لـو بـات عـندي قَمَـرِي   مـا بـت أَرْعَـى قَمَـرَك

[قولهم في الليل] (١)

ولهم في طول الليل وقصره وبُعد ما بين عِشائه وسَحَرِه معانٍ رائعة وأوصاف ناصعة، وأوّلهم وصفًا وأعرِبهم وصفًا امرؤ القيس(٢) حيث يقول:

=

حـتى لا يفلت منهن الصيد ولا يطير منهن العصفور فهن يجدن التمنع وهن الراغبات، ويشكين وهن الظالمات.

(١) زيادة من عمل المحقق غفر الله له.

(٢) امرؤ القيس هو ابن حجر بن عمرو الكندي، من فحول الشعراء مشاهيرهم ودواوينه في الصدارة، وقد ترجمت له كثير من المصادر وأنا أذكر هنا بعضًا مما ذكره ابن قتيبة الدينوري في كتابه الشعر والشعراء (ص ١٦) إذ يقول:

هو من أهل نجد من الطبقة الأولى وهذه الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد.

قال لبيد بن ربيعة: أشعر الناس ذو القروح -يعني امرأ القيس-.

وملـك حجر على بني أسد فكان يأخذ منها شيئًا معلومًا فامتنعوا منه فسار إليها، فأخذ ثروتها، فقـتلهم بالعـصي فـسموا عبيد العصا، وأسر منهم طائفة فيهم عبيد بن الأبرص، فقام بين يدي الملك فقال:

يـا عـين مـا بـكِ فابكـي بـني   أسـد هـم أهـل الـندامة
أهـل القـباب الحمـر والـنعم   المـؤبل والمدامـة
مهـلاً أبـيت اللعـن مهـلاً   إن فـيما قلـت آمـه

إلى أن قال:

أنـت المليـك علـيهم   وهـم العبـيد إلى القـيامة

-

=

فرحمهم الملك وعفا عنهم وردهم إلى بلادهم حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم عوف بن ربيعة الأسدي فقال: يا عبادي، قالوا: لبيك ربنا، فقال: من الملك إلا صهب الغلاب غير المغلب في الإبل كأنها الربرب، لا يعلق رأسه الصخب، هذا دمه يتثعب، وهو غدًا أول من يسلب؟ قالوا: من هو ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية أنبأتكم أنه حجر ضاحية.

فركبت بنو أسد كل صعب وذلول فما أشرق لهم الضحى، حتى انتهوا إلى حجر، فوجدوه نائمًا فذبحوه وشدوا على هجائنه واستاقوها.

وكان امرؤ القيس قد طرده أبوه لما صنع في الشعر بفاطمة ما صنع، وكان لها عاشقًا، فطلبها زمانًا فلم يصل إليها، وكان يطلب غرة حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان.

((قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل)) فلما بلغ ذلك حجرا أباه، دعا مولى له يقال له ربيعة، فقال له: اقتل امرأ القيس وائتني بعينيه، فذبح جوزرًا، فأتاه بعينيه، فندم حجر على ذلك فقال: أبيت اللعن، إني لم أقتله، قال: فائتني به، فانطلق فإذا هو قد قال شعرًا في رأس جبل وهو قوله:

فلا تتركن يا ربيع لهذه ... وكنت أراني قبلها بك واثقا

فرده إلى أبيه فنهاه عن قول الشعر ثم إنه قال:

ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي

فبلغ ذلك أباه، فطرده فبلغه مقتل أبيه وهو بدمون فقال:

تطاول الليل علينا دمون ... دمون إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبون

ثم قال: ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيرًا لا صحو اليوم ولا سكر غدًا، اليوم خمر، وغدًا أمر، ثم قال:

خليلي ما في اليوم مصحى لشارب ... ولا في غد إذ كان ما كان مشرب

ثم آلى ألا يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا حتى يثأر لأبيه، فلما كان الليل لاح له برق فقال:

أرقت لبرق بليل أهلّ ... يضيء سناه بأعلى الجبل

يقتل بني أسد ربهم ... ألا كل شيء سواه جلل

ثم استجاش بكر بن وائل، فسار إليهم وقد لجأوا إلى كنانة فأوقع بهم ونجت بنو كاهل من بني أسد فقال:

يا لهف نفسي إذ خطئن كاهلاً ... القاتلين الملك الحلاحلا

تالله لا يذهب شيخي باطلا

وقد ذكر امرؤ القيس في شعره أنه ظفر بهم، فتأبى عليه ذلك الشعراء وقال عبيد بن الأبرص:

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه ... إذلالا وحينا

أزعمت أنك قد قتلت ... سراتنا كذبا ومينا

ولم يزل يسير في العرب يطلب النصر حتى خرج إلى قيصر فدخل معه الحمام فإذا قيصر أقلف

فقال:

إني حلفت يميناً غير كاذبة بأنك أقلف إلاّ ما جنى القمر
إذا طعنت به مالت عمامته كما تجمع تحت الفلكة الوبر

ونظرت إليه ابنة قيصر فعشقته، فكان يأتيها وتأتيه وفطن الطماح بن قيس الأسدي لهما، وكان حجر قد قتل أباه فوشى به إلى الملك، فخرج امرؤ القيس متسرعًا فبعث قيصر في طلبه رسولاً فأدركه دون أنقرة بيوم ومعه حلة مسمومة فلبسها في يوم صائف فتناثر لحمه وتفطر جسده، وكان يحمله جابر بن حنين التغلبي فذلك قوله:

فأما تريني في رحالة جابر على جرح كالقمر تخفق أكفاني
فيا رب مكروب كررت وراءه وعان فككت الغل منه ففداني
إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزان

وقال حين حضرته الوفاة:

رب خطبة محبرة وطعنة مسحنفره
وجفنة متعنجرة تبقى غداً بأنقره

قال ابن الكلبي: هذا آخر شيء تكلم به ثم مات قال أبو عبد الله الجمحي: كان امرؤ القيس ممن يتعهر في شعره، وذلك قوله:

((فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع)) وقال: ((سموت إليها بعد ما نام أهلها))، وقد سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب، واتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ، ويستجاد من تشبيه قوله:

كأني غداة البين لما تحملوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل

وقد أجاد في وصف الفرس:

مكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمود صخر حطه السيل من علٍ

ومما يعاب عليه في شعره قوله:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقالوا: الثريا لا تعرض وإنما أراه أراد الجوزاء فذكر الثريا على الغلط كما قال الآخر: كأحمر عاد، وإنما هو: كأحمر ثمود، وهو عاقر الناقة قال يونس النحوي: قدم علينا ذو الرمة من سفر وكان أحسن الناس وصفًا للمطر فاختار قول امرئ القيس:

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تجري وتدر

أقبل قوم من اليمن يريدون النبي ﷺ فضلوا الطريق، ومكثوا ثلاثًا لا يقدرون على الماء إذ أقبل راكب على بعير وأنشد بعض القوم:

لما رأت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائصها دامي

/[٢٢/أ]فقلتُ له لما تمطى بصلبهِ ... وأردفَ أعجازًا وناءَ بكلكلِ
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ ... بصبح وما الإصباحُ فيكَ بأمثل
فيا لكَ من ليلٍ كأنَّ نجومَهُ ... بكلِّ مغارِ الفتلِ بيذبُلِ
كأنَّ الثريا علقتْ في مصامها ... بأمراسِ كتَّابٍ إلى صُمِّ جندلِ

فإنه أتى بالمعنى المبتدع وكان مخترعًا فأحسن فيما اخترع.

وقال النابغة(١):

تيممت العين التي عند حارج ... يفيء عليها الظل عرمضها طامي

فقال الراكب: من يقول هذا؟ قالوا: امرؤ القيس فقال: والله ما كذب، هذا خارج عندكم، وأشار إليه فمشوا على الركب، فإذا ماء غرق، وإذا عليه العرمض والظل يضيء عليه، فشربوا وملئوا ولولا ذلك لهلكوا.

ومما يمتثل به من شعره قوله:

وفاهم جدهم ببني أبيهم ... وبالأشقين ما كان العقاب

وقوله:

وقد طوفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

(١) هو: زياد بن معاوية ويكنى أبا أمامة، ويقال: أبا ثمامة، وأهل الحجاز يفضلون النابغة الذبياني وزهيرًا. وقال الدينوري في الشعر والشعراء (ص٢٠) في ترجمة النابغة الذبياني: قال شعيب بن صخر: سمعت عيسى بن عمرو ينشد عامراً بن مالك المسمعي شعر النابغة، فقلت: يا أبا عبد الله هذا والله الشعر لا قول الأعشى:

لسنا نقاتل بالعصي ... ولا نرامي بالحجارة

ويقال كان النابغة أحسن الناس ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتًا كان شعره كلامًا ليس في تكلف ونبغ بالشعر بعد ما احتنك، وهلك قبل أن يهتر، قال: وكان يقوى في شعره فعيب ذلك عليه وأسمعوه في غناء:

من آل مية رائح أو مغتدي ... عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدًا ... وبذلك خبرنا الغراب الأسود

ففطن ولم يعد. قال الشعبي: دخلت على عبد الملك وعنده رجل لا أعرفه، فالتفت إليه عبد الملك فقال: من أشعر الناس؟ قال: أنا فاظلم ما بيني وبينه، فقلت: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فعجب عبد الملك من عجلتي فقال: هذا الأخطل، فقلت: أشعر منه الذي يقول:

هذا غلام حسن وجهه ... مستقبل الخير سريع التمام
للحارث الأكبر والحارث الأصغر ... والأعرج خير الأنام

=

ثم لهند ولهند وقد ... ينجع في الروضات ماء الغمام
ستة آباؤهم ما هم ... هم خير من يشرب صفو المدام

فقال الأخطل: صدق يا أمير المؤمنين النابغة أشعر منه، فقال لي عبد الملك ما تقول في النابغة؟ فقلت: قد فضله عمر بن الخطاب على الشعراء غير مرة خرج وببابه وفد غطفان، فقال: أي شعرائكم الذي يقول:

أتيتك عاريًا خَلِقًا ثيابي ... على خوف تظن بي الظنون
فألقيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون

قالوا: النابغة، قال فأي شعرائكم الذي يقول:

حلفت ولم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا: النابغة، قال: فأي شعرائكم الذي يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ويروي وازع قالوا: النابغة. قال: هذا أشعر شعرائكم. قال حسان: وفدت على النعمان بن المنذر فمدحته، فأجازني وأكرمني فإني لجالس عنده ذات يوم إذ صوت من خلف فيه يقول:

أنام أم يسمع رب القبة ... يا أوهب الناس لعنس صلبه
ضرابة بالمشفر الا ذبة ... ذات نجاء في يديها جذبه

قال أبو شامة: فدخل فأنشده قصيدته التي على الباء، والتي على العين، وكان يوم ترد فيه النعم السود، ولم يكن بأرض العرب بعير أسود إلاّ له فأمر له منها بمائة بعير معها رعاتها وكلابها فلم أدر، أحسده على جودة شعره أم على جزيل عطيته. قال أبو عبيدة عن الوليد بن روح قال مكث النابغة زمانًا لا يقول الشعر، فأمر بغسل ثيابه وعصب حاجبيه على عينيه، فلما نظر إلى الناس قال:

المرء يأمل أن يعيش ... وطول عيش ما يضره
تفنى بشاشته ويبقى ... بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى ... لا يرى شيئًا يسره
كم شامت بي إن هلكت ... وقائل لله دره

ومما يتمثل به من شعر:

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأر من الأسد

تمثل به الحجاج بن يوسف حين سخط عليه عبد الملك بن مروان.....

ويقال إن النابغة هجا النعمان فقال:

قبح الله ثم ثنى بلعن ... وارث الصائغ الجبان الجهولا

والصائغ هو عطية أبو سلمى أم النعمان، وكانت العرب تضرب أمثالا على السنة الهوام قال

كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ

وقال سويد بن أبي كاهل(١):

= المفضل الضبي: يقال: امتنعت بلدة على أهلها بسبب حية غلبت عليها فخرج أخوان يريدانها فوثبت على أحدهما فقتلته فتمكن لها أخوه في السلاح.

فقالت: هل لك أن تؤمن فأعطيك كل يوم دينار فأجابها إلى ذلك حتى أثرى ثم ذكر أخاه فقال: كيف يهنأني العيش بعد أخي فأخذ فأسًا وصار إلى جحرها فتمكن لها فلما خرجت ضربها على رأسها فأثر فيه، ولما يمعن، ثم طلب الدينار حيث فاته قتلها، فقالت: إنه ما دام هذا القبر بفنائي وهذه الضربة برأسي فلست آمنك على نفسي فقال النابغة في ذلك.

تذكراني يجعل الله فرصة فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فلما وقيها الله ضربة فاسه وللبر عين لا تغمض ناظره
فقالت معاذ الله أعطيك إنني رأيتك غدارًا يمينك فاجسره
أبى لي قبر لا يزال مقابلي وضربة فاس فوق رأس فاخره

ومما أخذ منه قوله:

لو أنها عرضت لأشحط راهب عبد الإله حرورة المتعبد
لسرنا لبهجتها وحسن حديثها ولخالها رشدا وإن لم يرشد

أخذه ربيعة بن مقروم الضبي فقال:

فلو أنها عرضت لأشحط راهب في رأس مشرفة الذرى متبتل
لسرنا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من ناموسه يستنزل

(١) هو: سويد بن أبي كاهل بن أبي غطيف من بني يشكر، وكان الحجاج تمثل يوم رستقاباذ على المنبر بأبيات من شعره وهو قوله:

رب من أنضجت غيظا قلبه قد تمنى لي موتا لو يطع
ويراني كالشجي في حلقه عسرًا مخرجه ما ينتزع
مزبد بخطر ما لم يرني فإذا أسمعته صوتي انقمع
قد كفاني الله ما في نفسه ومتى ما يكف شيئًا لم يضع
لم يضرني غير أن يحسدني فهو يزقو مثل ما يزقو الضوع
ويحييني إذا لاقيته وإذا يخلو له الحمى رتع
هل سويد غير ليث خادر ثئدت أرض عليه فانتجع
كيف يرجون سقاطي بعدما جلل الرأس مشيب وصلع

وفيها يقول:

=

كُلَّمَا قُلْتُ ظَلامٌ قَدْ مَضَى عَطَفَ الأَوَّلُ مِنْهُ وَرَجَعَ

وقال بشار بن برد(١):

=

ودعت برقاها إنها تنزل الأعصم من رأس السيفع

تسمع الحداث قولاً حسنًا لو أرادوا غيره لم يستطع

(الشعراء والشعراء ص ٩٦).

(١) قال الدينوري في الشعر والشعراء (ص ١٧٧): هو مولى لابن عقيل ويقال لبني سدوس، ويكنى أبا معاذ، وكان يرمى بالزندقة، وله شعر حسن في ذم الدنيا مثل قوله:

كيف يبكي لمحبس وطلول من سيقضي عيس يوم يطول

إن في البعث والحساب لشغلاً عن وقوف برسم دار محيل

وبشار من المطبوعين الذين كانوا لا يتكلفون الشعر وحضر يومًا عند عقبة بن سلم وعقبة بن رؤبة ينشد أرجوزة فاستحسنها بشار، فقال هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ، فغضب بشار وقال: لمثلي يقال هذا؟ والله لأنا أرجز منك ومن أبيك ومن جدك، ثم غدا على عقبة بقصيدته التي أولها:

يا طلل الحي بذات الصمد بالله خبر كيف كنت بعدي

وفيها يقول:

ضنت نجد وجلت عن خد ثم انثنت كالنفس المرتد

ما ضر أهل النوى ضعف الكد أدرك حظًا من سعى بجد

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد

وصاحب كالرمل الممد حملته في رقعة من جلدي

أخذه من الذي يقول:

يودون لو خاطرًا عليك جلودهم ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

وكان يهاجي حماد بن عجرد، وفيه يقول حماد:

ويا أقبح من قرد إذا ما عمي القرد

وفيه يقول:

لو طليت جلده عنبرًا لنتنت جلدته العنبرا

أو طليته مسكًا سحيقًا إذًا تحول المسك عليه خرا

ومن خبيث هجائه قوله:

إذا جئت للعرف أغلقه بابه فلم تلقه إلا وأنت كمين

فقيل لأبي يحيى متى سندرك العلا وفي كل معروف عليك يمين

خَلِيلَــيَّ مَــا بَالُ الدُّجَى لاَ يَزَحْزَحُ وَمَــا بَــالُ ضَوءِ الصُّبْحِ لاَ يَتَوَضَّحُ
/[٢٢/ب]أَضَلَّ النَّهَارُ المُسْتَنِيرُ طَرِيقَهُ أَمْ الدَّهْــرُ لَــيْلٌ كُلُّــهُ لَــيْسَ يَبْرَحُ

وقال جُحظَة(١):

---

(١) مصادر ترجمته من سير أعلام النبلاء (٢٢١/١٥): الفهرست (٢٠٨)؛ تاريخ بغداد (٦٥/٤)، الأنساب (١٧٠/٢)، المنتظم (٢٨٣/٦)، معجم الأدباء (٢٤١/٢)، وفيات الأعيان (١٣٣/١)، العبر (٢٠١/٢)، الوافي بالوفيات (٨٦/٦) مرآة الجنان (٢٨٨/٢)، البداية والنهاية (١٨٥/١١) لسان الميزان (١٤٦/١)، النجوم الزاهرة (٢٥٠/٣)، قال الخطيب في تاريخ بغداد:

أحمد بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمل أبو الحسن النديم المعروف بجحظة. كان حسن الأدب قصير الرواية للأخبار متصرفًا في فنون جمة، عارفًا من العلوم بصناعة النجوم حافظًا لأطراف من النحو واللغة مليح الشعر مقبول الألفاظ، حاضر الندرة، وأما صناعته من الغناء فلم يلحقه فيها أحد. روى عنه شيئًا من أخباره وبعض شعره أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، وأبو عمر بن حيوية، والمعافى بن زكريا، وأبو الحسن بن الجندي، وغيرهم.

.... حدثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني من حفظه قال: حدثنا جحظة قال:

اتصلت عليَّ أضاقة انفقت فيها كل ما كنت أملكه حتى بقيت ليس لي داري غير البواري فأصبحت يومًا وأنا أفلس من طنبور بلا وتر كما يقال في المثل. ففكرت كيف أعمل؟ فوقع لي أن أكتب إلى محبرة بن أبي عباد الكاتب، وكنت أجاوره، وكان قد ترك التصرف قبل ذلك بسنتين ولزم بينه وحالفه النقرس فأزمنه حتى صار لا يتمكن من التصرف إلا محمولاً على الأيدي أو في محفة، وكان مع ذلك على غاية الظرف كبر النفس، وعظم النعمة، ومواصلة الشرب والقصف — وأن أتطايب عليه ليدعوني وآخذ منه ما أنفقه مدة وكتبت إليه:

مــاذا تــرى في جُــدَيٍّ وفي غــضار مــوارد
ومــسمع لــيس يخطــى مــن نــسل يحــي بــن خالــد

فما شعرت إلا بمحفة بجرة يحملها غلمانة إلى داري وأنا جالس على بابي، فقلت له: لِمَ جئت ومن دعاك؟ قال: أنت، فقلت له: إنما قلت لك: ماذا ترى في هذا؟ وعشيت لي بيتك، وما قلت لك أنه في بيتي وبيتي والله أفرغ من فؤاد أم موسى. فقال: الآن قد جئت ولا أرجع ولكن أدخل إليك واستدعي من داري ما أريد. قلت: ذلك إليك، فدخل، فلم ير لي بيتي إلاّ بارية، فقال: يا أبا الحسن، هذا والله فقر يصيح، هذا ضر مدمع، ما هذا؟ فقلت هو ما ترى، فأنفذ إلى داره، فأستدعى فرشًا، وآله، وقماشًا، وغلمانًا، وجاء فرّاشوه، ففرشوا ذلك، وجاء وامن السُّفر والشمع وغير ذلك مما يحتاج إليه، وجاء طباخه بما كان في مطبخه، وهو شيء كثير بآلات ذلك، وحاشر ابنه بالصواني والمخروطة، والفواكه وآله التبخير والبخور، وألوان الأنبذة، وجلس يومه ذلك وليلة يشرب على غنائي، وعلى غناء مغنية أحضرتها له كنت ألقها، فلما كان من غد سلم إلى غلامه كيسًا فيه ألفا درهم، ورزمة ثياب صحاح، ومقطوعة من مفاخر الثياب، واستدعى

وَلَـــيْلٌ فِي كَوَاكِـــبِهِ جِـــرَانٌ ... فَلَـــيْسَ يِطُـــوْلِ مُدَّتِـــهِ انْقِـــضَاءُ
عَـــدِمْتُ مَحَاسِـــنَ الأَصَـــبَاحِ فِيْهِ ... كَـــأَنَّ الـــصُّبْحُ جُـــوْدٌ أَوْوَفَـــاءُ

وقال أبو هلال العسكري(١):

= عفـــته فجلس وشيعته، فلما بلغ آخر الصحن، قال: مكانتك يا أبا الحسن احفظ بابك فكل ما في ذلـــك لـــك فلا تدع أحدًا يحمل منه شيئًا، وقال للغلمان: اخرجوا فخرجوا بين يديه، وأغلقت الباب على قماش بألوف كثيرة.

... عـــن طلحـــة بن محمد الشاهد: أن جحظة توفي سنة أربع وعشرين ثلاثمائة. قال غيره: وكان مولده في شعبان من سنة أربع وعشرين ومائتين.

(١) هـــو: الحـــسن بن عبد الله بن سعيد أبو أحمد العسكري الإمام المحدث الأديب العلامة، ومصادر كثيرة قد ترجمت له لشهرته، وأنا أذكر منها هنا على سبيل المثال: ذكر أخبار أصبهان (٨/٣٣)، معجم البلدان (٤/١٢٤)، أنباه الرواة (١/٣١٢)، المختصر في أخبار البشر (٢/١٣٣)، العبر (٣/ ٢٠) تـــاريخ الإســـلام (٤٥ق ٤٥ب) الوافي بالوفيات (١٢/٧٦)، مرآة الجنان (٢/٤١٥)، البداية والـــنهاية (١١/٣١٢)، الـــنجوم الزاهرة (٤/١٦٤) بغية الوعاة (١/٥٠٦)، شذرات الذهب (٣/ ١٠٢) روضـــات الجـــنان (٢١٦)، هدية العارفين (١/٢٧٢)، أعيان الشيعة (٢٢/١٤٠) الرسالة المستطرفة (٥٤)، وسير أعلام النبلاء (١٦/٤١٣) وقال في ترجمته:

صـــاحب التصانيف، سمع من عبدان الأهوازي، وأحمد بن يحيى التستري، وأبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي وأبي بكر بن أبي داود، ومحمد ابن جرير الطبري، وأبي بكر بن أبي داود، ومحمد ابن جريـــر الطـــبري، وأبي بكـــر بن دريد وإبراهيم نفطوية، ومحمد بن علي بن روح المؤدب، وأبي بكر بن زياد، والعباس بن الوليد الأصبهاني وطبقتهم.

حدث عنهم أبو سعد الماليني، وأبو بكر أحمد بن محمد بن جعفر اليزيدي الأصبهاني، وأبو الحسن علـــي بن أحمد النعيمي، وأبو الحسين محمد بن الحسن الأهوازن، والمقرئ أبو علي الحسن بن علي الأهوازي، وابن نعيم الحافظ، وأبو بكر محمد بن أحمد الوادعي، وعبد الواحد بن أحمد الباطرقاني، وأحمـــد بن محمد بن زنجوية، ومحمد بن منصور ابن حَبْكان التستري وعلي بن عمر الأيذجي وأبو سعيد الحسن بن علي بن بحر التستري السقطي، وآخرون.

قـــال الحافظ أبو طاهر السلفي: كان أبو أحمد العسكري من الأئمة المذكورين بالتصرف في أنواع العلـــوم، والشجر في فنون الفهوم، ومن المشهورين بجودة التأليف وحسن التصنيف، ألف كتاب «الحكم والأمثال» وكتاب «التصحيف» وكتاب: «راحة الأرواح» وكتاب: «الزواجر والمواعظ» وعـــاش حـــتى علـــت به السن، واشتهر في الآفاق انتهت إليه رئاسة التحديث والإملاء للآداب والتدريس بقطر خوزستان، وكان يملي بالعسكر وبتستر ومدن ناحيته.

أخـــبرنا بنـــسبه أبـــو علي الحسن بن علي أخبرنا جعفر بن منير اخبرنا أبو طاهر الحافظ حدثنا الحسين بن الطيوري أخبرنا أبو سعيد الحسن بن علي السقطي بالبصرة حدثنا أبو أحمد الحسن بن =

عبد الله بن سعيد بن إسماعيل بن زيد حكيم العسكري إملاءً سنة ثمانين وثلاثمائة بتستر، فذكر مجالس من أماليه، قال السلفي: هي عندي ولما توفي رثاه الصاحب بن إسماعيل بن عباد فقال:

قالوا: مضى الشيخ أبو حمد وقد رثوه بضروب السندب

فقلت: ماذا فقد شيخ مضى لكنه فَقْدُ فنون الأدب

أرّخ أبو حكيم أحمد بن إسماعيل بن فضلان العسكري اللغوي وفاة أبي أحمد في يوم الجمعة لسبع خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين ومائة. قلت: أظنه جاوز التسعين انتهى قول الذهبي في صاحب الترجمة. قلت: وأظن أن المراد ليس هو من ترجمت له ولكن أحسب أن المراد وهو: الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران أبو هلال اللغوي العسكري قال أبو طاهر السلفي: وكان لأبي أحمد تلميذ وافق اسمه واسم أبيه اسم أبيه وهو عسكري أيضًا، فربما اشتبه ذكره بذكره فإذا قيل الحسن بن عبد الله العسكري الأديب فهو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران أبو هلال اللغوي العسكري نسبة إلى عسكر مكرم.

وقد وجدت في شذرات الذهب كنية الأخر تغاير كنية هذا، فهذا أبو هلال وذاك أبو أحمد قال أبو طاهر سألت الرئيس أبا المظفر محمد بن أبي العباس الا بيوري رحمة بهمدان عنه، فأثنى عليه ووصفه بالعلم والفقه معًا وقال: كان يبرز (يتبرز) احترازًا من الطمع والدناءة والتبذل، وكان الغالب عليه الأدب والشعر. روى أبو الغنائم ابن حمادة المقرئ إملاء قال: أنشدنا أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري لنفسه:

قد تخطاك شباب وتفشاك مشيب

فأتى ما ليس يمضي ومضى ما لا يؤوب

فتأهب لسقام ليس يشفيها طبيب

لا توهمه بعيدًا إنما الآتي قريب

ومن شعر أبي هلال في تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة قوله:

وغيوم مطرزات الحواشي بوميض من البروق وخَفْرِ

كلما أرخت السماء عُسراها جمع القطر بين سفل وعَلْوِ

وهي تعطيك حين هبت شَمَالاً برد ماء فيها ورقة جَوّ

وترى الأرض في الملاءة ثلج مثل ريط لبسته فوق فرو

فاستعار المُرارُ منها لباسًا سوف يُمنتَى من الرياح بِنَصو

فكأن الكافورَ موضع ترب وكأن الجُمان موضع قَرْدِ

وليالٍ أطلن مُدّة درس مثلما قد مددن في عمر لَهْوِ

وقد روى عن أبي هلال أبو سعد السمان الحافظ بالري وأبو الغنائم ابن حماد المقرئ.

ومن مؤلفات أبي هلال العسكري الكثيرة أذكر:

١- كتاب التلخيص.
٢- كتاب صناعتي النظم والنثر.
٣- جمهرة الأمثال.
٤- معاني الأدب.
٥- كتاب التبصرة.
٦- شرح الحماسة.
٧- الدرهم والدينار.
٨- إعلام المعاني (في معاني الشعر).
٩- الفرق بين المعاني.
١٠- ديوان شعر.
١١- نوادر الواحد والجمع.
١٢- من احتكم من الخلفاء إلى القضاة.
١٣- الأوائل.
١٤- المحاسن (تفسير القرآن في خمسة مجلدات).
١٥- العمدة.
١٦- فضل العطاء على العُسر.
١٧- وما تلحقه فيه الخاصة.

وزاد صاحب البغية على هذه الكتب رسالة في العزلة والاستئناس بالوحدة. ويبدو أن المؤلف رحمه الله كان رقيق الحال، وكان يكتسب قوته بكده، نلمح ذلك في شعره الذي ضاق فيه بالحياة وتبرم بأهلها، وروى ياقوت في معجم الأدباء عن أبي طاهر السلفي قال: ومما أنشدنا القاضي أبو أحمد الموحد بتستر قال: أنشدنا أبو حكيم العسكري اللغوي قال: أنشدنا أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري لنفسه بالعسكر:

إذا كان مالي مال من يلفظ العجم ... وحالي فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعي بالأصالة والحجى ... وما ربحت كفي من العلم والحكم
ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي ... فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم

كذلك تدل الأبيات الآتية على أنه كان يمارس البيع والشراء بنفسه، وأنه كان في مجتمع لا يقدر العلماء والأدباء فهو يقول:

جُلوس في سوق أبيع وأشتري ... دليل على أن الأنام قرود
ولا خير في قوم تذل كرامهم ... ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهم عني رثاثة كسوتي ... هجاءً قبيحًا ما عليه مزيدُ

قال ياقوت في معجمه:

غَابُـوا فَلَـمْ أَدْرِ إلاَّ فِـي مَـسٍّ ... مِـنَ الـوَجْدِ أَوْ جُـنُوْنُ
لَيْلِـي لاَ يَنْبَغِـي حَـرَاكًا ... كَأَنَّـهُ أَدْهَـمُ حَـرُوْنُ

وقال سيدوك:

عَهْـدِي بِـهَ ورِوَاء الوَصْلِ يَجْمَعُنَا ... وَاللَّـيْل أَطْـوَالُه كَـاللَّمْحِ بِالْبَصَرِ
فَـالآنَ لَيْلِـي مُـذْنَا نُوافَدَيْـتِهِمْ ... لَـيْلُ العَزِيـزِ فَـصُبْحِي غَيْرُ مُنْتَظَرِ

وقال الرصافي[1]:

[٢٣/أ]/يَـا لَيْلَةً طَالَتْ عَلَى عَاشِقٍ ... مُنْتَظِـرٍ لِلـصُّبْحِ مِـيْعَادَا

=

وأمـا وفاته فلم يبلغني فيها شيء غير أني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه، وفرغنا من إمـلاء هـذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمسٍ وتسعين وثلاثمائة. وكتاب الأوائل هو آخر ما صنف المؤلف، ولم يعثر على أثر في التصنيف بعد هذا العام، ولهذا فإن ياقوت يرى أنه توفي سنة (٣٩٥) هـ رحمه الله رحمة واسعة، وقد مدحه أحد الشعراء بقوله:

واحـسن مـا قـرأت علـى كـتاب ... بخـط العـسكري أبي هـلال
ولـو أني جُعلـت أمـير جـيش ... لمـا قاتلـت إلا بالـسؤال
فـإن الـناس ينهـزمون مـنه ... وقـد ثبـتوا الأطـراف العـوالي

(١) الرصـافي هو: أبو عبد الله محمد بن غالب الأندلسي الرفاء. الشاعر المغربي ترجم له: ابن الأبار في الـتكلمة (٢/٥٢٠)، ابـن خلكـان في الوفيات (٤/٤٣٢)، الذهبي في تاريخ الإسلام (ق ٤٦/ ٢٩١٧/ ١٤) والصفدي في الوافي (٤/٢٩)، ابن العماد في شذرات الذهب (٤/٢٤٢)، الذهبي في سـير أعلام النبلاء (٢١/٧٤) وقال: من رُصافة الأندلس. سار نظمه في الآفاق وتوفي في رمضان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بما لقه. ورصافة: بليدة بقرب بلنسية، أنشأها عبد الرحمن بن معاوية الـداخل. وقـال ابن العماد في شذرات الذهب في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة: وفيها الأديب الـرفاء أبو عبد الله محمد بن غالب الأندلسي الشاعر المشهور ديوانه كله مِلَح ومن شعره في غلام نساج:

قالـوا وقـد أكثـروا في حـبه عـذلي ... لمـذاتهم بمـذالٍ ومبـتذلِ
فقلـت: لـو كـان أمري في الصبابة لي ... لاخترت ذاك ولكـن لـيس ذلك لي
أحبيـته حـبي الثغـر عاطـره ... حلـو اللمـى سـاحر الأجفان والمقل
غـزيل لم يـزل في الغـزل جائلـه ... نـبانه جـولان الفكـر في الغـزل
جـذلان تعلـب بالحـراك أنملـه ... علـى الـسدى لعـب الأيـام بالدول
جـذبا بكفـيه أو فحـصًا بأخمـصه ... تخـبط الظـبي في أشـراك محتـبل

كَـــادَتْ تكُــوْنُ الحَــوْلَ فِي طُوْلِهَا إِذَا مَـــــضَى أَوَّلُهَـــــا عَـــــادَا

وفي ليلة مطيرة[١]:

أَقُـــولُ وَفِـــي اللَّـــيْلِ امْـــتِدَادٌ وَأَدْمُـــعُ الغَـــيْثِ فِي انـــسِفَاحِ

أَظُـــنُّ لَيْلِـــي بِغَيْـــرِ شَـــكٍ قَدْ بَاتَ يَبْكِـــي عَلَـــى الـــصَّبَاحِ

[ما قالوه في طول الليل وقصره] [٢]

فأمّـــا ما قالوه في قصر الليل وسرعة انصرافه، وقرب ما بين أطرافه فهو من أوصاف ليالي الوصل وعند اجتماع الشمل واتصال الحبل، فإن سمحت هذه الحبيبة بالتداني، ودنت ثمار وصلها من يد الجاني، وصفت الليل بقدر ما أجده في ليلة وصلها، وأما الآن فأنا قانع إن تمست بخيالها وكيف يزور الطيب ساهرًا؟/ [٢٣/ ب]أم كيف يقر من يكابد وجدًا ثائـــرًا؟ وقد أتى الشعراء في وصف الطيف بالأوابد الفرائد وجاء وأمنه بما هو أحسن من دُرّ القلائد في أجياد الخرائد.

وأبو تمام[٣] والبحتري وإن أجادا في هذا المضمار وكان لهما مزية الاختراع والابتكار

---

(١) كـــم هـــو طـــويل ليل الحزن والأسى والخوف والبرد والجوع فهذه من الأسباب التي تجعل الليل طويلاً حزيناً ثقيلاً كيف وهذه الليلة جمعت بين كل ما ذكرت مع هطول المطر الغزير الذي يكاد يـــشارك الشاكي وكأنه دموع السماء تنساح منها حزنًا وأسى على ما أصابه من الآلام التي منها هجر الحبيب وبعد الدار، وقلة الأخبار حتى كاد يظن أن ليس وراء هذا الليل من صبح من انعزاله فيه بلا أنيس ولا جليس ولا مواس يبكي هو والسماء على حاله غير راج للصبح انبلاج.

(٢) زيادة من عمل المحقق غفر الله له.

(٣) هـــو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس أبو تمام الطائي ترجم له كثير من المصنفين وترجمت في ســـيرته الكـــتب وقـــد جاءت ترجمته في: الأغاني (١٦/٣٨٣)، طبقات الشعراء (٢٨٣)، تاريخ الطـــبري (٩/١٢٤)، الفهرست (١٩٠) تاريخ بغداد (٨/٢٤٨)، وفيات الأعيان (٢/١١)، العبر (١/٤١١) الـــبداية والنهاية (١٠/٢٩٩)، النجوم الزاهرة (٢/٢٦١)، شذرات الذهب (٢/٧٢)، خـــزانة الأدب (١/١٧٢)، تهذيب ابن عساكر (٤/١٨)، معاهد التنصيص (١/١٤)، كتاب أخبار أبي تمـــام، وكـــتاب الموازنة بين الطائيين، وسير أعلام النبلاء (١١/٦٣) وقال في ترجمته: شاعر العـــصر أبـــو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي من حوران من قرية جاسم. أسلم وكـــان نصرانيًا ومدح الخلفاء والكبراء وشعره في الذروة، وكان أسمر طوالاً فصيحًا عذب العبارة مع تمتمة قليلة.

وُلد في أيام الرشيد، وكان أولاً حدثًا يسقي الماء بمصر، ثم جالس الأدباء وأخذ عنهم وكان يتوقد ذكـــاء، وســـحت قريحته بالنظم البديع فسمع به المعتصم، فطلبه، وقدمه على الشعراء، وله فيه =

شعرهما يدل على طول نوم واستغراق يُوصل ليله بيوم. والبحتري أشدهما نومًا، وأنا أكثر لومًا قال أبو تمام:

زَارَ الخَيَالُ لَهَا لاَ بَلْ أَزَارَكَهُ فِكْرٌ | إِذَا نَامَ فِكْرُ الخَلْقِ لَمْ يَنَمِ

قصائد، وكان يوصف بطيب الأخلاق والظرف والسماحة.

وقيل: قدم في زي الأعراب، فجلس إلى حلقه من الشعراء، وطلب منهم أن يسمعوا من نظمه، فشاع وذاع وخضعوا له، وصار من ما صار، فمن شعره:

فحواك عين على نجواك يا مَذِلُ | حتام لا يتقضى قولك الخطل

المذل: الحذر الفاتر.

فإن لمسمع من يشكو إليه هوى | من كان أحسن شيء عنده العَذَلُ

ما أقبلت أوجه اللذات سافرة | مذ أدبرت باللوى أيامنا الأوَلُ

إن شئت أن لا ترى صبرًا لمصطبر | فانظر على أي حال أصبح الطلل

كأنما جاد مغناه فغيره | دموعنا يوم بانوا فهي تنهمل

وقد كان البحتري يرفع من أبي تمام، ويقدمه على نفسه ويقول: ما أكلت الخبز إلاّ به، وإني تابع ... وديوان أبي تمام كبير سائر، ولما مات رثاه محمد بن عبد الملك الوزير فقال:

نبأ ألمْ مُقلقِلُ الأحشاء | لما أتى من أعظم الأنباء

قالوا حبيب قد ثوى فأجبتهم | ناشدتكم لا تجعلوه الطائي

وللحسن بن وهب الوزير:

فجع القريض بخاتم الشعراء | وغدير روضتها حبيب الطائي

ماتا معًا فتجاورا في حفرة | وكذاك كانا قبل في الأحياء

وكان ابن وهب قد اعتنى بأبي تمام وولاه بريد الموصل فأقام بها أكثر من سنة. ومات في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين. وقال مخلد الموصلي: مات في المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. وأما نفطويه وغيره فأرخوا موته بسامراء في سنة ثمان وعشرين ومائتين. ويقال: عاش نيفًا وأربعين سنة. عفا الله عنه ورحمه. قال الصولي: كان واحد عصره في ديباجة لفظه وفصاحة شعره وحسن أسلوبه، ألف الحماسة فدلت على غزارة معرفته بحسن اختياره، وله كتاب: «فحول الشعراء» وقيل: كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب، وقيل: أجازه أبو دُلف بخمسين ألف درهم، واعتذر.

ظَبْـــيٌ تَقَنَّـــصَتُهُ لَمَّـــا نَـــصَبْتُ لَـــهُ فِي آخِـــرِ اللَّـــيْلِ أَشْرَاكًا مِنَ الحُلُمِ(١)

وقال:

عَـــادَكَ الـــزُّوْرُ لَـــيْلَةَ الـــرَّمْلِ مِـــنْ رَمْلَةٍ بَيْنَى الحِمَى وَبَيْنَ المُطَالِ

/[٢٤/أ]ثُمَّ فَما زَارَكَ الخَيَالُ وَلَكِنَّكَ بِالفِكْـــرِ زُرْتَ طَـــيْفَ الخَـــيَالِ

وقال:

اللَّيَالِـــي أَحفَى بِقَلْبِي إِذَا مَا جَرحَتْهُ النَّوىَ مَنَ الأَيَّامِ يَا لَهَا مِنْ لَيْلَةٍ تَنَزَّهَتْ الأَرْوَاحُ فِيهَا سِرًّا مِنَ الأَجْسَامِ مَجْلِسٌ لَمْ يَكُنْ لَنَا فِيهِ عَيْبٌ غَيرَ أَنَّا فِي دَعْوةِ الأَحْلاَمِ هذا من مذهب القوم.

وقال البحتري:

وَإِنِّـــي وَإِنْ ضَـــنَّتْ عَلَـــيَّ بِوُدِّهَا لأَرْتَـــاحُ مِـــنْهَا لِلخَـــيَالِ المُـــؤَرِّقِ

يَعِـــزُّ عَلَـــى الوَاشِيْنَ لَوْ يَعْلَمُونَهَا لَـــيَالٍ لَـــنَا تَـــزْ دَار فـــيها وَتَلْتَقِـــي

فَكَـــمْ غُلَّـــةٍ لِلشَّوْقِ أَطْفَأَتُ حَرَّهَا بِطَـــيْفٍ مَتَى يَطْرُقُ دُجَى اللَّيْلِ يَطْرُقِ

أَضَمَّ عَلَيْهِ جِفْنُ عَيْنِـــي تَعَلُّقًـــا بِهِ عِنْدَ إِجْلاءِ النُّعَـــــاسِ المُرَنَّـــقِ(٢)

---

(١) يـــريد أن طيف الخيال إنما يأتي نتيجة شدة التركيز وكثرة التفكير وعمق الغوص في أحلام اليقظة التي تجعل الإنسان بين اليقظان والنائم فيرى أو يتمثل له المحبوب وكأنه قائم بين يديه وهو يصرفه كـــيف يـــشاء فـــيقوله ما يريد أن يقول له ويجلسه كما يحب أن يجلسه ويحركه كما يحب أن يحركه، فما لم يقدر عليه في حال الحقيقة والواقع والمعايشة يصرفه في خياله كيفما شاء في خياله، فهـــو لا حالم ولا يقظان إذ أن فكره معايش من يحب معايشه تامة يرسم له أحلى الصور وأبهاها، ويـــضحكه ويـــضاحكه ويـــسامره بما يريد، ويجيبه الطيف بما أحب أن يجيبه فإن الناس ينامون والعاشـــق يظن أنه نائم ولكنه يقظان يقلب فكره في معشوقه، ثم يقول لقد زارني محبوبي في نومه وما كان منه نوم لتكون زيارة.

(٢) هـــذا قد أحسن التصرف مع معشوقة، فأراح نفسه ولم يجهد معشوقة ولم يظهر التذلل والخضوع الـــشديد لـــه بل فكر في طريقة سهلة تجلب إليه معشوقة وفي أبهى صورة وأصفى حالاته وأسعد أوقاتـــه وتمام انتشائه وسعادته فراح يضبط نفسه على أن يجلب طيفه أنّى شاء من ليل أو نهار أو عندما يجد أن معشوقة مشغول أو متمنع أو تحول بيته وبينه الأسباب المانعة من الحضور فأحضر طـــيفه وســـامره وحاكاه وضاحكه وصافاه وغازله وهناه، ثم تركه ينصرف عندما يشاء هو على مـــوعد آخـــر لن يخلفه أبدًا فهو قد مرس نفسه ودربها على كيفية إحضاره في الوقت الذي يريد بالشكل الذي يعجبه والحالة التي يريدها فيعرفه مطمئن البال قرير العين رضي النفس.

ثم إنـــه في تـــصرفه هذا مع طيف الخيال يضمن أمور كثيرة يخافها في الحياة والواقع فهو في الواقع يخـــاف العـــيون والواشين والحســـاد والمتقولين والمنغصين عليهما، أما في هذا الطيف الجميل فلن =

/[٢٤/ب] وقال:

بَلَى وَخَيَالٌ مِن أُثَيْلَةَ كُلَّمَا ... تأَوَّهْتُ مِنْ وَجْدٍ تَعَرَّضَ يَطْمَعُ
إذا زورتٌ منه تَقَضَّتْ مع الكَرَى ... تَنَبَّهْتُ مِن وَجْدٍ لَهُ أَتَفَرَّعُ
تَرَىَ مُقْلَتِيَّ مَا لاَ تَرَى فِي لِقَائِهِ ... وتَسْمَعُ أُذْنِيَّ رَجْعَ مَا لَيْسَ يَسْمَعُ

وقال:

أَلَمَّتْ بِنَا بَعْدَ الهُدُوِّ فَسَامَحَتْ ... بِوَصْلٍ مَتَى تَطْلُبْهُ فِي الجَدِّ تَمنَعُ
وَمَا بَرِحَتْ حَتَّى مَضَى اللَّيْلُ وَانْقَضَى ... وَأَعْجَلَهَا دَاعِي الصَّبَاحِ المُلَمَّعِ
وَرَبَّ لِقَاءٍ لم يُؤَمَّلْ وَفُرْقَةٍ ... لأَسْمَاءَ لَم تَحْذَرْ وَلَمْ تَتَوَقَّعِ
أَرَانِيَ لاَ أَنْفَكُّ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ... تُعَاوِدُ فِيهَا المَالِكِيَّةُ مَضْجَعِي
أُسَرُّ بِقُرْبٍ مِنْ مُلِمٍ مُسَلِّمٍ ... وَأَشْجَى بِبَيْنٍ مِنْ حَبِيبٍ مُوَدِّعِ[١]

يخترق عليه خلوته أحد وإن كان جليسه أو ضجيعه، فهذا عالمه هو وطيفه لا يشاركه فيه غيره فانظر كم يكون الصفو والاطمئنان والاستقرار والسعادة حينما تخلو بمعشوقك دون واشٍ ولا رقيب وبلا حد للوقت فأنت السيد المتصرف في كل شؤونه وأموره، وهو لا يملك معك أمر بل تتصرف فيه كيف تشاء فيجيبك بلا تردد، وهل تريد أكثر من ذلك إنه طيف الخيال يصنع ما هو في الحياة محال.

وهو يختار الوقت الذي يحضره فيه بعناية حتى لا يقطع عليه خياله وأحلام قاطع من قواطع الحياة بأن ينادي عليه مناد أو يطرقه ضيف أو ما شابه ذلك فهو يختار الليل لهدوئه وسكونه وصفائه وطوله ودجاه وستره ثم يرسل رسوله الخيال فيحضر الطيف في الحال ودون أدنى علة أو أعذار في الصورة التي يريد بالتمام والكمال فما هو إلا أن يضم جفني عينيه حتى يحضر في الحال بأسرع ما يكون أليس هو طيف الخيال، فترتسم الصورة في أبهى مقصورة يحفها الخدم والحشم وتجلس بين يديه بعد أن تلقي التحية والسلام عليه وتنتظر إشارة من يديه لتنفذها دون تعقيب عليه، بل في لهفة وشوق لتدخل السرور عليه.

(١) هو هنا يحكي لنا ليلة أحضر فيها طيف الخيال واصفًا جمال هذه الليلة فيقول: إنها زارته في ليلة بعد هدوء الليل وكانت معه في أصفى حالاتها، فسمحت له بكل ما يشتهي ويتمنى من قول وفعل بما لا يمكن أن تقوله أو تفعله في الحياة منذ عرفها إلى هذه الساعة، فهي معه في الحالة التي يرجو ويتمنى فقد سمحت له بكل محظور أو ممنوع أو مرفوض فأباحت له كل ذلك وظلت معه على تلك الحال لا تعصي له أمرا لا ترد له طلباً، ولا تمنع له يداً، ولا تكف له لساناً، ولا تقطع عليه حديثًا إلى أن داهمه الصباح، فهو يرى أن تلك الليلة من أبهى لياليه، ويتمنى أن تتكرر معه مرارًا يراها فيه، ولا تنقطع لها تلك العادة لتدوم عليه السعادة حتى أنه كان عند انصرافها ووداعها في

/ [٢٨/ أ]وقال:

إِذَا مَـا الْكَـرَى أَهْـدَى إِلَيَّ خَيَالَهُ   شَـفَى قُـرْبُهُ التَّقْرِيحَ أَوْ نَقَعَ الصَّدَا
إِذَا انْتَـزَعَتْهُ مِـنْ يَـدَيَّ انْتِـبَاهَةٌ   عَـدَدْتُ حبيـبًا راحَ مِنِّي أو غَدَا
وَلَـمْ أَرَ مثلَيـنا وَلاَ مِـثْلَ شَـأْنِنَا   نُعَـذَّبُ أَيْقَاظًـا وَنَـنْعَمُ هُجَّعا[(١)]

وقال:

ولـيلة هَوَّمْـنَا مَـعَ العيس أَرْسَلَتْ   بَطـيْفِ خَـيَالٍ يُـشْبِهُ الحَقَّ بَاطِلُهُ
فَلَـوْلاَ بَـياضُ الـصُّبْحِ طَالَ تَشَبُّثِي   بِعِطفَـيْ غَـزَالٍ بِتُّ وَهْنًا أُغازِلُه[(٢)]

فانظر إلى تناسب ألفاظه وحسن معانيها واعتبر شدة النوم المودع فيها.

=

حالة شجيٌ فيقول:

وأشجى ببين من حبيب مودع   انظر إلى ماذا صار حاله؟

(١) في المخطـوط هجـداء، وهو تحريف واضح، وهو هنا يتمنى أن يراه في النوم، ويعتبر هذا إهداءً جميلاً طيبًا من النوم إذا ساق إليه خيال حبيبة فإن مثل هذه الزيارة منه تشفي غليل وتروى عطش وظمـأ طال به وها هو قد وضع بين يديه ما يرويه ويرد ما به من الصدى الذي وقع فيه من شدة الـشوق والحـنين والرجاء للقاء لقد تكرم عليه الكرى واهدي إليه معشوقة في ليلة صفاء وهناء فأروى غليله ورد عطشه وهو يخشى أن ينتبه من ذلك النوم حتى لا يفر حبيبه من يده، ويتمنى أن يطول ذلك الليل وليسعد بذلك اللقاء حتى لا ينصرف خيال حبيبه.

ثم هو يتعجب من حالهما إذ إنهما في الحياة الحقيقية يعذبان وفي الكرى والنوم والخيال ينعمان ينال مـا يـرجوان من بعضهما منامًا، ولا يعرفان في الحياة إلاّ الآلام والتعب والعذاب من عدم تحقق الأحلام، فهو يتمنى أن يظل نائمًا لينعم بحبيبه خير له من أن يستيقظ فيتألم ببعاده أو فراقه.

(٢) يحكـي عـن ليلة رأى فيها حبيبه في نومه في طيف خياله فهام في فيافي الصحراء كما تهيم العيس غـير قاصـدة بل ذاهبة، حيث قادتها أرجلها فهو وهي لا هدف لهما سوى إرواء الغليل وإطفاء الشعيل وإسكان الظمأ وجبر الخاطر وكأنهما ليسا في منام بل هم في حق وحقيقة وحياة طبيعية لا ينقـصها شـيء حـتى أنه لا يريد أن يخطر بباله أن مجرد منام ولكن لابد مما لا بد منه ألا وهو ابـتلاج الـصبح أو الاستيقاظ من النوم وذهاب طيف الحبيب والعودة إلى مكابدة الأسى والألم والـشوق والحنين والتمني والرجاء والانتظار والتلهف. فقد كان في نومه يعاطف ويناجي ويناغي غـزاله وإن كـان تشبيهًا ليس حقيقيًا وأمرًا إنما هو خياليًا إلاّ أنه لا يحاكي الحقيقة وحسب بل يفـوق الحقـيقة بمراحل بعيدة إذ لا يمكن أن نقول في الحقيقة ما نقوله في الخيال ولا نستطيع أن نفعل في الحقيقة ما نفعله في الخيال.

إن في الخـيال حرية كاملة في القول والفعل والحركة والسكنة والتصريح المبين عن مكنون ما في النفوس تجاه بعضهما البعض ففيه ينفس الرائي عن مكنون نفسه بجلاء ورضا.

وقال مهيار[(١)]:

فِــي الظِّــبَاءِ الغَــادِيْنَ أَمْــسِ غَــزَالُ قَــالَ عَــنْهُ مَــا لاَ يَقُــوْلُ الخَيَالُ

لَــمْ يَــزَلْ يَخْــدَعُ البَــصِيْرَةَ حَتَّــى سَــرَّنِي مَــا يَقُــولُ وَهُــوَ مُحَالُ

/[٢٨/ب]لاَ عَدِمْتُ الأَحْلاَمَ كَمْ نَوَّلَتْنِي مِــنْ عَزِيْــزٍ صَــعْبٌ عَدِيْمُ النَّوَالُ

ولقد أبان عن نوم شديد من قال:

وَمَــا لَــيْلَةٌ فِــي الدَّهْرِ إلاَّ يَزُوْرُنِي خَــيَالُكَ إلاَّ لَــيْلَةٌ لاَ أَنَامُهَــا[(٢)]

وقد سلم مهيار مما وقعوا فيه حيث قال:

وَابْعَــثُوا لِــي أَشْــبَاحَكُمْ فِي الكَرَى إِنْ أَذِنْــتُم لِجُفُونِــيَ أَنْ تَــنَامَا[(٣)]

---

(١) هو مهيار بن مرزويه أبو الحسن الكاتب الفارسي جاءت ترجمته في:
تـاريخ بغـداد (١٣/٢٧٦)، دمية القصر (١/٣٠٣)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الرابع المجلد الثاني (٥٤٩) المنتظم (٨/٩٤)، الكامل في التاريخ (٩/٤٥٦)، وفيات الأعيان (٥/٣٥٩)، المختصر في أخبار البشر (٢/١٦٠) العبر (١٢/١٦٦)، البداية والنهاية (١٢/٤١)، النجوم الزاهرة (٥/٢٦)، شـذرات الـذهب (٣/٢٤٢)، تاج العروس (٣/٥٥١)، وكتاب مهيار الديلمي بحث وتحليل لإسماعيل حسين.
قال سير أعلام النبلاء (١٧/٤٧٢) وقال:
الأديب الباهر، ذو البلاغتين أبو الحسين الديلمي، الفارسي، كان مجوسيًا فأسلم، فقيل: أسلم على يد الشريف الرضى فهو شيخه في النظم وفي التشيع، فقال له ابن برهان: انتقلت بإسلامك في النار مـن زاوية إلى زاوية كنت مجوسيًا، فصرت تسب الصحابة في شعرك وله ديوان، ونظمه في الذروة جزل حلو يكون ديوانه مئة كراس. توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة.
وقال الخطيب في تاريخ بغداد: شاعرًا جزل القول مقدمًا على أهل وقته، وكنت أراه يحضر جامع المنـصور في أيـام الجمعـات ويقرأ عليه ديوان شعره، فلم يُقَدَّر لي أن أسمعَ منه شيئًا ومات ليلة الأحد لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة.
(٢) ربمـا دل ذلـك على النوم الشديد الثقيل الذي يدل على عدم الأكتراث، وربما دل على التناوم وإظهـار النوم أو جلبه بغلق العين واجترار صور المحبوب حتى يحضر طيفه فيقضي معه الوقت ويـسعد بلقائه ويطول معه الاجتماع والحديث والتدليل والمسامرة والمضاحكة حتى يصبر نفسه إلى حـين اللقاء فمن يراه يظنه نائماً وفي حقيقة الأمر أنه إنما هو في حالة استجلاب طيف خيال محبوبه يصطبر به على طول الغياب وتسلى به إلى حين الإياب فهو يهوى الليل ليتناوم ليراه إلاّ أنه يغيب عنه حين يكون ليلاً يقظانًا فهو لا يزور، فلما لا يحب النوم إن كان فيه الزيارة؟!.
(٣) أمـا هـنا فهو لا ينام ولا يتناوم حيث قدرته على التخيل وجلب طيف المحبوب قليلة فهو محب معـذب يطـول عليه الليل ويطوي النهار في انتظار إذن بالزيارة الحقيقية أو البدنية نهارًا وهو لا =

ولابن التعاويذي[1] مزية على الأوائل والأواخر حيث قال:

=

يستطيع النوم إلاّ بإذن المحبوب، فإن أراد أن ينام فقد اشترط على المحبوب أن يزوره في النوم وإلاّ فلا سعادة له في النوم بل راحته في ذلك العذاب الذي هو الجوى والضنا فيظل ليله ساهرًا مفكرًا خير له من أن ينام ولا يزار، نعم هناك من يستلذ العذاب في هوى المحبوب، ويرى أن ذلك من حقه عليه إذ كيف ينام ومحبوبه يعذب بالسهر والسهاد فعليه أن يعاني ما يعانيه ويكابد ما يكابده.

(١) هو محمد بن عبد الله ويقال:

محمد بن عبيد الله، ويقال: محمد بن تشكين أبو الفتح، البغدادي، التعاويذي الأديب الشاعر، ومن مصادر ترجمته:

سير أعلام النبلاء (٢١/١٧٥)، الأعلام (٦/٢٦٠)، ديوان الإسلام (ت ٦١٨)، هدية العارفين (٢/١٠١)، معجم المؤلفين (١٠/٢٧٨)، معجم الأدباء (١٨/٢٣٥)، كشف الظنون (٦٣٠)، شذرات الذهب (٤/٢٨١)، العبر (٤/٢٥٣)، وفيات الأعيان (٢/٢٥)، المختصر في أخبار البشر (٣/٨٠)، مرآة الجنان (٣/٣٠٤)، البداية والنهاية (١٢/٣٢٩)، الوافي بالوفيات (٤/١١)، نكت الهميان (٢٥٩)، النجوم الزاهرة (٦/١٠٥)، التكملة (١/٦٠)، الروضتين (٢/١٢٣)، تاريخ ابن الوردي (٢/١٠٠)، المختصر المحتاج إليه (١/٦٦)، قال الذهبي في سير أعلام النبلاء:

رئيس الشعراء أبو الفتح محمد بن عبيد الله، التعاويذي، البغدادي، الأديب، سبط المبارك ابن المبارك التعاويذي. كان والده من غلمان بني المظفر، وكان هو كاتبًا بديوان المقاطعات وديوانه مجلدان. روى عنه: علي بن المبارك بن وارث آخر بآخره، ورثى عينيه وأيام شبابه، ونظمه فائق. عاش خمسًا وستين سنة ومات في شوال سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

قلت: ولد سنة (٥١٩) في العاشر من رجب، وقيل توفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

ومن مؤلفاته: الحجبة والحجاب وديوان شعر في مجلدين.

وقال ابن العماد في شذرات الذهب في ترجمته في وفيات سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وفيها: أبو الفتح ابن التعاويذي محمد بن عبد الله الكاتب الشاعر المشهور، نسب إلى التعاويذي لأنه نشأ في حجرة وهو جده لأمه، كان شاعرًا لطيفًا عذب الكلام سهل الألفاظ سار نظمه في الآفاق وتقدم على شعراء العراق، وعمي في آخر عمره، وجمع ديوانه بنفسه قال ابن خلكان كان شاعر وقته لم يكن فيه مثله جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها وهو في غاية الحسن والحلاوة وفيما اعتقده لم يكن قبله بمائتي سنة من يضاهيه وله في عماه أشياء كثيرة يرثي عينيه وزمانه وشبابه ونضرته، وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل العمى، وعمل له خطبة ظريفة ورتبة أربعة فصول، ولما جدده بعد ذلك سماه الزيادات وفي بعضها مكملاً بالزيادات، ولما عمي كان باسمه راتب في الديوان، فالتمس أن ينقل باسم أولاده فنقل، وكان وزير ابن البلدي قد عزل أرباب الدواوين وحبسهم وحاسبهم، وصادرهم وعاقبهم، فقال ابن التعاويذي:

يا رب أشكو إليك ضرًا أنت على كشفه قدير

=

قَالَتْ تَقْنَعُ أَنْ أَزُوْرَكَ فِي الكَرَى وَتَبِيْتُ فِي حُلْمِ المَنَامِ ضَجِيْعِي
وَأَبِيْكَ مَا سَمَحَتْ بِطَيْفِ خَيَالِهَا إلاَّ وَقَدْ مَلَكَتْ عَلَيَّ هُجُوْعِي

وقال آخر:

رَجَوْتُ طَيْفَ خَيَالٍ وَكَيْفَ لي بِهُجُوعِ
وَالذَّارِيَاتُ جُفُونِي وَالمُرْسَلاَتُ دُمُوْعِي

/[٢٩/أ]وقد ظرف القائل:

طَيْفُ خَيَالٍ هَاجِرِي أَلَمَّ بِي وَمَا وَقَفْ
عَاتَبَنِي عَلَى الْكَرَى ثُمَّ نَفَاهُ وَانْصَرَفْ

وأنشدني شمس الدين الواعظ الكوفي[١]:

قُلْ لِمَنْ نَالَ حَظَّهُ مِنْ رُقَادٍ جَاعِلاً حُجَّتَهُ لِطَيْفِ الخَيَالِ

=

السيس صرنا إلى زمان فيه أبو جعفر وزير

وكانت ولادة ابن التعاويذي في العاشر من رجب يوم الجمعة سنة تسع عشرة وخمسمائة. وتوفي في ثاني شوال (أي في سنة أربع وثمانين وخمسمائة). والتعاويذي نسبة إلى كَتْبِ التعاويذ، وهي الحروز.

قلت: وهذه التعاويذ يعتقد بها بعض الجهال إلى أيامنا هذه والعجيب أنه صارت هناك قنوات فضائية تبث هذه الأفكار في الآفاق العربية بثًا قويًا يجعل الناس البسطاء السذج ترسخ في أذهانهم هذه الخرافات أمثال قراءة الفنجان والأحجبة والكوتشينة (الورق) وقراءة الطالع والقراءة على الماء وما شابه ذلك، فلينتبه القراء إلى ذلك ولينبهوا إليه وليحذروا الناس من شر ذلك على عقائدهم وتوحيدهم.

(١) هذا شاعر لائم على النائم جاعلاً حجته واهية إذ سُئل كيف تنام وأنت من أهل العشق وأصحاب الهوى فيقول إنما أنام ليزورني طيف خيال المحبوب كي يلطف لما بي من الجوى، فهو يقول له: إنما أنت مدع إنما تريد أن ترقد لتستريح ولو كنت محبًا حقًا لفارقك النوم وخاصم جفونك. ثم إنه يقول له لو أنك صادقٌ في حبك وأضناك هذا الحب لحنوت عليك وجئت إليك لكني وجدتك لا تستحق هذا الجهد، فأرسلت إليك طيفي بدلاً عني وهذا يكفيك على قدر ما فيك من هذا الادعاء.

فلو كنت صادقًا لما قرّ لي جفن ولا هدأ لي بال حتى أحاول لك الوصال مهما تربص بي الرقباء والعذال، ولكن ليس يكافئ المحال إلا المحال، ولا يكافئ الادعاء إلاّ الخيال حتى أتيقن من صدق حالك من سلوك شخصك لأمثالك ساعتها سأبادر بالحضور إليك والمثول بين يديك والسلام عليك والجلوس إليك والأنس بك والهنا يقربك والسعادة بالنظر إلى جمال عينيك.

لَـوْ تَـيَقَّظْتَ جِـئْتُ نَحْوَكَ لَكِنِّي أَرْسَـلْتُ حِـيْنَ نِمْـتَ مِثَالِـي
لَـوْ صَـدَقْتَ الهَـوَى صُـدِقْتَ وَلَكِـن مَا جَزَاءُ المُحَالِ غَيْرُ المُحَالِ

وأجاد مجد الدين محمد بن الظهير الحنفي الأربلي حيث قال:

أَأَحْبَابَـنَا إِنْ فَـرَّقَ الدَّهْـرُ بَيْنَـنَا وحَـازَكُمْ مِـنْ بَعْـدِ قُرْبِكُمُ البُعْدُ
فَـلاَ تَبْعَـثُوا طَـيْفَ الخَيَالِ مُسَلِّمًا فَمَـا لِجُفُونِـيَ مِنْ بَعْدِكُمُ عَهْدُ(١)

وقد ظرف القائل في خلاف ما قالوه(٢):

---

(١) أمـا هـذا فقد أعرب عن صدق سريرته وظاهره حيث قال صريحًا لن أنام فلا داعي؛ لأن تجهد نفسك أيها المحبوب في إرسال طيفك فليس لي في سواك بديل لا في يقظتي ولا في منامي ولن أنام ولـن تقر لي عين حتى أنال ما أرجو وأتمنى وإلاّ فالهلاك أعز أماني فما قيمة الحياة بدونك وكيف أعـيش ولست جوارك، فسأظل على العهد لن اغمض العين التي بصرتكم ولن اغفلها عن جمال تـوديعها لكم وسأظل أرهقها حتى أمتعها بسعادة عودة الرؤيا لشخصكم عند عودتكم لترقبكم مـنذ بداية مرماها إلى أن تصيروا بين أحضانها وتقروا في قرارها ومنتهاها أليس ذلك داعيًا لها إلى أن تصير منتظرة هذا اللقاء الجميل وحافزًا على الترقب الدائم للطريق المحتمل أن تعود منه، فإن لم يكـن هـذا حافزًا لها، فلا يحق لها أن تعيش ولا أن تتمتع بالنور والبدر والزهور دون بدر هو لي البدر وزهر هو لي الزهر ونسيم هو لي النفس وإلاّ فالرحيل هو الأمل.

(٢) هـذا يـرى أن المحـب لا بد أن يكابد ويلات البعد والهجر والشوق والحرمان حتى يشعر بقيمة المحبوب حين يكون بين يديه أما أن يرى محبوبة متى شاء وعندما يريد وإذا أراد أن يجالسه جالسه وإذا أراد أن يفارقه فارقة وإذا أراد حتى أن يضاجعه ضاجعه كيف يكون هذا؟ ما هذا إلا للمحبين الأزواج أو لـلأزواج العـشاق فهؤلاء أنعم أنواع العشاق إذ هم محبون منالون تنمو بينهم أواصر المحـبة طيلة الأيام لا يخبو لهم ضوء ولا يهدأ لهم بال إلا بمخاطبة بعضهم البعض ومجالسة بعضهم البعض ويظن من ليس له دُربه ولا خبرة بالعشق أن هؤلاء قد يمل أحدهم الآخر مع طول القرب، لا بل هم أهل حظ ونعيم حباهم الله بذلك الرزق والنعيم يبات أحدهم في حضن محبوبه لا يفارقه وهو معه في غاية الخوف من الفراق فهو لا يخاف إلا غوائل الأيام، لكنه طيلة الوقت معه، ولكن هذا الخوف الدفين فيه وفيها يجعلهما دائمًا على قرب قريب والتصاق شديد، وذلك الخوف الذي هـو المنغص الوحيد لهما إذ لا رقيب يخافون ولا حاسد يهابون ولا بواش يهتمون فهم أهل نعيم كمـا قلـت خـوفهم فقط من الدهر الذي يخبئ المفاجآت وأخوف خوفهم الفراق المجبر عليه أحدهم أو المرض الذي قد يداهم بعضهما أو الموت الذي هو مصير كل العباد لكنهما الموت لا يـرهبانه بل ربما يتمنيانه حتى يذهبا وقد استوفيا حظهما من بعضهما أو من الدنيا دون نقصان إذ مـاذا في الدنـيا بعد الدين غير الخلي الوفي والصاحب الصفي والعشير الرضي، فالموت ليس له عليهما سطوة ولا هيبة إلاّ الهيبة التي أودعها الله فيه فإن المحبوب علم المحب أنه قريبًا إليه صائر وله مـلاق على يقين ما داموا قد اتحدوا على دين، وإن تثاقلت الأيام بعد موت أحدهم إلاّ أن عزاء

=

/[٢٩/ب] أَتَظُنُّ أَنَّكَ عَاشِقٌ وَتَبِيتُ بِالْمَحْبُوبِ جَمُّ ثم
الطَّيْفُ أَعْشَقُ مِنْكَ إِذْ يَسْرِي إِلَيْهِ وَأَنْتَ نَائِمُ

وما زلت أعاني القلق، وأكابد الأرق، حتى برق عمود الصباح، وأعلن الداعي بحي على الفلاح، وظهرت تباشير النهار، وأنا أذكر ما قيل في ذلك من الأشعار قال علي بن الجهم[1]:

=

الآخر أن صاحبه قد مضى على عهده وأنه إليه صائر غير مخلف لما تركه عليه.

وأنا أرى أن هذا أنقى أنواع العشق وأفضل حظ لمن رزق العشق فلا يعشق سوى من هو له حلال ومنال، وليس هذا من تصرفات البشر، ولكنه كما قلت رزق وحظ لمن هو «ذو حظ عظيم»، ولكن هل يستطيع الإنسان أن يختار حظه؟ طبعًا لا فأنا أرى أنه أوفق أنواع العشق ولكن لا أقول إن ما سواه خطأ بل أقول إنه ابتلاء يبتلى به الإنسان فعليه بالصبر عليه إلى أن يجد له من الله فرجًا وحلاً ومخرجًا يريحه ويرضيه أو يبلغه به أمانيه.

ثم يعود الشاعر فيكرر اللوم على العاشق ويقول له لو كنت عاشقًا ما نمت، وإن نمت فإن الطيف أعشق منك إذ هو يلاطفه طيفك وأنت نائم فهو ينوب عنك بإخلاصه لا مثلك يهنأ بنوم ومحبوبه ساهر.

(١) قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد في ترجمته (١١/٣٦٧): علي بن الجهم بن بدر السامي الشاعر من ناقلة خراسان له ديوان شعر مشهور، وكان جيد الشعر عالمًا بفنونه، وله اختصاص بجعفر المتوكل وكان متدينًا فاضلاً. حدثنا أبو طالب يحيى بن علي الدسكري لفظًا بحلوان أخبرنا أبو بكر بن المقري الأصبهاني حدثنا أحمد بن محمد بن بكر الحزاني حدثنا عبد الله بن شبيب المكي حدثنا علي بن الجهم بن بدر السامي حدثنا علي بن مسهر- كذا قال الدسكري- وأحسبه عبد الأعلى بن مسهر عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي قال: أوصى مسلمة بن عبد الملك بثلث ثلثه لطلاب الأدب، فقال: إنها صناعة يجفوُ أهلها.

...قال إبراهيم الحربي قال لي علي بن الجهم وجه بي المتوكل في حاجة له إلى بغداد فلما كان يوم جمعة صليت في الصحن فإذا سائل يسأل قد وقف فحدث أحاديث صحاحًا وأنشد شعرًا مستويًا، وتكلم بكلام حسن فأخذ في قلوب الناس ثم قال لهم: يا قوم إني لَمْ أمت من عجز، وإني افتننت في علوم كثيرة، ولقد خرجت إلى الجعفر إلى المتوكل، فحملت التراب على رأسي فخرج المتوكل يومًا على حمار له يدور في القصر، فطرحت التراب عن رأسي، وأنشدته القصيدة الفلانية، وأنشدها فجود إنشادها، فأمر لي بعشرة آلاف درهم، فقال له علي بن الجهم: الساعة يفتح عليك أهل الخلد فلا يكفيك بيوت لأموال، فلم أعط شيئًا، فلم يبق أحد إلاّ لعنني وذمني، فقلت للخادم: عَلَيَّ بالسائل فأتاني به، فقلت: تعرف علي بن الجهم؟ فقال: لا، فقلت للخادم: من أنا؟ قال: أنت علي بن الجهم، فقال السائل: ما تنكر من هذا؟ هات عشرة دراهم حتى أخرجك وأدخل غيرك فأعطيته عشرة دراهم، وأخذت عليه ألا يذكر.

=

قُــمْ قَــدْ تَجَهُمَــنِي السُّرَى وَأَزَالنِــي لَـيْلٌ يَنُوءُ بِصَدْدِهِ مُتَطَاوِلُ
وَهَــزَزْتُ أَعْــنَاقَ المطِــيِّ أَسُومُهَا قَــصْدًا وَ يُخْجِــبُهَا السَّوَادُ الشَّامِلُ
حَتَّــى تَوَلَّــى اللَّــيْلُ ثَانِــيَ عِطْفِهِ وكــأن آخــرَهُ خِــضَابٌ نَاصِــلُ
وَخَــرَجْتُ مِــنْ أَعْجَــازِهِ وَكَأَنَّمَا يَهْتَــزُّ فِــي بُــرْدَيْ رَمْــحٌ ذَابِــلُ

وقال آخر:

-

أخـبرني علي بن القمي أخبرنا محمد بن عمران الكاتب أخبرنا محمد بن يحيى قال: قال علي بن الجهم:

هــي الأيــام تجمــع بَعْــد بُعْــدِ وتُــبْعِدُ بَعْــدَ قُــربِ والتــئام
خليلــي الهــوى خلــق كــريم تقــصر عــنه أخــلاق اللــئام

وقال أيضًا علي بن الجهم:

نُــوَبُ الــزمان كــثيرة وأشــدها شمــل نحكــم فــيه يــوم فــراق
يــا قلــب لِــمَ عرضــت نفسك للهوى أو مــا رأيــت مــصارع العــشاق

عــن أحمــد بن فراس السامي: قال جرت بين أبي طالب الجعفري، وبين علي بن الجهم وحشة ثم أرسل أبو طالب يعتذر إليه فكتب إليه علي:

لم تُــذقني حــلاوة الإنــصاف وتعــسفني أشــد اعتــساف
وتــركت الــوفا جهــلاً بمــا فــيه فأســرفت غايــة الإســراف
لم أجــد لي إلى التــشفي ســبيلا بقــواف ولا بغــير قــواف
لي نفــس تــأبى الدنــية والإشــراف لا تعــتدي علــى الأشــراف

قرأت في كتاب عمر بن محمد بن الحسن البصير عن أبي بكر الصولي قال حدثني علي بن محمد بن نــصر حــدثني أحمــد بــن حمدون، قال: ورد على المستعين في شعبان سنة تسع وأربعين يعني ومائــتين- كــتاب صاحب البريد بحلب: أن علي بن الجهم خرج من حلب متوجهًا إلى الغزو، فخــرجت علــيه وعلى جماعة معه خيل من كلب، فقاتلهم قتالاً شديدًا، ولحقه الناس وهو جريح بآخر رمق، فكان مما قال:

أســأل بالــصبح ســبل أم زيــد في اللــيل لــيل
يــا إخــوتي بدُجَــيْل وأيــن مــني دُجَــيْل

قــال: وكــان منزله ببغداد في شارع الدُجَيْل، وأنه وجدت معه رقعة حين نزعت ثيابه بعد موته فيها:

يــا رحمــتا للغــريب في الــبلد الــنازح مــاذا بــنفس صــنعا؟
فــارق أحــبابه فمــا انــتفعوا بالعــيش مــن بعــده ولا انــتفعا

/[٣٠/أ]رُبَّ لَيْلٍ كَالْبَحْرِ هَوْلاً وَكَالدَّهْرِ امْـــتِدَادًا وَكَالْمِـــدَادِ سَـــوَادَا
خُفْـــتُهُ والـــنُّجُومُ يُـــوقِدْنَ حَتَّـــى أَطْفَـــأَ الـــصُّبْحُ ذَاكَ الإِيقَـــادَا(١)

وقال آخر:

كَـــأَنَّ بَـــيْنَ هَـــزِيْعَيْهِ نَـــوىً قَـــذَفًا أَوْ بُعْـــدَ مَا بَيْنَ قَلْبِ الضَّبِّ والجلدِ
كَأَنَّمــــا فُـــرْقُدَاهُ في ائْـــتِلافِهِما يَـــا قَوْتَـــتا مَلِـــكٍ أَوْ نَاظِرَا أَسَدِ(٢)

---

(١) هذا يصف ليل الحزن والشوق والخوف والجوع والبرد، والهجر والعشق بعد هجر الحبيب أو بعده بأنه كالبحر الهائج بالأفكار والأهوال، ويصف طوله كأنه الدهر لا يكاد ينقض ولا يظهر له بشائر صبح ولا ينتظر فيه انفراج. ثم يصف سواده بالحلاكة كما هو الحال في لون المداد أو الحبر الأسود إذ لـــيس بعـــد ســـواده سواد فلا أمل لي أن يرى فيه بشره خيراً روكم عانى من تلك الكآبة التي يبحث لها عن حل أو يأمل أن يجد لها فرجًا أو معينًا يعين له على الخروج من تلك المحنة التي يعاني مـــنها ويصف حاله وحال أيامه أو دهره أو لياليه بأنها تجمعت في هذه الليلة التي تشجع وخاضها علـــى الرغم من أن نجومه تتقد وتشتعل إلى أن خرج من تلك المحنة وجاءه الصباح الذي يريد أو انحـــل مـــا به من كرب وذهب ما به من هم وخرج من تلك المحنة، فوصف أن الصبح أطفأ هذا الوهج، هذا الاشتعال الذي أخفى النجوم أي أن الفرج أبرد ما كان في نفسه من نار المحنة، فالحمد لله على اليسر بعد العسر.

(٢) وهذا يصف بعد ما بين طرفي ليله وما يلاقي من المحن والهموم والغموم والكآبة التي تعتريه من كل جانـــب حتى أنه يجد انفصالاً فيما بينه وبين نفسه. ثم يذهب في تشاؤمه وكأن كل شيء قد اتحد على أن يقف ضده أو على أن يحال بينه وبين مناه حتى أن نجوم ذلك الليل تضافرت مع غيرها، ويـــريد بالفـــرقدين الـــنجمين المعروفين بأنهما لا يغربان قد تربصا به كتربص أسد أو ملك قادر فكيف له الخلاص من هذا الأسد أو ذلك الملك، فهو في حالة شديدة من اليأس.

ويقول ابن منظور عن الفرقدين في لسان العرب في مادة فرق:

الفـــرقدان نجمـــان في السماء لا يغربان ولكنهما يطوفان بالجدي، وقيل هما كوكبان قريبان من القطب.

وقيل: هما كوكبان في بنات نعش الصغرى يقال: لأبكينك الفرقدين حكاه اللحياني عن الكسائي - أي طول طلوعها، قال: وكذلك النجوم كلها تنتصب على الظرف كقولك:

لأبكينك الشمس والقمر والنسر الواقع، كل هذا يقيمون فيه الأسماء مقام الظروف قال ابن سيدة: أنهـــم يريدون طول طلوعها فيحذفون اختصارًا واتساعًا، وقد قالوا فيهما الفراقد، كأنهم جعلوا كل جزء منها فرقدا.

قال:

لقـــد طـــال يـــا ســـوداء منك المواعد ودون الجـــدى المأمـــول مـــنك الفـــراقد

قال: وربما قالت العرب لهما: الفرقد قال لبيد:

وقال السيد ابن طباطبا العلوي[1]:

يَا لَيْلَةً حُلِّيَتْ بِزَهْرِ نُجُومِهَا ... وَسَهِرْهَا حَتَّى بَدَتْ لِي عَاطِلاً
لَمْ يَرْضَ لَيْلِيَ إِذْ تَجَلَّى بَدْره حَتَّى ... أَرَى فِيهِ مِنْكَ مَخَائِلاً
وَطَفِقْتُ أَرْمُقُ مِنْهُ بَدْرًا طَالِعًا ... وَطَفِقْتُ أَذْكُرُ مِنْكَ بَدْرًا آفِلاً

وقال ابن النَّبيه[2]:

حالف القرقد شريًا في الهدى ... خُلَّةً باقيةً دون الخلل

(١) في المخطوط العلوي، والتصويب من مصادر ترجمته القادمة بعد ففي سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٩٦)، وفيات الأعيان (٨١/٣) والبداية والنهاية (٢٣٥/١١)، وقال فيه:
أبو محمد عبد الله بن أحمد بن علي بن الحسن بن ابراهيم بن طباطبا بن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي، المصري.
كان من ساداتها وكبرائها لا تزال الحلوى تعقد بداره، ولا يزال رجل يكسر اللوز بسببها.
وللناس عليه رواتب من الحلوى فمنهم من يهدي إليه كل يوم، ومنهم في الجمعة، ومنهم في الشهر، وكان لكافور الأخشيدي عليه في كل يوم جامان ورغيف من الحلوى.
ولما قدم المعز الفاطمي إلى القاهرة وتلقاه سأل إلى من ينتسب مولانا من أهل البيت، فقال الجواب إلى أهل البلد، فلما دخل القصر جمع الأشراف، وَسَلَّ نصف سيفه وقال: هذا نسبي، ثم نثر عليهم الذهب، وقال: هذا حسبي، فقالوا: سمعنا وأطعنا.
والصحيح أن القائل للمعز هذا الكلام ابن هذا (أي ابن هذا الرجل) أو شريف آخر فالله أعلم، فإن وفاة هذا كانت في هذا العام (أي عام ثمان وأربعين وثلاثمائة) عن اثنتين وستين سنة- والمعز إنما قدم مصر في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة.
وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء:
ابن طباطبا الشريف الكبير أبو محمد عبد الله بن أحمد بن علي بن حسن بن الشريف طباطبا واسمه: إبراهيم بن إسماعيل بن ابراهيم بن حسن بن السيد الإمام علي بن أبي طالب العلوي الحسيني المدني ثم المصري. كان محتشمًا ذا أموال وعقار وعبيد، وضياع ودائرة واسعة بحيث قيل: كان في دهليز داره رجل يكسر اللوز دائمًا لعمل الحلوى، وكان يصلح للخلافة وكان يهدى إلى الأستاذ كافور وإلى الكبراء وله جلالة عجيبة. توفي سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.
ويقال: بقي حتى قدم المعز، وطلب منه نسبه والظاهر أن ذلك يكون ولد هذا الشريف وقيل: بل الذي كَلَّمَ المعز الشريف أبو إسماعيل الرَّسِّي.

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حسن بن يوسف بن يحيى كمال الدين المصري الشاعر صاحب الديوان جاءت ترجمته في مصادر كثيرة منها: عقود الجمان لابن الشعار (٤/ورقة ١٥٣)، تاريخ الإسلام (ورقة ١٩٧/ ٣٠١) العبر (٨٤/٥)، فوات الوفيات (٦٦/٣) النجوم الزاهرة (٢٤٣/٦)،

وَاللَّيْلُ تَبْدُو الدَّرارِي فِي مَجَرَّتِه[٣٠/ب]/ كَالْمَاءِ تَطْفُو عَلَى رَوْضٍ أَزَاهِرُهُ
وَكَوْكَبُ الصُّبْحِ نَجَّابٌ عَلَى يَدِهِ مُخَلَّقٌ تَمْلأُ الدُّنْيَا بَشَائِرُهُ

فلما تتلبع ضوء النهار وقعت في الانتظار، كلما أحسست نبوّة توجست، وكلما تذكرتُ الحبيبة تنفستُ:

أَقْضِي نَهَارِي بِالحَدِيْثِ وبِالْمُنَى وَيَجْمعُنِي وَاللَّيْلُ وَالْهَمُّ جَامِعُ
نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَا لِيَ اللَّيْلُ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ المَضَاجِعُ(١)

فأخذت أعلل نفسي بالمنى وأتوهمها كلما رأيت حَسَنًا، وأنا أراها بعين الشمس والقمر، وأتشاغل عن لماها بالمُدام وأين الحُجُول من الغرر.

قال مهيار(٢):

وحسن المحاضرة (١/٥٦٦). وسير أعلام النبلاء (٢٢/١٧٨) وقال:
الشاعر البديع ابن النبيه، مدح آل أيوب وسار شعره، وانقطع إلى الملك الأشرف وسكن نصيبين وبها مات في الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وستمائة.
وقيل: إنه بقي إلى سنة إحدى وعشرين وستمائة. وفي نظمه مبالغات تفضي به إلى الكفر بالله لا أرى ذكرها.

(١) هذا شاعر يتسلى عند غياب محبوبة بذكره والحديث عنه فهو بذلك يتخيل أنه معه وأنه يحادثه وأنه يسامره فيذكره إن غاب بدنه فقد حضر طيفه وهو مما يلهيه ويخفف عنه آلام البعاد أو الفراق ويمنيه بالرجعة حتى لا يشعر بطول الغياب هذا ما يفعله في نهاره من يجالسه.
أما إذا جن عليه الليل وسكن كل حبيب إلى حبيبه وكل خل إلى خليله فإنه تتراكم عليه الهموم والأحزان فلا هو يجالس الحبيب ولا هو يجد الأنيس أو السمير أو المحدث الذي يبث إليه شكواه ويفضي إليه بأسراره ويخفف عنه آلام السهر والأرق والانتظار والانشغال فالليل بالنسبة له جامع له وللهم. أما في النهار فإنه قد يجد شيئًا من السلوى بمشاغل الحياة ومكابدة المعيشة والتعامل مع بني جنسه، فهو لا يريد مجيء الليل إذ إن الليل بالنسبة له إنما هو السهر والأرق والضنى والحزن والهم إلى أن ينبلج الصبح الذي لا يكاد يجيء فمضجعه كله تقلب وآهات وأنين فلا رغبة له في الليل إلى حين عودة المحبوب، فيقول: يا ليل طُلْ يا نوم زل يا صبحُ لا تطلع.

(٢) سبق ترجمته، ومصادر ترجمته:
سير أعلام (١٧/٤٧٢)، تاريخ بغداد (١٣/٢٧٦)، دمية القصر (١/٣٠٣)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٤/٢/٥٤٩)، المنتظم (٨/٩٤)، الكامل في التاريخ (٩/٤٥٦)، وفيات الأعيان (٥/٣٥٩)، المختصر في أخبار البشر (٢/١٦)، العبر (٣/١٤٧)، تتمة المختصر (١/٥١٨)، الوافي في الوفيات (٢٦/١٢١)، عيون التواريخ (١٢/١٦٦)، البداية والنهاية (١٢/٤١)، النجوم الزاهرة

أَتَـاكَ بِعَيْنِ الشَّمْسِ وَالْبُعْدُ بَيْنَنَا ... فَاقْنَعْ تَشْبِيْهًا بِهَا وَتَمَثُّلا
وَاذْكُرَ عَذْبًا مِنْ رَضَابِكَ شَابَهَا ... فَمَا أَشْرَبُ الصَّهْبَاءَ إِلاَّ تَعَلُّلاً

/ [٣١/ أ]وقال جحظة البرمكي:

إِذَا مَا ظَمِئْتُ إِلَى رِيْقِهَا ... جَعَلْتُ المُدَامَةَ مِنْهُ بَدِيْلاَ
وَأَيْنَ المُدَامَةُ مِنْ رِيْقِهَا ... وَلَكِن أُعَلِّلُ قَلْبًا عَلِيْلاَ[1]

[وصفهم لريق الحبيب]

ولهم في نعت ريق الحبيب أوصاف تندر بالطيب، مع اعترافهم أنهم لم يذوقوا له طعمًا ولا عرفوه إلاّ وهما، قال مهيار[2]:

=

(٥/٢٦)، شذرات الذهب (٣/٢٤٢)، تاج العروس (٣/٥٥١)، وألف في ترجمته: الأستاذ إسماعيل حسين كتاب بعنوان: مهيار الديلمي بحث ونقد وتحليل.

أما عن شعره هنا فهو يقول فيه بأن حبيبه أشبه بالشمس وضوحًا وفائدة وبهاءً فهي أقوى نجم نعرفه أو نراه وندرك فوائده، ويحرقنا لهيبها ولا نستغني عن نورها فعلى الرغم من الضنى والوجد من قبل الحبيب إلاّ أننا نغفر له ذلك ونرضى منه ما لا نرضاه من غيره لما أصابنا من حبه ولما ابتلينا من عشقه. ثم يرجوه أن يذكر ما أصابه بسبب هذا الحب من العذاب والبلاء الذي قادة إلى شرب الخمر حتى ينسى ما ألَمَّ به فصارت له دواءً مباحًا لهذا السبب فيعذره وليرجع حتى يغنيه عن هذا الدواء الذي لا يتناوله إلا المضطر ليرفع عنه هذا الاضطرار.

(١) جحظة البرمكي هو: أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى أبو الحسن البغدادي البرمكي، الشاعر المعروف بجحظة وقد سبق ترجمته ومن مصادر ترجمته:
سير أعلام النبلاء (١٥/٢٢١)، تاريخ بغداد (٤/٦٥)، الأنساب (٢/١٧٠)، المنتظم (١/٢٨٣)، معجم الأدباء، (٢/٢٤١)، وفيات الأعيان (١/١٣٣)، العبر (٢/٢٠١)، الوافي بالوفيات (٦/٢٨٦)، مرآة الجنان (٢/٢٨٨)، البداية والنهاية (١١/١٨٥)، لسان الميزان (١/١٤٦) النجوم الزاهرة (٣/٢٥٠)، أما عن شعره هنا فهو قد ذاق ريقها وتعرف عليه جيدًا مرارًا وتكرار فصار يرجوه من حين إلى آخر ويتمناه لكنه لم يجد إليه سبيلاً للبعد أو للصد أو للهجر أو للدلال أو للتمنع فهو وجد بديلاً يستعيض به عن هذا الريق الشهي الذي يذيب كل خلايا جسمه ويحولها إلى حالة من الهيام فالخمر هي التي قد يجد فيها سلوى له عن ريقها إلى حين إدراكه فهو يتصبر بها عنه حتى ينال ما يريد، وإن كانت لا تُطفئ له عطشًا ولا تروي له غليلاً ولا تسعفه الإسعاف الذي يبغيه إلاّ أنه لا يجد إلى ذلك إلاّ هذا السبيل فيتعلل به على الصبر إلى حين بلوغ المراد حتى لا يتفطر منه ذلك القلب العليل والفؤاد الكليل.

(٢) هذا يقول إنه لم يذق طعم ريق محبوبه ولكنه يقول من باب قول الشعر من الخيال والتشهي

=

وَفي الحُمُـــولِ سَـــمْحَةٌ ضَـــنِيَّةٌ تَـــبْذُلُ وَجْهَــا وَتَــصُونُ مَلْمَــسًا
سَلْـــسَالُهَا إِنْ لَـــمْ أكُنْ أَعرِفُهُ رَشْفًا فَقَــــدْ وَصَـــفَتْهُ تَفرُّسًـــا

وهو مأخوذ من قول شاعر الحماسة:

بِأَطْـيَبَ مِـــنْ فِيهَا وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهُ وَلَكِنَّـــي فِـــيمَا تَرَى العَيْنُ فَارِسُ(١)

وقد أحسن القائل ما شاء:

كَـــأَنَّ عَلَـــى أَنْـــيَابِهَا الخَمْـــرَ شَجَّهُ بِمَـــاءِ الـــنَّدَى مِـــنْ آخِرِ اللَّيْلِ غَابِقُ
وَمَـــا ذُقْـــتُهُ إِلاَّ بِعَـــيْنِي تَفَرُّسًـــا كَمَـــا شِيمَ مِنْ أَعْلَى السَّحَابَةِ بارِقُ(٢)

وأجاد زهير(٣) في قوله:

=

والتمني وإنه يعرف ذلك، من قبيل الملاحظة والتفرس والتخمين بما ظهر من طيب حديثها وعطر فـيها ونضارة وجهها وحسن مشيتها وفروع عودها وتناسق قدها ودلال حركتها وسكنتها فإنه مـــن كل ذلك استشف بأن ريقها أشهى مما يرجو أو يتمنى فهو أصفى من السلسبيل وأحلى من العسل وأشهى من الشهد وأعطر من الجمار.

فهـــو بالعين يحدد نوع ريقها ويظن أنه ما ذاق في حياته أشهى منه بل أن كل شراب ذاقه حتمًا دون ريقها في كل صفة من صفاته.

فـــراح يتمنى أن يرتشف من ذلك الريق العطر البارد الصافي الشهي اللذيذ المنعش المنشط الموقظ المنبه المقوي المعين على الحيوية والسرور والنضارة والحبور.

(١) وهـــذا يصرح بأنه ما ذاق طعم ريقها، ولكنه يخمن أن يكون على أحلى وأشهى مما يتخيل لأنه إنمـــا تفـــرس ذلك، وأنه لديه خبرة لا تخطئ في علم الفراسة، فهو على يقين أن تكون أحلى ما يـــصف أو مما يظن هو وكل ظان، فإن عينه لا تخطئ الفراسة فيما خمنت أو ظنت أو رأت أثره فكـــيف أو لماذا تخطئ في تحديد ريقها، وهذا ليس قولي في علمي بالفراسة بل هي شهادة الناس لي بـــه فإن نالها غيري وكانت ضمن نصيبه ووجد ما تفرست فلا يظن أنه لي بها علاقة فيها ريب نمـــا هـــو إلا التفرس فهي ابرأ من أن يظن بها ذلك بل هي بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليهما السلام.

(٢) وهـــذا أيضًا يصف عطر فيها وعذوبة ريقها، ويعلن أنه على الرغم من جمال ذلك منه وطيبه فلا يظـــن ظان أنني لي بها صلة مادية إنما هو تفرس فقط وقد يصدق هذا التفرس لمن تعلق بها متحللا لهـــا بالـــنكاح فلا يتهمها أو يريبها بما قلت فإنما هو العلم المعلوم المشهور المعترف به وهو علم الفراســـة الذي لا يكاد يخطئ صاحبه، وكأنه في أيامنا هذه التحليل أو الأشعة التي تتحقق الأشياء من خلالها فيحكم الحاكم على بينة ويصف الواصف للعلاج على يقين من تشخيصه للمرض.

(٣) هـــو زُهـــير بن أبي سلمى، وقد ترجم له ابن قتيبة الدينوري في الشعر والشراء (٢٣) فقال: هو زهـــير بـــن ربيعة بن قرط، والناس ينسبونه إلى مزينة، وإنما شبه في غطفان وليس لهم بيت شعر

=

ينتمون فيه إلى مزينة إلا بيت كعب بن زهير وهو قوله:

هم الأصلي من حيث كنت وأنني من المزنيين المتصفين بالكرم

ويقال إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل ولد زهير، وفي الإسلام ما اتصل في ولد جرير. وكان زهير راوية أوس بن حجر. ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: أنشدوني لأشعر شعرائكم، قيل: ومن هو؟ قال زهير، قيل: وبما صار كذلك: قال: كان لا يعاظل بين القول ولا يتتبع حواشي الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه، وهو القائل:

إذا ابتدرت قيس بن غيلان غاية من المجد من يسبق إليها يسود

سبقت إليها كل طاق مبرز سبوق إلى الغايات غير مخلد

ويروى غير مبلد والمخلد في هذا الموضع البطيء:

فلو كان حمد يخلد للناس لم تمت ولكن حمد المرء ليس بمخلد

وكان قدامة بن موسى عالمًا بالشعر وكان يقدم زهير ويستجيد قوله:

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا

من يلق يومًا على علاته هرما يلقَ السماحة فيه والندى خلقا

قال عكرمة بن جرير قلت لأبي: من أشعر الناس؟ قال: اجاهلية أم إسلام، قلت: جاهلية، قال زهير، قلت: فالإسلام؟ قال: الفرزدق، قلت: فالأخطل؟ قال: الأخطل يجيد نعت الملوك، ويصيب صفة الخمر قلت له: فأنت؟ قال: أنا نحرت الشعر نحرًا. قال عبد الملك لقوم من الشعراء: أي بيت أمدح؟ فاتفقوا على بيت زهير:

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

قيل لخلف الأحمر: زهير أشعر أم ابنة كعب؟ قال: لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت أن كعبًا أشعر منه يريد قوله:

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر

ولا أنت أشجع من أسامة إذ دعي النزال ولج في الذعر

ولا أنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر

وكان زهير يتأله ويتعفف في شعره، ويدل شعره على إيمان بالبعث وذلك قوله:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وشبه زهير امرأة في الشعر بثلاثة أصناف في بيت واحد فقال:

نازعت المها شبها ودر الـ ـبحور وشاهت فيها الظباء

فأما ما فويق العقد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء

ففسر ثم قال:

وَقَدْ شَهِدَ المِسْوَاكُ عِنْدِي بِطِيبِه وَلَمْ أرَ عَدْلاً وَهُو سَكْرَانَ يطْفَحُ

وقال الفقيه عمارة اليمني[1]:

وأما المقلتان فمن مهاة وللدر الملاحة والصفاء

وقال بعض الرواة: لو أن زهيرًا نظر في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ما زاد على ما قال:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

يعني يمينًا أو منافرة إلى حاكم بقطع بالبينات أو جلاء وهو بيان وبرهان يجلو به الحق وتتضح الدعوى ومما يتمثل به من شعره:

وهل ينبت الخطي إلا وشيجة وتغرس إلا في معادنها النخل

ويستحسن قوله:

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

ويستحسن أيضًا قوله:

هو الجود الذي يعطيك نائلة عفوًا ويظلم أحيانًا فيظلم

وقد سبق زهير إلى هذا المعنى لا ينازعه فيه أحد غير كثير فإنه قال يمدح عبد العزيز بن مروان:

رأيت ابن ليلى يعتري صلب ماله مسائل شتى من غنى ومحرم

سائل إن توجد لديه تجد بها يداه وإن يظلم بها يتظلم

والمحرم: القليل المال.

(١) هو: عمارة بن علي بن زيدان أبو محمد الحكمي، المذحجي، اليمني، الشافعي، الفرضي الشاعر، صاحب الديوان المشهور، جاءت ترجمته في عدة مصادر منها:

الخريدة قسم الشام (٣/١٠١)، الكامل (١١/٣٩٦)، مرآة الزمان (٨/١٨٩)، الروضتين (١/٢١٩)، وفيات الأعيان (٣/٤٣١)، مفرج الكروب (١/٢١٢)، المختصر (٣/٥٤)، العبر (٤/٢٠٨)، دول الإسلام (٢/٨٤)، تتمة المختصر (٢/١٢٦)، طبقات الإسنوي (٢/٥٦٥)، البداية والنهاية (١٢/٢٧٦)، صبح الأعشى (٣/٥٢٦)، السلوك (١/٥٣)، النجوم الزاهرة (٦/٧٠)، حسن المحاضرة (١/٤٠٦)، كشف الظنون (١٧٧٧)، شذرات الذهب (٤/٢٣٤)، معجم المطبوعات (١٣٧٧)، تاريخ بروكلمان (٦/٨٠)، وكتاب عمارة اليمني للدكتور ذي النون المصري طبعة، ١٩٦٦، وسير أعلام النبلاء (٢٠/٥٩٢) وقال:

ولد سنة خمسَ عشرة وخمسمائة.

وتفقه بزبيد مدة وحج سنة تسع وأربعين ونفذه أمير مكة قاسم بن فُلَيْتَةَ رسولاً إلى الفائز بمصر فامتدحه بهذه الكلمة:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدًا يقوم بما أولت من النِّعَمِ

[قال محققه: لا يحسن هذا التعبير أو كان يقول الحمد للعبس بعد الله أو الحمد لله ثم العبس أو ما شابه ذلك مما يفيد الشكر لها بعد شكر الله تعالى نقد جانبه التوفيق في هذا البيت].

لا أجحد الحق عندي للركاب يد ... تمنت اللُّجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العزِّ من نظري ... حتى رأيت إمام العصر من أمم
فهل درى البيت أني بعد فرقته ... ما سرت من حرم إلاّ إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها ... بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوار مقدسة ... تجلو البغيضين من ظُلْم ومن ظُلَم
وللنبوة آيات تنص لنا ... على الخفيين من حُكم ومن حِكَم
وللمكارم أعلام تُعلمنا ... مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلى ألسن تُثنى محامدها ... على الحميدين من فعل ومن شيم

ومنها:

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها ... عقود مدح فما أرضى لكم كَلِم

ثم استوطن بَعْدُ مِصْرَ. قال ابن خلكان: كان شديد التعصب للسُّنَّة، أديبًا، ماهرًا، رائجًا في الدولة ثم تملك صلاح الدين فامتدحه، ثم أنه شرع في اتفاق من رؤساء في إعادة دولة العُبيدين فنقل أمرهم إلى صلاح الدين، فشنق عمارة في شانٍ في رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة وقد نسب إلى عمارة بيت فربما وُضِعَ عليه فأفتوا بقتله وهو:

قد كان أول هذا الأمر من رجل ... سعى إلى أن دعوة سيد الأمم

وهو من بيت إمرة وتقدم من تهائم اليمن، وادٍ وساع يكون عن مكة أحد عشر يومًا.

قال عمارة: كان القاضي محمد بن أبي عقامة الحفائلي رأس أهل العلم والأدب بزبيد يقول ليتك أنت خارجي هذ الوقد وسعيدة؛ لأنك أصبحت تُعدُّ من أكابر التجار وأهل الثروة، ومن أعيان الفقهاء الذين أفتوا، ومن أفضل أهل الأدب فهنيئًا لك.

وحكى عمارة أن الصالح بن رُزِّيك فاوضه، وقال: ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ قلت: اعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم، وأن حجتهما واجبة، فضحك، وكان مرْتاضًا حصيفًا قد سمع كلام فقهاء السنة. قلت: هذا حِلْمٌ من الصالح على رفضه. ولعمارة فيه:

ولو لم يكن يدري بما جهل الورى ... من الفضل لم تنفق عليه الفضائل
لئن كان منا قاب قوسين فبيننا ... فراسخ من إجلاله ومراحل

وله:

لي في هوى الرشاءِ العذري أعذار ... لم يبق لي مذ أقر الدمع إنكار
لي في الحقدود وفي لثم الخدود وفي ... ضم النهود لبانات وأوطار
هذا اختياري فوافق إن رضيت به ... أوْ لاَ فدعني وما أهوى وأختار

شَـــهِدْتُ يَقِـــيًا أَنْ مَـــرْآكَ جَـــنَّة وَقَالُـــوا وَمَـــا أَدْرِي رِيقُـــكَ كَوْثَرُ

وقال ابن هانئ المغربي[1]:

لُمْنِـــي جـــزافًا وســـامحني مـــصارفة فالنـــاس في درجـــات الحـــب أطـــوارُ

وله بيت كَيِّسٌ في العبيدين:

أفاعـــيلهم في الجُـــود أفعـــال سُـــنَّة وإن خالفـــوني في اعـــتقاد التـــشيع

قلت: يا ليته تَشَيَّع فقط بل يا ليته ترفُض، وإنما يقال: هو انحلال وزندقة. ولعمارة فضائل وأخبار يطـــول بثها. وصلب معه داعي الدعاة، قاضي الديار المصرية أبو القاسم هبة الله بن كامل وكان صاحب فنون.

(١) هـــو: محمـــد بن هانئ أبو الحسن وأبو القاسم الأزدي، المهلبي، الأندلسي، المغربي، الشاعر، وقد ترجمت له مصادر كثيرة أذكر منها:
ســـير أعـــلام (١٦/١٣١)، جذوة المقتبس (٩٦)، بغية الملتمس (١٤٠)، معجم الأدباء (١٩/ ٩٢)، المطـــرب مـــن أشعار أهل المغرب (١٩٢) التكملة لابن الأبار (١/١٠٣) وفيات الأعيان (٤/٤٢١)، المختصر في أخبار البشر (٢/١١٢)، العبر (٢/٣٢٨)، البداية والنهاية (١١/٢٧٤)، الإحاطة في أخبار غرناطة)٢/٢٨٨)، الفلاكة والمفلكون (١٠٢)، النجوم الزاهرة (٤/٦٧)، نفح الطـــيب (١/٢٩٣)، هدية العارفين (٢/٤٧)، شذرات الذهب (٣/٤١) وقال في ترجمته في ذكره لأحـــداث سنة اثنتين وستين وثلاثمائة: وفيها أبو الحسن، وأبو القاسم محمد بن هانئ حامل لواء الـــشعر بالأندلس. قيل إنه ولد يزيد بن حاتم، وكان أبوه هانئ في قرية من قرى المهدية بأفريقية وكان شاعرًا أديبًا، فانتقل إلى الأندلس، فولد له محمد المذكور بها بمدينة اشبيلية ونشأ بها واشتغل وحـــصل لـــه حظ وافر من الأدب وعمل الشعر فبهر فيه وكان حافظًا لأشعار العرب وأخبارهم، واتصل بصاحب اشبيلية وحظي عنده وكان كثير الانهماك في الملاذ متهمًا بمذهب الفلاسفة، ولما اشـــتهر عـــنه ذلك نقم عليه أهل اشبيلية، وساءت المقالة في حق الملك بسببه، واتهم بمذهبه هو أيـــضًا، فأشار الملك عليه بالغيبة عن البلد مدة ينسى فيها خبرة، فانفصل عنها وعمره يومئذ سبع وعـــشرون ســـنة فخرج إلى عدوة المغرب ولقي جوهر القائد ثم رحل إلى جعفر ويحيى بن علي، وكان بالمسيلة وهي مدينة الزاب وكانا والييها فبالغا في إكرامه والإحسان إليه ونمى خبره إلى معز أبي تميم معبد بن منصور العبيدي وطلبه منهما، فلما انتهى إليه بالغ في الإنعام عليه، ثم توجه المعز إلى الديار المصرية وشيعة ابن هانئ ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به فتجهز وتبعه فلما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها، فأقام عنده أيامًا في مجلس الأنس، فيقال: إنهم عربدوا عليه فقـــتلوه، وقـــيل: خرج من تلك الدار وهو سكران فنام على الطريق فأصبح ميتًا، ولم يعلم سبب موته.
وقيل: وجد في سانية من سواني برقة مخنوقًا بتكة سراويله، وكان ذلك في بكرة نهار الأربعاء ثالث عـــشر رجب من هذه السنة، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة، وقيل: اثنتين وأربعين ولما بلغ المعز

وفاته تأسف عليه كثيرًا وقال: كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يقدر لنا ذلك.
وقال ابن خلكان: وديوانه كثير، ولولا ما فيه من الغلو والإفراط المفضي إلى الكفر لكان من أحسن الدواوين وليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم، ولا متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة، وكانا متعصرين، وإن كان في المتنبي وأبي تمام من الاختلاف ما فيه انتهى وقال ابن الأهدل: وكنية ابن هانئ أبو نواس وهي كنية الحسن بن هانئ، الحكمي العراقي، وكان معاصرًا للمتنبي.
ويقال إنهما اجتمعا حين أراد المتنبي دخول المغرب فرده الحسن بن هانئ بنوع حيلة انتهى والحيلة التي ذكرها قال بعضهم هي: أن المتنبي أراد مدح فاتح قابس فضجر لذلك وقال: شاعر لم يرضه عطاء كافور كيف يرضيه عطائي؟ فتكفل له ابن هانئ برده. ويقال إنه خرج بزي أعرابي فقير على راحلة هزيلة وأمامه شاه هزيلة، فمر بهذا الزي على المتنبي، وكان على مرحلة من قابس، فلما رآه المتنبي أراد العبث به فقال له: من أين أتيت؟ قال: من عند الملك، قال: فيما كنت عنده؟ قال: امتدحته بأبيات، فأجازني هذه الشاة، فاضمر في نفسه أن الملك من لطفه كونه أجازه بها يظن شعره على قدرها فقال له: ما قلت فيه؟ قال: قلت:

ضحك الزمان وكان قدمًا عابسًا ... لما فتحت بعزم سيفك قابسًا
أنكحتها بكرًا وما أمهرتها ... إلا قنًا وصوارمًا وفوارسًا
من كان بالسمر العوالي خاطبًا ... فتحت له البيض الحصون عرائسًا

فتحير المتنبي، وأمر بتقويض خيامه، وألا يمتدحه إذ جائزته على مثل هذا بمثل هذه. ومن غرر المدائح ونخب الشعر قوله في مدح المعز العبيدي المذكور:

هل من عالج يبرين ... أم منهما نفر الجروح العين
ولمن ليالي ما ذممنا عهدها ... مذ كن إلا أنهن شجون
المشرقات كأنهن كواكب ... والناعمات كأنهن غصون
بيض وما ضحك الصباح وإنما ... بالمسك من طور الحسان يجون
أدمى لها المرجان صفحة خده ... ويكي اللؤلؤ المكنون
أعدى الحمام تأوهي من بعدها ... فكأنها مما شجن رنين
باتوا سراعًا للهوادج رفوة ... مما رأين وللمطي حنين
وكأنما صبغوا الدجى بشيابهم ... أو عصفرت فيه الخدود عيون
ماذا على حلل الشقيق لو أنها ... عن لابسيها بالخدود تبين
ولأعطشن الروض بعدهم فلا ... يرويه لي دمع عليه هتون
أأعير لحظ العين بهجة منظر ... وأخونهم إني إذًا لخؤونُ
لا الجو جو مشرق ولو اكتسى ... زهرًا ولا الماء المعين معين

وَمَــا عَــذُبَ المِــسْوَاكُ إِلاَّ لأَنَّــهُ يُقَــبِّلُهَا دُونِــي وَإِنِّــي الــرَّاغِمُ
وَقُلْــتُ لَــهُ صِفْ لِي جَنَا رَشَفَاتِهَا فَأَلْثَمَنِــي فَاهُــا بِمَــا هُــوَ زَاعِمُ

وقال آخر:

مِــــنْ آلِ هَــــارُونَ تَعَــــشَّقْتُهُ يَقْتُلُنِــــي بالــــصَّدِّ وَالتِّــــيهِ
/[٣٢/أ]قَــدْ أَنْزَلَ السَّلْوَى عَلَى قَلْبِه أَقُــولُ وَالمَــنُّ عَلَــى فِــيهِ[١]

لا يــبعدن إذا العــشير لــه بــرى والــتاج روح والــشموس قطــين
أيــام فــيه العبقــري مغــوف والباتــري مــضاعف موضــون
والــراغبية شــرع والمــشرفية أبلــغ والمقــرمات صــفون
والعهــد مــن لمسياء إذ لا فــوقها حــور ولا الحــرب الهــتون زبــون
حــزني لــذاك الجــو هــو آســنة وكــذا لــذلك الخــشف فهــو عــرين
هــل يــد فــين مــنه أجسود سابح مــرح وحائلــه الــسريح أمــون
ومهــند فــيه الفــرند كأنــسه دلــه لــه خلــف الغــرار أنــين
عــضب المــضارب مقفهــر مــن أعين لكــنه مــن أنفــس مــكون
قــد كــان رشــح حديــده أحلــى وما صــاغت مــضاربه الــرقاق قيــون
وكأنمــا يلقــي الــضريبة دونــه بــابن المعــز واسمــه المحــزون

وهــي طويلة، قال في العبر: كان منغمسًا في اللذات والمحرمات متهمًا بدين الفلاسفة، شرب ليلة عند ناس فأصبح مخنوقًا وهو في عُمر الخمسين انتهى.

(١) هذا شاعر عشق من بني هارون امرأة قد شغلته وصدت عنه صدود الدلال لا صدود الأعراض إلا أن هــذا الــصدود يــؤرقه ويشغله ويخوفه خشية أن يكون صدود أعراض، لكنه يرجع بأن هذا الــصدود صــدود دلال لأنه يجد منه طعم المن والسلوى فهو يقبله ولكن على مضض فالقرب أحــب إلــيه من هذا الدلال المضني المخيف الذي يخشى مع زيادته أن يتقلب إلى صد حقيقي وأعــراض بالكلــية ثم جفاء ثم هجر، وهذا ما لا يجب أن يصل إليه الحال وربما أراد بالسلوى، ســلوى القلب عن المحب في حال هجره أو بينه لسبب أو لآخر، فإن كان ذهب إلى هذا المعنى، فقد قال ابن حزم في طوق الحمامة في السلو (ص١٠٣ وما بعدها):

والسلوُ في التجربة الجميلة ينقسم قسمين سلو طبيعي وهو المسمى بالنسيان يخلو به القلب ويفرغ بــه الــبال، ويكون الإنسان كأنه لم يحب قط، وهذا قسم ربما الحق صاحبه الذم لأنه حادث عن أخــلاق مذمــومة، وعن أسباب غير موجبة استحقاق النسيان، وستأتي مبينة إن شاء الله تعالى، وربما لم تلحقه اللائمة لعذر صحيح.

والــثاني ســلو تطبُّعي: وهو قهر النفس، وهو المسمى بالتصبر، ترى المرء يظهر التجلد وفي قلبه

وقال كمال الدين بن العديم[1]:

فَـــوَا عَجَبًا مِنْ رِيقِهَا وَهُوَ طَاهِرٌ حَلَالٌ ... قَـــدْ أَمْـــسَى عَلَـــيَّ مُحَـــرَّمَا

أشد لدغًا من وخز الإشفَى، ولكنه يرى بعض الشر أهون أو يحاسب نفسه بحجة لا تُصرف ولا تُكـــسر، وهذا قسم لا يُذم آتيه، ولا يلازم فاعله لأنه لا يحدث إلاّ عن عظيمة، ولا يقع إلاّ عن فادحة إما لسـبب لا يصبر على مثله الأحرار، وإما لخطب لا مرد له تجرى به الأقدار، وكفاك من الموصـــوف بـــه أنه ليس بناس لكنه ذاكر، وذو حنين واقف على العهد، ومتجرع مرارات الصبر والفـــرق العامـــي بـــين المتصبر والناس أنك ترى المتصبر وإن بدا غاية الجلد وأظهر سَبَّ محبوبة والتحمل عليه لا يحتمل ذلك من غيره وفي ذلك أقول قطعة منها:

دعـــوني وســـبي الحبـــيب فـــإنني ... إن كـــنت أبـــدي الهجـــر لست معاديا

ولكـــن ســـبي الحبـــيب كقـــولهم ... أجـــاد فلقَّـــاه الإلـــه الدواهـــيا

والـــناس ضـــد هذا. وكل هذا فَعَلَى قدر طبيعة الإنسان وإجابتها وامتناعها قوة تمكن الحب من القلب أو ضعفه وفي ذلك أقول، وسميت الـسالي فيه المتصبر قطعة منها:

نـــاس الأحـــبة غـــير مـــن يـــسلوهم ... حكـــم المقـــصِّر غـــير حكـــم المُقصِرِ

مـــا قاصـــر للـــنفس غـــير مُحبـــيها ... مـــا الـــصابر المطـــبوع كالمتـــصبر

والأســـباب الموجـــبة للسلو المنقسم إلى هذين القسمين كثيرة وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يُعذر السالي أو يُذم.

فمـــنها الملـــك، وقـــد قدمنا الكلام عليه، وإن كان سلوه عن ملك فليس حبه حقيقة، والمتسم صاحب دعوة زائفة، وإنما هو طالب لذة ومبادر شهوة والسالي من هذا الوجه ناس مذموم.

ومـــنها الاســـتبدال: وهو وإن كان يُشبه الملل ففيه معنى زائد، وهو بذلك المعنى أقبح من الأول وصـــاحبه أحـــق بالـــذم. منها: حياء مركب يكون في المحب يحول بينه وبين لتعريض بما يجد فيتطاول الأمر وتتراخى المدة ويبلي جديد المودة ويحدُث السلو. وهذا وجه وإن كان الـسالي عنه ناسيًا ليس بمنصف إذ منه جاء سبب الحرمان. وإن كان متصبرًا فليس بملوم إذ آثر الحياء على لذة نفسه.

(١) كمـــال الدين بن العديم هو: محمد بن هبة الله العقيلي أبو غانم الشاعر ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٢/٢٨٧) في وفيات من مات سنة سبع وعشرين وستمائة ولم يترجم له.

وهـــو هنا يتعجب من طيب ولذة ريقها، وكأنه قد ارتشف منه كثيرًا ثم فارقها تفريقًا يحرم عليه الاتـــصال بهـــا غير أنه يفصح عن أنه لم يذقها كما لم يذق طعم الخمر وكلاهما قد حرم الله تعالى علـــيه فالخمـــر محرمة بما نص الله تعالى عليه في كتابه الكريم، وأما هي فمحرمة تحريما مؤقتا إلا بالـــزواج الذي شرع الله، غير أنه لم يتمكن من هذا الذي أباح الله فلهذا هي محرمة عليه، وعلى الرغم من ذلك يتصور أنه قد ارتشف من ريقها وعرف لذة هذا كما عرف لذة الخمر وكلاهما لم يلمس فاه، ولكن لشدة شوقه لهذا تخيله تخيلاً يشبه عنده الحقيقة الملموسة.

هُـوَ الخَمْرُ لَكِنْ أَيْنَ لِلْخَمْرِ طَعْمُهُ وَلَذَّتُهُ ... مَـعَ أنـنـي لَـمْ أذُقْهُمَـا

وقال التهامي[1]:

(١) هو: أبو الحسن علي بن محمد بن فهد، التهامي، الشاعر، ومن المصادر التي ترجمت له: سير أعلام النبلاء (٣٨١/١٧)، دمية القصر (١٣٥/١)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٤/٢/٥٣٧)، وفيات الأعيان (٣٧٨/٣)، المختصر في أخبار البشر (١٥٥/٢)، العبر (١٢٢/٣)، تتمة المختصر (٥٠٨/١)، مرآة الجنان (٣٠/٣)، تتمة اليتيمة (٣٧/١)، البداية والنهاية (١٩/١٢)، النجوم الزاهرة (٢٦٣/٤)، شذرات الذهب (٢٠٠٤/٣) وقال في ترجمته في أحداث سنة ست عشرة وأربعمائة: وفيها أبو الحسن التهامي علي بن محمد الشاعر له ديوان مشهور، دخل مصر يكتب من حسان بن مفرج فظفروا به وقتلوه سرًا في جمادى قال ابن بسام الأندلسي في كتاب الذخيرة في حقه: كان متميز الإحسان، ذرب اللسان، مخلي بينه وبين ضروب البيان يدل شعره على فوز قدح دلالة النسيم على الصبح، ويعرب عن مكانة من العلوم أعراب الدمع عن سر الهوى المكتوم.

وقال ابن خلكان: له ديوان شعر صغير أكثره نخب ومن لطيف نظمه من جملة قصيدة طويلة يمدح بها الوزير أبا القاسم:

قلت لخلي وثغور الربا ... مبتسمات وثغور الملاح

أيهما أحلى ترى منظرًا ... فقال لا أعلم كل أقاح

وله مرثية في ولده وكان قد مات صغيرًا وهي في غاية الحُسن، ولم يمنعني من الإتيان بها إلاّ أن الناس يقولون هي محذورة فتركتها، وكان من جملتها بيتان في الحساد ومعناهما غريب:

اني لأرحم حاسدي لحر ما ... ضمت صدورهم من الأوغار

نظروا صنيع الله بي فعيونهم ... في جنة وقلوبهم في نار

ومنها في ذم الدنيا:

جبلت على كدر وأنت تريدها ... صفوًا من الأقذاء والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار

وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار

ومنها:

جاورت أعدائي وجاور ربه ... شتان بين جواره وجواري

وتلهب الأحشاء شيب مفرقي ... هذا الشعاع شواظ تلك النار

وله بيت بديع من قصيدة وهو:

وإذا جفاك الدهر وهو أبو الورى ... طرًا فلا تعتب على أولاده

ورآه بعض أصحابه بعد موته في النوم فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قال: فبأي الأعمال؟ قال: بقولي في مرثية ولدي:

=

لَـــوْ لَـــمْ يَكُـــنْ أُقْحَوانًا ثَغرُ مَبْسَمِها مَـــا كَـــانَ يَزْدَادُ طِيبًا سَاعَةَ السَّحَرِ

وقال بعض العرب:

يَـــا أَطْـــيَبَ النَّاسِ رِيقًا بَعْدَ هَجْعَتِها وَأَحْـــسَنَ الـــنَّاسِ عَيْنًا حِيْن تَنْتَقِبُ

وأصل هذا من قول امرئ القيس:

/[٣٢/ب]كَأَنَّ المُدَامَ وَصَوْبَ الغَمَامِ وَ نَـــشْرَ الخُزَامَـــي وَرِيـــحَ القُطُـــر

يُعَـــلُّ بِـــهِ بَـــرْدُ أَنْـــيَابِهَا إِذَا غَـــرَّدَ الطَّائِـــرُ المُـــسْتَحِر(١)

فهذه معانٍ تشحذ ظباة الخواطر، وتنبه على الوجد كل فاتر، وتخجل الرياض جادها صوب السحاب الماطر، وما زلت على مثل هذه الحال من الحرق والبلبال، وقطع مسافة الأيـــام والليالي، وأنا على مثل حرّ المقالي، إلى أن دنا وقت الميعاد، وأطل يومه أو كاد، فَبِتُّ في الليلة التي تسفر عن صباحه، وتتجلى بغرره وأوضاحه، أراقب النجوم وهي أنضاء

=

جـــاورت أعدائـــي وجـــاور ربـــه شـــتان بـــين جـــواره وجـــواري

انتهى ما أورده ابن خلكان ملخصًا. وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: التهامي شاعر وقته... لـــه ديـــوان شـــعر صغير، وكان دينًا ورعًا عن الهجاء ولد باليمن، وقدم الشام والعراق والجبل، وامـــتدح ابن عباد، وصار معتزليًّا، ثم ولي خطابة الرملة، وزعم أنه علوي. وذهب إلى مصر بخبر لحـــساب بـــن مُفَرِّج، فقتل سرًا سنة ست عشرة وأربعمائة. قلت: وعلق محقق سير أعلام النبلاء على ديوانه بقوله في الهامش: ٠

هـــو مطـــبوع في الإسكندرية عام ١٨١٣م ومن جيد شعره مرثيته التي قالها في رثاء ولده وكان صغيرًا:

مـــات صـــغيرًا حُكم المنية في البرية جار مـــا هـــذه الدنـــيا بـــدار قـــرار

ثم ذكر منها أبيات، ثم قال: وقد طبعت مرثيته هذه في كتاب: بلوغ الأرب بشرح قصيدة في كلام العرب.

(١) معلوم تغير نفس الإنسان وريقه أثناء النوم ويظهر ذلك عند قيامه من النوم وهذا عام في كل البشر غـــير أنه استثناها من ذلك بل وجعلها طيبة الريق لا متغيرته فيه إن قامت من نومها لا تحتاج إلى مضمضة ولا غيرها لعدم تغير رائحة الفم أو لإعادته إلى نضارته وحيويته بل هو طيب الذات قبل وأثـــناء وبعـــد النوم. ثم راح يمدح عيونها بالجمال والحور والحسن وأن ذلك الجمال البديع يشتد حـــسنه ويظهر كماله وتأثيره على القلوب حين تخفى باقي معالم وجهها فلا يتركز النظر إلا عليه فـــإذا به لا يناظره جمالا ولا تدانيه عيون فلا هي عيون منها ولا هي عيون حواء بل هي عيون من نوع خاص يجلب القلوب ويجري إلى الهوى ويسحر الناظر ويؤثر فيما يقع عليه تأثيرًا جاذبًا محيرًا فلا يكاد يتحول عنه جمالاً ولا يستطيع إدامة النظر إليه خجلاً وإجلالاً وتقديرًا وإكبارًا.

أسفار، وأشاهد الفلك وقد عطل المدار، وكأن النجوم مقلٌ اعتراها السُّهَادُ، وجفاها الرقاد، فما تطرف لها جفون/ [٣٣/أ] ولا تطرق لها عيون، بل كأنها زهر روضة لا يصوح نباتها، أو كأنها ثابتة مجتمعة، فلا يتغير ثباتها، ولا يرجى شتاتها، أيها نظرت إليه وجدته مقيمًا لا يرحل، ومستقرًا لا يخلخل، كأن سواد الليل حيرها فما تهتدي إلى مغربها، ولا تعرف وجه مذهبها، أضلها الظلام، وأضناها ليل التمام، فلم تجنح إلى أُفول، ولا حدثت نفسها بقفول، كأنما فلكها قد أعيا، وأخذه البرطَغْيا، فتغير نظام دورانه، وكلما ظن أنه استقل، عاد إلى مكانه، فبعْدًا لها من ليلة طال أمد عمرها، وأريت على حولها وشهرها، وشكرًا لها إذ كان يومها موعدًا للوصال وسلمًا إلى بلوغ/ [٣٣/ب] الآمال فلم أزل أحييها وجدًا وغرامًا، وتمتني تذكرًا وهيامًا:

أَحْيَيْتُهَا وَالدُّمُوعُ تُنجِدُنِي شُؤُونُهَا ... وَالظَّلامُ يُنْجِدُهَا[1]

---

(١) وفي نحو هذا يقول ابن حزم في الوصل في طوق الحمامة (ص٥٩):

ومن لذيذ معاني الوصل المواعيد، وإن للوعد المنتظر مكانًا لطيفًا في شغاف القلب، وهو ينقسم قسمين: أحدهما: الوعد بزيارة المحب لمحبوبة وفيه أقول قطعة منها:

أسامر البدر لما أبطأت وأرى ... في نوره من سنا إشراقها عرضا

فبت مشترطا والود مختلطا ... والوصل منبسطا والهجر منقبضا

والثاني: انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبة، وإن لبادئ الوصل وأوائل الإسعاف لتولجًا على الفؤاد ليس لشيء من الأشياء. وإني لأعرف من كان ممتحنا بهوى في بعض المنازل المصاقبة فكان يصل متى شاء بلا مانع، ولا سبيل إلى غير النظر والمحادثة زمانًا طويلاً، ليلاً متى أحب ونهارًا، إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة ومكنته بإسعاد بعد يأسه لطول المدة ولعهدي به قد كاد أن يختلط عقله فرحًا، وما كاد يتلاحق كلامه سرورًا فقلت في ذلك:

برغبة لو إلى ربي دعوت بها ... لكان ذنبي عند الله مغفورًا

ولو دعوت بها أسد الفلا لغدا ... إضرارها عن جميع الناس مقصورًا

فجاد باللثم لي من بعد منعته ... فاهتاج من لوعتي ما كان مغمورا

كشارب الماء كي يُطفي الغليل به ... فغص فانصاع في الأجداث مقبورا

وقلت:

جرى الحب من مجرى النفس ... وأعطيت عيني عنان الفرس

ولي سيد لم يزل نافرًا ... وربما جاد لي في الخلَس

فقبلته طالبًا راحة ... فزاد البلاء بقلبي اليبس

-

وكـــان فـــؤادي كبـــيت هـــشيم يبـــيس رمـــى فـــيه رام قَـــبَس

ومنها:

ويـــا جوهـــر الـــصين ســـحقًا فقـــد غَنِـــيت بـــسياقوتة الأنـــدلس

ثم قال:

وإني لأعـــرف جاريـــة اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء، وهو لا علم عنده وكثر غمها، وطال أســفها إلى أن ضنيت بحبه وهو بغرارة الصبا لا يشعر ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياء منه؛ لأنها كانت بكرًا بخاتمها مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدري لعله لا يوافقه، فلما تمادى الأمر وكانـــا ألفين في النشأة شكت ذلك إلى امرأة جزلة الرأي كانت تثق بها لتوليها تربيتها، فقالت لها: عرِّضـــي له بالشعر، ففعلت المرة بعد المرة، وهو لا يأبه في كل هذا، ولقد كان لَقِنًا ذكيًا، لم يظن ذلك فيميل إلى تنتيش الكلام بوهمه إلى أن عَيِلَ صبرها وضاق صدرها، ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردين ولقد كان يعلم الله عفيفًا متصاونًا بعيدًا عن المعاصي، فلما حان قيامها عنه بَدَرت إليه فقبلته في فَمِه، ثم ولت في ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة، وهي تتهادى في مشيها كما أقول في أبيات لي:

كأنهـــا حـــين تخطـــو في تأوُّدهـــا قـــضيبُ نرجـــسة في الـــروض مَـــيّاسُ

كأنمـــا خُلـــدها في قلـــب عاشـــقها ففـــيه مـــن وقعهـــا خطـــر وســـواس

كأنمـــا مـــشيها مـــشي الحمامـــة لا كـــدٌ يُعـــاب ولا بُـــطءٌ بـــه بـــاس

فَـبُهتَ وسقط في يده وفُتَّ في عضده، ووجد في كبده، وعلته وجمة، فما هو إلا أن غابت عنه، ووقـــع في شـــرك الرَّدى، واشتعلت في قلبه النار، وتصعدت أنفاسه، وترادفت أوجاقه وكثر قلقه، وطال أرقه، فما غمض تلك الليلة عينًا، وكان هذا بدء الحب بينهما دهرًا، إلى أن جَذَب جملتها يد الـــنوى، وإن هـــذا لمـــن مصائد إبليس ودواعي الهوى التي لا يقف لها أحد إلا من عصمه الله عز وجل.

ومـــن الـــناس من يقول: إن دوام الوصل يودي بالحب، وهذا هجين من القول، إنما ذلك لأهل الملـــل، بل كلما زاد وصلاً زاد اتصالاً. وعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأ. وهذا حكم من تداوى برأيه وإن رأيه عنه سريع، ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايـــات الـــتي لا يجد الإنسان وراءها مرمى، فما وجدتني إلا مـــستزيدًا، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمة ولا أرهقتني فترة، ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أُجل خاطري في فـــن من فنون الوصل إلا وجدته مقصورًا عن مرادي، وغير شاف وُجْدي ولا قاضٍ أقل لبانة مـــن لـــباناتي، ووجـــدتني كلما ازددت دنوًا ازددت ولوعًا وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي فقلت في ذلك المجلس:

وددت بـــأن القلـــب شـــق بمديـــة وأُدخلـــت فـــيه ثم أطـــبق في صـــدري

وأصـــبحت فـــيه لا تحلـــين غـــيره إلى مقـــتض يـــوم القـــيامة والحـــشر

إلى أن كاد الظلام يشف لونه ويحمر جونه، وبدت أعلام الصباح منشورة وطلعت رايــات الــنهار منصورة، وولى زنجي الليل وهو هزيم، وركض هاربًا وعقبه كليم، وذرّ حاجب الغزالة مشرق الأنوار، وأجرت بوح سيل الذهب المذاب على الأقطار، وأسفرت ذكاء عن وجهها المنير، وألقت ضمار الظلام عن عارضها المستدير.

/[٣٤/أ]وقــد ذكــرت بهذا الفصل شعرًا مرقومًا يفوق درًّا منظومًا... [١] ابن هانئ الجامعة لهذه المعاني التي أولها:

أَلَيْلَتَــنَا إِذَا أَرْسَــلْتِ وَارِدًا وَجَفَــا وَبِتْــنَا نَرَى الْجَوْزَاءَ فِي أُذْنِهَا شَنْفَا

وهي مشهورة بقائلها، فلا أُتعِبُ بإثباتها يد ناقلها، فمن أرادها فقد دللته ومن أنكرها فقد عرفته[٢].

=

تعيــشين فــيه مــا حيــيت فــإن أمُتْ ســكنت شــفاف القلــب في ظلم القبر

ومــا في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء وأمنا الوشاة، وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبَعُــدا عن الملل، وفقدا العذّال، وتوافقا في الأخلاق وتكافيا في المحبة، وأتاح الله لهما رزقًا دارًّا، وعيــشًا قــارًا، وزمانًا هادئًا، وكان اجتماعها على ما يرضي الرب من الحال وطالت صحبتهما والتصاقهما، واتصلت إلى وقت حلول الحمام الذي لا مردّ له ولا بدمنه هذا عطاء لم يحصل عليه أحــد، وحاجة لم تقضى لكل طالب، ولولا أن مع هذه الحال الإتفاق من بغتات المقادير المحكمة في غيب الله عز وجل من حلول فراق لم يكتسب، واخترام منية في حال الشباب أو ما أشبه ذلك لقلت: أنها حال بعيدة من كل آفة وسليمة من كل دخيلة.

ولقــد رأيت من اجتمع له هذا كله إلاّ أنه كان دُهي فيمن كان يحبه بشراسة الأخلاق، ودالة على المحــبة فكانا لا يتهانيان العيش ولا تطلع الشمس في يوم إلاّ وكان بينهما خلاف فيه وكلاهما كان مطــبوعًا بهذا الخُلق لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه إلى أن دنت النوى منهما فتفرقا بالموت لهذا العالم.

(١) موضع النقط كلمة أو أكثر غير واضحة في المخطوط.

(٢) وهــو هنا يقول لنا بأن الانتظار قد أفضى إلى الوفاء والوصال، فبلغ المراد لم يضع صبره هباءً بل وفــى المحبوب بما قطع على نفسه من الوعد، وفي ذلك يقول ابن حزم في طوق الحمامة في الوفاء (صــ٧٦): ومــن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق في الحب وغيره الوفاء، وإنه لمن أقــوى الــدلائل وأوضــح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات، وفي ذلك أقول قطعة منها:

أفعــال كــل امــرئ تنبــئ بعنــصره والعــين تغنــيك عــن أن تطلب الأثرا

ومنها:

=

وقال مجد الدين محمد بن الظهير الحنفي، شاعر(١) من بلدتنا الغراء، ومجيد من أعيان الشعراء شعره أجرى من الماء تحدر من صبب وأقبل في النفوس من ابن غمام زوج بابنة عنب يمدح السعيد الشهيد تاج الدين أبا المعالي محمد بن نصر بن الصلايا العلوي الحسيني(٢) سقى الله عهده سبل العهاد، وروى ثراه بكل ملث الودق ذي أبارق وأرعاد.

/[٣٤/ب]أَلاَ يَا اسْلَمِيْ يَا دَارَ ميٌّ عَلَى البِلَى ... وَلاَ زَالَ مُنْهَمِلاً بِجَرْعَائِكَ القَطْرُ

فلقد كانت أيامه مواسم المسرة، وأوقاته وقفًا على المبرة، فمضى محمود السجايا

وهل ترى قط دفلى أنبتت عنبًا ... أو تذخر النحل في أوكارها الصبرا

وأول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له وهذا فرض لازم، وحق واجب على المحب والمحبوب لا يحول عنه إلا خبيث المحتد لا خلاق له ولا خير عنده....

ويقول في طوق الحمامة أيضًا في البين في (ص٨٥) في الأوبة بعد البين:

وإن الأوبة من البين الذي تشفق منه النفس لطول مسافته وتكاد تيأس من العودة فيه لروعة تبلغ ما لا حد وراءه، وربما قتلت، وفي ذلك أقول:

للتلاقي بعد الفراق سرور ... كسرور المفيق حانت وفاته
فرحة تبهج النفوس وتحيي ... من دنا منه بالفراق مماته
ربما قد تكون داهية الموت ... وتودي بأهله هجماته
كم رأينا من عب في الماء عطشان ... فزار الحمام وهو حياته

وإني لأعلم من نأت دار محبوبة زمنًا ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلاَّ بقدر التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية فكاد أن يهلك وفي ذلك أقول:

أطلت زمان البُعد حتى إذا انقضى ... زمان النوى بالقرب عُدت إلى البعد
فلم يك إلاَّ كرَّه الطرف قربكم ... وعاودكم بعدي وعاودني وجدي
كذا حائر في الليل ضاقت وجوهه ... رأى البرق في داج من الليل مسوَدْ
فأخلقه منه رجاء دوامه ... وبعض الأراجي لا تفيد ولا تجدي

وفي الأوبة بعد الفراق أقول قطعة منها:

لقد قرت العينان بالقرب منكم ... كما سخنت أيام يطويكم البعد
فلله فيما قد مضى الصبر والرضا ... والله فيما قد قضى الشكر والحمد

(١) لم أقف على ترجمة محمد بن الظهير الحنفي الشاعر فيما بين يدي من المراجع فابحث عنه.

(٢) وكذا لم أقف على ترجمته هذا أيضًا وأكيد أن له ترجمة ليست لدي الآن فابحث عنها فيما يتوفر لك من مراجع في مكتبتك.

طـلاع الثنايا، شريف الخلال والمآثر، والمزايا، إذا اقتسمت غنائم الشرف، فله المرابع منها والصفايا، إلى الخيرات منقطع القرين، وفاق عَرَابَة الأوس في تلقي راية المجد باليمين:

أَيَــا قَبْــرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُوْدَهُ ... وَقَــدْ كَــانَ زِيْنَة الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَتْرَعَا

وأنفذ هذه الأبيات إليه من الشام على يد أخيه وأولها:

لَــوْ وَجَــدْنَا إِلَــى اللُّقَــاءِ سَبِيْلاَ ... لَـشَفِينَا بِالْقُـرْبِ مِـنْكَ غَلِـيْلاَ

وَسَـعَيْنَا عَلَـى الـرُّؤُوسِ سِرَاعًا ... وَرَأَيْــنَاهُ فِــي هَــوَاكُم قَلِــيْلا

قَــدْ سَــأَلْنَا القَبُولَ حمْلَ التَّحِيَاتِ ... فَيَالَيْتَــنَهَا أَصَــابَتْ قَــبُولاَ[١]

(١) وفي هذا المعنى يقول ابن حزم في طوق الحمامة (ص ٨٣) في البين في قصيدة له منها:

متى تستشفي نفسي أضر بها الوجد ... وتصقب دار قد طوى أهلها البعد

وعهدي بهند وهي جارة بيتنا ... وأقرب من هند لطالبها الهند

بلى إن في قرب الديار لراحة ... كما يمسك الظمآن أن يدنو الورد

ثم يقول:

للتلاقي بالفراق سرور ... كسرور المفيق حانت وفاته

فرحة تبهج النفوس وتحيي ... من دنا منه بالفراق مماته

ربما قد تكون داهية الموت ... وتودي بأهله هجماته

كم رأينا من عَبٍّ في الماء عطشان ... فزار الحُمام وهو حسياته

وإني لأعلم من نأى دار محبوبه زمنًا، ثم تيسرت أوبة، فلم يكن إلا بقدر التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية. فكاد أن يهلك وفي ذلك أقول:

أطلت زمان البعد حتى إذا انقضى ... زمان النوى بالقرب عَدت إلى البعد

فلم يك إلا كسرة الطرف قربكم ... وعاودكم بعدي وعاودني وجدي

كذا حائر في الليل ضاقت وجوهه ... رأى البرق في داج من الليل مسوّد

فأخلفه منه رجاء دوامه ... وبعض الأراجي لا تفيد ولا تجدي

وفي الأوبة بعد الفراق أقول قطعة منها:

لقد قرت العينان بالقرب منكم ... كما سخنت أيام يطويكم البعد

فلله فيما قد مضى الصبر والرضى ... ولله فيما قد قضى الشكر والحمد

ثم يذكر خبر حدث له فيذكر فيه شعر، ثم يذكر شعراً آخرَ خاصًا بالعودة واللقاء فيقول فيه:

بشرى أتت واليأس مستحكم ... والقلب في سبع طباق شداد

كنت فؤادي خضرة بعدما ... كان فؤادي لابسا للحداد

=

/ [٣٥/أ] ويقول فيها:

وَفَـــلاَةٍ فَلَيْـــتُهَا بِمَـــنُون ... مَلَـتْ البِـيدُ وَخَـدَهَا وَالذَّمِـيْلاَ
مِـثْلُ ظَهْـرِ المِجـن لا يَجِدُ الخِرِّيتُ فِيهاَ ... إلَـــى الـــسَّبِيْلِ سَـبِيْلاَ
جئـــتُهَا وَالظَّـــلاَمُ رَاهِـــبُ لَـــيْلٍ ... جَاعِـــلٌ كَـــلَّ كَـــوكَبٍ قِـــنْدِيْلاَ
أَوْ عَظِـــيمٌ للْـــزنجِ يَقْـــدُمُ جَيـــشًا ... قَـــدْ أَعَـــدُّوا أسِـــنَّةً وَنُـــصُولا
وَكَـــأَنَّ الـــسَّمَاءَ رَوْضٌ أَرِيـــضٌ ... نَـــوْرُه يأْتِـــي بالـــنَّدي مَطْلُـــولاَ
وَكَـــأَنَّ الـــنُّجُومَ دُرُّ عقُـــودٍ ... عَـــادَ معقُـــودَ سَـلْكِهَا مَحْلُـــولاَ
لَـــيْلَةٌ كَالعِـــدَاف لَـــوْ لَـــمْ يـــرَعْهَا ... بَـــازُ حَجْـــرٍ مَا أَوْشكتْ أنْ تزُوْلا
رَقَّ جِلَـــبَابُ جِـــنحها وَبَـــدَا شَـــفَّا ... كَمَـــا شَـــارَفَ الخِـضَابُ النُّصُولا
وَتَـــوَلَّتْ وَأَشْـــهَبُ الـــصُّبْحُ يَـــتْلُو ... دَهَـــمَ اللَّـــيْلِ وانِـــيًا مَـــشْكُولاَ
وَكَـــأَنَّ الـــصَّبَاحَ مِـــيْلٌ لِجَـــيْنٍ ... كَاحِـــلٌ للظَّـــلاَمِ طَـــرْفًا كَحِـــيْلاَ
/[٣٥/ب]مَا انْتَهَتْ وَالشُّهَادة حَتَّى انْتَهَى الصبر ... وَرُحْـــنَا مِـــنْ خَمْـــرَةِ الشُّهْدِ مِيْلاَ
وَثَنَـــى الـــنَّجْمُ عَـــني سُـــرَاهُ عَـــنَانًا ... مُطْلَقًـــا وانْـــبرَى النَّـــسِيْمُ عَلـــيْلاَ
وَاجْتَلَيْـــنَا وَجْـــهَ الـــنَّهَارِ كَـــوَجْهِ ... الـــصَّاحِبِ الصَّدْرِ مُرْتَجىً مَأْمولا(١)

جـــلا ســـواد الغـــم عـــني كمـــا ... يُجلـــي بلـــون الـــشمس لـــون الـــسواد
هـــذا ومـــا آمـــل وصـــلاً ســـوى ... صِـــدق وفـــاءٍ بقـــديم الـــوِداد
فالمـــزن قـــد تطلـــب لا للحـــيا ... لكـــن لظـــلٍ بـــارد ذي امـــتداد

وفي هذا اللقاء ونحوه يقول المتنبي في ديوانه:

مـضى الليل والفضل الذي لك لا يمضي ... ورؤيـاك أحلـى في العـيون مـن الغمض
علـى أنـني طـوقت مـنك بـنعمة ... شـهيد بهـا بعـض لغـيري علـى بعض
سـلام الـذي فـوق الـسماء عرشـه ... تخـص بـه يـا خـير ماشٍ على الأرض

(١) ويقول ابن حزم في طوق الحمامة أيضًا في الوصل (ص ٥٩):
ومن وجوه العشق الوصل، وهو حظ رفيع، ومرتبة سَرِّية ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة، والعيش السني، والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة.
ولـولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكابرة لقلنا أن وصل المحبوب هـو الـصفاء الذي لا كدر فيه، والفرج الذي لا شائبة فيه ولا حزن معه، وكمال الأماني ومنتهى

المراجـــي. ولقـــد جربت اللذات على تصرفها، وأدركت الحظوظ على اختلافها فما المدنو من الـــسلطان، ولا للمال المستفاد، ولا للوجود بعد العدم ولا للأوبة بعد طول الغيبة ولا للأمن بعد الخوف ولا التروح على المال من الواقع في النفس ما للوصل ولا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجـــر حتى يتأجج عليه الجوى، ويتوقد لهيب الشوق وتنصرم نار الرجاء، وما أصناف النبات بعد غـــيب القطر، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج ولا خرير المـــياه المتخللة للأفانين النوار ولا تأنق القصور البيض قد أحرقت بها الرياض الخضر، بأحسن من وصل حبيب قد رضيت أخلاقه وحُمدت غرائزه وتقابلت في الحسن أوصافه، وإنه لمعجز ألسنة، وإنه البغاء مقصر فيه بيان الفصحاء وعنده تطيش الألباب وتعزب الأفهام، وفي ذلك أقول:

وســـائل لي عَمَّـــا لي مـــن العمـــر ... وقـــد رأى الـــشيب في الفـــودين والعذر
أجيـــته ســـاعة لا شـــيء أحـــسبه ... عمـــرًا ســـواها بحكـــم العقـــل والنظـــر
فقـــال لي كـــيف ذا بَيِّـــنْهُ لي فلقـــد ... أخـــبرتني أشـــنع الأنـــباء والخـــبر
فقلـــت إن الـــذي قلـــبي بهـــا عَلِـــقٌ ... قبلـــتها قـــبلة يـــومًا علـــى خطـــر
فمـــا أَعـــدُّ ولـــو طالـــت سِنيَّ سوى ... تلـــك الـــسويعة بالتحقـــيق مـــن عُمري

ومـــن لذيذ معاني الوصل المواعيد. وإن للوعد المنتظر مكانًا لطيفًا من شغاف القلب وهو ينقسم قسمين: أحدهما الوعد بزيارة المحب للمحبوب وفيه أقول قطعة منها:

أســـامر العـــيد لمـــا أبطـــأت وأرى ... في نـــوره مـــن ســـنا إشـــراقها عَرضـــا
فـــبت مـــشترطًا والـــود مخـــتلطا ... والوصـــل منبـــسطًا والهجـــر منقبـــضًا

والـــثاني: انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه، وإن لمبادئ الوصل أوائل الإسعاف لتولجاً على الفؤاد ليس لشيء من الأشياء وإني لأعرف من كان ممتحنًا يهوى في بعض المنازل المصاقبة فكان يصل مني شاء بلا مانع ولا سبيل إلى غير النظر والمحادثة زمانًا طويلاً ليلاً متى أحب ونهارًا إلى أن ســـاعدته الأقدار بإجابة ومكنته بإسعاد بعد يأسه لطول المدة، ولعهدي به قد كاد أن يختلط عقله فرحًا وما كاد يتلاحق كلامه سرورًا فقلت في ذلك:

بـــرغبة لـــو إلى ربي دعـــوت بهـــا ... لكانـــت ذنـــبي عـــند الله مغفـــورا
ولـــو دعـــوت بهـــا أســـد الفـــلا لَغَدَا ... إضـــرارها عـــن جمـــيع الـــناس مقصورا
فجـــاد بالملـــثم لي مـــن بعـــد منعـــته ... فاهـــتاج مـــن لـــوعتي مـــا كان مغمورا
كـــشارب المـــاء كـــي يطفئ الغليل به ... نَغَـــص فانـــصاع في الأجـــداث مقـــبورًا

وقلت:

وأعطـــيت عـــني عـــنان القـــربى ... جـــرى الحـــب مـــني مجـــرى الـــنفس
ولي ســـيد لم يـــزل نافـــرًا ... وربمـــا جـــادلي في الخلـــس
فقبلـــته طالـــبًا راحـــة ... فـــزاد ألـــيلا بقلـــبي اليـــبس

وتبعته أنا فقلت من أبيات في المخدوم شمس اليدين صاحب الديوان أعز الله نصره:

وَلَــيْلٍ غُدَافِــيٍّ الإهَــابِ ارْتَدَيْتُه وَصَحْبِي نَشَاوَى مِنْ نُعَاسٍ ومِن لَغَب
كَــأَنَّ الــسَّمَاءَ اللاَّزُورْدِيِّ مطرَفٌ وَأَنجمــه فِــيهِ دَنَانِيــر مِــنْ ذَهَب
قَــدْ أَطْــرَدَتْ فِيْهِ المُجَرَّة جَدْوَلاً فَــلاَحَ عَلَـيْهِ مِــنْ كَواكِــبهَا حَبَب
كَــأَنَّ ضِــياءَ الشَّمْسُ وَجْه مَحَمدٌ إِذَا أَمَّــهُ الرَّاجِــي فأَعْطَــاهُ مَا طلب

فنهضت أسابق رجع الطرق مسارعًا إلى متين الطرف/ [٣٦/أ] واستصحبت ذلك الغلام إلى موضع ميعاد بدر التمام وحين رأيت مسارح تلك الغادة المكسال، وشممت من تلك التربة، أرَج مَساحِب الأذيال، أنشدت، ودموع العين آخذة في الانهيال:

وَحَقِــكِ إنْ الجِــذْعَ أَضْحَى تُرَابُهُ عَبِيْــرًا وَكَافُــورًا وَعِــيْدَانهُ رَنْــدَا
وَمَــا ذَاكَ إلاَّ أَنْ مَــشَتْ بِجِــنَابِهِ أُمــيْمَةُ فِي سِــرْبٍ وَجَرَّتْ بِهِ بُرْدَا[1]

=

وكــان فــؤادي كنــبت هــشيم يبــيس رَمَــى فــيه رام قــبس

ومنها:

ويــا جوهــر الــصين ســحقًا فقــد عنــيت بـــياقوتة الأنــدلس

(١) ويــصف ابــن حــزم في طوق الحمامة (ص ٦٢: ٦٣] أحوال المحبين عند اللقاء بأنها أنقى وأهنأ الأحوال فيقول:

روي عن زياد بن أبي سفيان رحمه الله أنه قال لجلسائه من أنعم الناس عيشة؟ قالوا: أمير المؤمنين فقــال: وأين ما يلقى من قريش؟ قيل: فأنت، قال: أين ما ألقى من الخوارج والثغور؟ قيل: فمن أيهــا الأمــير، قال: رجل مسلم له زوجة مسلمة لهما كفاف العيش قد رضيت به ورضي بها لا يعرفنا ولا نعرفه. وهل فيما وافق إعجاب المخلوقين وجلا القلوب، واستمال الحواس، واستهوى الــنفوس واستولى على الأهواء واقتطع الألباب واختلس العقول مستحسن يعدل إشفاق محب على محــبوب. ولقــد شاهدت من هذا المعنى كثيرًا، وإنه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقة الرائعة المعــنى لا سيما أن كان هو يتكتم به، فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمحــبه وخجله في الخروج مما وقع فيه بالاعتذار وتوجيهه إلى غير وجهه وتحليه في استنباط معنى يُقيمه عند جلسائه لرأيت عجبًا ولذة مخفية، لا تقاومها لذة، وما رأيت أجلب للقلوب ولا أغوص علــى دياتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل، وإن للمحبين في الوصل من الاعتذار ما أعجز أهل الأذهان الذكية، والأفكار القوية ولقد رأيت في بعض المرات هذا فقلت:

إذا مــزجت الحــق بالــباطل جــوّزت مــا شــئت علــى الغافــل
وفــيهما فــرق صــحيح لــه علامــة تــبدو الى العاقــل

=

وقريب منه قول النميري(١):

تَضَوَّع مِسْكًا بَطْنُ نُعْمَانَ أَنْ مَشَتْ ... بِـهِ زَيْـنَبٌ فِي نِسْوَةٍ عَطِـرَاتِ
يُخَمِّـرْن أَطْرَافَ الْبَنَانِ مِنَ التُّقَى ... وَيَخْـرجنَ جِـنْحَ اللَّيْـلِ مُعْتجِرَاتِ

وجاءت العين بما هو أغزر من نوءِ العين فكفكفته تَجَلُّدًا فوكف، وسمته وقوفا فما وقف، وأردت/[٣٦/ب] الإنكار فاعترف وصاب، فكأنه من لجة البحر اغترف أرى آثارهم فأذوب شوقًا، وأسكب في مواطنهم دموعي، وأسأل من بفرقتهم زماني يمن عَلَيَّ

=

كالتبر إن تمزج به فضة ... جازت على كل فتى جاهل
وإن تصادف صائغًا ماهرًا ... مَيَّزَ بين المحض والحائل

(١) هو: نصر بن منصور بن حسن أبو المواهب النميري، الأمير الأديب الشاعر جاءت ترجمته في كثير من المراجع منها:
إرشاد الأديب (٧/ ٢٠٨)، المرآة (٨/ ٤٢١)، الروضتين (٢/ ٢١١)، وفيات الأعيان (٥/ ٣٨٣)، المختصر المحتاج إليه (٣/ ٢١٣)، التكملة (١/ ١٦٦)، فكت الهميان (٣٠٠)، البداية والنهاية (١٢/ ٣٥٢)، عقد الجمان (١٧/ ١٥٨)، النجوم الزاهرة (٦/ ١١٨)، تاريخ ابن الفرات (٨/ ٤١)، شذرات الذهب (٤/ ٢٩٥)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢١٣) وخالة أمه بَنَّة بنت سالم بن مالك ابن صاحب الموصل بدران بن مقلد العقيلي ولد بالرقة بعد الخمسمائة. وقال الشعر وهو مراهق وله ديوان.
ضعف بصره بالجدري. ثم اختلفت عشيرته، واختل نظامه، فقدم بغداد، وحفظ القرآن وتفقه لأحمد، وأخذ النحو عن ابن الجواليقي، وسمع منه هبة بن الحصين وجماعة.
وصحب الصالحين ومدح الخلفاء، وأضر بآخره روى عنه عثمان بن مقبل، والبها عبد الرحمن وابن الدبيثي، وابن خليل، وعلي بن يوسف الحمامي، وكانت لأبيه قلعة نجم، وهو القائل:

يزهدني في جميع الأنام ... قلة إنصاف من يصحب
وهل عرف الناس ذو نهية ... فأمسى له فيهم مأرب
هم الناس ما لم يجربهم ... وطلس الذئاب إذا جُربوا
وليتك تسلم حال البعاد ... منهم فكيف إذا قُربوا

وله:

احب عليًّا والبتول وولدها ... ولا أجحد الشيخين حق التقدم
وأبرأُ ممن نال عثمان بالأذى ... كما أتَبَرَّا من ولاء ابن ملجم
ويعجبني أهل الحديث لصدقهم ... مدى الدهر في أفعالهم والتكلم

ومات في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

منهم بالرجوع.

وطفقت أجول في تلك العراص، وأطلب الخلاص، ولات حين مناص، فألوم نفسي تارة، وأعذرها أخرى، واستنصر بأمداد الصبر وهي وانية جسري، إلى أن كاد اليأس يغلب الأمل، وامتد أَمَدُ الانتظار حتى قلت: إن يومه بآخر الدهر قد اتصل، فإذا الشُّرب قد عنَّ وصَدَّقَ الحبيب الظن وذهب فن وأقبل فن، وحصل جُودٌ وتَمَّ مَنْ.

فصَمت أفرش خدي في الطريق له وَلا وأسحب أكمامي على الأرض

/ [٣٧/أ] وحرت عند مشاهدة جمالها، وشغلني حُسنها عن السلام عليها، فوقفت ذاهلاً، وقد أصبح شجيان بياني باقلاً، فابتدرتني بالتسليم، وابتسمت عن مثل الدُّر النظيم، وقالت: كيف وجدت نفسك بَعْدَنَا؟ وهل شكوت بُعْدَنا أم هل عندك شيء مما عندنا؟ وهلاّ أحسنت تلقينا؟ وليتك لقيت من الصبابة ما لقينا، وكيف دهشت حين قدمنا؟ وهل عدمت الجَلَدَ كما عدمنا؟ وهل غلبك الهوى فلم يجر لسانك؟ أم استولى عليك الوَجْدُ فسلب بيانك؟ خَبِّرني عن ضميرك واشرح لي كافة أمورك. فأنشدت وقلبي دائر، ودمعي في المأقين حائر:

/[٣٧/ب]لمْ أنْسَهُ لَمَّا بَدَا مُتَمَايِلاً يَهْتَزُّ مِنْ لِينِ الضَّنَى وَيَقُولُ
مَاذَا لَقِيْتَ مِنَ الهَوَىَ فَأَجَبْتُهُ فِي قِصَّتِي طُولٌ وَأَنْتَ مَلُولُ

فتبسمت عن مثل اللآلئ وقالت: اسمع ما قال: الجمال ياقوت(١) في وصف خَالِيَ

---

(١) هو أبو منصور ياقوت مهذب الدين الرومي الشاعر مولى التاجر أبي منصور الجيلي، وقد جاءت ترجمته في: إرشاد الأريب (٧/ ٢٦٧)، وعقود الجمان (٩: ١٧٥)، تكملة المنذري (٣/ ٢٠٤١)، وفيات الأعيان (٦/ ١٢٢)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٨٣)، مرآة الجنان (٤/ ٤٩) تاريخ ابن الفرات (١٠/ ٦٦)، شذرات الذهب (٥/ ١٠٥)، سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٠٨) وقال في ترجمته:

كان من أهل الناظمية وسمى نفسه عبد الرحمن، وحفظ القرآن، وتأدب، وتقدم في النظم وهو القائل:

خليلي لا والله ما جن غاسق وأظلم إلاّ حَنَّ أو جَنَّ عَاشِقَ

ومن شعره:

جسدي لبعدك يا مثير بلابلي دنف بحبك ما أبل بَلابَلي
يا من إذا ما لام فيه لوائمي أوضحت عذري بالعذار السائل
أأجيز قتلي في الوجيز لقاتلي أم كلٌ لي التهذيب أو في الشامل

الحَالِي:

صَدَقْتمْ فِيْ الوُشَاةَ وَقَدْ مَضَى فِي حُبِّكُم عُمْرِي وَفِي تَكْذِيبِهَا
وَزَعَمْتُمْ أَنِّي مَلِلْتُ حَدِيثَكُمْ مَنْ ذَا يَمَلُّ مِنَ الحَيَاةِ وَطِيبِهَا

أما نحن فأشواقنا إليك متزيِّدة، وأنفاسنا لبعدك متصعِّدة، وليلنا بعدك طويل ونومنا

=

أو طرفك القتال قد أفتاك في تلف النفوس بسحر طرف بابلي

ولأبي الدُّر هذا ديوان صغير. ونظمه سائر بالعراق والشام في ذلك الوقت. وجدوه ميتًا في بيته في جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وستمائة. وقال ابن العماد في ترجمته في شذرات الذهب في أحُداث سنة اثنتين وعشرين وستمائة: وفيها: أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي، الملقب مهذب الدين الشاعر المشهور مولى التاجر أبي منصور الحلبي.

قال ابن خلكان: اشتغل بالعلم وأكثر من الأدب وأستعمل قريحته في النظم فجاد فيه ولما تميز ومهر سمى نفسه عبد الرحمن وكان مقيمًا في المدرسة النظامية ببغداد وعده ابن الدبثي في جملة من أسمه عبد الرحمن، وذكر أنه نشأ ببغداد، وحفظ القرآن الكريم وقرأ شيئًا من الأدب وكتب خطًا حسنًا وقال الشعر، وأكثر منه في الغزل والتصابي وذكر المحبة ورائق شعره، ومن شعره:

ألست من الولدان أحلى شمائلاً فكيف سكنت القلب وهو جهنم؟!

وقال ابن النجار في تاريخ بغداد:

وجد أبو الدر المذكور ميتًا في بيته يوم الأربعاء ثامن عشر من جمادى الأولى من السنة.

وكان قد خرج من النظامية فسكن بدار بدرب دينار الصغير فلم يعلم متى مات وقد ناهز الستين، والله أعلم.

وقال ابن خلكان أيضًا: الرُّومي: بضم الراء وسكون الواو بعدها ميم نسبة إلى بلاد الروم وهو إقليم مشهور متسع كثير البلاد وها هنا نكتة غريبة يحتاج إليه ويكثر السؤال عنها وهي: أن أهل الروم يقال لهم: بنو الأصفر، واستعمله الشعراء في أشعارهم فمن ذلك قول عدي بن زيد العبادي من جملة قصيدته المشهورة:

وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور

ولقد تتبعت ذلك كثيرًا فلم أجد فيه أحدًا شفى الغليل حتى ظفرت بكتاب قديم نقلت منه ما صورته عن العباس عن أبيه قال: انخرق ملك الروم في الزمان الأول فبقيت امرأة فتنافسوا في الملك حتى وقع بينهم شرقًا فاصطلحوا أن يملكوا أول من يشرف عليهم فجلسوا مجلسًا لذلك، وأقبل رجل معه عبد حبشي يريد الروم، فأبق العبد منه، فأشرف عليهم، فقالوا: انظروا في أي شيء وقعتم فزوجوه تلك المرأة فولدت غلامًا فسموه الأصفر، فخاصمهم المولى، فقال: صدق أنا عبده فأرضوه وأعطوه حتى رضي فبسبب ذلك قيل للروم بنو الأصفر لصفرة لون الولد لكونه مولدًا بين الحبشي والمرأة البيضاء والله أعلم. انتهى.

وقد غبت قليل، نتعلل بلقائك، ونتعرض للنَّسيم إذا هَبَّ من تلقائك [(١)]:

مَـــا أَظْلَمَـــتْ لَـــيْلَةٌ وَالْعَـــيْنُ سَاهِرَةٌ   يَعْـــتَادُهَا مِـــنْ نِـــزَاعٍ نحـــوكُم أَرَقُ
إِلاَّ تَمَنَّـــيْتُ أَنَّ الرِّيْحَ لِي نَفَسٌ /[٣٨/أ]   يَـــسْرِي إِلَيْكُمُ وَأَنَّ النَّجْمَ لِي حَدَقُ [(٢)]

وأنه كيف صبرك على فراقنا، وحالك بعد انطلاقنا؟ وهل ساعدك الجلد؟ أم استولى عليك الكمد؟ وهل ذقت منامًا وهجرناه؟ أو عرفت قرارًا أنكرناه؟ [(٣)]:

وَحَقِّـــكَ كَـــدَّرْتَ صَـــفْوَ الحَيَاةِ   وَطِـــيْبَ الـــرُّقَادِ بِهَـــذَا الـــصُّدُوْدِ
وَلَـــوْ نِلْـــتَ مِـــنْ زَمَنِـــيَ مَا أُرِيْدُ   لَـــنَادَيْتُ يَـــا لَـــيْلَةَ الأُنْسِ عُوْدِي [(٤)]

---

(١) يقول ابن حزم في طوق الحمامة في الحنين (ص ٩٣):

لـــيت الغـــراب يعـــيد الـــيوم لي فعسى   بـــيني بيـــنهم عَنِّـــي فقـــد وقفـــا
أقـــول والليـــل قـــد أرخـــى أجلـــته   وقـــد تألـــى بـــألاَّ ينقـــضي فـــولى
والـــنجم قـــد حـــار في أفق السماء فما   يمـــضي ولا هـــو للتغويـــر منـــصرفا
مخالفـــة مخطـــئًا أو خائفًـــا وَجِـــلاً   أو راقـــبًا مـــوعدًا أو عاشـــقًا دَنِفَـــا

(٢) ويقول ابن حزم أيضًا في البيت (ص ٨٣) في طوق الحمامة:

مـــتى تـــشتفي نفـــس أضـــرّ بها الوجد   وتـــصقب دار قـــد طـــوى أهلـــها العبد
وعهـــدي بهـــند وهـــي جـــارة بيتـــنا   وأقـــرب مـــن هـــند لطالـــبها الهـــند
بلـــى إن في قـــرب الـــديار لـــراحة   كمـــا يمـــسك الظمـــآن أن يدنـــو الورد

(٣) يصف ابن حزم الأودية بعد الفراق بنظم في طوق الحمامة (ص ٨٦) يقول فيه:

لقـــد قـــرت العيـــنان بالقـــرب منكم   كمـــا ســـخنت أيـــام يطـــويكم الـــبعد
فللـــه فـــيما مـــضى الـــصبر والرضـــى   ولله فـــيما قـــد قـــضى الـــشكر والحمد

(٤) ويقول ابن حزم أيضًا في طوق الحمامة في نحو هذا (ص ٦٩)

تذكـــرت وُدًّا للحبـــيب كأنـــه   لخـــولة أطـــلال بـــبرقة ثهمـــد
وعهـــده بعهـــد كـــان لي مـــنه ثابـــت   يلـــوح كباقـــي الوشـــم في ظاهـــر الـــيد
وقفـــت بـــه لا مُوقِـــنًا بـــرجوعه   ولا آيـــسًا أبكـــي وأبكـــي إلى الغـــد
إلى أن طـــال الـــناس عـــذلي وأكثـــروا   يقولـــون لا تَهلِـــكْ أســـى وتجلـــد
كـــأن فـــنون الـــسُّخط ممـــن أحـــبه   خلايـــا ســـفين بالنواصـــف مـــن دَدِ
كـــأن انقـــلاب الهجـــر والوصل مركب   يجـــور بـــه المـــلاح طـــورًا ويهـــتدي
فـــوقت رضـــى يـــتلوى وقت تسخط   كمـــا قـــسم الـــتراب المفايـــل بالـــيد
ويبـــسم نحـــوي وهـــو غضبان مُعرِض   مُظاهـــر سمطـــي لُؤلـــؤ وزبـــرجِد

وهــذه الجملة والتفصيل، والأولى والاختصار إذا لم يفد التطويل، فإن أنكرت أمرًا، فَسَلْ قلبك فهو عارفٌ، أو استقللت دمعًا فشاهده دمعك النازف، وقد عرفت حالك أيام السبعاد، / [٣٨/ ب] وتحققت كلما تجري، فلا حاجة إلى التعداد ووقفت على الحقيقة وحمدت ما ظهر من تلك الطريقة، وقد كايلتك الصبابة، وما صرّحت ومعي من الصبر صُبابة:

أَلِفْنَا التَّجَافِي وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُنَا ... عَلَيْهِ وَهَذا آخِرُ العَهْدِ بِالصَّبْرِ (١)

---

(١) وفي نحو هذا يقول البهاء زهير:

يعاهدني لا خانني ثم ينكث ... وأحلف لا كلمته ثم أحنث
وذلك دأبي لا يزال ودأبه ... فيا معشر العشاق عنا تحدثوا
أقول له صلني يقول نعم غدًا ... ويكسر جفنًا هازئًا بي ويعبث
وما ضر بعض الناس لو كان زارني ... وكنا خلونا ساعة نتحدث
أمولاي إني في هواك معذب ... وحتامَ أبقى في الغرام وأمكث
فخذ مرة روحي ترحني ولا أرى ... أموت مرارًا في النهار وأبعث
فإني لهذا الضيم منك لحاملٌ ... منتظر لطفًا من الله يحدث
أعندك من هذا الجفاء الذي بدا ... خلائقك الحسنى أرق وأدمث
تردد ظن الناس فيَّ فأكثروا ... أحاديث فيها ما يطيب ويخبث
وقد كرمت في الحب من شمائل ... ويسأل عني من أراد ويبحث

وقال مجد الدين بن مكانس:

أهدى تحيته وجاد بوعده ... أفديه من قمر بدا في سعده
بدر جرى ماء الحياة بثغره ... وترددت فضلاته في خده
أسكنته قلبي فأوقد خده ... نيران أحشائي عليه ووجده
من لي به حلو الشمائل أهيف ... روت العوالي عن مثقف قدّه
يا عاذلي في حبه لو أبصرت ... عيناك فوق الردف مسبل جعده
لعذرت كل متيم في حبه ... وعلمت أن ضلاله في رشده
فوحق موتي في هواه صبابة ... وحياة مبسمه الشهي وبرده
ما جاد غيث الدمع إلا عن هوى ... خلع القلوب ببرقه وبرعده
قم يا رسول وأبلغ العشاق ما ... ألقاه من جور الحبيب وبعده
وإذا سألتك أن تؤدّي في الهوى ... خبري فصف فعلى الغرام وأبده

=

فَمُــرْ بمـــا تريد وأحكم حكم المالك على العبيد، فحين سمعت كلامها، وفهمت نظامها، زاد غرامي أضعافًا، واستخفني الطرب استخفافًا، وكدت أطير فرحًا وجَذَلاً، ولو لم أتماسك لصرت مثلاً:

إِذَا الخَبَــرُ اسْــتَخَفَّكَ مِنْ بَعِيْدٍ ثَنَاهُ ... فَكَـيْــفَ ظَنُّــكَ بِالعِيَـــانِ

فقلـــت: يا قرة العين الساهرة، وقرار القلوب/ [٣٩/ أ] النافرة شفيت نفسًا أشفَتْ علـى التلف، ونعشت قلبًا أودى به وارد الأسف، وكففت دمعًا ما نَهْنَهَه إلاَّ وَكَفَ، ورفعـت أملاً كان في الحضيض فنال الشرف، وأحييت روحًا أماتها الجفاء، ولازمها الهمُّ فعليها العفاء، فاستدركت ما بقي من دمائها، وبَقِيتِ عليها فضل مائها وسقيتها فعادات مخضرة الأوراق، وأعديها على دواعي الوجد وعوادي الفراق:

رَأَيْــتُ أَنَّ الــوَجْدَ قَــدْ شَــفَّنِي ... وَخَانَنِــي فِي بُعْــدِكِ الــصَّبْرُ
فَعُــدْتُ بِالحُــسْنَى عَلَــى مُغْــرَمٍ ... ذَابَ اشْــتِيَاقًا فَلَــكِ الأَجْــرُ(١)

=

وقال آخر:

تــصدق بــوعد إن دمعــي ســائل ... وزود فــؤادي نظــرة فهــو راحــل
فخــدك موجــود بــه التــبر دائمًــا ... وحــسنك معــدوم لديــه المماثــل
أيــا قمــرًا مــن شمــس طلعــة وجهه ... وظــل عذاريــه الدُّجــى والأصــائل
تــنقلت مــن طرف مع القلب والهوى ... وهاتــيك للــبدر المــنير مــنازل
جعلــتك للتميــز نــصبًا لخاطــري ... فهــلا رفعــت الهجــر والهجــر فاعــل

ما سبق كله من المستطرف (ص ٤٤٧، ٤٤٩)

(١) وللجواب على هذا جاء في المستطرف كل فن مستظرف قال يحيى بن أكثم (ص ٤٥١):

بــأبي غــزالا غازلــته مقلــتي ... بــين العــذيب وبــين شــطي بــارق
وســألت مــنه زورة تــشفي الجــوى ... فأجــابني عــنها بــوعد صــادق
بتــنا ونحــن مــن الدجــى في خــيمة ... ومــن الــنجوم الزهــر تحــت ســرادق
عاطيــته واللــيل يــسحب ذيلــه ... صــهباء كالمــسك الذكــي لناشــق
وضــممته ضــم الكمــيِّ لــسيفه ... وذؤابــتاه حمائــل في عاتقــي
حــتى إذا مــات بــه سِــنَةُ الكــرى ... زحــزحته عــني وكــان معانقــي
أبعدتــه عــن أضــلع تــشتاقه ... كــي لا يــنام علــى فــراش خافــق
لمــا رأيــت اللــيل آخــر عمــره ... قــد شــاب في لمــم لــه ومفــارق

=

قالـــت: خلنا من هذه الأقوال فلك المنة على كل/[٣٩/ ب] الأحوال، وعد إلى الدار، وانتظرنا وقت الاصفرار فإنّا الليلة لك ضيوف، وعليك عكوف، وخلّ هذا الكلام الذي بين يديك ليكون مع عودنا إليك دليلنا عليك، وحظنا في هذا أوفر نصيبنا منه أكثر، فاســتعد لوصالنا، فنعم البدل نحن من خيالنا فتوثقت منها بالعهود، وراجعتها في الوفاء بالموعـــود، وأذكرتها تلك الخدعة، وألا تعيدها جَذْعَةً، فتبسمت عن واضحات كالدرر، ونظرت عن طرف وَسْنَانَ، ذي حَوَرٍ، وقالت: تلك حال، وهذه حال، ولم يبق إلاّ اللقاء والوصـــال، ولقد ندمت على تلك الليلة التي ذهبت ضيَاعًا، فقد كان الصواب أن نأتيك فـــيها سراعًا/ [٤٠/ أ] ولكن لا حيلة فيما مضى، ومن الذي أعطاه دهره الرضا، وقد أصـــحب الدهر الشامس، وابتسم الخط العابس، وحضر الحبيب الغائب، وغاب الرقيب، وضحك العيش بعد القطوب، ولم تبق حاجة في نفس يعقوب[1]. فعدت إلى الدار آخذا

=

ودعـــت مـــن أهـــوى وقلـــت تأسفًا صـــعب عَلَـــيَّ بـــأن أراك مفارقـــي

وقال ابن نباتة:

بـــدا ورنـــت لـــواحظه دلالا فمـــا أبهـــي الغـــزالة والغـــزالا
وأســـفر عـــني ســـنا قمـــر مـــنير ولكـــن قـــد وجـــدت بـــه ضـــلالا
صـــقيل الخـــد أبـــصر مـــن رآه ســـواد العـــين فـــيه فخـــال خـــالا
وممـــنوع الوصـــال إذا تـــبدّى وجـــدت لـــه مـــن الألفـــاظ لا لا
عجـــبت لثغـــره البـــسام أبـــدى لـــنا ذرًا وقـــد ســـكن الـــنزلالا
شـــهدت بـــشهد ريقـــته لأني رأيـــت علـــى ســـوالفه نمـــالا
فـــيا عجـــبًا لحـــسن قـــد حـــواه وقـــد أهـــدى إلى قلـــبي الـــوبالا
سأشـــكو الحـــسن مـــا بقـــيت حياتي وأشـــكر مـــن صـــنائعه الجمـــالا

وقال ابن رفاعة:

يقولـــون: هـــل مَـــنٌ الحبـــيب بزورةٍ ومـــنّاكم المطلـــوب قلـــنا لهـــم مَـــنّا
فقالـــوا لـــنا: غوضـــوا علـــى قدّه وما يحاكـــي إذا مـــا اهتـــز قلـــنا لهـــم غُصْنَا

(١) وفي المصدر السابق (ص ٤٥٦) يقول في نحو هذا المعنى صفي الدين الحلي:

أبـــت الوصـــال مخافـــة الـــرقباء وأتـــتك تحـــت مـــدارع الظلمـــاء
أصـــفتك مـــن بعـــد الـــصدود مـــودة وكـــذا الـــدواء يكـــون بعـــد الـــداء
أحـــيت بـــزورتها الـــنفوس وطالمـــا ضـــنت بهـــا فقـــضت علـــى الأحـــياء

-

في الاستعداد جازمًا بحصول المراد. فسألني بعض الإخوان إذ رأى سرعة العود مع قرب المسير، وشاهد الطلاقة على الأسارير، فأنشدته الأبيات النوادر التي أقر بحسنها كل ناظم وناثر:

أَجِــلْ عَيْنَـيْكَ فِــي عَيْنِــي تَجِدْهَا ... مُـــشَرَّبَةٍ جَسَــنًا وَرْدِ الْخُـــدُوْدِ

وَصَــافِحْنِي تَجِــدْ عَــبَقًا بِكَفِّـــي ... يَــضُوْعُ إلَــيكَ مِــنْ رَدْعِ الــنُّهُوْدِ

/[٤٠/ب] وَهَاسَــمْعِي إلَــيكَ فَإِنْ فِيْهِ ... بَقَايَــا مِــنْ حَــدِيْثٍ كَالْعُقُــوْدِ(١)

-

أمْــــتْ بلـــيل والـــنجوم كأنهـــا ... دُرٌ بـــباطن خـــيمة زرقـــاء

أمـــست تعاطـــيني المـــدام وبينـــنا ... عـــتب غنـــيت بـــه عـــن الـــصهباء

آبـــت إلى جـــسدي لتنظـــر ما انتهت ... مـــن بعـــدها فـــيه يـــد الـــبر حـــاء

ألفـــت بـــه وقـــع الـــصفا فـــراعها ... جـــزعا ومـــا نظـــرت جـــراح حشائي

أمـــصيبة مـــنًا بنـــبل لحاظهـــا ... مـــا أخطأتـــه أســـنة الأعـــداء

أعجـــبت ممـــا قـــد رأيـــت وفي الحشا ... اضـــعاف مـــا عايـــنت في الأعـــضاء

أمـــسي ولـــست بـــسالم مـــن طعـــنة ... بخـــلاء أو مـــن مقلـــة بخـــلاء

وقال ابن نباتة في المصدر السابق في (ص ٤٥٧) في نحو هذا المعنى:

رقـــت لـــنا حـــين هـــم السفر بالسفر ... وأقـــبلت في الدُّجـــى تـــسعى على حذر

راضـــي الهـــوى قلـــبها القاسي فجادلنا ... وكـــان أبخـــل مـــن تمـــوز بالمطـــر

رأت غـــداة الـــنوى نـــار الكلـــيم وقد ... شـــبت لم تـــبق مـــن قلـــبي ولم تـــذر

وشـــيقة لـــو تـــراها عـــندما ســـفرت ... والـــبدر سَـــاهِ إلـــيها ســـهو معـــتذر

رأيـــت بـــدرين مـــن وجـــه ومن قمر ... في ظـــل جـــنحين مـــن ليل ومن شمس

وشـــفت در المحـــيًا مـــن مقـــبلها ... إذ نبهـــتني إلـــيها نـــسمة الـــسحر

رنـــت نجـــوم الدجى نحوي فما نظرت ... مـــن يرشـــف الـــراح قبلي من فم القمر

راق العـــتاب وأبـــدت لي ســـرائرها ... في لـــيلة الوصـــل بـــل في غـــرة القمـــر

(١) تكـــرر هذا البيت بنهاية الصفحة السابقة وأول الصفحة التي نحن بصددها [٤٠/ ا]، [٤٠/ ب] من المخطوط.

وَعَدِّ عَنِ الفُؤَادِ فَفِيْهِ سِرٌّ ... أَضِنُّ بِهِ عَلَى كُلِّ الوُجُوْدِ[1]

---

(١) وفي المستطرف (ص ٤٥٧) لصفي الدين الحلي في هذا المعنى:

جاءت لتنظر ما أبقت من المهج ... فعطرت سائر الأرجاء بالأرج
جلت علينا محيًّا لو جلته لنا ... في كلمة الليل أغنتنا عن السُّرُج
حورية الخد تمحو ورد وجنتها ... بحاري من ذبال الغنج والدّعج
جزت إساءة أفعالي بمغفرة ... فكان غفرانها يغني عن الحجج
جادت لعرفانها أني المريض بها ... فما عليَّ إذا أذنت من حرج
جست يدي لترى ما بي فقلت لها: ... كفّي فذاك جوى لولاك لم يهج
جفوتني فرأيت الصبر أجمل بي ... والصمت في الحب أولى من اللهج
جادت لحاظك فينا غير راحمة ... ولذة الحب جور الناظر الغنج

وقال آخر في (ص ٤٦٥):

ما زال ينهل من حرف الطلا قمري ... حتى غدت وجنتاه البيض كالشفق
وقام يخطر والأرداف تقعده ... طورًا، وحاول أن يسعى فلم يطق
فعائل فعلت فعل الشمول به ... فعل النسيم بغصن البانة الورق
جاذبته لعناقي فانثنى خجلاً ... وكلّلت وجنتاه الحمر بالعرق
وقال لي بفتور من لواحظه ... إن العناق حرام قلت في عنقي

وقال كمال الدين بن النبيه (ص ٤٤٧) في نحو هذا المعنى:

الله أكبر كل الحسن في العرب ... كم تحت لمة ذا التركي من عجب
صبح الجبين بليل الشعر منعقد ... والخدّ يجمع بين الماء واللهب
تنفست عن عبير الراح ريقته ... وأفتر مبسمة الشهدي عن حبب
لا بي العذيب ولا بي بارق غزلي ... بل في جنى فمه أو ريقه الشنب
كأنه حين يرمي عن حنيته ... بدر رمى عن هلال الأفق بالشهب
يا جاذب القوس تقريبًا لوجنته ... والهائم الصب منها غير مقترب
أليس من نكد الأيام يحرمها ... فمي ويلثمها سهم من الخشب
من لي بأغيد قاسي القلب مبتسم ... لا عن رضا معرض عني بلا غضب
فكم له وجود الذنب من سبب ... وليس لي في قيام العذر من سبب
تميل أعطافه تسبيها بطرّته ... كما تميل رماح الخطب بالعذب
أشار تحوي وجنح الليل معتكر ... بمعصم بشعاع الكأس مختضب
بكرًا جلاها أبوها قبل ما جليت ... في حجر لدن أو في قشرة العنب

وقلت: هذه جملة يطول شرحها وليلة قد أسفر صَبَّحُهَا، واستدعيت المشروب، والمشموم، وهيأت الظاهر والمكتوم، وأعدد المنثور والمنظوم، وأحضرت أنواع الرياحين، وتَفَأَّلت بالجمع بين الورد والياسمين، ونضدت مجلسًا للشراب، ومجمعًا للأوتار والإطراب وروقت سلافًا أرق من الماء، وأجرى من الهواء، وأحسن من الذهب، وأنور من اللهب، وأسلس من النسيم، وأصفى من التسنيم، وأشد إشراقًا من الشمس كأنها أفرغت في الزجاج من القلب/ [٤٠/ ب] على الغرر البدائع، والمعاني التي هي أعذب من جناء النحل ممزوجًا بماء الوقائع والألفاظ التي أصحب أبِيُّهَا وأطاعه عصيُّها، وانثالت عليه انثالاً وثنيت أعناقها إليها أرسالاً، فحكم فيها حكم العارف الخبير، وأبرزها بحسن نظمه، كالروض النضير، وأنا أذكر من أشعاره ما حضر، ومن أراد الزيادة، فعليه بديوانه يستخرج منه الدرر، قال:

قَامَتْ تُرِينِي وَأَمْرُ اللَّيْلِ مُجْتَمِعٌ ... صُبْحًا تَوَلَّدَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعِنَبِ
كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا ... حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ(١)

هذا التشبيه في غاية الحسن، وقد أخذ عليه:/ [٤١/ أ] «صُغْرَى وكبْرَى» ما هو

---

(١) وقال هاشم الرفاعي في ديوانه (ص ٢٨٤) في قصيدة أنشودة عاشق:

كعاب يسُرُّ العين من حسن خطوها ... تأود أعطاف ولين قدودِ
كأن بياض الوجه والفرع حوله ... تبلج بدرٍ في دَجُنَّةِ بيد
تريك بهاء الورد في وجناتها ... وتبسم عن مثل الأقاع نضيد
تفوق المها في الحسن طرفا ومُقْلَةً ... وتحكي ظباء القاع لفتة جيد
من اللاء يشفين الخلي بنظرة ... فيمس بقلب في الغرام عميد
ومن عجب في الجفن بدا وكم ... له من شهيد راح إثر شهيد

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان فاتنة في نفس الديوان (ص ٢٨٦):

ملُّ عينيك دعوة للنزال ... وبجفنيك فإنك من نصال
لست أقوى عليها لست أقوى ... إنما أنت شعلة من جمال
قد دعوت الفؤاد حتى تردَّى ... فأبنت الدلال كلُّ الدلال
بسمة الوجه في دجى الشعر تحكي ... ومضة الفجر في ظلام الليالي
ذلك الثغر باهتصارك يغري ... ذلك الصدر ملهب للخيال
في قوام متى احتواه ذراعي ... وأطل الردى فلست أبالي

معلـــوم عـــند من رغب في جداله. وما هذه الرسالة مما تحتمل الخوض في هذا وأمثاله
وقال:

قَـــالَ أَبْغِـــنِي المِـــصْبَاحَ، قُلْتَ لَهُ: اتّـئدْ حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْؤُهَا مُصَباحَا
فَــسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزُّجَاجَةِ شَرْبَةً كَانَــتْ لَــهُ حَتَّـــى الــصَّبَاحَ صَـــبَاحَا
مِـــنْ قَهْـــوَةٍ جَاءَتْـــكَ قَبْلَ مِزَاجِهَا عَطْـــلاً فَأَلْبَـــسَهَا المِـــزَاجُ وِشَـــاحَا
عَمِـــرَت بكَاتِمُـــكَ الزَّمَان جَدِيتِهَا حَتَّـــى إذا بَلَـــغَ الـــشَّآمَةَ بَاحِـــسَا[1]

وقال:

لاَ تَـــبْكِ لَيْلَـــى وَلاَ تَطـــرَبْ إِلَى هِنْدِ وَاشْـــرَبْ عَلَى الوَرْدِ مِنْ حمرَاء كَالْوَرْدِ
كَأْسًـــا إِذَا انْحَـــدَرَتْ مِنْ كَفِّ شارِبِها أَخَذَتْـــهُ حُمْـــرَتُها فِـــي العَيْنِ وَالْخَدِّ

---

(١) وفي الجمال والدلال يقول الشريف الرضي في المستطرف (ص ٤٥٩):

وهـــيس بـــين مزعفـــر ومعـــصفر ومعنـــبر وممُـــسك ومـــصندل
هـــيفاء إن قـــال الـــشباب لهـــا انهضي قالـــت روادفهـــا اقعـــدي وتمهلـــي
وإذا ســـألت الوصـــل قـــال جمالهـــا جـــودي وقـــال دلالهـــا لا تفعلـــي

ويقول محمد بن سوار بن إسرائيل في نحوه:

وعـــدت بوصـــل والـــزمان مـــسوف حـــوراء ناظـــرها حـــسام مـــرهف
نـــشواة غـــضباء مـــنهل ثغـــرها درٌ وريقهـــا ســـلاف قـــرقف
ونخـــال بـــين الـــبدر مـــنها والـــنقا غـــصنًا يمـــيس بـــه النـــسيم مهفهـــف
لا تحـــسبين الخلـــف شـــيمة مـــثلها وعـــدت ولكـــن الـــزمان يـــسوف
يـــا بانـــة قـــد اطلعـــت أغـــصانها وردًا جنـــيًا باللـــواحظ يقطـــف
وغـــزالة يحكـــي الغـــزالة وجههـــا ويعـــير ناظـــرها الحـــسام الأوطـــف
مـــا تأمـــرين لمغـــرمٍ تـــسطو بـــه أجـــنابك المـــرض ولا تـــستعطف
قـــسمًا بـــوجهك وهـــو صـــبح مشرق وســـواد شـــعرك وهـــو لـــيل مـــسدف
ويهـــز غـــصن الـــبان مـــنك على النقا مـــالي إلى أحـــد ســـواك تـــشوف

قلـــت لقـــد أســـرف الشاعر هنا وبالغ أيما مبالغة في القسم الذي أورده، والواجب أن لا يكون القـــسم بغير الله تعالى جادًا أو هازلاً تحريا للتوحيد أصلاحًا للعقيدة وتعويدًا للسان على ألا يخل بـصحة التوحـــيد، فإن كثيراً من الناس لا يهتم بمثل هذا فيرديه من حيث لا يحتسب ومنهم من يـــبالغ فيعتـــبر من أقسم بغير الله تعالى مشركًا، قلت وهذا من الإفراط وهذا من التفريط والدين وسط ومعلوم بأن الأقسام تكون للتعظيم ولكن هو لا يريد تعظيم يعظم به عن الله.

فالخَمْـــرَ يَاقُــوتَةٌ وَالْكَــأْسِ لُؤْلُـــؤةٌ مِــنْ كَــفُ جَارِيَــةِ مَمْـشُوْقَة الْقَدُ
تَـسْقِيْكَ مِــنْ يَدِهَا خَمْرًا وَمِنْ فَمِهَا خَمْــرًا فَمــا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدّ
/[٤١/ب] لِي نَـشْوَتَانِ وَلِلـنُدْمَانِ وَاحِدَةٌ شَــيءٌ خُصِــصْتُه مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي(١)

وقال:

وَمُدَامَــةٍ تَحْـــيا الــنُّفُوسُ بِهَـــا جَلَّــتْ مَآثِــرُهَا عَـــنِ الوَصْـــفِ

---

(١) ونحوه من قال كمال الدين بن النبيه في المستطرف (ص ٤٧٤):

باكــر صــبوحك أهــنى العــيش باكرة فقــد تــرنّم فــوق الأيــك طائــره
والليــل تجــري والــدّراري في بحــرته كالــروض تطفــو علــى نهــر أزاهــره
وكــوكب الــصبح نجــابٌ علــى يده مخلّــق تمــلأ الدنــيا بــشائره
فــانهض إلى ذوب ياقــوت لهــا حبب تــنوب عــن ثغــر مــن تهــوى جواهره
حمــراء مــن جــنة الــساقي لهــا شبهٌ فهــل جــناها مــن العــنقود عاصــره
ســاق تكــون مــن صــبح ومن غسق فابــيض خــداه واســودت غدائــره
بــيض ســوالفه لعــسٌ مراشــفه نعــسٌ نواظــره خــرس أســاوره
مفلــج الثغــر معــسول اللمــى غــنج مــؤنث الجفــن فحــل اللحــظ شاطره
مهفهــف القــدّ يــبدي جــسمه ترفًا مخــصّر الخــصر عــبل الــردف وافــره
تعلمــت بأنــه الــوادي شمائلــه وزوّرت ســحر عينــيه جــآذره
كأنــه بــسواد اللحــظ مكــتحل وركــبت فــوق صــدغيه محاجــره
فلــو رأت مقلــتا هــاروت آيــته الكــبرى لآمــن بعــد الكفــر ســاحره
خــذ مــن زمانــك مــا أعطاك مغتنمًا وأنــت نــاهٍ لهــذا الدهــر آمــره
فالعمــر كالكــأس تــستحل أوائلــه لكــنه ربمــا مــرّت أواخــره
واجــسر علــى فــرض اللذات مختضرًا عظــيم ذنــبك إن الله غافــره

أقول في البيت الأخير:

على الرغم من عظيم أمله في ربه سبحانه وتعالى إلاّ أنه جانبه التوفيق فيه نعم وصف ربنا سبحانه وتعــالى نفــسه بالــرحمة والرأفة والحنان والودّ الجود والكرم فلا يغتر مغتر بحلمه وجوده وكرمه ويجــسر على إتيان معاصيه جهارًا نهارًا بل ويدعو إليها كهذا الداعي إلى ذلك فإن المرء قد يؤتى من مأمنه والمرء لا يدري منيته، ولا يدري بما يختم له ولا يدري أيغفر الله له أم لا فليكن المسلم علــى حذر دائمًا واضعًا عفو ربه ومغفرته نصب عينيه ولا ييأس من رحمته وروحه إن غلبته نفسه الأمّارة بالسوء ولا يستسلم لوساوس الشيطان.

مِـــنْ كَـــفِّ سَـــاقِيةٍ مُقَـــرطَقَةٍ نَاهِـيْكَ مِـــنْ أَدَبٍ وَمِـــنْ ظُرْفِ(١)

وقال:

عُـــتِّقَتْ فِي الـــدِنَانِ حَتّى اسْتَفَادَتْ نُـــورَ شَـــمسِ الضُحَى وبَرْدَ الظِّلاَلِ

ولَعَمْـــرُ الْمـــدَامِ إنْ قُلْـــتُ فِـيْهَا إنَّ فـــيها لَمَوضَـــعًا لِلمَقَـــالِ(٢)

وقال:

فَطِـــبْ بِحَـــدِيْثٍ عَنْ نَدِيْمٍ مُسَاعِدٍ وسَـــاقِيَةٍ يــسُرُّ الْمُـــراهِقِ لِلحُلْـــمِ

ضَـــعِيْفَةُ كَسرِ الطَّرْفِ تَحْسَبُ أَنَّها قَـــرِيْبَةُ عِهْـــدٍ بالأفَاقَـــةِ مِـــنْ سقَمٍ

هذا هو الشعر الذي تستشعر به النفوس/[٤٢/أ] ويلوح على وجه الأشعار غُرَّةً،

---

(١) وفي نحو هذا قال الأبشيهي في المستطرف (ص ٤٧٧):

في مجلس أنس:

ومجلـــس راقَ مـــن واشٍ يكـــدره ومـــن رقـــيب لـــه باللـــوم إســـلام

مـــا فـــيه ســـاعٍ سوى الساقي وليس له علـــى الندامـــى ســـوى الـــريحان نمـــام

(٢) هذا قوله في الخمر، وأقول بقول من قال:

ألا يـــا قـــوم لـــيس في الخمـــر رفعـــة فـــلا تقـــربوا مـــنها فلـــست بفاعـــل

فـــإني رأيـــت الخمـــر شـــيئًا ولم يزل أخـــو الخمـــر دخـــالاً لـــشر المـــنازل

وفي المستطرف (ص ٥٢٧):

قال الحسن: لو كان العقل يشتري لتغالي الناس في ثمنه، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده،...

وقال بعضهم:

بلـــوت نبـــيذ الخمـــر في كـــل بلـــدة فلـــيس لإخـــوان النبـــيذ حفـــاظ

إذا دارت الأرطـــال أرضـــوك بـــالمنى وإن فقـــدوها فالوجـــوه غـــلاظ

وقال حكيم: إياك وإخوان النبيذ فبينما أنت متوج عندهم مخدوم مكرّم معظم إذا زلت بك القدم فجروك على شوك السلم فاحفظ قول القائل فيه:

وكـــل أنـــاسٍ يحفظـــون حـــريمهم ولـــيس لأصـــحاب النبـــيذ حـــريم

فـــإن قلـــت هـــذا لم أقـــل عن جهالة ولكـــنني بالفاســـقين علـــيم

وقال الصفدي:

دع الخمـــر فالـــراحات في تـــرك راحها وفي كأســـها للمـــرء كـــسوة عـــار

وكـــم ألبـــست نفـــس الفتى بعد نورها مـــدارع قـــارٍ في مـــدار عقـــار

وماذا عسى أن يقال في شيخ الصناعة وفارس البراعة[(١)].

يَا شَقِيْقَ النَّفْسِ غِبْتَ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أَنَمِ

وقد قيل: أنها قد قيلت فيه، والذي قالها: والبة بن الحباب[(٢)].

---

(١) هذا رأيه في الشعر وأسأل الله تعالى ألا يكون في الخمر لأن الخمر معلوم مضارها شرعًا وواقعًا فلا يقبلها إلا إنسان فاجر أو زنديق أو هازل ماجن أو من لا يحترم عقله ولا يخاف ربه وهي شيء كرهه من أهل الجاهلية ذوي الرأي والسداد والرشاد فضلاً عن تحريم الشرع لها، وكذلك معلوم أن لها بعض المنافع التي قد يعرفها أو يستخلصها منها أهل الطب ويتجنبوا منها مضارها، أما لنا نحن معشر البشر فلا فائدة لنا فيها على الإطلاق، وليس وراءها إلا كل شر وسوء وفساد وخراب ودمار، ومن اغراك ببيت شعر أو قول مبالغ فيه عن فوائدها أو لذتها أو ما تحدثه به من النشوة فإنما هو كذب وهراء وخداع من إنسان فاسد كذبه الواقع والتاريخ والشرع، فاحذر أن تصغي لقول قائل فيها بخير فلا خير فيها لنا، والله لا يحرم علينا ما يصلحنا، هدانا الله وإياك سواء السبيل ورزقنا وإياك حسن الختام آمين.

(٢) قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٣/ ٥٨١) في ترجمته:

والبة بن الحباب أبو أسامة الشاعر من بني فعين بن الحارث بن ثعلبة بن داود بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وهو كوفي وكان من الفتيان الخلفاء المجان وله شعر في الغزل والشراب وغير ذلك. ولما مات رثاه أبو نواس وكان والبة أستاذه. ثم ذكر الخطيب بإسناده إلى محمد بن يحيي الدهقان. عن عمه قال: ولي يحيى خراج الأهواز فأخرج معه والبة بن الحباب. وكان يأنس به - فوجهه إلى البصرة ليشتري له بها حوائج، وكان فيما اشترى له بخورًا، فصار إلى سوق العطارين فاشترى منها عودًا هنديًا، وكان أبو نواس يبرى العود وهو غلام، فاحتيج إليه في بري ذلك العود وتنقيته، فلما رآه والبة كاد أن يذهب عقله عليه، فلم يزل يخدعه حتى صار إليه فحمله إلى الأهواز، وقدم به إلى الكوفة بعد منصرفهم فشاهد معه أدباء الكوفة في ذلك الوقت فتأدب بأدبهم. وبإسناده أيضًا إلى أبي نواس قال: سبقني والبة إلى بيتين من الشعر قالهما ووددت أني كنت سبقته، وأن بعض أعضائي اختلج مني:

وليس فتى الفتيان من راح أو غدا لشرب صبوح أو لشرب غبوق

ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا لضر عدوٍّ أو لنفع صديق

وقدم والبة بغداد بآخره، وجرى بينه وبين أبي العتاهية مهاجاة حتى خرج عن بغداد فرارًا من أبي العتاهية. وذكر بإسناده إلى محمد بن عمر قال الجرجاني قال: رأيت أبا العتاهية جاء إلى أبي فقال له: إن والبة بن الحباب قد هجاني ومن أنا منه؟ أنا جرار مسكين، فجعل يرفع من والبة ويضع من نفسه، فأحب أن تكلمه أن يمسك عني قال: فكلّم أبي والبة في أمره، وقال له: تكف عنه، وعرفه أن أبا العتاهية جاءه وسأله ذلك، فلم يقبل، وجعل يشتم أبا العتاهية، فتركه، ثم جاءه أبو العتاهية فسأله عما عمل في حاجته، فأخبره بما رد عليه والبة، فقال لأبي: لي الآن إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: لا تكلمني في أمره، قال: قلت: هذا أقل ما يجب لك، قال: فقال أبو العتاهية يهجوه:

والمشهور أنها له، يقول فيها:

عَتَقَتْ حَتَّى لَوِ اتصلت بِلِسَانٍ نَاطِقٍ وَفَمِ
لاحتسبت في القوم مائلةً ثُمَّ قَصَّتْ قِصَّةَ الأُمَمِ
قرعتها بالمزاج يَدٌ خُلِقَتْ لِلْكَأْسِ وَالْقَلَمِ
فِي نَدَامَى سَادَةٍ زُهُرٍ أَخَذُوا اللَّذَاتِ عَنِي أُمَمِ
فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشِّي الْبُرْءِ فِي السَّقَمِ
فَعَلَتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِجَتْ مِثْلَ فِعْلِ النَّارِ فِي الظُّلَمِ
/[٤٢/ب] فَاهْتَدَى سَارِيَ الظَّلاَمِ بِهَا كَاهْتِدَاءِ السَّفْرِ بِالْعَلَمِ

وليكن هذا المقدار من شعره كافيًا في هذا المختصر، ولو أردت الإطالة لأتيت بكل

-

أوالب أنت في العرب كمثل الشيص في الرطب
هلم إلى الموالي العبيد في سعة وفي رحب
فأنت بنا لعمر الله أشبه منك بالعرب
غضبت عليك ثم رأيت وجهك فانجلى غضبي
لما ذكرتني من لون أجدادي ولون أبي

وقال وكان والبة أشقر اللون والشعر أبيض فأخرجه أبو العتاهية بلونه من العرب، وأضافه إلى الموالي وعيره بالشقرة إذ كانت من ألوان العجم دون العرب وقال فيه أيضًا:

نطقت بنو أسد ولم تظهر وتكلمت سرًا ولم تجهر
أما ورب البيت لو جهرت لتركتها وصباحها اغبر
أيروم شتمي منهم رجل لي وجهه عبر لمن فكر
وابن الحباب صليبه زعموا ومن المحال صليبة أشقر
ما بال من آباؤه عرب إلا لوان يحسب من بني قيصر
أترون أهل البدو قد مسخوا شقرًا أما هذا من المنكر؟
أكذا خلقت أبا أسامة أم لطخت الفتيك بالعصفر؟

قال: فبلغ الشعر والبة فجاء إلى أبي فقال: قد كلمتني في أبي العتاهية وقد رغبت في الصلح فقال له: هيهات، إنه قد أكد على إذا لم تقبل ما طلب ان أخلي بينك وبينه، وقد فعلت قال والبة: فما الرأي عندك، فقد فضحني وهتكني؟ قال: أرى أن تخرج الساعة إلى الكوفة، قال: فركب زورقًا ومضى من بغداد إلى الكوفة.

شعره، فكله غُرَرٌ. وقال ابن نباتة السعدي(١) وأجاد:

نعمت بها يَحْلُو عَلَيَّ كؤوسَهُ ... أَغَرُّ الثَّنَايَا وَاضِحَ الجِيْدِ أَحْوَرُ

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَكَانَتْ مُدامَةً ... مِنَ الكَرْمِ تُجتَنَى أَمْ مِنَ الشَّمْسِ تُعْصَرُ

إذَا صَبَّها جنح الظَّلاَمِش وَعَبَّهَا ... رَأَيْتُ رِداءَ اللَّيْلِ يُطْوَى وَيُنْشَرُ

وقال ابن الجهم: قلت لجارية نجعل الليلة مجلسنا في القمر؟ قالت: ما أولعك بالجمع بين الضرائر. قلت: فأي الشراب أحب إليك؟

قالت: ما ناشبت زوجي في الخِفَّة، ونكهتي في الطيب/[٤٤/أ] وريقي في اللذة،

---

(١) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة بن حُميد التميمي السعدي.

جاء ترجمته في مصادر كثيرة منها: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٣٤)، الإمتاع والمؤانسة (١/ ٤٦٦)، الأنساب (النباتي) المنظم (٧/ ٢٧٤)، اللباب (٣/ ٢٩٤) وفيات الأعيان (٣/ ١٩٠) العبر (٣/ ٩١)، البداية والنهاية (١١/ ٣٥٥)، النجوم الزاهرة (٤/ ٢٨٣)، مفتاح السعادة (١/ ٢٤٤)، شذرات الذهب (٣/ ١٧٥)، قال الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمته:

عبد العزيز بن عمر بن نباتة بن حميد بن نباتة بن الحجاج بن مطر بن خالد بن عمرو بن رزاح بن ربـاح بن أسعد بن بجير بن ربيعة بن كعب بن زيد مناة بن تيم بن مرة بن أدبن طانجة بن الياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، أبو نصر أحد الشعراء المحسنين المجودين.

وكان جزل الكلام فصيح القول، وله ديوان روى لنا أكثره أبو الفتح بن شيطا المقرئ عنه.

سمعت رئيس الرؤساء أبا القاسم علي بن الحسن يقول: ما شاهد أبو نصر بن نباتة أشعر منه، وما كان يعاب شيء إلا يكبر فيه أنشدنا التنوخي قال أنشدنا أبو نصر بن نباتة لنفسه:

وتأخذ من جوانبنا الليالي ... كما أخذ المساء من الصباح

أما في أهلها رجل لبيب ... يحس فيشتكي ألم الجراح؟

أرى التشمير فيها كالتواني ... وحرمان العطية كالنجاح

ومن تحت التراب كمن علاه ... فلا يغررك أنفاس الرياح

وكيف يكد مهجته حريص ... يرى الأرزاق في ضرب القِداح؟

وأنشدنا علي بن محمد بن الحسن الحربي قال أنشدنا أبو نصر بن نباتة لنفسه:

وإذا عجزت عن العدو فداره ... وامزج له إن المزاج وفاق

فالنار بالماء الذي هو ضدها ... تعطي النضاج وطبعها الإحراق

أخبرنا التنوخي قال: قال لنا ابن نباتة: ولدت في سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

حدثني التنوخي وهلال بن المحسن قالا: توفي أبو نصر نباتة الشاعر في يوم الأحد الثالث من شوال سنة خمس وأربعمائة.

ووجهي في الحسنِ، وخُلُقي في السلاسة[١].

وقال ديك الجن[٢]:

(١) هــذه جارية جزلة العبارة حسنة التعبير جيدة الفهم عفيفة النفس ذكية اللحظ تعرف ما يراد منها ومــا تريد، وأي شيء يبغي الرجل من المرأة غير أن تجذبه من نظرة عين أو لمحة إشارة أو كلمة هامسة تــؤدي بها ما يريد وتوصله إلى بغيته دون أن يشعر به أحد من جلسائه أو الناظرين إليه، وعرفت ما يجب أن يقع عليه ناظره من الألوان والحركات والسكنات والملابس، وما إلى ذلك ثم أن حسها على أنفه فلا يلتقط منها إلاّ كل ما طاب ريحه وهاج أريجه وحرك سواكن نفسه عبقه فــلا تغفل عنه بل تتفنن في المداومة عليه وتنتقي أجوده وأغلاه وأنفذه وأبهاه. ثم هي تتعهد فمها بالغــسل والوضوء والتنظيف وتناول المنكهات الحسنة كالنعناع وغيره من مطيبات النفس والفم حــتى إذا اقتــرب منها لا يعود إلا وقد روى غليله وأحب المعاودة المرة بعد المرة للطيف عبير فمهــا، ولذة ريقها. ثم هي تتعهد بشرة وجهها بما يحسنها من الماء والوضوء والمجملات التي لا تؤثــر علــى البشرة بل يقويها وينضرها فتثير في نفسه دائمًا نضرة الشباب وحيوية المرأة وأنوثة الحركة ووداعة السكنة وبراءة النظرة فيراها طفلة كبيرة لعبة بين يديه تجيب لما يريد وتبعد عما لا يحب فيزداد كل يوم لها قرباً ولا يمل لها صحبة.

وأجمــل من كل هذا حسن الخلق الذي يجلب به من السلاسة التي جعلتها ديدنها فهي لا ترفض له أمــر، ولا ترد له طلب ولا تقضب له الجبين ولا تظهر له الأنين وتخفي عنه كل حزين وتبدي له كــل مــا يزين وتجنبه كل ما يشين فكيف لا يتمسك بها أو كيف يصبر على فراقها فهي سلوته وأنس خلوته ومهجة فؤاده لا يرضى بها بديلا ولا يعرف غيرها خليلا.

فلــيت النساء يعرفن ما تعرف أو ينصحن بما نصحت ويفهمن ما أرادت، فإنهن إن فهمن فهمها قــرت حياتهن، وسعد أزواجهن وصفي دهرهن وذهب كدرهن، وطاب عيشهن ورفرفت عليهن الــسعادة بأجنحــتها الفهفافــة وروتهم بمياهها الرقراقة التي تنعش الكئيب وتفرح الحزين، وتجبر الكسير وترخي العَضبان وتولد الحب والود والحنان.

(٢) هــو: عــبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي الحمصي السلماني الشيعي، كبير الــشعراء أبو محمد، المعروف بديك الجن. جاءت ترجمته في العديد من المراجع والتي أذكر منها: الأغــاني (١٤/ ٥١)، وفــيات الأعيان (٣/ ١٨٤)، وأعلام النساء (٥/ ٢٢٧٧) في ترجمته ورد، وســير أعلام النبلاء (١١/ ١٦٣) وقال في ترجمته: ظريف ماجن خمير خليع بطّال، وله مَرَاثٍ في الحسين. مَرَّ به أبو النواس بحمص فأضافه، وقال: فتنت الناس بقولك:

مــورّدة مــن كــفّ ظــبي كأنمــا تــناولها مــن خــدّه فأدارهــا

وكــان له مملوك مليح وسُرية فوجدهما في لحاف فقتلهما، ثم تأسف عليهما ورثاهما، وكان يصبغ لحيته بزنجار.

مات سنة خمس أو ست وثلاثين ومائتين.

وقــال الأصــفهاني في الأغاني في ترجمته: اشتهر ديك الجن بجارية نصرانية من أهل حمص أحبها =

وتمادى به الأمر حتى غلبت عليه وذهبت به، فلما اشتهر بها دعاها إلى الإسلام ليتزوجها، فأجابته لعلمها برغبته فيها، وأسلمت على يده. فتزوجها، وكان اسمها ورد.

وقد أعسر واختلت حاله، فرحل إلى سليمة قاصدًا أحمد بن علي الهاشمي، وأقام عنده مدة طويلة، فأذاع ابن عمه بسبب هجائه له أنها تهوى غلامًا له، وقرر ذلك عند جماعة من أهل بيته وجيرانه وإخوانه، وشاع ذلك الخبر حتى أتى عبد السلام، فاستأذن أحمد بن علي في الرجوع إلى حمص، وقدَّر ابن عمه وقت قدومه، فأرصد له قومًا يعلمونه بموافاته باب حمص وكان ذلك، فاخترط سيفه حين وصوله، فضربها به حتى قتلها، وحينما بلغه الخبر على حقيقته وصحته ندم ندمًا شديدًا، ومكث شهراً لا يرقأ له دمع ولا يطعم من الطعام إلا ما يقيم رمقه، وقال في ندمه على قتلها:

يا طلعة طلع الحمام عليها ... وجنى لها ثمرة الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما ... روى الهوى شفتي من شفتيها
قد بات سيفي في مجال وشاحها ... ومدامعي تجري على خديها
فوحق نعليها وما وطئ الحصى ... شيء أعز عَلَي من نعليها
ما كان قتلي لها لأني لم أكن ... أبكي إذا سقط الذباب عليها
لكن ضننت على العيون بجنسها ... وأنفت من نظر الحسود إليها

وقال الأستاذ كحالة في ترجمته «لورد» في أعلام النساء:

مغنية نصرانية من حمص كانت تجيد الغناء مع فصاحة وبراعة وكان يهواها ديك الجن الشاعر المشهور، وتمادى به العشق حتى غلب عليه وذهبت به واشتهر بها فدعاها إلى الإسلام ليتزوج بها فأجابته لعلمها برغبته فيها، وأسلمت على يده، فتزوجها وفي ذلك يقول:

انظر إلى الشمس القصور وبدورها ... وإلى خزامها وبهجة زهرها
لم تبك عينك أبيضًا في أسود ... جمع الجمال كوجهها في شعرها
وردية الوجنات يختبر اسمها ... من ريقها من لا يحيط بخبرها
وتمايلت فضحكت من أردافها ... عجبًا ولكني بكيت لخصرها
تسقيك كأس مدامة من كفها ... وردية ومدامة من ثغرها

ثم أخبر أنها تهوي غلامًا له فاخترط سيفه فضربها به حتى قتلها وقال في ذلك:

ليتني لم أكن لعطفك نلت ... وإلى ذلك الوصال وصلت
فالذي مني اشتملت عليه ... العار ما قد عليه اشتملت
قال ذو الجهل قد حلمت ولا ... أعلم أني حلمت حتى جهلت
ثم لائم لي بجهله ولماذا ... أنا وحدي أحببت ثم قتلت
سوف آسى طول الحياة ... وأبكيك على ما فعلت لا ما فعلت

فَقَـامَ تَكَـادُ الكَأسُ تَخضِبُ كَفَّهُ ... وَتَحْـسَبُهُ مِـنْ وَجنَتَـيهِ أشـعَارَها
مُشَعْـشَعَةً مِـنْ كَفِ ظَبْيٍ كَأَنَّمَا ... تَـنَاوَلَهَا مِـنْ خَـدِّهِ فَأَدَارهَـا

وقال آخر:

رَقَّ الـدُّجَاجُ وَرَقَّـت الخَمْـرُ ... فَتَـشَابَهَا فَتَـشَاكَلَ الأمْـرُ
فَكَأَنَّمَـا خَمْـرٌ وَلاَ قَـدَحٌ ... وَكَأَنَّمـا قَـدَحٌ وَلاَ خَمْـرُ

وقال آخر:

وَحَمْـرَاءُ قَـبْلَ المَزجِ صَفْرَاءَ بَعْدَهُ ... بَـدَتْ بَـيْنَ ثَـوبَي نَـرْجِسٍ وشقائِقِ
حَكَتْ وَجنَةَ المعشُوقِ صِرْفًا فَسَلَّطُوا ... عَلَـيْهَا سِرَاجًا فَاكْتَسَتْ لَوْنَ عَاشِقِ(١)

وقال ابن دفيد:

/[٤٤/ب]ثَقُلَـتْ زُجَاجَـاتٍ أَتَتْنَا فُرَاغًا ... حَتَّـى إذَا مُلِـئَتْ بِـصَرْفَتِ الرَّاحِ
خَفَّـتْ فَكَـادَتْ انْ تطِـيرُ بِمَـا قَوَتْ ... وَكَـذَا الجُـسُومُ تَخِـفُّ بِالأَرْوَاحِ

وقال أبو عثمان الخالدي:

هَـتَفَ الـصُّبْحُ بالـدُّنا فَاسْقِينْهَا ... قَهْـوَةً تَتْـرُكُ الحَلِـيْمَ سَـفِيْهَا
لَـسْتُ أَدْرِي مِنْ رِقَّةٍ وَصَفَاءٍ هِيَ ... فِي كَأسِـهَا أمْ الْكَـأْسُ فِـيهَا

وقال التَّنُوخِيُّ(٢):

ثم بلغه حقيقة الخبر، فندم ثم ذكر القصيدة التي أوردتها قبل.

(١) أقـوال المخمورين في الخمر كثيرة وهي كذب ومبالغ فيها، ثم إن هناك من تحدث عن الخمر ولا يريدها كالصوفية الذين جعلوها رمزًا من رموزهم وهم لا يشربونها بل يحرمونها ولا يقربونها، فلا تغتـر بمن مدحها، وهناك من شبه بها محبوبته وهو أيضًا مبالغ في رفع قدر الخمر لا في قدر محبوبته إذ الخمـر وضيعة لتحريم الله تعالى لها وحض رسول الله ﷺ على تركها والابتعاد عنها والنهي عن عصرها وحملها وبيعها وشرائها.

(٢) هو أبو العلاء: أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن مطهـر بـن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن أنور بن أرقم بن أسحم بن النعمان -الساطع لجمالـه- بن عدي بن عبد غطفان بن بن عمرو بن بريح بن حزيمة بن تيم الله -الذي هو مجتمع تـنوخ- ابـن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن بن قضاعة بن مالك بن عمـرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عامر -وهو هـود عليه السلام- القحطـاني، ثم التنوخي، المعري الأعمى اللغوي الشاعر صاحب التصانيف السائرة والمتهم في نحلته.

وهـــو مشهور وقد ترجمت له كثير من الكتب، وصنفت في سيرته المصنفات ومما أورد ترجمته في مـــن الكتب: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣)، تتمة اليتيمة (١/ ٩)، تاريخ بغداد (٤/ ٢٠٤) دمية القـــصر (١/ ١٥٧)، الأنـساب (٣/ ٩٠)، فهرستنا بن خير (٣٤٣)، نزهة الألبا (٣٥٣)، المنتظم (٨/ ١٨٤)، معجـــم الـــبلدان (٥/ ١٥٦)، معجـــم الأدباء (٣/ ١٠٧)، الكامل في التاريخ (٩/ ٦٣٦) اللـــباب (١/ ٢٢٥)، (٣/ ٢٣٤)، أنباه الرواة (١/ ٤٦)، الإنصاف والتحري لابن النديم، وفـــيات الأعيان (١/ ١١٣)، المختصر (٢/ ١٧٦)، تاريخ الإسلام (١١/ ٣/ ٤٦١)، العبر (٣/ ٢١٨)، دول الإســـلام (١/ ٢٦٤)، ميـــزان الاعتدال (١/ ١١٢)، تتمة المختصر (١/ ٥٣٩)، مـــسالك الأبـــصار (١٠/ ٢/ ١٨٢)، الـــوافي بالوفيات (٧/ ٩٤)، نكت الهميان (١٠١)، مرآة الـــزمان حـــوادث سنة (٤٤٩)، مرآة الجنان (٣/ ٦٦)، البداية والنهاية (١٢/ ٧٢) روض الناظر لابـــن الشحنة (٨/ ١٦١)، طبقات النحويين واللغويين لابن قاضي شهبة (١٦٩)، لسان الميزان (١/ ٢٠٣)، عقـــد الجمـــان للعيني (١/ ٢٠/ ١٤٠) النجوم (٥/ ٦١)، بغية الوعاة (١/ ٣١٥)، مفـــتاح السعادة (١/ ٢٣٧)، معاهد التنصيص (١/ ١٣٦)، شذرات الذهب (٣/ ٢٨٠)، كشف الظـــنون (١/ ٢٧٨)، روضات الجنات (٣٣)، إيضاح المكنون (٢/ ٤٢٧)، هدية العارفين (١/ ٧٧) وقال الذهبي في سير أعلام في ترجمته: ولد في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة.

وأضر بالجدري، وله أربع سنين وشهر، سالت واحدة وابيضت اليمنى، فكان لا يذكر من الألوان إلاّ الأحمـــر لـــثوب أحمـــر ألبسوه إياه. وقد جُدِّر، وبقي خمسًا وأربعين سنة لا يأكل اللحم زهدًا فلـــسفيًّا. وكـــان قنوعًا متعففًا، له وقف يقوم بأمره ولا يقبل من أحد شيئًا ولو تكسب بالمديح لحصَّل مالا ودنيا فإن نظمه في الذروة، يُعَدُّ مع المتنبي والبحتري.

سمـــع جـــزءًا مـــن يحـــيى بـــن مسعر، رواه عن أبي عروبة الحراني. وأخذ الأدب عن بني كوثر وأصحاب بن خالوية، وكان يتوقد ذكاءً.

ومـــن أراد توالـــيفه: رســـالة الغفران في مجلد، قد احتوت على مزدكة وفراغ، ورسالة الملائكة، ورســـالة الطير على ذلك الأنموذج وديوان سقط الزند مشهور، وله: لزوم ما لا يلزم، من نظمه، وكان إليه المنتهى في حفظ اللغات.

وارتحـــل في حـــدود الأربعمائة إلى طرابلس وبها كتب كثيرة، واجتاز باللاذقية، فنزل بها ديرًا به راهـــب متفلسف، فدخل كلامه في مسامع أبي العلاء وحصلت له شكوك لم يكن له نور يدفعها، فحصل له نوع من انحلال دلَّ عليه ما ينظمه ويلهج به ويقال: تاب من ذلك وارعوى.

وقـــال الباخرزي: أبو العلاء ضرير ما له ضريب، ومكفوف في قميص الفضل ملفوف ومحجوب خـــصمه الألـــد محجوج، قد طال في كنف ظل الإسلام أناؤه، ورشح بالإلحاد إناؤه، وعندنا خبر بـــصره، والله العـــالم بـــصيرته والمطلع على سريرته، وإنما تحدَّثت الألسن بإساءته بكتابه الذي عـــارض به القرآن وعَنْوَنَهُ بـــ: الفصول والغايات في محاذات الـــسور والآيات. وقال غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن:

له شعر كثير، وأدب غزير، ويرمى بالإلحاد وأشعاره دالة على ما يُزنُ به، ولم يأكل لحمًا ولا بيضًا

=

ولا لبنًا بل يقتصر على النبات ويحرم إيلام الحيوان ويظهر الصوم دائمًا وله:

صروف الزمان مفرق الإلفين فاحكم إلهي بين ذاك وبيني
أنهيت عن قتل النفوس تعمدًا وبعثت أنت لقبضها ملكين

.. وقال السلفي: ومن عجيب رأي أبي العلاء: تركه أكل مالا ينبت حتى نسب إلى النبرهم، وأنه يرى رأي البراهمة في إثبات الصانع، وإنكار الرسل وتحريم إيذاء الحيوانات حتى العقارب والحيات وفي شعره ما يدل عليه، وإن كان لا يستقر به قرار، فأنشدني أبو القاسم الأسدي أنشدنا أبو العلاء لنفسه:

أقروا بالإله وأثبتوه وقالوا: لا نبي ولا كتاب
ووطء بناتنا حِلٌ مباح رويدك فقد طال العتاب
تمادوا في الضلال فلم يتوبوا ولو سمعوا صليل السيف تابوا

وقال السلفي: ومما يدل على صحة عقيدته ما سمعت الخطيب حامد بن بختيار سمعت أبا المهدي بن عبد المنعم بن أحمد السروجي سمعت أخي أبا الفتح القاضي يقول: دخلت على أبي العلاء التنوخي بالمعرة بغتة فسمعته ينشد:

كم غُودِرَتْ غَادةٌ كَعَابٌ وعُمِّرت أُمُّها العجوز
أحرزها الوالدان خوفًا والقبر حرز لها حريز
يجوز أن تخطي المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣، ١٠٥] ثم صاح وبكى وطرح وجهه على الأرض زمانًا، ثم مسح وجهه وقال: سبحان من تكلم بهذا في القِدَم سبحان من هذا هو كلامه فصبرت ساعة، ثم سلمت، ثم قلت: أرى في وجهك أثر غيظ؟ قال: لا. بل أنشدت شيئًا من كلام المخلوق، وتلوت شيئًا من كلام الخالق فلحقني ما ترى، فتحققت صحة دينه.

قال السلفي: سمعت أبا زكريا التبريزي يقول: أفضل من قرأت عليه أبو العلاء، وسمعت أبا المكارم بأبهر وكان من أفراد الزمان يقول: لما توفي أبو العلاء اجتمع على قبره ثمانون شاعرًا وختم في أسبوع واحد مئتي ختمة: إلى أن قال السلفي: وفي الجملة، فكان من أهل الفضل الوافر، والأدب الباهر، والمعرفة بالنسب وأيام العرب، قرأ القرآن بروايات وسمع الحديث على ثقات، وله في التوحيد وثبات وما يحض على الزهد وإحياء طرق الفتوة والمروءة شعر كثير، والمشكل منه فله على زعمه تفسير.

قال غرس النعمة: حدثنا الوزير أبو نصر بن جهير حدثنا المنازي الشاعر قال: اجتمعت بأبي العلاء فقلت: ما هذا الذي يروى عنك؟ قال: حسدوني وكذبوا عَلَيّ، فقلت: على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة؟ فقال. والآخرة؟! قلت: أي والله.

=

وَرَاحٍ مِنَ الشَّمْسِ مَخْلُوقَةٍ بَدَتْ لَكَ فِي قَدَحٍ مِنْ نَهَادِ
هَوَاءٌ وَلَكِنَّهُ جَامِدٌ وَمَاءٌ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ جَادِ
كَأَنَّ المُدِيْرَ لَهَا بِاليَمِيْنِ إِذَا قَامَ لِلشُّرْبِ أَوْ بِاليَسَارِ
تَدَرَّعَ ثَوبًا مِنَ اليَاسِمِيْنَ لَهُ فَرْدُ كُمٍّ مِنَ الجُلَّنَاءِ

وقيل: وتروي ليزيد بن معاوية:

/[٤٥/أ] وَإِنِّي مِنْ لَذَاتِ دَهْرِيَ لَقَانِعٌ بِحلْوِ الْحَدِيْثِ أَوْ بِمُرِّ عِيْشَتِي
... [(١)] لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ سِوَاهُمَا حَدِيْثُ صَدِيْقٍ عَتِيقٍ رَحِيْقِ

=

ثم قال غرس النعمة: وأذكر عند ورود الخبر بموته، وقد تذاكرنا إلحاده، ومعنا غلام بأبي غالب بن نبهان من أهل الخير والفقه فلما كان من الغد حكى لنا قال: رأيت البارحة شيخًا ضريرًا على عاتقه أفعيان متدليان إلى فخذيه، وكل منهما يرفع فمه على وجهه فيقطع منه لحمًا ويزدرده، وهو يستغيث فهالني وقلت: من هذا؟ فقيل لي: هذا أبو العلاء المعري الملحد...

وقيل: أوصى أن يكتب على قبره:

هذا ما جناه أبي علـيَّ وما جنيت على أحد

قلت: الفلاسفة يعدون اتخاذ الولد وإخراجه إلى الدنيا جنابة عليه، ويظهر لي من حال هذا المخذول أنه متحير لم يجزم بنحلة: اللهم فاحفظ علينا إيماننا.

... وكانت علته ثلاثة أيام، ثم توفي في أوائل شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة وعاش ستًا وثمانين سنة.

(١) بعض كلام طمس لعيب في المخطوط، ويزيد بن معاوية وهو: ابن أبي سفيان بن حرب بن أمية أبو خالد القرشي، الأموي، الدمشقي الخليفة المشهور. وقد ترجمت له مصادر عديدة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

المعارف (٣٥١)، تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢١٥)، مروج الذهب (٢/ ٥٦٧)، جمهرة الأنساب (١٠٣)، تاريخ ابن عساكر (١٨/ ١٩٥- أ)، الكامل في التاريخ (٤/ ١٢٦)، منهاج السنة (٢/ ٢٣٧)، تاريخ الإسلام (٣/ ٩١)، العبر (١/ ٦٩)، البداية والنهاية (٨/ ٢٦٦)، تهذيب التهذيب (١١/ ٣٦٠)، لسان الميزان (٦/ ٢٩٣)، القلائد الجوهرية (٢٦٢)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٠٠)، شذرات الذهب (١/ ٧١)، رغبة الأمل (٤/ ٨٣)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٥)، وقال في ترجمته: له على هناته حسنة وهي غزو القسطنطينية وكان أمير ذلك الجيش وفيهم مثل أبي أيوب الأنصاري.

عقد له أبوه بولاية العهد من بعده فتسلم الملك عند موت أبيه في رجب سنة ستين وله ثلاث وثلاثون سنة فكانت دولته أقل من أربع سنين ولم يمهله الله على فعله بأهل المدينة لما خلعوه، =

وقال آخر:

وَمُدَامَــةٍ حَمْــرَاءَ فِــي قَــارُورَةٍ زَرْقَاءَ ... زَرْقَــاءَ تَحْمِلُهَــا يَــدٌ بَيْــضَاءُ

فَالــرَّاحُ شَــمْسٌ وَالْحِــبَابُ كَــوَاكِبٌ ... وَالْكَــفُّ قُطْــفٌ والإِنَــاء سَمَاءُ

وقال محيي الدين(١) رحمه الله يصف مجلسًا:

=

فقام بعده ولده نحوًا من أربعين يومًا، ومات، وهو أبو ليلى معاوية عاش عشرين سنة، وكان خيرًا من أبيه، وبويع ابن الزبير بالحجاز والعراق والمشرق.

ويزيد ممن لا نسبه ولا نحبه وله نظراء من خلفاء الدولتين وكذلك في ملوك النواصي بل فيهم من هــو شــر منه، وإنما عظم الخطب لكونه ولي بعد وفاة النبي ﷺ بتسع وأربعين سنة والعهد قريب والصحابة موجودون كابن عمر الذي كان أولى بالأمر منه ومن أبيه وجده.

وعن زياد الحارثي قال: سقاني يزيد شرابًا ما ذقت مثله، فقلت له: يا أمير المؤمنين ما أسلسل مثل هذا، قال: هذا رمان حلوان، بعسل أصبهان، بسرك الأهواز، بزبيب الطائف بماء بردي.

... وكان قويًا شجاعًا ذا رأي وحزم وفطنة، وفصاحة، وله شعرٌ جيد، وكان ناصبيًا، فظًا، غيظًا، جلفًــا، يتناول المسكر، ويفعل المنكر، افتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين واختتمها بواقعة الحرة، فمقتــه الــناس، ولم يــبارك في عمره، وخرج عليه غير واحد بعد الحسين كأهل المدينة قاموا لله وكمرداس بن أديّة الحنظلي البصري، ونافع بن الأزرق، وطواف بن معلي الــدوسي، وابن الزبير بمكة.

... وعــن الحسن: أن المغيرة بن شعبة أشار على معاوية ببيعة ابنه ففعل، فقيل له: ما وراءك قال: وضعت رجل معاوية في غَرز غيٍّ لا يزال فيه إلى يوم القيامة.

قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء أولادهم ولولا ذلك لكانت شورى.

... وعــن صــخر بــن جويرية عن نافع قال: مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى ابن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد فأبى، فقال ابن مطيع: إنه يشرب الخمر، ويترك الصلاة ويتعدى حكم الله، قــال: ما رأيت منه ما تذكر، وقد أقمت عنده، فرأيته مواظبًا على الصلاة، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه، قال: ذاك تصنُّع ورياء.

... توفي يزيد في نصف ربيع الأول سنة أربع وستين.

(١) هــو العالم المشهور الذي لا يغفله مخالفه فضلاً عن موافقه، وهو غني عن التعريف وإن كان لا بد فهــو: الشيخ الأكبر الإمام محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي، الحاتمي، المرسي، المشهور بابن عربي صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة، وقد ألفت في سيرته المؤلفات الكبار، وترجمت له الكتب الصغار والكبار ومن المصادر التي ترجمت له أذكر:

ديوان الإسلام بتحقيقي (ت ١٥٤٤)، سير أعلام النبلاء (٢٣، ٤٨)، هدية العارفين (٢/ ١١٤)، الأعــلام (٦/ ٢٨)، معجــم المــؤلفين (١١/ ٤٠)، كــشف الظنون (١٤)، إيضاح المكنون (١/ ٧٣)، الــتكملة لوفــيات الــنقلة (ت ٢٦٧٢)، طبقات الأولياء (٤٦٩)، العقد الثمين (٢/

=

فِـي مَجْلِـسٍ ظَهَـرَتْ سَـرَائِرُ حُسْنِه وَجَلَـتْ بَـصَائِرَنَا وُجُوهُ سُرُوْرِهِ
فكَأَنَّـهُ تِلْـكَ الـسَّمَاءُ كُؤُوْسُـهُ كَـشُمُوْسِهِ وَسُـقَاتُه كَـبدُوْرِهِ

وقال الحماني(١):

فِـي مَجْلِـسٍ جَعَـلَ الـسُّرُورُ جَنَاحَهُ ظِـلاً لَـنَا مِـنْ طَـارِقِ الحَـدَثَانِ
لاَ تَـسْمَعُ الأَذَانَ في جَنَـبَاتِه إلاّ تَـرَنُّمَ الـسُّنِ والعِـيَدانِ
/[٤٥/ب] او صـوت تـصفقَ الجَلِيْنِ ونَقرَهُ وبُكَـاءِ رَاوُوقٍ وضِـحْكِ قَنَانِـي

---

١٦٠)، نفـح الطـيب (٧/ ٦٠)، الوافي بالوفيات (٤/ ١٧٣)، البداية والنهاية (٢٤١)، لسان الميـزان (٥/ ٣١١)، النجوم الزاهرة (٦/ ٣٣٩)، مرآة الجنان (٤/ ١٠٠)، ميزان الاعتدال (٣/ ١٠٨)، شـذرات الذهب (٥/ ١٩٠)، روضات الجنات (١٩٢) فهرس (١/ ٢٣٣) عقود الجمان (٢٣٣٨) (٧/ ١٧٩) الـتكملة لوفيات النقلة (٧٢، ٢٩) تاريخ الإسلام (٣٠١٢) (١٩: ٢٠٤) المستفاد من ذيل تاريخ بغداد (الورقة ١١)، وقال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: العلامة صاحب التوليف الكثيرة... نزيل دمشق ذكر أنه سمع من ابن بشكوال وابن صاف وسمع بمكة من زاهـر بـن رستم وبدمشق من ابن الحرستاني، وببغداد، وسكن الروم مدة وكان ذكيًا كثير العلم كـتب الإنـشاء لـبعض الأمراء بالمغرب، ثم تزهد وتفرد، وتعبد، وتوحد وسافر وتجرد، واتهم وأنجد، وعمل الخلوات وعلق شيئًا كثيرًا في تصوف أهل الوحدة، ومن تواليفه كتاب «الفصوص» فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر نسأل الله العفو والنجاة فوغوثاه بالله!

وقـد عظمـه جماعة وتكلفوا لما صدر منه ببعيد الاحتمالات وقد حكى العلامة ابن دقيق العيد شيخنا أنه سمع الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول عن ابن عربي: شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم، ولا يحرم فرجًا.

قلـت: إن كان محيي الدين رجع عن مقولاته تلك قبل الموت فقد فاز، وما ذلك على الله بعزيز. تـوفي في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة. وقد أوردت في التاريخ الكبير. وله شعر رائق وعلم واسع، وذهن وقاد، ولا ريب أن كثيرًا من عبارته له تأويل إلا كتاب الفصوص.

قـال محققـه: وقـد جمعت له في هامش كتاب ديوان الإسلام (٥٤٤) مؤلفًا ذكرتهم كتابًا كتابًا فراجعهم فيه إن أحببت.

(١) الـذي وقفت على ترجمته بهذه النسبة من الشعراء فيمن ذكرهم السمعاني في الأنساب (٢/ ٢٥٨) هم:

علـي بـن محمد العلوي الحسين الشاعر الكوفي، ويعرف بالحماني (وأظنه صاحب هذه الأبيات) وعمـرو بـن سفيان بن حمان البارقي الحماني الشاعر نسب إلى جده وهو معروف بالمعقر سمي بذلك لقوله:

لهـا نـاهض في الجـو قـد مهدت له كمـا مهـدت للـبعل حـسناء عاقـر

وأنشدني محيي الدين رحمه الله:

أَنَا فِي مَنْزِلِي وَقَدْ وَهَبَ اللهُ صَدِيقًا وَقَيْنًا وَعُقَارًا

فَابْسُطُوا الْعُذْرَ فِي التَّأَخُّرِ عَنْكُم شَغَلَ الْحَلْيُ أَهْلَهُ أَنْ يُعَارَا

فهذه أشعار روائع، ومعانٍ نواصع، وألفاظ حُلْوة والمبادئ والمقاطع، وهذا المختصر لا يحتمل التطويل، وقد يستغنى عن الكثير بذكر القليل، فلما انجزت كل الأمور، وأعددت أسباب السرور، أخذت في الانتظار، وقد تقوضت خيام النهار رواحل، ولون الشمس إلى الاصفرار، وخلعت لباس المورد، وارتدت بالبهار، اقبلت/ [٤٦/أ] في قميص كأنها غصن بان، وترنو بعين وسنان، تمشي قناة، ثم يذكر قدُّهَا ان التثني للغصون، فتثني فضائل الأفق بنورها، وسلبت الليلة لباس ديجورها:

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَأَحْلَامُ نَائِم أَلَمَّتْ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرَّكْبِ يُوشَعُ(١)

وخلفت الشمس عند مغيبها، وزادت عليها بحسنها وطيبها، فتلقيتها بدمع أجراه الفرح والجذل، وأطلقه السرور فَسَحَّ وهمل.

فقالت: ما هذا البكاء وقد واصل الحبيب وغاب الرقيب، وعالج الداء الطبيب؟

فَأَجَبْتُهُ لَمَّا رَأَيْتَكَ زَائِرِي وَسَمَحْتَ لِي بَعْدَ النَّوَى بِتَدَانِي

طفح السرور عَلَيَّ حَتَّى أَنَّنِي مِنْ عِظَمِ مَا قَدْ سرَّنِي أبْكَانِي(٢)

---

(١) يوشع المذكور هنا هو يوشع صاحب موسى عليه السلام حين كان معه رحلته المشهور وزعموا أن الشمس وقفت له في قصة مشهورة، فصار مضربًا للمثل وتناوله الشعراء في شعرهم، ومن ذلك قول جمال الدين يحيى بن عيسى الشهير بابن مطروح إذ يقول في وصف حسناء تسير بالليل:

ومما أنسَ المليحة إذ بدت دُجىً فاضاءَ الأفق من كل موضع

فحدثت نفسي انها الشمس أشرقت وأني قد أوتيت آية يوشع

(٢) ما أجمل اللقاء بعد الفراق والاجتماع بعد البين وتكحيل العين بالحبيب الزين، فإن لهذا اللقاء شجواً يعجز عن التعبير عنها الشعراء، وتقف الأقلام متحجرة أمام هذه الأحاسيس فلا يناسب على الورق مدادها، ولا يعرف طعمها إلا من ذاقها وهي تحس فلا تكتب ولا تقال وهي ترى ولا تسمع، والتعبير عنها يكون بعكس ما هو مألوف كان يبكي المتلاقيان من الفرح انظر إلى قدر هذا الشوق الذي يتحول عن شكله الطبيعي إذ يحل محل الضحك البكاء تعبيرًا عن الفرحة والسعادة والغبطة والسرور.

/[٤٦/ب] قـد خلـت أمامها إلى الدار، ونعمت عينًا بالحلال... [١] نشر درك الأماني والأوطار.

واستقر بها المجلس فأعجبها ترتيبه، وراقها أرجه وطيبه، وأخذنا في شأننا، واستنطقنا ألسن عيداننا، وكدنا نطير ونحن في مكاننا، ودارت كؤوس الرَّاح، ورشفنا شفاه الأقداح، فلما أخذت ماء خدها من الهام، ودبت دبيب البرءِ في السقام، انبسطت نفس وتَمَّ أُنس، وتحرك ساكن، وصفا آجن، واجتمع أحباب، وجرت أسباب وعطفت أجيادٌ على أجياد، وقَرُبَ فؤادٌ من فؤاد، وواصل محب حبيبه، وآمن عازله ورقيبه [٢].

/[٤٧/أ] تأمَّـلْ مِـنْ خِلاَلِ الشَّكِ فانظرْ ... بعَيْـنِكَ مَـا شربْتُ وَمَنْ سَقَانِي

(١) كلمة غير ظاهرة بالمخطوط.

(٢) وفي نحو هذا الوصل يقول ابن حزم شعرًا في طوق الحمامة (ص ٥٩):

وسـائل لي عمـا لي مـن العمـر ... وقـد رأى الشيب في الفـودين والعذر
أجبـته سـاعة لا شـيء أحـسبه ... عمـرًا سـواها بحكـم العقـل والنظـر
فقـال لي كـيف ذا بَيِّـنْهُ لي فلقـد ... أخـبرتني أشـنع الأنـباء والخـبر
فقلـت: إن الـتي قلـبي بهـا عَلِـقٌ ... قَبَّلْـتُها قـبلة يـومًا علـى خطـر
فمـا أعُـدّ ولـو طالـت سِنِيَّ سِوى ... تلـك الـسويعة بالتحقـيق مـن عُمُري

وقـال في الـرقيب فـساده لصفو المحبين (ص: ٥٠) ومن آفات الحب الرقيب، وإنه لحمّى باطنه وبرسـام مُلح وفكر مكب، والرقباء أقسام، ثم تكلم على أنواع الرقباء. ثم ذكر الحيل في استرضاء بعض الرقباء ليكون عونًا للمحبين بدلاً من أن يكونوا عونًا عليهم فقال:

ورُبَّ رقـيب أرقـبوه فلـم يـزل ... علـى سـيدي عمـدًا ليـبعدني عـنهُ
فمـا زالـت الألطـاف تحكـم أمره ... إلى أن غـدا خـولي لـه آمـنًا مـنه
وكـان حـسامًا سُـلَّ حـتى يَهُـدني ... فعـاد مُحِـبًّا مـا لنعمـته كُـنهُ

وقال في الرقيب الذي لا تجدي معه حيلة؛ ثم هو متمرس على الرقابة يجيدها تمامًا:

رقـيب طالمـا عـرف الغـراما ... وقاسـى الـوَجْد وامتـنع المـناما
ولاقـى في الهـوى ألمًـا ألـيمًا ... وكـاد الحـب يـورده الحِمَامَـا
وأتقـنَ حـيلَةَ الـصبِّ المُعَنَّـى ... ولم يـضع الإشـارة والكلامـا
وأعقـبه التـسلي بعـد هـذا ... وصـار يـرى الهـوى عـارًا وذامًـا
وصُـيِّر دون مـن أهـوى رقيـبا ... لِيُـبْعِدَ عـنه طَيْـبًا مـستهاما
فـأي بلـية صـبت علينـا ... وأي مـصيبة حلـت لمـا مَـا

تَجِدْ شَمْسَ الضُّحَى تَسْرِي بِشَمْسٍ إِلَيْ مِنَ الرَّحِيقِ الْخُسْرَوانِي

وهصرت قدود وجنيت خدود، وضمت نهود، ورشفت ثغور برود، وقبلت شفاه وثغور، وتمت أحوال وأمور، واستحكم فرح وسرور، وأشرق على وجه الأنس نور، ومعدن عذار، ونبذ وقار، وشربت عُقار، وطلب عند الهم ثار، وطافت كؤوس وطابت نفوس، وجنيت غروس، وجليت عَرُوش، وزال هَمٌّ وبُؤسٌ، وادال دهر، وجرى نهر، وفتح زهر، وقرب وصل، وبعد هجر، وتدانت قلوب، وساعف محبوب، وحصل مطلوب /[٤٧/ب] وأصحب مجنون، وأنشدت وليى ذاهل، ونادى الأنس آهل[(١)]:

رَعَى اللهُ لَيْلاً ضَمَّنَا بَعْدَ فُرْقَةٍ وَأَدْنَى فُؤَادًا مِنْ فُؤَادٍ مُعَذَّبِ
فَبِتْنَا جَمِيعًا لَوْ تُرَاقُ زُجَاجَةٌ مِنْ رَاحٍ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَشْرَبِ[(٢)]

وجرينا في ميدان الخلاعة، وبذلنا في طاعة الهوى جُهْدَ الاستطاعة، وعاصينا الوقار

---

(١) وقال ابن الرومي يصف حسن حديث محبوبته:

حديثها السحر الحلال لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يُمْلَل وإن هي أوجزت ودَّ المحدَّثُ أنها لم توجز
شرك العيون وفتنة ما مثلها للمُطْمَئِنين وعقله المستوفز

ويقول بشار بن برد في حسن حديث المحبوب:

وكأن حلو حديثها قطع الرياض كُسِينَ زهرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرًا
وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهبًا وعِطْرًا
وكأنها برد الشراب صفاء ووافق منك قطرا

(٢) وقال المعري في ديوانه يصف ليلة:

ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جُمان
هرب النوم عن جفوني فيها هروب الأمن عن فؤاد الجبان
وكأن الهلال يهوي الثريا فهما للوداع معتنقان
وسُهَيْلٌ كوجنة الحب في اللون وقلب المحب في الخفقان
يسرع اللمح في احمرار كما تسرع في اللمح مقلة الغضبان
ضرجته دما سيوف الأعادي فبكت رحمة له الشعريان
ثم شاب الدُّجى وخاف من الهجر فغطى المشيب بالزعفران
ونضا فجره على نسره الواضع سيفًا فَهَمَّ بالطيران

والنهي، وبلغنا كل قلب ما اشتهى، وأعطينا النفوس أمانيها، وسلمنا قوس التصابي إلى باريها، وجنيت ثمار المعاني، وحصلت على المطالب والأماني، وأنشدت أبيات أبزون العُمَّاني:

أَفْـدِي الَّـذِي زَارَنِـي وَاللَّـيْلُ مُعْتَكِرٌ ... وَالأُفْـقُ مِمَّـا اكْتَسَى مِنْ عُرْفِهِ عَطِرُ
فَلَـمْ نَـزَلْ نَـتَحَارَى فِي العِـتَابِ مَعًا ... أَشْـكُو إِلَـيْهِ جفَـاهُ وَهُـوَ يَعْتَذِرُ
/[٤٨/أ] حَتَّى إِذَا مَا اعْتَنَقْنَا وَانسَابتْ لَنَا ... عَلَـى أُرَادِلِـنَا عَـيْشٌ لَـهُ خَطَرُ
نَادَيْـتُ يـاَ لَـيْلُ دُمْ لَـيْلاً بِلاَ سَحرٍ ... فَقَـالَ لَـيْلُكَ هَـذا كُلُّهُ سَحَرُ[١]

[وصف الليل مع الاتصال][٢]

وذكرت في وصف الحال والاستعانة بالليل على استمرار الوصال قول من قال:

بِتْـنَا عَلَـىَ حَـالٍ تَـسُوءُ العِدَى ... وَرُبَّمَـا لاَ يُمْكِـنُ الـشَّرْحُ
بَوَّابُـنَا اللَّـيْلُ وَقُلْـنَا لَـهُ: ... إنْ غِـبْتَ عَـنَّا دَخَـلَ الـصُّبْحُ[٣]

---

(١) ومما قال الأشبيهي في المستطرف فيما قيل في الليل (ص ٤٦٨):

ورب لـيل سـهرناه وقـد طلعـت ... بقـية الـبدر في أول تـسايره
كأنمـا أدهـم الظلمـاء حـين نجـا ... مـن أشـهب الـصبح ألقـى نعل حافره

وقال آخر:

لـيل المحـبين مطـويٌ جوانـبه ... مـشمر الـذيل منـسوب إلى القِـصَرِ
مـا ذاك إلا لأن الـصبح نَـمَّ بـنا ... فاطلـع الـشمس مـن غـيظ على القمر

وقال غيره:

فلـم أر مـثل الـليل ذوي التـصابي ... وكـل يـشتكيه بكـل حـال
فيـشكو طـوله أهـل الـتجافي ... ويـشكو قـصره أهـل الوصـال

(٢) زيادة من عمل المحقق غفر الله له.

(٣) ومما قال الأشبيهي أيضًا في الليل وطوله وقصره في المستطرف (ص ٤٦٨):

لَيلـى وَلَيْلَـى سـواء في اختـلافهما ... قـد صـيراني جمـيعًا في الهـوى مـثلاً
يجـود بالطـول لَيلـى كلمـا بخلت ... بالطـول لَيْلَـى وإن جـادت بخـلا

وقال آخر:

إن اللـيالي للأنـام مـناهل ... تطـوى وتنـشر بيـنها الأعمـار
فقـصارهن مـع الهمـوم طـويلة ... وطـوالهن مـع الـسرور قـصار

وقال غيره:

رب لـيل لم أذق فـيه الكـدا ... حـظ عـيني فـيه دمـع وسـهر

=

واحتثنا الطاس والكأس، ودبت الحميّا في الحميّا في القدم والرأس وتمشت في المطار، والقوائم، وسرت سرى الكرى في مقلة النائم، وأنشدت الأبيات النوادر الدالة على قوة عارضة الشاعر التي تجاري شيم السحر لطفًا، وتفوق نظم الدرر/ [٤٨/ ب] صفًا ووصفًا:

عَاطَيتُهُ وَاللَّيلُ يَسحَبُ ذَيلَهُ صَهبَاء كَالمِسكِ الفَتِيقِ لِنَاشِقِ
وَضَمَمتُهُ ضَمَّ الكَمِيِّ لِسَيفِهِ وَذُؤَابَتَاهُ حَمَائِلٌ فِي عَاتِقِي
حتى إذا نابت به سِنَةُ الكَرَى زَحزَحتُهُ عَنِّي وَكَانَ مُعَانِقِي
أَبعَدتُهُ عَن أَضلُعٍ مشتاقة كَيلاَ يَبِيتُ عَلَى فِرَاشٍ خَافِقِ[1]

=

كلما هيج ليلى حرقي صحت بالليل أما فيك سحر

وقال آخر:

يا ليل طل أولا تطل لا بد لي من سهرك
لو بات عندي قمري ما بت أرعى قمرك

(١) نحو هذا الوصف جاء في قصة في مصارع العشاق (١٣٢٥) تحت عنوان الأخوات الثلاث وكتابهن يقول فيها:

ذكر لي رجل من أهل المدينة: أن رجلاً خرج حاجا فنزل تحت سرحه (شجرة كبيرة لا شوك فيها) في بعض الطريق بين مكة والمدينة، فنظر إلى كتاب معلق على السرحة فيه: بسم الله الرحمن الرحيم:

أيها الحاج القاصد بيت الله الحرام: إنّ ثلاث أخوات خلون يومًا فَبُحْنَ بأهوائهن وذكرن أشجانهن، فقالت الكبرى:

عجبت له إذ زارني في النوم مضجعي ولو زارني مستيقظًا كان أعجبا

وقالت الوسطى:

وما زارني في النوم إلا خياله فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحبًا

وقالت الصغرى:

بنفسي وأهلي من أرى كل ليلة ضجيعي ورياه من المسك أطيبا

وفي أسفل الكتاب مكتوب: رحم الله امرأ نظر في كتابنا وقضى بالحق بيننا ولم يجر في القضية.

قال: فأخذ الكتاب فتى، فكتب في أسفله:

أُحَدِّثُ عن حُورٍ تحدثن مرةً حديث امرئٍ ساس الأمور وجربا

=

ولم أتبع الشاعر في شفقته ولا اختصرت شيئًا من العِشاقِ عملاً بطريقته، وذكرت قصر ليل الوصال، فأخذت في الحنين والأعوال، وقد أطال الشعراء في ذلك وأجادوا، وبلغوا فيما قصدوه منه ما أرادوا وأنا أورد منه ما يليق بهذا المختصر، وأذكر منه ما حضر وقد/ [٤٩/أ] يستدل على الشجرة بالواحدة من الثمر(١).

* * *

[قولهم في قصر ليل الوصال](*)

قال بعضهم:

يَا لَيْلَةً كَادَ مِنْ تَقَاصُرِهَا ... يَعْثُرُ فِيهَا الْعِشَاءُ بِالسَّحَرِ
تَطُوْلُ فِي هَجْرِنَا وَتَقْصُرُ فِي الوَصْلِ ... فَمَا نَلْتَقِي عَلَى قَدَرِ (٢)

ثلاث كبكرات الهجان عطابل ... نواعم يغلبن اللبيب المشيبا
خلون وقد غابت عيون كثيرة ... من اللاءِ قد يهوين أن يتغيبا
فبحن بما يخفين من لاعج الهوى ... معًا واتخذت الشعر ملهى وملعبا
عجبت له إذ زارني في النوم مضجعي ... ولو زارني مستيقظًا كان أعجبا

(١) وقال شاعر اكتفى من محبوبه بتقبيل اليد بدلاً من الخدّ:

يا غزالاً لي إليه ... شافع من مقلتيه
والذي أجللت خديه ... فقبلت يديه
بأبي وجهك ما أكثر ... حُسّادي عليه
أنا ضيف وجزاء الضيف ... إحسان إليه

(*) زيادة من عمل المحقق غفر الله له.

(٢) ويقول موسى بن علي الطرياني طالبًا الوصل من محبوبته فنصحته بالتناوم بالليل حتى تعطيه ما يطلب خيالا فقال:

شكوت لها الغرام عسى رضاها ... يُسربني بعد شقوتي النجاحا
فقالت لي إذا ما الليل أرخى ... ستائره فسل عن البطاحا
فيممت البطاح ولا دليل ... سوى عرف تضمنه الرياحا
فقالت بل تناوم ان وجهي ... إذا استيقظت يذكرك الصّباحا

وقال سيدوك:

عَهْدِي بِهِمْ وَرِدَاءُ الوَصْلِ يَجْمَعُنَا وَاللَّيْلُ أَطْوَلُهُ كَاللَّمْحِ بِالبَصَرِ
فَاليَوْمَ لَيْلِي وَقَدْ بَانُوا فَدَيْتُهُمُ لَيْلَ الضَّرِيرِ فَصُبْحِي غَيْرُ مُنْتَظَرِ(١)

وقال آخر:

اللَّيْلُ إِنْ هَجَرَتْ كَاللَّيْلِ إِنْ وَصَلَتْ أَشْكُو مِنَ الطُّولِ مَا أَشْكُو مِنَ القِصَرِ(٢)

---

(١) وعلى ذكر الضرير والحب أذكر قول مظفر بن إبراهيم بن جماعة، وقد كان أعمى، وقد أحب فتعجبوا من حبه وكيف بلغ هذا الشأو في الحب وهو لا يعرف صورة محبوبه وما الذي دفعه إلى كل هذا القدر من الحب، فقال:

قالوا أعشقت وأنت أعمى ظبيًا كحيل الطرف ألمى
وحلاه ما عاينتها فتقول: قد شغفتك وهما
وخياله بك في المنام فما أطاف ولا ألمَّا
من أين أرسل للفؤاد وأنت لم تنظره سهما؟
ومتى رأيت جماله حتى كساك هواه سقما؟
وبأي جارحة رصدت لوصفه نثرا ونظما؟
والعين داعية الهوى وبه تتم إذا استتما
فأجبت: إني موسوي العشق إنصاتا وفهما
أهوى بجارحة السماع ولا أرى ذات المسمى

بغية الوعاة (٢/ ٢٨٩).

(٢) هكذا حال العشاق هم دومًا على شكوى فإن وصل المحبوب استقلوا الوصل، وإن هجر استطالوا الهجر فلا يقر لهم حال لا بالهجر ولا بالوصال فهم إن جالسهم محبوبهم أحسوا بالقلق من خوف طلب القيام والانصراف فطيلة الوقت قلق مضيع لجمال وحلاوة الوصل بخوف الانصراف وخوف انصرام الوقت فيصرم الوقت دون أن ينصرم ويضيعه في الخوف والوجل.

وإن غاب المحبوب عنه في الزيارة صار يومه طويلا وليله عليلا ينتظر منه طلة أو نظرة أو يترقب وقت حضوره فإن أخلف ساعة كانت عليه دهرًا فهو يقضي حياته كلها انتظاراً إما انتظار قدوم وإما انتظار انصراف فيذبيه هذا ويضنيه ذاك فلا يقر له قرارا ولا يهدأ له بال، ولا ينفع معه نصح ولا توجيه لمن هذه حاله ولا علاج ولا دواء لها ومن حاول علاج هذه الأحوال فإنما هو طالب لمحال فليس للعاشق علاج سوى المعشوق فإن رآه استراح، وإن غاب عاد إلى ما كان عليه من الضنى والوجد وانتظار العود والوصل والانشراح فاللهم اجمع كل حبيب بمحبوبه، وادم لهما الحب والسعادة، وأبعد عنهما منغصات الحياة وأسباب البين وأرشدهما إلى طريقك المستقيم حتى تجمعهما في جنات النعيم.

وقال ابن التعاويذي:

وَأَطَلْتُمْ لَيْلِي وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ ... ذَهَبَتْ بِوَصْلِكُمْ كَظِلِّ الطَّائِرِ(١)

وقال آخر:

/[٤٩/ب]كُلُّ اللَّيَالِي المَاضِيَاتِ خَلاعَةً ... تَفْدِي نَعِيمك بالساوي حاجِرِ

مَا كُنْتُ فِي اللَّذَاتِ إِلاَّ خِلْسَةً ... سَمَحَتْ بِهَا الأَيَّامُ سَمْحَةَ عَابِرِ(٢)

---

(١) وهذا كسابقه يقول إن الهجر يطيل عليه الليل ويجعل ليله بلا صبح وسواده حالكاً ونجومه منطفئات ونسيم برده قارساً وأطرافه متباعدة وساعاته متثاقلة وسميره فيها الأرق والقلق والحزن والجوى والضنى والسهر والوجد والهيام واهم أمانيه فيه أن ينام رجاء أن يرى لمحبوبه طيف خيال يسري عنه بعض ما يلقى من الآلام ويعزيه في غربته التي هو فيها والناس حوله نيام هانئين بما هم فيه من راحة البال والاستقرار، فقد عافاهم الله من عذاب الحب وويلاته وآلامه التي يجد لها المحب لذة ما بعدها لذة وقت الوصال، يجهلها كل من هو في هذا الاستقرار وهو يرى أن الساعات التي يقضيها مع محبوبه تمر كاسرع من مرور ظل الطائر في جوف السماء على الجالس على الأرض فهو أسرع من طرف العين وومض البرق يريد أن يقول له إني أجلس معك ولا أجلس فلا تحسب أن جلوسك معي هذه الساعات بقدر ما تحسه أنت بل هو بقدر ما أحسه أنا وأنا أحسه بهذه السرعة وهذا القدر من وميض البرق وطرف العين وسرعة الطائر فاعذرني في عتبي عليك ولومي لك في استقلالي للوقت الذي أقضيه معك حبيبي.

(٢) يقول لها إنه مهما قدم لها من الشكر على هذا الوصل بعد هذا الهجر الذي أضناه في الليالي السالفة فإنه لا يقدر على ذلك ولو بالساوي حاجره أي بحبة عينه، وعلى الرغم من ذلك كله ما نلت من لذة وصلك إلا أقل من طرفة العين وقد كانت خلسة لا على قرار ولا على هدوء حال، وهذا حال العشاق كما قلت في لوم دار الليالي والأيام يريدون أن لا يكون الدهر إلا خليلاً وخِلّه وظلاً ظليلاً وماء بارداً وصوت عصفور، وضحكة مخلص ونظرة محب ولمسة عاطف وقبلة حانٍ وحضن واله ولقاء عاشق، هذا هو أقصى أمانيهم لا يريدون مالاً ولا سلطانًا ولا متاعًا ولا قصورًا ولا زروعًا هم فيما هم فيه عن الخلق غافلون يتركونهم يرتعون في الدنيا وزينتها وهم لا يعرفون من الدنيا سوى بعضهما البعض.

فاللهم ارزقنا حبًا للحلال عن الحرام، وحبًا لمن أحبك، وحبًا لك يملأ علينا قلوبنا وأبصارنا وأسماعنا إلى أن نلقاك غير راضين بسواك آمين.

[خاتمة الكتاب](١)

فحين بلغت إلى هذا المقام وأتيت بما أتيت من النثر والنظام، رعدت رعدة أيقظتني من المنام، فانتبهت فلا محبوبة ولا مُدام، ولا آسَ ولا خزام فعجبت من قوة الخيال، واستمرار هذا المحال. وأنا أستغفر الله من التجوز في المقال وتحقيق هذا المحال. والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله خير آل.

كتبها ياقوت بن عبد الله بمدينة السلام في العشر الأوائل من شعبان سنة أربع وسبعين وستمائة هجرية، / [٥٠/أ] حامدًا الله تعالى على نعمه ومصليًا على نبيه محمد وآله الطيبين الطاهرين ومسلمًا تسليمًا كثيراً (٢).

* * *

(١) زيادة من عمل المحقق غفر الله تعالى له آمين.

(٢) قال عققه أبو إسلام سيد بن كسروى بن حسن:

وقع الفراغ من تحقيقه في صباح يوم السبت السادس من شهر جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام، الموافق الأول من الشهر السابع من ميلاد عيسى عليه السلام، سائلاً المولى عز وجل حسن الختام بالموت على دين الإسلام آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الكتاب الثالث

رسالة الطيف في الجد والهزل

تأليف

الأديب شمس الدين أبي عبد الله محمد بن دانيال
المتوفى ٧١٠هـ

تحقيق
سيد كسروي حسن

مقدمة المحقق

/ [٢/ أ] بسم الله الرحمن الرحيم

كتبت إليّ أيها الأستاذ البديع والماجن الخليع، لازال سترك رفيعاً، وحجابك منيعاً، تذكر أن خيال الظل[1] قد مجته الأسماع، ونبت عنه لتكراره الطباع.

وسألتني أن أصنف لك من هذا النمط ما يكون بديعاً في أشخاص السفط. فصدني فيما رمته مني، وأن ترويه عني، ولكن رأيت تمنعي من هذا المرام، يوهمك أني قاصر عن هذا الاهتمام، واهن الفكرة/ [٢/ ب] عاجز الفطرة عن غزارة الينبوع، وإجابة خاطره

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب في مادة «خيل» في تعريف الخيال أو خيال الظل (ص١٣٠٦).
والخيال: خيال طائر يرتفع في السماء فينظر إلى ظل نفسه، فيرى أنه صيد، فينقض عليه ولا يجب شيئاً، وهو خاطف ظله.
... وتخيل الشيء له. تشبّه، وتخيل له أنه كذا أي تشبه وتخايل. يقال: تخيلته فتخيل لي. كما تقول: تصورته فتصور، وتبيَّنْته فتبيَّنَ، وتحققته فتحقق والخيال، والخياله: ما تشبه لك في اليقظة والحلم من صور... والخيال والخياله: الشخص والطيف. ورأيت خياله وخيالته: أي شخصه وطلعته. من ذلك في التهذيب: الخيال لكل شيء تراه كالظل.
وكذلك خيال الإنسان في المرآة وخياله في المنام صورة تمثاله، وربما مَرّ بك الشيء شبيه الظل فهو خيال.
... وقال الأصمعي: الخيال: خشبة توضع فيلقى عليها الثوب للغنم إذا رآها الذئب ظن أنه إنسان.
وفي اللسان أيضًا في مادة «طيف» (ص٢٧٣٩)، طيف الخيال: مجيئه في النوم، قال أمية بن أبي عائذ:

ألا يا لقومي لطيف الخيال   أرق من نازح ذي دلال

وطاف الخيال، يطيف طيفاً ومطافاً ألم في النوم قال كعب بن زهير:

أنَّى أَلَمَّ بِكَ الخيال يطيف   ومطافُهُ لك ذكرةٌ وشُعُوفُ

وأطاف: لغة. والطيف: الخيال نفسه. والطيف: المس من الشيطان، وقرئ قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾، (طيف من الشيطان)، وهما بمعنى، وقد أطاف وتطيف. وقولهم: طيف من الشيطان، كقولهم: لمم من الشيطان، وأنشد بيت أبي العيال الهذلي: فإذا بها وأبيك طيف جنون. وفي حديث المنبعث: فقال بعض القوم: قد أصاب هذا الغلام لمم، أو طيف من الجن، أي: عرض له عارض منهم. وأصل الطيف الجنون، ثم استعمل في الغضب، ومس الشيطان. يقال: طاف يطيف ويطوف طيفاً وطوفاً فهو طائف. ثم سمي بالمصدر، ومنه: طيف الخيال الذي يراه النائم. وفي الحديث: فطاف بي رجل وأنا نائم. والطياف: سواد الليل، وأنشد الليث، عقبان دجن بادرت طيافاً.

المطبوع.

فجلست في ميدان خلاعتي، وأجبت سؤالك لساعتي، وصنفت لك من باب المجون والأدب العال لا السدون، ما إذا رسمت وبوبت مقصوصة، وخلوت بالجمع، وجلوت الستارة بالشمع، رأيته بديع المقال، يفوق في الحقيقة ذاك الخيال، فإذا دعيت إلى مجلس السرور، فأخرج طيف الخيال مكان القور، واستبدي بالنشيد وغنِّ في الرست هذا /[٣/أ] القصيد:

خيالنا هذا الأهل الرتبُ والفضل والبذل وأهل الأدبِ
حوى فنون الجد في هزله وزاد حسناً وأتى بالعجبِ
فانظره يا مسن فهمه ثاقب فإنَّ فيه للعرفانِ أدنى سببِ
إذ قسامَ فيه ناطقٌ واحدٌ عن كل شخص ظاهرٍ واحتجبِ
مذاهبُ الفضل به جَمَّةٌ فتستقطوه سادتي/[٣/ب]بالذهبِ
ترجمةُ طيفِ الخيالِ الذي حكى هلالاً طالعاً بالحذبِ

فإذا فرغ الرّيس من هذا الإنشاد، يشرع فيما بَنا وشاد:

نادى: يا طيف الخيال، يا كامل الخصال، فيخرج شخص أحدب، وينقض كالبازي الأشهب، فيسلم سلام القادم ويقف مطرقاً كالواجم، فيرد الرّيس عليه السلام، ويلقاه بالمدح قبل الكلام.

شعر:

قسماً بحسن قوامك الفتان يا أوحدَ الأمراء في الحُدبانِ
أنت الحسام زهي ببرشق حدبة فاقت على الخطِّيَةِ المُران
يا مخجل الغصن الرطيب إذا مشى من حدبتيه يمس بالرُّمال
يا مخجلا شكل القضيب بقده حاشاك أن تُعْزَى إلى نُقْصَانِ
ما عاب قامتك الحسود جهالة إلا أجبت مقاله ببيانِ
/[٤/ب]هل يحسن الجودان إلاّ أن كداته في حلبة الميدان
أم هل برأس المتن إلا ردفه حُسْناً فكيف بمن له ردفانِ
ولنعم أسنمة الجمال وجملها ذات الجمال بملتقى الأضغانِ

لـولاك مـا اشـتقنا قباب المنحنا — مـن حاجـر والـتل مـن عـسفانِ
والعـود أحـدب وهو ألهى مُطرباً — ولقـد سمعـت بـنعمة العـيدانِ
وكـذا سـفين البحـر لولا حدبةٌ — في ظهـره لم يقـو للطـوفان/[٥/أ]
ومدبـر إلا كـسير يدعـى أحدباً — في علمـه والقـسط في الميـزانِ
وإذا اكتـسى الإنـسان قيل تمثلاً — بالمـدح قامـت حدبـة الإنـسانِ
يعـزيك في الحـدبان كل مكدبح — يمـشي الهويـنا مـشية الـسرطانِ
مـستجمع الكـتفين أحدب قد بدا — في هيـئة المـسنحوف والـضعفانِ

/[٥/ب] فـيقول طـيف الخيال: لا فض فوك. وصان من سيف الحسبة قواك، وترقص على عادته في الخيال ويغنّي ارتجالا:

سـلامٌ علـى الـسادة الحاضرينَ — سـلام المـشوق الكئـيب الحـزينْ
سـلامٌ علـى من حوى ذا المقامِ — مـن الـسادةِ الأتقـياءِ الكـرامْ
فهـمُ خـيرُ منْ خوطبوا بالسلامِ — وأكـرمُ مـنْ صُـوفحوا بالـيمينْ
ومـن قـبل رقـصتي بهذا الخيال — /[٦/أ]ومـن قـبل أن ابتدي بالمقال
أعظـم رب العُـلا ذو الجـلال — إلهـاً تعـالى عـن العـالمينْ
ومـن بعـد هـذا نـصلي على — الـنبي الـذي حـاز أعلـى العُـلا
نـبي كـريم هـدانا إلى — صـراط هـدى في الـبرايا مـبينْ
علـيه مـن الله أزكـى صـلاة — وعتـرته الغُـرُّ أهـل الحـياء
فلـيس لـنا في الـشفاعة سـواه — شـفيع العصاة مع /[٦/ب] المذنبين
ونـدعـو لـسلطاننا بالـبقاء — وبالـنصر والفـتح والارتقـاء
فلـولاه مـا زال عـنا الـشقاء — وذاك المطـاع القـوي الأمـين
وأسـأل رب العـباد الغفـور — يـديمُ لـنا عـز هـذا الحـضور
ويبقـيهم أبـداً في سـرور — فقولـوا معـي رفاقـي آمـين
ومـن بعـد هـذا إلـيكم أتيت — /[٧/أ]لأحكـي بعـض ما قد رأيت
وقـد كـنت لـولا الخداعـة — أتـيت علـى أعـين الخلاعـة معين

ثم يقـــول: الـــسلام علـــيكم يا سادة، ودمتم في نعمة وسعادة، واعلموا أن لكل شـــخص مثالا، وقد قيل في الأمثال: إنه يوجد في الأسقاط، ما لا يوجد في الأسفاط، علـــى أنه لكل خيال حقيقة، ولكل أسلوب طريقة، وفي الهزال راحة من كلال الجد، والـــنحس نظير السعد، وقد يُمل المليح، ويُستَحْسَنُ القبيح، والمصفوع حليم، وباذل فلـــسه كـــريم، والمواجـــر مصافي، والمبادل موافي، ويقاضي المنيوك صراعة، والدب جـــسارة(١) وشـــجاعة، والـــزنق افتراس/ [٧/ ب] والتكيس اختلاس، والغيرة شُحّ ورقاعة، وجلد عميرة(٢) قناعة، وهو طيف الإيقاظ، ودواء الإنعاظ.

ومـــن الـــوجادة إلى الـــتجارة، سوقها قائم، ودخلها دائم، تحل لها الأكياس عُقَد الأكـــياس، والأبنة(٣) دار المترفين بعض الكاتبين، ونما عليك أن يقال/ [٨/ أ] هذا قبيح، وكـــل شيء على وجهه مليح، وفي القيادة سر الانقياد، وكل أحد يتفاءل، بطلعة القواد، فإنـــه جامع الشل والمرياض بالمشي في الرمل، وهو الطحان الذي يجمع الحجرين على

(١) الدبـــيب والدباب: هو الرجل يفعل بالنائم فعل قوم لوط، ولهذه الخصلة أناس قد اشتهروا بها ولهم أدوات يـــستعينون بها عليها ومن أهم هذه الأدوات الخيط. والتراب والريق. والمقراض، والحصى، وغـــير ذلك كثير، ويحتالون في الوصول إلى غرضهم بأشياء كثيرة منها التناوم، إطفاء السرج عمداً أو بإظهار أنه عن غير قصد، وهو عمل من اعمال الخيانه والاغتصاب وهتك الأعراض يعاقب عليه الإسلام عقوبة شديدة.

(٢) معـــروف أن المـــراد بجلـــد عميرة هو الاستمناء باليد أو ما يعرف في أيامنا هذه بالعادة السرية للـــرجال وقد ذهب قوم من العلماء إلى تحريم ذلك، وذهب آخرون إلى إباحته عند الضرورة ومن بيـــنهم أحمـــد بن حنبل عليه رحمات الله، ومن ذهب إلى تحريمه استدل بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

وذهـــب مـــن إباحـــه إلى أن الضرورات تبيح المحظورات وأنه ليس هناك نص صريح على التحريم وإباحـــة العزبة الناتجة عن عدم القدرة على الزواج أو البعد عن الزوجة لسفر أو سجن أو ما شابه ذلك، والله تعالى أعلم.

(٣) في لـــسان العـــرب (صـــــ١٢): الأُبْنَة بالضم: العقدة في العود أو في العصا وجمعها أُبَنٌ ، وقال الأعشى: قضيب سَرَاء كثير الأُبَن

وقال ابن سِيْدَة: هو أيضًا مخرج الغصن في القوس.

والأُبنة: العيب في الخشب والعود.

..والأُبنة: العيب في الكلام، وهو المراد هنا والله أعلم.

وربمـــا أراد بقـــوله: أذي بعض الكاتبين أنه العيب الكائن في العود الخشب من العقل وغيرها مما يؤدي إلى تعب وأذي الكاتب أثناء بري القلم أو شق سن الريشة أو قطعها.

الحبة والدقيق والجليل على المحبة مع جمعه الثقال مع القطع المتمتع بليالي الجمع.

وفي القهـــوة سلوة[١] الأحزان، لولا خفة الميزان وطاعة الشيطان، وعصيان الرحمن، وحـــدة الحســدود، مع النصارى واليهود، ومن أجل /[٨/ ب] هذا عدلت السودان إلى سُـــكُرْكَةِ[٢] الـــدرة، وأكثروا من الدخول إلى المعصرة، وعلقوا ذا الباب وفتحوا أبواب البشتكي والطبطاب، واستغنوا بالفار المطحن عن الفرخ المسمن، وشاركوا الخمارين في المسرة، وقنعوا باللفتية[٣] عن الخماسية والجرة، والأكصفاعنة الحرافيش، الذين عرفوا سِرّ الحـــشيش؛ لأنهم ذاقوا لذة الكسل، وهربوا من نصب العمل، وزعموا أنها تفعل في معدة الممعـــود، فعـــل القرص في الجلود[٤] فاستغفوا بذلك الغفار/ [٩/ أ] عن معاقرة العقار، فأكلـــوها في الأســـواق والمشاهد[٥] إلا أنني بعد توبتي من هذه الخصال، وتوديعي أخي

---

(١) ربمـــا أرد بالقوة ها هنا الخمر لما تبعه من كلام على الكراهية الشديدة، والعقوبة على تعاطيها أو تناولها وتشبه من فعل ذلك باليهود والنصارى في أفعالهم.

(٢) قـــال ابـــن مـــنظور في اللـــسان في مادة «سكرك» (صـــ٢٠٤٩): قال أبو عبيد: ومن الأشربة الـــسُّكُرْكة قال أبو موسى الأشعري في حديث السُّكُرْكة: هو خمر الحبشة، وهو من الذرة يُسْكر، وهي لفظة حبشية، وقد عربت فقيل: السُّقُرْقُع.

(٣) وفي اللسان أيضًا في مادة لفت (صـــ٤٠٥٢):

اللَّفِيـــتَة: أن يضاف ماء الحنظل الأبيض، ثم تنصب به البرمة، ثم يطبخ حتى ينضج ويختر، ثم يُذَرّ عليه دقيق.

واللفتية: العصيدة المغلظة. وقيل: هي مرقة شُبه الحيس.

وقيل: اللَّفْتُ كالفتل، وبه سيت العصيدة لفتية، لأنها تُلْفَتُ، اي تفتل وتلوي.

(٤) هذه من المغالطات التي يلديهما من انحرفوا عن الجادة ولفقوا الحق بالباطل وزعموا أن الخير كامن في الـــشر فادعـــوا أن الحـــشيش منفعة للبدن وعلاج للبطن والمعدة وهذا أدعاء كاذب يروج له الكـــسلاء الـــذين يقعدون عن العمل ويدعون إلى الكـــسل ويتربحون من وراء أفساد الناس وتزيين الـــباطل والـــشر للناس ليثروا هم ثراءً فاحشاً ويلقى غيرهم في الهم والحزن أو السجن والمرض ما يلقى

(٥) يُعَـــدُّ الأكل في الشوارع والأسواق والأماكن العامة من الفوادح في المروءة، وكانت ترد به شهادة الشاهد، وكذا كانت ترد شهادة الرجل إذا رئي في الشارع عاري الرأس.

أمـــا الـــيوم فقد تغيرت الأحوال فلا مانع من أن يري الرجل حاسر الرأس إذ صار هذا هو الشائع الآن فلـــيس في ذلك قدح في المروءة وإن كنت أنا لا أسير في الشارع حاسر الرأس مطلقاً. وكذا الأكل في الأسواق والشوارع يظل قادحاً في المروءة ما عدا أهل الأسواق من التجار ومن يعاونهم، وكذا الأكل في المطاعم وما أعد لذلك وإن كنت لا آكل فيها أيضًا مطلقاً.

الأمـــير وصـــال، ورجوعي من الموصل الحدباء إلى الديار المصرية، في الدولة الظاهرية، سقى الله عهدها، وأعذب في الجنان وردها، وجدت تلك الرسوم دارسة، ومواطن أنسها غير آنسة، عافية الآثار، ساقطة الحد بالعقار، وقد هَزَمَ / [٩/ ب] أمراء السلطان جيش الشيطان فانكفت ألسنة الخراطي، وكسرت الأقداح والبواطي، وتأذى الخُلاَّع غاية الأذية، وصلب خمار وفي عنقه نباذيّة وصلب، وأنشد الحال وقال من قال:

لقـــد كـــان حدّ السكر من قبل صلبه خفـــيف الأذى إن كان في شرعنا حدًّا
فلمـــا بـــدا المصلوب قلت لصاحبي الا تُـــب فـــإن الحدُ قد جاوز الحدًّا[١]

ثم شاعت الأخبار، وقوي الإنكار / [١١/ أ] وانكسر الخمَّار، وانطحن المزار، وانزوى المـــسطول في القـــرنة الغبراء، وصارت كل يابسة بين يديه خضراء، وتقرن في الأصفاد، وبات محمص الفؤاد، فَدَعاني بعض الإخوان إلى محله، وأنزلني بين قومه وأهله، فاعتذر إليّ مـــن قصوره في إكرامي، ولاختصاره في الضيافة إذ لم يأت بمرامي وقال: غلب على ظني أن أبـــا مُـــرّة[٢] قـــد مات وعُدَّ من الرفات فقم بنا نبكيه، وتندب حاله ونرثيه فابتديت / [١١/ ب] وقلنا بيتاً ببيت وينشد:

---

(١) حقـــاً إن الله يـــزع بالـــسلطان ما لا يزع بالقرآن لقد كان الظاهر بيبرس من الرجال او الحكام الصالحين الذين أخذوا على أنفسهم أن يقيموا شرع الله تعالى بين الناس وفي البلاد فشاع في عهده الـــسكون والهـــدوء وعـــلا الحق وظهر واندحر الباطل وانحسر، وما ذلك الا بأخذه على يد أهل الـــضلال ونصرته لأهل الخير والبر والمعروف، مما هيأ الفرصة لمن أراد أن يعود إلى الله تعالى من العصاة والشاردين عن نفل الطاعة والإيمان، فلما أن وجد أهل الضلال أن قبضته على الأمور قوية وعزيمته فتيه أقلعوا عن منكرهم بقوة الـــسلطان وعاد بعضهم إلى حقيقة الإيمان فاللهم أهد حكامنا إلى طريقك المستقيم لتأمن البلاد ويسعد العباد.

(٢) أبـــو مـــرة: هـــي كنية إبليس اللعين الشيطان الرجيم، وظهر من الخير السكينة والسرور ما جعل أصـــحاب الـــشرور يظنون هذه الظنون وتنقطع منهم الأمال في رجوع الحال إلى ما كان عليه من الفساد.

فلـــو أن الحاكم أخذ على أيدي أهل الضلال أخذ أهل الحق والشرع لا تصلح حال العباد والبلاد وســـاد الـــرخاء وعم الخير وانتشر الأمن وساد العلم وخفت الجهل وشرأبت أعناق دعاة الفضيلة ونكست رؤوس دعاة الرذيلة وعلا صوت الشرع وخرس نباح الباطل.

أه لـــو جـــرب حكـــام اليوم شرع الله مرة بدلاً مما هم فيه التبعية لعباد الصليب والذهب ودعاة الـــدعارة وتجار النخاسة لعرفوا أن ما تركوا خيراً مما أخذوا عند الله وعند الناس ولكن هو هدى الله يهدي إليه من يشاء فلو شاءوا لسَهُل لهم الأمر ووفقهم إليه.

مات يا قوم شيخنا إبليس وخلا منه ربعه المأنوسْ
وتعالى حذسي به إذ تُوفي ولعمري مماته محدوسْ
وهو لو لم يكن كما قلت ميّتاً لم يغير لحكمه ناموسْ
أين عيناك تنظر قد عطل الحكر منه الراووق والجريسْ
والبواطي(١) تكسر والخَمَّارُ من بعد كسرها محبوسْ
وذوو التعفف ذاهلون وهم من بعد هذا كادت تسيل نفوسْ
كم خليع يقول: ذا اليوم يوم مثل مثل ما قيل قمطرير عَبُوسْ
وفتًى قائلاً: لقد هان عندي بعد هذا في شربها التعريسْ
/[١٢/أ]والقناني مكسرات كما قد تكسرت كسرة في ربا البدود والكوسُ
وعجين البقول قد بددوه وهو بالتُرب خلطهُ مبسوسُ
أين سنكوكتي وطاجنة القار وأين المزارق والدُّبوسُ
يهبوهن الطراطير والطار وضاعت خريطتي والفلوسُ
/[١٢/ب] أين عيناه والحشائش يحرقن بنار تراع منها المجوس
قلعوها من البساتين إذ ذاك صغاراً خضراً وهن غُروُسُ
والحرافيش يتباكون حولها دموعاً يطفي بهن الوطيسُ
ذا ينادي رفيقه يا عنيكير وهذا يصيح يا جاموسُ
اسمر الكذك ما بين الأكواش يسعى وهو كذكٌ لكل حسن مكُوسُ
ليس يصبها كش الزُويهة إلاّ من صدها الوصف أو فتى سالوسُ
/[١٣/أ] ادخلوا هذه بلاد عفاف وسعور الخُلاَّع فيها نحوسُ
أين عيناه تنظر القحب شتتن وخَرِّبْنَ دورها بالفؤوسُ

---

(١) البواطي: هي الآنية التي توضع فيها الخمر، وقد قال ابن منظور في لسان العرب في مادة بوط (ص٣٨٧):

بوط: البُوطَةُ: التي يذيب فيها الصائغ ونحوه من الصناع.

قال ابن الأعرابي: باط الرجل، يَبوطُ: إذا ذل بعد عزٍ أو إذا افتقر بعد غني.

وقـضيب ونـرجس وانـشراح باكـيات ونـزهة وعـروسُ
ذي تـنادي حـريفها لـو داع لا عـناق ولا وطء ولا تـسبْوِيْسُ
انقـض كـل ذاك والعهـد في حلقي ولم يـبق بعـدها لي أنـيس
أيـن زَامَـرْدَ عَـيّطوا إلى بزامِـرْزد والأحمـدون أو /[١٣/ب] طـاوس
يـنادي فـوادها: يـا عـز أنـا نجـم سـتّي قـد علـسته الـنحوسُ
عَلَـسَ الله نجـم سـتّي ففـي سـابع ضـرب اسـتِ رملـها انكيسُ
أبـت نمـشي خُرْاسـت كـل زمان لا قحـاب فسيه ولا خـندريسُ
مـن لـنا بعـد ذلـك الشيخ خدرٌ وسمـير ومـؤنسٌ وجلـيسُ
مـن ثُري بعد موته يضحك المعشوق إن بـدا لي التعبـيسُ
سـائليه أرمـد العـين حـتى لـشفائي بعلـم جاليـنوس
/[١٤/أ] سـأغوي له حياتي وأغوي مـن لـه الكـاس بعـدها والكـيسُ

ثم يقـول: والله قـد سـطا عليَّ الزمان وصال وفرق بيني وبين أخي وصّال. وما قصدت هذه الديار إلا في طلبه، وما تغربت إلاّ بسببه، فلعل أن يجمع شملي بشمله، ويوصل حبلي بحبله.

فيـنادي رسـيل الخـيال[١]: يـا أمير وصّال، فيخرج جندي بشربوش، وسباله منفوش، ويقـول: سلام على من حضر مقامي، وسمع كلامي، من عرفني فقد تمتع/[١٤/ب] بأنسي، ومـن لم يعـرفني فأنا أُعرّفه بنفسي، أنا أبو الخصال، المعروف بالأمير وصّال صاحب الدبوس والـناموس، والشالوس. أنا ملاكم الحيطان، أنا مُخَبّط الشيطان، أنا أنهش من ثعبان[٢] وأحمل من

(١) ومن هنا يبدأ الكتاب في الاستقامة ويدور موضوعه حول الأداء المسرحي الذي يديره المؤلف بين البـشر تارة وبين الحيوانات أخري، وبين الطيور ثالثة وهكذا انجد أن المؤلف يحول الكلمات إلى خـيال متحـرك وصور تتلاحق وتتراقص في مخيلة القارئ حتى لكأنه ينظر إلى المسرحية الرشيقة الحـركة المنمقة الكلمات البراقة الألفاظ، والبراعة الفائقة في العرض، وفي الأخذ بالقلوب والألباب حـتى يـصبر المشاهد وكأنه قد أسلم قياده للمؤدي أو المؤلف يحرك كشاعرة كيف يشاء، وهذا الجو يسود الكتاب في كل فصوله.

(٢) ذهـب ليظهر قوته وعزيمته وطاقته الفائقة، فأخذ يضرب العديد من الأمثال فساق لنا كمًّا لا بأس به.

قَبَّان[1]، وأنطح من كبش، وأنتن من خَشّ[2]، أنا أسرق من تعاس، وأنا أَلْوَطُ من أبي نواس[3].

نشأت بين دكموش وبين دكلاش، وقمور، وملكاش، وولاّجٍ وخرّاج، ودبُّور،

---

(١) القبّان: هو ميزان معروف مشهور، وعليه تحمل الأحمال الثقيلة لتوزن، ومن أشهر ما يستخدم في حمله أو وزنه القطن.

ويقول ابن منظور في لسان العرب في مادة «قبن»:

القبّان الذي يوزن به لا أدري أعربي أم معرب. وقال الجوهري: القبان القسطاس معرب... وقال أبو عبيدة: ولا أحسب هذه الكلمة عربية إنما أصلها قبّان، ومنه قول العامة: فلان قبّان على فلان إذا كان بمنزلة الأمين عليه والرئيس الذي يَتَتَبَّع أمره ويحاسبه، وبهذا سمي الميزان الذي يقال له: القبّان.

(٢) الخَشّ: هو ما يُدْخل فيه، واشتهر من ذلك الجحور التي في الأرض ومنها الخبر المشهور، «ولا هي تركتها تأكل من خشاش ذات رائحة كريهة لبول الدواب فيها وعدم تعرضها للشمس فتنبعث منها رائحة نتنة.

وقال ابن منظور في لسان العرب في مادة «خَشَشَ»: قال الأصمعي: خششت في الشيء دخلت فيه.

... وانخشّ الرجل في القوم انخشاشاً إذا دخل فيهم... ومنه يقال لما يدخل في أنف البعير: خِشَاش، لأنه يُخشُّ فيه، أي يدخل فيه.

(٣) المشهور في الأمثال: «ألوط من يحيى بن أكثم» وذكروا باللواط وسرعته أشياء كثيرة ولم يذكروا من البشر سوى هذين الرجلين.

والذين أظن أنهما ظلما ظلماً شنيعاً فيحيى بن أكثم فقيه قاض، وكان ممن يدخلون ولا يحجبون عن المأمون، وكان ذا ظرف ولطف، وفي موسوعة أمثال العرب (٣/٢٠):

أورد هذا المثل، وقال: أصله من مرو، وتقدم في الفقه وآداب القضاء، وكان حسن العشرة، عذب اللسان، وافر الحظ من الجد والهزل، ولاه المأمون قاضي القضاة وأمر بألاّ يحجب عنه ليلاً ولا نهاراً. قلت: فكيف يوليه القضاء وقد اشتهر عنه مثل هذا الأمر ولا أظنه إلا من حسد الحساد وكيد الكائدين له.

أما أبو نواس، فهو شاعر معروف مشهور بالجد والهزل الموعظة الحسنة والأمثال السائرة، والحكم المشهور ولكنه قد اتهم بالدَّبِّ، واللواط، وأحسبه منهما بريء وإن كان ورد في شعره ذلك إلا أنني أظن أنه بريء مما نسب إليه وإلا لأقام عليه القضاة في أيامه الحد أو لأوقعوا عليه العقوبة، ولهجاه به نظراؤه من الشعراء، ولقدحوا في خلقه وعابوه، وكم من الأقوال تلصق بالناس وهم منها براء وهم عنها غافلون، وما أسهل أن تلصق تهمة بإنسان ولكن من الصعب أن تلصق به الصلاح ويطيعك الناس دائماً في القدح والذم ولا يطيعونك في المدح إلا قليلاً إلاّ عندما يتحقق لهم ذلك بيقين أما في الباطل فلا يطلبوا بينة ولا دليل ولا برهان عافانا الله وإياكم من التهم.

ودثـــوُورُ، أنا قبضة من كف وقّاد، وغمزة من عين قواد، أنا أصفع /[١٥/أ] من كف خـــباز(١)، وأرفس من رجل رزّاز، أنا أبرم من حبل، وأثقف من نبل(٢)، وأوكل من نار، واشرب من رمل، أنا أبط من مبضع(٣)، وأشحر من ضفدع، أنا أوطأ من مفتاح، وأخشّ من الحلاح، وأظهر من كوكب، وأدور من لولب، أنا أبلع من فم، وأردي من سم.

وأقدمت على العفاريت، وسلخت الموتى في التوابيت، واخترقت الزحام، ودكُسْتُ مـــن قـــيام(٤)، أحُـــل العُقَد، ولو كانت من المسد، وأسامر، وأقامر، وأنا ظفّارٌ، حمّارٌ، هَمّازٌ(٥) /[١٥/ب] لمازٌ، خمازٌ عيّاب، دَبّابٌ، معربدٌ، مهددٌ، ماسكٌ، فاتكٌ، غُرّةٌ غُرّةٌ،

---

(١) ثم يعود مرة أخري إلى سرد الأمثال ويذكر منها مجموعة بسرعة وفي براعة.

(٢) الثقـــيف: ســرعة الأخذ أو الطعن، ومن هذه الأمثال في مجمع الأمثال: «أثقف من سِنَّوْرٍ»، وقال الميداني تعليقاً عليه في (١/١٥٧):

الثقيف: الأخذ بسرعة، يقال: رجل ثقف لقف إذا كان جيد الحذر في القتال.

يقـــال: هو السريع الطعن. وفي موسوعة الأمثال العربية (٢/٨٤) قال تعليقا على المثل الذي ذكره الميداني: الثقف: الأخذ بسرعة، أو سرعة الطعن.

والسنّور: الهر، ولفظ «السنّور» مؤنث، وإن أريد الذكر، وهي إذا وثبت على الفأرة لم تخطئها.

قلت: والثقف في الحذف والمهارة والفطنة وسرعة البديهة والملاحظة وحسن التقدير والتدبير ومنه أن تقـــول: هـــذا إنسان مثقف أي واسع المعارف حسن التقدير والتعبير سريع البديهة موسوعي المعرفة. وأراد بمثله هنا الســرعة والشجاعة.

(٣) يريد السرعة والخفة والحذق والجودة وفي لسان العرب في مادة: «بطط»:

بَطَّ الجُرح وغيرة يَبُطُّهُ بطاً، وبَجَّهُ بَجاً إذا شقه.

والمِبَطَّةُ: المِبْضَعُ.

وبطط القُرحة: شققتها.

وفي لسان العرب أيضًا في مادة: «بضع»:

المِبْضَعُ: المشرط، وهو ما يُبَضَّع به العرق والأديم.

(٤) يـــريد أنـــه أسرع من العفاريت في الوصول إلى ما يريد، ولا يصعب عليه أمر عسير ولو كانت الموتى في القبور، فإنه يقدر على نبش قبورهم وأخذ أكفانهم، ولا يتعذر عليه السير بين العباد وإن كانوا في أشد حالات الأزدحام.

بل وهو قادر على إقعاد القائم بقوته ومهارته ويقول ابن منظور في لسان العرب في مادة: «دكس»

الدُّكاس: ما يغشى الإنسان من النعاس ويتراكب عليه.

... والداكس لغة في الكادس... ودكس الشيء: حشاه، والداكس من الظباء القعيد.

(٥) قوله همار: أي كثير التهريج والمزاح سيال الكلام بغير تلثعم أو انقطاع.

وقـــال ابـــن منظور في لســان العرب في مادة «همر» الهمر: الصب.. هَمَرَ الماء والدَّمْعُ يهمر همراً:

=

مفـــروك، مدلـــوك، قوّادٌ، داروك، هندمت، وهمكمت، وسودت، وشعتدت، شرت، وجمـــرت، وقـــرقت، ورقـــصت. فلا تجهلوا حالي ولا مقداري، فقد كشفت لكم عن أسراري.

فيقول له طيف الخيال: أنت حمال المقامات ومن خَلْف مثلك ما مات. فيقول الأمير وصّال: أين تلك الأيام التي كانت مواهب إذ كانت /[١٦/أ] بإسعاف الأحبة حبائب، وأين أوقات العشوق والاجتماع، بباب اللوق(١)، وأين قصفنا في بستان الخشاب، وشربنا في عرصة أم شهاب، ولقد كنت في هذه الرحلة كثير الحنين إلى تلك الزّمن، متأسفاً على مـــا فـــات من طيب ذاك الزمن، وكنت كلما اشتد شوقي وغرامي أقول في السالف من أيامي:

شعر:

حـــي مـــصراً فغُـــوطة الخُـــشاب ... فـــربا الخُـــورُ معـــدن للتـــصابي

/[١٦/ب] معـــدن اللهـــو والخلاعة ... ومـــأوى علوقـــنا والقحـــاب

كـــان مـــن قـــبل تـــوبي لي مـــآلاً ... لأهــــل الجـــنان فـــيه ثـــوابي

مـــن قـــصور وقاصـــرات حـــسان ... وكـــؤوس مملـــوءة بـــشرابِ

ولـــنا في مخـــادع أن شـــهاب خلوة ... كـــل وثـــب يُـــضرِّط أم شـــهابِ

صب...

ورجل هَمّار، ومِهْمَار، ومِهْمَرٌ، أي مهذار ينهمر بالكلام، وقال يمدح رجلاً بالخطابة:

تريع إليه هوادي الكلام إذا خطل النثر المِهْمَرْ

قـــال الأزهري:... الهي والمكثار، والمهمار الذي يهمر عليك الكلام همراً أي يكثر... والهَمْرَي: الصخابة من النساء.

(١) بـــاب اللوق: يقول الاستاذ محمد كمال السيد محمد في كتابه: «أسماء ومسميات من مصر القاهرة» (صـــ١٨٤) في الفصل الثاني في الإسماعلية وباب اللوق، وجاردن سيتي:

لمحـــة تاريخـــية: ذكـــرنا في الكلام على «باب الخرق» (باب الخلق) في الفصل الخامس من القسم الأول: أنـــه لما انحسر النيل غرباً في القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢، ١٣م) ظهرت أراضٍ نعرفها في الوقت الحاضر بجهة القصر العيني والمنيرة وجاردن سيتي، وميدان التحرير، وباب اللوق وغيرها، وكان يعبر عنها بأرض اللوق كما ذكرنا المعني اللفظي اللوق، ومنطقة اللوق كانت تغطي مـــساحة عابدين شرقاً إلى مجري النيل الحالي غرباً، ومن حي المنيرة جنوباً إلى موضع شارع (٢٦ يوليو) شمالاً (شارع فؤاد الأول سابقاً).

أم وطأتها ليلاً وقد هدت الأعين فردا آجلا من الجلاب
فاطمأنت للوطء ثم تسنمت وهو فيها جاز حدّ النصاب
/[١٧/أ] بين غنج مستعذب وشهيق ودُنوٌ ملاصق وانقلاب
بات قلبي من وصلها بارد العيش وأيري من فرجها في التهاب
حبذا ليلة السزفاف وقد بات فؤادي من وصلها في ارتقاب
إذ تبدت كالبدر بين نجوم من قيان كواعب أتراب
ولها خشية الرقيب إشارات سلام بخفتها وعتاب
فنظمنا شمل العناق وأهويت إليها في هيئة الدّباب
قال لي زوجها المتّكِل: من قد أتانا؟ وجرني بثيابي
/[١٧/ب] قلت: طباخ ذي الهريسة في العرس وهذا قِدري وذا دكشابي

وما أنسى بنتها الخلفية ذات القامة الألفية التي ما زالت تبدي البكارة بالكارة، وكلما كنت حاولت سلوك ذاك الطريق زلفته إلى خوخة التزليق، وينشد:

شعر:

باب استها دون غشيتي مُغلّق وما إلى سطح فرجها مسلك
جارية ما شممت مبعرها إلاّ وأمسيت ليلتي أنهق
/[١٨/أ] بكر لها بولة ألذ شذاً من ماء ورد لمن به استاشق
يكاد بيض الخصا على حرها بخره عند وطئها يسزلق
ما زلت أحتال في توسيعه وكأنه من خرم إبرة أضيق
حتى غدا باب سُرْمِهَا سَلِسًا يدخل في مثل قولهم يفتق
وصار أيري عموداً بركنها إذا جرى نسيل وطئها خلق

فيقول أطلع إلى غرفتي بالخور، والطالع التور، والنيل في عنفوان الشباب، وقد طوى الأرض طي السجل للكتاب، وكانت أيامي به أيام الوفاء[١]، وإخواني إخوان الصفَا

(١) يقول الأستاذ محمد كمال السيد محمد في كتابه «أسماء ومسميات من مصر القاهرة» في الفصل الثالث: وفاء النيل وجبر الخليج، (صـ٦٢): كان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بوفاء النيل وكسر
=

السد احتفالاً فخماً يليق بهذه المناسبة الدورية الهامة في اقتصاد ورفاهية الدول.

والاحتفال بوفاء النيل من أقدم الأعياد المصرية وكان المصريون القدماء يقدسون النيل ويرفعونه إلى مقام المعبودات مثل: رع، وآمون، وأوزوريس، ومن أوصافه عندهم: رب الرزق الوفير، والد الأديان، وخالق الكائنات، والمحيي، وكان اسمه:

حعبي أي الفيض.

وقيل في تفسير الآية الكريمة: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ في المباراة بين موسى عليه السلام بمعجزاته السماوية وبين سحرة فرعون إنه يوم وفاء النيل وكانوا يرمون للنيل برجل ممتلئ الجسم تظهر عليه ثديا امرأة، وفي بعض الأحيان كانوا يرسمون الماء خارجاً منهما، وأمامه مائدة القرابين عليها الزهور والأسماك والطيور أنواع مختلفة، ومن خلفه كاهن يقدم له رسوم العبادة. فإذا فاض النيل وعمت مياهه الأرض تفرغ الجميع بما فيهم فرعون والأمراء للاحتفال.

وكان على شاطئ النيل من منف إلى أسوان قصور للأمراء وأعيان الدولة ينتقلون إليها في هذه المناسبة، ويبالغون في تهيئتها بفاخر الأثاث، وتزويدها بأشهى الأطعمة لاحتمال أن يشرفهم فرعون بالنزول فيها وكان فرعون والأمراء يستقلون البواخر الكبيرة لرحلة طويلة في النيل على سبيل النزهة، وفرصة لتفقد أحوال الأقاليم.

وكانت سفنهم على درجات وأنواع:

فسفينة فرعون: من أربع طبقات كل طبقة ارتفاعها عشرة أقدام، وكانت مذهبة من الداخل والخارج، ومزينة بصور المعبودات. وكانت سفن الأمراء؛ وحكام المديريات ورؤساء الجيش: من ثلاث طوابق كل طبقة تسعة أقدام، ولم تكن كاملة التذهيب، لتختلف في اللون والأرتفاع عن سفينة فرعون.

وكانت سفن الكهنة والضباط والأعيان: من طبقتين كل طبقة ثمانية أقدام ومزينة بعديد الألوان.

أما سفن الباقين فمن طبقة واحدة مدهونة بلون واحد بسيط.

وكانت أصوات الموسيقي تتجاوب من السفن وأمواج من أفراح الناس تسير فوق أمواج مياه النيل.

وكانوا يترقبون وفاء النيل في شوق وتلهف، فوفاؤه يشير باليسر والرخاء وتخلف الوفاء نذير بالفقر والرمان لمدة عام كامل وظلت هذه عادتهم منذ أقدم العصور.

ولا سند تاريخي لأسطورة عروس النيل التي تحكي أن المصريين القدماء كانوا يلقون في النيل كل عام بنتاً بكراً ليتحقق الوفاء.

فمن الرقي الروحي للمصريين أنهم آمنوا بخلود الروح وأنهم لم يعرفوا القربان البشري في طقوسهم الدينية كباقي الديانات القديمة، ولو كانت الأسطورة صحيحة لظهرت في أوراق البردي أو في النقوش التي حفلت بها جدران المعابد وسجلوا فيها شتى صور الحياة الاجتماعية والتاريخية. وقد انكر اغلب المؤرخين هذه الأسطورة قلت: وأما ما ذكر من أن عمرو بن العاص أرسل إلى عمر

/[١٨/ب] وكنت لا أرد إلاّ سلسبيلا، وكانت الهموم ليس لها إلي قلبي سبيلا، وينشد شعرا:

في منزل حُفَّ بالرياض فما أعدم نوراً به ولا نورا
وكان خوراً تحيا النفوس به وكان سعي إليه مشكورا

فكنت لا أعدم في الاغتباق والاصطباح، والغدو والرواح، مُلْحَةً أستفيدها، أو حرفة أستنقيدها، حتى طمست تلك الأعلام، وقلت على سبيل المنام ورؤيا الأحلام وينشد شعراً:

/[١٩/أ] رأيت في النوم أبا مرة وهو حزين القلب في كسرهْ
وعينه العوراء مقروحة تسيل دمعاً قطرة قطرهْ
يصيح يا ويلاه من حسرتي تلك التي ما مثلها حسرهْ
ومن حوله عصبة فيهم على قلتهم كثرةْ
من علق مثل بدر الدُّجا فمنته في واحد بدرهْ
شمس ضحى بدر دجى وجهه يظله من خلفه شعرهْ
مظفر اللحظ بعشاقه وإنما في جفنه كسرهْ
تقبيله نفسلاً لمن حازه وجوز الليسنة في التمرهْ
يهون بذل المال في وصله طالعه الميزان والزهرهْ
ومن سحور اللحظ فتانة لحسنها شمس الضحى ضرهْ
/[١٩/ب] يحمل ذاك النقش من جسمها ماء نعسيم قام بالقدرهْ

=

ابن الخطاب في شأن هذا الأمر ورد عليه بكتاب ألقاه في النيل فهذه أيضًا من الأساطير، وأما الثابت تاريخياً أن النصاري كانوا يلقون بتابوت في النيل في الثالث من مايو (٨ بشنس) من كل عام فيه أصبع من أصابع الموتي بدلاً من أصبع الشهيد من كنيسة بشبرا كانت أيامها على ضفاف النيل، فأبطل ذلك الصالح صالح بن الناصر سنة (٧٥٥هـ)، ثم هدمت الكنيسة التي كان بها أصبع الشهيد وأحرق الأصبع والصندوق، وذُري رمادها وبطل هذا العيد أو الاحتفال نهائياً من يومها. وكم من الأساطير تحاك نحو هذا الاحتفال والغريب أنها ترد في المساجد والكنائس وليس لها أي حقيقة علمية ولا تاريخية ويصدقها كثير من السذج والبسطاء.

تقول للعشاق ومن معصمي ... تنزهوا في الماء والخضرةْ
إذا رأى عاشقها فرجها ... يود أن ترضعه بظرةْ
وكل قواد له ضرطة من فمه ... يتبعها شخرةْ
يقول للكيفاح[(١)] من خلفه ... إن كان ما يرضى بها بعرةْ
سبحان من ولُد في خدّها النقي ... بياضاً دُس في حمرةْ
يا معشر الناس اغتنموا وصلها ... لا تتركوا الوطء على فشرةْ
وكل لوطي له نهمة على ... سميط اللحم في السفرةْ
إن نسمت في وجهه فسوة ... يقول ما أعطرها نشرةْ
/[٢٠/أ] وكل زنّاءٍ يرى بولة القحبة ... في صحته نشرةْ
وكل بكسر ما لها عذرة ... لكن هواها من بني عذرةْ
سحاقة قد كلكلت بصرها ... وما به من دلكها شعرةْ
وكل خمار على عنقه رقّ ... وفي عاتقه زكرةْ
ومن حشيش سبطل على ... شاربه قد بقّلت خضرةْ
ومن بني حام أخا مزرة ... قد عكر الوقت لو مردةْ
وكل بغساء به أُبنة ... مبادل أبغا من الإبرةْ
وكل جلّاد على خلوة ... عميرة هاجت به غمرةْ
وكل غيار ولص ونطّاط ... وفي تبّانه صُرةْ

---

(١) ربما أراد به الكفيح وهو الزوج، وربما أراد به من يُقَبِّل لأن في لسان العرب الكفيح زوج المرأة والذي يقبل ففي مادة «كفح»: المكافح: المباشر بنفسه... وأكفح الدابة إكفاحاً: تلقي فاها باللجام يضربه به لتلتقمه..
وتقول في التقبيل: كافحها كفاحاً قَبَّلها غفلة. وجاهاً، وكفح المرأة يكفحها وكافحها: قبلها غفلة. وفي الحديث: «إني لأكفحها وأنا صائم»، أي أواجهها بالقبلة.
وكافحته: أي قَبَّلْتُهُ.
وفي حديث أبي هريرة: أنه سُئل: أتُقَبِّل وأنت صائم؟ فقال: نعم وأكفحها، أي أتمكن من تقبيلها واستوفيه من غير اختلاس.

ومن خيالي ومن مطرب … وزامر قد جاد في الزمرهْ
/[٢٠/ب] فقلت يا إبليس من ذا الذي … أسال من مقلتك العبرهْ
وما الذي أزعج اجنادك النوك … وإن كانوا ذوي خبرهْ
فقال لي: يا صاحبي إنني وقعت … في فرج أخت ماكرهْ
قَلَّت جيوشي ورها منصبي … وعدت لا أجر ولا أجرهْ
ومنزل المزمار قفر وقد علته … من ذلته كسرهْ
وبات قلاّ المال في فاقة … وقلبه يقلى على جمرهْ
وكاد أن يسطو الحشيشي … وأن يخرج الخنجر والشفرهْ
ولا تسألني عن بنات الخطا … أكسرهُنّ اليوم في الحجرهْ
يطلبن أزواجاً فلا قحبة منهن … إلا أصبحت حسرهْ
وكل قضيب يرى سكرة الموت … ولا تلقاه في سكرهْ
/[٢١/أ] كم جهد ما أغوى وأغوى … وكم أصفق المفصوص والكُرَّهْ
وكم أرى العينين مكحولة … لمن رمى بالعين والنظرهْ
وكم وكم أسهر الليل في … خدمة العاشق بالليل إلى بكرهْ
وقد كسدت سوق المعاصي … فلا شرب ولا قصف ولا عسرهْ
هذا على أني على غيرتي … أقود لا أجر ولا أُجْرَهْ
فقلت: يا إبليس سافر بنا … وطوّل الغيبة في السُفْرهْ
إياك أن تسكن مصراً … وأن تقّربها إن كنت ذا خبرهْ
فإن فيها ملكاً[١] قاسطاً … لا راحت راياته نُصرَهْ

---

(١) سبق أن بيّن أن ذلك الملك هو الظاهر بيبرس، وقد ترجم له ابن العماد في شذرات الذهب فقال:
الملك الظاهر بيبرس هو السلطان الكبير ركن الدين أبو الفتوح بيبرس التركي البندقداري، ثم الصالحي صاحب مصر والشام، ولد في حدود العشرين وستمائة، واشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي فقبض الملك الصالح على البندقداري، وأخذ ركن الدين منه فكان من جملة مماليكه ثم طلع ركن الدين شجاعاً فارسياً مقداماً إلى أن بهر أمره وبعد صيته وشهد وقعة المنصورة
=

/[٢١/ب] دام قريـر الطـرف في بلده آمـنه تـزهو علـى التـرة

فيحسن بذوي الألباب، ترك هذا الباب والتوبة قبل الثوبة، والاستغفار عند نفاذ المقدورات، والتستر من هذه القاذورات، فإن هذه الدولة قاهرة وآثارها ظاهرة.

ثم يقول: يا طيف الخيال اطلب كاتب التاج بابوج، فإنه فارقني عند الخروج، ولي عنده تواقيع وودائع، وحسابات الفدادين والمزارع. فيناديه طيف الخيال فيخرج على هذا المثال فَيُقَبِّل يد الأمير وصَّال/ [٢٢/أ] فيقول: كيف حالك يا شيخ بابوج؟

فيقول: حال الزمن المفلوج قد اضرت بي البطالة وأنا بذلك في أسوأ حالة، ولولا جاريتك العروسة والراهبات في الكنيسة، وحيائي من السيد اليسوع، لأسلمت، وأنا قربت المرجوع وإلا أموت بالجوع.

فيقول له الأمير وصَّال: إن أسلمت ألبستك خلعة ثنية، واستعملتك عمالا بالوسية[١]، هات قل لي التقليد والشكة والقصيد، فالجماعة متطلعون إلى ما فيها،

بدمياط، ثم كان أميراً في الدولة المعزية وتنقلت به الأحوال وصار من أعيان البحرية وولي السلطنة في سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين، وكان ملكاً سرياً، غازياً مجاهداً مؤيداً عظيم الهيبة خليقاً للملك يضرب بشجاعته المثل له أيام بيض في الإسلام وفتوحات مشهورة، ومواقف مشهودة، ولولا ظلمة وجبروته في بعض الأحايين لعد من الملوك العادلين قاله في العبر.

وقال ابن شهبة في تاريخ الإسلام: توفي بقصره الأبلق بمرجة دمشق جوار الميدان وغسلوه وصبروه وعلقوه في البحيرة إلى أن فرغ من الظاهرية فنقلوه إليها وكان قد أوصي أن يدفن على الطريق وتبني عليه قبة، فابتاع له ولده الملك السعيد دار العقيقي بسبعين ألف درهم وبناها مدرسة للشافعية والحنيفية ونقله إليها ووقف عليها أوقافاً كثيرة.

وفتح بيبرس من البلاد أربعين حصناً كانت مع الفرنج افتتحها بالسيف عنوة انتهي ملخصاً وقال الذهبي: انتقل إلى عفو الله ومغفرته يوم الخميس بعد الظهر الثامن والعشرين من المحرم بقصره بدمشق، وخلف من الأولاد الذكور: الملك السعيد محمد ولي السلطنة وعمره (١٨) سنة والخضر، وسلامش، وسبع بنات ودفن بتربة أنشأها ابنه انتهي.

(١) قوله: واستعملتك عمالاً بالوسية: أي اقطعك أرضاً بعمالها فكلمة الوسية تعارف عليها في الأرياف أو القرى التي تعمل بالزراعة على أنها قطعة الأرض الكبيرة التي يملكها رجل ثري ويقوم على رعايتها وإصلاحها وزراعتها عمال له دائمون عليها.

ويوصف أصحاب هذه الأرض بأنه اثرياء ثراءً فاحشاً يكاد لا يحصي أصحابها ثرواتهم ولا يقدرون على عد ما يملكون عداً دقيقاً فهو يريد أن يقول له لو أسلمت لجعلتك من أثرياء الناس =

ومنتظرون إلى سماع شعرها وقوافيها.

/[٢٢/ب] فيسنادي التاج يابوج الكاتب: يا شركيس، هات الجرمدان والكيس، فيخـــرج الغلام ويضعها بين يديه بعد السلام فيقول طيف الخيال: تحيات الأمير وصال؛ اقرأ من التقليد ولو خمسة أوصال. فيقف المنشود، ويبدأ بقراءته وهو منشور، ويقول:

الحمـــد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، الذي يجزي بالإحسان إحساناً، وبالصبر نجـــاة، وبالعفـــو غفراناً. أحمده حمد من اتضع فارتفع، وأشكره شكراً من رزق كيسا /[٢٣/أ] فانطبع. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن أول ما يبدأ به استجلاب الفرح ويستحضر لسماع النوادر والمِلَح، من يقوم في دفع الهموم. مقام ابنة الكروم، ولما كان الأمير الأجم الأوحد عز الذين فخر البلد والمجانين شُـــفْهُ صُرْم(١) غلام أمير المؤمنين سيف الحسبة، وصَّال المحبة، أطال الله بقاءه وأعطاه من الصفع أوفاه ممن يتجمل بطلعته المجالس، كان جديراً أن تُمَدُّ إليه الأكف والسواعد، وأن يكـــون كالبحـــر /[٢٣/ب] الذي ساحلة للصادر والوارد، ففوضنا إليه أمور السرور، وجعلـــناه أمـــيراً علي مساخرة الجمهور وأضفنا إليه من الولايات، ما يأتي ذكره في هذه الجهـــات، وهي ولاية مصر القديمة، بالتباب مع ما دثر من الجدران الخراب، وشد عمائر الأهـــرام ومـــا يجاورهـــا من التلال والآكام، وشد أحكام القبور، وعداد كلاب القرى والكفـــور، وتفاوت السبخ وصرف النوى والكعاب، وشد كيالة الرمل والحصى والتراب واســـتخراج أوقاف المواخير، وحصر /[٢٤/أ] ما يتكسر من شقف الفواخير، وشد الدَرّ، وصياغ التاريخ واللفت والجزر، فليباشر ما عُدِقَ به، واستخدم بسببه، ولا يدع من الـــبدع المـــضحكة بابـــاً مقفلاً، ولا عملاً من أعمال المسخرة معطّلاً، ولينظر في باب الممازحة، والمداعبة، ويعدل في أجناد الصفع وأنواعه ولا يعدل عن تحرير ضربه وإيقاعه، ولا بعد الصفعة المقببة ولا الثابتة بالمتقلبة، ولا يصفح عن الصفيح، ولا يرضى في الشريح المريح، ولا يتلفظ في ذلك إلا بما يسوغ /[٢٤/ب] ولا يضع اللحمة إلا في النغنوغ،

=

الذين يشار إليهم بالبنان.

(١) هذا الأسم ونحوه من الأسماء التي اخترعها المؤلف من بنات خياله لتتمشى الأسماء مع جملة ما في الكـــتاب من الخيالات والمعقولات واللا معقولات، وليظهر قدرته على اشتقاق الأسماء المضحكة مـــن بـــنات أفكـــاره، وصميم خيالة ليكون الموضوع محبوك الأطراف، مترابط الأوصال متكامل الجوانب سلـــل التناول، لا تمجه الأسماع ولا تمله الطباع.

وعلـــيه بالـــسياط لمن خرج عن حد الضراط، فمن بدل فسوه بدشوه، أو ضرط ضرطة مفشفـــشة رخوة، فليشهره في الميمنة والميسرة، ولو أني بالمقموصة، أو الميزرة، وعليه بالتعال لمن خرج عن رسم البدال.

فمـــن هرب عند انقضاء أَرَبِه فليجدَّ في طلبه، ويأمر ألا ينبطح أحد لعديله، إلا بعد لـــبس كـــم سراويله، ليأمن بذلك من هربه، ومن التعثر في طلبه، ولينظر في أمور القواد، واللاّطـــة والمدكـــسين /[٢٥/أ] والقحاب العاشقات والعجائز المساحقات، ويتفقد أحـــوال المخانثة والزقاقية، والشيوخ القوافية، فمن ترك العبيد السود، واغتنى بإدخال أير من الجلود واندهن بالسمن في نواحي فلسه،، واستعان بالهرة على لحسه، فليسقط اسمه من ديـــوان الـــبغا، ويعتقل مع من بغا[1]. ولينظر في أحوال الصغار الملاح، والصغار الأيور والكـــبار الفقـــاح. فمن كان صغيراً دله منصفاً في فرجه ودخله، كأن أهلاً للإمرة على الملاح بالتقليد، وأن يفتح في الوجادة كل /[٢٥/ب] أقليد.

ولينظـــر فـــيمن يخـــتلف من القوادين والمؤلفين فمن كذب على فاسق أو لها بعاشق، فليؤدبه علـــى هـــذه العادة، ويمحُهُ من ديوان القيادة. ولينظر بعد هذه الأمور في الأنبذة والخمور، فمن قتلها

---

(١) قـــوله: «فمـــن ترك... إلى قوله: مع من بغا» هذا القول يوافق أحوال فساق أهل هذا الزمان وإن كانت قد تطورت الأمور تكنلوجياً وقد أشرت في بعض الكتب السابقة التي قمت بتحقيقها إلى أن هـــناك منتجات جديدة اختصت بهذا الشأن وطالبت العلماء بأن يأصلوا هذه المنتجات ويصدروا بشأنها فتاوي صحيحة غير قابلة للجدل في حلها أو حرمتها ومن هذه المنتجات ما يسمى بالدمية الأنـــثوية وهـــي عروســـة تشبه المرآة تماماً في كل تفاصيل جسمها بما في ذلك بضعها وهي من البلاســـتك اللين يستعملها بعض الشباب أو السجناء أو المغتربون الذين قد تعرضوا للعزبة وكذلك هـــناك أيـــور بلاستك أيضًا أو دمى ذكور يستعملها النساء اللواتي تعرضن للطلاق أو الترمل ولا يسرغبن في الزواج فعلى العلماء أن يصدروا أحكامهم الصحيحة الصريحة في شأن هذه المنتجات المطـــروحة حالياً في السوق ولا يضعوا رؤوسهم في الرمال بدعوى الورع والذي أسميه أنا بالورع الكـــاذب فليصدروا أحكامهم بعد الدراسة الطويلة المتأنية حتى يكون الناس على بصيرة من أمره وعليهم أن يذكروا أسباب إحلالهم أو تحريمهم لهذا المنتج حتى يكون المؤمن على بصيره من دينه ولا يـــشعر أنه في صحراء الحياة دون قائد يقوده ولا دليل يرشده، وحتى يشعر بأن العلماء يواكبون العصر ويسيرون مع الحضارة خطوة بخطرة ولا يتخلفون عنها ويشعر أنهم دائماً إلى جواره يجيبون له عن كل سؤال يعن له أو يشغل باله إجابه شافية كافية يقوم على الدليل والعقل والنقل والبرهان الـــساطع ولندع كلمة فيه خلاف أو فيه أقوال أو فيه وجوه فهذا يحل وذاك يحرم ويصبح المؤمن في حـــيرة فـــيفقد الثقة في مصداقيتهم، ثم يتصرف حسب هواه ثم يكون أشه على من أوتوا علم الكتاب فكتموه.

بالمـــزاج، أو هـــتكها في الـــزجاج أو عـــربد في المقام أو عثر في المدام فليمنعه من تعاطي الكاس ومجالـــسة الـــندماء الأكياس. ولا يغفل في هذه الولاية عن تفتيش الخراب وتعاهد كيسات الكلاب، ويخلـــص بيـــنهم مـــن شبكة التعاضل، ويختص عند النتاج بإخاء / [٢٦/ أ] الفاضل، ويتولى غمد فـــند الغراب، وتجمع زبيب الغنم، وتمر الجمال والكلاب. ويبادر إلى دراسة الترائب، ويحملها نقية مـــن الغلـــت بالجملـــة، إلى طوحين مخابر الجلة، ويحتفظ بما يرمى من دواخل البلح، وقشور البصل، والقوالـــيح العـــصب، حُثاثة الكروش من المسالخ بحيث يجري عليه من الأقطاع صول وششكان، وأم الأنطـــاع، ويقـــرر له فيها من الزبل إردبين، ومن النقد الحاضر / [٢٦/ ب] فلسين وينعم عليه مـــن التـــشريف بقـــباء وبفلطـــاق من ليف، مفري بجلود القناقد الكبار، ويعمم بعمامة من سنج عـــناكب الـــدار، ويمـــنطق بحياصة من جلود الأفاعي، ويُقَدّ له مركوب أدهم من كلاب المراعي، وينـــشر علـــيه لـــسواء مـــن الأدم الأحمر، ويقلد سيفاً من الجريد الأخضر ويقاد إليه من القرود ثلاثة أتـــباع، ومـــن الخراب الخاص ثلاثة ضياع، ويرتب له كل يوم برسم الطبيخ، عشرة أرطال من لحم الميـــتة الـــسيلخ، وصـــحن من حلاوة خبيص البطيخ / [٢٧/ أ] ولا يغفل عن وظيفة من وظائف هذه الإمرة، ولا يركب إلا بالمقارع والدرُة.

وكتب في الخامس والأربعين من جمادى الأوسط، والسلام[١].

فـــيقول طيف الخيال: يا شيخ هذا التقليد، فأين القصيد، التي فيها صرّبَعْر الشاعر[٢]

---

(١) انظـــر إلى مـــبالغات الخيال التي سار في ركبها هذا العالم المتمكن من الضرب في بحور هذا الفن ضـــرباً لا يكاد يجاريه فيه آخر فقد سار سيراً حثيثاً في سرعة سردوكأن الأمر جد الجد، وكأن ما يقـــوله حـــق الحق وكأنه قد شاهده عياناً فهو يحكيه عن واقع وقع وحاصل حصل، فيالعظمة ما أودع الله تعـــالى في الإنسان من قدره على التخيل والحكي وكأن الشيء مرئي رأي العين وشاخص أمـــام السامع شخوص المحسوسات الملموسات المدركات بالحواس المعتادة ولكنه ما هو إلا خيال في خـــيال حـــتى في نهاية المقال نجده يحرر قوله بتاريخ ليس له وجود لا في الشهور ولا في الأيام فأين الخامس والأربعون من الأيام؟ وأين جمادي الأوسط بين الشهور؟

(٢) هـــو: علـــي بن الحسن بن علي بن الفضل أو الفضل البغدادي، الكاتب الشاعر، المشهور بـــ: صُرّبَعْر، وقيل: صُرْدُرّ، وقيل: صُرْدُرّبَعْر جاءت ترجمته في:

ديـــوان الإسلام (ت١٣١٦)، هدية العارفين (١/٦٩١)، الأعلام (٤/٢٧٢)، معجم المؤلفين (٧/ ٦٦)، كـــشف الظـــنون (٧٧٣)، شذرات الذهب (٣/٣٢٢)، وفيات الأعيان (٣/٣٨٥)، دمية القصر (١/٣٠٦)، الكامل في التاريخ (١٠/٨٨)، البداية والنهاية (١٢/١٠٨)، النجوم الزاهرة (٥/ ٩٤)، العـــبر (٣/٢٥٩)، المنتظم (٨/٢٨٠)، قتمة المختصر (١/٥٦٧)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٠٣)، وفيه:

=

الشاعر المغلق، أديب وقته أبو منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل البغدادي الكاتب، ويلقب بصُرَّبَعْر.

صاحب بلاغة وجزالة، ورقة وحلاوة، وباع أطول في الأدب.

سمع أبا الحسين بن بشران، وأبا الحسن بن الحمامي وعنه: أبو سعد الزوزني، وعلي بن عبد السلام وفاطمة بنت الخبري.

قال ابن عبد السلام الكاتب: كان نظام الملك يقول له: أنت صُرَّدَرّ لا صُرَّبَعْر.

وقال ابن البخار: مدح الخليفة القائم، ووزيره أبا القاسم بن المُسلمة، ولم يك في المتأخرين أرق طبعاً منه، مع جزالة وبلاغة.

وقال بعض الأدباء: هو أشعر من مهيار.

وقيل: ظلم أهل شهرابان، وسعى بهم وخلط في دينه.

تقطر به فرسه فهلك في ربيع الأول سنة خمس وستين وأربعمائة.

وقع به الفرس في زُبْيَة للأسد فهلكا معاً وقيل: إنما أبوه لقب بصربعر لبخله.

قال محقق سير الأعلام بالهامش الزبية: حفره تحفر للأسد سميت بذلك لأنهم يحفرونها في موضع عال (انظر وفيات الأعيان ٣/٣٨٦) وقال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في ذكره لأحداث ووفيات سنة (٤٦٥) وفيها أيضاً: توفي علي بن الحسن... وكان نظام الملك قال له: أنت صرّورّ بعر، فبقي عليه وهو من الشعراء المجيدين وهجاه ابن البياض فقال:

لئن نبذ الناس قدماً أباك ... فسموه من شعره صربعرا

فإنك تنشر ما صره ... عقوقاً له وتسميه شعرا

وهذا ظلم من ابن البياض فإنه كان شاعراً محسناً ومن شعر ابن صرور قوله:

تزاورن عن أذرعات يميناً ... نسوا شز ليس يطقن البُرينا

كلفن بنجد كأن الرياض ... أخذن لنجد عليها يمينا

وأقسمن يحملن الأ نحيلاً ... إليه ويبلغن الأ حزينا

فلما استمعن زفير المشوق ... ونوح الحمام تركن الحنينا

إذا جئتما بانه الواديين ... فارخوا النُّسوع وحلوا الوضينا

فثم علائق من أجلهن ... ملاء الدّجى والضحى قد طوينا

وقد آنسباتهم مياه الجفون ... بأن بقلبك داء وفينا

وبنحو هذه الترجمة ترجم له ابن كثير في البداية والنهاية وذكر قول الهاجي له ثم قال:

قال ابن الجوزي: وهذا نظم فاحش فإن شعره في غاية الحسن، ثم أورد له أبياتاً حساناً فمنها:

ببديع الشعر وإن كان عرض بالتعريض.

أفتش الريح عنكم كلما نفحت   مسكاً فأرضكم مسك وأعطارُ

قال: وقد حفظ القرآن الكريم وسمع الحديث من ابن شيران وغيره، وحدث كثيراً، وركب يوماً دابة هو ووالدته فسقطا بالشونيزية جميعًا في بئر فماتا فدفنا ببرر، وذلك في صفر من هذه السنة قال ابن الجوزي: قرأت بخط ابن عقيل صربعر جازنا بالرصافة، وكان ينبذ بالالحاد، وقد أورد له ابن خلكان شيئاً من أشعاره وأثنى عليه في فنه والله أعلم بحاله. وقال ابن العماد في شذرات الذهب في وفيات سنة (٤٦٥) وفيها:

صردر الشاعر صاحب الديوان أبو منصور... أحد نجباء شعراء عصره جمع بين جودة السبك وحسن المعني، وعلي شعره حلاوة رائعة وبهجة فائقة، وله ديوان شعر وهو صغير ما ألطفه قولاً من جملة قصيدة:

فسائل عن شامات بحرري   وباب الرمل يعلم ما عنينا

وقد كشف الغطاء فما نبالي   أصرحنا بذكرك أم كنينا

ألا لله طيف طيف منك يسعي   بكاسات الكري زوراو مينا

مطيته طوال الليل جفني   فكيف شكا إليك وحافينا

فأمسينا كأننا ما افترقنا   وأصبحنا كأننا ما التقينا

وقوله في الشيب:

لم أبك أن أرحل الشباب وإنما   أبكي لأن يقارب الميعاد

شعر الفتي أوراقه فإذا ذوي   جفت علي آثاره الأعواد

وله في جارية سوداء وهو معني حسن:

علقتها سوداء مصقولة   سواد قلبي صفة فيها

ما انكسف البدر علي تمه   ونوره إلا ليحكيها

لأجلها الأزمان أوقاتها   منزوجات بلياليها

وإنما قيل له: صردر، لأن أباه كان يلقب: صر بعر لشحته، فلما نبغ ولده المذكور وأجاد في الشعر قيل: صردر، ونقد هجاه البياض الشاعر فقال: فذكر البيتين المذكورين في المصادر السابقة ثم قال: ولعمري ما أنصف هذا الهاجي فإن شعره بارد وإنما العدو لا يبالي بما يقول، وكانت وفاته في صفر في قرية بطريق خراسان وكانت ولادته قبل الأربعمائة قاله ابن خلكان.

فيقول التاج بابوج: وحق رأس مولانا مالها غيبة، وها هي محفوظة في العيبة، فيخرج القصيد، ويبتدئ بالنشيد ويقول:

/[٢٧/ب] شعر:

إن البلادَ التي أصبحتَ واليها ... أضحت ولا جنة المأوى نواحيها

وعُمرت منك بالعدل العميم ... إلى أن طأت حاضرها وباديها

من بعد ما أصبحت طُرُّ الخراب ... بها على أسافلها تبكي عواليها

كأنها لم تبض فيها ولا فقست فيها ... ولا نبتت فيها خوافيها

فأقفرت بعدما كانت مساكنها ... فبها خرائب قد لد الأسى فيها

هبت رياح دبور في جوانبها ... فكان سقط لواها ألف سافيها

فلم يهرُّ بها كلب ولو ظهرت ... رسومها لعوى فيها عوافيها

وا لهف نفسي عليها يوم زارك ... بها ويا خراب معان في معانيها

من بعدها لم أجد أرضًا أفش ... بها صبابةٌ في ضميري كنت أخفيها

/[٢٨/أ] أنت الشجاع الذي ذاق البراز به ... وكلما حملت جر الفتى فيها

كم نار حرب لدى الهيجاء ما وقدت ... إلا أتيت بساس منك تطفيها

لله رميك واستي قال من بطل ... سهام أي قسِّي أنت مُخْنيها

كم قد خرقت بطون الدراعين بها ... حتى تراقت نفوداً من تراقيها

وعصبة تشرب الأبوال من عطش ... وتأكل الروث جوعاً أنت محييها

/[٢٨/ب] سل ارض حران مذ امسيت ساكنها ... هل جاع صعلوكها أو جاع صوفيها

وفاخرتك جماعات وربما قالت: ... قصير فَرُدُّ القول تَسْفيها

إن قَلَّ طولك فيها في العيان ... فما قد قلّ طولك فيها حين تعطيها

لا تعجلن وكن مسترفقاً ... وخذ المياه بالحكم عدلاً من مجاريها

وإن ركبت إلى حصد الغلال ... ولم تُحصد جميعاً لتقضي حصد باقيها

/[٢٩/أ] عليك بالذرة اجعلها لرأسك ... والأذان لا تستهاون في مراميها

فالتحسن أنت تراه غير مكترث ... إلا بصفعك هو أن رمت تنبيها

خـذها مـدائح مـن يلقاك مبتسماً ليـصبح الحاسـد الغـضبان يطـويها
فأنـت كالـبان أعطافـا مـرنحة لمـن يـشبه إن رام تـشبيها
فهـي الـتي في الـورى إن أنـشدت طـرباً صـدورها عُلمت منها قوافيها

/[٢٩/ب] فـإذا أتى على آخر القصيدة نصحك طيف الخيال، فيستريب الأمير وصـال، فيقول: أي شيء بأن لك من التعريض في هذا القريض؟ فيقول له طيف الخيال: كأن الشاعر صُرّبعر قل ثوابه فساء خطابه.

فيقول الأمير وصال: هذا ظاهر الحال، ولأعملن على انفلاب دسته، اطلبوا لي المقدم شعشاعة هذه الساعة.

فـيأتي المقـدم شعشاعه ومعه صرّبَعْرَ الشاعر يرفل إرفال الأباعر، فينظر إليه الأمير وصـال نظـرة الحنق /[٣٠/أ] وقد كاد من غيظه أن يختنق، فيرتجل معتذراً، وينشد مبتدراً:

أتـوعدني الهـوان فلـيت شـعري أهـذا كـان جائـزة لـشعري
وهـذا كـان مـنك جـزاء مدحي وكـل قـريحتي وعـناء فكـري
فـإن يـك ذا الوعـيد بأخذ روحي كمـا أوعـدتني يـا طـول عمـري
وقالـوا: سـوف تـسقيني سمـوماً يـسيل لهـا خـراي ولـست أدري
/[٣٠/ب] وإلا سـوف ترسفني نبالاً يـشاهد ريـشها مـن نـاب حجري
وتطحـني مـصوصاً بعـد ذبحـي وتأكـل مـن مـصاريني ودبـري
فأرعـد ثم أبـرق في وعـيدي وقـل مـا شـئت مـن نظـم ونثري
وكـن كالتـيس ذا ذنـب وقـرن وكـن كالكلـب ذا نـاب وظفـر
سـتلقي للـذي أعـددت جلـداً ولـو أصـليته نفحـات جَمْـر
/[٣١/أ] فـلا تـك طائشاً كالكُم بها وقـد أغـراه قـول القُـم ليعـري

فـيقول الأمـير وصال: ويك ما قصة هذا المذكور؟ فيقول «صُرّ بعر»: الكُم بها اسـتي»، ملـك من ملوك العجم، تغلب على قلعته شخص يقال له: قفالك بن زربول الخرداقـي، من أهل مدينة العنكذوم، فخرج إليه أهلها ليقاتلوه، فأسرهم فأمر أن تنحت لهم أوتاداً وتدق في أدبارهم ليسيل عليها خراهم ويموتوا.

وكـــن كحرا تلُوك البوزكسي أمير القبط من /[٣١/ب] أكناف مصر، وقد صفوا بهـــا الأعداء جيشاً لطُرطر ابن كل حرب العُدَخْرِي وكانوا أحدثوا فيها أموراً لأمير بلغوه بخَت نصر[١].

(١) بخت نصر هو: بخت نصر أو بختصر أو نبو خذ نصر:
ملك بابل، غزا القدس وخرب بيت المقدس بعد ١٩ سنة من ابتداء حكمة و(٩٩٧) سنة من وفاة موسى عليه السلام (الفضائل الباهرة ١٧١) بخت نصر: جاء اسمه في المصادر الأثرية نبو خذ نصر وهـــو ملك بابل جاء إلى أورشليم بعد أن زالت عنها السيطرة الأشورية، فسلمه حاكم يهوذا فيها يهـــو ياقـــيم المديـــنة (٩٩ ق.م) اهار في بورتر: النهج القويم في التاريخ القديم طبعة بيروت سنة (١٨٨٤) وعـــاش يهـــويا قـــيم منذ ذلك التاريخ عبد النبوخذ نصر، إلا أنه عاد فتمرد بعد ثلاث ســـنوات فأقاله نبوخذنصر، وأقام مقامه ابنه يهوياكين (٥٩٧ ق.م) ثم عاد فأقال هذا أيضًا مع عدد مـــن عظماء قومه إلى بابل وأقام مقامه صدقيا (سفر الملوك الثاني ٢٤-١) ولكن سرعان ما انقض صدقيا على البابليين، عندئذ جرد عليهم نبو خذ نصر جيشاً بقيادة نبوزردان (الطري ٣٨٢/١)، ثم جـــاء هـــو من ورائة فحاصر أورشليم (٥٨٧ ق.م) وذاقت المدينة في هذا الحصار الأمرَّين جوعاً ومرضا إلى أن فضَّل اليهود الهرب، فثلموا السور وهربوا، وكان على رأسهم صدقيا.
لكن البابليين لحقوا بهم وأتوا بهم إلى ملكهم نبو خذ نصر الذي فقأ عين صدقيا وأرسله إلى بابل.
بعدئـــذ نهب نبوخذ نصر أورشليم ودك سورها، ودمر الهيكل الذي بناه سليمان وأجلى شعبها إلى بابل فقتل منهم من قتل واستعبد من لم يقتل.
وهكـــذا انقرضت دوله يهوذا (٥٨٦ ق.م)، اهار في بورتر: النهج القويم في التاريخ القديم وهكذا أصبحت أورشليم مستعمرة بابلية فدفعوا الضرائب لبابل وانتشرت فيها اللغة البابلية التي غدت لغة البلاد الرسمية حتى الفتح الفارسي لأوشليم (٥٣٨ ق.م).
(إتحـــاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى لأبي عبد الله محمد بن شهاب الدين لمحمد بن علي بن عـــبد الخالـــق المنهاجي شمس الدين السيوطي تحقيق د. أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢، ١/١٢٤/ ١٢٥ هامش ١٠) بختصر ملك بابل غزا القدس وخرب بيت المقدس بعد ١٩ سنة ابتداء حكمه، و(٩٩٧) سنة من وفاة موسى عليه السلام.
ويقول ابن ظهر عن بختضر (بخت نصر): ومن الفراعنة أيضًا الذين خربوا الدنيا وغلبوا على مصر «بخت نصر» وهو من قرية من بابل يقال لها «هو» دخل مصر في ستمائة ألف فارس وراجل وهو راكـــب على فرس يشبه الأسد متقلداً سيفاً طوله عشرة أشبار، وعرضه شبر، أخضر النَّصل ينحدر مـــنه شيء يشبه ماء السِّدر، وغمدة من ذهب مرصع بالجواهر والياقوت الأحمر مكتوب عليه هذه الأبيات بالعجمي وفسروها بالعربي، وهي هذه الأبيات شعر:

الـــــشر مـــــصرع لـــــه ســـــطوة	يـــستنـــزل الجـــبار عـــن عرشـــه
وأنـــــت إن لم تـــــسرعْ أو تـــــتقِ	كالمـــيت محمـــولاً علـــى نعـــشه

فيقول الأمير وصال: وما قصة هذا؟

فيقول صربعر: خرا تلوك، أبو دلوكه الملكة كانت بمصر قديماً، وكانت عارفة بالسحر، وأعمال السيميا، فطوراً تطعمك من خراها فتجده حَلْوَى، وطوراً تسقيك من بولها فتجده جَلابا، وكانت تلوك /[٣٢/أ] في دستها فتكون قرداً، وتصير خنزيراً، وكلباً، وتارة تكون حماراً مُصَرَّما. وكانت تنام وتخرى على جنبها فيخرج خراها زبدة.

وكان لها قبة تضرط فيها على سائر الألحان، فقصدها خارجي يقال له: طُرطُر السالحي بن شم شم بن كل خرت العُد خري، فقعد عليها أياماً، فبعثت إليه خرابلوك، ومعه هدايا منها: صنم من نحاس جالس على قصرية من ذهب، كلما مضت من النهار ساعة، ضرط فيها ضرطة قوية عالية يسمعها أهل القصر وفي آخر /[٣٢/ب] النهار يوجد فيها جعص ياقوت وكيس فيه درة من جلد وحش يسمى: سلحي شم، إذا كنت مصدوعاً وصفعت بها زال صداعك في الوقت، فقبل منهم ورحل عنهم.

وفي «تيسا تكون» وكلب كنت   اتأسى لو عقلت لكل حُرِ
وقد جدع أنف فيما تلكّا   ولا نادى لذلك بالبكر

فيقول الأمير وصال: قد فهمنا قصة «دلوكة»، فما قصة «تيسا تكون»؟

فيقول صربعر: «تيسا تكون» /[٣٣/أ] من آل بكر الخرادق، و«كست» أخو

=

لا تنبش الشر فتُبلى به   فقلْ من يسلم من نبشه
إذا طغى الكبش بلحم الكلى   أدرج رأس الكبش في كرْشه
كم من نجا من يد أعدائه   وميت مات على فرشه
من يفتح القُفل بمفتاحه   نجا من التُّهمة في فَتشه
ونابش الموتي له ساعة   يأخذه أنبش من نبشه
لله في قدرته خاتم   تجري المقادير على نقشه

واختلف فيه فقيل: إنه آمن قبل موته.

وقيل: آمن فلم يقبل إيمانه، لما قتل من الأبياد (الفضائل الباهرة في محاسن مصر القاهرة تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس /٩١/٩٢).

راجع الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ٦/٤٦٧.

زوجسته، وكلـــب كنتا» هي زوجة تيسا تكون، فبلغه أن لها عشيقاً يغشاها ليلاً، فدخل عليها الخباء ليلاً في ليلة مظلمة وعندها أخوها كست بشفرة كان أعدها، فلما عرفه ندم علـــى فعله، واعتذر إليه فقبل عذره ودقن كفست إذ سقطت بكاس تنأوله ضحى من مُصٍّ بَعْر، / [٣٣/ ب] فأمسك عنه حلماً حين ألقى السلاح إليه معتذراً بعذره.

فـــيقول الأمـــير وصال: وما كان من دقن كفست؟ فيقول صربعر: دقن كفست رجـــل جبار، وكان عنده رجل عشاب اسمه مُصٍّ بَعْر، وكان عنده حشيشتان تسمى أحـــداهما: ســـلحى كل، والأخرى رَوْثي شُمْ. وكان من خاصية سلحى كل: أنه إذا أكلـــها شـــيخ اسود شعره ولحيته، وروثى شم: من المسهلات التي إذا أكلها الإنسان / [٣٤/ أ] انسهل عليها حتى يموت أو يغشى عليه أو يسقط شعره.

فطلـــب دقـــن فكفســـت من مُصٍّ بَعْر العشاب الحشيشة المسودة وهي سلحى كُل، فانـــبدلت علـــيه بالمـــسهلة، فسقطت دقن كفست، وانسهل عليها، فقال له: ما هذا؟ فاعترف بخطئه فعفا عنه:

وإذا صـــفعوا قفـــاً لـــك أهل دلّي   علـــى لحـــية كـــبال صـــفاع غَدْرِ
فاغـــضي عـــنهم كـــرما وحلمـــاً   وكـــان بـــسيفه الهامـــات يفـــري

/ [٣٤/ ب] فـــيقول الأمير وصال: ما قصة هذا؟ فيقول صُرّ بَعْر: هو قفالك بن رزبول الكم بها استي، دخل إلى مدينة دَلّي متنكراً لحاجة له، وكان رجلاً جليلاً فشبهوه برجل كان يؤذيهم، فصفعوه على تل يقال له: لحية كبال فما آخذهم، وعفا عنهم:

وأم خـــرادق العـــذراء لمـــا   رآهـــا العقطـــريا غيْـــر بِكْـــرِ
وقـــد ضـــرط الجـــنين لكاهنـــيهم   ضُـــحى في جـــوفها بُـــرقاً ويـــسِحرِ
/[٣٥/أ] فأســـبل ذيلـــه ستر عليها   وقـــد كـــادت تبـــيت بغـــير ســـتر

فـــيقول الأمير وصال: وما قصة هؤلاء المذكورين؟ فيقول صُرّ بَعْر: هذه أم خرادق كانت راهبة في دير الحبيس، العق طريّا السرياني، وجدها حبلى، فاختلف الرهبان عليها، وأحضروا لها كاهنين يقال لأحدهما: مرقورا، والآخر جعصي مُصّ.

فوضـــع أحدهما يده على بطنها وهو يقول: بلغته ليعلم هل هي حبلى أم لا؟ فضرط الجـــنين في جوفها فستروا/ [٣٥/ ب] أمرها، فكان الذي افتضها يسمى بابوج من دير شم قلاليط فزوجوه بها ستراً لها:

ومسلمة الوجيه العق سلاحي لندمان أتساه بالتخري

فيقول الأمير وصال: وما قصة المذكور؟ فيقول صُرّ بعر: هذا الوجيه العق سلاحي من بلدة تسمى: العق سلاح من بلاد اصفع كنا المتاخمة لسبس. كان جباراً عاتياً، وله نديم من بلاد أصفع كنا / [٣٦/أ] يسمى الكم بما استي، من أكاريد جبل سُف خُف، فاصطبحا يوماً، فقال: أريد اليوم أسمع ما لا سمعته، وآكل ما لا أكلته، وارى ما لا رأيته. فقال له نديمه الكم بما استي: لي الأمان وأفعل ذلك؟ فأمنه. فقال له: شواربك في استي يا قواد، فهذا ما لا سمعته.

ثم كشف عن فقحته[1]، فقال: أبصر وجهك في هذه المرآة، فهذا ما لا رأيته.

ثم خري بين يديه فقال: كل خراي فهذا ما لا أكلته. فضحك حتى وقع على الأرض وبال/ [٣٦/ ب] عليها وعفا عنه. فيقول الأمير وصال: العفو عن هفوات النديم من شيم الكريم.

ثم يقول الأمير وصال: رب بيان بسط عذراً. وإن من البيان لسحراً والعفو عن الخلائق، يوجب عفو الخالق، والقول السليم آفته من الذهن السقيم.

وأفواه الشعراء تمج الشهد وفيها إبر النحل وطالما أفضت إلى الحقد والدجل والبدايا، والقرايح مرايا يستطيع فيها ما يقابلها من المزايا.

والأفكار جمر يتوقد لا يخبو إلاّ إذا خفا ضوْءُ الفرقد[2]، / [٣٧/أ] يفوح بما تلقيه

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب في مادة «فقح»:

والفقحة معروفة، قيل: هي حلقة الدبر وقيل: الدبر الواسع، وقيل: هي الدبر بجمعها، ثم كثر حتى سمي كل دبر فقحه، قال جرير:

ولو وضعت فِقَاحُ بن نُمَيْرٍ على خبث الحديد إذا لذابا

(٢) الفرقد هو نجم من نجوم السماء اللامعة، ويقول ابن منظور في لسان العرب (ص:٣٤٠٢):

والفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان ولكنهما يطوفان بالجدي.

وقيل: هما كوكبان قريبان من القطب.

وقيل: هما كوكبان بنات تعيش الصغري، يقال: لأبكينك الفرقدين (حكاه اللحياني عن الكسائي) أي طول طلوعهما.

قال: وكذلك النجوم كلها تنتصب على الظُرف كقولك: لأبكينك الشمس والقمر، والنسر الواقع، كل هذا يقيمون فيه الأسماء مقام الظروف.

قال ابن سيدة: وعندي أنهم يريدون طول طلوعها فيحذفون اختصاراً واتساعاً.

=

فيه، فإن كان طيباً فيا طيب قوافيه.

قـــل للتاج بابوج: لا بد ما أقطع لسانه بالعطا وأغطي فاه من الصلات باسبغ غطا وأكتب له على أبواب البهاء الصير في بما يكتفي فما أنا بحمد الله بخيل، وكل ساعة عليه أحيل. فَيُقَبِّل صُرّ بعر الشاعر قدميه وينصرف بعد السلام عليه.

ثم يقول الأمير وصال: يا أخي يا طيف الخيال، قد عزمت على ترك مسائل الخلاعة، والتوبة لله مخلصاً، والعمل لله بعمل السنة والجماعة، فقد دنا الرحيل/ [٣٧/ ب] ولم يبق إلا القليل وأنا أستغفر الله من القنوط، والعمل بعمل قوم لوط، وقد صممت على الزواج، والنـــسل وطلب النتاج، فاطلب لي أم رشيد. إن كانت كالتي تخرج بالليل خاطبه، لكنها تعرف كل عاهرة، وكل مليحة بمصر والقاهرة؛ لأنها تخرجهن من الحمامات متنكرات في ملاحف الخدامات، وتضمن القحاب المكبوسات من الحجرة، وتحليهن بالحلي والثياب بـــلا أجـــرة، أقـــود مـــن مقود، وأجمع من مَسْرد، اقود من القُرط للأذن / [٣٨/ أ] بالفُسْطَاط، وأجمع للأسين من مسمار مقص الخياط، وهي مع هذا تتلطف بقلوب العشاق ولا تبـــيع الـــوطء إلا على الذوّاق، ولا تخلف في وعد، ولا تماكس في نقد، ما شهدت مـــشربة تعرضت فيها لسيلان السمع، ولا فتشت مناديل الجمع، ولا تضم المسموم من حـــول البواطـــي، ولا تنـــشب بحم الزبادي ولا تجمع ما تروق من الدَّرادي، ولا تبذل ســـرموجة عتـــيقه بجديدة، ولا تتحكم في ثياب الخرقاء تحكم القعيدة، وأكثر الأوقات تطـــوف / [٣٨/ ب] علـــى الحرائر في الدور، وتبيع الخام والمقصور، وأصناف الطيب والبخور، وتسلف بالدين وتواعد إلى يوم الخميس والإثنين، ولا تماكس في جَدْر، ولا تأتي المـــيعاد ولـــو كانـــت ليلة القدر، هذا وجيها لا يخلو من البانة، والزجاجة، والخمرة، والإسفيداج وجوزة مغربية وخطاط وجسارة برسم الأباط، وصوفة مطيبة، وأدهان مرطبة وحُسن يوصف، ودلوك، وبرمكية، ومكتومة وبنفسجية، وهي من الخفاف اللطاف، يقبل

=

وقد قالوا فيهما: الفراقد، كأنهم جعلوا كل جزء منها فرقداً، قال:

لقـــد طـــال ياسوداء منك المواعد.. دون الجدا المأمول منك الفراقد قال: وربما قالت العرب لهما الفرقد، قال لبيد:

خالـــف الفـــرقد شـــرباً في الهـــوي   خُلّـــــةً باقـــــية دون الخلـــــل

/[٣٩/أ] الأرض إبلسيس بين يديها كل يوم، ولا ينبهها غيره من النوم، فاجمعوا شملي بشملها، وصلوا حبلي بحبلها(١).

فينادي رسيل الخيال: يا أم رشيد، يا ست العبيد، فتخرج العجوز وتقول: مُسِّيتُم بالسعادة، ولا زلتم بخير والخير عادة، يا أولادي لا بليتم بالكبر وثقل السمع وضعف البصر، من هذا الذي طلبني في ليلي الدامس، والدرب مغلق والطرف ناعس، وأزعجني والنجوم راكدة وكل صبية مع عشيقها راقدة؟ /[٣٩/ب] فيقول طيف الخيال: طلبك الأمير وصّال الذي رُبِّيَ في النعيم والدّلال.

فيقول الأمير وصّال: يا خالتي أم رشيد، كيف نعم الله عليك؟ وما طلبتك إلاّ لتزوجيني، وإلى غيرك لا تحوجيني، وأريد هذه العروسة تكون دُرِّيَّة اللون، حسنة الكون، ملفوفة البدن، لا رقيقة ولا مفرطة في السِّمَن، أسيلة الخد قائمة النهد(٢)، وينشد:

---

(١) لقد وصف هذه القوادة وصفاً جمع فيه لها أوصاف الحسن والذم، والمدح والقدح والزين والشين ما فاق الوصف وعجز عن ذكر مثله أغلب الوصاف، وطاف فيها بخياله أيما مطاف فرفع من شأنها في المعرفة بالخير والشر رفعاً جعلها في الصدارة في كلاهما فهي تعرف القبح جيداً كما تعرف الجمال وتعرف الصلاح كاملاً كما تعرف الفساد ودروبه الملتوية المتشعبة وتعرف ما يفضله العُبَّاد وتصبح وتمسي مع مُغُور العباد، فقد أحسن في وصفها بخياله وطلب منها ما يروق من شأنها لحاله.

(٢) يريد بقوله: درية اللون هي البهية المبهجة ذات اللون الأبيض المشرب بحمرة التي إذا نظرت إليها أخذت بلبك لوضاءتها. وحَسِنَةَ الكون: أي متناسقة الأعضاء فما يجب أن يكون منها دقيقاً كالحاجب والأنف والشفاه كان دقيقاً، وما يجب أن يكون فخماً أو عظيماً منها كان عظيماً كالنهود والأرداف، وكان يجب أن يكون ضامرًا منها كان ضامراً كالبطن وما يجب أن يكون مختصراً منها كان مختصراً كالخصر أو الوسط إلى آخر تلك الأوصاف.

ثم أجمل الوصف فقال: ملفونة البدن لا رقيقة ولا مفرطة في السِّمَن.

ثم عاد يؤكد على الحسن والجمال فركز على مواطنة الظاهرة، فقال أسيلة الخد قائمة النهد وأسيلة الخد هي ذات الخد الوضيء الأبيض الناعم الأملس المستوي اللين السهل.، وقد قال ابن منظور في مادة «أسل»: والأسيل: الأملس المستوي، وقد أَسُلَ أسالَة، وأَسُلَ خَدُّهُ أَسَالَةً: امْلَسَ وأطال، وخد أسيل: وهو السهل اللين... وقال أبو زيد: من الخدود الأسِيلُ وهو السهل اللين الدقيق المستوي، والمسنون اللطيف الدقيق الأنف.

ورجل أسيل الخد إذا كان لين الخد طويله، وكل مسترسل أسيل وقد أَسُلَ بالضم أساله، في صفة صلى الله عليه وسلم: كان أسيل الخَدّ، وقال ابن الأثير: الأَسَالَةَ في الخد الاستطالة وإلاّ يكون مرتفع الوجنة.

-

/[٤٠/أ]بيضاء مصقولة الخدين ناعمة كأنها اللؤلؤ في الخد مكنون
حسن جرى قلم الباري فأبدعه خطًا تحار لرؤياه الدواوين
فقدها ألفٌ حسنها ومبسمها ميم وحاجبها في شكله نون
وصُدْغها عطفه واو ومقلتها صاد وطفولتها من صدغها شين
راشت لواحظها نبلا فحاجبها قوس على أنه بالموت مقرون
/[٤٠/ب] فالخدّ وصدغ إذ يبدوا آس وورد وريحان ونسرين
والغصن يعهد في البستان مفرسه وهذه غصن فيه بساتين

إلا أن هذه الصبية نفرت من زوجها الأول من ألم الافتضاض[١]، وداواها الأوائل بدواء مضاض، وكانت بسلامتها قد ألفت السحاق، وتعلمت من دار معلمتها أم إسحاق، وهي والعهد معذورة إذا نفرت من البعل، ووضعت النَّعْل على النَّعْل، لأني كنت/ [٤١/ أ] في أيام الشبيبة أعاني العطف والطيبة، معدومة من النساء الظراف، والمساحقات الخفاف، دلالة فراكة حكاكة، أطيب اللخالخ، في الأحقاف اليمنية، وأنقع حب السفرجل[٢] في السكارج الصينية، وأقاوم بالزيتون الثعابين، وما كنت أساحق إلاّ

=

وقائمة النهد معرف.

(١) تسبب هذه الطريقة للزوجة ألماً مبرحاً وربما جعلتها تكره العشرة الزوجية أو اللقاء الشرعي بين الزوج وزوجته طيلة حياتها، فإن كثيراً من الناس لا يفهم أن هذه الطريقة عندما تكون هي بداية العلاقة الجنسية التي كانت تنتظرها العروس وتتمناها منذ بلوغها إلى أن زفت إلى زوجها الجاهل وكانت تبني عليها أحلاماً وآمالاً إذا بها تخيب كل آمالها بل تفاجأ بأنها أقسى وأسوأ ما لاقت في حياتها مما يسبب لها صدمة العلاقة بأكثر مما كانت تتمناها مئات المرات، إن الافتضاض بالإصبع اعتداء سافر، ووحشي على أنوثة الأنثى وأجرام شديد في حقها وهدر لكرامتها وإنسانيتها فمن منا يقبل أن يضع أحدنا أصبعه في عينه فيفقأها، ثم هو يصيح ويشكره؟!
لكن واقعيين هذا مثل هذا بلا شك، ولكن الأمر لا يقع علينا، نحن معشر الرجال ولو كان الأمر واقع علينا لكان لنا معه وفيه شأن آخر، لو شعرنا بشيء مما تشعر به المرآة عندما يفعل بها هذا لأقمنا المحاكم في كل الدنيا لمن يفعل ذلك، إن افتضاض المرآة بالأصبع من أبشع ما تتعرض له الأنثى من المآسي في أول حياتها الجنسية والزوجية مما يترك في نفسها هذا الأثر السيء الذي أشار إليه المؤلف هنا وإن مثل هذا الأمر تكتب فيه الكتب ولكن لا حياة لمن تنادي؟

(٢) قال د/ عويضة في الموسوعة الغذائية (ص١٩٣) السفرجل: إن أقرب الفواكه إلى الكمثرى هو السفرجل الذي يعتبر إحدى الفواكه الصيفية المشهورة ولكن صعوبة مضغه تجعله أقل حظًا في
=

بدهن البان، ولمن أقول بسلامتي من فحول الأزواج، والحبل والنتاج وأن أرضع / [٤١ / ب] من الويل وهزي لمهده طول الليل، محرومة من طول نومي ونعاسي وقصرية الخرا عند رأسي، ويتعلق المرضع بمقانعي ويديه بالزفرة، ويدس أصابعه في أنفي وهي ملوثة بالقذرة، وإذا خرجت من الحمام، وأنا نظيفة اللباس، خبطني الزوج بذاك المهراس، فأبيت في شدة من وجع الأحشاء، لا أقدر أتنفس، ولا أتجشأ، بعد مكابدة شواربة الطوال ومقاسات شعر صدره، الذي هو في خشونته كشعر البغال، واليوم يعزّ علي وقد دَثَرَ / [٤٢ / أ] الكِبرُ(١) أساتي، واشتعل الشيب برأسي، ووهن عظمي وزاد من السمن شحمي ولحمي، وانقطع من الرجال أملي وامتنع من أمُني، وأصبحت لا خلفي ولا قدامي(٢) إلا

=

التناول من الكمثري والتفاح.

وأصل السفرجل من جنوب أوروبا، وهو من أعظم المحصولات في جنوب فرنسا وهو نبات شجري سكرية قابضة يحضر من عصيرها شراب يضاف إلى الأدوية القابضة لتحليتها.

وبذوره غروية يحضر منها مطبوخات تستعمل موضعياً مرخية محللة، وتدخل في أنواع الفطرة ويصنع منها في فرنسا مادة لتثبيت الشعر.

ويوصف السفرجل كدواء لتقوية القلب وانعاشه وللمصابين بسل الصدر، والأمعاء، والنزيف المعوي والمعدي.

ويفضل أن يستفاد منه كمنقوع بدلاً من الاستفادة منه مباشرة كثمر، فإن منقوع السفرجل المغلي يصلح شراباً مقوياً في حالات الهضم الصعبة، وللإسهال الناشيء عن وهن الأمعاء.

وذكره الحكيم داود في تذكرته فقال:

شجر معروف منابته بالشام والروم وهو قدر شجر التفاح إلا أنه أعرض ورقاً وأغلظ واعقد عوداً، وثمره يكون في حجم الرمان فأصفر عله خمل كالغبار يلزمه غالباً، وأجوده الكبير الهش الحلو الكثير الماء.

وهو يذهب الوساوس والكسل وسقوط الشهوة والخفقان، وضعف الكبد واليرقان.

إذا أضيف إليه زهرة وشوي فإنه على الجوع قابض، وعلي الشبع مسهل لشدة عصره المعدة، وأن ضمدت به الأورام حللها ويسكن العطش وحرقة البول ويطيب رائحة العرق.

(١) قال ابن منظور في اللسان مادة دثر: دَثَرَ الرجل: إذا عَلَتْهُ كَبْرَةٌ واستسنان.

قلت: والمراد أن الكبر زادها لحماً وشحماً حتى أن إليتاها صارتا كبيرتين حتى أنهما ليعجزانها عن القيام.

(٢) هذه مغالطة كبرى تذكر فيها أن السحاق أفضل من الزواج وامتع ومن يقول هذا غير مغالط مخادع كذاب مفتر مخالف للفطر مزين للباطل ومنكر للحق ومتعامي عن سبيل الهدي والرشاد، إذا كيف يقوم الكون بالنساء بعضهن مع بعض فمن أين يأتي النسل، وإذ هي تخالف الفطره فتعكس

=

أن هذه الصبية- ذكرت بالخير، تتمنى لو كانت قالياً للأير، أو كموسى البلاّن[1] كل ساعة على شعرة جديدة لا تفارق حُسَيْنَتَهَا، تصب على سعيدة.

فيقول الأمير وصال: مثلك من لا يرضى عليَّ بردي، فيقول: إي والله يا ولدي وإذا وقع التراضي، فلابد من الولي والقاضي،/ [٤٢/ ب] فإن شئت بلا قاض وتضحك على العادة، فعرضه بالقيادة.

فيقول الأمير وصال: قد عزمت متوكلاً فبارك الله لي كما بارك لي في الأولى، وهذا الوقت اتصال محمود، فلابد من إحضار العاقد والشهود، فيبتدئ ويقول العاقد: الحمد لله ساتر العيوب، وعالم الغيوب، ومفرج الكروب، المؤلف بين القلوب، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمـــدا عـــبده ورسوله الصادق المحبوب صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة الوجوب/ [٤٣/ أ] وهادي الأمة وكاشف الغمة، الذي سن النكاح، ودعا إلى الفلاح.

وبعد:

فـــإن النكاح والوصل سبب الخلود والذكر، ببقاء النسل، وهو العاصم من الأوزار، والدخـــول إلى النار، نتاجه الأولاد، السادة الأنجاد يعمرون الديار، وينصرون بالإكثار،

=

مـــزايا الولد وتجعلها رزائل في حين أننا جميعاً نري المرأة التي لم يرزقها الله تعالى بنعمة الولد يكاد يطيش صوابها فمنهن من تلجأ إلى الحيل الكفرية للحصول عليه ظانة أنها من سبل الانجاب، وهذه تقول إن الانجاب بلية ورزية وهم وغم ما بعده هم، وقذاره، وأرق، وتصف الرجل ووطأه للمرأة بمـــا لا يحسن وصفه حتى أنها تصل به إلى درجة الحمير والبغال، فهل هو قول مقبول أو معقول، كـــيف وهـــن يغـــوين الرجال بل وهن في الغالب اللواتي يراودن الرجال عن أنفسهن بالحركات والكلمـــات والأمـــوال وعـــندنا أكبر مثال على ذلك زوجة العزيز الجميلة الثرية صاحبة السلطة، ويوســـف علـــيه السلام الصغير، الفقير، الخادم، من راود الآخر عن نفسه، أنها مغالطة تغالط بها الســـذج وتخـــدع بها أنفسها وتريد أن تخدع الأخريات ليهلكن معها عافانا الله وإياكم من الهوي والـــشطط، وهـــا هـــي في آخر الأمر نراها قد فقدت الاثنين معاً فلا هي زوجه ولا هي تجد من تساحقها.

(١) موســـى البلاّن: يقصد موسى الحلاّق يريد أنه تعرف في آخر المطاف بالخطأ التي وقعت فيه، ثم هي لا تتوب مما ابتليت به بل تود لو أنه دام لها حظها وجمالها وأنه كانت استمتعت به مع الرجال ولكن ليس ككل النساء بل تريد أن تكون في كل ساعة مع رجل غير سابقه، فهي في كل الحالات فاســـدة الـــرأي والعقل والعمل، إذ لا يصح إلا الصحيح والصحيح هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي الزواج الحلال المباح المُقِرّ للأحوال والأوضاع.

ويدرك بهم الثأر، ويقال لهم العثار[١].

والزوجة المباركة: هي الحافظة للفعال، والجامعة للمال، والمعدّة لحسن المآل، والموطّدَة للطعام والممهدة للمنام، وهي مشتكى /[٤٣/ب] الأحزان، ومستودع الأسرار والإعلان، والمساعدة على الأغراض، والمعللة للأمراض، والخليلة الصاحبة والنائحة النادية، والمسامرة الضجيعة، والمطية المطيعة[٢].

---

(١) يبين أن النكاح أي الزواج هو الوسيلة الوحيدة التي تتبع لاستمرار ذكر الإنسان واتصال نسبة السليم العفيف الشريف الذي يفتخر به ولا يخجل منه يوماً من الأيام، وهو الوسيلة الوحيدة لبقاء النسل متسلسل الاتصال معروف الرحم والقربي والأعمام والأخوال والأصهار.
والنكاح أي الزواج هو العاصم الوحيد للإنسان من الوقوع في المعاصي التي تجعله يتحمل من الآثام ما يوجب عليه العقاب في الدنيا بالخزي والعار والشنار، وفي الآخرة بدخول النار وغضب الرب الجبار.
والزواج له نتاج محبوب مقبول، بهجة النفوس ومذهب للعبوس، ومفرج للقلوب، وقرة للعيون، وبغير الزواج لن يكون هناك ولد يفتخر به بل يتهرب منه، يذل به والده وتهان به والدته لا يواجه به مجتمع مستقيم إلا رفضه ومجه، وحقره وحقر من كان سبباً فيه وذمه وذم والديه، وتبرأ منه كما تبرأ منه والداه من قبل المجتمع.
والزواج المستقيم ينجب السادة الأبطال الأحرار الأخيار يعمرون الكون ويعملون الفضيلة ويحاربون الرذيلة وينافحون عن الديار، ويردون كل غاصب غدار أو غاز متجرئ على الجوار، ويجدعون أنف من جار وكلما كان عددهم أكثر هابهم الأعداد ونقوي بهم الأنصار وشرف بهم الصهار، وكثر فيهم الخير وأهل الاستشهار.
وبهم يدرك الثأر الذي كان لك على عدوك فيردُّون إليك ما سلب منك بالقوة يوم ضعفك وترد الحقوق إلى أربابها وأصحابها ويعود الحق إلى نصابه ويقف الباطل بعيداً عن بابه، ويظل دائماً يهابه، ولا يفكر في اغتصابه.
وعلى هذا وذاك هم العترة أي ولد الولد، والأسباط، ويقال في المثل العامي: أعز الولد ولد الولد.
فلماذا يحرم المرء نفسه هذه النعم يترك الزواج الحلال، ويهدر ماءه فيما لا يعود عليه بفائدة ويعرضه للعار، وغضب الجبار؟

(٢) هذا الذي يعدده جانب من جوانب فوائد الزواج والزوجة المباركة لكن فوائد ومزايا وفضائل المرأة الصالحة المباركة لا تعد ولا تحصى فهي من نعم الله تعالى التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ فهي نعمة واحدة من نعم الله تعالى التي لا يمكن أن يعد الإنسان فضائلها ولا جوانب الخير فيها فمهما قلت في فضل الزوجة فلن آتي هذا الفضل وهذه النعمة حقها وقد فسر بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فقال: بأن حسنة الدنيا هي الزوجة الصالحة.

وهذا الأمير وصال مشكور الخصال، قد رغب في الاتصال بالبنت المصونة، والدرة المكنونة، ضبة بنت مفتاح، على ما أصدقها في هذا النكاح، وهي مائة معجلة، وأربعة مؤجلة.

قـــال: قبلت هذا النكاح بهذا الصداق عصمك الله تعالى من الفراق والطلاق. فيقول /[٤٤/أ] قبلت، ولبئس ما عملت. فعندها تطلق أم رشيد البخور، وترش الماورد على الحضور.

فيقول الأمير وصال: لا بد من تدبير المال، وتجهيز الحال، على أني الليلة أجوع من زنبور[1]، وأفلس من طنبور. وينشد:

انظـــر جعلها هي حسنة الدنيا كلها فقد فضلها على المال وعلى الأولاد وعلى الصحة، وعلى كل شيء بعد الدين، نعم معه حق ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو متجاهل لحق المرأة أو الزوجة، وصدق من قال: هن مصابيح البيوت بل أقول: إن صلحن فهن مصابيح الدنيا.

(١) قال الدميري في حياة الحيوان في الزنبور: الذنبور: الدبر، وهي تؤنث، والزبابير لغة فيها. وربما سميت النحلة زنبوراً، والجمع زنابير. قال ابن قالوية في كتاب «ليس»: ليس أحد سمعته يذكر كلمة «الزنبور» إلاّ أبا عمرو الزاهد فإنه قال: كنيته أبو علي. وهو صنفان: جبلي وسهلي.
فالجبـــالي: يأوي الجبال، ويعش في الشجر، ولونه إلى السواد، وبدء خلقه رودة، ثم يصير كذلك، ويـــتخذ بـــيوتاً من تراب كبيوت النحل، ويجعل لبيته أربعة أبواب لمهب الرياح الأربع، وله حمة يلـــسع بها، وغذاؤه من الثمار والأزهار، ويتميز ذكورها بكبر الجثة. والسهلي: لونه أحمر، ويتخذ عـــشه تحـــت الأرض ويخرج منه التراب كما يفعل النمل، ويختفي في الشتاء؛ لأنه متى ظهر فيه هلك، فهو ينام من البرد طول الشتاء كالميتة.
ولا يدخـــر القـــوت للـــشتاء بخلاف النمل، فإذا جاء الربيع، وقد صارت الزنابير من البرد وعدم القوت كالخشب اليابس نفخ الله تعالى في تلك الجثث الحياة فتعيش مثل العام الأول، وذلك دأبها.
ومن هذا النوع صنف مختلف اللون مستطيل الجسد في طبعه الحرص والشره يطلب المطابخ ويأكل ما فيها من اللحوم، ويطير منفرداً ويسكن بطن الأرض والجدران.
وهـــذا الحـــيوان بأسره مقسوم من وسطه، ولذلك فهو لا يتنفس من جوفه ألبتة، ومتى غمس في الـــدهن ســـكنت حركته، وإنما ذلك لضيق منافذه، فإذا طرح في الخل عاش وطار... وقد أجاد الشيخ زهير الدين بن عسكر قاضي السلامية بقوله:

في زخـــرف القـــول تـــزيين لـــباطله ... والحـــق قـــد يعتـــريه ســـوء تغـــيير
تقـــول: هـــذا مجـــاج الـــنحل تمدحـــه ... وإن ذممـــت فقـــل: قـــيء الـــزنابير
مـــدحاً وذمـــاً ومـــا غـــيرت مـــن صفة ... ســـحر البـــيان يـــري الظلمـــاء كالنور

أمسيت أفلس من يروح ويغتدي ... ما في يدي من فاقتي إلا يدي
وفي منزلي لم يحو حيري قاعداً ... فإذا أرقدت رقدت غير مُمَدَّد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة ... ومخدة كانت /[٤٤/ب] لأم المهتدي
ملقى على طراحة محشوة قملاً ... شبيه السمسم المتَبَدِّدِ
والبق أمثال الصراصير خلفه ... من منهم في حشوها أو منجدِ
يجعلن جسمي وارماً فتخاله ... من قرصهن به كلون المُجَلَّدِ
وترى براغيثاً بجسمي علقت ... مثل المحاجم في المساء وفي الغد
وكذا البعوض يطير بريشه ... فإذا تمكن/[٤٥/أ] فوق عرق بقصد
والفار يركض كالخيول تسابقت ... من كل جرداء الأديم وأجرد
يأكلن أخشاب السقوف شبية ... فارات السنجارة إذ حُدِدْنَ بمرد
وترى الخنافس كالزنوج تصففت ... من كل سود أدهمي أسود
دهم إذا طردت أرتك لجاجة ... في طردها، والويل إن لم تطرد
ولربما اقترنت بصفر عقارب ... قتالة مثل/[٤٥/ب] الحمام الرُكَّدِ
ويقيم لي عند المساء زبانها ... فأراه وهو كإصبع المتشهد
هذا وكم من ناشر طاوي الحشا ... يبدو شبيه القاتل المتسود
وكذلك الجردون صوت مثله ... في مسمعي صوت الزناد المصلد
وكأن نسج العنكبوت وبيته ... شعرية من فوق مقلة أرمد
وكأنما الزنبور البس حُلَّة ... موشية أعلامها/[٤٦/أ] بالمسجد
وإذا رأى الخفاش ضوء ذُبَالَة ... عندي أضر بضوئها المتوقد
حشرات بيتي لو تلقت عسكراً ... ولو على الأعقاب غير مُرَدَّدِي

قلت: ويبدو أن المثل المراد به أنه أجوع من زنبور لأنه يعيش الشتاء كله بلا طعام، وأفلس من طنبور حيث أنه لا يختزن طعاماً كالنمل.

هـذا ولي ثـوب تـراه مـرقعاً ... مـن كـل لـون مـثل ريـش الهدهدِ
لـولا الـشقاوة مـا ولـدت وليتني ... إذ كـان حظـي هكـذا لم أولـدِ
ولكـيف أرضـى بالحـياة وليـتني ... اسمو وحظي في/[٤٦/ب]الحضيض الأوهد[١]

(١) ما أظرف هذا الشاعر وأجمله وإن كان ينعي حظه بهذا الأسلوب الجميل الجذاب ويصف بيته بهذه الأوصاف المهلكة الظريفة الوصف، لله در نصر الدين الحمامي المصري المتوفى سنة (٧١٢) هـ وقد وصف بيته ذاماً له كصحبنا هذا فقال:

دار خـراب بهـا قـد نـزلتُ ... ولكـن نـزلت إلى الـسابعة
طـريق مـن الطـرق مـسلوكة ... محجـتها للـورى شاسـعة
فـلا فـرق مـا بـين أني أكـون ... بهـا أو أكـون علـى القارعـة
تـساورها هفـوات النـسيم ... فتـصغي بـلا أذن سـامعة
وأخـشى بهـا أن أقـيم الـصلاة ... فتـسجد حـيطانها الـراكعة
إذا مـا قـرأت: (إذا زلـزلت) ... خـشيت بـأن تقـرأ (الـواقعة)

وعلى غرار هذا الشعر قول علي بن محمود المبارك المتوفى سنة (٦٩٢) هـ إذ يقول في ذم داره:

دار سـكنت بهـا أقـل صـفاتها ... أن تكثـر الحـشرات في جنـباتها
الخـير عـنها نـازح متـباعد ... والـشر دانٍ مـن جمـيع جهاتهـا
مـن بعـض مـا فـيها الـبعوض عدمته ... كـم أعـدم الأجفـان طيـب سـباتها
زنـابير تـسعدها بـراغيث مـتى ... غـنت لهـا رقـصت علـى نغماتهـا
رقـص يتنغـيص ولكـن فاقـه ... قـد قـدمت فـيه علـى أخـواتها
وبهـا ذبـاب كالـضباب يـسد عـين ... الـشمس مـا طـربي سـوى غُـنّاتها
أيـن الـصوارم والقـنا مـن فـتكها ... فيـنا وأيـن الأُسْـدُ مـن وثـباتها
وبهـا خفافـيش تطـير نهارهـا ... مـع لـيلها ليـست علـى عاداتهـا
فاقـت علـى شُـمْر القـنا ... فاعجـب لـشدة فـتكها وثـباتها
وبهـا مـن الجـرذان مـا قـد قَـصُرَتْ ... عـنه العـتاق الجـرد في حملاتهـا
ولهـا زنـابير تَظَـنُّ عقاربـاً ... لا بـرء للمـسموم مـن لـدغاتها

=

فيقول طيف الخيال: يا أمير وصال، عهدتك: ذا مال، وجمال، وخيل، وبغال.

فيقول الأمير وصال: مال المال وحال الوحال، وذهب الذهب، وفضت الفضة، وسُلِبَ السَّلَب، وفَرَّغَتْ الكأس، بطون الأكياس، وبِعْتُ العَقَار في رشف العُقَار، وأما فرس فقد أفتر يد الأسقام، وأخلقت جدته مرور الأيام حتى بكيته بكاء عروة بن حزام[1]،

=

ولها عقارب كالأقارب رُتَّعٌ … فينا حمانا الله لدغ حُمَاتها

كم هي طريفة الفكاهة فالمسلم لابد أن يأخذ حظة من الفكاهة حتى يدخل على العبادة وهو سعيد النفس قرير العين قد أخذ حظه من الدنيا فيقبل على آخرته لينال قسطا منها وافراً فتكون حياته ذات جناحين لا يطغى هذا على هذا ويحقق قول الله تعالى ﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ فما المانع أن يدخل على أخيه السرور كما سُرَّ هو؟

(١) هو: عروة بن حزام بن مالك، أبو سعيد، العذري. ذكره محمد بن حبيب في كنى الشعراء ومن غلبت كمنيته على اسمه بتحقيقي مع كتاب أسماء المغتالين (ت: ١٤٠)، وعلقت عله بهامشه بقولي: ذكره ابن حزم في «الجمهرة» (ص:٤٤٩) في ذكره لبني عذرة بن سعد هُذَيْم،... وعروة بن حزام بن مالك قال ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» (ص: ١٤٥): هو من عذرة، وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته عفراء، وكانا قد نشآ معاً فسأل عمه أن يزوجها منه فكان يسوِّفه إلى أن خرج في عير لأهله إلى الشام وخطب عفراء، فقالوا: ويحك ما تترك ذكر عفراء على حال من الأحوال فلم يرع إلا بمعرفتها فبقي واقفاً لا يحير كلاماً حتى فقدها، فقال:

وإني لتعروني لذكراك روعة … لها بين جلدي والعظام دبيب

وما هو إلاّ أن أراها فجاءة … فأبهت حتى ما أكاد أجيب

وأصرف عن رأيي الذي كنت أرتئي … وأنسى الذي عددت حين تغيب

ويظهر قلبي عذرها ويمينها … عليّ فما لي في الفؤاد نصيب

وقد علمت نفسي مكان شفائها … قريباً وهل ما لا ينال قريب

لئن كان برد الماء أبيض صافياً … إلي حبيباً أنها لحبيب

ثم أخذه الهلاس حتى لم يبق منه شيئاً، فقال قوم هو مسحور. وقال آخرون به جنة وكان باليمامة طبيب يقال له: سالم فصار إليه ومعه أهله فجعل يسقيه الدواء فلا ينفعه، فخرجوا به إلى طبيب بحجر فلم ينتفع بعلاجه، فقال:

جعلت لعرّاف اليمامة حكمة … وعرّاف حجر إن هما شفياني

فما تركا من حيلة يعلمانها … ولا سلوة إلاّ بها سقياني

=

لأنــه انتشـر ذنــبه وانتشر عصبه وكاد يسقط من ضعف قواه يحمل/[٤٧/أ] المقود والمحـلاه، وأصبح السايس لا يقيمه من الزبل إلاّ كما يقيم المصاب، ولا يعرف مكانه لكثرة الآلام والأوصاب، إن حزمه حزم طن قصب، وإن حسّه فلا يرى إلا رأساً وذنباً، وإن مـشى ارتعش وارتهش من المشش(١)، وما أبرحت تجري دموعه، وتنحي على الألم ضلوعه، حتى عميت عيناه، واصطكت يداه، فنظره المملول متأمّلاً، وأنشد مُتمثلاً:

قــد كَمَّـل الله يــردوني بمقــصة ... وشــأنه بعــد/[٤٧/ب] ما أعماه

أسـير مـثل أسـير وهـو يعرج بي ... كأنــه مــاش يـنحط مــن درج

فـإن رمـاني علـى ما فيه من عرج ... فما علـيه إذا مـا مت من حرج

ولمـا مات بهذا السبب، وضح قرآن الشمس للذنب، وعُد من رميم الخيل والبغال،

=

فقـالا شـفاك الله والله مالـنا ... بما حملـت مـنك الـضلوع يـدان

وفيها يقول:

ألا يـا غـرابي دمـية الـدار خبِّـرا ... أبـا الـبين مـن عفـراء تنتحـبان

فـإن كـان حقـاً مـا تقـولان فانهـضا ... بلحمـي إلى وكـريكما فكـلاني

قال النعمان بن بشير: بعثني معاوية مصدقاً على بني عذرة فصدقتهم، ثم أقبلت راجعاً فإذا أنا ببيت مفرد ليس قربه أحد، وإذا رجل بفنائه لم يبق منه إلا عظم وجلد فلما سمع وجبي ترنم بقوله:

وعيـنان مـا أوفـيت نـشزاً فتنظـرا ... بمـا فـيها ألا همـا تكفـيان

كـأن قطـاة علقـت بجـناحها ... علـى كـبدي مـن شـدة الخفقـان

قال: وإذا أخواته حوله أمثال الدمى فنظر في وجوههن، ثم قال:

مـن كـان مـن أخـواتي باكـياً أبـداً ... فالـيوم إني أراني الـيوم مقبوضـاً

يـسمعنيه فـإني غـير سـامعه ... إذا علـوت رقـاب الـناس معروضـاً

قـال: فـبرزن والله يـضربن وجوههن، وينتفن شعورهن، فلم أبرح حتى قضى فهيأت من أمره ودفنته.

(١) قـال ابن منظور في لسان العرب في مادة مشش: المَشَشُ: ورم يأخذ في مقدم عظم الرضيف أو بـاطن الساق في إنسيّه، وقد مَشِشَتِ الدابة بإظهار التضعيف نادراً. قال الأحمر: وليس في الكلام مـثله وقـال غيره: ضَبِبَ المكان إذا كثر ضبابه، وألِلَ السقاء إذا خبث ريحه. قلت: والمراد أنه أصبح لا يقدر على المشي من شدة الضعف.

بزرمر يوم المقر الصاحبي، ضاعف الله فخره، وأطلع بالسعادة فجره أن أعرض عنه بما هو خيرٌ منه فقلت:

/[٤٨/أ] أيـا وزيـراً أُعِـيذَ منصبه ... مـن كـل عـين بآيـة الكرسـي
والماجـد الفجـر ذا الفخـار ومن ... حُلِّـي بالفخـار مجـدهُ وكـسي
أصـغ لـشأني فإنـه عجـب ... وإن يكـن مـا أقـول مـن هوسي
دع مـا حكـوه عـن وقعه الفُرس ... بـالأمس وخـذ سرج وقعة الفَرس
بـرذون سـوءٍ والـناس تعـرفه ... ذا عـرج بـل أصـم ذا خـرس
وكـاع فـيه البيطار مـن صكك ... ونملـة قـد سـعت علـى دحس
/[٤٨/ب] ذو قرة في يديه من مَشَشٍ ... أو كـم في يديـه أو فقـس[١]
ومـن خُـنَانٍ[٢] قـد فاح أو جرَدَ ... أو جـربٍ كالرسـوم مـندرس
ارشـل[٥] لكـن يـشينه مَغَـلٌ[٦] ... اسـعى كـثير الرياك[٣] ذو دَخَس[٤]
مكلـل الجـيد والمـسامع والذّيل ... بحمـسر القـراد كالعـرس
يُرنس من كثرة الذباب إلى أن /[٤٩/أ] ... ظـنه معـشر مـن الـشمس
/[٤٩/ب] وربمـا أوحلـته بولـته ... وإن يَـسبُل في التـراب بنغـرس
وهـو إذا مـا أغفالـته ... كـسر السرج لفرط التمريغ في الغلس
هـذا ولم أنـس طبلخانـته ... تجـيء بـريح ولا فـسا العِسرَس
تـؤلمه مـن خطـاه بولـته ... بـين يـدي في الطـريق أو يـبس

---

(١) الفقس: نوع من التشنج.

(٢) الخنان: داء يأخذ في الأنف (لسان).

(٣) السريك: ريكتان من الفرس: زنمتان خارجة أطرافهما عن طرف الكتد، وأصولهما مُثْبَتةٌ في أعلى الكتد الواحدة منها ديكه (لسان).

(٤) الـدَّخس: داءٌ يأخـذ في قوائم الدابة، وهو ورم يكون في أطرة حافر الدابة... وفرسٌ دَخِسٌ: به عيب (لسان).

(٥) أي سريع. (لسان).

(٦) به وجع في بطنه. (لسان).

/[٥٠/أ] بجفــل حـتى من الشعير ولا يـــذوق قطمـــاء إلاّ مـــن الغلس
إذا رآه كلــــــــبٌ غــــــــدا فـــإذا رمـــى علـــيه في ري مفتـــرس
تحـــــسبه جـــــيفة، وحـــــسبك مــــن ركـــــوبه علــــى نجـــس
وهـــو علــى هذه المعايب ذو خلقٍ علــى قـــبح خلقـــه شـــرس
قالـــوا: أرجـــه فالـــركض ينحـــسه قلـــت: محـــال إنحـــاس منـــتحس
/[٥٠/ب] يـتلو قـــواه والنازعات إذا سارت مع العاديات في غلس[٥١/أ]
يعجـــز عـــن حمـــل تبـــنة فإذا رأى شـــليقاً حـــشاه في نفـــس
حـــوى جمـــيع الأمـــراض قاطـــبة ولم يفـــته مـــنها ســـوى الـــضَّرس
فـــأنعم بتغـــييره عَلَـــيَّ فلـــي وعدٌ ومــــولاي لم أظـــــن نــــسي
وانــــي ذلـــك الملـــيُّ بشكر ربك ولكــــنني أخــــو فلــــسي

/[٥١/ب] فلما رفعت إليه قصتي وقرأها، وفهم مضمونها ومعناها، حباني بِطِرْفٍ يسبق الطرف يكاد أن يفوت مطامح بصره، وأن يقع من خفته على أثره، فأذهلني حسنه وحسن مُهْدِيه، فقلت: هذه القصيدة:

هـــل في الكـــرام لنـــيل كـــل طلاب مـــثل الوزيـــر الـــصاحب الـــوهاب
فخـــر تفاخـــر بالجـــياد لدى الوغي والجـــود وهـــي كـــريمة الأنـــساب
أي كمـــيت قـــد غـــدا في غُـــرَّة مـــثل الكمـــيت الصرف/[٥٢/أ]ذات
أو أدهـــم قـــرن الحجـــول بغـــرّة كالـــصبح في ذيـــل الدجـــى المنجاب
وكأنمـــا حُلَـــل الـــسواد بجـــسمه فـــوق البـــياض قـــصيرة الأهـــداب
أو بـــرق قـــد راق العـــيون بمنظـــر كالـــبدر يـــبدو مـــن خـــلال سحاب
ذو أربـــع مـــثل الـــرماح تحملـــت ســـرجاً وردفـــاً كالأشـــيب الـــرابي
عـــرف كعـــرف الأيل[1] تحت حمامه ركبت لميل في /[٥٢/ب] متون سحابي

---

(١) قـــال الـــدميري في حياة الحيوان عن الأيّل (١٧٦/١): ذكر الأوعال، والأيل لغة فيه، ويقال: هو الـــذي يسمى بالفارسية كوزن، وأكثر أحواله شبيه ببقر الوحش، وهو إذا خاف من الصياد يرمي نفسه من رأس الجبل، ولا يتضرر من ذلك. وعدد سني عمره عدد العقد التي في قرنه.

=

متناسب في الملك منسوب إلى أبناء أعرج او إلى البواب
أو لاحق أو ذي الرسوم ورامل وخزيمة والورد والأعراب
لا بل أجل من السُّمَيْدَع محتدا أو ذو العقال وقردلٍ وطلاب
وابن النعامة والقريط وحرمل وغزارة أو نخلسةٍ وغراب
والجود والهطال والسيعهوب والطيار والخطار/[٥٣/أ] بل وسكاب
وقسام والسيحموم والدرهاء والشقراء والغبراء بعد نصاب
نمير زاد الركب حسن شبابه ويفوق وصف عرادة الأعراب
بل طرف مولانا الوزير؛ لأنه أضحى حرًّا تحت هذه الألقاب
قمر حوافره تُريك أهلةً وتخاله في البر لمع سراب

فيقول طيف الخيال: أعريت، فأعربت /[٥٣/ب] وعَبّرت فاستعبرت، فأين هذه الأفراس؟ ولمن كانت من الناس؟

فيقول: أما الأعواج فهو فرس لبني هلال، ذكره ابن دريد[1] كان قيداً لأوابد الصيد من بنات زاد الراكب. والبوات: لمضر. واللاحق: لعمرو بن أعصر بن غيلان. ودواء الوسوم: لبني تميم. وزامل: لمرواس بن معاوية. وعميرة: لشيطان بن مدبج. والورد: فرس

=

وإذا لسعته الحية أكل السرطان، ويصادق السمك فهو يمشي إلى الساحل ليري السمك، والسمك يقرب من البر ليراه، والصيادون يعرفون هذا فيلبسون جلده ليقصدهم السمك فيصيدوا منه. وهو مولع بأكل الحيات يطلبها حيث وجدها، وربما لسعته فتسيل دموعه إلى نفرتين تحت محاجر عينيه يدخل الدمع فيهما فتجمد تلك الدموع وتصير كالشمع، فتتخذ درياقاً لسم الحيات. وموطنه: الهند والسند وفارس.

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٩٦/١٥): ابن دريد: هو: العلامة شيخ الأدب أبو بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْد بن عتاهية، الأزدي، البصري، صاحب التصانيف تنقل إلى فارس، وجزائر البحر، يطلب الآداب، ولسان العرب، ففاق أهل زمانه، ثم سكن بغداد وكان أبوه رئيساً متمولاً، ولأبي بكر شعر جيد... قال أحمد بن يوسف الأزرق: ما رأيت أحفظ من ابن دُريد ولا رأيته قرئ عليه ديوان قط إلا وهو يسابق إلى راويته يحفظ ذلك.

قلت: كان آية من الآيات في قوة الحفظ... قال أبو بكر الأسدي: كان يقال ابن دريد أعلم الشعراء، وأشعر العلماء.

توفي في شعبان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وله ثمان وتسعون سنة. عفا الله عنه.

عامر بن طفيل. والأعراب: فرس عبَّاد بن زياد. والسميدع: فرس البراء بن غالب. ودواء العقـــال: من أولاد أعوج بن تعلبة. وقردل: لطفيل بن مالك/ [٥٤/أ] بن أوس. وابن النعامة: لعنترة(١).

فإذا أردت تحقيق هذا النسب، فطالع في كتاب «المبتكر» لابن دريد في أسماء العرب فمـــا هو إلا أن يراه معي، ويعلم إفلاسي وطمعي، وعرف أنه من الأصايل العتاق، وأن عليه يدرك الثأر أيام السباق، فيبذل لي فيه ما لم يكن في ظني، وأقبضني الثمن وتسلمه مني فعـــدت بهـــذا الرأي النحيس، أحير من حامل التيس(٢)، وعملت برأي دبير واستملاني الشيخ حجير، فتعرضت عنه بركوب الفراش / [٥٤/ب] وألقيت نفسي للهوان في نار الفـــراش، وتخصـــصت بركوب الأكفال واحتفلت بذلك غاية الاحتفال، وجلت عليها جسولان الفارســـي بميدان الحصا، ولعبت بحوكان الأير في الخُصا إلى أن خلا كيسي من المـــال، ورآني المعـــشوق كذلك فصَدَّ عنيّ ومال، فرفضت صحبة المردان، وملت إلى معاشرة النسوان لعلمي أن المرأة كلها ردَاد، وهي قسيمتي في الالتذاذ فعليك بالحلال، يا سيدي طيف الخيال، اتخذني عبدك، وأقرضني / [٥٥/أ] شيئاً من عندك قال: فيضرط له طيف الخيال، ويقول: والله العظيم، لي ثلاثة أيام ما استطعمت بطعام، وامتحني، وأدخل لسانك في استي فليس تلقى غير سُرم(٣) نظيف.

---

(١) وبعـــد ذكره لأسماء الخيول ونسبته لها إلى أسماء أصحابها وسواء كانت هذه الأسماء حقيقية أم من طيف خياله إلاَّ أنه ذكر زاد الراكب هذا تعبير يطلق على جماعة من العرب ذكر بعضهم ابن حبيب في المحبر (صـــ ١٦٠) بتحقيقي فقال:

أزواد الـــركب: الأســـود بن المطلب بن أسد بن عبد العزي، ومسافر بن أبي عمرو ابن أمية، وأبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وزمعة بن السود بن المطلب بن أسد.

قلـــت: وهم قوم كان من صحبهم في سفر لا يحمل معه زاد لتكفلهم بالنفقة على من ركب معهم مهما كان عددهم أو غناهم.

(٢) قوله أحير من حامل التيس: هو مثل عربي يضرب لمن التبست عليه الأمور واختلفت عليه الأشياء ومن تلك الأمثال قولهم:

أحير من برغوث. وأحير من بقية في حقة. وأحير من ضب. وأحير من الطير في الشبكة. وأحير من الليل. وأحير من ورل. وأحير من يد في رحم. وغير ذلك كثير، وأنا دائماً أقول:

أحير من الفار في البلاص (والبلاص) هو وعاء فخار مخروطي الشكل يستعمله أهل صعيد مصر في حفظ العسل الأسود.

(٣) الـــسُرْمُ: فـــتحه الدبر، وفي لسان في مادة سَرَمَ: روى الأزهري عن ابن الأعرابي: أنه سمع أعرابياً =

فـيقول الأمـير وصال: ما فعلت بقماشك؟ وأين أثاثك ورياشك؟ فيتنفس صُعدًا وينشد عند ذلك ويقول:

لم يـبق عـندي مـا يباع ويشترى   إلاّ حـصيراً قـد تـساوى بالثـرى
وبقـية الـنطع الـذي عبـثت بـه   أيـدي البلا/[٥٥/ب] حتى تقطع وانهرى
نطـع يـريق دمـي بكثـرة بقـه   وتـراه طـوراً أسـوداً أو أحمـرًا
في مـنزل كالقـبر قـد شاهدت فيه   نكـير يلقـاني ومنكـرًا
لـو لم يكـن قـبراً لما أمسيت نسياً   فـسيه حـتى أنـني لم أُذْكَـرًا
فالقـبر أهـنى مـنزلاً إذ لم أكـن   مـع طـيب مـسكنه أطالـب بالكرَا
لا فـرق بـين ذوي القـبور وبـين   مـن لا رزق يرزقه/[٥٦/أ]سوى العيش
أُف لعُمـرٍ صـار في ريعانـه   مـثل يـودُّ بـأن يمـوت ويُقبَـرَا(١)
ولـرب قائلـة أمـا مـن دخلـه   تغـدو وقـد أعـسرت مـنها مُوسرًا
شـرف الهـلال كمالـه في سـيره   والمـاء أعـذب مـا يكـون إذا جرى
كـم مدبـرٍ لمـا تحـرك عـنده   بعـد الـسكون ذوو العقـول مُدَبّـرًا

يقول: اللهم ارزقني ضرساً طحوناً، ومعدة هضوماً، وسَرْماً نثوراً. .. وقال الجوهري: السُّرْمُ: مخرج الـثُفل، وهـو طرف المعى المستقيم. كلمة مولدة. وفي حديث علي: لا يذهب أمر هذه الأمة إلا على رجل واسع السُّرْم ضخم البلعوم. السرم: الدبر، والبلعوم: الحلق.

قال ابن الأثير: يريد رجلاً ضخماً شديداً.... قال: ويجوز أنه يريد به: أنه كثير التبذير والإسراف في الأموال والدماء، فوصفه بسعة المدخل والمخرج.

(١) رغم ما في هذه الأبيات من الأسى والحزن وشدة الشكاية وسوء الحال إلا أنه فيها من الوصف ما يعجـز عـن وصف مثله إلا القليل من الشعراء حيث وصف بيته بالقبر بل وفضل حال القبر على حـال بيته ومع ذلك فهو فيه على ما يزعمون حياً يرزق فأين هي الحياة؟ وأين هو الرزق في هذه الحالة التي يصفها؟!

إن الـشعر حقاً لشديد التعبير عما يجيش في أنفس الناس، وإن منه فعلاً لحكمة، وأن منه لسحراً، ولبياناً.

ثم يـستمر في سـرد قصيدته الهزلية الفكاهية الضاحكة الباكية على هذا النحو السالف من التهكم والشكوى والاستهزاء.

فأجبتها: سيري ومكثي واحد ... النحس نحس مُنجداً أو مغوراً
إن المدائن وهي أوسع بقعة ... ضاقت عَلَيَّ فكيف أرحل للقرى
بالله قد فقد السماح وأصبحت ... منه عراص البرّ بسراً مقفراً
ولقد سألت عن الكرام فلم أجد ... في الناس عن تلك الكرام مخبراً
حتى كأن حديث كل أخ بدا ... عن كل ما يروي حديثاً مفترًا
إن كان حقًّا ما يقال فإنهم ... كانوا وقد ولى الزمان مُقهقراً
لم يُبْقِ عندهم حديثاً طيباً ... للطارقين ولا مناخًا للذُرَا
ومن المصيبة أن رزقي بينهم ... متقصراً متباعدًا مُستَعْذِرًا
فلئن ذممت ~~من~~ لا يرعوي ... ولئن شكرت شكرت من لا يشكرًا
فلأصبرن على الزمان وإنني ... لأخي الشقاء صبرت أم لم أصبرًا

فيقول الأمير وصال: حاشاك من هذا / [٥٧/ب] الكلام، وحفظ الله كل من حوى هذا المقام، من هؤلاء السادة الكرام، إلاّ أنني ما قدمت على زواجي إلاّ بعد ضرورتي واحتياجي، إلاّ هرباً من القحاب، ووثوقاً بكرم الأصحاب، فاسمع شرح حالي وأعجب من مقالي، ويقول:

قد تجاسر إذ كتبت كتابي ... طمعاً في مكارم الأصحابِ[1]
واستخرت الإله في طلب الحلّ ... رجاءً له جزيل الثوابِ
/[٥٨/أ] وأنفت الرقاد وحدي ... وأنفسي وسط ثقبي مطوقاً كالكلابِ
لا أرى لي إذا خلوت أنيساً ... في طعامي كلا ولا في شرابي

---

(١) هذا البيت بيت قوي حقًّا يضاهيه قول القائل:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ويوافقه قول من قال إن المستحيلات أربعة: الخل الوفي، والعنقاء، والغول، والفيل الأبيض ففي غياب الخل الوفي والصاحب المخلص تكون الحياة قائمة على النفاق فإن نصحت إنما تنصح من لا يسمع، وإن شكرت شكرت من لا يستحق إلا الذم والقدح لا المدح إلاّ أنك لا ضطرارك تقول: «دارهم ما دمت في دارهم» أو «ارضِهِمْ مادمت في أرضهم». وهكذا قال كل مخلص بين من لا يعرف الحق أو العدل أو المروءة أو الفضيلة.

ولو أني غَصِصْتُ في البيت وحدي مِتُّ صبراً وما درى الناس ما بي
لي عدو يقوم مني بلا رجل شبيه المخيرُ المرتاب
باكسياً كالمصاب أبكي عليه وعناء إصلاح حالي المصاب
كل يوم أبكيه جلداً عليه وعلى تلكم الأمور الصِّعاب
طالما بت في السماعات إلاّ لقبوني باللائط الدباب
ولعمري قد كنت ألتمس الدَّبَّ وآلاته معي في جرابي
مثل درج وإبرة، وخيوط ومقص وبيضة وتراب[1]
وعشقت الصغار، ثم تصاغرت إلى أن رجعت في الكتاب
كل ظبي يميت عاشقه بُكراً إذا ما سقاه خمر الرضاب
وتمهرت في الحراف إلى أن صرت فيه إمام لعب الكعاب
ثم قامرت بينهم بنوى التمر وبالدّك تارةً والطاب
ولعب الحمام فيهم فكم حَزتُ بصيد من طائر قلاّبِ
كنت كالفأر في فسادي فما أبرح فيهم أدور في الأثقاب
ولقد كنت قبل ذلك مُغْرًا بكتابات عاهرات القحاب
كم مرام فهمته حين وافت مع رسول ببيضة وسداب
فوعدت الجواب سرًّا وأوعدت أن أزور الحبيب بعد الغياب
وتقنعت كالنساء وتأزرت وغطيت لحيتي بنقابي
ثم وافيتها عشاءً فقالت: هذه بنت جارنا القصّاب

---

(١) ما عدّد من آلات أو أدوات إنما هي من الأدوات التي يستخدمها الدباب ليستعين بها في دبه على فريسته ليلاً؛ فالجراب هو الوعاء الذي يحتوي على جمع أدوات الدب والدرج هو العلبة التي يحتفظ فيها الدباب بأدواته الدقيقة كالإبرة وغيرها، والإبرة هي بمثابة الدبوس الذي يشبك به الدباب بينه وبين المدبّ عليه، والخيط هو ما يهتدي به المدبّ إليه في ظلمة الليل والمقص هو ما يقرض به ثوبه أو سرواله عند الفعل، والتراب هو ما يختبر به ما إذا كان قد نام أم لا، أو لينقلب المرء بنثره عليه على وجهه أو على جنبه إن كان نائماً على ظهره.

/[٦٠/أ] خاصموها وقد اتتني غَضبّا ويك لا تقعدي على الأعتاب[1]
لا تخافي أنا وأنتِ جميعاً دون روحي ننام خلف الحجاب
فتراني حتى الصباح على ما أرتجي فيه توبة التواب
وتزوجت بالمخانيث أيضاً بأُولي الشيب منهم والشباب
كل ذي لحية تخفّ إلى الخلق تصابى في غير وقت التصابي
كل يوم يبدي عذراً جديداً مستعاراً بصبغة وخضابي
يألف الذقن ثم يبلغ من أسفله الأير فهو كالمحراب
كنت في حضنه مقيماً وقد كان طعامي من ذلك الاكتساب
فادعى الحمل من خراه وأبدى ألم الطلق كالنساء بانتحابي
فأتاه جمع المخانيث صبحاً ثم غبّوا له كؤوس الشراب
وتلقوا خراه في خِرق الخَرا ولفوه بعد في العتابي
ثم وافوا به إليّ وقد كاد ينادي مما حكاني يا آبي
ولقد كان يعتريني إنعاظي فأغشى الأتان بين الدواب[2]
وأرى أن ذاك أسلم عقبى للفتى في الغُدُوّ والاقتراب
وتراني إليهم أتعلّى بعد ربط الأحجار في الأذناب
ونكحت الكلاب أيضاً ولكن في الفواخير تحت تلك القباب/[٦١/ب]

---

(١) من الملاحظ أن صاحب طيف الخيال يذهب في خياله إلى إعادة من حاد عن الطريق المستقيم إلى جادة الطريق مع اعترافه بما كان قد اقترفه ليبين أن تلك السبيل معروفة لدى المؤلف وإن كان القارئ غافلا عنها أو لا يتنبه إليها. فهو يقرأ له ناسياً أنه يعيش في طيف خيال المؤلف وكأنه يقرأ في قصة حقيقية يسردها المؤلف عليه من مدى حبك المؤلف لقصته الخيالية.

(٢) ثم بضم لحكاياته ما يفعله بعض الشواذ ممن يأتون الدواب كالحمير والبقر والغنم وغيرها من الدواب الأليفة، وهؤلاء قوم حقيقيون وإن كان سردهم في طيف خياله إلا أنه ربما كان يعرف أحد منهم أو حكي له عنهم فسرد ذلك ليبين لمن يعرف هذا الأمر لينتبه الناس إلى أمورهم ويعرف من يأتي ذلك في السر أن أمره يوماً ما سوف يفتضح فليحذر وليبادر بالتوبة قبل فوات الأوان.

غير أني قد كنت قسورت بُرْشاً ... ثم صيرته لهن في الرقاب
حَذِراً عند ذاك كم كنت أتوقى ... كل ناب في حدّة غير ناب
وإذا ما استبكت لم أرتسج ... غير ضربي لها على الأجناب
وغشيت المناخ ليلاً ... ونورت جمال الأعجام والأعرابي
فتدليت خلفها وتعلقت ... بكفي في عروة الأقتاب
ولعمري لو لم تغب أسد الغاب ... لهويت وطء أسد الغاب
وطأت ما كان فيه أبسر روح ... ذا حياة يدب فوق التراب
لم يفتني فيه سوى عقرب دَبٌ ... وزنبور لَسَّاب
قسما بالمدام حين تجلت ... للندماء تدور في الأكواب(١)
بنت كرم كريمة الأم والأب ... قد خبوها لعزها في الخوابي /[٦٢/ب]
من رحيق مثل الحريق تبدت ... تتلألأ في الماء ذات التهاب
وبمطر المزر السخين إذا ما ... كسروه لنا بكوم غراب
من تواني وواشني وحمصيص ... شهي في المنظر أو طبطاب
واخضرار الحشيش يانعة اللون ... تبدت في شامخات الروابي
/[٦٣/أ] وبخصر شبيه رزقي دقيق ... وبردف شبيه جهلي رابي
ما غشيت الدواب حتى رماني ... كل خِلٍّ بفرقة وعذاب
والضرورات تلجئ المرء ... بالرغم لما لا يليق بالآداب
وتراني إذا انقلبت إليهم ... ذا ضلال وخيبة في انقلاب
مثل من فَرَّ من أذى الوكف ... في القُرِّ إلى ماء مزراب

---

(١) على الرغم من هذا الفجور والمجون الذي يسوقه في هذه القصيدة فإنه اضاف إليه إثما اكبر منه الا وهو إثم القسم بغير الله فإن هذا من الشرك وإن كان هازلاً أو مازحاً فعلى المرء أن ينتبه عندما يقسم، فلا يقسم بغير الله عز وجل، وعليه أن يتجنب المجون والفجور قدر طاقته حتى يسلم في الدنيا والآخره، وقسمه هنا بماذا إنه لا يُقسم بغير الله وحسب بل بشيء مُحَرّم.

أو كمن يستجير من لهب النار بالرمضاء في لظى شهرآب[1] /[٦٣/ب]
غير أني قد تبت إذ تبت لله فهو المهيمن التواب
وانظروني إلى زمان قريب تجدوني قطباً من الأقطاب
أي شيء ألذّ من وصل خود بشهود وعاقل وكتاب
لعبة من الكافور والمسك كونت أبصرتها فسال لعابي
ريقها ينفع العليل وقد ينفع منها القليل في الأوصاب
حبذا ظُرفها وقَد هجع الناس وقامت تسمنت باللباب
قلت: هذه شمس يدور بها ملك مولع بنقب السحاب
وإذا هللت رأيت هلالاً طالعاً بين نسوة أتراب
وإليه فرغت ثم تصدّيت لزوم الصلاة والمحراب
شغلتني عن حب سُعدى ولبنى وفزار وزينب والرباب[2]

(١) هذا بيت يعارض به البيت المشهور الذي سار مسرى المثل القائل: «كالمستجير من الرمضاء بالنار». ثم أنه بعد أن ذكر من مضار هذه المعاصي ما ذكر أخذ بيد طيف الخيال إلى طريق الحق والرشاد والصواب ليعود به من متاهات المعاصي الى سبيل الله وطريقه المستقيم فيظهر مزايا هذا الطريق القويم الذي يأخذ بالإنسان إلى ربه ورضاه وسكون النفس وهدوئها واطمئنانها وسكينتها وراحتها واستقرارها فيعود كل شيء إلى نصابه وتتزن الأمور، وتستقر الأحوال وتسير الحياة في خطها السوي الذي رسمه الله تعالى لها ولأهلها وينضحد الفساد وأهله ويستدير الزمان كهيئة يوم خلقه الله السماوات والأرض، ويعود الإنسان إلى ربه ليكون مستقره في جنته ومستودع رضاه سبحانه ويفر من النار ومستودع غضبه عزّ وجلّ.

(٢) يريد أنه ينشغل بالحلال عن الحرام وإن كان غيرها في جمال من يضرب بهن المثل في الحب: كسعدى، ولبنى وفزار، وزينب، والرباب وأشهرهن لبنى بنت الحباب الكعبية، وقد ترجم لها صاحب أعلام النساء ترجمة طويلة ومما قاله فيها: من ربات الحسن والجمال كانت مديدة القامة، شهلاء، حلوة المنظر والكلام، فاستسقى قيس بن ذريح ماء من خيمة لبنى فسقته، وخرجت إليه به فلما رآها وقعت في نفسه وشرب الماء، فقالت له: أتنزل فتتبرد عندنا؟ قال: نعم، فنزل بهم، وجاء أبوها فنحر له وأكرمه فانصرف قيس وفي قلبه من لبن حر لا يطفأ فجعل ينطق الشعر فيها حتى شاع وروي.

ثم أتاها يوماً آخر وقد اشتد وجده بها فسلم فظهرت له وردت سلامه وتحفّت به فشكا إليها ما يجد وما يلقى من حبها، وشكت إليه مثل ذلك، فأطالت وعرف كل واحد منهما ما له عند
=

إن تعافيت فهي ذات انتقام وإن تشكيت فهي ذات انتحاب
فرعى الله من رأى ضعف حالي وحباني مساعداً في كتاب
وحماني من ارتكاب المعاصي وكفاني عذاب يوم الحساب
فلقد تبت لا أرى لي شيئاً يستحق المزكاة غير نصاب

/[٦٥/أ] وها أنا قد بسطتُ لكم يدي، وغادرتكم مقصدي. فتخرج أم رشيد القوّادة، وتقول: يا ولدي، وقع الفاس في الرأس[1]، فاعمل عمل الناس.

أمّا أنا فقد ودرت بالموادنات، وسرت في الشوارع مثل الضائعة، واطلعت من الصامتة ليلة الجمعة، فأكثري للجلا، ولو أنها عشرون شمعة.

وقد حكي:

زهر البستان، والمغنية الورد الطري الرَّيَّان، والماشطة أم شهاب الدين الدمشقية، والجلا في قاعة /[٦٥/ب] المهتار في باب الترقية وأحمل في كُمِّكَ النقوط من الدراهم والأنصاف والدنانير الخفاف، وإلاّ صفعونا بالدُّلاكس والخفاف. فيدخل ويخرج في زفة،

=

صاحبه، فانصرف إلى أبيه وأعلمه حاله وسأله أن يزوجه إياها؟ فأبى عليه وقال: يا بني عليك بإحدى بنات عمك فهن أحق بك، وكان ذريح كثير المال موسراً فأحب الا يخرج ابنه إلى غريبة.
ثم ساق القصة في استعانته بأمه على ابيه، وعدم جدوى ذلك، ثم استعانته بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالب. وبابن أبي عقيق ومعاونتهما له حتى صارت زوجة له وعاشا مدة هائئين فيها بالحب وراحة البال إلى أن جاء دور الحماة لتلعب لعبتها المعهودة من ذوات القسوة منهن وتعللهن بأتفه الأسباب للخلاص من زوجة الابن، وكانت علة أمه هي تأخر الإنجاب، وحدثت مشادة طويلة بينه وبين أبيه في محاولة طلاقها منه وتمسكه بها وإصراره على عدم الزواج أو التسري عليها.
ثم كان ما كان من إصرار الأب على الهلاك بالشمس، وإصرار قيس على عدم الطلاق لخوف هلاك محبوبته حزناً ووجداً عليه، ومكث الحال على ذلك عشر سنين الى أن أرغماه على الطلاق فكان المحذور، ثم كان من شأنهما ما كان من الحب والوجد والهيام والشعر الهلكة.

(١) هذا مثل عامي يسوقه الناس عندما يقع المحذور فيقولونه للتجلد والصبر والاحتمال على الواقع أو الرضا به. فعلى من وقع فيما كان يحذر أن يحسن الخروج منه ولا يكثر اللوم لنفسه ولا لغيره ولكن يفكر كيف يخرج مما هو فيه ولا يقول لو كان كذا لكان كذا، أو لقد كنت أقول لكم أن هذا الأمر سيحدث ولكن يبحث عن مخرج لما صار فيه بأقل الخسائر أو بدونها، وهذه هي الحكمة كما يقول المثل الآخر: لا تبكِ على اللبن المسكوب، ولا تنعَ حظك العاثر، ولكن كما قال المثل الآخر: «اللي انكسر يتصلّح»، وجد وخذ بالعزيمة.

وقدامه الشمع، والمغاني مصطفة، ومن خلفه التوقات والطبول، وهو راكب على فرس من أجمل الخيول.

ثم تترجل وتجلس بأدب وناموس، وتنزل المواشط لجلاء العروس، وتجلى عليه بالخلعة والشربوش، وتتخطر مستورة الوجه بمنديل مذهب منقوش /[٦٦/أ] فإذا كشفت عن وجهها الخمارية، تنهق نهيق الحمار، وشفاتر كشفاتر الجمل، ولون كلون الجعل(١)، أو أجفان مكحلة بالعمش(٢)، وخدود مضرجة بالبرش والنمش(٣)، وأسنان

---

(١) قال الدميري في حياة الحيوان في الجيم في الجعل: الجعل: كصرد، ورطب، وجمعه جعلان بكسر الجيم وسكون العين، والناس يسمونه أبا جعران، لأنه يجمع الجعر اليابس ويدخره في بيته. وهو دويبة معروفة تسمى الزعقوق، تعض البهائم في فرجها فتهرب، وهو أكبر من الخنفساء شديد السواد في بطنه لون حمرة، وللذكر قرنان. ويوجد كثيراً في مراح البقر والجواميس، ومواضع الروث، ويتولد غالباً من أخثاء البقر.

ومن شأنه جمع النجاسة وادخارها كما تقدم ومن عجيب أمره أنه يموت من ريح الورد، ومن ريح الطيب، فإذا أعيد إلى الروث عاش. قال أبو الطيب يصفه في شعره:

كما تضر رياح الورد بالجعل

وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار، وله ست أرجل، وسنام مرتفع جداً وهو يمشي القهقرى، أي يمشي إلى الخلف وهو مع هذه المشية يهتدي إلى بيته، ويسمى الكبرتل وإذا أراد الطيران ينفش فيظهر جناحاه فيطير.

(٢) العمش فساد في العين يجعل العين سائلة الدم دائماً وهو مرض مزمن، وفي لسان العرب في مادة عمش قال ابن منظور: الأعمش: الفاسد العين الذي تغسق عيناه، ومثله الأرمص، والعمش: أن لا تزال العين تُسَيِّل الدمع، ولا يكاد الأعمش يبصر بها. قيل: العمش ضعف رؤية العين مع سيلان دمعها في أكثر أوقاتها. ... والتعامش، والتعميش: التغافل عن الشيء.

(٣) وقوله خدّ مضرجه بالبرس والنمش يريد ملطخة ممتلئة بالنقط التي نشينها من كل لون لا يزين الوجه وخصوصاً الخدين، وقد قال ابن منظور في لسان العرب في مادة «برش»:

البَرَشُ والبُرْشة: لون مختلف نقطة حمراء، وأخرى سوداء أو غبراء أو نحو ذلك.

... وشاة برشاء: في لونها نقط مختلفة، وحيَّة برشاء بمنزلة الرقشاء والبريش مثله، قال رؤية:

وتركت صاحبتي تفريشي ... واسقطت من مُبرم بريشي

أي فيه ألوان. والأبرش: لقب جُذيمة بن مالك، وكان به برص فكنوا به عنه. وقيل: سمي الأبرش لأنه أصابه حرق فبقي فيه من أثر الحرق نقط سود أو حمر. وقيل: لأنه أصحابه برص، فهابت العرب أن تقول أبرص، فقالت أبرش. وفي التهذيب: وكان جذيمة الملك أبرص فلقبته العرب الأبرش. والأبرش: الأرقط، والأنمر: الذي تكون فيه بقعة وأخرى أي لون كان... والبُرشة: هو لون مختلط حمرة وبياضاً أو غيرهما من الألوان.

كأسنان التمساح ونكهة تفوح كالمستراح[١]، ويَد كيدِ الهون[٢]، وساق كساق البرذون[٣].

فعينها كل عين[٤]، وزينتها شين[٥] وينشد ويقول:

لها السبهار حدود والشقائق الحاظ ومبسمها /[٦٦/ب] في خضرة الآس

قال: فعندما يراها الأمير وصّال يخر صريعاً من الاختلال. فيقول العروس بعد شخير ونخير: والله لقد أرجفتني، وفزعت بني بنتي الصغيرة. يا أم رشيد، ما له وقف الله أعماله؟ فتقول: يا بنيني كأنه سكران أو بات البارحة سهران. فيخرج لها ابن بنت يُتَعَوَّذ من رؤيته الشيطان/ [٦٧/ أ] ويهرب من مجاورته المقيم في الأوطان، كما قال فيه القائل:

له صورة يستحسن القرد عنها على أن وجه القرد أجمل منظراً

إذا ما ابتداني بالحديث حسبته يسوك من فرط النتونة بالخرا[٦]

---

(١) النكهة هي الرائحة أيًا كان نوعها، فمنها الحسن والقبيح. والمستراح هو مكان قضاء الحاجة، وله عدة أسماء منها هذا، ومنها: بيت الراحة، وبيت الخلاء، والدورة، والمرحاض، وبيت الأدب، والكبانيه، والأبخانة، والدبليوسي (W.C). والمراد هنا أن رائحة فمه وخشمه لا تطاق حيث لم يراعها بالعناية والتعهد بالغسل والطيب واختيار أنواع المأكولات التي لا تصدر روائح كريهة كالفجل، والكرات، والبصل، والثوم.

(٢) الهون: هو الوعاء الذي يدق فيه وهو معروف وقال ابن منظور في لسان العرب في مادة «هون» والهاوَنْ والهاوَنَ والهاوُون: فارس معرب: هذا الذي يدمر فيه. قيل: كان أصله هاوُون لأن جمعه هواوين مثل قانون وقوانين، فحذفوا منه الواو الثانية استثقالاً وفتحوا الأولى لأنه ليس في كلام "فاعُلّ" بضم العين. قلت: والمراد: أن يده قصيرة غير متناسقة فتجعدة، وهو نوع من القدح والذم في اليد. ويد الهون هو ما يُدَقُّ به ما فيه من شيء يراد طحنه.

(٣) البرذون فوق الحمار ودون الحصان، وهو الى شكل الخيل أقرب غير أن أذناه مسترخيتان. وذكر البوصيري البرذون في حياة الحيوان فقال: في حرف الباء (ص ١/١٩٩): البرذَون: بكسر الباء، وبالذال المعجمة، والجمع براذين، والأنثى برذونة، وكنيته أبو الأخطل كني به لخطل أذنيه وهو استرخاؤهما بخلاف أذن الفرس العربي- وهو الذي أبواه أعجميان.

(٤) مراده بهذه العبارة: أن لها عين غير مستقره وهي عين حسود تجمع بين عدم الاستقرار والشر الشديد الذي هو الحسد المفسد لما يقع عليه مما هو صالح أو نافع للناس.

(٥) يريد أن كل ما فيها لا يسر الناظر ولا السامع ولا اللامس ولا الشامم ولا المتذوق فهي شين في شين في شين أو هي نماذج للشين وعلم عليه، فازين ما يمكن أن يوصف به ما هو زين فيها بالقياس إليها هو أشين شيء في غيرها.

(٦) انظر لوصفه لابن بنت أم رشيد حيث يصف منظره من النكارة بما يعجز الشيطان عن وصفه من

فيـنهش ويـضرط، ويـستلقي ويـتحدث ويقول: يا دادي دود راستي، سرحيني ومشطيني، ومخطيني، وَرَوحِي عني، حتى أُزمر وأغنّي وينشد ويقول:

/[٦٧/ب] أنـا قد جئت وكفي فوق ... فـيقولوا السـلامة يـا حميـزي
عـويلاً يـا لسبني لا تـأكلين ... وغطـي شوشـتك لا تـرجفيني
وبالممـا وبالسـيف اشـبعيني ... معـي ممّـا وابـنوا في كويـزي
فقولـوا لي السـلامة يـا حميـزى ... تعايانـسا طفـاني هـات نحـيّ
وقـيل: يـا مقيلـي لا تنحـيّ ... أنـا النُّنـيّ ومـا لي غـير دجـي
فخـذ في السـنحّ وحُـي أو حروزي ... وقولـوا لي السـلامة يـا حميـزي
سـعي جعـص علـى جانب لحافي ... /[٦٩/أ] وأنا أمشي إلى المرحاض حافي
فقومـي مـيمتي سـتّي ... وجـوزي وقولـوا لي السلامة يـا حميزي
مـتي يـا مـيمتي هـو يـوم طهـوري
خـذي لي المسـودنات حولك وذودي ... وقلّـبي بإصـبعك رأس أيـري
وإلا فارطلـي بيـضي وروزي ... وقولـوا لي السـلامة يـا حميـزي

ثم يكـشف جبيـزي عن مثل رأس البُختِي[1]، ويقول: يا بختي يا بختي خريت تحتي، فيـثب إلـيه الأمير وصال، فيهشمه بالدبوس /[٦٩/ب] فيهرب الماشط والعروس،

الدمامة والوضاعة والاتساخ والقباحة. ويصفه الشاعر بأنه لم يصل حتى إلى درجة القرود دمامة بل أن القـرد إلى جواه يظهر في أبهى صورة وأزين منظر مقارنة به هذا من ناحية المنظر الظاهر. فإذا اقتربت منه هنالك ما يفح عليك من الرائحة الكريهة التي تنبعث من فمه فما بالك بباقي أعضائه إنه يعطيك انطباعاً بأنك تقدم على جيفة كلب ميت.

(١) الـبختي نوع من الإبل وقد ذكره الدميري في حياة الحيوان الكبري في حرف الباء (ص ١/١٩٢) فقـال: البخت من الإبل معرب، وبعضهم يقول: هو عربي، والواحد الذكر بختي، والأنثى بختية، وجمعـه بخاتي غير مصروف لأنه بزنة جمع الجمع... والبخاتي: الجمال الطوال الأعناق. وعن ذكره في الحـديث أو الأخـبار المنسوبه إلى النبي ﷺ أورد ما ذكره مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال في صفة النساء اللاتي يأتين في آخر الزمان: «رؤوسهن كأسنمة البخت، لا يجدن ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام».

ويتفرقون، وهم خائفون. فيخرج طيف الخيال، فيقول له الأمير وصال: رأيت ما اعتمدته أم رشيد القوادة؟! ولكن الخير عادة، فأحضرها لي، واطلب الشيخ عفلق، فلا بد من ضربهم ولو أشق. فيقول طيف الخيال: أرجع إلى الله من قريب واترك عفلق، فهو متّكل غريب. فيقول: لا بد من ضربهم وحق رأسي، وتربة تركاس جدي الساسي[1]. فيخرج إليه /[٧٠/أ] شخص قد ذهب منه الأطيبان، وظهر عليه أثر الكِبَر وبان، لكنه قد خضب شيبه، وستر بالحناء عَيْبَهُ، فيضرط ساعلاً، ويترنم قائلاً:

لله من شيخ جفاني أحبتي وقد عاينوا من لحيتي فسح حيلتي
أحمل شيبي صبغة بعد صبغة وصبغة رب العرش أحسن صبغتي
وإذ شاب رأسي شاب عيشي شايب رماني بسوادي مينتي في مِنْيتي
/[٧٠/ب] وحاولت أن أخفي مشيبي فما خفي ويكفيك أني كاذب جوف لحيتي
وسميت طاووس البلابل إذ غدت مطوية كالريش لكن بكومتي
وما شبت حتى شاب قلبي من الأسى وما نفرت البيض إلا وآنس شيبتي
فأجرى بياض الشيب دمعي صبابة وقد يؤلم العين البياض بدمعتي
فواعجبًا منها بياضًا سودّت به به عند بياضِ العيد أثواب صبوتي
/[٧١/أ] وهبني له بالغش والنيل سائرًا فأين نهوض للنكاح ورهُمتي
وليصاحب صبيح المحيا وصبغة صبيغ المحيا نحوه النفس حَنَّتي
أراني غرابًا في الهزيلة أبقع على رأسه تنعاه كل صيحتي
وقد لاح موسومًا من الشيب بعدما تعرّى شبابًا كان أحسن حليت
فقال: لئن أصبحت من آل شيبة فما أنا من كلب ولا القوم أسوت
/[٧١/ب] وما تاب لما شاب عن كل ريبة واقلع الا بالتيا وبالّتي
وما نام في الحمام إلا رأيته ممدد عريانا تصوره ميّتي

---

(١) عن لسان العرب في مادة «سيس»: ساسان: اسم كسرى، وأبو ساسان من كناهم.
وقال بعضهم: إنما هو أنو ساسان. وقال الليث: أبو ساسان كنية كسرى، وهو أعجمي.
وكان النعمان بن المنذر يكنى بهذه الكنية أيضًا فربما أراد بقوله هذا: لا وحق جدي الملك لا بد من فعل ذلك به.

فيا قبحه إذا سال منه صديده ... وقد لاح مثل المركب المزَفتي
وقد ضاق بالحمام ذرعًا ... وضيقت منافسه من كربة بعد كربتي
ويشرب من صفارة حالة ... الظُمَا يمص بما يروي به بعض عَلّتي
وساح كاموات المبلات ماؤها [٧٢/ أ] ... فساك أنوف الحاضرين بنتني
واصبح للمقراضي في جنباتها فقال الذي ... في صوف فروٍ مسلّتي أغنام مكتي
وداح يناجي الغانيات كأنه ... تسوك من نتن الصبّاغ بخريتي
على قلح في فيه مع بخرْ به ... إذا فاح يسردي المسك في أرض تنبتي
وليلة زارتني على غير موعدٍ ... سعاد بوصل كان غير موقت
فقمت إليها ناهضًا وكأنني ... فتىً حَدَثًا لولا ريال ورعشتي
فقالت أما إن التصابي فظاهر ... واحسبه لولا ارتعاش به فتى
فقلت لها: ذي رعشة الوجد والهوى ... ولم أرتعش إلا لفرط محبتي
ولما خلونا لم تجد لي هِمَّسةً ... وأين على عصر الثمانين همتي
وأهوت إلى إيري لتمسك رأسه ... فما وجدت شيئًا سوى جلد خصيتي
غدا ناحلاً قد أغرته يد البلى [٧٣/ أ] ... يعاندني في صورة المتعنتي
تقلص لما رمت منه قيامه ... كقنفذ حجر في مغايب شعرتي
فقامت إلى عنقي بأدهم أعوج ... صقيل فقلت: النصر للمتثبتي
ونـدّيت فوق النطع فارْتَعتُ قائلا: ... ملكت قيادي فأحسني الآن قتلتي
تُرى ما الذي أذنبت؟ قالت: ... غررتني بصبغة شيب كالهشيم المفتّي
إذا هي حلت في يدي وتشيعت [٧٣/ب] ... سائلها أي المواطن حلت
وإن لعبت ريح الدبور بيبتها ... فأيّة دار وطئت وأيّتي
فآه لأيام الشباب وطيبها ... وآه على أيام هوي وَلَذّتي
وطيب ليال كنت فيها مفدًّا ... لكل فتاة كاعب الحسن طفلتي
خلفت عذاري بعد أن ألبستهُ الصبا ... جديدًا لبسي لأجمل خلقتي

إذا أعدلتني فيه عادلة الصِّبا يقول لها أيري قد انعظت فاسكتي

فإذا أتم الشيخ عفلق هذا الإنشاد، وأتلى على آخر هذا الإيراد. قال الأمير وصال: لا بد من ضربك بالسياط وإشهار هذا العجوز السوء في هذا الفسطاط، ليتعظ بها إبليس، ويتوب العجوز من التصبيب. فيقول طيف الخيال: ما هذا من أهل الملام، وما يحل في بلاد الإسلام والسلام، فإنه شيخ كبير/ [٧٤/ ب] وأحوال الأحوال تصف ضرير، وقد بلغ به التغافُل والنسيان في غاية صار فيها حماراً في زي إنسان، فإنه شرب من درديس العجوز مائة رطل وعشرين كوزة، وقد شهد له اليوم الذي تشق عليه القلوب لا الجيوب.

فَحضّر الشيخ عفلق شهوده الواضعين خطوطهم فيه، وهم السادة الفضلاء، ذوو العقول الصحاح، والألسنة الفصاح أدام الله لهم التوفيق، ولا عدل بهم في العدل عن الطريق/ [٧٥/ أ] يشهدون أن الشيخ الأهم يقطين الدولة فاشوش أبي المدفلق غير الدين عفلق، يسر الله معاصيه، وبارك في مخاصيه، ممن فاته الإفهام فهام، وأعياه الاقتحام، فحام ليس يدري من الجهالة من دور البيت في الجمال...[١] لوحظ شمس الهناء مشرقة لاذنت بالأفول، ولو لمس حب الفهم خاصيّة الفول.

/[٧٥/ب] قد قرأ في كتاب تأخير المعرفة وفصول الفضول، وتفقه فيها حتى ساوى بين المعقول والمجهول، ولم يفته من الكتاب العزيز سوى النصف والربع ومن سورة (يس) إلى الناس، وأتقن سوء الأدب إتقانًا وافيًا وبحث بلسانه في الطبيعة بحثًا شافيًا، حتى علم أن الياقوت من الجزع، وأن القرطم من الطلع، وأن الخل من النارنج، وأن القطايف من الإسفنج، وأن السمن من الشحم، وأن الزيت من الفحم، وأن الحرير من الأرجوان، وأن السمسم من الباذنجان، وظن أن الخمر في القطف ثابت، وأن الذيفي باطن التبن خردل نابت.

فهو أول ناقل عن غي باقل/ [٧٦/ أ] وآخر من حاجوا جحا، أجهل من تونس، وأشأم من طويس[٢]. فله من الحمار أذنه، ومن النسر ذهنه، ومن الثور قرنه، ومن الجمل

---

(١) بياض في المخطوط قدره ست كلمات تقريبا.

(٢) طُوَيْس هذا هو: أبو عبد المنعم، وهو رجل يضرب به المثل في الشؤم، والخنث، فيقال: أخنث من طويس، ويقال: أشأم من طويس، وفي موسوعة الأمثال العربية (٢/ ٢٢١)، (٢/ ٣٨٤): هو من مخنثي المدينة، وكان يكنى بأبي عبد المنعم، وهو أول من غنى الغناء العربي، سمع قومًا من الفرس يغنون، فأخذ طرائقهم وكان يقول: ولدت في الليلة التي مات فيها رسول الله ﷺ وفُطِمت =

دهـــنه، يعي غير ما قرأه، ويكتب غير ما وعاه، ويقرأ غير ما هو كاتب، كما يفرق بين القصب والخشب، ولا يميز بين الفضة والذهب، ولا يعرف النار إلا بإحراقها، ولا الملحة إلا بعد مذاقها، وخطؤه بغير مرام، وصوابه رمية من غير رام، كما قال فيه الشاعر:

لــو خــتم خــاتم الكنــيف بــه مـــا وردتـــه بـــســنات ودان

/ [٧٦/ ب] ثم طـــال مـــا تشمس بالقمر، وتعشى في وقت السحر، وفتح حجره لسقوط الكواكب، وعلم زيادة البحر في ظهور المراكب، وربما مضغ مع الخبز قطعة من لـسانه، وأذّن في الصحراء غدًا ليسمع صوت أذانه، وحلم وهو قائم، ومشى وهو نائم، وفيه يقول الشاعر:

يـضحك إبلــيس إذا مــا بــدا لأنـــــه عـــــار علـــــى آدم

فلـــذلك انتصر له صربعر[1] الشاعر، وقال على لسان لسانه على سبيل شكواه هذه الأبيات:

/[٧٧/أ] قل لِوَالِي الفسوق والفجار عَـــضُد الـــبُله عمـــدةَ الأدْبـــار
والـــذي قـــد غـــدا ســـفينة جهل ولـــه مـــن قـــرونه كالـــصَّواري
أنـــا أشـــكو مـــن زوجـــة صيرتني غائـــبًا حاضـــرًا مـــع الحُـــضَار
غـــبت حـــتى أنهـــم لـــو صفعوني قلـــت لهـــم: كفوا بالله عن صفع جاري
ملكـــــتني عـــــيُارة وعـــــيار حـــــين زادت بالدردبـــيس عـــياري
فـــنهاري مـــن الـــبلادة لـــيل في التـــساوي والليـــل مـــثل الـــنهاري
دار رأســـي عـــن بـــاب داري فـــبالله أخـــبروني يـــا سادتي أين داري؟
أيـــن مـــخ الجمال من طعم مُخي؟ يـــا لقومـــي وأيـــن مـــخ الحمـــارِ؟

في الـــيوم الذي مات فيه أبو بكر ﷺ، وبلغت الحلم في اليوم الذي قتل فيه عمر ﷺ، وتزوجت في الـــيوم الذي قُتِلَ فيه عثمان ﷺ، وولد لي في اليوم الذي قتل فيه علي ﷺ، فأنا أشأم الناس. وقيل: أشـــأم مـــن طوَيْس. وورد ذكر هذا المثل في: ثمار القلوب (١٤٦)، وجمهرة الأمثال (١/ ٤٣٦)، والـــدرة الفاخـــرة (١/ ١٨٥ أو ١/ ٢٣٥)، المستقـــصي (١/ ١٠٩ و ١٨٢)، الميداني في مجمع الأمثال (١/ ٢٥٨ أو ١/ ٣٩٠)، الألفاظ الكتابية (٢٨٢)، ثمار القلوب (١٤٥)، وجمهرة الأمثال (١/ ٥٣٨)، واللسان (٦/ ١٢٧)، زهر الأكم (٣/ ٢٠٩)، الفاخر (ص ١٠٤).

(١) سبق ترجمته في أوائل الكتاب.

غفر الله لي بما رحت للبحر   من البرد اصطلي بالنارِ
وتجردت للسباحة في الليل   لعلمي به الزلال الجاري
أنا أنسى أني نسيب فلا   يخش بسري مذاعة الأسرار
ولكم قد رأيت في الجب شيخا   وهو طافي في الماء كالغَيار
شيخ سوء كالثلج ذقنا ولكن   وجهه في سواده كالقار
أشبه الناس بي وقد يشبه   التيس أخاه في عرصة الجزار
لم يعظني منه سوى أنه   عبّس مثلي وافترّ مثل افتراري
/[٧٨/ب]صاح مني إذ صحت منه جهارًا   بانتهار يا صاح مثل انتهاري
فاعتراني منه غناء وناديت ما   كنت أظن اللصوص في الأديار
أين ترسي وأين درعي؟ الحقيني   يا أم عمرو بصارمي من البتار
إن أمت في الغزاة كنت شهيدًا   أو أعش كنت أشطر الشُّطار
ثم أثخنت ذلك الجب ضربًا   بحسامي حتى هوى بانكساري
وجرى/[٧٩/أ] الماء فاحتسيت وإلاّ كنت   حسيت للأبصار في الأدبار
ولكم قد عصيت رحلي لرؤيا   أوطأتني فيها على مسمارِ
ولكم قد رُمت قلع ضرس ضروس   بعدما ضَرَّ غاية الإضرار
فأراني قلعت بعد عناء   واجتهادي القوي من أزراري
ورحا حركتها لطحن فما ولت   ضلالاً أدور حول المدارِ
/[٧٩/ب]وأنادي وقد سئمت من الركض   يا ترى أين منتهى مضماري؟
أنا سطل الشر الحي لما أودع   من عجة ومن أبزاري
أنا مثل الخروف قرنا ولكن   بهمومي عُددت في الأقدار
أنا كالبان في قوامي وإن   أفردتني كنت في الحقيقة طار
أنا لو رمت للعلاج طبيبًا   ما قد تعديت دكة البيطار[1]

(١) المراد بالبيطار هنا هو: ابن البيطار وهو: عبد الله بن أحمد المالقي، أبو محمد ضياء الدين المعروف =

/[٨٠/أ]بعد ما كنت عارفًا في ذكاء أن بـــابي مـــن صـــنعة الـــنجار

بابن البيطار، الأندلسي/، نزيل القاهرة، وهو إمام النباتين وعلماء الأعشاب قالت صاحبة الموسوعة الذهبـــية في ترجمته: أوحد زمانه وعلامة العرب في معرفة النبات وتحقيقه واختباره، ومواضع نباته ونعـــت أسمائه على اختلافها وتنوعها. ولد في مالقة بأسبانيا في أواخر القرن الـسادس الهجري الثاني عـــشر المـــيلادي، درس في أشبيلية، وأخذ عن أساتذته أبي العباس بن الرومية النباتي، وعبد الله بن صـــالح، وأبي الحجـــاج وتـــشرب بنباتها وعرف فوائدها وخصوصًا الطبية منها رحل إلى المشرق وعمـــره في العشرين زار خلالها المغرب وأقطار شمال أفريقيا وبضمها مصر ومن ثم ساح في سوريا وبـــلاد الإغـــريق وإيطاليا وتركيا حيث تعرف على أنواع نباتاتها واجتمع بأكثر علمائها في علوم النـــبات وأخذ عنهم الشيء الكثير. قال عنه ابن أبي أصيبعة، وكان أول اجتماعي به بدمشق سنة (٦٣٣هــ) فرأيت من حُسن عشرته وكمال مروءته، وطيب أعراقه وجودة أخلاقه وكرم نفسه ما يفـــوق الوصف، ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيرًا من النبات في مواضعه وقرأت عليه أيضًا تفسيره لأسماء كتاب الأدوية لديسقور يدس فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته في الأدوية المفردة ما لم أجده في غيره من العلماء.

نـــزل مـــصر، فقـــربه السلطان الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب وجعله رئيسًا لسائر العشابين وأصـــحاب البـــسطات وقد اعتمد عليه في الأدوية المفردة والحشائش وعندما تولى هذا الملك في دمشق التحق بحاشية ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل وكانت له مرتبة عالية في أيامـــه. ثم عاد إلى دمشق مرة أخرى حيث توفي سنة (٦٤٦هــ/ ١٢٤٨م) نتيجة تناوله عقارًا سامًا حسب رواية صاحب نفح الطيب.

وقـــد تـــرك ابـــن البيطار مصنفات أهمها: كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية وهو المعروف بمفـــردات ابن البيطار... وهو مجموعة من العلاجات البسيطة المستمدة من عناصر الطبيعة: معادن، نـــباتات حـــيوانات، وقد جمع فيه بين وصفات القدامى من يونان وعرب، واختباراته الشخصية، ورتبها على حروف المعجم...

كتاب المغني في الأدوية المفردة. يتناول فيه الأعضاء واحدًا واحدًا ويذكر طريقة معالجتها بالعقاقير ولـــه: «ميزان الطب»، و«الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام» نقد فيه منهاج البيان لابـــن جذلـــة. وكتاب: «الأفعال الغريبة والخواص العجيبة». وكتاب: «الجامع لمفردات الأدوية والأغذيـــة» أهم مؤلفات ابن البيطار جمع فيه معلومات يونانية وعربية في علم النبات والأقراباذين، ولاسيما مؤلفاته الخاصة المكتسبة من أبحاثه وتجاربه الشخصية التي كان يجريها بنفسه. وقد رجع إلى أكثـــر من ١٥٠ مؤلفًا وكتابًا وذكر فضل كل منها في موضوعه وقد وصف أكثر من (١٤٠٠) صنف من الأدوية المختلفة ما بين نباتي وحيواني ومعدني منها (٣٠٠) صنف جديد لم يتناولها أحد قـــبله مـــن علماء النبات والأدوية، ووصفة دقيقة للغاية، وهو يذكر المترادفات كما يذكر ترجمتها بالإغريقية وبالفارسية، والبربرية والأسبانية.

فينادي طيف الخيال، ويقول: يا شيخ عفلق، ظهرت عليك دلائل الكِبَر، ورأيت في نفسك العبر. فيقول طيف الخيال: فما الذي بقي عندك من آلة النكاح، والعناق. فيقول: قليل من البُصَاق وانشد/ [٨٠/ ب] وهو يقول شعرًا:

يـــا معـــشر الـــناس حـــانني ربي وصـــرت معـــه بجملـــتي مُحـــبي
لا ذَنْـــبَ لي غـــير أن لي ذَنَـــبٌ فـــتوره عـــند منـــيتي ذنـــبي
يفـــضحني كلمـــا كـــشفت بـــه وكـــان أولى بـــستره عـــني
كأنـــه والأكـــف تـــرطله خـــريطة فُـــرِّغَت مـــن الكُـــتُب
كـــم غـــادة أصـــبحت تعنفني فيه وأخـــرى تطـــيل في عَـــتَبي
/[٨١/أ]تقـــول أقرفتنا بلغوطة منك بهـــذا المـــشؤم يـــا ربّـــي
وصـــفت مـــا بي ممـــا أكابـــده إلى الحكـــيم المهـــذب الـــرحبي
فقـــال بـــرد الوضـــوء شـــيخه ولـــيس يخفـــي هـــذا ظـــني
أرطلـــه حـــتى تـــراه مختـــلجًا وأدخلـــه إن أردت في ثقـــبي
فقلـــت: اخـــشى بـــأن تموت سَدًا فإنـــه فـــاطس مـــن الكـــرب
/[٨١/ب]مـــن لي بأن ألتقيه عادته كالـــرمح عـــند الطعـــن في الحـــرب
يـــا مـــن رمـــاني هجـــره ملـــلاً كـــن آمِـــنًا أن رقـــدت في جـــنبي

فـــيقول طيف الخيال: لا بد من الحكيم بقطينوس فهو عندنا في رتبة جالينوس، وهو الذي باشر أبو دقماق الملقب بالمعين من بعد ما كان من كلالة لا يبين.

قال: فيبكي الشيخ عفلق وينوح، ويشهق وينهق، وهو يقول:

/ [٨٢/ أ] وبلـــيت بمـــثل ما ابتلي المعين بأير ممن صنع بأير من ضنا لا يبين تراه مـــثل جسم الشمع لينًا بأدنى العراك في كفي تلين وكان يقدّه الفًا قويمًا وها هو اليوم في التـــشبيه نون إذا ما الفرج قابله تراه يصدُّ دانه بغلّ حرون، ورب خويدة البدر وجهًا يعار إذا أتيت منها الغصون لها سرٌّ مصون في فؤادي بروحي ذلك السر المصون احاول وطأها وتـــروم صفعي لصفعي، والزكاف له غبون، وتكشف عن غلظ الشفير الماء فيرقد عنده الأير الخؤون إذا فقد أمرًا نطاحًا بأير فقد يكفيه في الرأس القرون فيا لك مطلقًا بضًا شيقًا سمينًا دون ملمة العجين/ [٨٢/ ب] له من جلنار الروض نضر حكاه في البياض الياسمين،

أسـيل الخد، مثل النهد، صلب الجبين، فوق جبهته غصون، وتأذن عندما خوّضت فيها، تأخر أيها الشيخ الحزين، دع التزليق في أكناف فرجي ففرجي ما به ماء وطين، بهذا الأير تطلب وصل مثلي، وهذا الأمر شيء لا يكون.

فقلـت لها: فديتك النفس هذا مريض كان أقرفة السمين، ورمان النهور له دواءٌ فقد أودى بـه الداء الدفين، خذيه لاطفيه ولا تملي بكفيك إنه كفٌّ مهين، ينام على مخدات المخـاص، ولا ترفع له أبدًا جفون. فقالت: كم أحركه بكفي، ويرقد مثلما رقد الجنين. /[٨٣/أ]فـيقول عفلق: هذا الحكيم بقطينوس المعني ابن شديد، هو الذي قضت على يـده زوجتي أم رشيد. فيقول: بالله ماتت؟ فيقول: نعم، وفات. فيقول الأمير وصال: يا ريـس علـى أطلب الحكيم، لأساله عن حالة العجوز بما هو به عليم. فينادي الحكيم، فيجـيب: أعـوذ بالله الشيطان الرجيم، من هذا الطارق في الليل الغاسق؟ ومن ذا الذي أزعجـني من فراشي في الليل الغاشي؟ ومن أقامني من رقدتي، وبعدما انهضم الطعام من معـدتي حتى/[٨٣/ب] سقطت قوتي، وكِدْتُ من خفقان قلبي أن أقضي نحبي، وما جـرت العادة أن تطلُب الحكماء بالليل، إلاّ بعد أن تُحمل له الكواغد، وتشد له البغال والخـيل، ولم يعهـد هـذا من أيام الوباء والطواعين، والمرض مطرحين على مصاطب الـدكاكين، وعلـى أبوابنا الرخام والفوانيس بأيدي الخدام والجنائز في الجوامع، بالحلي الـنفائس، تُحلـى على الصفوف كالعرايس، والناس لا ينشف لهم دمعة، والمقربون لا يخـرجون إلاّ بالقـرعة، والغسال لا يستوفي الغسل/[٨٤/أ] والحمال متقدم من ثقل الحمـل، والحفـار لا يوقر قبرًا، ولا يتحاشى ثيبًا ولا بكرًا، وقد شمل الإقليم ذلك الوبا، وعـادت الأرواح والقـوي كالهبا، والفروج معدومة، والشراب والحقن بأغلى ثمن، ما تصاب، فذكر الله بالخير تلك الأيام فما كانت إلاّ كالأحلام.

فـيقول طـيف الخيال: أنا ما طلبتك إلاّ لأسألك عن أم رشيد، باقية هي أم أبادها المبيد؟ فيقول: نعم يا ولدي، هلكت في الفصل على يدي، وذلك أني دعيت على سبيل العـادة إلى منزل/[٨٤/ب] معروف بالقيادة، وإذا أنا بعجوز قد ضربها الشيب، وزيها يـدل علـى أنهـا تستحسن العيب، وحولها نساء حسان، مثل زهور البستان والنوافر العطـشان، والورد الطري الريان، وقد ارتفعت ضجة القوم، وفتحت عينها الوسنا[1] من

(١) الوسن: هو أول النوم أو مقدمته، قال ابن منظور في لسان العرب في مادة «وَسَنَ».. جل وسنان ونعـسان بمعـنى واحـد. والسِّنَة: نعاس يبدأ بالرأس فإذا صار إلى القلب فهو نوم، وفي الحديث:

=

الـــنوم ورمقت بطرف يدمع، وأشارت بصوت لا يكاد يسمع، وقالت: أوصيك يا فلان بكفالـــة هـــذا المكان، وأن تعمر عافية، وتقيم للعشاق مقامي فيه، وتؤلف بين القلوب، وتجمـــع بين المحب والمحبوب/[٨٥/أ] ولا تتوقف في أمر ولا تماكس فيخدر، وأن تفتح للزناة أبوابك المقفلة، وتأخذ الركاد عدوًا وقشقلة.

وأمـــا أنـــتم يـــا معشر القُحّاب، وعمارات هذه الرحاب عليكن بصدق المواعيد، والـــسعي إلى الحرفى ولو كانت ليلة العيد، وانبسطن في مجالس العشاق، وبعن الوطء ولو على الدواق. ثم نزلت بها جادة الموت، وفات فيها الفوت، فلما أردت الانصراف، قال لي من حضر من أولئك الظراف: يا طبيب ما وصفت للمرحومة، ما تستحق به الأجرة، وجـــيت إلـــينا ونحن في فرج أخت ما نكره؟ فأردت الكاغدة[1] ، فما وجدنا في مجيك فائدة.

فقلـــت: أما الدراهم فما أعطيها، ولكني أبكي معكم وأرثيها، وأنشد هذه القصيدة وأصف معانيها، ثم رفعت صوتي منشدًا في الجمع وقد ابتل الثرى بالدمع، وقلت شعرا:

سـاعدوني بالـــنوح والـــتعديدي ... عـــند فقـــد العجـــوز أم رشـــيد

فدموعـــي مـــن عـــين ظهري عليها ... مـــن قيامـــي مصفرة/[٨٦/أ] وقعودي

نـــشفت بعـــدها دمـــوع المخـــاص ... وبكـــت عـــندها فخـــاب الـــسُدودِ

وخلـــت بعـــدها عـــراص المعاصي ... بعـــدما كانـــت مـــشحونة بالوفـــودِ

كـــم مقـــام أمـــسى كـــريمًا بقـــوم ... مـــن بـــني الفـــضل والـــندى والجـــودِ

وكفـــاه مـــن الندمـــى علـــيها ... زوَّجـــوا المـــاء بابـــنة العـــنقودِ

انعظـــوا والدّجُـــى علـــيها رواقًـــا ... بأيـــورٍ في قـــوة، كالحديـــد

واســـتغاثت ضـــحى بـــصاحبة الدار ... فجـــاءت تجـــري كجمـــل الـــبريد

-

«يـــوقظ الوســـنان» أي النائم الذي ليس بمستغرق في نومه. والوَسَنُ: أول النوم.... وامرأة وَسْنَي ورسنانة: فاترة الطرف شبهت بالمرأة الوسنى من النوم... وتوسن المرأة: أتاها وهي نائمة.

(١) الكاغـــد والكاغـــذ كلاهما بمعنى واحد، وهو فارس معرب، والكاغد تستخدم في البوادي العربية والـــصحاري وليبيا وبلاد المغرب بصفة زائدة والمراد به حافظة النقود سواءً كانت من القماش أو الجلـــد، وقـــد تعارف على ذلك في مواطنهم أما في الحضر فلا يعرف والمعروف بدلاً منه الحافظة (المحفظة) (الشنطة) (البُك) (حقيبة اليد)، (شنطة اليد) وهكذا.

خلفهـا كـل غـادة تخجل الغصن إذا كـان مثمـرًا بالـنهودِ
خـدُها للـشقيق[١] أضـحى شقيقًا وكـورد في غايـة الـتوريد
ولهـا أبـيض الـسوالف صـلبًا أملـس المـتن نـاعم الجلمـود
يتلظـى فـيه القمـند مـن الجـر بثغـر عـذب الرضـاب بـرودِ
وجلـتها علـيهم كعـروس بنكاح لكـن بغـير شـهود
مـن لجمع الجموع في جِنْدِس[٢] الليل وطـرد المـنادم العـربيد
طـال مـا ألفـت قلـوب ومـا قـد نَفَّـرت بـين مـسلم ويهـودي
وأتـت للبـنات وهـي تـنادي أيـن مـنكم مـسافر للـصَّعيدِ
تقـبض الجـدر لا تمـاكس فـيه وتـواني لوقـتها الموعـودِ
/[٨٧/ب] وترى للحريف صرحًا على الموطء وتـأتي بكـل حـسناء زودي
فاعـذروا إن بكـيت حـزنًا علـيها وبـنالي مـن فحـتي وتنهـيدي
أيّ سـت والهـف نفـسي علـيها فُقِـدَت آخـر اللـيالي الـسودِ
فاندبـيها يـا أم طـوغان وابكـي فقـدها إن فقـدها يـوم عـيد
وأغـسليها بـبول كـل غـويٍّ أو بـدردي[٣] النبـيذ والتـصميد
واجعلـي شـقة الأيـور حـنوطًا مـع كافـور جعـص بعـض العبـيد

---

(١) يريد القمر فهو شقيق الشمس يصف به خدها.

(٢) حـندس الليل: أي ظلمته، قال ابن منظور لسان العرب في مادة «حندس»: الحِنْدس: الظلمة. وفي الـصحاح: الليل الشديد الظلمة. وفي حديث أبي هريرة قال: كنا عند رسول الله ﷺ في ليلة ظلماء حِـندِس. أي شـديدة الظلمة. ومنه حديث الحسن: وقال الليل في حندسه. وليلة حندسة، وليل حندس: مظلم. والحنادس: ثلاث ليال من الشهر لظلمتهن ويقال: دحامس. وأسود حِندِس: شديد السواد، كقولك: أسود حالك.

(٣) الدردي: هو التنفل أو ما سفل أو ترسب في قاع الإناء كالزيت والخمر وما أشبهه من المشروبات ذوات الرواسـب كالشاي والنعناع إلى آخره. وقال ابن منظور في لسان العرب في مادة «درد»: دردي الـزيت وغـيره ما يبقى في أسفله. وفي حديث الباقر: أتجعلون في النبيذ الدردي قيل: وما الدردي؟ قال: الرُّوبَة. قال: أراد الدُّرْدِي الخميرة التي تترك على العصير والنبيذ ليتخمر. وأصله ما يركد في أسفل كل مائع، كالأشربة والأدهان.

وأدرجيها على أيور النصارى مثل أفعالهم بعيد الشهيد
وأحرقيها ورود كل جنان في جحيم تقول: هل من مزيدِ
واحضري صحبة العجوز قحابًا نادبات بكل زمرٍ وعودِ
واجعلي قبرها بخرَّارة الحمام خلف المرحاض عند الوصيد
/[٨٨/أ] يا أم طوغان واندبيها وغني يا لسيالي الوصال بالله عودي
واذكريها بكل شر وبال كل يوم واهدي إليها وقودي

[٨٨/ب]فيقول طيف الخيال: يا أمير وصال، أستغفر الله من هذه الخصال، وأعوذ بعفو الغفار، من تحمل الأوزار، والعمل بعمل الأشرار، والإنابة أجمل، ونحن قوم شعراء نقول ما لا نفعل، وينشد:

كل حيٍّ إلى الممات يصير ما له ساعة النزاع نصير
/[٨٩/أ] وزمان العمر الطويل إذا ما اختلف الليل والنهار قصير
أين عاد وتبع وثمود ثَمّ والرس وابن الربا وأين قصير
والسعيد الذي يرى طرق الرشيد بعين اليقين، وهو بصير

فيقول طيف الخيال: يا أخي يا أمير وصال، ما بقي غير الارتحال، وقد عزمت على الحجاز ومرت بالحقيقة عن المحال، والمجاز، وقصدت غسل هذه الأيام بماء زمزم والمقام /[٨٩/ب] ونويت زيارة سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلى آله وصحبه الكرام. فاجعلني نصب عينيك، وهذا فرق بيني وبينك ثم ينصرف.

تمت البابة الأولى تتلوه البابة الثانية وهي بابة عجيبة وغريبة

والحمد لله وحده..

/[٩٠/أ] بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أجبت أيها الأستاذ الظريف، والماجن اللطيف إجابتك، فإياك أن تظن همتي في الأدب واهية متوانية، وأتيتك بغريب، وألحقتك بعجيب.

وهذه البابة تتضمن أحوال الغرباء المحتالين، وبني ساسان، والأدباء القوالين.(١)

فمتى دعيت إلى مجلس السرور والإيناس، فابدأ عند جلي الستارة، بمدح من حضر من الناس، وغنِّ باتفاق في عراق، شعر:

/[٩٠/ب] يا ليلة فاقت الليالي ... بالأنس والسادة الموالي

فنظموا لاجتماع شمل جمع ... الثريا مع الهلال

لا برحوا موئل العطايا ... والفضل والبذل والنوال

فيخرج شخص ويقول: عبدكم الكئيب، المعروف بالغريب، الذي أنابه الحنين، وغادره الأنين، قد تفارقت به الأمصار، ودار مع الفلك الدوار، بعد أوطان وأوطار، وينشد شعر:

غَيَّرَ صرف الزمان حالي ... فمال دهري تُرى ومالي

حتى كأني له عدو ... يرشقني منه بالنبال

/[٩١/أ]أين زماني الذي تقضّى؟ ... وأين جاهي؟ وأين مالي؟

وأين خُفي وطيلساني؟ ... وأين قيلي؟ وأين قالي؟

وأين عيشي؟ وأين طيشي؟ ... وأين مالي؟ وأين حالي؟

ونحن في فتية كرام ... لجارهم في الفخار عالي وقد درسوا

قد درسوا في الفسق من قديم ... فكم لهم فيه من جدال

هم أرغب الناس في الفقاح(٢) ... اللذيذة الوطء للمتعالي ذم

---

(١) القوالين: هم المداحين.

(٢) الفقاح: هي المرأة الحسنة المنظر الوسيمة القسيمة ذات البهاء الأخّاذ.

وقال ابن منظور في لسان العرب مادة ففسح: امرأة فُقّاح بغيرها: حسنة الخلق حادرتُهُ.

وقد يكون أراد به سعة فتحة الدبر فقد ورد في اللسان في نفسه المادة أيضًا قوله: والفَقْحَة: معروفة، قيل: هي حلقة الدبر، وقيل: الدبر الواسع، وقيل هي الدبر بجميعها، ثم كثر حتى سُمّي كل الدبر فقحة. قلت: وعلى هذا فربما أراد أيضًا الأرداف.

مخنث عندهم للوطء أحسن ... من زينة ومال
فما لهم قط من حديث فيه ... سوى الوطء والبدال
فقائل وطأني وقائل وطأته ... لاَ لَهُ وَلاَ لي
قائل حين طاح سكرًا ... قام يحبو إلى البزال
ونحن في مجلس بديع ... جل عن الوصف والمثال
جُمع فيه من كل حسن قيم ... في غاية الكمال
فالراح في الراح والملاهي ... في اللهو والتفل في التفال
وللملاهي بنا ضجيج ... وللمزاويق والمقال
فالدُّفُ دَفْ دَفَ دَدَفْ دَدَفْدَف ... والزمر تَلْى تَلْل تَلاَلي
والحبك تَنْتَنْ تَتَنْ تَتَنْتَنْ ... بضربة ربة الحجال
وبيننا جمرة كبيرة ... رضفها المرح باللآلي
جسيدة الطعم عتقتها ... إلفْ بالفِ يد الليالي
يديرها شادر رشيق ... مهفهف القد ذا اعتدال
مورد الوجنتين حلو سواه ... في الناس ما حلالي
قلت له إذ طال بعدي ... ولج في الهجر والمطال
دع التجني فلست أسلو ... أي علق أي فضل أي محال

فأين تلك الأيام وطيبها، وحسن الطافها وأعاجيبها؟

فرحم الله شيخنا ساسان، لقد كان رجلاً عظيم الشان، قدوة الأدباء، وأنيس الغرباء فجمع الله كل محب بسكنه، ورد الله كل غريب إلى وطنه «شعر»:

عجبت وشأن الحب كل عجيب ... إذا مات بالأشواق كل غريب
تباعدت الأجسام منا وإنما ... لنا جامع من تربة وقلوب
أفارق خِلاً بعد خِلُ كأنني ... أفارق نجلي أو أخي ونسيب
كأني من كل البلاد ومدمعي ... على كل نادٍ باكيًا بنحيب

على أنني لولا اغترابي لم أطب ... وما عاقلاً في بلدة بغريب(١)

وحيا الله السادة الحضار عيون الأعيان نواظر النّظّار. اعلموا يا سادتي أنني من/ [٩٣/ أ] بني ساسان الذي قعدت لهم رمانة الزمان، وادغرتهم أيام الفراغ، والدانك والثلاع، وضمي الخمار والشطيف، وصهو السماقين الهيف، وينشد ويقول:

لي رفاق منهم قططوا العظامي ... والقُبلُ الزكا دجي والذرندي

وكويكات والخفنج وقُرداح ... وسريان والجبان المُكدّي

(١) الغربة أنواع، الحب أنواع، والمحبة أنواع، وقول الشاعر هنا أصاب من نفس شجون كثيرة من المؤكد أن القلم لا بد أن يعجز عن وصفها وليس القلم وحده بل اللسان نفسه ولا يعرف تلك المشاعر غير نفسي، وربما أحسها من عاش بعضًا مما وصفه الشاعر فكيف بمن عاشها كلها بل وأكثر منها بكثير، فكل أنواع الغربة عاينت وكل أنواع الحب لاقيت، وصنوف المحبة تعاطيت. وإن الشطر الأخير من قصيدته كان هو الملاذ الوحيد لي وبه انصح كل من ابتلى بشيء من ذلك فالعقل نعمة لا يمكن أن توصف كما أنه لا يمكن شكر واهبه عليه، والعجيب أن كل عاقل وكل جاهل وكل أحمق يظن أنه اعقل إنسان وأحكم إنسان غير أن العقل يحكم عليه غير صاحبه أو يعرف صاحبه نعمة الله عليه حين يرى نتائج تفكيره إذا لم ترده عندما يستخدمه متوكلا على الله في هذه الغربة وتلك الوحدة وضيق اليد وثقل الظهر وقلة الناصر وذهاب الأمن وتربص الأعداء.

فيا من ابتليت بما أسلفت عليك بأمرين هامين تنجو أو تسلو عما أنت فيه هما معرفة الله واستخدام العقل وأمر آخر ثانوي أرى أن تركه أولى شاور من تثق به ولا تعتمد مشورته إلا بعد أن تقلبها كثيرًا على كل الوجوه فربما دلك على ما يضرك بقصد زاعمًا أنه يهديك إلى الصواب، آه آه فإن في القلب غُصُصٌ لا غصّة.

ومع هذا فإنني اعترض على البيت الثالث من القصيدة حيث لم يقع لي خل وفي وهذا طبيعي، ولا أخ، ولا نسيب مع أنني لي من الأولاد عدد كثير ومن الأخوة ما قارب الخمسة عشر أخ، والنسب لم يفلح إلا في الزوجة فهي بلسمي في هذه الحياة الذي أتناوله كلما تكالبت عليّ الهموم والأحزان والمصائب، فقد عوضني ربي فيها أيما عوض وأكرمني بها أيما كرم وسلاني بها أيما سلوى وأسعدني بها أيما سعادة وهنأني بها أيما هناء وأراحني بها أيما راحة ومتعني بها أيما متعة، وصفاها لي أيما صفاء، وأخلصها لي أيما إخلاص ووفاها لي أيما وفاء وبارك لي فيها أيما بركة، فاللهم احفظها لي وادمها عليّ وامنحها الصحة وعافها من أمراضها، وإن توفيتها فتوفها قبلي بقليل جدًا بيوم أو يومين هذا مناي حتى أغسلها وأكفنها وأصلي عليها وأدفنها وأزورها مرة واحدة ثم ألحق بها هذا أملي ورجائي منك فلا تحرمنيه يا الله، وإن زاد كرمك علينا فاجعله في بلدك الحرام لندفن على جوار أمها خديجة فهذه أمنيتها، إنك على كل شيء قدير، وأنت أكرم من سئل وخير من أعطى يا رب.

وشـــر يمـــيط والقـــيب ورتـــلام — وبحـــــلاق والمحـــــنّ القَمَــــدّي
/[٩٣/ب]يهطـــل الكـــد والـــسمافين بالفيس — ومـــا أن نكـــيفهم شـــرط مسردي
وتـــرلني إن نـــشمت فرشـــي رمـــادي — الفـــرن سُـــخنًا وصحفتي تحت خدي
أتـــلفأ بالـــنار حـــتى تـــرى جـــسمي — مـــنها مـــنقطًا كالفهــــد(*)

وذلك لما حال الحال، وما المال، وبل البال وذهب الذهب، وانفضت الفضة، وكثر الهم والتعب، وانقطعت الحيلة والسبب، فقلت إذ قلت:

/[٩٤/أ]ســلهقت مـــن صهوي لذ مقارملقم — فمـــشنقت في الحـــيفاد من كان صاهيا
إذا ورد الجـــزار في المـــنبح شـــردت — كـــرًا لي التـــبريح يـــدعا موالـــيا

ولمـــا لم يـــبق من يُستّر جاء نايله، رأيت الحيلة عليهم ولا الحاجة إليهم، فملنا إلى الـــراحة والكـــسل، وتركنا العمل، وانفردنا بالمدكاة والحيل، وتفرقنا إلى تلك الفرق ولم يـــضرنا رغـــبة ولا فرَقَة، وأقدمت على وصف الطراش ورأيت الهوام كالحشاش فهطلنا /[٩٤/ب] السمقون والكد، وعبينا الخيض[1] والسكري، والذي يسعى ويكد، وقفينا صياح الديوك، وكسبنا المردود، والمراقين والبتوك، واطرحنا الاحتشام.

وهُـــنا كمَنّا بمصر والعراق والشام، وتساوي عندنا الأساوي، وادّعينا أباطيل الحيل والـــدعاوى، فطورًا أدعي معرفة الكيمياء، وآونة أبث بالمطالب وعمل السيمياء، ووقتًا بالعـــزائم والتعاويذ والتغوير ووقتًا اكتب على الشقف لزوال الماء من البير، وطورًا أدّعي الحكـــم على ملوك الجان/[٩٥/أ] واستحضر مبططرون والشيصبان، وأخرج الزبد من فمـــي كالـــصابون، ثم أنشكع كالمجنون وربما هابرت العميان، وأورّم أطرافي بالأزبارس، وأتباكى بالكندس من الإفلاس إلا أني يا رئيس على ما أطلعتك على هذه الأسرار إلا وقد غلـــب علـــى عقلي عقار الخمار، وها أنا في هذا الوقت قد انقلبت جملة خوفي، وحياة وجهك، ثم الخرا في جوفي، ثم ينشد ويقول:

(*) المقصود النمر فهو من فصيلته.

(١) الخبيـــيص طعام معروف وهو نوع من أنواع الحلوى، وفي لسان العرب في مادة «خبص» الخبيص: الحلواء المخبوصة معروف، والخبيصة أخص منه. وخبص الحلوى يخبصها خبصًا، وخبصها: خلطها وعملـــها. والمخبـــصة: الـــتي يقلـــب فيها الخبيص. والمخبصة كالملعقة يعمل بها الخبيص. قلت: والخبص: الخلط.

خراكم يا موالي في سُبَالي   وأخوات القحاب على قذالي
/[٩٥/ب]لأني أنحس الثقلين طرًا   وكل النحس يُعمل من مثالي
فمبدئي من الكُتَّاب عِلْقًا   مع الصبيان أُعْرَفُ بالبدالي
ولما صرت بين الناس أُلحا   تعلمت الفجور مع المحال
أدور على بسيوت القُحَّبِ ليلاً   وألهو كالحمير وكالبغال
جلد عميرة عندي إذا ما   عدمت الوطءكالبكر الحلال
كذاك الدّب والتنكيس شغلي   جهارًا في الزحام ولا أبالي
وفي التأليف بين الناس شغلي   وإصلاح النساء /[٩٦/أ]مع الرجال
ضنيت من الغرام ولا دَوَالي   سوى ما راق من نبت الدوالي
رحيق في الكؤوس نرى حريقا   إذا صُبَّت مع الماء الزُّلالِ
فطورًا مُنْشِدٌ شعرًا بديعًا   وآونة أتشلق كالخيالِ
وتنظرني رسيلاً للمغاني   إذا غازلت أخرى ذا دلالِ
وكم أمسيت في الجولات سَطِلاً   مع الفقراء أرقص في الجبال
وتحسب أن بي طربا وحالا   وما بي غير سودات الضلال
وأكل الفار والأمرار دأبي   مع المنهار عنبر أو بِلالِ
حبيت السوق أجْرُدُ رأس كتفي   وأجبي بالمشاغل والمحالِ
ورقصت الذباب وُعُدّتُ   أجبي على قردٍ تعلّم من فعالي
وعلمت الكلاب الرقص مني   وَهَذَّبتُ النواشز في السلال
وعدت مغامرا في دار لص   بقص النرد في نحس الخصال
وكم ناطحت بالكبشين نطحًا   وألحيت الديوك إلى القتال
ولكني رأيت العلم زينًا   فعدت إلى المدارس والجدال
وثبت وصرت في الفقهاء أقضي   وأفتي في الحرام وفي الحلال
ونظم الشعر صرت به فريدًا   وطلت به على السبع الطوال

وعلم النحو فيه النصب فنّي على من كان ذا جاهٍ ومالِ
وقطعت العروض بفاعلات وأوتاد وأسباب ثقال
وطببت الأنام فكم أُناس قتلتهم بقبض وانسهال
وداويت العيون فكم جفون بكحلي لا تنام مدى الليالي
وصرت من الفلاسف ذا نحل أسفسط بالمراء وبالمحال
وفي الأعشاب والأسلاب علمي له البيطار[١] أصفع بالنعال
بأغسالٍ منظفة حرار تدق الزنجبيل مع النخال
وعدت إلى المقابر رب وعظٍ ومقرئ على الرمم البوالي
وألقيت الخناء وراء ظهري ولم يخطر ببالي أن أبالي

/[٩٨/ب]فيخرج عجيب الواعظ ويقول: يا عنبر اطلب المقرئين والمنبر. فيحضر المنبر ويرقاه ويستفتح بعد التسليم بما يقرأه ويقول:

الحمد لله الذي جعل المزاح سلوة الهم والارتياح، ومفاتيح القلوب في الأشباح، وراحة الأرواح، أحمده على حُسن الأخلاق والتحبب إلى الخلطاء والرفاق، وصلاته وسلامه على الناطق صدقًا، الذي كان يمزح ولا يقول إلا حقًا، المنزل عليه ذو الجلال والتعظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وعلى آله عدد نعمه وأفضاله.[٢]

---

(١) المراد ابن البيطار وهو من هو في علم النباتات والأعشاب وقد سبق ترجمته قبل قليل، والمراد هنا هو إظهار أنه بالغ في كل أمر خيراً كان أو شراً حتى بلغ فيه الذروة، ثم جاء يعترف بذلك للأمير حتى يكون قد أبلغهم بكل صفاته وأحواله ليروا فيه رأيهم بغير حيف ولا زيف.

(٢) أراد به هنا السفسطة أو الثرثرة التي لا فائدة فيها ولا منها لقوله تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ وكذلك ما يكون منه جدلاً ليس إلا للجدل، وقد نهى الله تعالى عنه إلا في حالة إظهار الحق فقال: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

فكثرة الكلام بما لا يفيد مضرة للإنسان وإرهاق لأذن السامع، وملل من المتحدث وضياع للوقت بلا فائدة ومدعاة للخطأ. أما إذا كان الإنسان لَسِنًا فلا بأس في ذلك ما دام أنه يقوم بدور إيجابي في مسألة من المسائل الشرعية أو الحياتية أو الإصلاح بين الناس أو دعوتهم إلى الحق والخير، فاللسن هنا من نعم الله تعالى على المتحدث الداعي إليه، ولم يمل الانتباه من دعوت الناس إلى الله حتى أن نوح دعا ألف عام إلا خمسين عامًا.

إخواني:

أستعيذ بالله من اللُّسَن/ [٩٩/ أ] واعلموا أن أول ما يوضع في الميزان الخُلُق الحسن، والدنيا دار أسف، ووجود وتلف، وصحة وسقم، وعافية وألم، وينشد «شعر»:

لا تحمل الهم فما يظلم حكم القلم ... فـالهم فـيه ثقـل ومنه أصل السقم

أيـن الـذي بـنى الهـرم؟ ... وأيـن عـاد وإرم؟

مـزقتهم أيـدي الـبين ... ومـضوا إلى حـيث لا أب ولا أم

فـرحم الله من داوى آخرته بخلق زانه، وصرف أتراجه بما أراجه. ولما كان/ [٩٩/ ب] المـزاج يـذهب الأتراح، ويقوم في التفريج مقام الراح، فالهوان بابنة الدِّنان(١)، لاسـيما الـيوم القهوة أخفى ما يضمر، أعز من الكبريت الأحمر، والانبساط يحمل بلا إفراط، فابسطوا الأمل، واعملوا مثل هذا العمل.

وأنـتم معاشر الغرباء: وسائر بني ساسان الأدباء، احملوا الطلب، واستدّروا الحلب، واغتنموا الاجتماع، فالفرقة واقعة، وتزودوا بالكيس قبل وقوع الواقعة، وروحوا الخواطر وخـذوا مـن/ [١٠٠/ أ] المزاح قدر ما يعطي الطعام من الأملاح، وسيروا في البلاد، وانصبوا الشباك على العباد، فالغريب مرحوم، والمرء يسعى في الرزق والرزق مقسوم.

واعلمـوا رحمكم الله: أن من الفلس تجتمع الدنيا والصدقة بالحبَّة هيبة، لاسيما بلا تغشف والكسرة بنت الرغيف.

فاركبوا رحمكم الله قوارب الإلحاح، والبسوا دروع الوجوه الوقاح، وتعاموا مبصرين وتطارشـوا سامعين، وتعارجوا فالسبق لذوي العرج، وتخارسوا/ [١٠٠/ ب] ليخرج مـستفتح باب الفرج، وركبوا على صحة جلودكم المسلوخة، واشربوا نقيع التين تصبح وجـوهكم نـضرة وبطونكم منفوحة، واخترقوا صفوف الجوامع، ولُحوا على الأخشان بالطلـب في الـشوارع، وليكن أفخر لباسكم الأسمال، وأكبر همكم جمع المال، فسيروا

---

(١) ابـنة الـدنان: يريد بها الخمر فهي التي لا تكاد تبرح هذه الدنان، وبها توصف وبها تغنى الشعراء والمغـنون. وهو هنا استعاض عن الخمر وكل مسكر بما هو مباح ومنبه كالقهوة، والقهوة معروفة فـلا بـأس بشربها لا دينيًا ولا طبيًا فهي من المنبهات المباحة وهي حلوة المذاق مستـساغة الطعم لطـيفة الرائحة، وأنا نادرًا ما أشربها حيث إني أرى أنه في مصر نوادي يقال لها «المقاهي» أهم ما يقـدم فيها هو القهوة، مثل المشروبات الأخرى كالشاي، والحلبة والزنجبيل، واليـنسون والنعناع، والقرفة، والكاكاو، وما إلى ذلك من المشروبات التي لا حرمة فيها.

بهاتين تأمنوا من الإفلاس والدين فصحة العين بإنسانها، وصحة الإنسان بالعين[١] وينشد ويقول:

ولقد نصحتكم بكل لساني ... ورويت هذا الشأن/[١٠١/أ] عن ساسان
فلئن قبلتم ما أقول فإنكم ... أنجى الورى عن موطن الحرمان
كن آمنًا مما تخاف ذوي الغنى ... واسقط واحكم عُقَدةَ الهميان
واجعل لوعدك حصنًا مانعًا ... واطلب بهسات النقد والميزان
وخذ الذي قد لاح نقدًا عاجلاً ... فالوعد دهر نوائب الحدثان

ثم يقول: من كساني من برد الشتاء بجُبّة، أسكنه الله جنته المزخرفة الرحبة، ومن طرحني/[١٠١/ب] بطيلسان حشره الله مع الحور الحسان، ومن هابرني بمطة فقد استكمل الطريق بشرطه.[٢]

قال: فإذا نال ما تمناه، وملأ بالعطايا يُمناه فيخرج جريس الحوّي وينشد ويتروّى:

يا سائرًا في المروج والجبل ... وخابطًا في السهول والوعِلِي
احذر برجليك أن تطأ بها ... رؤوس الأفاعي وامشِ ممتهِلِي

[١٠٢/أ]ثم يشير بيديه ويقول:

إن في هذه السلة سياط الآجال، وهلاك النساء والرجال، وهذا الناشر، بل الأسد الكاسر الهجام الحَجّام، بلية مصر والشام، والقتل، بل الموت المطل، ويل لمن رآه على التلاع، وفرش له عُرفه كالشراع، ونهشه بعضّة على عضّة، بل يا سادة هذه الحيَّة الرقطاء الرملية التي تضرب الجمل فيموت الجمّال، وقد تندفن في الرِّمال سمها رسيل الموت، ونابها نائبة الفوت، وقد علمني الله تعالى من أجناسها/[١٠٢/ب] ثلاثمائة وستة وستون

(١) فيما ساق من نصائح كثير من الصواب الذي يجب أن يكون أحيانًا فأحيانًا يجب أن تتطارش وأحيانًا يجب أن تتعامى، وأحيانًا يجب أن تتخارس إلى آخر ذلك من الأمور لأن لكل مقام مقالاً كما قالوا، وقد تقتضي الحكمة ما ذكرت فيكون كما قالوا: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وقالوا: دارهم مادمت في دارهم، وأرضهم ما دمت في أرضهم. فعندما تنقلب الأوضاع ويصير أهل الحق في حالة من الضعف فيجب عليهم أن يصبروا على ذلك الأذى الذي يوجه إليهم أو إلى معتقداتهم حتى تنتهي تلك الموجة ثم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.
ولكن هناك من قوله وإن برره فهو غير مقبول، وهو قوله: وليكن كل همك جمع المال.

(٢) يريد بقطعة من الأرض تركتها له.

جنسًا، وأربعمائة وأربعة وأربعون نفرًا، فمنها الحديدي، والوردي، والرمادي والدخاني، والطحاوي، والفرد، والبركيل، والحاجري، والفسقي، والظراء، وأسود شالخ، وأبو خرزة، وأبو صرخة، وسحيمة الأرض، والصُّل، وأبو حمان، والحجامة والبخاخة، والطحانة، والشجاع، والقتالة، والغوالي، والدوانة، والعربيد، والطيار،[١] ولولا خوف الإطالة لشرحت الجميع على التمام والكمال، ولكن خفت من الضجر والإملال، الا أن هذه/ [١٠٣/أ] الحية الكبيرة المحصَّلة، وهي والله من نبات الأصلة، طيارها واقع، وسمها ناقع، وهذه الأخرى هي الداهية المهلكة، ذات القرن الأحمر، والذنب الأبتر، تحملها الحيات على الكواهل، وتأوي بها إلى المكان الذي هو غير آهل، خطفها برق لامع، وصفيرها يقتل السامع، ورؤيتها تهلك الناظر. ووطء أثرها يدمي الحافر، وهذه الطيارة.

وتلك الحية الطفارة تسكن البر الأقفر، والمهمة الأغبر، نفسها يحرق الحشيش

(١) وبمناسبة ذكر الثعابين والحيات وأسمائها أذكر طرفًا مما ذكر في كتاب تهذيب حياة الحيوان للجاحظ عن الثعبان (ص ١٣٢، ١٣٣)، فقال تحت عنوان موت الحية وصبرها: يزعمون أن الحيَّة لا تموت حتف أنفها، وإنما تموت بعرض يعرض لها. ومع ذلك فإنه ليس في الحيوان شيء هو اصبر على جوع من حيَّة؛ لأنها إن كانت شابة فدخلت في حائط صخر، فتتبعوا موضع مدخلها بوتد أو حجر، ثم هدموا هذا الحائط، وجدوها هناك مطوية وهي حية فالشَّابَّة تُذْكرُ بالصبر عند هذه العلة. فإن هرمت صغُرت في بدنها، وأقنعها النسيم، ولم تشته الطُّعم، وقد قال الشاعر وهو جاهلي:

فابعث له من بين أعراض اللمم ... لُميمَة من حنش أعمى أصم

قد عاش حتى هو لا يمشي بدم ... فكلما أقصد منه الجوع شم

وهذا القول لهذا المعنى. وفي الوجه يقول الشاعر:

داهية قد صغُرت من الكبر ... صلٌ صَفًا ما ينطوي من القصر

طويلة الإطراق من غير خَفَر ... كأنما قد ذهبت بها الفكر

جاء بها الطوفان أيام زَخَرْ

وقال تحت عنوان: النمس والثعبان: ثم قد يزعمون بمصر أن دويبة يقال لها: «الشمس» يتخذها الناطور (حارس الحقل) إذا اشتد خوفه من الثعابين؛ لأن هذه الدابة تنقبض وتنضم وتتضاءل وتستدق. حتى كأنها قُدَيْدَةٌ أو قطعة حبل، فإذا عضها الثعبان وانطوى عليها زفرت زفرة وأخذت بنفسها، وزخرت جوفها فانتفخ فتفعل ذلك وقد انطوى عليها، فتقطعه قطعًا من شدة الذخرة.وهذا من أعجب الأحاديث.

الأخضر/ [١٠٣/ ب] فسبحان من قهرها بهذا الدرياق، الذي شهد بفضله أهل الآفاق، ثم يفتح حُق الدرياق على يديه، ويشير إليه ويقول:

هذا المخلِّص من النهوش، والعضاضي والساقي، ومن سائر الأمراض، ركبته من هذه الدواعي، من قرص الأشقيل والأفاعي، وأضفت إليه من الفلفل الأبيض، والأفيون، والبرشاشان، وزر الورد، والعاريقون وسفعته برب السوس ودهن البلسان والزراوند، والزنجبيل، وحب البان واسقر دبوش، واسطو خودس،/ [١٠٤/ أ] وفوتنج، وفراسيون، وأضفت إليه القسط، ودار فلفل، وكندر، وصمغ البطم، وسلنمة، وإذخر، وشادنج هندي، وقردما، وزارتانج، ولحية التيس، وخبطباثا، وحب الغار، وحب البلسان، وأوقيافيا، واليسنون، ودوقو، وسبكنبج، وحماما، ووج، وقنطريون.

جمعتها من كل ما يختار جمعه، وسحقت ما يختار سحقه، ونقعت ما يجب نقعه وعجنته بعسل النحل المنزوع الرغوة، وألقيته إلى الشمس أسبوعا بعد أسبوع، ثم رفعته في إناء، مدهون/ [١٠٤/ ب] وتركته حتى مضت عليه الأيام والسنون، فدونكم أيها السادة الإفادة، فنعم الرفيق أينما سلكتم، وفي اقتناء مثلها يهون. ما جمعتم وملكتم، ومن حضرني وما معه شيء من الحطام، أنا قانع بسكين أبري بها الأقلام، أو يقول: هذا القميص من ظاهر جسدي، أو يجود بمنديل أمسح به وجهي ويدي، اللهم لا تجعله ذخيرة للئيم، ولا تحل عليه إلا عقدة كل كريم.

ثم يقول: هاكم نفعكم الله بهذه الإفادة، ومساكم بالسعادة، وينصرف. /[١٠٥ / أ]فيخرج عسيلة العاجيني، ويرفع على يده حُق من الأحْقافِ ويشير إلى تلك الأحاجين والطوافير، والطباق، وينشد:

يا من يذوق لتجريبي معاجيبي ومن بشكواه من شرٌّ يُفَاجِيني

عندي ذخائر أصناف مجرّبة وخزنتها في مصونات المعاجيني

لصحبتي كل يوم من يُجَرّبها كأن جسمي من داءٍ يفاجيني

ثم يقول: أين صاحب الحمضة في معدته؟ /[١٠٥/ ب] والحصا في كليته؟ وأين المحسَّر على حلاله؟ والممتحن بارتخاء ذكره وانحلاله؟ دلوا على صاحب القولنج والأوس، والمتحسر ببوله المحبوس، أرشدوني إلى من أراده الحصا، وثقلته أوردة الخصا، هذا دواء صاحب المراقيا والخفقان، ومرض الكبد واليرقان، وهذا لوجع الطحال، وهذا لوجع الضرس، وهذا لمن يريد زيادة الباءة، وتصلب الذكر.

وهـــذا معجون اللُّتوت للباءة، وهذا زيت الورد الرحموني، ومربَّاة، ومعجون المسك وما فيه/ [١٠٦/ أ] من الفرج وجوارش السفرجل[١] وأقاويه.

فاغتـــنموا رحمكم الله هذه المنافع بثمن تمرة، أو خيارة مُرّة، واقبلوا مني بهنا قبل أن تقولـــوا: كـــان هنا. فإذا أعياه ذلك الأسلاب فيخرج نباته العشاب، ويقول: قدم نباتة العـــشاب الـــسحار، والعطار، خليفة دسقيرودس، وسبط ابن البيطار، العارف بالأصول والفـــروع، والأوراق والأزهـــار، لأنني سافرت إلى السواحل، وسلكت فيها كل صعب وماحل، حتى حصلت على ما في هذه/ [١٠٦/ ب] الأكياس والأجربة، على ما يشهد به القياس، وصحة التجربة.

وأنـــتم أرشدكم الله تعلمون علم اليقين وتتحققون أقوال النقلة الصادقين: أن ما في الأرض مـــن شـــجرة نابتة إلاّ ولها في الجسد منفعة ثابتة، وفيها ما ينفع بإذن الله ويضر،

---

(١) يقـــول العلامـــة ابن النفيس عن السفرجل في كتابه الموجز في الطب (ص ١٠٩): بارد في آخر الأولى، يابس في الثانية، هو زهرة قابض، وهو مقو مُدرٌ يقوي الشهوة، ويسكن العطش والتنقل به علـــى الـــشراب بمنع الخُمار، ويمنع القيء البلغمي، ولعابه يلين من غير قبض، فينفع السعال ويلين قصبة الرئة، والإكثار منه يورث القولنج.

ويقول الدكتور عويضة في موسوعة الهامة المسماه بالموسوعة الغذائية (صـــ١٩٣) عن السفرجل: إن أقرب الفواكه إلى الكمثرى هو السفرجل الذي يعتبر إحدى الفواكه الصيفية المشهورة، ولكن صعوبة مضغه تجعله أقل حظًا في التناول من الكمثرى والتفاح.

وأصـــل الـــسفرجل مـــن جنوب أوربا، وهو من أعظم المحصولات في جنوب فرنسا، وهو نبات شـــجري ثمـــاره ســـكرية قابضة يحضر من عصيرها شراب يضاف إلى الأدوية القابضة لتحليتها. وبـــذوره غروية يحضر منها مطبوخات تستعمل موضعيًا مرخية، ومحللة، وتدخل في أنواع القطرة ويصنع منها في فرنسا مادة لتثبيت الشعر.

ويوصـــف الـــسفرجل كدواء للقلب وإنعاشه، وللمصابين بسل الصدر والأمعاء والنزيف المعوي والمعـــدي، ويفـــضل أن يـــستفاد منه كمنقوع بدلاً من الاستفادة منه مباشرة كثمر، فإن منقوع السفرجل المغلي يصلح شرابًا مقويًا في حالات الهضم الصعبة والإسهال الناشئ عن وهن الأمعاء.

وقـــد كتب عنه الحكيم داود الأنطاكي فقال: شجر معروف منابته بالشام والروم وهو قدر شجرة الـــتفاح إلا أنـــه أعرض ورقًا، وأغلظ واعقد عودًا وثمره يكون في حجم الرمان فأصغر عليه خمل كالغبار يلزمه غالبًا وأجوده الكبير الهش الحلو الكثير الماء.

وهو يذهب الوسواس والكسل، وسقوط الشهوة والخفقان، وضعف الكبد واليرقان إذا أضيف إليه زهـــرة وشوي فإن أكله على الجوع قابض وعلى الشبع مسهل لشدة عصره المعدة. وإن ضمدت به الأورام حللها. ويسكن العطش وحرقة البول ويطيب رائحة العرق.

ويحبس ويدر، ويُسهر وينوم، ويفش ويورّم من أصول وبزور وصموغ، وعصارت وزهور، أين حرارة الوج[١] من برودة الأفيون؟ وأين مرارة الكمون من حلاوة الأنيسون؟[٢] فسبحان خالق هذه الأضداد لإصلاح أمور العباد/ [١٠٧/أ] ومن هذا البلاء المفزع، وهذه حشيشة السلحفاة، والله العظيم للقبول والجاه. إلا أنني وحق فالق الحب النوى ما أبخل عليكم بشيء من هذا الدواء، ولا أوقفكم لتتصدقوا عَلَيّ، ولا ترقوا بفضل حطامكم إليّ، إلاّ، لأريكم عجائب هذه الصورة، وأعرفكم خواص هذه المندغورة، وها هما أنثى وذكر، قولوا: تعالى الله مبدع الصور الذي خلقها من الشجر، وكل من قلعها بغير مخبرة تأذى، ومن أستأصلها بيده تردى وأما أنا فحين بانت أصولها في أوان حصولها،[٣] ربطتها في طنب من الأطناب، وأوثقته/ [١٠٧/ب] في رقبة كلب من

---

(١) قال ابن النفيس في الموجز في الطب (ص ٩٤): وَجّ: حار يابس في الثانية، يُطلق الأخلاط الغليظة، ويدر البول، ويذيب صلابة الطحال، ويجلو ما يحدث في الطبقة القرنية، وينفع أوجاع الجنب والصدر، والمغص ويجلس في طبيخه لأوجاع الرحم.
وقال محققه بهامش نفس الصفحة نقلاً عن معجم أسماء النبات (٥): وج: قصب الذريرة، والوج: ضرب من الأدوية.

(٢) أما عن الكمون والأنيسون فيقول ابن النفيس في كتابه الموجز (ص ١٠٠) عن الكمون: حار في الثانية، يابس في الثالثة، يطرد الرّياح، ويحلّل، وفيه تقطيع وتجفيف وقبض، ينفع من عسر البول ونفس الانتصاب، ويُلزقُ الجراحات، ويفتت الحصاة ويَغش الرياح والنفخ.
وقال الأستاذ المعلق عليه بالهامش نقلاً عن المعجم الوسيط: الكمون نبات زراعي عشبي حولي من الفصيلة الخيمية، بزوره من التوابل، وأصنافه كثيرة منها الكرماني، والنبطي، والحبشي والكمون الحلو هو الأنسون، والأرمن هو الكراويا.
وقال عن الأنيسون في نفس الكتاب (ص ٨٥): يُبسة في الثالثة، وحرُة في الثانية أو الثالثة على اختلاف قولي جالينوس يفتح سداد الكلى والمثانة، والرحم، والكبد، والطحال، ويُفش الرياح وخاصة مغلية، وينفع تهيج الوجه والأطراف، وينفع السَّبل (السبل: محركة غشاوة العين من انتفاخ عروقها الظاهرة في سطح الملتحمة وظهور إنتاج شيء فيما بينهما كالدخان. نقلاً عن هامش الكتاب من القاموس) المزمن. ويسكن الصداع والدوار بخورًا واستعاطًا. ومسحوقه بدهن الورد يُقطر في الأذن فيبرئ ما يعرض لها من ضربة أو صدمة أو سقطة ولأوجاعها. وهو مُدر للبول والطمث والرطوبات، ويسكن العطش البلغمي، ويكثر اللبن والمني، ويدفع ضرر السموم، وربما عقل البطن.

(٣) لم أتوصل إلى حشيشة السلحفاء هذه فيما بين يدي من الكتب فربما كانت حقيقة موجودة يعرفها أهل النبات، وأهل الطب، وربما كانت ضمن الخيال الذي يسوقه لنا فيروح في وصف فوائدها مذاهب بعيدة من الخيال، وربما تكون حقيقة ويذهب إلى المبالغة في وصف فوائدها. وأما
-

الكـــلاب، ثم اســـتدعيته بكـــسرة خبز من بعيد، فأهوى إليها ليأكلها فاقتلعها، ومات لـــصرختها، باسطًا ذراعيه بالوصيد، فسبحان من ألهم وعلّم، ووقى وسلّم، إلاّ أنكم يا سادة، سيقول قائل منكم: ما في هذه المندغورة من المنافع والفضائل؟

هذه منها حبة، تقلب البغض محبّة، وقيمة الذرة منها دَرّة، أين الذي جفاه معشوقه؟ أو غـــضب علـــيه مملوكه أو صديقه؟ دلوا عَلَيّ من غضب/ [١٠٨/ أ] عليه السلطان، وتخبطه الشيطان، أرشدوا إلى من ضعفت قواه عن الوطء والباه.

هـــذا دواء المصروع والمجنون، وهو لإخراج الجنين والمسجون، فاعرفوا ما تطلبون، ولا تتـــركوا الغـــالي وتفتشون على الدُّون، والعافية خير من المال[١] وما يأخذه مني إلا صاحب الدرهم الحلال، ثم ينشد ويقول:

عـــــندي حـــــشايش شـــــتى ... للناظـــــــرين رياضـــــــا
تلهـــــي العـــــيون وعـــــادت ... تـــــــداوي الأمراضـــــــا
ولـــــيس بالـــــــدُّر عـــــنها ... في بـــــيعها معتاضـــــــا

/ [١٠٨/ ب] فلله من ترك الصحة بأيسر منحة، وغلب عقله هواه واقتنى لأدوائه دواه، وأدخر الجليل بالقليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل فإذا عَبّا توارى أو اختبأ.[٢]

= قـــوله: ربطهـــا في طـــنب مـــن الأطناب، فالطنب في لسان العرب لابن منظور هو: حبل الخباء والسرادق ونحوهما. وأطناب الشجر، عروقها تتشعب من أرومتها.

(١) قـــوله: والعافية خير من المال. هذا قول صائب حكيم لأنه ربما ظن بعض السذج أن المال ببريقه خـــير مـــن الصحة والعافية فهذا خطأ واضح وفهم هزيل، فإن صاحب المال ينفقه ليحصل على الـــصحة، وربمـــا انفـــق ماله كله ولم ينل ما يتمناه فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلاّ المرض والمتحدث بأن المال يجلب الصحة فهو واهم، لأن الصحة أولا هي التي تجلب المال، فإن عجزت الصحة ضاع المال لإصلاحها أو إعادة بعضها إن وفق الله الطبيب.

فيا من منعك الله بالصحة حافظ عليها ولا تهدرها فيما لا ينفعك في دينك أو دنياك فإنها نعمة أنعم الله بها عليك وأمانة بين يديك فلا تهملها ولا تستهتر بها فتندم حيث لا ينفع الندم.

(٢) تـــرى ما سبب قوله هذا: فإذا عَبّا توارى واختبأ، اهو لكونه كذب على السامعين وباع لهم ما لا فائـــدة لهـــم بـــه، ولا قيمة فيه فهو مجرد نصاب غرر بهم وأوهمهم بأنه يملك مفتاح السعادة والهنا والـــسرور، ويجلـــب عليهم راحة البال ويذهب عنهم الهم والغم والكرب والكدر والنكد، وشبح المـــرض، أم لأن دورة قـــد انتهى حـــسب سياق دوره في قصة طيف الخيال، ووجب خروجه من دائرة الضوء ليحل محله من عليه الدور، وهذه طبيعة القصة وطبيعة الحياة أن من ينتهي دوره فيحل =

فيخـــرج شخص ويقول: ما قدم مقدام المواسي صاحب المباضع والمواسي ذوي الهـــث والأشـــنق، والصامت والأخرف، والعدد والأسية والقمادين والغاشية، ومكاوي النوازل، وضفافير الاستسقاء والبوازل والمقاريض والصبابين والجاص والقطاطير، ومناشير العظـــام ومسالخ/ [١٠٩/ أ] السلخ العظام وكلبتان الزجوج، ومفاتيح الحلوق والفروج. أين صاحب وجع الأذنين؟ والإغماء من سنة وسنتين.

يـــا قـــوم أمـــا تعرفوني؟ وما أظنكم تجهلوني، أنا جراح القداح، أنا الذي أسلُ في الأرواح وأدملـــج الجـــراح. من في الأسية مثلي يحسن يمسك إمساك سنانيري أو يشمِّر الجفـــون تـــشميري أو يقدح في قدحي أو يجرح مثل جرحي أو يهزول العرق هزولتي الكـــروب، أو يكـــرهف[1] كرهفتي بالكسوب أو لأحدٍ إقدامي؟! أو يتجرأ جُرأتي على مـــن/ [١٠٩/ ب] يكون قدامي؟! لأنني كنت أجمع الجموع، وأغزّ والدموع، الطاعن بالحـــت حـــرار الاخشان، مفرق الاتصال، بمصالح كالجوكان، أشد وآسى من حديد، وســـاعدي شديد، أكد المرة شرابي والكتاب كتابي، أبت قانون ابن ملجم، وغسل الدم بالدم، لا أخرج حتى أجرح، وعلى التبريح لا أبرح، وينشد:

لا تحقـــروني على ما فيَّ من صغرٍ إن البعوضـــة أدمـــت مقلـــة الأســـد

[١١٠/أ] كم قد أعييت الألوف، عجلت الحقوف، وكرعت الرُّكيم، ورفسته فأصبح كالظليم وينشد ويقول:

إني امـــرؤ كـــاد الـــورى فهمـــا ولـــســت ممـــن يتقـــي وهمـــا
وكلمـــا أعمـــيت مـــن ناظـــر قلـــت لكـــم إن الحديـــد أعمـــى[2]

محله غيره.

(١) في لـــسان العـــرب لابن منظور مادة «كهرف»: المُكْرهف: الذكر المنتشر المشرف. واكْرَهَفَّ الذكـــر: انتشر. والاكْرِهْفَافُ: الانتشار، والمُكْرَهفُ: لغة في المُكْفَهِرّ أو مقلوب عنه، وبيت كثير يروي بالوجهين جميعًا وهو قوله:

نـــشيم علـــى أرض ابـــن ليلـــى مَخِيْلَةً عريـــضًا ســـناها مُكْفَهِـــرًّا صَـــبِرُهَا

قال الأزهري: المكفهر من السحاب الذي يغلظ ويركب بعضه بعضًا. قال: والمكهرف مثله.

(٢) هـــو يـــبالغ في وصف الشخص الآخر الذي يحل محل هذا الذاهب فيصفه بقوة العقل والبدن فهو يقهـــر من أمامه مهما كانت قوته أو سلطانه إما معتمدًا على قوته البدنية أو الذهنية فهو ينظر إلى الـــصعاب بعين الفطنة ثم ينظر أيها أنسب لها فإن كانت القوة فهي موجودة، وإن كان العقل فقد

ثم ينصرف فيخرج حسّون الميزون، فيمشي ويتقلب، وينثني كالعقرب ويقول: هذا خليع الشُّوى، وهذا دولاب الهوى، ثم يدق الطاسات، ويمشي بالبهامات، ويصعد /[١١٠/ب] على قطع الخشب المصفوف، ويقف بقدميه على السيوف، ويتقوس في لينه، ويأخذ الخاتم بجفونه، وينشد، وقد تورّد خده، وذبل في أعناق القسي غصن قده، (١) وينشد ويقول:

هاك أمري وللحديث شجون ... فافتقدني فإنني موزون

بين خصري وبين ردفي فرق ... مثل ردفي لرقة لا يبين

وحق الذي حباني بالحسن ... لأمر تحار فيه/[١١١/أ] العيون

ما لصب يحبني غير صَبٍّ ... من عيون تسيل منها عيون

ولذا لي على القلوب اختلاس ... وسيوفي لها الجفون جفون

فيقول معلمه: وقد كادت تزل قدمه: يا قوم هذا الطفل قد أقدم على الحتوف، ووقف زمانًا على حدة السيوف، وأنا أقسم بغصن قده، ورمان بزه، لا أنزلُته إلا بدرهمين، ولو أقام على هذه السيوف يومين.

/[١١٢/أ] فيقول الميزون، يا أهل المروة، يا أهل الفتوّة، تحياتي عليكم خذوني إليكم، وينشد ويقول:

أنقذوني بخفيف من عناي وأسعفوني ... واذكروني بيسير من عطاكم وخذوني

توفر له منه ما يجعله يقضي أموره في سهولة ويسر ومن عرف عن ذلك فقد عرف ومن لم يعرف فالآن يعرف بعد أن يظهر لهم من قوة تمكنه وتمتعه بالقوة البدنية أو القوة الذهنية أو العقلية مما يجعلهم يسلمون له القياد ويسيرون وراءه دون إقناعهم، ومن له هذه القدرة الحقيقية في السيطرة على العقول والأبدان فله الناس تدان.

(١) وهذا الذي يذكره مؤلف الكتاب هنا نوع من أنواع الاستعراضات الرياضية التي تقدم في السيرك، وتسمى «أكروبات». فالمؤدي لتلك الحركات يكون دائمًا على حذر لأنه دائمًا في دائرة الخطر، فهو تارة تراه مستقرًا وأخرى تراه طائرًا وغيرها تراه منطويًا، وأحيانًا تراه منتكسًا، فهو يأتي من الحركات ما يجعل نفسك أو أعصابك في منتهى التوتر والخوف وأنت جالس تتفرج عليه، ولقد أدى هذه الحركات قبل أن تراه أنت مئات بل آلاف المرات ولم يحصل له شيء غير أنك لهول ما ترى ولأول مرة تجد أن أنفاسك متتابعة ودقات قلبك متلاحقة وعروقك نافرة وحرارتك زائدة وعيناك محملقة محدقة زائغة وكأنه لن ينجو من الحركة التي هو فيها فكيف بالتي تليها؟! وهكذا.

فـــيدعوه المعلـــم إلـــيه مـــن هزّة الشبق شجرة كرمة، ويناوله درهما من فمه،[1] وينصرف. فيخرج شعون المشعبث وصدوفه وطبله وبوقه، ويمد الصغير، ويحول الجردان الخشب ويطيّر العصافير/[١١٣/أ] ويدق الحبل ويدق الطبل، ويسل الحية مكان الحبل، ويزرع البستان، ويجعل التراب حنطة والنارنجة بطة، ويثقب خد رفيقه، ويخرج الحبال من ريقه، ثم يدلك المصراف ويذر على وجهه أنواع الألوان، ويقول شعون: خذ بالعيون، لا ينصر القائمون ولا القاعدون، وينشد:

خفـــيت عـــن الغـــرام فلا تراني وعـــشقك في الحقـــيقة قـــد يـــراني

عـــيانًا مـــا أشـــاهد أم مـــنامًا لقد أفسدت من/[١١٣/ب] وَلَه عياني[2]

ويقـــول: هذا من جراداك التركماني. ثم يتبعها بكعكة ويقول: هذا كعك عسل نحل بـــشمعة. /[١١٤/أ] فـــيقول رفيقه: هذا الجزاء يقمعه. ثم يقول: يا من أعجبه جدّي وهـــزلي، إن عـــرفت الله عني لا تولْ، هات ولا عار على من أبطأ وأخلف الله على من أعطى ولا من أعطى ثم ينصرف. فيخرج هلال المنجم[3]، وكتابه تحت رمله واصطرلابه،

(١) هـــذا يدلك على أن هذا اللاعب لم ينل بعد جهده الجهيد من الرزق غير أقل القليل وقد استخرج له من رجل بخيل ولم يدفعه بدافع الشفقة أو رجاء الأجر، وإنما أخرجه لشبق أصابه، واستخرج له هـــذا الدرهم بعد عناء شديد حيث أخرجه بقلع الضرس حيث أخرجه من فمه لشدة حرصه عليه وإمـــساكه مالـــه إلـــيه، وهو تعبير جميل أعطى المعنى من بعيد، ولكن كان فيه فن وجمال وكناية وتعميق لحرص الحريص على المال، وكذا بذل الجهد للحصول عليه ولن ينال صاحبه إلا ما قُدر له منه، ولو كان من أحرص الناس عليه.

(٢) وهـــذه الحركات التي يأتي بها هذا الثاني نوع من خفة اليد التي يسميها بعض الناس سحرًا ويذاع كـــثير من مثل هذه الأمور في القنوات الفضائية، ويمهر بها الأعاجم عن العرب، وهذا المذكور في طـــيف الخيال هنا يفعل نحوًا مما يفعله هؤلاء الناس من الترفيه والتسرية عن النفس غير أنه ليس في ذلك سحر، وإنما هي مهارة عالية في فعل ما يفعل وإبهار لنا فيها نرى على غير الحقيقة. ومشهور في زمانـــنا هذا المسارح الهزلية أو الترفيهية التي تسمى بالمسارح الكوميدية التي بعضها لا إسفاف فـــيه وهـــو يدعو إلى الترويح عن النفس وفقط، وبعضها هازل ماجن كله إسفاف وبذاءة وإتلاف للقيم وتدمير للعقائد وإفساد للعرف والعادة القويمة.

(٣) المـــنجمون أنـــواع: فالمـــنجمون الذين هم يدعون علم الغيب والأخبار عما غاب وادعاء النفع والـــضر، فهؤلاء الذين نهى الإسلام عن إتيانهم أو التصديق بكلامهم أو السماح لهم بإظهار باطلهم وحذّر المسلمين من مصاحبتهم.

أمـــا المنجمون بمعنى الفلكيون الذين ينظرون في الكون ويدرسون كواكبه ومجراته وأبراجه وأجرمه =

ويقول:

سبحان من سبحت بشكر حمده وفضله ونعمه الأملاك، وسبّحَت في بحر قدرته بالكواكب، وقد سيرها بين طالع وغارب وخصها بالدلائل على أحوال الخلائق، وجعل/[١١٤/ب] سعودها ونحوسها مختلفة باختلاف الدرج والدقائق، وصلى به على الموائد بالكتاب المبين، والوحي من رب العالمين، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين.

وبعد:

يا ساداتي الكرام، وأعيان العوام، كان في هذه السنة يحدث فيها حوادث ولها أحكام، وذلك أن الله تعالى يأذن للسحاب أن تراكم وللبحار أن تتلاطم، وللرياح أن تهب، وللحشرات أن تدب، وربما اختلفت بعض الأسعار، وربح بعض التجار، ويدل على تقلبات أهل البوادي وجري السيول في كل وادي، ثم يأذن الله تعالى للبرق أن يلمع، وللغيث أن يهمع، فيا سعادة من خزن الذهب والفضة، ويا شقاوة من لا يملك من الحطام على قبضة[١] /[١١٥/أ] فبشروا من أول اسمه قاف، وحذروا من أول اسمه كاف.[٢]

لكن يا سادة أريد منكم رجلين طالعهما واحد وخلقهما متضاد، لأتكلم على الطالع الأصل والتحويل، وكواكب الزمان بالدليل، والحكم على دليل النفس والحياة، وهيلاج القمر

=

ويعرفون حركته وسكناته وسرعته وبطئه وما يستجد لهم فيه على مر السنين فهؤلاء علماء معتبرون محترمون شرعًا وعقلاً، فهم لا يدعون علم غيب وإنما ينبئون عن مشاهدات يشاهدونها وتوقعات يتوقعونها بناء على مشاهداتهم، فليس فيهم ولا في علمهم شبهة ادعاء علم غيب، ومن أدواتهم هذا الاصطرلاب الذي يستخدمونه في علومهم.

(١) إلى هنا وكلامه زين وإن كان فيه بعض المبالغة إلاّ أنه لم يخرج عن إطار الشرع، فهو يذكر بالله تعالى خالق الليل والنهار ومجري السحاب والأنهار، ويقلب الدهر ويرفع قوماً ويخفض آخرين، وليس في هذا ما يشين، فكلها أمور جاء بها الدين وجبل عليها المسلمون وهم بها يعتقدون، ويعلمون ألا دخل لهم إلاّ بسبب وهذا السبب قد يكون حلالاً أو ضلالاً فهم يفضلون ما أحل الله تعالى على ما حرام، وهم يتحرون مصادر أقولتهم حتى يكون دعاؤهم مستجاباً من رب الأرباب.

(٢) هذا أول فساد الكلام الدخول في الحلال والحرام والتعدي على شرع خير الأنام، ومعلوم علم حساب الحروف وعلم الأفلاك كالسرطان والجوزاء والميزان لكن ليس لهذه الأشياء في علم الغيب شيء ولا لها في الطالع الحسن أو النّحس يد ولا دراية بشفاء ولا سعد وكذلك يستعمل طبائع الأشياء ويقسمون الحروف والأرقام إلى ترابي وهوائي ومائي وناري وما إلى ذلك من التقسيمات التي لا علاقة لها بالغيب من قريب ولا بعيد، وما شابه ذلك كله فهو مفسد للعقيدة، وبعيد عن الحقيقة ودجل وجدل وجهل وخبل، فعلى المسلم أن يعي ذلك جيدًا ويحذر كل هذه الأنواع.

وبيت رجساه، وأبين ما يقتضيه صاحب البيت والشرف والاتصال، والانفصال المنصرف، ثم يقول: أنت ما اسمك يا ولدي؟ وأنت أيضًا يا سيدي؟ نعم أبوه البهاء ابن هي في اسمها تبقي على ستة عشر، تبقي على أربعة في حساب أبي معشر يكون طالعك/ [١١٥/ب] السرطان ورابعك الميزان أما [الأول] دليل النفس، فأنت لا شك نحس، ضعيف القدرة ولو ضعفوك ألف درّة، طيب النفس، حسن الأخلاق، منقادًا قياد قليل الإشفاق، في قفاك علامة وفي فخذك شامة، وخرجت عينك مثل عين عمك الأحول لكن أنت أدق رقبة منه وأطول (١).

وأما الثاني: دليل المال والحركات، فإنك تكون كريمًا مُبذل السُّفرة، ولو ملكت ألف خيش ما أصبح لك فيها بعرة.

وأما الثالث: بيت الأخوة والأخوات والنقل والحركات/ [١١٦/أ] فيدلّ على أن الذكور منهم علوق، والإناث قحاب عاهرات.

وأما الرابع: بيت العافية فيدلّ على أن لا بد من المعونة، وتنصلح عواقب أمورك الملعونة.

والخامس: دليل الملابس فلا من خلعة بألف، ولبس جديد من الخلفاء والأولاد فلا بد أن ينفعوك، ولو خاصمتهم ضعفوك.

والسادس: دليل الأمراض، فعمر كـ مريض، ودواك التقبيض.

والسابع: بيت النساء، فأنت منهنّ على حذر ولكن أحب إليك ملامسة الذكر.

والثامن: بيت الخوف/ [١١٦/ب] والمواريث فإنك تموت موتة المخانيث.

والتاسع: دليل المنامات والأسفار والديانات، فإنك تسافر وتنجو على يقطينة (٢)،

(١) هذا قول لا دليل عليه وهو رَصّ ألفاظ بعضها إلى جوار بعض لا فائدة منها ولا معنى لها وما هي إلا تخويفات شيطان وجري وراء سراب تضيع للعقيدة وفساد للديانات وخراب لدنيا الإنسان وآخرته حيث يرص الكاهن أو الدجال أو المشعوذ الكلمات إلى جوار الكلمات ويفضل ألا تكون مفهومات حتى يظن السامع أنه وحي يوحي به إليه، ويريد أن يقول له أنت أدرى بحالك مني فما قاله من المقال له وانقه عليه بأنه هذا هو السر المكنون والخبر المدفون وسر الخبل والخبون، ووقف الحال الذي سيؤدي به إلى أسوأ مآل إن لم ينتبه، ومن لم يع أن هذا المشعوذ ما هو إلاّ دجال يأخذ ماله ويفسد دينه، ويدمر أخرته، ويرد به في جهنم وبئس المآل.

(٢) سرق هذا القول من القرآن الكريم، وصاغه بأسلوبه الهزيل من قصة يونس عليه السلام حين أنجاه الله تعالى من بطن الحوت واستظل بظل شجرة يقطين أي شجرة قرع أو كوسة وهل كل من سافر وأصابته حادثة في طريق البحر لا بد أن ينجيه الله تعالى، وهل لا بد أن يجلسه إذا نجاه إلى شجرة =

وربما عبرت محرصًا إلى المدينة.

والعاشـــر: بـيـت السلطان ترى أنك من بعض الأنعام، إما الحمار بأُذُنِهِ، وإما التيس بقرنه، وهو دليل المعاش، فتكون قواد الجيوش، أو زبلكاش.(١)

وأما الحادي عشر: فإنه دليل العشرة، وأنك تجمع بين الرأسين بلا أجرة.

وأمـــا الـــثاني عشر: دليل الأعداء والدواب والغلمان، وذوات الأنياب/ [١١٧/ أ] فإنك أي ما تذكر عدوك إلا بالخير، وما تحب إلا ركوب الأير.

وهذا ما دل طالعك هذه السنة، وهو طالع منحوس، فأكرم الطالع ولو بأربعة فلوس والحمد لله عالم الغيب وساتر كل عيب، وينصرف.

فيخـــرج عواد الدمياطي، ويرقص كالأجدل وعقله مخبل، ويضرب المرآة في المندل، ويشير إلى الكف النحاس، والصورة تجري في المرآة والبلورة، ويقول:

اللـــهم يـــا من له الأسماء الحسنى، ويا صاحب الأخرة والأولى، والعز الأسنى الذي /[١١٧/ ب] أمـــات وأحيا، وأفقر وأغنى، وخلق الإنسان من نطفة إذا تُمنى، وكرمه بالإحسان والحسنى، أسألك بالاسم الذي رفعت به السماء، وأطلعت آدم عليه وعلى نبينا أفـــضل الصلاة والسلام، إذا علمته الأسماء الحسنى، أسألك أن تصلي على سائر المرسلين خـــصوصًا علـــى نبينا محمد وآله الطيبين، وأصحابه المتحابين إلى يوم الدين، آمين رب

=

الـــيقطين حـــتى يتم نجاته مما كان أصابه من البحر وشؤونه وهل طوال العام اليقطين موجود على شاطئ البحر.

إن هـــذا هـــو عـــين الخـــبل فضلاً عن الدجل، وما علاقة المنامات بالديانات والأسفار والمدن والأشـــجار. إن للمنامات علوماً مخصوصة تعبر بها حسب رؤيا الرائي وحاله هو صلاحًا وطلاحًا ومهنـــته وهيئته وبلاده وعبادته، وكل ذلك يعرفه المعبر من رؤيا الرائي لا بالغيب ولا بادعاء وحي يوحي به إليه إنما هو علم يفتح الله به على بعض الناس.

(١) قـــوله هنا يناقض قوله الأول وإن كنت لا أفهم كلمة: «زبلكاش» فكيف يقول له في أول الكلام «إنه نحس ضعيف القدرة ولو ضعفوك ألف دُرّة». فكيف يكون نحساً وينا له من السلطان الأنعام ويـــصل إلى قيادة الجيوش فيكون في أعلى المراتب وهو نحس، فلن يصل إلى تلك الرتبة إلا بعد أن يمر برتب عالية كثيرة قبلها يكون قد تقلب في نعمها كثيرًا وصار فيها عمرًا مديدًا إلى أن يصل إلى مـــرحلة قائـــد الجيش أو على الأقل من قواد الجيوش فهذا خبل في خبل وطيف خيال كما وصف وقـــال، ولكني أود بمناسبة الكلام أن أنبه إلى تصحيح عقائد من يرون أن من يدعي علم الطالع أو الـــبخت أو الكف أو ما إلى ذلك ما هو إلا دجل وخبل وضياع للعقائد الصحيحة وإفساد للدين، ثم هو في آخر الأمر يطلب منه أربعة فلوس.

العالمين.[(١)]

اللـــهم أعـــذنا من همزات الشياطين ونزغات السلاطين، وأحرف عنّا كيد الحسود، ومكر/[١١٨/أ] النساء، واليهود، وحَصِّنَّا بِحصْنِكَ الحصين، وأفض علينا من بركات (طه) و (يَسَ)، وانفع بما علمتنا إخواننا المسلمين، آمين آمين يا رب العالمين.

قال رسول الله ﷺ وفضَّل ومجَّد وكرَّم:

«مـــن علمه الله علمًا نافعًا وكتمه عن أخيه المؤمن، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار، لا يزال يقمقم في ذلك اللجام حتى يفرغ الناس من الحساب»[(٢)].

وأعـــوذ بالله أن أكون من الأشرار البخلاء الفجار، فلذلك لا أبخل بما آتاني الله من العلم المكنون/[١١٨/ب] والسر المصون، لأن الله تعالى أطلعني على خواص الحروف،

(١) يـــذهب بـــك طيف الخيال إلى المتناقضات في صراحة تامة ووضوح فهو يخرج لك عواد يرقص ويتحـــيل ويضرب المرأة في المندل ويشير إلى الكف النحاس فكل مثل هذه الأشياء تدلك على أنه إنما أراد أن يظهر لك من طيف خياله كيف أن خيالك يمكن أن يصور لك الرفيع وضيعاً والوضيع صـــعبًا رفيعًا، وكل هذا بحثًا عن غبي يصدقه فيبتزه، ويستنزف ماله ويفسد عليه صحته، وهو يبدأ بالخبل ثم يثني بالوعظ السليم حتى يغرر بك بأنني مسلم موحد، فتصدقه فيما يقوله لك فيما بعد، وهـــذا أسلوب خبيث جدًّا ينطلي دائمًا على أهل التيار الإسلامي في مصر حيث يغرى الفرد منهم بما يُغرى به من قول معسول فيصدق ما يقال له ويترك ما هو عليه من صواب.

(٢) قوله: وأفض علينا من بركات (طه)، (يَسَ) من الأقوال المشهورة بأن لهما خصوصيات عن سائر آي أو ســـور القرآن خصوصًا (يس) وهذا قول شائع ولا أساس له من الصحة خصوصًا أحاديث الفضائل الشاملة على فضائل القرآن، وفضائل الملائكة، وفضائل الشهور وفضائل الأيام، وفضائل الليالي، وفضائل البلدان، وفضائل الصحابة إلى آخر ذلك من القول في الفضائل.

والـــصحيح أن القرآن كله منزل من رب العالمين، فلا فضل لآية على آية ولا سورة على سورة، وكله ميزان واحد. وكذلك البلدان غير مكة والمدينة والقدس وطور سيناء لما أخصها الله تعالى به مـــن خصوصيات منصوص عليها في القرآن. وكذلك الشهور والأيام والليالي لا نعرف فيها فضائل غير ما ذكر الله تعالى من فضل الأشهر الحرم، وفضل رمضان، وفضل ليلة القدر، والحج وما سوى ذلك فقول لا دليل عليه.

وأمـــا فضائل الصحابة فلا فضل نعرفه إلا للأئمة الأربعة ثم بعد ذلك كلهم فضول لا نفرق بينهم وكلهم من رسول الله وإلى رسول الله يلتمس، وكلهم فحسبهم من خيرة خلق الله تعالى.

أمـــا عـــن الحديث الذي ذكره فلم أقف على تخريجه فيما بين يدي من كتب وإن كانت علامات الـــضعف بل الوضع عليه لائحة، ولا يحتاج إلى تدليل عليه وعلى المسلم أن يتحرى ما ينسب إلى رســـول الله ﷺ من أقوال قبل أن ينسبه إليه حتى يبرأ لدينه وتنقى عقيدته من الشوائب وتصفو له عبادته وتستقيم علاقته بربه.

وأوقاف المئين والألوف، حتى جمعت في هذه الأوراق زبد العزائم، والأسماء والأوقاف، ومنافع الكتاب العزيز، وسطرت ذلك بالزعفران، واللازورد والذهب الأبريز ثم يخرج الحروز ويقول:

قولوا عند رؤيتها: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم،

ثم يفتح تلك المهارف/[١١٩/أ] ويصفها صف النمارق، ويقول: أول ما كتب اليمين عرق الجبين بفضل بسم الله الرحمن الرحيم، كتبت بعد الاسم الأعظم الذي تكلم الله به قولوا: عزّ الله على القمر فأنار، وعلى الفلك فدار، وبعده خاتم سليمان عليه السلام، وكفّ مريم، واتبعته بالحصن الحصين، وخاتم النبي عليه السلام، وحرز أبي دجانة الأنصاري، ومنطقة علي، ودرقة حمزة.(١) وهذا باب للعين والنظرة، وللحما والحمرة، وباب

---

(١) قوله: كتبت بعد الاسم الأعظم إلى موضع الإشارة لي عليه تعليق خاص باسم الله الأعظم والآخر خاص بالأسماء الواردة. أما بالنسبة لاسم الله الأعظم: فهذا قول شائع ولا أساس له من الصحة ومعلومٌ أن الله تعالى أمرنا أن ندعوه بأسمائه الحسنى فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا قول لا شك فيه ولا مراء ولا جدال.

أما القول فهو في كون الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ الذي أوله: إن لله تسعة وتسعون أسمًا... الخ ونحوه فهذا وأضرابه أحاديث ضعيفة لا يؤخذ بها وقد دخل في أسمائه أسماء لا يصح أن يوصف بها سبحانه، ودعوى اسم الله الأعظم هذه دعوة صوفية باطلة فكل أسماء الله تعالى عظيمة ولا خصوصية لاسم على اسم وأما قوله: وحرز أبي دجانة الأنصاري، فهذا أيضًا قول غير سليم، فما لأبي دجانه حرز غير الله تعالى وليس له ملاذ غيره وليس له توكل على سواه، وأما أبو دجانة فهو: سماك بن خرشة، وقيل: ابن أوس بن خرشة. متفق على شهوده بدرًا، وعلى أنه استشهد باليمامة وأسند ابن إسحاق من طريق يزيد بن السكن: أن رسول الله ﷺ لما التحم القتال ذب عنه مصعب بن عمير يوم أحد حتى قتل وأبو دجانة سماك بن خرشة حتى كثرت فيه الجراح.

وقيل: إنه ممن شارك في قتل مسيلمة، وثبت ذكره في الصحيح لمسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أحد فقال: «من يأخذ هذا السيف بحقه»؟ فأخذه أبو دجانة، ففلق به هام المشركين وأخرج الدولابي في الكنى من طريق عبيد الله بن الوازع عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قال الزبير بن العوام عرض النبي ﷺ يوم أحد سيفًا فقال: «من يأخذ هذا السيف بحقه»؟ فقام أبو دجانة سماك بن خرشة، فقال: أنا، فما حقه؟ قال: «لا تقتل به مسلمًا، ولا تفرّ به من كافر» (الإصابة ص ٧/ ٥٧) وأما قوله: ومنطقة عَلِيّ. فالإسلام لا يعرف التبرك بالآثار ولا البرادي والخرق ولا الحديد والشجر، وإنما يعرف التعبد لله بما شرع الله وأخبر نبيه ﷺ وليس في ذلك منطقة عَلِيّ ولا غيره.

=

للشقيقة والضربان. /[١١٩/ب] وباب للطحال والفاشية. وباب للتوابع في الأولاد. وهــذا باب لإطلاق المحبوس وتخليص المجنون. وهذا باب للطاعة والقبول، ولمنع الحديد وركوب الخيل، ورمي النشاب.

/[١٢٠/أ] ثم يقول: أستأهل على هذا دينار، وأنا أخُصّ عليكم بطريق الإيثار. أحلّى منه درهماً لمن يقول: لا إله إلاّ الله، ودرهماً لمن يقول محمد رسول الله، ودرهماً يذوب مع النحاس والحديد والرصاص، يقطر في حدقة من يغش المسلمين، يبقى درهم ثمن الكتاب، لا، والله كــلام الله لا يباع ولا يشتري، بل ثمن هذا الغلاف الأديم الطائفي لما حججنا وقفة الجمعة صبغت في سبع قرب مملوءة بماء زمزم، وأعطيتها للصناع خرزوها بالشريط، وهــذه الخميلة الحرير والصوف إن كانت بدرهمين كثيرة أنا أوهبها بلاش، من قال درهم قــبلت، ولا ثمن ولا ربع درهم، ونصف درهم، وربع حُلّ وأسبق حل، واسبق يا أرض اشهدي ويا سماء اعهدي، ويا ملائكة ربي ليكفي، أي من أعطاني شهد الله ما قيمته درهم فرط قيراط أبيض، لك يا سيدي عَلَى/[١٢٠/ب] رأسي أنت أيضًا كرامة.

أخرج فتوحك الساعة، تقولي لي: هات، أقول لكم: فات، وما بقي يتخلف عني إلا كريماً ما معه شيء أو من لا له في كلام الله نصيب، ومن أراد أن يرى بركته، يبات الليلة

وأمــا عَلِــيّ فهو علي بن أبي طالب العلم المعروف، والصحابي المشهور الذي تنازعت فيه الأمة، وانقسمت بسببه إلى شيعة وسنة وهو من كل ذلك براء وقد لقي ربه ولا يعرف ما شيعة وما سنة، ولقد فارق الدنيا وإن الدين لأمره واحد، ولو رأى ما يفعل ويقال باسمه اليوم لتبرأ من الجميع ولجأ إلى ربه يرجوه الهداية والبراءة.

والمــنطقة هــو ما يتمنطق به المرء من القماش أو الحبل أو الحزام أو ما شابه ذلك مما يربط على الوسط من الإنسان.

وأما قوله: «ودرقة حمزة». فأقول فيه كما قلت في منقطة علي، والدرقة هي الترس أو الدرع الذي يــصنع من الجلد الخالص ليس فيه خشب ولا عصب وإنما هو جلد فقط، ولا أدري لماذا اختص منطقة علي درقة حمزة، وادعاؤه أن لأبي دجانة حرز أو تميمة هو قول باطل.

ويقول ابن منظور عن الدرقة في لسان العرب في مادة «درق»: الدَّرَقُ: ضرب من الترسة الواحدة درقــة تــتخذ من الجلود. وقيل: الدرقة الحَجَفَةُ وهي ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عصب، والجمــع دَرَقٌ وأدراق، ودراق. وأما حمزة فهو ابن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وسيد الشهداء قتل يــوم أحــد وصلى عليه رسول الله ﷺ أكثر من سبعين صلاة قبل أن يدفن وما زال قبره يزار حتى اليوم في المدينة المنورة في موضع الموقعة.

على طُهر، ويقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات وينام فإنه يرى في منامه طلعة البشير النذير السراج المنير النبي محمد ﷺ.(١)

وفيه باب بعد ما قلته لمن أحب قومًا ما أحبوه، أو أرادهم ما أرادوه، خذ لي بهذين الأصبعين قليل من الحنة ما اسمها الحنة/ [١٢١/أ] بل اسمها الحنانة، حنت أبونا آدم في الجنة، وبينتها مع الكتاب ليلة الأحد.

وقوم قبل طلوع الشمس خذ بجمرة نار تكون طاهرة، وشق النار بسكينة والق الحنة فيها، وقل: أطلقت، ولا تقل أحرقت تعذب الشخص ألقيت محبتي في قلب أخي، أختي، زوجتي، مطلقتي، أستاذي، في الحلال، لي ذمتي، في الحرام في ذمتك، وحق من شق الأشقاق، وأنار النور في الأحداث، ما أخلى الدخان يبطل، والنار تخمد، إلا والمحبة قد انقلبت في قلب/ [١٢١/ب] المطلوب ببركة النبي صلوا عليه.(٢)

ثم يقول: وسأشرح لكم منافعه نظمًا، وينشد:

ألا خير ما تسعى لتحصيله الورى ... كتاب من الرحمن بالنور سطرا

كتاب كريم كافي الحظ شافيًا ... يُجلّ ويعلو أن يباع ويشترى

وكم أرمد بالسحر قد كان أكمةً ... فلما رأى ما فيه بالنور أبصرا

---

(١) وهذا الذي يذكره أيضًا على الرغم من أنه طيف خيال إلا أن له في واقع الناس مجالاً وكثير منهم يتخذ تلك الأحراز ويعتقد أن ما دام ليس فيها شرك أو أسماء غير معروفة أو كلام غير مفهوم فهو حلال، وهو توكل على الله تعالى. فأقول لهم: يقول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

فهذا ليس مما آتانا الرسول الكريم وهو مما نهانا عنه ﷺ، فكيف ينتفع أو يتبرك بما نهى عنه ولم يأمر به؟! فعلى المسلم أن ينتبه ولا يهتم بتمنيق الكلام ورونقه، ولكن عليه بحقيقته وجوهره حتى يلقى الله تعالى على التوحيد الكامل الذي لا شائبة فيه.

(٢) وهذا من دجل الفعل والخبر عن سيدنا آدم عليه السلام لا برهان عليه ولا دليل، والحنة حنة لا فائدة لها سوى ما يستخدم له من علاج بعض أمراض الجلد وما يتزين به منها، وما عدى ذلك فهو جهل ودعوة إلى ضلال، واعتقاد في فساد، وإتلاف لإيمان المرء وهدر لمال في غير منفعة بل لمضرة الدين، حيث إنك إن اشتريت ذلك لكي تستخدمها فيما وصف لك فقد أضعت مالك ودينك معًا.

فعلى المسلم أن ينقي عقيدته ليلقى الله تعالى وهو مسلم خالٍ من كل نقيصة أو خالٍ من الشرك به خفيًا كان أو جليًا، سرًا كان أو علنًا.

عـــد العلـــى في الـــتمائم جــــنة وقـــد كـــان منـــصور اللـــواء مظفرا
/[١٢٢/أ]وَلَقَبْـــتُهُ الحصن الحصين؛ لأنه لحـــصن نـــبي الله بـــات مـــصورا
ومـــن فـــضله أن العـــدو إذا بـــدا لحاملـــه أمـــسى بـــه متأخِّـــرا
يلـــوح عظـــيمًا في الـــنفوس مفـــضلا عزيـــزًا مهيـــبًا في القلـــوب موقـــرا
فكـــم حامـــل لمـــا رأتـــه تخلصت وهـــان لهـــا الطلـــق الـــذي قد تعسرا
وذات نـــزيف بالـــدماء هَـــدّت بـــه عـــيانًا وقـــد فاضـــت من الدم أبحرا
/[١٢٢/ب]وأرملـــة عطلا من الزوج وقـــد غـــدا بـــه أمرها للعالمين مُيسرا
فـــيا لـــك مـــن حرزٍ أحرز النجح كله وأنّ الـــذي قـــد نالـــه ملـــك قيصرا

ثم يقـــول: اعلموا رحمكم الله أن الأسماء وروع، وليس معها ما يروع.[١] فيخرج شـــخص صغير من أولاده، ويسقط كالمصروع فيتجاهل عنه، والصبي قد أزبدت شدقاه وازورت عيـــناه، وهو بحاله المسكوع، وعيناه مغرغرة بالدموع، فيقول له الريس علي: /[١٢٣/أ] يـــا حكـــيم هذا وقت تمائمك، والانتفاع برقاك وعزائمك. فيقول: أجل، فسيدنو منه، ويقول: الوحي الوحي، العَجَل العَجَل الساعة الساعة، ويأخذ حرزاً من تلك الحـــروز، بيميـــنه، ويضعه للصبي من فوق جبينه، ويقول، أقسمت عليكم معاشر الجن والشياطين، والأبالسة والمتمردين، من جنود أبي مرة[٢] الشيخ اللعين، إن كنتم من أرواح أشباح اليهود الناقضين للعهود، باهيا شراهيا أو وناي، أصباوت آل شدّاي.

---

(١) الـــشعر، والتعلـــيق بمـــا بعـــده كله من نفس نوع ما سبق من الكذب والدجل الذي يستخدمه المـــشعوذون وما يدعونه من جلب الأزواج للعوانس أو للأرامل، أو المحبوب الهارب من محبوبته أو الـــزوج النافر من زوجته أو عودة الغائب إلى بلدته أو إرضاء الغضبان وما إلى ذلك مما يتمناه كل إنسان لمن يريد من غائب أو مريض أو هارب أو شارد، فهذا أمل كل ملهوف وهو هدف يستغله كل مشعوذ ليصطاد به ما في جيب هذا الواله على من له وقد فلت منه زمامه.

(٢) أبـــو مرة كنية إبليس اللعين وهذه الكنية هي علم علية يذكرها الكثير حتى صارت لصيقة به، وقد ذكـــروا أن لإبلـــيس أسماء كثيرة وخصصوا لكل اسم صفة أو عملاً فجعلوا لمن يعطل عن الصلاة اســـماً ولمن يوسوس اسماً ولمن يدعو إلى الزنا اسماً، ولمن يدعو إلى السرقة اسماً، وهكذا جعلوا لكل عمل شر اسماً ونسبوه إلى إبليس، والإسلام لا يعرف عن إبليس أو الشيطان إلا ما ذكر الله تعالى له مـــن أسماء سواء كان: إبليس أو الشيطان، وأما من ذهب إلى غير ذلك فقد أعظم الفرية وبالغ في ادعائه بعلم ما لم ينزل الله به من سلطان سواء خنزب أو غيره من الأسماء، أو الكنى.

وإن كنتم / [١٢٣/ ب] من أرواح أشباح نصارى فبالذي ركب الحمار، وشدّ الدبار، وعمل من الطين كهيئة الأطيار ونفخ فيه فطار. وإن كنتم من أرواح أشباح المجوس، فبالنار، والنور والظل والحرور، والظل الذي يدور.

وإن كنتم من أرواح أشباح المسلمين فبفضل بركات (طه) و (يس) وسيد المرسلين، أجيبوا عزائمي، واحفظوا تمائمي، لا سماء تظلكم، ولا أرض تقلكم، الأرض بكم ترجف، والسماء بكم تقذف وبالذي أمر البرق فلمع، والسحاب فهمع، وكلم موسى / [١٢٤/ أ] فاسمع، ونظر إلى الجبل فتدكدك الجبل من هيبته وتقطع.

أيها الجان اللابس هذا الإنسان، أخرج من الأنملة، وادخل في هذه المكحلة.

فيعطس الصبي ويقول: يا حكيم دخل كله وما بقي منه إلا أقله، فيتوج مينطرون ويعبئ ما شاء من الزيتون وادفنها في هذه البقعة، ويفيق الصبي ويقعد ويترنم وينشد «شعر»:

جمال وجهي يسبني بحسنه كل جنسي بحسن خَلقي وخُلقي
/[١٢٤/ب] ولطف قدي وانسي[1]

وينصرف، فيخرج شبل سبع السباع وخلفه الأسد والأتباع، وهو منقاد بالسلاسل والأغلال، وهو يمشي بنمارة كالمختال، وأوفه كالمرتاب، وقد مَرَّ غير خائف ولا مرتاب، وهذا وشبل السّباع، وقتا يرود، ووقتًا نجده، وقد ثقل عليه هوضه وهو مع ذلك ينشد ويقول:

انظروني يا سادتي كيف حالي في مدارات ضَيْغم قَتَّالي
/[١٢٥/أ]مائل حائر أروم رضاه كل يوم بذلْةٍ واحتمالِ
ليس يبغي عَلَيَّ إلاّ لأني سايس مطعم بلا إدخال
وأنا في يديه قطعة لحم فاعتقوني من رقة يا موالي

(١) لقد أجاد مؤلف طيف الخيال ابن دانيال في وصف الشعوذة والمشعوذ حتى لكاد أن يكون واحدًا منهم فاستعمل ألفاظهم وتحرك بخياله حركتهم وأضفى على الجو جوهم وملأ الموضع بخورًا ودخانًا وكأنك تعيش بينهم، وتشعر شعور من يتعامل معهم وجعلك تهيم معهم في جو من الدجل والخبل والشعوذة وتسمع ترانيمهم، وترى الكلمات وهي ترسم لك الصور المتلاحقة لما يريد أن يريك من براعته في تصوير الجو الذي يريد وكأنك تعيشه وتشاهده وتحسه بل وتشمه.

فيبادرون إلى إجابة طلبه، ويستعيذون من شر الأسد وغضبه. وينصرف.

فيخرج مبارك الفيال. وفيله ويغلو بالهندية قاله وقيله ويقول:

ط ككا طلندا أكندا كرواد اكرندا كردريا ودسا.

ثم يدق هامته بالكلاب الحديد، ويأمره أن يخدم جاثيًا كالعبيد/ [١٢٥/ ب] فيخدم وينهض جائلاً بزلومته في الطريق، ويتغازل وينشد الفيال بلسان طلق ذلق ويقول:

انظروا إلى الفيل في تهويل خلقته ... وأعجب الإتقان صنع الخالق الباري

كفته قد بنيت عمدًا على عمدٍ ... وقُيِّرت ظاهرًا بالزفت والقاري

بل كالسفينة في نهر قد انقلبت ... وقد رمى ظهرها رامي ببيكارِ

تخال من ورق القلقاس قد نبتت ... آذانه إذ تراه عاديًا جاريًا

/[١٢٦/أ]ثم يتولى مطرقًا ومعجبًا بنفسه بتلك الزلومة[1] والصبيان ينادون من خلفه:

---

(١) ذكر الدميري الفيل في حياة الحيوان الكبرى فقال: الفيل معروف وجمعه أفيال وفيول وفيلة قال ابن السكيت: ولا تقل أفيلة، وصاحبه فيال. وكنيته: أبو الحجاج، وأبو الحرمان، وأبو دغفل وأبو كلثوم، وأبو مزاحم، والفيلة أم شبل، والفيلة ضربان فيل وزنديل وهما كالبخاتي والعراب، والجواميس والبقر، والخيل والبراذين، والجرذ والفأر، والنمل والذر، وبعضهم يقول: الفيل: الذكر، والزنديل: الأنثى وهذا النوع لا يلاقح إلا في بلاده ومعادنه، ومغارس أعراقه، وإن صار أهليًا.

وهو إذا اغتلم أشبه الجمل في ترك الماء والعلف حتى يتورم رأسه ولم يكن لسواسه إلا الهرب منه، وربما جهل جهلاً شديدًا. والذكر ينزو إذا مضى له من العمر خمس سنين وزمان نزوه الربيع، والأنثى تحمل سنتين، وإذا حملت لا يقربها الذكر ولا يمسها ولا ينزو عليها إذا وضعت إلا بعد ثلاث سنين.

قال عبد اللطيف البغدادي: إنها تحمل سبع سنين ولا ينزو إلا على فيلة واحدة وله عليها غيرة شديدة، فإذا تم حملها وأرادت الوضع دخلت النهر حتى تضع ولدها لأنها لا تلد إلا وهي قائمة، ولا فواصل لقوائمها، فتلد والذكر عند ذلك يحرسها وولدها من الحيات. ويقال: إن الفيل يحقد كما يحقد الجمل، فربما قتل سائسه حقدًا عليه. ويعظم ناباه، وربما بلغ الواحد منهما مائة منْ وخرطومه من غضروف، وهو أنفه ويده التي يوصل بها الطعام والشراب إلى فمه ويقاتل بها.

ويصيح ليس صياحه على مقدار جثته لأنه كصياح الصبي. وله فيه من القوة بحيث يقلع به الشجرة من منابتها.وفيه من الفهم ما يقبل به التأديب، ويفعل ما يأمره به سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر في حالتي السلم والحرب وفيه من الأخلاق أن يقاتل بعضه بعضًا والمقهور منهما يخضع للقاهر. ويطول عمره، فقد حكى أرسطو أن فيلاً ظهر أن عمره أربعمائة سنة، واعتبر ذلك الوسم. وبينه وبين السنور عداوة طبيعية حتى أن الفيل يهرب منه كما أن السبع يهرب

=

خالومة، زالومة. وينصرف.

فيخـــرج أبـــو العجب وجدْيُهُ المهذب، ويشير إليه، فيحرك شراريب قرونه بعداوة المـــذهب ثم يأمره أن يقوم على رجليه، وأن يريه الولد الحلال بيديه ويرفع على الكرسي القطع الخشب، وينشد معرِّضًا للطُلب ويقول:

/[١٢٦/ب]علّمـــت تياسا فأضحى يبدي

وصـــار بالـــنجم يحمي، وما عرفت

والتـــيس أرشـــد ممـــن لا يقـــبل التعليم

ثم يذهب وقد أوقر كتفه، ثم ينصرف والجدي خلفه.

فتخـــرج الـــصائغة وثبات،[1] ومعها المشاريط والكاسات، وترفع صوتها وتقول: الصائغة يا بنات.

- هذا وقد ربطت المخلاة وقد أظهرت جيدها بالطوق، وصنوف المحلاة، وغرزت عـــصابتها بمكللات/[١٢٧/أ] الإبر، وتوشحت الخز من الحرير، وكشفت عن ساق أبيض منقوش، وتمشت بين زبول وخلخال منقوش فتتحرك لوصالها الدماء، وتكشف عن وجه أحسن صورة وألّذ ماءٍ وتقول: يا نور عيني أنشدني حُسيني. ثم تقرع المسامع، وتمد صـــوتها في الشارع وتقول زَحَلْ وتدع الكَسَل: يا مشعر العشاق من لوثبات إذا زعقت الـــصائغة: يـــا بنات أنا الذي أسبي عقول الرجال/[١٢٧/ب] ما بين أعطالي وغنج الدّلال، وأطمع الناس بطيف الخيال، وأنا من الغرّ المها السابحات من دار في مصر أو في الـــشام، هـــذا اللّما من تحت ذاك الوشام مثل الأقاح أو مثل نشر الخزام، كخضرة الأس وحُـــسن النـــبات أنا العروس الكاملة يا خلي وكل شارع لي به مُجْتلي وما رأى ردْفَيَّ وخـــصري خَلِي إلاّ فني من فرط حسني/[١٢٨/أ] إلاّ ومات. أبصّ روحي في مجاري الكـــؤوس، وإن غَشي من أعانق وأبوس. وما أجوجو قط بمشراط وموسى، إلا بأجفان الظبا الساحرات. فيصبو إليها من فيه دم، ولا يجاوزها ناظر ولا فم وينصرف.

فيخرج أبو القطط، والفار في السفط[2] ويشير إلى هرة، ويترنم بإنشاد شعره ويقول:

من الديك الأبيض وكما أن العقرب متى أبصرت الوزغة ماتت.

(١) في المخطوط: يا بنات والتصويب من السياق القادم.

(٢) السفط في لسان العرب في مادة سَفَطَ (ص ٢٠٢٧) السَّفَطُ: الذي يُعبَّأ فيه الطيب وما أشبهه من =

أصلحت من شأنه الفساد وقدت من طبعه/[١٢٨/ب] العناد
فإذا وهْر ولفت حتى تألّف الطبع والوداد

ثم يقول: أصعد يا أمير الطيارة وأحذر أن تعضك الفارة، وأخرج له أنت يا سمود الأب، وأنت يا سنان الأشهب، وخذ أنت الروة الحمراء، وأنت الفروة الصفراء، وأنت يا سُسان الغيط، الحقه يا سنجاب في الحيط، وقف أنت يا بليق على ظهره، وعضه يا أبا الحدايا في جُحره، فيتمثلوني ما أمرهم، ويضحك لذلك من حضرهم ، /[١٢٩/أ]ثم يقول: يا ستار لا بلاه الله بهذا الفار.

وينصرف فيخرج زعير الكلبي وكلابه، وجراه، وأصحابه، ثم يقعد وينشد ويقول:

تعلمت أخلاق هذي الكلاب ومن لي بأمثالها في الصحاب
وفاء وصبر وحسن الدمام وذبّ عن الخِلّ وقت الضراب
وتسهر إن نمت في قفرةٍ وتحرسني من ضواري الذئاب
/[١٢٩/ب]كلاب ولكنها فضّلت على بعض قوم حشوا الثياب(١)

=

أدوات النساء. والسُفَطُ معروف. قال ابن سيدة: السُفَطُ: كالجواليق، والجمع أسفاط.
قلت: والمراد الوعاء، والمراد هنا في سياق الكلام كالفأر المحبوس داخل الوعاء لا يجد لنفسه مخرجًا ولا مهربًا فلابد أنه ملاق حتفه وواقع في يد الصياد الذي نصب له هذا الفخ الذي نصبه له، ومرادها هنا أن من رآها لا مفر له من أن يقع في هواها.

(١) هذا موضوع شرحه يطول، وقد ألفت الكتب في ذم الأصحاب، وفي عدم وجودهم على الحقيقة ومما قالوه في هذا الشأن أن أربعة من المستحيلات، أو أن المستحيلات أربعة:
الخل الوفي، والعنقاء، والغول، والفيل الأبيض.
وألفت كتب في تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب وهذا عنوان كتاب لأبي بكر المرزباني، وقد أتعرض له وأنقل له بعضًا منه أثناء حديثي، وأنا أنقل لك الآن قول الإمام السيوطي من كتابه الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصحاب الذي اختصره من كتاب شفاء الخليل في ذم الصاحب والخليل لجمال الدين علي بن الظافر الأزدي المصري فيقول في الباب الثاني (ص ٢٤) تحت عنوان أن الصديق غير موجود:
وقال الكندي: الصديق اسم على غير جسم.
وقال قال الفضل بن العباس: دلوني على رجل أسكن إليه في الرخاء والشدة، قيل له: تلك ضالة لا توجد.
وقال الإسكندر: طفت الدنيا وما أعجزني شيء إلا وِجْدان صديق صدوق.

=

=

وقال بعضهم: من ظن أنه وجد صديقًا صدوقًا فاقطع أنه مجنون.
وقال آخر: من قال: أنه رأى صديقًا صادقًا، فاختم على أنه كذاب.
وقال بعضهم:

صاد الصديق، وكاف الكيمياء معا لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وقد تحدث قوم باجتماعها وما أظنهما كانا ولا اجتمعا

وقيل لبعضهم: ما معنى الصديق؟. فقال: لفظ بلا معنى. وقيل لأعرابي: كيف أنسك بالصديق؟ فقال: وأين الصديق؟ بل أين الشبيه بالشبيه بالصديق؟ والله ما يوقد نار الضغائن والذُحول (الثأر) في الحي إلا الذين يدعون الصداقة ويعانون النصيحة، وهم أعداء في مسوك الأصدقاء.
وقيل لأبي النضر: لم لا تتخذ الأصدقاء؟ قال: حتى أتفرغ من الأعداء، وأطلب صديقًا من الجن، فإنه قد أعوزني في الإنس ... ولبعضهم:

سمعنا بالصديق ولا نراه على الأيام يوجد في الأنام
وأحسبه محالاً أو ردوه على وجه المجاز من الكلام

ويقول في الفصل السادس تحت عنوان: أن الكلاب خير من كثير ممن يلبسون الثياب (ص ٤١):
قال بعض الحكماء: من كان فيه ست خصال فهو إنسان كامل، وإن عدم واحدة منهن فقد عدم سدس الإنسانية، وإن عدم الكل فليس بإنسان، وهي الإلف، والحياء، والعقل، والأنفة، والشكر، والرجاء. قيل: وهذه كلها مجتمعة في الكلب.
أما الألف: فإنه يضرب ويجفي ويقصي ولا يزداد إلا قربًا ودنوًا من أصحابه، وكفى شرفًا قصة أهل الكهف. وقال الشاطبي:

وقد قيل: كن كالكلب يقصيه أهله وما يأتلي في نصحهم متبذلا

وأما حياؤه وعقله: ففي قبوله الأدب وتصرفه عند الإشارة وغيرها.
وأما شكره: ففي صبره على فقد صاحبه إذ هو يصحبه، وإن لم يجد ما يقوته، ولا يتركه وينزع إلى المواضع التي يجد فيه الخبز.
وأما رجاؤه: ففي بصبصته بذنبه وتملقه.
ويقول المرزباني في كتابه الشهير:«فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب» صـ ٢٦: والكلب أيدك الله، منافعه كثيرة فاضلة على مضاره، بل هي غامرة لها وغالبة عليها، ولم يزل القضاة، والفقهاء، والعباد، والولاة والنساك الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا ينكرون لاتخاذها في دورهم مع ذلك يشاهدونها في دور الملوك، فلو علموا أن ذلك يكره لتكلموا ونَهَوْا عن اتخاذها بل عندهم أنهم إذا قتلوا الكلب كان فيه عقوبة وأن مَنْ كان أمر بقتلها في قديم الزمان إنما كان لمعنى، ولعله، وأن هذه الكلاب بمعزل عن تلك.
وقال عمر بن الخطاب: من لا يعرف الأمور يقول: إن الكلب من السباع، ولو كان كذلك ما ألف

=

أَلاَ أنني بينهم يا سادة ربيتهم على امتثال أمري، ورقصتهم على طاري وزمري. أين أنـــت يـــا قطيش الأفطم؟ وأنت يا دبوس الأظلم؟ أين هو طبق الورد، وسوار، وعكرش وعنابة، والشهالة؟ فيجاوبه الكلاب بالعويّ، وترقص على الإيقاع السوي.

فـــيقول: اغتـــنموا دعاء الكلاب وأعينوه يا ذوي الألباب، واستعينوا بأولي الكسر / [١٣٠ / أ] والعظـــام، فنحن ضيوفكم، وضيف مثلكم ما يضام. فيخرج الوحش والدّبة، وعصابته والركبة، ويضرب بها ضرب النواقيس، ويقول الزمر يا خميس، وينشد ويقول:

صـــحبة الـــدّب علمـــتني الكفاحا وأرتـــــني مـــن الفـــساد صـــلاحا

الناس، واستوحش من السباع، وكره الغياض، وألف المجالس والديار، وكيف يكون كذلك وهو لا يرضى لنفسه بالنوم، والربوض على الأرض وهو لا يرى بساطًا ولا وسادة إلا علاها وجلس عليها، وأيـــضًا فهو لا يجد إلى كل موضع جليل نظيف سبيلاً فيقصر عنه وتراه متخيرًا أبدًا أرفع المواضع في المجلـــس وما يصونه صاحبه. قلت (أي المؤلف): والكلب يعرف صاحبه وهو والسنور يعرفان اسميهما، ومواضع منازلهما ويألفان موطنهما، وإذا طُرِدا رجعا وإذا أجيعا صبرا، وإذا أهينا احتملا. وللكلب أيضًا فضائل: إتيانه وجه صاحبه ونظره إليه في عينيه، ولي وجهه وحبه له، ودنوه منه حتى ربما لاعبه ولاعب صبيانه بالعض الذي لا يؤلم ولا يؤثر وله تلك الأنياب التي لو أنشبها في الشجر لأثرت، قال بعض الشعراء:

أيهـــا الـــشانئ الكلـــب أصـــغ لي مـــنك سمعًـــا ولا تكـــونن حبـــسا

إن في الكلـــب فـــاعلمن خـــصالا مـــن شـــريف الفعـــال يعـــددن خمـــسًا

وحفـــظ ســـر مـــن كـــان محسنا ووفاء للـــذي يـــستخذه حـــربًا وحرســـا

وأتـــباع لـــرحله، وإذا مـــا صـــار نطـــق الـــشجاع للخـــوف همـــسا

وهـــو عـــون لـــنابح مـــن بعـــيد مـــستجيرًا بقـــربه حـــين أمـــسا

قـــال أبـــو بكر الصديق: إن الرجل في البادية إذا ضل الطريق وهاله الليل نبح نباح الكلاب لتنبح كلاب الحي، فيتبع أصواتها حتى يصير إلى الحي.

وقال في صفحة (٢٥):

ومـــا يدل على قدر الكلب كثرة ما يجري على ألسنة الناس بالخير والشر والمدح والذم حتى ذكر في القرآن وفي الحديث وفي الأشعار والأمثالة حتى استعمل على طريق الفأل والطيرة، والاشتقاقات للأســـاء فمن ذلك: أكلب بن ربيعة. ومكلب بن ربيعة بن نزار. وكليب بن يربوع. ومكالب بن ربيعة بن قذار. وكلاب بن يربوع. ومثل هذا كثير.

لي خِـلٌ من الدباب غليظ الطبع جافٍ يـــــــــصدني حجّاجـــــــــا
هذبــته عـــصاي حـــتى عـــصاني وأرته الأفراح/[١٣٠/ب] والأتراحا(١)

ثم يقـــول: هذا مشي السمينة، وهذا رقاد السكلانة. ثم يقول: من يقول من يصلي علـــى المنـــتخب لا يولي وإن لم يكن لي فمن لي هائم بجنانه، أطال الله أعماركم، وعمَّر دياركم، وينصرف.

فيخـــرج الناتو، ودبادبه، وطرطون، وذوائبه ويهز المزاريق، ويكر مقبلا ومدبرًا في الطريق، ويبلّق عينيه، ويفتح بأصابعه شدقيه، ويهيج كالطبلي، ويرقص ويغني على إيقاع الطبل، ويقول.

/[١٣١/أ] يـــا نانـــوا يـــا نانـــوا يـــا نانـــوا يـــا نانـــو

(١) الـــدب ذكي غير أنه يقبل التعليم بصعوبة بالغة على العكس من الكلب وإن كان وصف بالحمق فقالوا: أحمق من دب.
وقـــد ذكر الدميري في حياة الحيوان الكبرى الدّب فقال: الدب من السباع معروف، والأنثى دبة، وكنيته أبو جهينة وأبو الحلاج، وأبو سلمة وأبو حميد، وأبو قتادة وأبو اللماس.
والـــدب يحب العزلة، فإذا جاء الشتاء دخل وجاره الذي اتخذه في الغيران ولا يخرج حتى يطيب الهـــواء، وإذا جاع يمتص يديه ورجليه فيندفع عنه بذلك الجوع، ويخرج في الربيع كأسمن ما يكون. وهو مختلف الطباع لأنه يأكل ما تأكله السباع، وترعاه البهائم، وما يأكله الإنسان ومن طبعه أنه إذا كـــان أوان الـــسفاد خلا كل ذكر بأنثاه، والذكر يسافد أنثاه مضجعة على الأرض، وتضع الأنثى جـــروها قطعـــة لحم غير ميز الجوارح فتهرب به من موضع الى موضع خوفًا عليه من النمل، ومع ذلك تلحـــه حتى تتميز أعضاؤه ويتنفس.
وفي ولادتهـــا صـــعوبة وربمـــا أشـــرفت علـــى الـــتلف حالة الوضع، وزعم بعضهم أنها تلد من فـــيها. وإنما تلده ناقص الخلق تشوقًا للذكر وحرصًا على السفاد، ولشدة شهوتها تدعو الأدمي الى وطـــئها. والأنثى إذا انهزمت دفعت جراءها بين يديها فإذا اشتد خوفها عليها صعدت بها الأشجار وفي طبعه فطنة عجيبة لقبول التأديب لكنه لا يطيع معلمه إلا بعنف وضرب شديد.
فائدة: قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في آخر كتاب الأذكياء: هرب رجل من أسد فوقع في بئر، فوقـــع الأسد خلفه فإذا في البئر دب، فقال له الأسد: منذ كم لك ها هنا؟ قال: منذ أيام وقد قتلني الجوع، فقال له الأسد: أنا وأنت نأكل هذا الإنسان وقد شبعنا، فقال له الدب: فإذا عاودنا الجوع مـــاذا نـــصنع! وإنما الرأي أن نحلف له أنَّا لا نؤذيه ليحتال في خلاصنا وخلاصه، فإنه على الحيلة أقدر منا، فحلفا له، فتشبث حتى وجد ثقبًا فوصل إليه، ثم إلى الفضاء فتخلص وخلصهما.
ومعـــنى هذا: أن العاقل لا يترك الجزم في كل أموره ولا يتبع شهوته لاسيما إذا علم أن فيها هلاكه بل ينتظر في عاقبة أمره ويأخذ الحزم في ذلك.

غـزلان الـسودان إنـسان الإنسان لـو عـاش الصبيان غيري ما ماتوا
دعـنا نتمـرر بكر أو بسكر بامهتار عنـبر في كـبدي هاتـو
لـولا ذي الإفسرار مـع سمان الفار مـا أصـبح مهـتار يهوي سُتّاتو
صـفي لي الطيطاب عيشي قد طاب لا كـان الحـلاب إدنـا أوقاتـو
غـنِّ لي يـا جامـوس في حـان بادوس
وامـلأ بالقـادوس/[١٣١/ب] وامسح
شـرب الجـندوبة أحمـر كالطـوبة مـن جـدد تـوبة يامـا قد فاتو

ثم ينصرف.

فيخـرج ميمون القراد وفستانه وقروده ونسناسه ويقول: أتاكم الشيخ طبل طبلي، وزمر زمري، ورقص قردي، وينشد ويقول:

قـردي يكـاد مـن الـتفهم ينطق
ويكـاد مـن حُـسن رشـاقه يعـشق
مـا حـاذ دارًا في ذُراهـا طـاولا
إلا وكـاد بـسقفها/[١٣٢/أ] يـتعلق
بـسطوا سـطا الخدم الخصيّ متاقفًا
ويظـلّ يـرقص تـارة ويـصفق
وعلـيه مـن زغـب الكـلاب ملابسًا
بـل فـرو سـنجاب علـيه ونـيفق
وإذا جلـست فـشمعتي في كفـه
وهـو الحـريص بأنهـا لا تحـرق
وبـه اكتـسابي بالـذي علمـته
مـن بعـد مـا ذبـح الجديّ الأبلق
ورأى الـذي صـنعت يدي في ذبحه
فانقـاد لي/[١٣٢/ب] فـيما أقـول ويـسبق

ثم يـــرقص بالنحيق والطرطور، ويدور على الحبل وينشد بليق ويقول: بالله عليك يا ميمون رقص السمينة كيف يكون؟ (١)

فـــرج علـــيك مـــن قـــد حضر ثم الـــــتقف هــــــذي الأكــــــر

والـــــبس ســـــراقوح التتـــــر وارقـــــص لــــــنا كالمـــــوزون

وأجمع قطيعان الزبون

ثم يقـــول: يـــا ســـراة الـــناس/ اجمعـــوا لمـــن رزقـــه مـــن هذا القرد، وهذا النسناس. ثم /[١٣٣/أ] ينـــصرف فيخـــرج وثـــاب النجاري، وحباله والصاري، ثم يتمشى على الحبل بقبقابه والناس لوقوعه في ارتقابه، ويصفق بيديه والأنظار شاخصة إليه، وينشد ويقول:

صــــناعة باللطـــف لا بالقـــوى وســــقطتي لم يرجـــى مــــنها دوا

أدركـــت غايـــات العُـــلا صاعدًا ومــــن شـــأني عجـــبا فاســـتوا

خفـــة جـــسم طـــار مـــن لطفه ســـبحان مـــن يمـــسكني في الهـــوا

/[١٣٣/ب] ثم يخـــرّ هابطا كالشهاب، ويتعلق بإبهامه بطنب من تلك الأطناب، فتزوغ إليه الأبصار، وتخفق قلوب الحُضّار.

ثم يقول: يا سادة ما أقدمت على هذا الخطر إلا لأفوز منكم ببعض الوطر، ولو متُّ مكـــاني، ما أقصرتم بتجهيزي وأكفاني، فرحم الله تعالى من رآني بعين لطفه وتأمل طرفي ولـــو رشح بقطرة من خلفي، فإذا فتح الجيب وانهل السيب، قبّل الأرض وقال: قد أديّت الفرض، ثم ينصرف(٢).

---

(١) معـــروف أن للقـــرد قدرة عجيبة على التمثيل والتقليد والتشبيه، وهو ذو قدرة عالية على التعلم، ولهـــذا نجـــد أن كـــثير من الناس اتخذ من تعليمه سببًا في جلب الرزق فهم يسيرون به في بعض الـــشوارع أو يجوبـــون بـــه القرى والنجوع يعرضون قدرته على التقليد والتشبيه ويجتمع حولهم الصبيان وبعض الشباب لمشاهدة تلك العروض ويدفعون إليهم بعض النقود نظير هذه الأفعال التي يفعلها القرد والتي قام بتدريبه عليها صاحبه، وتقديرًا لهذا العرض الشيق الذي شاهدوه منه فهو ينام ويقـــوم ويتحـــرك كمـــا يأمره صاحبه ويترقص ويلبي كل الأوامر في سهولة ويسر وطاعة فائقة لا يعصي له أمرًا مهما كان.

(٢) وهذا العارض لقدرته على السير على الحبل وإتيانه بعض أعمال ما يسمى في عصرنا بالأكروبات نـــرى منه كثيرا في الشوارع خلاف المسارح فهم قوم يقومون بحركات عجيبة وغريبة فمنهم من

-

فيخرج جرَّاح المتبِّل وعقله مُخبَّل، وقد/ [١٣٤/ أ] حزم أنفه، وجز بالموسى كتفه، ويقول: هات يا أملي، ويجرح نفسه، ويقول: يا لعلي وينشد ويقول:

كل صعب على هواكم يكون ... وجنوني بمن هويت جنون

يعجز الصبر من تصبرُ قلبي ... واحتمالي ما رتقته العيون

جَلْدي هكذا التمزيق جِلْدي ... وسيوفي لها الجفون جفون

ثم يقول: وحق الذبيح، والأنزع الجريح، إذا لم أجد لي مواسي، جزيت على صوبي بهذه المواسي وقطعت كتفي وأرميت/ [١٣٤/ ب] أنفي أو قطعت لحمي تقطيع الشواء اعتمادًا في ذلك على هذا الدواء المكرم لمن عنده حمار مكسور أو جمل معقور أو فرس معفور، فهو مجرَّب في لحمي، فخذوا هذه الإفادة، وصيدي، وحق الله جرادة، ثم ينصرف(١).

فيخرج مشاعلي المحمل، وقد زين بأصناف الرياحين المشعل، وهو جائل في ميدانه، يفتخر على أقرانه، وينشد ويقول:

لا ودخان المشعلي ... وضوئه المشتعل

وعرفه الذي سرى ... يزري بعرف المندل

=

يأكل الزجاج، أو يثني العملات المعدنية بين مرفقه وعضده، ومنهم من ينام على السيوف، ومن ينام على المسامير ويدق على صدره وبطنه بالمطارق الكبيرة القوية ليتفتت ما فوقها من صخور ولا تؤثر فيه تلك السيوف أو المسامير ومنهم من يربط بالحبال والسلاسل وبأوثق ما يكون الإيثاق ثم ينحل بسهولة ويسر، ومنهم من يقفز من بين النيران، ومنهم من يلاعب الثعبان إلى آخر ذلك من الحركات والأفعال الغريبة ليكتسب قوته من الحاضرين والمشاهدين فواضح أن هذا من قديم الزمان إلى الآن وإن كان ذكره المؤلف في طيف الخيال فقد كنا نراه ونحن صبيان صغار.

(١) غريب هو الاحتيال على جلب القوت والتربح والترزق فانظر إلى أي مدي قد يصل الجهد بالإنسان والتضحية من أجل لقمة العيش وصدق الله العظيم حين قال في كتابه الكريم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، فهذا من الكبد وأي كبد يتكبده الإنسان من أجل أن يعيش بعيدًا عن السرقة أو الابتزاز وكم يتفنن في جلب القوت بالكلام وبالعمل وباللعب وبالزراعة وبالحروب، والسفر وبالطيران، وبالتعليم وبكل وسيلة يراها أنها قد تحقق له البقاء في هذه الحياة في كرامة دون أن يمد يده ليتسول، فاللهم قنعنا بما رزقتنا ووسع لنا في أرزاقنا واحفظ لنا ديننا وكرامتنا آمين.

/[١٣٥/أ] في صعدة من أسل ... ما مثلها في الأسل[1]

تزهو بنار رفعت ... في سهلها والجبل

ليس لنا مما نسأل ... في علمنا والعمل

نحن الكرام في الورى ... بمالنا لم نبخل

نيراننا مرفوعة ... مثل اللواء المسبل

وكم بنا وال غدا ... مفتخرًا لَمَّا ولي

تهابه الناس إذا ... كنا بباب المنزل

نحسبه من العدا ... مما به من وجل

وكم هدينا تائها ... في جنح ليل أليل

بكل نور ساطع ... به ظلام ينجلي

مشاعلاً كأنها ... لبنو قسر لمبتلي

كمثل عين الشمس ... في المشرق أو في الظلل

من كل ناد شئت غدي ... لسانه كالمنصل

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب في مادة: «أسل»: الأسل نبات له أغصان كثيرة دقاق بلا ورق.وقال أبو زياد. الأسل من الأغلاث وهو يخرج قضبانًا دقاقًا ليس لها ورق ولا شوك إلا أن أطرافها محددة، وليس لها شعب ولا خشب، ومنبته الماء الراكد، ولا يكاد ينبت إلا في موضع ماء أو قريب من ماء، واحدته أسلة، تتخذ منه الغرابيل بالعراق وإنما سي القنا أسلاً تشبيها بطوله واستوائه.. والأسل الرماح على التشابة في اعتداله وطوله واستوئه ودقة أطرافه، والواحد كالواحد. والأسل: النبل، والأسلة شوكة النخل. وقال أبو حنيفة: الأسل عيدان تنبت طوالاً دقاقًا مستوية لا ورق لها يعمل منها الحصر والأسل: شجر. وقال: كل شجر له شوك طويل فهو أسل وتسمى الرماح أسلاً.

وأسلة اللسان طرفة.. وفي كلام عَلِيٍّ: لم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم.

وفي حديث مجاهد: إن قطعت الأسلة فَبَيَّنَ بعض الحروف ولم يبَيِّن بعضًا يحسب بالحروف. [يريد في القصاص].

أي تقسم دية اللسان على قدر ما بقي من حروف كلامه التي ينطق بها في لغته، فما نطق به فلا يستحق ديته، وما لم ينطق به استحق ديته.

عــذب الــدلال والمقــال لفظــه كالعســل
بحــرب الأشــواق يجيــبها بغــير ملــل
يقــول للمــسلم قــول ســائل مبــتهل
مــولاي يــا خــير فــتى محــترم مــبجل
مــا شعــة الــشوق ومــا ســواد نــور المقــل
جــد لي بمــا عــودتني بحــق مــولاك علــى
فلــي بــذا شــوقي جئــتك بالتوســل
هــات أخلــف الله علــيك بالعطــا المتــبدل
وجــوف بجــراه أســت امــرأة مــن لا جــاد لي
علــى قفــا عــنق فــذاك قحــف رأى العَنــسْل[١]
وإن يكــن مــن النــصارى ذو وقــار مفــضل
يقــول: يــا قــسيس كــل بــيعة وهــيكل
بمــريم البــتول أم الــولد المكلــل
ببطــرس رأس كنيــسة لــل الإلــه الأوّل
ومــرقص الــذي لــه الكــرس قــبل الــدّول
أعــني بــه الأســكندري بطــركًا يــوم ولي
بمــر يوحــنا أو بلــوقا أو بمــتى الأفــضل
وأنــدراوس الــذي أتــى جــاء تــبع للرســل
بمــر بولــو قــاوس أو ســداوس المرســل
بحــق سمعــان وتــوما ذي الــوقار الأكمــل

---

(١) العنسل قال عنه ابن منظور في لسان العرب في مادة «عنسل»: قال الأزهري: الليث: العنسل: الناقة القوية السريعة. وقال غيره: النون زائدة أخذ من عسلان الذئب، أنشد الجوهري للأعشى:

وقــد أقطــع الجــوز جــوز الفــلاة بالجســرة الــبازل العنســل

بيولس مع التلاميذ ... أُولي الترسُّل
بنظمة المدّرة في ... سفرة الأبسطل
جُدْ لي وكن لي مسعدًا ... يا أملسي يا أملسي
وذقن من يسردني ... في جعص المكتل
أو بضرط امرأتي التي ... ضراطها كالطبل
أو تحت بنت سفح ... سطح فرجها بمنزلي
وإن يكن من اليهود ... رئيسًا ذا جدل
يقول نارين اليهود ... في اليهود الأُوَل
يا نور سيوف الكبيس ... بالقديم الأزل
بنجل عمران كليم الله [1] ... رب المنجل
بالعشر كلمات التي ... نودي بها في الجبل
بنص توراة تلا ... شت على التوسل
أو بالأساطير التي ... تفسيرها لم يجهل
وبآل يعقوب وإسرائيل ... بالترسل
جُدْ بفلس أحمر ... كجمرة في مشعل
ولا تبخلن ولا ... تمطل مطل البُخَل
تحسبني حبشي أنا ... لا وعلى لا وعلى
قرقاع في لحيته ... جيرانك دقن البيتلي
ويرى هذا صاحبي ... وكل امير مبغل
خي خي أخذت يا ... لسان أقلل المعتدل
يا شقع ثقب است الهوى ... مطاقب للمبولي
أخر على دكانه ... فذا ملاك العمل

(١) المراد نبي الله موسى عليه السلام.

هـــذا وكـــم حـــش بـــرجنا أرضـــــه بالمعـــــول
كأنـــــنا في جـــــوفه فعـــل الـــدّواء المـــسهل
صـــــنعتنا محمـــــودة وهـــو كـــبطن الممتلـــي
وإن تجـــــد مرتّســـــا علـــى حمـــار أرجـــل تـــدم
تدمـــع عيـــناه كـــأن قـــد كحلـــت بفلفـــل
فـــنحن بالـــدُّرة عـــن فدالـــــه لم نعـــــدل
تقـــول قـــولا يـــزعج الأسمـــاع ذات الـــــنقل
هـــذا جـــزاء كـــل مـــن يقـــول مـــا لم يفعـــل
وفي الـــنداء كـــم قـــد أمـــرت الـــناس في المـــستقبل
معاشـــر الـــناس اعلمـــوا كـــذا ولمـــن لم يعمـــل
فـــلا يـــسل مـــا يلتقـــي مـــن الـــذي قـــال لي
كـــذا يـــنادي أن يـــضيع صـــائغ مـــن رجُـــل
مـــن دلـــه علـــيه كـــا فيـــناه بالمحلـــل
مـــع الـــثواب يـــا بـــني الحـــلال والتفـــضُّل
ونـــسلخ الميـــتة مـــن ثـــور يكـــن أو جمـــل
كـــيما تـــصير جُـــنَّة مـــن الأذى للـــرِّجْلِ[١]
فمـــا تـــرى في الـــناس مـــن ذاك ســـوى منـــتعل
وكـــم نقمـــنا لحـــدود الله مـــن ذى الحـــيل
مـــن كـــل لـــصٍ طـــارقٍ مـــثل الـــبلاء المـــنزل

---

(١) مـــن المعـــروف أن هناك بعض الناس يقومون بسلخ جلد الميتة من حُمُر أو مالا يحل أكله أو ما يحل أو نفق دون أن يدرك بتسييل الدم أو بدون أن يحلل. فيقوم هؤلاء القوم بسلخ تلك الدواب ليتخذوا من جلودها أحذية (نعالاً) أو غرابيل بعد أن تقد قدًا دقيقًا تصير فيه الجلود بمثابة فتائل أو شـــرائح مثل الخيوط تمامًا ثم يقومون بتجفيفها أو تقديدها ثم يصنعون منها الغرابيل الكبيرة. كما يصنعون منها الأحزمة وغير ذلك من المصنوعات الجلدية العديدة.

أعرف بالدار من ... السكان بالتحيل
يسمو إلى الدار سموّ ... الراكب المنتقل
أدخل في المضيق لها ... من نفس متصل
ثبت الجنان فهو ... لا يقلق من تحيل
يدب مثل النحل في ... البيت على تَمَهُّل
يغشى النيام موهنًا ... مثل النسيم الشمأل
حتى إذا ما زال ذبل ... ستره المنسبل
جئناه والموالي بكل ... حارس كالهُبَّل
يمسكه فيغتدي ... كالفرس المشكل
فتارة يفصل بين ... كفه والمفصل
وتارة يصلبه ... إن كان رُب مقتل
وفي القمار بالفصوص ... أمرنا كالمثل
تلوح في أكفنا ... كالجوهر المفصّل
فذابها مستريح ... يعقبها له ولي
وذا بها قد قمروه ... وهو ذو تذلل
يقول يا ليت قنعت ... باكتسابي الأوّل
ولم أكن في منصبي ... أظنني لم أعزل
كأنها النجوم في ... تغييرها للدّول
وكم لنا تجارة ... في خير نسبت خضل[1]

(١) قال ابن منظور في لسان العرب في مادة «خضل»: الخَضِلُ والخَاضِل: كل شيء تراه يترشش من نداه فهو خضل قال دكين: أسقي براووق الشباب الخاضل.
وفي الحديث: «خطب الأنصار فبكوا حتى أخضلوا لحاهم» أي بلوها بالدموع يقال: خضل وأخضل إذا ندى، وأخضلته أنا، وفي حديث عمر لما أنشده الأعرابي:
يا عمر الخير جزيت الجنة
=

حشيـــشة لـــون العـــذرا مـــن فـسوق خـــدّ صـــقل
مغـــســـبر مـــبرزٌ محمـــص لـــنا قلـــى
أو نـــسبكه بـــدار في الكحـــول للمنـــسطل
نيـــسيعها إن رخـــصت للـــناس بـــيع الـــسُّنبل
نحـــن بـــنو ساســـان في(١) ملـــوكها ذات الحلـــى
صـــفاتنا هاتـــسيك لي تفـــضيلها والجمـــل
اختـــصرت قـــصيدة تغنـــني عـــن الـــتَّطوُل
/[١٤٠/أ] بالجـــبلين عـــزُنا عـــالي الـــذُرا في الموصـــل
يـــشرف فـــيها شـــرف الـــشمس بـــبرج الحمـــل
وأســـأل الله ســـؤال ســـاجد مبـــستهل
تجـــاوزًا عـــني في هـــذا الخطـــأ والخطـــل

فإذا أتت صفاته وملأ مخلاته انحرف وانصرف.

فيخرج عساف الحادي يزّم راحلته وينادي شعراً:

يـــا رب البـــيت وبالمقـــام بلـــغ ســـلامي للـــنبي التهامـــي
حـــادي السرى رفقًا على الأعلام ليـــشتفي قلـــبي/[١٤٠/ب] من الغرام

فيكـــى حتى اخضلت لحيته. وفي حديث النجاشي: فبكى حتى أخضلت لحيته. في حديث أم سليم قال: خضلي قنازعك أي ندي شعرك بالماء والدهن ليذهب شعثه، والقنازع خُصَلَ الشعر.
فالمراد: نبت نضر أخضر زاهي باهي يشرح الصدر

(١) بنو ساسان هم ملوك فارس، قال ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص ٥١١): وهذه قطعة من نـــسب الفـــرس: آخـــر ملـــوك الفرس: يزدجرد بن شهريار بن كـــسرى بن أبرويز بن هرمز بن كسرى بن أنو شروان بن قُباذ بن فيروز بن يزد جرد بن بهرام جور بن يزد جرد الأثيم بن بهرام بن ســـابور بـــن ســـابور ذي الأكتاف بن هُرمز بن نُرسي بن هرام بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشـــير بـــن بابـــك وهـــو من بني ساسان بن بهمن، أخي دارا الأكبر بن بهمن بن اسفنديار بن بستاشب أول من أظهر دين المجوسية ابن لهراس. وليزد جرد آخر ملوك الفرس عقب بمرو.

رفقًا قليلاً سائق البوازل[1] فهذه طيبة والمنازل

ثم يقول: يا دليل من ليس له دليل، يا حامل المقلين بالزاد القليل، رزقنا الله وإياكم في هذا العام، الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه ﷺ، ورزقكم الوقوف بعرفة، والمبيت بالمزدلفة، ورمي الجمار بأعقاب منى، والتهرول بين الصفا والمروة والشرب من بئر /[١٤١/أ]زمزم، والتوضؤ من سقاية العباس.

وبعد عشرة أيام يقول لك الحادي أو الجمال: هذي قباب قباء[2] في هذا النخيل، هذا قبر المصطفى، ثم ينشد ويقول:

كيف اتجهت قلبي إليك يطّلع
ولشمس وجهك في ضميري مطلع

يا موضع الوجناء عندي لم يكن
أبدًا لغيرك في فؤادي موضع

إن كنت يممت الحجاز فمقلتي
وادي العقيق ودمع عيني ينبع

/[١٤١/ب] ما كنت أحسب قبل توديعي لكم
أني لقلبي في الحمول أشيع

---

(١) البازل: هو البعير الذي فطرنا به (أي أنشق) لمرور ثماني سنين من عمره، وقد ذكر البازل الدميري في حياة الحيوان الكبرى فقال: هو البعير الذي فطرنا به ذكرًا كان أو أنثى، وذلك في السنة الثامنة، والجمع بُزّل، وبوازل. وروي مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: استقرض بكرًا فَرَدَّ بازلا وقال: «خيركم احسنكم قضاءً».
والمراد من قول الشاعر هو المدح لأنواع مراكب القوم المتوجهين إلى زيارة قبر النبي ﷺ والثناء عليها وعليهم وتبشيرهم بسلامة الوصول إلى المدينة المنورة والنزول بها آمنين.

(٢) يريد بقباء: قباء هو المسجد المعروف بمسجد قباء والذي يقال أن النبي ﷺ كان يذهب إليه كل يوم سبت ليصلي فيه، ومعروف أنه أول مسجد بني في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ، ويقال أن صلاة فيه تعدل عمرة، وكل الحجاج والمعتمرين يقصدونه بالزيارة، وقد جدد هذا المسجد في هذه الأيام وصارت عمارته من أفخم عمارات المساجد، ويجد الداخل إلى هذا المسجد راحة نفسية غريبة جدًا لم أعهدها في غيره من المساجد بعد مسجدي مكة والمدينة، فلا أدري أهذا شيء خاص بي أم يجد ذلك الإحساس غيري من الناس. فالله أعلم.

تغـــــدو الــــــبلاقع مـــــنكم مأهـــــولة
وديــــاركم لمـــــا رحلـــــتم بلقـــــع

ثم ينصرف.

فيخرج غريب ويقول: يا علي كيف رأيته يعلي وينشد ويقول:

والله لــــولا خـــشية المــــلاك لقلـــــت لا يـــنقطع المقـــــال
مـــا فـــيه مـــن مـــستغرب الأمثال لكـــــن إخـــواني ذوو الأفـــضال
/[١٤٢/أ]قـــد حاولوا حقيقة الخيال والـــــــزموني ذاك بالـــــــسؤال
نعمــــــــت إذ ذاك بامتـــــــثال مـــــستغفرًا ربي ذا الجـــــــلال

لي ولوالدك الشيخ دانيال

ولــولا أن الإطالــة داعية إلى الملال لأطنب عندكم. وقال: وما أعتق وما استقال، فلذلك اختصرت من الاختصار واعتذر من الحضار.[1]

وينشد/ [١٤٢/ ب] مُنيب:

فــإني وفنِّـــي، وشـــأني معًـــا غـــريب غـــريب، غـــريب غـــريب

تمت البابة الثانية تتلوها البابة الثالثة

من طيف الخيال، وهي بابة:

«الصائغ اليتيم والعاشق المتيم»، والحمد لله وحده..

* * *

---

(١) يـبين المؤلـف هنا أنه إنما ألفه تنفيذًا لرغبة طالب أو طالبين لهذا الفن وأفاد بأنه اختصر فيه على قدر ما قدر له أن يختصر وطبعًا معروف أن مجال الخيال واسع خصوصًا عند الأدباء والشعراء فهذا ديدنهم وميدانهم.

/[١٤٣/أ] بسم الله الرحمن الرحيم

قـــد أجبت أيها الأستاذ البديع والماجن الخليع، والأستاد المعلم، والمنطبع المترجم، ســـؤالك الثالث، وخضت معك خوض الحارث وارتحلت لك هذه البابة، كرما للإجابة، وضـــمنتها طرفًا من أخبار المحبّين. وطرفًا من الغزل الذي هو السحر المبين، وطرفًا من الملاعـــيب، وطرفًا من المجون، العجيب الغريب، فإذا دعيت إلى مجلس صدر من صدور أهل/[١٤٣/ب] الزمان فأجلي وغني في أصفهان شعراً:

قــــل لـــسادات الـــزمان لا بـــــرحتم في أمــــــان
وبقيـــــتم في ســــرور مـــــا تَبَقَّــــى النيِّــــران

ثم يخـــرج شخص قد هيجه الغرام، وأذابه الأرق[١] حتى نحل جسمه ورقّ، فيبكي بانتحاب ويتأوه باكتئاب، وينشد ويقول:

أهـــل الغـــرام تجمعـــوا وتوســـلوا وتخـــضعوا
دُقـــوا لأبـــواب الإجابـــة بالـــدعاء لتـــسمعوا
/[١٤٤/أ]موتـــوا تعيـــشوا في الهوى وتمـــزقوا وتفطحـــوا
وخـــذ حـــديث متـــيم عـــن مـــن ســـباه أوْدَعـــوا

---

(١) ظاهـــرة النحافة أو النحول تصاحب عادة نوعين من الناس ويجمعها خط واحد وإن كانا متباينين ألاَ وهو الحب والصنفان هما العباد والعشاق. فهذان النوعان من الناس تراهما دائمًا ذابلين صامتين رقـــيقين مذرفي الدمع مرهفي الحسّ منخفضي الصوت معتزلي الناس في حالة شرود أو غياب عن واقع الناس مستغرقين في عالمهما شبه غائبين عن الوعي في حين أنهما متعمقان فكرًا فيما يشغلهما فلا هما بدنيا الناس منشغلان ولا لحطامهما ناظران ولا آملان ولا عنها سائلان ولا بأخبار غيرهم مهـــتمان ملـــك عمرو أو هزم زيد إنما همهما من تعلق به قلبهما، وإن حاولت أن تقتحم عليهما عـــزلتهما أو تـــدخل عليهما عالمهما أخرجاك سريعًا بكلمات قليلة، إما بعدم المبالاة أو يجيبك أحدهما إجابة مسكته أو تريحك أو يشعرك ببلهك أو بلهه ليلهيك عنه بما يشغلك لتترك له ما هو فـــيه يـــنعم بـــه أو يغمه. فهما لا يناما إذا نمنا ولا يفرحان إذا فرحنا ولا يحزنان إذا حزنا فهما إنـــسانان لا إنـــسانان وآدميان لا آدميان هما كتلة من مشاعر مرهفة حساسة، ولو دخلنا عالمهما وسمحـــا لنا أن ندخل لوجدنا شخصين رقيقين هادئين ناعمين مرهفين لينين طيبين خيرين جوادين مضحيين نبيلين كريمين باذلين لأغلى ما يملكان في كرم لا نظيَر له.

ولـــو سمعـــنا لكلامهما لظن الكثير منا أنهما مجنونان وما بهما من جنون ما بهما إلا الحب الحقيقي الصافي الخالص النقي هذا في مجاله وذاك في مجاله جعلنا الله ممن يحبه وينشغل به آمين.

صـــب سمـــاء دمـــوعه عـــين صـــبُّها لا يقلـــع
لم يـــبق إلاَّ أعظمًـــا مـــن جـــسمه تســـتقعقع
وادي العتـــيق بجفـــنه والدمـــع مـــنه ينـــبع
يـــا لائمـــي مـــا في فـــؤادي للملامـــة موضـــع
لا في ســـلوى لا ولا في وصـــل حبِّـــي مطمـــع
إن المتـــيم مـــن إذا هجـــع الـــورى لا يهجـــع

[١٤٤/ب]ثم يقول: آه، أواه، واحُبَّاه، واقلباه! المتيم المسكين! ذبح بغير سكين، من أطلق ناظره، أتعب خاطره من أبذل نفسه للملكة، فليصبر على سوء الهلكة، والعاشق كل شـيء عدوه البرق يُؤرِّقُهُ، وهبوب الرياح تقلقه، وإذا دنا الليل منه فَرَّ النوم عنه. ثم يعدد وينوح في هوى، وهو يبكي ولا يرعوي، وينشد ويقول:[١]

اهكـــذا كـــل أخـــي وجد يكون أم أنـــا وحـــدي بـــه هـــذا الجنون؟
مـــن مُعـــيني ومَعـــيني أدمعـــي؟ وعـــيون الـــصب للـــصب عـــيون
/[١٤٥/أ]مَـــن الأتراك أحوى أحور لحظـــة فـــيه فـــتور وفـــتون؟
لـــين الأعطـــاف قـــاس قلـــبه آه لـــو كـــان لـــدي شـــكوى يلين
أنـــا مـــن الحاظـــه أوقـــده مَيِّت مَـــيِّت إمَّـــا جـــريح أو طعـــين
قـــد خَلَـــتْ مـــني نسيمات الصبا فلهـــذا تنـــثني مـــنه الغـــصون
يـــا حمامـــات الكـــرى هل مسعد لي مـــنكم لمـــشرق أو حـــزين؟

/[١٤٥/ب] ثم يقـــول: أيها السادة مُسيتم بالسعادة ، ولا بليتم بعشيق متدلل، عبدكم الهائم المتيم في الصائغ اليتيم، الذي قد فتن الألباب وأغلق على الملاح الباب، ذي القوام الأهيف، والخصر المخطف، والطرف الأدعج الأوطف، والردف الوافر، المردف،

---

(١) هـــذا الشعر من أشعارهم، يوضح شيئًا من حالهم الذي وصفت سالفًا فهو يحكي في شعره حاله ويتساءل هل أنا وحدي هكذا كالمجنون أم أن أهل الحب كذلك؟ هل يعذره من يراه أم يلومه؟ هل لو رأى محبوبه بعيونه سيكون له مؤيدًا أم معارضًا؟ فهو يرجو ممن يراه أن يلتمس له العذر لأن ما أصـــابه من محبوبه يراه أنه ليس بشيء هين وأن فراق الجفون للنوم أو فراق النوم للجفون ليس أمرًا بيده بل هو خارج قدرته وإرادته وهو من فعل هوى المحبوب فكيف يلام على ما لا يملك؟

والجـبين الأبلـج، والطرف الأدعج، والثغر المفلج، الذي خده الورد، وغذاره البنفسج الكامل الأوصاف، القليل الإنصاف،[1] كان أول الولوع به، والتعثر في طلبه:

/[١٤٦/أ] إني مـررت بقاعة العلاج، وعلى بابها تراجم أفواج بعد أفواج، وقد تجرد من قباه وقد أحدقت به عيون رقباه، وقد أقعده مناقيره المائة والخمسين. والعاشق يعـوذ ب: (طـه) و (يس). وقد تناثرت عليه الدراهم والدنانير، وأقبل بوجهه كالقمر المـنير، فلما رأيته خطف قلبي وأذهل لبّي فارتجلت هذا الموشح فيه وفايقت في إبداع قوافيه[2].

«موشح»

غـصن مـن الـبان مثمـرا قمـرا يكـاد مـن لينـه إذا خطـا يقعـد

أسمـر كالـسمهري معـتدل

ولحظـه كالـسنان منـصقل

نـشوان مـن خـرمة الـصبا ثمـل

---

(١) هـو يـصف معشوقه بكل كامل من الأوصاف من شعر رأسه إلى أخمص قدمه، وهو لا يرى فيه عيـبًا ولا شيئًا بل يراه زينًا زينًا كأنه خلق كما يشاء أو كما يريد محبوبه، كما قالوا قديمًا في المثل العامـي: «مراية الحب عميا»، قالوا: «القرد في عين أمه غزال» وقالوا: «لكل فوله مسوسة كيال أعمى»، وقالوا في المثل العربي: «حبك الشيء يُعمي ويُصم».

وقد يكون المحبوب جميلاً فعلاً كما حكى لنا القرآن في قصة يوسف عليه السلام إذ رأته امرأة العزيز غاية في الحسن والجمال، وأقرتها على ذلك كل من كانت لامتها على تعلقها به.

فلـيس للجمـال حد يوصف به يقيس عليه الحب ولكن هو تعلق يحدث بين المحب والمحبوب وقد نرى نحن أن محبوبة لا يتمتع بأي شيء من أنواع الجمال ولكنه في عينيه كما أسلفت القول.

(٢) هنا بدأ يحكي قصته معه وكيف حدث تعلقه به وكيف رآه وأين رآه وسعادته بعثوره على ضالته وفوزه بالكنز الذي كان ينشده، ثم بعد أن يحكي لنا حكايته معه يبدأ يمدح لنا فيه بذلك الموشح الذي يذكره ليعدد لنا شعرًا وصفه كما سبق وعده لنا نثرًا فهو لا يكتفي بما قال بلهو لا يمل ذكره شـعرًا ولا نثرًا، ولا ليلاً ولا نهارًا مع من يعرف ومن لا يعرف مع من يحب ومع من يكره هو لا يملـك إلا أن يحـدث عن محبوبه بإرادته وخارجًا عن إرادته فهو شيء لا يمكنه التحكم فيه فعلى العاقـل أن يعـذر العاشق أيًاما كان نوع عشقه شرعيًا كان أو ماديًا، وليعلم أن محاولة علاجه في الغالب ستبوء بالفشل ما لم يدركه الله برحمته ويكون حبه له وفيه استجابة فاللهم أجعلنا من محبيك آمين.

عـــربد دلاً علـــيّ إذ نفـــر كـــذاك في الـناس كل من سكر عربد

حملـــت وجـــدًا كـــردفه عظمـــا

وحـــرت نظـــرًا كخـــصره ســـقما

لـــو أن مـــا بي الـــصخر لانهـــدما

والـــوجد شـــيء لـــو حُمـــل الحجر أيـــسره مـــن هـــواه لانفطـــر أو انهد

عيـــناه مـــثوى الفـــتور والـــسقم

قـــد زلـــزل مـــن ســـطاهما[1] قدمـــي

ســـيفان قـــد جـــردا لـــسفك دمـــي

إن أنكـــرت قـــتلتي وقـــد شُـــهرا فهمـــا دمـــي فـــوق خده ظهر أيشهد

بديـــع حـــسن ســـبحان خالقـــه

مـــسك ذكـــي الـــشذا لناشـــقه

أبـــيض ثغـــر يـــبدي لعاشـــقه

شمـــل عـــذار يُحـــير الـــشعرا وقود شعر يستوقف/ الزمر أسود [١٤٧/ ب]

لا تغـــرني يـــا عـــذول بالعـــذل

فـــإنني مـــن هـــواه في شـــغل

وانظـــر إلى مـــا بـــه المحـــب يُبلـــي

لـــو عـــبد الـــناس قـــبله بـــشرا لكـــان مـــن حـــسنه بغـــير مراء يُعْبَد

(١) السطط: طول في الرجلين، وقد قال، ابن منظور في لسان العرب في مادة سطط:
في التهذيب: قال ابن الأعرابي: السُّطُطُ، الظلمة والسُّطط، الجائرون. والأسَطُّ من الرجال: الطويل الرجلين. أ.هـ قلت ثم ذهب يسوق وصف معشوقه على أبهى ما يرى منه أو على أبهى ما يتخيل أنـــه فـــيه أو علـــى أبهى ما يتمنى أن يكون عليه أو على أبهى أمله وأمانيه، فالزين كله لي محبوبه، والـــشين كله قد فارق معشوقه وهذا ديدن كل عاشق أو محب، لدرجة أنه أراد أن يرفعه إلى درجة العبودية لو جاز له ذلك.

وجـــــدًا أذاب الحـــــشا فحـــــرقني
وســـــيل دمـــــع جـــــرى فغـــــرّقني
لكـــــنه بالـــــدماء خَلّقـــــني

فكـــدت أمـــسي بالدمـــع مـــنحدرًا وذاك أني بقيت/[١٤٨/أ] منكسرًا مفردا

مـــع أن هـــذا الغلام قد بلبل الألباب طرفه الشجي، وعذاره البنفسجي خصّه وأنا موصـــلي الدار، لا أدق إلا الأبواب الكبار. فيخرج شخص دميم[1] ويقول: أنا غلامكم العـــديم، ويضرط بصفير، ويتبع تصفيره بشخير ويقول: يا متيم خانك الاعتقاد، وتبدلت بالياسمين شوك القتاد،[2] وعرّضت عِرضك للعرض وداويت المريض بالمرض، وقابلت ذا الطعـــان بطعانك، وقابلت/[١٤٨/ب] سنانه وهبك قد نلت الوطر، فما أيران تحت لحـــاف أخضر، فلا تغتر بخلافي، فشر ناشر يؤذيك أو ينقرك نقر الديك، وأين أنت من خـــشف الأرام الشهد المرام، الصادق في غُنجه، المنصف في دخله وخرجه، الذي ترضيه اللقمـــة، وتحطـــه اللطمـــة، الصغير سنه الكامل حسنه، وأين لحم الخروف من الكبش

---

(١) هـــو يـــأتي مـــن خياله بالشخص وضده، فمرة يأتي به غاية في الحسن والجمال والكمال والدلال والرقة والنعومة والسلاسلة والجزالة والبهاء والنور والدلع والسرور والتجلي والحبور والمرح والهناء، والسعادة والفرح إلى آخر ذلك من صفات الجمال والكمال.

ومـــرة أخـــرى يأتي به كما سنرى على العكس من ذلك تمامًا بؤسًا وفقرًا ومرضًا وهزالاً ودمامة ونكـــارة وقباحة وبذاءة إلى آخر ذلك من ألفاظ وصفات القبح والشين المضادة دائمًا للزين وهو يهيم بك في هذين العالمين المتناقضين حتى تشعر إنك تعيش واقعًا لا شك فيه ولا مر به وما ذلك إلا لتمكنه من مادته التي يستخدمها في إقناعك وأسلوبه السهل السلس.

(٢) القتاد: شجر شأنك صلب شوكه أمثال الإبر، وفي لسان العرب لابن منظور قال في مادة «قتد»: القتاد: شجر شاك صلب له سنفة وجناه كجناة السمر ينبت بنجد وتهامة، واحدته قتادة.

... وقال أبو حنيفة:.. القتاد: شجر له شوك أمثال الأبر، وله وريقة غبراء، وثمرة تنبت معها غبراء كأنها عجمة النوى.

قلـــت: والـــذي شـــاهدته منه أنا في صغري في الريف المصري الذي كنت أعيش فيه وهي عزبة العاقـــوله: مركـــز مغاغـــة- المنيا هو عبارة عن شجيرة صغيرة في حجم الكرنبه المتوسطة الحجم خـــضراء اللون لها ورق دقيق أقل من ورق السيسبان، وهي عبارة عن كتلة شوكية ثمرتها عبارة عن حـــبة مـــستديرة في حجم حبة الفول وهي عبارة عن كتلة شوكية هي الأخرى إذا جفت أمكنك فكهـــا فـــتجدها عبارة عن حركة لولبية أو سلك قد استدر حول بعضه فكون حبة داخلة حبوب سوداء في حجم حبة البركة وهي بذرتها، وكنا نسميها العاقولة.

الصوف، وهل يُدَارَك الرمق إلا بالفراريج من المرق وما أكلت اللوزة بقشرها/ [١٤٩/ أ] إلا للطافتها، وبجلدها تبلع الصيرة،[١] وليس كذلك السمكة الكبيرة. وينشد ويقول:

قالوا: عشقت صغيرا؟ قلت ويحكم
إن الصغير ثقيلٌ في الموازين
إن الصغير كزهر الروض تنشقه غَضّنًا
وترجوه من خير الرياحين
عذب المراشف حلو الدّل ذو شبب
لَدنِ المعاطف في حُسن وفي لين

مع أن الصغير رأيته مني يخجل ويغضب/ [١٤٩/ ب] فتجتني من وجناته التفاح المخضب، ومتى أتى من المكتب، فمداد عذاره اللازوردي في خده المذهب، لا يحظى بوصائه إلا السفيد وأما ليلة إدخاله، فتلك ليلة العيد.

فيقول له المتيم: نض الله فاك ولا سلمك ولا كفاك عوّد حيرتك بالمثاني.

واعلم أن العذار هو الجمال الثاني، وأين الهلال من قمر الأبدار؟ وأين الرمان المنتهي من الجلنار؟[٢] وهل يفضل البلح على التمر؟ ومن أين للحصرم لذة الخمر؟ والتينة الصغيرة لا تؤكل

(١) الصيرة: هي نوع صغير جدًا من السمك يقال لواحدته: صيرة، والجمع صير، ويتخذ هذا السمك لأمرين: إما للتلميح ليصبر ملوحة تؤكل كغموس مالح وهو فاتح للشهية، ويدعو اكله للكثرة من شرب الماء. وإما أن يتخذ كزرِّيعة للسمك اي يربو في أحواض كبيرة أو ما يسمى في عصرنا بالمزارع السمكية أو البحيرات المعدة لذلك أو داخل مزارع الأرز، فتكون منه الأسماك الكبيرة بعد فترة.

(٢) الجلنار: هو زهر الرمان الذكر، وقيل: أنه زهر الرمان البري، هذا نقلاً عن منهاج الدكان للإسرائيلي (ص ٢١٧). وفي الموجز في الطب لابن النفيس (ص ٩٢): الجلنار: بارد في الأولى، يابس في لاثانية يشد اللثة، ويقوي الأسنان، وينفع نفث الدم، ومن السحج، ويُدمل الجراحات والقروح العتيقة.

وفي المعجم الوسيط: الجلنار: زهرة الرمان.

وفي معجم أسماء النبات (١٥١) الرمان الأمليس لا عجم له، نوره يسمى الجلنار. والمراد أن الفرق كبير بين الشيء واصله أو مبتداه ومنتهاه.

لمـا فـيها مـن طعـم/ [١٥٠/ أ] العفوصـة، ولا تسع أكثر من بعوضة إلاّ أنني مع هذا الصبي الملعـوس، والعلـق المحـشش، في عـذاب مذاب؛ لأنه مشرح كذاب، وأنا من أيام قائم ببالي أن أشلـشه بالفـولاذ، وقلت دعها تغي إلى قضاء الله النُّفاذ، واردت، وستر الله أن أقع مع هذا العلق في وحلـه، فلمـا وقـع الطرف في الطرف، بُهت فلم انطق ولا بحرف، ووجه العاشق رقيق، فرجعت إلى قلب عليه شفيق.

فـبالله عليك، ما رايت معشوقي اليتيم/ [١٥٠/ ب] وغلامه بيرم، فوالله ما أعرف مـن غلمانه إلاّ صنائع إحسانه، وهو لهذا الغلام كالقود واللجام، كيفما أداره دار، وأينما سار به سار، وإلى حيثما أماله مال يكاد من رقة ألفاظه يجمع بين الهدى والضلال، وأما يـوم زلقة الحمّام، فلولا ملاطفته لذقت الحِمَام، فكيف الوقوف على قصته؟ قلت: شرح حالي في زنكلا.

شعر:

شـاع أمـري في زلقـة الحمامـي
وسمعـتم حديـثه في /[١٥١/أ] الأيـامِ

كـان مـا كـان وانقـضى
غـير أن زلفـتي مـن عجائـب الأيام

جـزت مـن مـدة بحمام باب الخرق
والـصبح غـرّه للظـلام

فـرأيت الحبـيب يخطـر بالـدّل
كغـصن النَّقَابِلِـسيْنِ القـوام

قـد تعثـر مثلـي الحـسام إذا جرّد
القـيل مـن قـراب الحُـسام

لاح في مئـزرين مـن مئـزر الـشعر
ومـن شـعره كـبدر الـتمام

وعــلاه مــن لؤلــؤ الرشــح[1] سماط
ولكــن صــحت بغــير نظــام
حــين نمّــت مكــتومة الحــال عــنه
خــبرًا عــن عــذاره الــنّمام
حلــف الــورد أن خديــه أبهــى منه
إذ ظلــه رزاز الغمــام
ثم انــدت فــتائل المــسك من كافور
أعطــاف حــسن ذاك القــوام
وتــبدي مــن سندس البدر في روضه
حــسن وورد خديــه نامــي
كــاد مــن رقــة يــذوب مــع الماء
ويجــرى مــن فــوق ذاك الــرخام
ثم أهــوت يــد لمــسرح بالمــشط
الى صــبح فــرقه لانتقامــي
ثم طفــرة بالقلــوب كمــا شــاء
وولوعــي بحــبه وهيامــي
وبجفــني إن شــاء مــاءً طهــورًا
وســلوًا عــن صــابي الحمّــام
ثم لمــا حلّــوا المناشــف ضــاعت
أرجًــا عــند نــشرها في الــزحام

(١) لؤلــؤ الرشــح: يــريد العــرق أو حــبات العــرق أو قطرت العرق المنحدرة من على جبينه وخده.

فاتهمنا مزين الخال أعني عنبرًا
دون سائر الخدام

أخذ الماء من مجاريه باللطف
وحَيًا محبّة بالسلام

إيهًا ذا الحمّام أنت نعيمي
وجحيمي وصحتي وسقامي

كل جام[1] بك الحلاوة فيه
هل ترى حسنه سوى الحمّامي

هاك مستوقدًا من الوجد في قلبي
طول المدى لفرط غرامي

كم جرت أدمعي بمجراك لكن
ما درى لومي ولا لوّامي

وتعثرت خلفه في خروجي
والأماني تزلّ بالإقدام

فرآني ملقًى لديه صريعًا
فرقاني برقوة الأقسام

فتعاشيت عن غرامي
وقَبلت يديه بذلة واحتشام

يا لها زلقة جبرت بها قلبي
وإن كسرت جميع عظامي

فاستمعها يا ذا الفضائل مني
كعقود الحَباب فوق المدام

(١) الجام: وعاء من فضة.

بين جد من الملجون وهزلِ
وحلال من سحرها وحرام

ثم وضعت يدي من ردفه على تلك الرابية وتمنيت جُرعة من تلك الجابية. فقال لي: يا متيم رويدك فما كل زلقة زلابية ثم اخترق الزحام، وتركني ملقىً في الحمام.

ولولا الأديب البصير/[١٥٤/أ] حملني في الحصير واستخرجني من السرداب وسقاني كأسًا من الشراب، فطست من كرب الحمام، وذقت الحمام، فلما انشقت إهابي، ولبست ثيابي أنشدت أقول:

إذا افتخرت بالمكسرمات بنو مصر
رأيتك بين الناس أجدر بالفخر
وأنت الذي أمست مناقب فخره
يحار بها في حسن أوصافها فكري
فإنك ذا النادي الندى لقاصدٍ
كثير رماد القدر مرتفع القدر
ويبسط للطراق كفًّا نديةً
ووجهك وضاح السنًا حسن البشر
وما زالت والرمح الطويل تَهزُّه
يمينك تحت النقع والبيض والسُّمر
وتأخذ أسلاب الرجال وإنسه
لسلب فتى لم يأت ذلك على غدر
وكم لك من مشمولة قد عصرتها
معتقة للشرب طيبة النشر
يعاطيكها كل ابن حَسن إذا
بدا بدا مُردَف الأرداف مختصر الخصر
وبيتك بيت لم يزره مُدنَّس
فيرجع إلاّ وهو منه على طهر

وكم شبت ياقوتًا إليك وجوهرًا
لرتبته حتى نسبت إلى أمر
وأقسم أني عن مديحك عاجزٌ
ومن أجل ذا وافيت نحوك ذا عُذْر

فيخرج من الباب بيرم فيقول: يا سيدي المتيم قد مشيت الأمور وانشرحت الصدور، ومهما أتى مع اليتيم، وأبقى أقرأ على أذنه،/ [١٥٥/ ب] وأعمل على عقله، وذهنه حتى لانت عواطفه، وحنت معاطفه، وقال لي تحياتي يا بيرم يا بيرم، حقيقًا يعشقني المتيم؟

فقلت: والذي أنزل الكتاب يحبك عدد الرمل والحصى والتراب، وهو والله أشفق عليك من والديك، إن جالسك آنسك، وإن مددت رجلك كبَّسك،[١] وإن نمت في الليل غطاك، وأي شيء طلبت منه أعطاك، وأنت بحمد الله شاب مليح، أديب فصيح كامل الأدب والعقل منتصف في الخرج/ [١٥٦/ أ] والدخل، مالك نظير ولا مثيل وأنت شامه في أولاد حان السبيل ونظاري بشطاري صاحب حديد، وبأس شديد، ومقابرتك مائة وخمسين بالقبَّان وأنت من الشطار الأعيان، قد وقفت للكلام، وسيق رهنك على يد حكم الحكام، فلا أحد يقدر عليك، ولا أحد إلا وهو ناظر إليك ومن ذا الذي يمدّ قوسك أو يلف ترسك؟ ومن ذا الذي أرشق منك في حلقة الثقاف، أو يسبقك للأكرة في الالتفاف، أم لأحد/ [١٥٦/ ب] أفره من سمّانك في الصياح، أو أقوى من كبشك أو ثورك في النطاح، أو أشطر من ديكك في النقار، أم أسبق من طيرك في الأطيار.

والصحيح أن كل ما للمليح مليح، فتحقق، وأعلم أن ما عمل هذه الملاعب مثل عبدك المتيم، فلو أنك أقبلت عليه، ونظرت إليه نظرة الرضى، ومددت إليه، فكان فرّجك على الملاعيب، وأوقفك منها على كل عجيب وغريب فلأي شيء ترميه بالجفاء وهو من إخوان الصفاء وخلان الوفاء[٢].

---

(١) يريد دلكك ليذهب متاعب جسمك.

(٢) يسمى هذا الذي يصلح ما فسد بين العشقين أو المتحابين بالرسول أو السفير، وللسفير هذا شروط ووظائف وواجبات وعنه يقول ابن حزم في كتابه اللطيف طوق الحمامة (ص ٣٥): ويقع في الحب بعد هذا حلول الثقة وتمام الاستئناس إدخال السفير، ويبح تخيُّرة، وارتياده واستجادته واستفراهه (حذقه ومهارته) فهو دليل عقل المرء، وبيده حياته وموته وستره وفضيحته بعد الله تعالى. فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة، حاذقًا يكتفي بالإشارة ويقرطس عن الغائب، ويحسِّن من
=

ف[١٥٨/أ]يقـول المتـيم: فعلى أي شيء كان منصرف الحال، والحديث والعلق ركبك خبيث؟

فـيقول: يـا بـيرم، والله ما فارقته إلا وهو قد لان، وصار خلاف ما كان فيرقص المتيم من الفرح، ويحضر البطانة والقدح، ويرقص سكرًا وعشقًا ويقول: هذا البليق:

يـا الله يـا الله، محـلاك يـا صـغير

يـا نقـاوة الأحمـال يـا محـير

دع عـذارك الأخـضر أيـش هـو خلقا

هـو بمـاء الـورد يـا أخـي يـسقى

أيـش كـان لـو كـان لي مـنه فرد شقا

/[١٥٨/ب] مـا رآني مخلـوق لوني أصفر

يـا نقـاوة الأحمـال يـا محـير

=

ذات نفـسه، ويـضع من عقله ما أغفله باعثه ويؤدي إلى الذي أرسله كل ما يشاهد على وجهه فكأنما كان للأسرار حافظًا، وللعهد وفيًا قنوعًا ناصحًا.

ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقصه منها، وفي ذلك أقول شعرًا منه:

رسـولك سـيف في يمينك فاستجده حـسامًا ولا تـضرب بـه قـبل صـقله

فمـن يـك ذا سـيف كهـام فـضُرّه يعـود علـى المعنّـى مـنه بجهلـه

وأكثـر ما يستعمل المحبون في إرسالهم إلى من يحبونه إما خاملاً لا يؤبه له، ولا يهتدي للتحفظ منه لـصباه أو لهيـئة رثة أو بذاذة في طلعته وإما جليلاً لا تلحقه الظنة لنسك يظهره أو لسنٍّ عالية قد بلغهـا. وما أكثر هذا في النساء ولاسيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الأحمرين. وإني لأذكر بقـرطبة التحذير للنساء المتحدثات من هذه الصفات حيثما رأيتها أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشـخاص، فمـن النساء: كالطبيبة والحجامة، والسرّاقة، الدلالة، والماشطة، والنائحة، والمغنية، والكاهـنة، والمعلمـة، والمستخفة والصنّاع في المغزل والنسيج، وما أشبه ذلك. أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشح بها عليه.

فكـم منيع سَهُل بهذه الأوصاف وعسير يُسر وبعيد قُرب، وجموع أنس، وكم داهية دهت الحجب المـصونة والأستار الكثيفة والمقاصير المحروسة والسدد المضبوطة لأرباب هذه النعوت، ولولا أن أنـبه عليها لذكرتها ولكن لتطع النظر فيها وقلة الثقة بكل واحد، والسعيد من وعظ بغيره، وبالضد تتميز الأشياء. أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره ولا أزال عن الجميع ظل عافيته.

صـــــرت أنــــا في عـــــشقي فـــسيك دايـــــر
لم أجــــد مــــن كـــسري فـــيك جابـــــر
ولقـــــد صـــــار لـــــبي فـــــيك حائـــــر
ولكــــم عاشــــق فــــيك قــــد تحــــير

يــــا نقـــاوة الأحمــــال يــــا عــــير

فيلـــتفت إلـــيه اليتيم، ويقول: والله العظيم يا متيم لقد أخلفت عرضاً، وصيرتني من قومي على وجل، ومن صبيان الحسينية على خجل. فيتأوّه المتيم، ويعدد ويرفع صوته، وينشد موليًا:

/[١٥٩/أ] تيمــتني وبقـــيت معك في حيرة

يــا مـــن تـــرك قـــصتي بـــين الـــورى سيرة

نحـــن مـــا نعـــبده بالخبز والجيرة   لا بألـــف الغـــير مـــالي طاقـــة العيرة

ثم ينشد ويقول:

يــــا بــــدر الدجـــــى   فرجــــي حــــلالا وحمــــال
مــــن أجلـــك قـــد   رجعــــت في رق حــــلال
قـــد ذُبـــتُ بهجـــرانك   فـــــــارحم تلفــــــي
وأعطــــف ودع الجفـــا   ومــــا قــــيل وقــــال

فيجيبه اليتيم ويقول:

/[١٥٩/ب] أقـــسمت بمـــن صير   حـــــبي شَـــــرَكا
لا أدرك مــــــــــن في   بحـــــر عـــــشقي هلكـــــا
دع يغـــــرق مـــــن   تبحـــــر حـــــتى اســـــتبكا
مــــا يـــــرحم مالـــــك   إذا العـــــبد بكـــــا

فيجيب المتيم لليتيم ويقول:

للعـــشق علامــــات وللـــصبر خـــلال

إن ينظـــره مـــن الـــضنا رق حـــلال

أصـــبر لحبـــيب جـــال بالـــصيد وصال

لـــولا الهجـــران مـــا خـــلا قَـــطٌ وِصال(١)

فيجيب المتيم ويقول:

/[١٦٠/أ]أمـــسيت خـــيالا للـــضنا لـــست أزار

أبكـــي أســـفًا ومـــا خـــلا قـــط مـــزار

عطـــشاي جـــوًى حـــار وعيـــناه غـــزار

فيجيبه اليتيم ويقول:

مـــا مثلـــي بالمحـــال مـــن ينخدع   والعاشـــــق إن ألح لم ينـــــتفع

والطامـــع مـــا يجـــدي عليه الطمع   مـــا يـــنفع ذا الغـــرام إلا القطـــع

فيجيبه المتيم ويقول:

---

(١) الهجـــر نوعان: هجر جفا وهجر دلال. والأول من أراد ما يصيب المحب ويهلكه، وأما الثاني فهو نوع من إشعال وتهييج المحب وربطه بمحبوبه وهو بمقدار إن زاد عنه ربما جاء بضده.

ويقـــول ابـــن حزم في الهجر في طوق الحمامة (ص ٦٦): ومن آفات الحب أيضًا الهجر، وهو على ضـــروب: فأولها هجر بوجبه تحفظ من رقيب حاضر، وإنه لأحلى من كل وصل، ولولا أن ظاهر اللفـــظ وحكـــم التسمية يوجب إدخاله في هذا الباب لرجعت به عنه ولأجللته عن تسطيره فيه. فحينئذ ترى الحبيب منحرفًا عن مُحبه مقبلاً بالحديث على غيره معرضًا بمعرض لئلا تلحق ظنته أو تـــسبق اســـترابته. وترى المحب أيضًا كذلك ولكن طبعه له جاذب، ونفسه له صارفة بالرغم، فتراه حينئذ منحرفًا كمقبل وساكتًا كناطق، وناظرًا إلى جهة نفسه في غيرها.

والحـــاذق الفطن إذا كشف بوهمه عن باطن حديثهما عَلِمَ أن الخافي غير البادي، وما جَهَر به غير نفـــس الخـــبر، وأنـــه المـــشاهد الجالبة للفتن والمناظر المحركة للـــسواكن الباعثة للخواطر، المهيجة للـــضمائر، الجاذبة للفتوة. ولي أبيات في شيء من هذا أوردتها، وإن كان فيها غير هذا المعنى على ما شرطنا منها:

وســـر أحـــشائي لمـــن أنـــا مؤثـــر   وســـر أبنائـــي لمـــن أتحـــبب

فقـــد يُـــشرب الـــصاب الكـــريه لعلة   ويتـــرك صـــفو الـــشهد وهـــو محـــبب

وأعـــدل في إجهـــاد نفـــسي في الـــذي   أريـــد بغـــير الغـــوص في البحـــر يطلب

وأصـــرف نفـــسي عـــن وجوه طباعها   إذا في ســـواها صـــح مـــا أنـــا راغـــب

/[١٦٠/ب]ما لي إلاّ ديكي أبو العرف صاح
الفان في الديوك نفرًا وصياح
قد مدّ إلى السنقار عرفًا وجَناح
أقبله فما عليك في ذاك جُناح

فيقول اليتيم:

لا تذكر ديكك صباح، حتى يري ديكي القيم صبّاح، الذي ما فاته في الديوك أحد، وهو لذلك بيضة البلد، وينشد ويقول:

ديكي هذا من الهنود جدًّا ومن بأسه الشديد
إن كان منقاره يطار فإن رجليه من حديد
/[١٦١/أ]كأنما عرفه عقيق يزهو على ورده الخدود
له إذا هاجه نقار من خصمه وثبة الأسود
يخطر إذا سار في دجاج كسيّد سار في عبيد
يؤثر بالجود من يسراه وجودا للمستفيد
كفيت لي ديكي المفدا يحسنه نظرة الحسود

فيخرج ديك اليتيم، ويتلوه ديك المتيم، ويخطو الزهوى، على يد الحكم زيهون، وينشد ويقول:

اهلاً وسهلا بطلعة الديك
كأنه عروة الصعاليك
أتى بتاج كأنه ملك
بين دجاج مثل المماليك
يلمع مثل الحرير مع التبر
على منكبيه محبوك
رياشه إذا يسير من ذنب
كأنه الصالح بن رزيك

ومـــن شـــقوق الأقفـــاص تنظـــره
شـــبيه كـــسرى خلـــف الـــشبابيك
ويـــل لـــديك أتـــى يناقـــره
لـــوهم في همّـــه بتحـــريك
فإنـــه يـــستبيح مـــن دمـــه
مـــا لم يكـــن مـــثله بمـــسفوك

فسيقف الحكم بينكما بعصاه وينقره به في قفاه، فيأخذ لنفسه بالأهبة ثم يبتدي قبل كلامه بالخطبة فيقول:

الحمـــد لله فالـــق الإصباح، وملهم الديك لإقامة الأذان بالصياح، الذي توجه بتاج من/[١٦٢/أ] تحقيق، وبعرف من الشقيق، وألبسه الطيلسان المدبَّج، وأقامه في صورة الملك المتوّج وخصّه بالكرم والإيثار، وميزه بذلك على جميع الأطيار، وفضله بالذب عن الحريم، ومقاومة الغريم[1].

---

(١) معـــروف من أخلاق الديك الكرم والإيثار فهو يؤثر الدجاج الذي يرعاه على نفسه ويحميه من كـــل خطـــر يحدق به، ويؤدب كل دجاجة تشذ عن القطيع، وذكر الدمير الديك في حياة الحيوان الكـــبرى، فأطال في ذكره فمما ذكر في ترجمته أن قال: الديك ذكر الدجاج، وجمعه ديوك وديكة وتصغيره دويك وكنيته: أبو حسان، وأبو حماد، وأبو سليمان، وأبو عقبة، وأبو مدلج، وأبو المنذر، وأبو نبهان وأبو اليقظان، وأبو برائل (والبرائل الذي يرتفع من ريش الطائر في عنقه وينفشه الديك للقتال، وقيل: إنه للديك خاصة) ويسمى: الأنيس المؤانس. ومن شأنه أنه لا يحتوي على ولده ولا يألـــف زوجة واحدة وهو أبله الطبيعة، وذلك أنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلى دار أهله.

وفيه من الخصال الحميدة: أنه يسوي بين دجاجه، لا يؤثر واحدة على واحدة إلا نادرًا.

وأعظم ما فيه من العجائب: معرفة الأوقات الليلية فيقسط أصواته عليها تقسيطًا لا يكاد يغادر منه شيئًا سواء طال أو قصر، ويوالي صياحه قبل الفجر، وبعده. فسبحان من هداه لذلك.

ومن غريب أمره: إذا كانت الديكة بمكان. ودخل عليها ديك غريب سفدته كلها.

وقد أجاد أبو بكر الصنوبري في مدحه حيث قال:

مفـــرد الليـــل مـــا يألـــوك تغـــريدا مـــن الكـــرى فهـــو يدعو الصبح مجهوداً

والصلاة والسلام، والتحية والإكرام، على سيد المرسلين، ورسول رب العالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد: فمكافحة الأقران لا تختص بنوع من الحيوان، وأحسن ما يتفرج عليه السُّوقة والملوك، مناقرة الديوك؛ لأنها مفاصلة ومناضلة، ومقاومة، ومنازلة،/ [١٦٢/ ب]وهذان الديكان، قد وقفا للاصطدام، وجسرا على الأقدام، فمن قَدَّم المنقار، وتأخر إلى القرار، وحسب على العادلة ما يقرر، وليس إذا عاد إلى المغلوب يذكر فيقول: كبرَّ الله يا صباح، وأعيدك أنت يا صبَّاح ثم يتناقران على ذلك المثال، وجاري عادة الخيال. ويستعفي ديك اليتيم من النقار، ويبتدئ بالهرب والفرار.

فيقول اليتيم: والله ديكي ما انهزم، ولا على الفرار عزم، وإنما حضر والوقت المعروف للأذان فانصرف/ [١٦٣/ أ] من الملعب إلى تسبيح الملك الديان، وهذه عادة هذا الديك المبارك الهامة، وقباله وقدامه ولئن فرّ ديكي من صباح، فدونك وكبشي في النطاح، وكل لاعب يعرف كبشي الذي كأنه الأسد الوحشي، يكاد ينطح نطح البروج، ويهدم بقرنه سد يأجوج ومأجوج، ثم ينشد ويقول:

بحرمة ما في الحوض قمر الدُّجا	دليل على أن النجوم به حرجا

ما غالبت به الجسد، ولا ذهبت قرونه بشحم الأسد/ [١٦٣/ ب] ولا علقت في رقبته الحروزة، ولا كسرت والدتي بالماء المرقى في وجهه الكوزة، فاطلبوا لنا حكم الحكام.

=

لما تطرب هز العطف من طرب	ومد للصوت لما مده الجيدا
كلابس مطرفًا مسرخ ذوائبه	تضاحك البيض من أطرافه السودا
حالي المقلد لو قيست قلائده	بالورد قصر عنها الورد توريدا

وفي تاريخ ابن خلكان في ترجمة محمد بن معن بن محمد بن صماد المنعوت بالمعتصم من قصيدة مدحه بها أبو القاسم الأسعد ابن بليطة في صفة الديك:

كأن أنوشروان أعطاه تاجه	وناط عليه كف مارية القرطا
سبى حلة الطاووس حسن لباسه	ولم يكفه حتى سبى المشية البطا

فينادي الرسيل: يا حكم، ويهون ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، عدنا من المناقرة بـــدواء الريش، ورجعنا إلى ثقالة التكاريش، هات يا مولانا أين الرهان؟ وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان أليس كلام كل قِرن يعرف بقِرنه؟ ومن يزمر لا يُخبي ذقنه، من فيكم يقابـــل هذه الدعوى ويقابل هذا الرشا الأحوى/ [١٦٤/أ] ومن سبق وقال: يا حكم وجب، رجوت له الغلب.

فيخـــرج لـــه اليتيم، ويقول: يا حكم الحكام أبى حتى على كبشي هذا كثير الكلام بكبش من الكباش المشهورة بالإقدام، وما هو يفطم العد كبسي نطح الجبال وما رد.

ثم يخرج كبس المتيم قداح أبي السين، ثم ينشد إذا تقابل الكبشين ويقول:

كبـــشنا لم يكـــن لغـــير الـــنطاح وهـــو قِـــرن بالقِـــرن شاكي السلاح
إليـــته كـــالمجن في الشكل والدوف ســـنان والأســـنان هـــي الـــرماح

فيخـــرج حرفوش يقال له: وحشي فيقول:/ [١٦٤/ب] له اليتيم: قل في كبشي، فيقول:

كبـــشكم فـــارة مـــن المستراح فأبـــصروا مـــتعلمًا بالـــسلاح
يـــنطح الطـــين مـــا يؤثـــر فـــيه وهـــو كالـــريش في مهـــب الـــرياح

ثم تخرج أمه وربعتها في يدها، ومعها مبخرة للعين والتبطيل، ثم تنظر إلى كبش ابنها وتطيل النظر، ثم تقول: يا كبش ولدي، وقطعة من كبدي، بتسع فلفلات، ثلاثة شرقية، وثلاثة مغربية، وثلاثة من بحيرة طبريّة.

فقلت: إلى أين تذهبين يا حياة القلوب والمؤلفة بين المُحب والمَحبوب؟

قالـــت: أفلفـــل قلـــوب الحساد/ [١٦٥/أ] واجري دموع الأضداد، وأراد العين والنظـــرة، والـــردة والكـــسرة من سبق نجح، ثم يتهلل وجهه بالفرح، وتقول: يا حكم زيهون، هذا كبش ابني هو صغير، حروف، ما كنت أفرط له في الصوف، وكنت أبرم منه شملات الأرجوان، وأفاخر بها ملوطة سرجوان، ربيت قرونه بالدلال، حتى صارت مقرونة كـــالهلال، وســـنت إليته وحسنت حليته، وكان في ابتداء الحال، أهداه إلى ابني عشيقه الكحـــال يعمله شواء، وكنا من السبع سواء، فما هان/ [١٦٥/ب] على ولدي ذبحه، وأعجـــبه لعبه ونطحه واستخدم له الخَدَّام، وكابَدَهَ به العبيد والخُدَّ حتى عادت قرونه من الصُّوان، وصارت قوائمه من البهرمان، وصوفه من الأرجوان، وعيناه من الخرع، وحصاة كالصدع فهمته همة فكفاه الله شرَّ عينِ الحسود.

فـسيقول الحكم زيهون: قد اجتمع الناس ووقع الفاس في الرأس، وجعجع الطحن[١] ووجـــب الرهن. ثم يقف بين الاثنين: وحشي، وابن الشين، ويقبل بين الكبشين ويقول: الحمـــد لله الـــذي أحل الغنيمة/ [١٦٦/أ] وجعلها أي في النَّعم من أسنى النعم، والذي جعل الكبش أصلاً في النتاج، والقيِّم في الذبِّ عن النعاج.

أحمـــده حمـــدا طـــيب اللبن، وأعوذ به من القهر والغبن، وأرفع به الجبن والنحل، وأسترشده للقول والعمل، وأصلي على سيدنا محمد إمام المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وعترته[٢] أجمعين صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وبعد:

فلكل مقام مقال، ولكل مجال رجال، وفي هذا الملعوب يمتحن الطالب والمطلوب، ويعـــرف الغالـــب مـــن المغلوب، ويقف ذوو/ [١٦٦/ب] الأعزام على الأقدم لتعلم المصابرة ثم يناطح بين الكبشين عادة الخيال في ذاك الحال، فينهزم كبش اليتيم. ويقول: يا ريـــس علـــى نطحـــه علـــى المقاتل، أعطاني ظهره وانهزم، ومن شابَهَ أباه فما ظلم،[٣]

---

(١) جعجـــع الطحن: يريد صعوت القتال والمعركة ا لمشتد على أقوى ما يكون كصوت الرحي وهي تـــدور علـــى أسرع وأقوى حالاتها، ومنه المثل السائر القائل: أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا، ومنه قولهم لسمع صوت ولا فوت. وقولهم اسمع جعجعة ولا أرى طحنًا المراد به ما لي أسمع أصواتا عالية مـــتداخلة، وكأن هناك معركة قوية حامية ولا قتلى ولا دماء ولا صرعى ولا هزيمة ولا نصرًا وهو مثل يضرب لمن بعد لا يفي، ولمن يرتفع صوته منذرًا متوعدًا ولبس أكثر من ذلك إذ هو لا يفعل شيئًا مما يتوعد به أو يهدد. وفي لسان العرب في مادة «جعجع»: الجعجعة صوت الرحي ونحوها.

(٢) هـــذه لفظـــة يستعملها الشيعة دائمًا قاصدين آل البيت النبي ﷺ من نسل فاطمة رضي الله عنها وعلي كرم الله وجهه، وقد يستعملها بعض الناس أو بعض الخطباء عن غير تشيع لآل البيت وإنما يقـــصد المـــدح والثناء على آل بيته ﷺ ووفاء لفضل وشرف وكرم رسول الله ﷺ وكرم آل بيته. وهي لفظة لا باس بها ما لم تكن يقصد التشيع المقيت، والتفريق والتمييز لا يحبه الإسلام ولا يقره بـــل يحاربه وينهى عنه إذ أنه يعرف أن أكرم الناس عند الله أتقاهم مهما كانت درجة قربه أو بعده من النبي ﷺ.

(٣) هـــذا مثل مشهور يضرب لمن أجاد أو ساء وكان له من سابق أهله من هو على شاكلته في العمل ســـواءً كان أبًا مباشرًا أم أبا بعيداً أي أحد أجداده. فمن أحسن وكان له من آبائه أو أجداد محسن قالـــوا هذا المثل تقديرًا لفضل الأب أو الجد والحقوا الأجر بالأول والدعاء له والثناء عليه. وكذلك مـــن أتـــى فعلاً قبيحًا او مذمومًا وكان له أب أو جد فعل أفعالا شائنة ذكروه بذلك ذمًا له ولعنة عليه.

وهو كقول الأثر المشهور: "من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن =

وانكسرت عينه القوية، وعصبيته الجمهرية وضرط وفسا.

فينظــر إليه المتيم ويقول: سألته أن يأخذ الكبش رأسًا ورجلين، وأزيده عليه كبشين لعله يسمح لي بلمته، أو يَمُنّ علي بكلمة.

/[١٦٧/أ] ثم يعطف وجهًا ويقول: أين بعد ذا العلق، أُقبل أقدامه، وأحط الفضلة قدامة، ثم أحلف عليه بكل يمين، أن يقبل من الكمران والسكين، وهو بسلامته ما يبخل عَلَيّ بالسلام، ولا بأيسر ملام، ثم يبكي اليتيم وينشد مواليا:

والك متيمٌ دع التسطيع لا أصفعك

وفي مهالك غرامي والجفا أوقعك

فالعشق عندي يُحطُّك والجفا يرفعك

فدع محالك وقابلني بما ينفعك

/[١٦٧/ب] فيقول له المتيم:

يا مالك روحي، ثم مالي وقاتلي، وممرض، ومُمَرِض، وطبيبي ومعذبي، بعد أنك أما ترى خفوق فؤادي وقلقي، وسهادي، وينشد ويقول:

لــو لم يكــن قلــبي بحــبك مبتلــي
مــا بــات طــرفي بالــسُّهاد مــنقلا

يــا مــن أطعــت بــه الغــرام تولُّهًا
وعــصيت مــن وهــي علــيه العُــذّلا

انظــر تــرى بــرتع المــودة مــاخلا
يــا هاجــري والعــيش بعــدك مــا حــلا

أنــت الــذي أكسدت أســباب الهــوى
وتــركتني بعــد المــودة مهمــلا

وجعلــت مــا بــين التواصــل فتــرة
ومعــين دمعــي للعــوازل مرســلا

ويــلاه مــن وجــدي علــيك
وآه مــن قلقــي علــيك فعلــت أو لم أفعــلا

-

سَنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة".

مــــا ضـــر لـــو حيَّيـــتني بتحـــية
أو لم تمنـــــــيني الوصـــــــال فَعَلَّــــــــلا
أمعـــــذِّبي بدلالـــــه وملالـــــه
أأنـــــــت مثلـــــــي بالجفـــــا ابـــــتلا
/[١٦٨/أ] يا سائلي عن حالتي في حبه
ونُحـــول جـــسمي والـــضنا تُكْفَـــي الـــبلا[١]

(١) الـــضنى: من مراحل الحب، وهو يصيب المحب والمحبوب على حَدٍ سواء وإصابته المحب أقوى من أصابته المحبوب إذا كان المحبوب لا يبادل المحب المشاعرَ نفْسَها أو بعضًا منها.

وعـــن الضنى يقول ابن حزم في طوق الحمامة (ص ١٠٠): ولا بد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل إما ببين وإما بهجر وإما بكتمان واقع لمعنى من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول، وربما اضجعه ذلك.

وهذا الأمر كثير جدًا موجود أبدًا، والأعراض الواقعة من المحبة غير العلل الواقعة من هجمات العلل ويميزها الطبيب الحاذق والمتفرس الناقد، وفي ذلك أقول:

يقـــول لي الطبـــيب بغـــير علـــم ... تـــداوى فانـــت يـــا هـــذا علـــيل
ودائـــي لـــيس يـــدر بـــه ســـوائي ... ورب فـــــادر ملـــــك الجلـــــيل
أأكـــتمه ويكـــشفه شـــهيق ... يلازمـــــني وإطـــــراق طـــــويل
ووجـــه شـــاهدات الحـــزن فـــيه ... وجـــسم كالخـــيال ضـــن نحـــيل
وأثـــبت مـــا يكـــون الأمـــر يـــومًا ... بـــلا شـــك إذا صـــح الدلـــيل
فقلـــت لـــه: أبـــنْ عـــني قلـــيلاً ... فـــلا والله تعـــرف مـــا تقـــول
فقـــال: أرى نحـــولاً زاد وجـــدًا ... وعلـــتك الـــتي تـــشكو ذبـــول
فقلـــت لـــه: الذبـــول تعِـــلُ مـــنه ... الجـــوارح وهـــي حُمّـــى تـــستحيل
ومـــا أشـــكو لعمـــر الله حُمـــى ... وإن الحـــرَّ في جـــسمي قلـــيل
فقـــال: أرى الـــتفاتًا وارتقابًـــا ... وأفكـــارًا وصـــمتًا لا يـــزول
وأحـــسب أنهـــا الـــسوء فأنظـــر ... لنفـــسك إنهـــا عـــرض ثقـــيل

يــا متيم دع المحال، وأعلم أن كبشي أصيب بالعين والنظرة، وما كل مرة تسلم الجرّة، لكن عــندي في بــستاني الخــور، ثور غلب كل ثور في الساحل، وما رآه ثور من الثيران، إلاّ أصبح كالــواحل، لــو ناطح ثور الزهرة ما حمل جوزة، وأعوجّ السرطان من هيبته، هذا الأسد، وصار قــرنه كالمــدر، نشأ في بستان أخضر نضر، ليله نهاره/ [١٦٩/أ] وظله أشجاره، وأرضه سما الزهــر لا الزهــر، وسوق أشجاره قائمة، بجلاجل من لجين النهر، لا تمل أغصانه من الالتفات، ولا العــناق، ولا تفتــر أطياره من الغنا خلف سائر الأوراق، وناسجة أكرات الذهب، وصوالج الزمــر وتنــتهب، ومشمشه كجلاجل التبر في قباب الزبرجة وبلح نخله كقلوب من الفيروزج، قُمِّعَــت بالعــسجد، إلا أن هذا الثور، أصبح من هذا الطور، وأصبر على العمل بدالي زُحل أن اقبل على قرنه/ [١٦٩/ب] يحت الأرض بقرنه، وإن ناديت يا خميس أقبل كالخميس.

فيقول المتيم:

مــا أظــنك رأيت ثوري جمعة، ولا تصل إلى شدة بأسه بشمة، هذا غزالي، وقرنه هلالي، لو نطح الجمل، خرى الجمل. يا حكم زيهون، أين الزهور، الذي قحم وباح؟ هذا وقت النِّطاح.

قال: فيقوم الحكم من فوره، ويأتي كلٌ منهما بثوره، ويقف الحكم خاطبًا، ولمن حضر مخاطــبًا، فــيقول: الحمد لله الذي جعل في السماء بروجًا مخصوصة بالدَّورة،/ [١٧٠/أ] وجعــل شرف الشمس بالحمل والقمر بالثور، الذي جعل البقر لعمارة البلاد، والدائب في أرزاق العباد، وأودع ألبانها الشفاء، ولحومها الداء، ليكف عن ذبحها الأكل، ويقتني سمنها من أطيب المآكل، وخصّ بالشجاعة ذكورها، كما خصّ بالجبن... (١).

أحمده سبحانه على ما ألهم وعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلم.

فقلــت لــه: كلامــك ذا محــال فمــا للدّمــع مــن عــيني يــسيل

فأطــرق باهــتًا ممــا رآه ألا في مــثل ذا بُهــت النبــيل

فقلــت لــه، دوائــي مــنه دائــي ألا في مــثل ذا ضــلت عُقــول

وشــاهد مــا أقــول يُــرى عــيانًا فــروع النــبت إن عكــست أصــول

وتــرياق الأفاعــي لــيس شــيء ســواه يُــبرئ مــا لــدغت كفــيل

(١) بياض بالأصل قدرة كلمة.

وبعد:

فهذا كلامي لمن حضر من ربيعة ومضر، ما كل بيضاء شحمة، ولا كل حمراء لحمة، وبعد/[١٧٠/ب] الكَسْرَة تكون النُّصْرَة، الحروب سجال وللقتال أبطال، ولا بد من المطالبة والصبر والمروءة والمغالبة، والكَرُّ قوة، والله تعالى يهب لمن يشاء النُّصر تهيأ للذي تهيأ، فيدار الثوران، ويقبلان ويدبران، ويتحاوران، ويقتتلان.

قال: فينكسر ثور المتيم من قَرْنِهِ، وينهزم من قِرْنه، ويخر صريعًا على أذنه، وقد انحطم أنفه وانخلع كتفه، فعند ذلك تغبّط عصبة المتيم لليتيم فرحًا، ويصفقون، ويرقصون مرحًا، ويؤخذ من/[١٧١/أ] الرهان، ويقعد عند رأسه ويعدد وينوح في أصفهان، شعر:

على فقد ثوري لي البكاء يزيد
ودمعي من أجفاني عليه يزيد
رزيت بذي القرنين بأسًا ونجسدةً
له عدد من سطوة وعديد
وذي أربع قد قمّعت بزبرجد
وهسيهات تحكي ما أقول عمود
مضى وهلال الأفق تاج بقرنه
ومن شفق درع له وعقود
/[١٧١/ب] فلو أنه في حندس[١] الليل لاح لي
لقلت هلال قد أظلّ وعيد
وفي الجزع من روقيه شبه
وناقة عقيق ونظم الودْع فيه عقود

(١)حندس الليل: هي ظلمته، وقد قال ابن منظور في لسان العرب في مادة حَنْدَسَ:

الحِنْدِسُ: الظلمة. وفي الصحاح: الليل الشديد الظلمة. وفي حديث أبي هريرة: كنا عند النبي ﷺ في ليلة ظلماء حِنْدِسٍ. أي شديدة الظلمة. ومنه حديث الحسن: وقام الليل في حِنْدِسه وليلة حِنْدِسة وليل حِنْدِس: مظلم. والحنادس ثلاث ليال من الشهر لظلمتهن ويقال: دحامس. وأسود حِنْدِس: شديد السواد كقولك أسود حالك.

خـلا مـنه بـرج الـثور للشرف الذي
ســعور لـه أرج العـلا وصـعود
وقالـوا تـراه يـبحث الأرض ناطحًـا
فيـصعد نحـو الجـوّ مـنه صَـعِيْد
فقلـت لهـم: نبغـي الذي يحمل الثرى
لـيردى بـه فـالأرض مـنه تميـد
/[١٧٢/أ] وكـم لنطاح فرّ منه مناطح هزيمًا
وأدنى مـا وراه بَـرِيْد
ومـا زال يـسقي الأرض ريًّـا
فأخـصبت مـراتع مـنها قـائم وحـصيد
فأهًـا لـه رود الـشباب أخـا
لمـا شـهيٌ رضـاب المرشـفين يـرود
إذا اجـتاز في سـاج الـزريبة خلـته
مـسبحٌ قـد صـبح قـد عـراه هجـود
فـتىً سـاد آسـاد المـدادات قـيما
وحـقّ لـه بعلـوهم ويـسود
/[١٧٢/ ب]بكتة قواديس السواقي بأدمع
غـزار لهـا بـين الـرياض مـدود
وأنّـتْ لـه الأتـراس حـزنًا وحـرقة
وذاب لهـا قلـب علـيه حـدود
ومـن بعـده مـا عانـق الـناف سيّدًا
لـه كـل أبقـار الـبلاد عبـيد

ومـــا حـــاز مـــن تحـــت الجوائـــز مثله

وســــــر قيــــــنة مـــــسك تفـــــوح وعـــــود[١]

ثم يقول: يا ريس علي هذا الثور ما بقي ينفع ولا بقي لي في حياته مطمع، وسأجعل من/ [١٧٣/ أ] لحمه خوانًا[٢] للإخوان، فأدعو إليه من أصحابي كل موافٍ وخوان.

ثم يقـــول: أين هو تعاشير الجزار، وأعوانه السلاّخون، اطلبوا لي أبا جعران وغلمانه الطـــباخين فيـــبادرون إلى ذبحه وسلخه، وتقطيعه وطبخه ثم يُمدّ الطعام، ويحضر بواطي المدام.

ثم يقول: لا تمنعوا من الدخول أحدا من الناس لاسيما عند استجلاء الكأس، فلعّل أن يـــسمع معشوقي اليتيم بهذه الوليمة، والهمة العظيمة، ويراني على هذه الحالة، فيصبو/ [١٧٣/ ب] إليها لا محالة.

ثم يفـــتح الأبواب، وتحلو الكؤوس والأكواب وينجز المجلس بالعود والندّة، ويغني في زبر وكيد شعراً:

يـــــا نديمـــــيّ باكــــرا الخمّــــارا

واشـــرباها صـــهباء صـــرفا عقـــار

عـــتقاء أنـــست مخائلـــه الحمار القصار

ممـــــا قـــــد عـــــتقت أعـــــصارا

وصـــفت أن يكـــن خلـــيفة غـــلٌ

للـــــنداما وإن تحـــــاول نـــــارا

(١) هـــذا الشعر بديع جميل رسم فيه الشاعر صورًا جميلة وشبَّهَ فيه تشبيهات بديعة وماثل فيه تمثيلات مبهـــرة فأجاد أيما جودة وجمع فيه بين جمال اللفظ وجمال الطبيعية وجمال الزراعة والصناعة وصفاء اللـــيل وهدأتـــه وصـــخب النهار بما فيه من حركة عامة وحركة نواعير وسواقي وهي تدور وتئن وتبكي المحبوب وما في السماء من أبراج وكواكب فجاء شعرًا جيدًا رقيقًا ممتعًا آخذًا بالنفس أخذًا شـــديدا، ذاهـــبًا فيها بين رحابة الأرض وجمالها وآفاق السماء وبدائع خلق الله فيها من ليل وشفق وغسق وأهله ونجوم وشموس وأبراج وما إلى ذلك من بدائع الكون الذي صنعه علاّم الغيوب.

(٢) الخوان: هو نطع أو فرش بفرش في الأرض كالبساط ويجلس عليه أو يكل عليه وهو للأكل أشهر، ولكن يجلس عليه بعض الناس وهو مشهور عند القدماء، ولكن في زماننا هذا يطلق على أمثاله من هـــذه البسط: السجاد أو الموكيت أو الفرش، أو المشاية، أو الدواسة، أوالحصيرة، أو المفرش، وما إلى ذلك من الألفاظ المعاصرة التي كانت قديمًا تسمى: النطع.

ألبستها الرهبان ثوبًا من القار
لأن السواد يكسو وقارا
فهي نور وإنما ظنَّها الجاهل
عند المزاج بالماء نارا
جمعت في السواد كالنور
والأسود في العين يجمع الأنوارا
فأرتنا ثوبها الأبنوسي
ظلامًا يجلو لكاو نهارا
سلسل سلسلت حسديًا قديما
إذ تبدأت وبنيت أنوارا
فأحبلوا كاسها التي قد تصدَّت
لي في الحان واشربها جهارا
واحشتا السنائي قسط لاتنيا
فسيه بحث يستنطق المزمارا
تلّرى تلرى بداك
وتنتن تنتن أن جستما أوتسارا
ودد فدف دوفد فطار
مما يهيج الأوطار
من يدي شادن يرى
غصن البان رطيبًا من قده مستعارا
شمس حسن تنبو النواظر عنه
لسناه وتكسف الأقمار
وقضيب بالخد والهند يعطي نحب الرمان والجلنار

فيخرج نرجسه المخنث، ويهز عطفه، ويستر بكمه أنفه، ويقول: يا نور عيني شد لي في حسيني.

فيغني ويقول، شعراً:

/[١٧٥/أ] إن كنت أبغي غير الزبيري
لا قبضت نفحتي بأيري

فـــــسقاني للـــــــزبيب كاسًـــــــا
أحلـــــى مـــــذاقًا مـــــن الخمـــــيري

في عـــــصبة مـــــن زبـــــيد ســــود
دامــــــوا إليــــــنا بكـــــل خـــــيري

يلـــــذني كلمــــا حـــــشوني حـــــشو
المخــــــــــدات في ظهـــــــــيري

وزبـــــدة القـــــول أن روحـــــي
أحـــــسن مـــــن طلعـــــة القمـــــيري

طـــــويل لـــــو قـــــام خلـــــف ظهـــــري
حـــــتى ولـــــو نـــــالني بايـــــري

ثم يقول: يا نسيم طيب الله عيشك، وبرد خيشك، وكثر خيرك، وكبر أيرك.

فـــيقول نرجسه المخنث: يوم سلامتك يا ابن الحرة عدوك، ومن يريد لك عترة لو حـــصرت/ [١٧٥/ ب] أنفاسي، وقد ولدت الغليظ العاصي، وأنا في صحبة دكشاب الأســـطولي، وأدمـــيتي بطولي، وكان عندي من خواتي الظراف المخانثة ستاتي: حويزة، ولويـــزة، وقويـــزرة، وسنبلة، وشبيله، وفلفلة، ونواشر الرومية، وبلطية النوسية، ونحيلة المطربية، وجوانة شيل القصرية، ودلال الحلبية وكمال المغربية، وسمانة الربيعية، وشهيدة، وهنيدة، وفهيدة، وجنيدة.

ومنهم من رجالهم المطلعين على أحوالهم:

أبو/ [١٧٦/ أ] الكمر وعير الذكر، وعميرة، والمخروط، وطيلوس، وأبو الروس، وأبو قـــرموط وزكيل، والقيشلاني، والأقرع، والقيرواني وأبو القصير، وشمر الكبّارة. يا خُضير، ولـــزوم، وأبو دندول، وحشيوات، وغرمول، ورأس شيء يا مغمض ودافني على الفخذين مغلقة مشغولة بطلقي مقلْفة، وقد تعسر خلاص بين شكالي والمخاص، حتى أتاني الفرج، وانحدر الجعص الغليظ الكربر، وخرج، واسترحت من أكل فلانا/ [١٧٦/ ب] الحبوب، أو الـــسفرجل والـــبلوط والخـــرنوب[١]، كـــل هذا بسلامتك بعدما نصبت، وملأت

(١) ذكر ابن النفيس هذه الحبوب في الموجز في الطب فقال في السفرجل (ص ١٠٩):
=

الكـــيران، وطحنت وعجنت، وقرصت، وأحضرت الفواكه والشمع، والبخور، والأبية، والـــتفل، والخمـــور جمعـــته من غزل كفيفات، وعرق كينفاتي، ولولا قرب عهدي بهذا الـــنفاس، خليـــتك تخـــيطني بهذا المهراس؛ لأن العاشق إذا استفرغه الجماع هدأ وصار كالشبعان بين الجياع.

وقـــال بعـــض المحـــدثين: عليكم بصحبة المخنثين، فإنهم إن تكلموا ضحكتم وإن /[١٧٧/أ] غنَّوا طَرِبتُم،/ وإن ناموا وطأتهم.

فاســـقني يـــا متيم بهذا الكبير فإني مدمن على شربه في المواخير، وأقدر أنكب عليه وأشربه للأخير.

فيقول المتيم: يا نرجسه مهما طلبت أعطيناك وإن نمت غطيناك.

فيرقـــص طـــربًا في المقام حتى يرقد وينام فيخرج شخص أمرد كالقضيب الأملد، خـــصب الـــبدن ظاهر السمن. فيقول له المتيم: من أنت يا قوت القلوب، ومنية المحب والمحـــبوب؟ فـــيقول: أنا أبو السُّهل صاحب الخرج/[١٧٧/ب] والدخل عبرت مع الـــشباب، وقصدت أن أدخل من الباب، لما سمعت فيه من طيب الأغاني، وقهقة القناني، وحُـــسن المثالث والمثاني، فإن عندي فضولا، وما أقعد إلا على الأصول، فيقول المتيم: على الرحب والسعة، وطيب الورود والمشرعة. فيُسرّ، ويغني، وينشد، ويقول[1]:

= بـــارد في آخر الأولى، يابس في الثانية، هو وزهره قابض، وهو مقوٍّ مدِرٌ، يقوي الشهوة، ويسكن العطـــش، والتنقل به على الشراب يمنع الخمار، ويمنع القيء البلغمي، ولعابه يلين من غير قبض، فينفع السعال، ويلين قصبة الرئة والإكثار منه يورث القولنج.

وفي هـــامش الـــصفحة المذكـــور تعليقًا عليه منه: وهو شجرة له ثمر مخاطي كان يستعمل لتليين الصدر.

وقـــال في الـــبلوط (ص ٩١): بارد في الأول يابس في الثانية، رديء ينفع من نفث الدم، ورطوبة المعـــدة، يعقل البطن، وينفع قروح الأمعاء والسحج وقال في (ص ١١٩) الخرنوب: قابض، عاقل للبطن، يمنع سيلان الطمث، وهو رديء للمعدة لا ينهضم وخلطه رديء ثقيل.

وقـــال المعلق على الكتاب بالهامش تعليقًا على الخرنوب؛ الخرونوب: كتنور والخرنوب شجر برية شوك، ذو حمل كالتفاح لكنه يشع وشاميه ذو حمل كالخيار شنبر إلا أنه عريض، وله رب وسويق.

وفي الوســـيط: الخروب: شجر له ثمر طويل كالقثاء الصغار إلا أنه عريض، وهو حلو يؤكل، وله حب، واحدته خروبة.

(١) هـــذا بـــيت أصابه حكمة وهي قولهم: الصدر الضيق يهدم ما يبنيه العقل الواسع، فنعم لا تضيق الـــبلاد بسكانها ولكن تضيق بظلم الظالم وجور الحاكم وقهر السلطان وقلة عدالة التوزيع فيضيع =

أنــــا الـــــصبور لحمـــــل الظلــــم والألم
وأوســــع الخلـــق في الـــبرجان مـــن كـــرم
لا أمـــنع الـــضيف رفـــدي مـــن أطايب ما عندي
/[١٧٨/أ] ولـــــو زار في داجـــــي الظُلـــم
أطـــيع مستبـــصرًا خِـــلا علـــى ســـعةٍ
شـــتان مـــا بـــين خِـــلٍ مبـــصرًا وَعَمِـــى
لا زلـــت أوســـع خلـــق الله مـــن شـــر
لطفًـــا وأقـــوم مـــن ســـاق علـــى قـــدم

ثم يقول ابن خشفلك المخاشف، ومعشوقك المتصالف، وينشد ويقول:

سَـــجَاني وأبكـــاني هـــيامك في الهـــوى
غـــدا ضـــيق الأخـــلاق فـــيه خفـــوق
وحقـــك مـــا ضـــاقت بـــلاد بأهلـــها
ولكـــن أخـــلاق/[١٧٨/ب] الـــرجال تـــضيق

فينشد المتيم ويقول شعر:

بلـــيت بـــضَيق الأخـــلاق قاســـي
فدمعـــي وهـــو جـــاري فـــيه جـــاري
وكـــم في الأرض مـــن حَـــسَنٍ ولكـــن
علـــيك لـــشقوتي وقـــع اختـــياري

فيقول أبو السهل:

=

الـــضعيف ويفر في بلاد الله طالبًا عيشًا وأمنًا وراحة بال واستقرار أحوال، فلو أن الناس تصافت قلـــوبهم لوسعت ديارهم واستراحت أحوالهم ولَوَسعتهم أمكانهم وإن كانت ضيقة، ولكن هيهات هـــيهات أن تجد تلك المدينة الفاضلة التي يعيش الناس فيها في أمن وأمان وراحة واستقرار، وسعة عيش ومحبة ومودة وصفاء وسعادة ومرح.

اسقني بالهنيات فإني هنا أبات فيشرب حتى يميل من السكر رأسه، ويقع على وجهه، وينحل لباسه. فيخرج شخص اهيف مخطَّف كأنه/[١٧٩/أ] الغزال أو الأسمر العسال. فـيقول له المتيم: من تكون؟:فيقول: عبدك بذَّال المشهور بالبدال، نير المتأملة، منصف المعاملة القليل الجفا الكثير الوفا.

يـا متيم خذني بديلاً إليك، فالدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، إحسان وخسارة، وكما تدين تدان، وكف الأمرد مثل كفة الميزان، كلما ثقلته أخرج لك اللسان، وينشد:

تمـتع بعـيش مـن زمـان الـصبا الفاني
ودعـني فخلـي بالـصدود رمـاني
/[١٧٩/ب] فلـي لفـتة نحو الحبيب كماله
إليّ الـتفاتات ذي بـذاك كفـاني
هـوى نـاقتي خلفـي وقدامي الهوى
واني وإياهـا لمخـتلفاني

ثم يقول: هات الكأس، قد وقف النعاس، ودعني من ذكر معشوقك الصلف، الغادر، المنحـرف، وخذني بديل، ولا تدخل على العمى بدليل، وقل هذا قد مات واعمل بعمل صاحب المقامات، وينشد:

وكِلْـتُ كمـا كـال لي
علـى وفـاء الكـيل أو بخـسه[١]

[١٨٠/أ]ولو كان هنا جادلته، وربما بادلته، قد مضى بدل من الليل، ونحن قد صرنا بالويل، فيسقيه المتيم حتى يرتوي، ويشبع، وينام على أربع.

(١) هـذا رجل منصف فهو لا يعمل بالفضل بل هو آخذ بالفرض ولو كانت الأمور على ذلك لزانت الحياة وساد القانون وتساوى الناس وعمت العدالة واستقرت الأحوال فهو يقول أنه سيحسن إلى من أحسن إليه، ويفي لمن وفى له وفي الوقت نفسه لا يزيد في ذلك فضلاً.
وهو كذلك سوف يرد الصاع صاعًا لمن أساء إليه أو غدر به، ولن يتعدى فهو ينتقم بقدر ما بغي علـيه أو بقدر ما تعدي عليه، ولا يزيد على ذلك فهو آخذ بالقصاص لا بالعفو والصفح الجميل.
وهذا حق وعدل ولا بأس فيه، وإن كان ظاهره الجفاء إلا أنه لا يظلمك شيئًا من حقك ويأخذ ما عليك لغيرك كاملاً.

فيخرج شخص آخر فيقول له المتيم: من أنت تكون، يا مخجل الغضون؟ فيقول أنا البُحيش اين الخناقة من صبيان الزلاقة ما لكم زلقتم هذا المكان، برشح الدنان، وما تبدد من نجاسة الجزار، ولا أحب عشرة الأشرار، ولا أقدر أعاشر إلاّ بري المدار، ولا أشربه إلا بمقدار، والصغير من أوجعته/[١٨٠/ب] رأسه، وضافت من الأقداح الكبار أنفاسه، وينشد ويقول:

يلّــيق مــا أكــبر مــتاعك يــا عمي
شُوشــــي شُــــوى احــــا يامــــي
اقــــشع بــــبرا ايــــش جُــــوّا
دعــــو يدلــــيه للــــشوّا
وإلا ادفعــــوا عــــند الحــــوا
ولا تمــــزق بوصــــرمي
انــــا صــــغير مــــا حَلْــــى
يــــا بــــور عيــــزج قــــم صــــلي
/[١٨١/أ] وانظــر لعمــي في أكلــي
مــــا تــــدخل في اللقمــــة فُمّــــي
حكــــك وزلْــــق وشــــيع
وأرجــــع نظــــيف مــــني واقــــنع
وأمــــا لُجــــوٌ إلا بولــــع
فــــإن جــــوّا شــــيء يعمــــى

ولكني لما سمعت بهذا الفرح، وحسن الناطية والقدح، فتجسست بين هذا وهذا.

وأبــو سهل قام وتعرّى، فلعبت برأسه حتى يقوم إلى البيت، وهو ملقى من السكر كالميت، وأين هو معشوقك اليتيم الذي عليك يتعامى، وعلى غيرك يترامى، ولكن ما كل كف/[١٨١/ب] يضرب يوم الرهان، ولا كل ظهر يصبر على طعان الأقران. فيسقيه المتيم بالقدح الصغير، فيرقص ويغني ويكاد من سكره يطير وينشد ويقول:

راقــــب الله فيّ إني صــــغير لا تكــن لي محمّــلاً فــوق وسعي

لا تسمني بالنصب جرٌّ بخفضٍ وتمتع بالضمِّ في كل رفعي

ثم يقع من سُكْرِهِ على قفاه، وينام ويستر بكمه فاه.

فيخرج شخص آخر، وينظر نظر المرتاد، ويقول: أنا عبدكم الجلاد، صاحب الرّاحة الحبلى، والمعيشة القشلا، مستحضر الوجوه/ [١٨٢/ أ] الملاح، ولائط الأشباح في الأرواح، جامع الريق، ومالك التوسيع والضيق المنزه عن تقاذير الغسول، ومخالطة الخرى والبول، المغبوط بالقناعة، المتصرف في وطء الجماعة، يقظان في أحلام، وجلده للذة لا للأيتام، وفني الوطء المرسل في الحمّام، والدفلقة في الزحام، بمعزل عن جدة الحدود، والزاني المجلود، أنال الغرض وأنا أمشي، وأتنهزّه عن المخيط والمحشي فذيلي مرشوش، ومنديلي منقوش أقرب البعيد، واستحضر من أريد/ [١٨٢/ ب] وينشد ويقول:

إذا نكح الرجال نساء قوم وصار المهر في أيدي الفريقي

عمدت إلى يدي فنكحت بكرًا وأما مهرها عندي فريقي[(١)]

فاحضر يا متيم معشوقك على تجافيه، واجلد عميرة، وقل: هذي فيه، فإنك بها يكن شبقك، ويبرد قلقك، ثم ينشد، ويقول شعر:

إذا غاب من تهوى ولم تملك تلاقيه

فضع خمسًا على فرد ومَثِّل شخصه فيه

قال: فيجوزه الطرب من القهوة، ثم يقع من/ [١٨٣/ أ] شدة الشجوة.

فيخرج آخر فيدق الباب، ويقول: غلامكم نبهان الدباب، مرتكب الأهوال مساهر الليالي الطوال، طفي القناديل بالدرج الورق الخفيف الوطء إذا السراويل انفتق، يستجلب

---

(١) هذا المتحدث والقائل لهذين البيتين إنما هو مكنٍّ عن فعل العادة السرية أو ما يسميه العرب قديما بجلد عميرة، فهو يقول إنه يفعل ما يريحه ولا يحرجه فهو لا يجلد ولا يرجم ولا يعزر ولا يلام، ويستمتع بمن يريد متى أراد وإن كان من يريد بعيدًا فهو ينال منه غرضه دون أن يؤذيه أو يكلفه شيئا ولا مهرا ولا شهودا ولا كلفة ولا قيودا.

وساق خبره في أسلوب شيق واضح خفي جلي مبهم مرح جاد هازل مازح ساذج خبيث، وهو أسلوب أجاد فيه المؤلف أيما اجادة ووفق أيما توفيق.

الـــريق بالسماق(١) إذا جف، وإبراد الماء إذا طف، ملاحظ الغلام، والمهتدى إليه بخيط الـــبلفك في الظلام، وناثر الرمل لامتحان النيام، حَلاَّل التُّكك، والمحتبي في السماعات تحـــت الــدّكك، أدب مـــن الكـــرى علـــى أبناء الورى، أحُلّ العقد، ولو كانت من /[١٨٣/ب] مَسَد، وأدب على الولد ولو كان في حجر والده، وأخرجه ولو كان على ساعده، وينشد:

أدب دبـــيب النملة في الليلة الظلماء   علـــى هاجري ظلما وأستجلب الظلماء
وأبلـــغ أغراضـــي بـــلا وزن درهم   ولا أختـــشي ضـــربًا ولا أتقـــي شتمًا

فيقول المتيم: الحافظ الله، لا نوم بعد اليوم، ثم يسقيه المتيم حتى يزول عقله وينعقد نقله، فينام في مكانه، وهو ينطرح على خوانه.

فيخـــرج شخص آخر ويقول: /[١٨٤/أ] مملوك زباد الشُّشّي يا مسلمين أقرأوا تفـــشّي، قم يا متيم طأ تنل لك شيء، فقد استغرق القوم في النوم، وسكن ذلك الرهج، حـــتى كأنهم قد شربوا من البنج، وجارت عليهم فصوص الأقداح، وبهدلتهم سرششدرة الراح ما هذا الطريح من سكرة النكاسة كأنه من الساسة، فاسقني بسكرجة النرد، وثب

(١) الـــسماق: شـــجر ينبت بالجبال خصوصًا جبال الشام وله ثمرة شديدة الحمرة لازعة الطعم شديدة الحموضة.

قـــال ابن منظور في لسان العرب: السُّمّاق بالتشديد: من شجر القفاف والجبال، وله ثمر حامض عناقـــيد فيها حب صغير يطبخ حكاه أبو حنيفة، قال: ولا أعلمه ينبت بشيء من أرض العرب إلا مكان بالشام. قال: وهو شديد الحمرة.

قال في التهذيب: وأما الحبة الحامضة التي يقال لها- العَبْرَب فهو السُّماقُ الواحدة سماقة.

وقدر السماقية، وتصغيرها سُمَيْمِقَةٌ وعَبْرَبِّيه بمعنى واحد.

وذكـــر ابن النفيس السماق في كتابه الموجز في الطب (ص ١٠٨) فقال: السماق بارد في الثانية، يابس في الثالثة، قابض مقو، ساد، يعقل ويمنع النزف، ويجلب الصفراء إلى الأحشاء ينفع الداحس (قـــرحة أو بثرة تظهر بين الظفر واللحم فينقلع منها الظفر) ويمنع تزيد الأورام الخبيثة من القروح، ويـــسكن وجع الأسنان وأكالها، ويسكن العطش ويدبغ المعدة، ويشهي ويسكن الغثيان، ويحبس الطمث، ويسود الشعر.

وفي هامش الكتاب قال محققه: استعمل أوراقه دباغًا وبذوره تابلاً، وينبت في المرتفعات والجبال.

من الجرد على السد، وينشد ويقول:

إذا غلبت عقلي المدام رأيتني
طريحًا أعنّي جان يداولني لمن أهوى

/[١٨٤/ب] وأصبح مشكور الخصال لأنني
عكيف على حكم الفراق بلا دعوى

فيسقيه إلى أن يطرب ويمثل من السكر رأسه ويغلب.

فيخرج شخص آخر فيقول له المتيم: من أنت أيها الطارق في الليل الغاسق؟ فيقول: وا ويلي إن لم تعرف، أنا سلهب الطفيلي، مفرق شمل الزبادي، وخطّاف اللحم من الأيادي، مسكور حلوى الصحون والعامل بأضراس على الطاحون، ممشمش الدجاج المطجَّن، وذنب الخروف المسمن/ [١٨٥/ أ] الصابر على حرارة الطعام، والمتجلد على ضرب الهام، وقادة الحجاب والخدام، ولاّج الدور، وعالم غيب ما في القدور، غريق الأدهان، ووكال الأوز والدجاج السمان، ذو الكيس المشمع، والبنان المقمع، الذي لا يشبع ولا يقنع، وينشد ويقول:

لا لاَ بطيب الثريد والمرق
والسبقل والخل حين يندفق

ولا أهاب الطعام لو بك من نارٍ
ولو كنت منه احتراق

/[١٨٥/ب] ولوة لم أخف عضة على كبر اللقمة
حتى أكاد أختنق

ولا أهاب الغلمان إن غضبوا
مني وزاد الحديث والحنق

أدك في الدّلق ما أرده
ولو أروح بالدق كله مرق

فيقول له المتيم: فرغ والله الطعام، فهل لك في شيء من المدام؟

فيقول: إيه، فيسقيه إلى أن يصرعه ويرميه.

فيخـــرج شـــخص مهول الشكل زائد في الشرب والأكل، ويصرخ، صرخة عظيمة يـــوقظ النـــيام ويصحيهم من سكرة المدام. فيقول له المتيم من أنت؟ فيقول: أنا ملك المـــوت، الذي لا يفوته فوت مُقصر الآمال، ومكثر المخاوف، ومقرب الآجال وموقف الأعمـــال، الـــذي يذهب به الحال والمال، هادم القصور، ومعمر القبور، ومسلم الولي المالك إلى مهاوي مالك. فيقول المتيم: هل من قبول للتوبة. فيقول: باب التوبة مفتوح، فدونك والتوبة ما دام فيك روح، قبل اختلاسها،/ [١٨٦/ أ] وتعطيل أنفاسها.

فـــيقول المتيم: اللهم يا ذا الجود، ومالك الوجود، أسألك بالحوض المورود، وبالـــرحمة الواســـعة، وبالمغفرة الشاملة الشاسعة، رب إني ظلمت نفسي، وضليت في ظلمـــات حـــسي، ولا يغفـــر الذنوب إلا أنت فاغفر لي ولوالدي، إنك علام الغـــيوب، وغفـــار الذنـــوب، وإليك نتضرع ونتوب، وأشهد أن لا إله إلا أنت، خالقـــي، وغوثـــي وغياثي، ورازقي، وأشهد أن محمدًا عبدك ورسولك، وحبيبك / [١٨٧/ أ] صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وأشـــهد أن الله هو الغفور، وإن الله يبعث من في القبور. ثم يتوجه المتيم للقبلة، ويقضي نحبه، ويلتقـــي بـــربه، وينتبه القوم من النوم. ثم يزول ذلك الحال، ويتفرقون خوف النكال. ثم يحمل المتيم على المغتسل، ويغسل ويكفن ويصلى عليه، ويدفن.

تمت البابة الثالثة بما فيها من كتاب:

«طيف الخيال»

وصلى الله على سيدنا محمد

/ [١٨٧/ ب] نجـــز الكـــتاب المبارك، المعروف بـــ«طيف الخيال» لابن دانيال، بحمـــد الله وعـــونه، وحـــسن توفيقه، غفر الله لكاتبه، ولمالكه ولمن نظر فيه، ولجميع المسلمين وفرغ من كتابته في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر جمادى الأول سنة ثمان وعشرين وثمان مائة.

برسم الخزانة الكريمة العالية المولوية الأميرية الكثيرية الناصرية

سيدي محمد بن الحباب العالي المولوي/ [١٨٨/أ] السيفي طشبغا التمرباي الملكي الأشرفي، أدام الله سعادته، وبلغه من خيري الدنيا والآخرة سؤاله وإرادته بمحمد وآله والحمد لله وحده وصلاته وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه الطاهرين.

والحمد لله رب العالمين..

وحسبنا الله ونعم الوكيل[١].

* * *

(١) قال محققه أبو إسلام سيد بن كسروي بن حسن: وقع الفراغ من تحقيقه يوم عيد الفطر من سنة ١٤٢٧هـ الموافق ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٦م، سائلا الله تعالى العفو والعافية، ومصليًا ومسلمًا على سيدنا رسول الله ﷺ، راجيًا من الله تعالى حسن الختام بالموت على دين الإسلام آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهـــرس المحتويات

رسائل طيف الخيال في الجد والهزل

الكتاب الأول طيـــف الخيـــــال

الكتاب الثاني رســـــالة الطيـــف

الكتاب الثالث رسالة الطيف في الجد والهزل

RASĀᶜIL ṬAYF AL-ḤAYĀL

(Three books in apparition)

by

AI-ŠARĪF AI-MURTAḌĀ

and

BAHĀᵓUDDĪN AL-MUNŠIᵓ

and

MUḤAMMAD IBN DĀNYĀL

Edited by

Sayyid Kisrawi Ḥasan

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamed Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban